

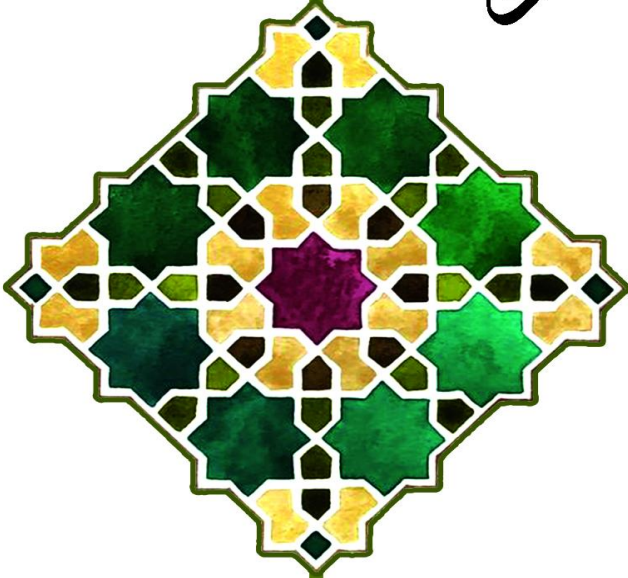
الْمِنْهَجُ الْعَمَّاطِيُّ وَآثَرُهُ فِي دَعْوَاتِ الْأَنْبِيَاءِ

دَعْوَةُ النَّبِيِّ ﷺ أَنْفُورٌ جَدِيدٌ

دراسة وصفية تحليلية

تأليف الدكتورة

مَلِيكَةُ نَزِيك



تقديم

أ. د. يوسف عبد اللاوي

رئيس المجلس العلمي لمعهد العلوم الإسلامية

بجامعة الوادي/الجزائر

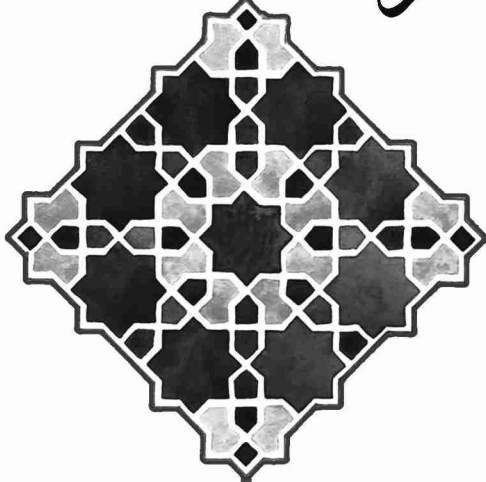
الْمِنْهَجُ الْعَبَّاسِيُّ وَآثَرُهُ فِي دَعْوَاتِ الْأَنْبِيَاءِ

دَعْوَةُ النَّبِيِّ ﷺ أَنْفُوجًا

دراسة وصفية تحليلية

تأليف الدكتورة

مِلِكَة نَزِيك



تقديم

أ. د. يوسف عبد اللاوي

رئيس المجلس العلمي لمعهد العلوم الإسلامية

بجامعة الوادي/ الجزائر

عنوان الكتاب

الْمِنْهَجُ الْعَمَاطِيُّ وَآثَرُهُ فِي دَعْوَاتِ الْأَنْبِيَاءِ

دَعْوَةُ النَّبِيِّ ﷺ أَمْوُجًا

دراسة وصفية تحليلية

تأليف:

مَلِكَةُ مَرْيَمَ

ردمك

ISBN: 978-9931-798-70-5

الإيداع القانوني:

ديسمبر 2021

الطبعة الأولى



أصل الكتاب

أصل الكتاب أطروحة دكتوراه قدّمت إلى معهد العلوم الإسلامية ، قسم أصول الدين ، بجامعة الشهيد حمة لخضر بالوادي ، الجزائر تخصص دعوة وثقافة إسلامية،
نوقشت يوم 2020/02/27م بجامعة الشهيد حمة لخضر بالوادي وأجيزت
بملاحظة مشرف جدًّا.

شكر و تقدير

أتقدم بالشكر الجزيل إلى أستاذي الفاضل الدكتور "يوسف عبد اللاوي" حفظه الله وسدّد خطاه على ما أسداه إليّ من جميلٍ تفضّله بقبول الإشراف على رسالتي وتبنيّ فكرتها ولما منحه إليّ من نصائح وإرشادات وتوجيهات ومتابعتها بأمانة ودقّة وإحكام.

كما أتقدم بالشكر إلى كل من ساندي معنويّاً من قريب أو من بعيد .

إلى أعضاء المجلس العلمي وفريق التكوين التابع للدّفعة الأولى للطّور الثّالث دكتوراه دعوة وثقافة إسلامية بمعهد العلوم الاسلامية .

تقديم

أدرك نبينا ﷺ من الوهلة الأولى للوحي أنه مكلف برسالة عظيمة وقع عليه عبء تبليغها كما جاء في الخطاب الإلهي: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۚ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: 67].

فبذل ﷺ من أجل ذلك جهداً عظيماً تنوء بحمله الجبال الشم الرواسي، فقصد القاصي والداني، والرّفع والوضيع، والمرأة والرجل، والأبيض والأسود، والعربي والعجمي، والغني والفقير، والقوي والضعيف، والشّدِيد والسهل، ودعاهم بلغة الواثق بربه، المشفق على قومه وعموم الناس مؤمنهم وكافرهم مخاطباً إيّاهم بما نزل عليه من الذكر الحكيم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 57].

هذه الموعظة والرحمة والهدى تحتاج إلى حكمة في تبليغها، من حيث الأسلوب والوسائل والمضمون، كما تحتاج إلى حكمة في التعرف على أمثل مناهجها المناسبة للمخاطبين أشخاصاً وزماناً وأحوالاً، فتتنوّع تبعاً لذلك المناهج الدعوية بين العاطفي منها والعقلي والحسّي التجريبي، وفي السيرة النبوية من نماذجها جميعاً.

وقد التمسّت الباحثة الموقفة الدكتورّة زيد مليكة واحداً من أهمّ هذه المناهج لتطبيقها على دعوة النّبي ﷺ وهو المنهج العاطفي، وقصدت للإشراف عليها في أطروحتها المقدمة لنيل درجة الدكتوراه في تخصص "الدعوة والثقافة الإسلامية" الموسومة بـ: (المنهج العاطفي وأثره في دعوات الأنبياء دعوة النّبي ﷺ أنموذجاً - دراسة وصفية تحليلية-) فقدمنا خبرتنا ومعرفتنا نصحا وتوجيها وإرشاداً، وامتزج كل ذلك بجهد مشكور وعمل مبرور وبحث متواصل من الدكتورّة الباحثة، فأثمر كل ذلك رسالة قيمة في بابها.

وقد طوّفت الباحثة في فصول رسالتها بين مختلف متعلقات هذا المنهج، فتحدثت في افتتاح أطروحتها عن المنهج العاطفي ومدى ارتباطه بدعوات الأنبياء عليهم السّلام وعدم انفكاكه عن بقية المناهج الأخرى، ثمّ خصّصت النّبي ﷺ بالحديث عن أساليب المنهج العاطفي في دعوته من الموعظة الحسنة إلى إثارة منابع الرّافة والرحمة إلى أسلوب قضاء الحاجات وتأمين الخدمات.

ثمّ تكلمت عن أصناف المدعووين بالمنهج العاطفي من المسلمين وغير المسلمين وكيف كانت دعوته ﷺ تتنوع حتى داخل الصنف الواحد من المشرك إلى اليهودي إلى المنافق في الصف غير المسلم، وكيف كانت خصوصية الدعوة بهذا المنهج عند فئة الضعفاء من المسلمين.

ثمَّ كان ختام البحث بالحديث عن شمولية المنهج العاطفي في دعوة النبي ﷺ إلى كافة الموضوعات من العقائد إلى التشريع إلى القيم و الأخلاق .

هذا الجهد الكبير الفريد في بابه ثمنته لجنة المناقشة وأشادت به من منطلق كون البحث أخذ بعموم الشروط المطلوبة شكلا ومضمونا ، كما كان بحثها باكورة رسائل الدكتوراه في التخصص المذكور بمعهد العلوم الإسلامية بجامعة الوادي بالجزائر فحازت قصب السبق عن بقية زملائها في الدفعة .

هذا وإنَّني أزكي هذا العمل الجاد والجهد المتميز للطباعة والنشر و التوزيع ، حتَّى يعم نفعه وينشر أثره بين العاملين في حقل الدعوة إلى الله وعموم المهتمين بمثل هذه الأبحاث .

وفق الله تعالى تلميذتنا الباحثة الجادة الدكتورة زيد مليكة في بقية مشوارها العلمي ، وأسأل الله تعالى لها الإخلاص في القول والعمل والبحث العلمي .

أ.د يوسف عبد اللاوي

المشرف على الأطروحة

رئيس المجلس العلمي بمعهد العلوم الإسلامية بجامعة الوادي الجزائر

الوادي في 03 ربيع الأول 1443 هـ

الموافق ل 10 أكتوبر 2021 م

إِنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له ومن يضلل فلا هاديَّ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بدين الهدى ليخرج النَّاس من الظُّلمات إلى النُّور، فأنازل به سبل الخير ودروب الرِّشاد فأَمَات الكفر والضَّلالات ومحا الزَّيغ والهوى وأحيا السُّنن وأَمَات البدع وعلى آله ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

تعتبر الدَّعوة فريضة شرعية ذات مقاصد إنسانية ومضامين اجتماعية ، تصدَّرها الأنبياء عليهم السَّلام بآمالها وآلامها، ولكون هداية البشر مطلباً ربَّانياً جعل الله أنبياءه موكِّلين بهذه المهمَّة فيقول عنهم: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٣٦﴾﴾

[النحل: 36] وقال أيضاً: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ

عَزِيزٌ ﴿٥٥﴾﴾ [الحديد: 25] فاخترهم على رؤوس أقوامهم دعاءً لما يمثّلونه من قدوة وقدره على تحمّل مغارمها ومغانمها، وكيف لا وهم الذين قال في شأنهم تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ

أَقْتَدِهٖ قُلٌ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: 90] ففي قصصهم وسيرهم ودعواتهم عبر وعظات لأولي الألباب، فكانوا نماذج رفيعة وراقية للسُّلوك البشري السَّوي في أعلى مستوياته، وقد نبغ كلُّ نبيٍّ بأسلوبٍ يميّزه عن غيره كتميّز موسى عليه السَّلام في دعوة آل فرعون، وإبراهيم عليه السَّلام في دعوة أبيه، ثمَّ كان النَّبيُّ ﷺ خاتمهم، منحه الله جوانب العظمة كلّها الممكنة في الكيان البشري، فكان نبيّاً ورسولاً وإماماً وقائداً وزوجاً وصديقاً ومصلحاً ومرتباً ومعلماً، بُعث في مجتمع جاهلي قدّم لهم الدِّين بالحكمة والموعظة الحسنة، فكان منهجه - ﷺ - في دعوته أن سلك مسلك الحجّة الواضحة والحكمة والإقناع، فلم يستجب لإيذاء معارضيه وقابل السيئة بالحسنة.

فكانت أوّل خطوة في طريق هذا البحث أن يُعرَفَ مناهج دعوات الأنبياء عليهم السَّلام، وبيان ما نجحوا فيه للوصول بدعوتهم إلى غاية التأثير والاستجابة للحقّ، فكان تاريخهم حافلاً بمواقف ناجحة صنعت نماذج وضيئة يستضيء بها كلُّ داعية على مرّ الأزمنة، وكانت دعوة آخر الأنبياء عليهم السَّلام محمد ﷺ نجمٌ ثابتٌ تصدَّر على مستوى سماء الدَّعوة، منذُ بدء الرِّسالات إلى غاية اليوم،

فحقيق أن يعتنى بالبحث والتنقيب عن خاماته الزاهرة من سيرته العطرة وسنته الملهمة، وأزبد إمطة اللثام عن جانب مهم في حياته ﷺ و هو "منهجه العاطفي في دعوته"، والذي لم يشغل حيّرًا كافيًا في الدّراسات الشّاملة، لذا إرتأيت بعد الإستخارة والإستشارة العلمية أن تكون الدّراسة في هذا الموضوع.

وللتّعريف بموضوع هذا البحث لابدّ من الوقوف على العناصر الآتية:

1- إشكالية الدّراسة

لما كانت الدّعوة إلى الله سبيلاً لإقامة دعائم التّوحيد ونبد الشرك والكفر وإرساء القيم الفاضلة، فإنّ عظم المسؤولية المنوطة بالأنبياء عليهم السّلام تقتضي منهم ضرورة التّحلي بالصّبر والحلم والصدق، فاستخدموا لأجل ذلك مناهج دعوية متعدّدة في تبليغ هذه الرسالة، وكان المنهج العاطفي أحد هذه المناهج المؤثّرة، يركّز أساساً على القلب يحرك الشعور ويثير الوجدان عبر أساليب عاطفية متعدّدة فيها من التّبسيط والبيان واليسر والسّماحة كلّ الاعتبار، وكان النّبي ﷺ موروثاً ضخماً غطّى جوانب هذا الموضوع فتعدّدت مواضع استخدامه لهذا المنهج في تعاملاته وأخلاقه وأحاديثه، فاتّخذ لكلّ موقفٍ أو صنف من المدعوين أساليبه المناسبة للتّأثير، مراعيًا في ذلك عقولهم وعقائدهم ومشاربهم ومداركهم، وإدراكاً لأهمّية هذا المنهج في الدّعوة إلى الله يستدعي ضرورة الاستفادة منه في دعوة النّبي ﷺ وكيف استطاع تجاوز ما اعترضه في دعوته باستخدام هذا المنهج بطريقة مؤثّرة وناجحة وعليه تتحدّد إشكالية البحث في "المنهج العاطفي وأثره في دعوة النّبي ﷺ" بأن يكون مرتركزاً ومنطلقاً لأساليب الدّعوة الإسلامية في هذا العصر، والتي يمكن صياغتها من خلال التّساؤل الرّئيسي على النّحو التّالي :

- ما موقع المنهج العاطفي في دعوة النّبي ﷺ ؟
 - ما أثر المنهج في دعوة النّبي ﷺ ؟
 - كيف استخدم النّبي ﷺ هذا المنهج في إثبات العقيدة و إيضاح الأحكام وتقويم الأخلاق ؟
 - وما مجالات إستفادة الدّاعية المعاصر من هذا المنهج ؟
- ويتفرّع عن التّساؤل الرّئيسي التّساؤلات التّالية :

- ما المقصود بالمنهج العاطفي ؟
- ما هي أساليب المنهج العاطفي وخصائصها في الدّعوة إلى الله عموماً ودعوة النّبي ﷺ على وجه الخصوص؟

- ما هي فضائل المنهج العاطفي الواردة في دعوة النبي ﷺ ؟
 - ما هي مجالات ومعالم المنهج العاطفي في دعوة النبي ﷺ ؟
 - كيف أبرز المنهج العاطفي في دعوة النبي ﷺ ؟
 - من هم أصناف المدعوين بالمنهج العاطفي في دعوة النبي ﷺ ؟
- لذا تعدُّ الإجابة على هذه التساؤلات - ذات الأهمية البالغة - محاولةً كشفٍ عن أصل هذا الموضوع لبلوغ القارئ إلى إثبات المعالم الكبرى لدعوة النبي ﷺ، والوصول به إلى معرفة الطُّرق والأساليب والوسائل الموصولة إلى التأثير والإقناع.

2- أسباب اختيار الموضوع

لقد لمسْتُ الحاجة الماسَّة إلى دراسة هذا الموضوع للإرتباط العاطفي بشخصية النبي ﷺ، والميل الشَّدِيد لمعرفة تفاصيل منهجه الدَّعوي، حيثُ شغلتُ وقتًا كبيرًا من خلال مطالعتي لكتبِ السَّنة المطهَّرة والسَّيرة النبوية العطرة، الزَّاخرة بكنوزِ هائلة من فنون التَّعامل وآداب العلاقات مع النَّاس، فبرز في كلِّ تفاصيل حياته العنصر الأخلاقي المؤثِّر وصور التَّعامل مع كلِّ الأحداث بأنَّجع أسلوب، ودراستي تحظى بالتَّعمُّق في دعوته ﷺ، ولاسيما بالوقوف على أحد المناهج الدَّعوية المؤثِّرة، التي شغلت حيزًا كبيرًا من الأحاديث الواردة والمواقف الدَّالة، ولدعوة النبي ﷺ أساليب عاطفيَّة حكيمة، انعكست على تعاملاته مع المحيطين به، فيها من التَّبسيط والبيان واليسر والسَّماحة كلَّ الاعتبار، حيثُ اتَّخذَ لكلِّ موقفٍ أو صنفٍ من المدعوين أساليبه المناسبة للتَّأثير، مراعيًا في ذلك عقولهم وعقائدهم ومشاربهم ومداركهم كما سيوضِّح ذلك من خلال فصول الدِّراسة المقبلة، ومَّا تقدَّم في بيان نوع الدِّراسة كانت أسباب اختاري لهذا الموضوع كالآتي:

أ- أسباب ذاتية

- من الأهداف والأمنيات أن يكونَ موضوع دراستي خوضًا في بحرِ الفضائل وأكرم الدَّعوات كدعوة النبي ﷺ واكتشاف مواقفه الرَّاقية.
- حُبِّي لرسول الله ﷺ والتَّأثر الشَّدِيد للمواقف التي سمعتها وقرأتها على صفحات الكتب المتخصَّصة والدُّروس الصَّوتية المسجَّلة في سلسلة حلقات حول حياة النبي ﷺ كنت أتابعها.
- الرَّغبة الشَّخصية في دراسة دعوة النبي ﷺ وما يميِّز به من اللِّين والرَّفق والرَّحمة في أسلوبه ومعاملاته.
- إرتباط الدِّراسة بالتَّخصُّص العلمي.

- جدّة الموضوع وإبتكاره وأَنّه في حدود علمي لم يدرس دراسة علميّة متخصصة.

ب- أسباب موضوعية

- أمر الله بمخاطبة المدعوين يثير عواطفهم ويرقق قلوبهم ويفتح أقفالها ويحرك بذرة الإيمان من حيث كونه فطرة والخطاب في الآية : ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا﴾ [طه: 44]، موجّه إلى فرعون الذي غلف قلبه الكبر ، فيكون الّين مفتاحًا لترقيق قلبه لإحياء بذرة الإيمان فيه، تهيئة له لتلقي الخطاب، وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: 83]، إنّ هذا المنهج يتعامل مع الأنواع المختلفة للمدعوين، حيثُ أَنّه يخاطب المسلم فيزداد إيمانًا ويخاطب غير المسلم لإقامة الحجّة عليه، والدّاعية عليه أَن يكون حكيماً في اختيار المواقف والأساليب النّبويّة بما يناسب حال المدعوين ويلائم طباعهم ووجهتهم.
- لقد كانت الفكرة الأساسية لهذه الدّراسة تقديم منهج في الدّعوة من خلال دعوة النّبي ﷺ ومنهجه الرّاقى، لهذا إقتصرتُ على بعض الأحاديث والمواقف والأساليب المستنبطة من منهجه للكشف عن جماليات دعوته ﷺ ورقائقه الدّعوية المتّسمة بالعواطف.
- ضرورة دراسة المنهج العاطفي في دعوة النّبي ﷺ واتّخاذ معلماً سديداً يستعين به الدّعاة في العصر الرّاهن.

3 - أهميّة الدّراسة

- تبرز أهميّة الموضوع في كونه على اتّصالٍ وثيق بالسّيرة النّبوية التي يستطيع من خلالها الدّاعية أن يقدّم الدّلائل المقنعة لقضيّة ما أو واقعة معيّنة، وقد جمعت دعوته ﷺ ثروة قوليّة وفعليّة وعمليّة ضخمة، فقد كان عليه الصّلاة والسّلام يستخدم مناهج دعويّة متعدّدة ومتنوّعة توافق نوعية الموضوع وطبيعة المدعوين منها العقلي والعاطفي والحسّي، وهذه الدّراسة تبرز أحد هذه المناهج التي إستخدمها النّبي ﷺ وكان لها الأثر الكبير في نجاحها متمثّلة في المنهج العاطفي.
- المنهج العاطفي ملازم ومتداخل مع المناهج الأخرى العقلي والحسّي، والتي أحياناً يجمع منهجين في موقف ما.
- الدّعوة تحتاج إلى تحريك القلوب نحو الإيمان، وهذا ما يحتاج إلى خبرة والإستفادة من تجارب الأنبياء بما فيهم النّبي ﷺ تحديداً.

- المنهج العاطفي لما له من تأثير في النفس البشرية يعدُّ أهمَّ عوامل الإقناع والتأثير، وقد أرسى الأنبياء عليهم السَّلام هذا المنهج فكانت ملاً بالمواقف فنجد دعوة النَّبي ﷺ مدرسة لتربية العواطف جنت ثمارها بمجرد الوصول إلى قلوب النَّاس فكانت الإستجابة.
- المنهج العاطفي جدير أن تتوجَّه إليه أقلام الباحثين بالدراسة و التحليل، فقد تضمَّنت نصوص السنَّة والسَّيرة النَّبوية أساليب شتى.
- هذه الدِّراسة تبين جانباً مهماً من جوانب الأساليب الدَّعوية، فهي تعرض نموذجاً مثالياً في استخدام المنهج العاطفي تجسَّدت في شخصية النَّبي مُحَمَّد ﷺ وطريقة تعامله مع كافة أصناف المدعوين المختلفة عقائدهم وأهوائهم فهم يحتاجون إلى هذا المنهج الذي يسوقهم للإيمان بالله تعالى.
- تدعّم هذه الدِّراسة المؤسَّسات التَّربوية والإطارات البشريَّة والمجتمع عمومًا بطريقة استخدام أساليب المنهج العاطفي المستنبطة من سيرة النَّبي ﷺ ومواقفه.
- تكمن أهميَّة هذه الدِّراسة في كثرة المواقف الواردة والتي نالت حظاً وافراً من الأساليب، ممَّا يدلُّ على عمق السنَّة والسَّيرة النَّبوية بالمادة العلميَّة والدَّعويَّة التي تحويها، وسعة هذا المنهج في الدَّعوة إلى الله عمومًا ودعوة النَّبي ﷺ على وجه الخصوص.

4- أهداف الدِّراسة

- سأحاولُ إن شاء الله من خلال هذه الدِّراسة تحقيق الأهداف التَّالية :
- تهدف الدِّراسة إلى بيان الهدي النَّبوي في تحديد طبيعة التعامل مع المدعو لاستمالاته وإقناعه بالرَّأي من خلال الأساليب البارزة للمنهج العاطفي.
- تسليط الضَّوء على دراسة المنهج العاطفي وأثره في دعوة النَّبي ﷺ وبيان كمال دعوته.
- الإسهام في بيان طريقة استخدام المنهج العاطفي في الدَّعوة عمومًا ودعوة النَّبي ﷺ تحديداً، والآثار المترتبة عليه.
- بيان أهميَّة هذا المنهج في دعوة المسلمين وغير المسلمين في زمن النَّبي ﷺ وما يجب أن يكون عليه الدُّعاة في عصرنا الحاضر.

- تزويد طلبة العلم والدعاة بمنهج علمي يوضح طريقاً صحيحاً من طرق الدعوة إلى الله من خلال السنة والسيرة النبوية، لأن الدعوة اليوم أحوج إلى معرفة هذا الطريق لكسب استمالة المدعوين لأحكام وشرائع الدين.
- تسهم الدراسة إن شاء الله في إثراء المكتبة بوجه عام، والمكتبة الحديثية بوجه خاص بدراسة هي أقرب إلى التفسير الموضوعي من زاوية دعوية.
- تهدف الدراسة إلى بيان كمال منهج الإسلام في دعوة الناس من خلال المنهج العاطفي.
- تهدف الدراسة لسدّ ثغرة لم تمل العناية اللازمة من الباحثين، ولم تتوجّه نحوها كتاباتهم كما يجب في تقديري.

5- تحديد مفاهيم الدراسة

يعتبر هذا العنصر تعريفاً بمصطلحات الدراسة، لأنّ التعريف يحدّد مسار العمل ويوضّح موضوع الدراسة، ويضع الباحث والقارئ معاً في جوّ الموضوع وأهمّيته، وهو ما يحرص عليه الباحثون - عند معالجة البحوث والدراسات الأكاديمية - أن يبدؤوا أولى دراساتهم في كلّ فنّ بتعريف الموضوع الذي يُراد دراسته، والمصطلحات الواردة في الدراسات الدعوية عموماً تحتاج إلى تعريف وتحديد، لما له من أهمّية في دراسة علوم الدعوة وأبحاثها، لأنّه يرسم الطريق في الكلمات التي هي عنوان البحث، ولأنّه يفيد في أداء عدّة وظائف هامة منها: ما ذكره عالم الاجتماع روبرت ميرتون^(*) بالقول: (إنّ تحديد المفاهيم الأساسية للبحث يعدّ مسألة مهمّة وحاسمة في البحوث، تساعد على توضيح المعطيات التي تندرج تحت المفهوم وإزالة كثير من الغموض)⁽¹⁾ وحين تأملتُ في عنوان الدراسة وجدت ضرورة الحاجة إلى تعريف مصطلحاته، ليتمكّن القارئ من فهم مركّبات العنوان ودلالاته فيسهلُ عليه - بعد

(*) - روبرت ميرتون: عالم اجتماع أمريكي من رواد النظرية البنائية الوظيفية المعاصرة ولد 1910 وتوفي 2003م، ولد بعد العالم بارسونز بـ 8 سنوات، وعاش بعده ما يقارب 21 سنة، أسهم من خلال جهوده في تطوير الكثير من المفاهيم في البنائية الوظيفية، نال درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد 1936م والتحق ببيئة التدريس في جامعة كولومبيا 1941م، وأصبح أستاذاً بها سنة 1947م (يُنظر: سمير نعيم أحمد، النظرية في علم الاجتماع، دار المعارف، ط5، 1985م)، ص 33. و(بحث النظرية السيسولوجية الحديثة، السنة الثانية علم الاجتماع pdf، 2016/2015، ص 1).

(1) - Merton, R., Social theory and social structure U.S.A, The free press of Glencoe 1951, Page 7.

ذلك - مدارس المضمون بأريحية، وعليه استقرَّ الرأي على أن يُكتفى بذكر ماله علاقة مباشرة بالدراسة، بالتركيز على المصطلحات الأساسية: -المنهج العاطفي كلياً -، - والدعوة إلى الله-.

5-1: مفهوم المنهج العاطفي

يلاحظ أنَّ عبارة "المنهج العاطفي" صفة وموصوف، يتكوَّن من مفردتين "المنهج"، "العاطفة" وللوقوف على المفهوم اللَّقبى لهذا المركَّب لابدَّ أولاً من تعريف لكلِّ واحدٍ من هذه المفردات من النَّاحية اللُّغوية والاصطلاحية.

أ- مفهوم المنهج

كلمة "المنهج" من المصطلحات التي نشأت في الآونة الأخيرة، تتردَّد بكثرة على ألسنة كثيرة، فنسمع مثلاً: مناهج التَّعليم، وفي مجال آخر كقول: منهج المؤلِّف أو الباحث في كتابه أو رسالته العلميَّة، وكذلك ما يعرف بالمنهج التَّجريبي وغيرها من مناهج البحث العلمي، ومن خلال هذه النَّافذة سأحاول تسليط الضَّوء على هذا المصطلح المعاصر في مجال الدَّعوة بقدر من الطَّاقة والجهد انطلاقاً من المفهوم اللُّغوي وهو كالآتي :

- لغة

- يعرفه العلامة ابنُ منظور في "لسان العرب" بالقول: (المنهاج كالمناهج، ويعني الطَّريق البَيِّن الواضح، يقال: أُنْهَجَ الطَّريق إذا وُضِحَ واستَبان وصار نَهْجاً بَيِّناً، يقول الشَّاعر يزيد بنُ حذاق العبدي: (ولقد أضاء لك الطَّريق وأنْهجت سبل المكارم والهدى، تعدى، أي: تعين وتقوى)⁽¹⁾.

- اصطلاحاً

تعدَّدت مفاهيم "المنهج" من النَّاحية الإصطلاحية وتنوَّعت من حيث العلوم والتَّخصُّصات، كتب فيه كثير من الباحثين والمفكرين والدُّعاة والعلماء، فكانت المفاهيم متقاربة ومتوحدة يمكن إيجاز بعض ما كتبه أهل الاختصاص كالآتي :

• اجتهد خبراء مناهج وأصول البحث العلمي في وضع تعاريف للمنهج منها :

- عرَّفه الدُّكتور عبد الرَّحمان بدوي صاحب الكتاب المشهور "مناهج البحث العلمي" بالقول: (المنهج هو الطَّريق المؤدِّي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامَّة

(1) - بتصرُّف، ابنُ منظور، لسان العرب، مادة نهج (بيروت: دار إحياء الثَّراث العربي، ط2، ج14، 1418هـ)، ص- ص300،

- التي تهيمُ على سير العقل وتحدّد عملياته حتّى يصل إلى نتيجة معلومة⁽¹⁾ ويضيف قائلاً: (يقول علماء المناهج إنّ كلمة المنهج لم تأخذ المعنى الاصطلاحي إلّا في القرن 17 ميلادي)⁽²⁾.
- ويقول الدكتور طلعت همام مشيراً إلى أنّ المناهج تختلف باختلاف العلوم قائلاً: (وتبعاً لاختلاف العلوم تختلف المناهج)⁽³⁾.
- وعرّفه الدكتور أحمد بدر في كتابه "أصول البحث العلمي ومناهجه" بالقول: (هو العلم الذي يبحث في الطّريق التي يستخدمها الباحث لدراسة المشكلة والوصول إلى الحقيقة)⁽⁴⁾.
- وعرّفه الدكتور علي سامي النشار في كتابه "نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام" بالقول: (هو طريق البحث عن الحقيقة في أيّ علم من العلوم أو في أيّ نطاق من نطاقات المعرفة الإنسانية)⁽⁵⁾.
- ويعرّف المنهج الدكتور محمّد زيان عمر في كتابه "البحث العلمي" بالقول: (وقد حدّد العلماء المنهج بأنّه فنّ التّنظيم الصّحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، إمّا من أجل الكشف عن حقيقة مجهولة لديّنا أو من أجل البرهنة عن حقيقة لا يعرفها الآخرون)⁽⁶⁾، فالمنشغلون بمناهج البحث العلمي صنّفوا المناهج بتصنيفات مختلفة، لا يتفقون على تصنيفات محدّدة وربّما يرجع بعضهم إلى تبنيّ مناهج نموذجيّة رئيسيّة واعتبار المناهج الأخرى جزئيّة أو فرعيّة من المناهج النّمودجيّة، وقد وضع أحد علماء المناهج تصنيفات للمناهج ما يلي: الوصفي والتّاريخي والتّجريبي وقد اتّفق معه البعض إلّا أنّه أضافوا مناهج أخرى المنهج الأنثروبولوجي والفلسفي، وقسم الدكتور عبد الرّحمان بدوي في كتابه "مناهج البحث العلمي" إلى ثلاثة الاستدلالي والإستردادي والتّجريبي، وأضاف محمّد طلعت عيسى أنواع أخرى عن الذي حدّدها عبد الرّحمان البدوي وهي الإحصائي والمقارن والمسح الاجتماعي⁽⁷⁾.

(1) - عبد الرّحمان بدوي، مناهج البحث العلمي (الكويت: وكالة المطبوعات، ط3، 1977م)، ص 5.

(2) - المرجع نفسه، ص 5.

(3) - طلعت همام، سين وجيم عن مناهج البحث العلمي (بيروت: مؤسّسة الرّسالة، ط1، 1404هـ)، ص 6.

(4) - أحمد بدر، أصول البحث العلمي ومناهجه (الكويت: وكالة المطبوعات عبد الله حرمي، 1992م)، ص 32.

(5) - علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (القاهرة: دار المعارف، ط9، ج1، د، ت)، ص 36، وفريد الأنصاري، أجيديات البحث في العلوم الإسلامية (الدّار البيضاء: منشورات الفرقان، مطبعة النّجاح، ط1، 1997م)، ص 50.

(6) - المرجع نفسه، ص 50.

(7) - أحمد بدر، أصول البحث العلمي، المرجع السّابق، ص- ص 233، 239.

- تعريف المنهج عند الباحثين والدعاة في علم الدعوة فقد عرفوا المنهج بالتعريفات الآتية :
 - عرّفه الدكتور محمد أبو الفتح البيانوني في كتابه "المدخل إلى علم الدعوة" بالقول: (يمكن تعريف المنهج والمنهاج في الاصطلاح بأنه النظام والخطّة المرسومة للشيء)⁽¹⁾.
 - ويعرّفه الدكتور علي جريشة في كتابه "مناهج الدعوة وأساليبها" بالقول: (وهو عندنا الخطّة أو التخطيط اللازم لشيء ما)⁽²⁾.
 - وذكر الدكتور عبد الهادي الفضلي المنهج بالقول: (هو الطريقة التي يتبعها العلماء في وضع قواعد العلم وفي إستنتاج معارف على ضوء تلك القواعد)⁽³⁾.
 - وعرّفه الدكتور الشنقيطي بالقول: (بأنه خطوات منظّمة يتّخذها الباحث لمعالجة مسألة أو أكثر يتبعها للوصول إلى النتيجة)⁽⁴⁾.
 - وذكر صاحب كتاب "المنهج النبوي" الدكتور برغوث عبد العزيز المنهج بقوله: (هو وعي على كيفية إنجاز عمل ما، وفهم الطريق للوصول إلى غرض مطلوب وفق ترتيبات واضحة ومنظّمة)⁽⁵⁾.
 - ووفقاً لرؤية بعض الباحثين كما هو مبين في كتاب "فقه الدعوة" ل: الدكتور بسّام العموش المنهج: (هو رؤية واضحة متكاملة الأسس والأبعاد، تنطلق هذه الرؤية من تصوّر مذهبي متجانس لا يقتصر على الأمور بل يحاول أن يربطها ببعضها البعض بطريقة تبدو للمطلّع منسّقة ومتّزنة ومرتبّة، أو هو رؤية كلّية تحاكي التفاصيل باعتبارها أجزاء من الكل)⁽⁶⁾ وعلى غرار المفاهيم اللغوية والاصطلاحية السالفة الذكر للمنهج تبين أنّ معناه يدور حول الطريقة أو الطريق في أكثرها ، وبما أنّ الدّراسة بصدد الحديث عن المنهج في الدّعوة إلى الله فينبغي أن يكون تعريف المنهج له صلة بعلم الدعوة، وبالرجوع إلى كتاب الدكتور محمد أبو الفتح البيانوني الذي أضاف

(1) - محمد أبو الفتح البيانوني، المدخل في علم الدعوة (بيروت: مؤسّسة الرّسالة، ط3، 1415هـ/1995م)، ص 45.

(2) - علي جريشة، مناهج الدعوة وأساليبها (المنصورة: دار الوفاء، ط1، 1407هـ/1986م)، ص 16.

(3) - عبد الهادي الفضلي، خلاصة المنطق (مطبعة الأدب، ط1، 1385هـ)، ص 123.

(4) - محمد بن سيدي بن الحبيب الشنقيطي، منهج الرّسول ﷺ في دعوة أهل الكتاب (جدة: دار القبله للثقافة الإسلامية، ط1، 1413هـ/1992م)، ص 17.

(5) - برغوث عبد العزيز مبارك، المنهج النبوي والتّغيير (قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط1، 1415هـ/1995م)، ص 80.

(6) - بسّام العموش، فقه الدعوة (الأردن: دار النَّفائس للنّشر والتّوزيع، ط1، 2005م)، ص-ص 173، 174.

لكلمة منهاج مصطلح الدَّعوة أطلق عليها "بمناهج الدَّعوة" والتي عرَّفها بالقول أنَّها: (نظم الدَّعوة وخططها المرسومة لها من حيث واضعها وموضعها وطبيعتها وركائزها)⁽¹⁾ ومن خلال ما سبق بعد عرض المعاني الإصطلاحية عند علماء المناهج وأصول البحث العلمي، وجدتُ تقارباً في معناها عند علماء الدَّعوة، إذ جميعهم يشتركون في أنَّها: "الطَّريق الواضح"، "التخطيط" فكلتاها مكَّمة لبعضهما البعض، فالتخطيط يساعد في اختيار طرق الدَّعوة المناسبة والملائمة لكلِّ داعية بحسب قدراته وإمكاناته والمتوافقة مع طبيعة الأهداف المرسومة لها.

• مفهوم المنهج في دعوة النَّبي ﷺ

مفهوم المنهج في دعوة النَّبي ﷺ حسب ما وضعه الدكتور الطَّيِّب برغوث في دراسة حول "منهج النَّبي ﷺ في حماية الدَّعوة" بأنَّه: (الكيفيَّات العمليَّة المنظَّمة التي كان النَّبي ﷺ يعرض بها الإسلام على النَّاس، ويواجه بها مشكلات الواقع والدَّعوة، ويحرِّك بواسطتها الأحداث من حوله بما يضمن حماية المحتوى الرِّسالي لدعوته، ويحافظ على منجزاتها ويحقِّق أهدافها في الخلق)⁽²⁾ وقد وضع الدكتور سليمان بُنْ قاسم العيد تعريفاً للمنهاج النَّبوي في الدَّعوة إلى الله تعالى بالقول: (هو الطَّريق الواضح السَّهل الذي سلكه النَّبي ﷺ في دعوته، وقد حرص النَّبي ﷺ أن يسير صحابته على منهاجه، فرسم لهم المنهاج ووضَّح لهم الطَّريق وأمرهم باتباعه)⁽³⁾ ومن خلال تتبُّعي للفظه "منهج" أو "منهاج" في المعاجم والقواميس تبَيَّن أنَّها وَرَدَتْ بمعنى: الطَّريق الواضح، مثلما ثبت دليلها من القرآن الكريم والسَّنة النَّبوية.

ب- مفهوم العاطفة

يتبادرُ إلى أذهان الكثير مفهوم العاطفة على أنَّه الحبُّ وما تحمل هذه المفردة من صورٍ دلاليَّة ذهنيَّة، إلَّا أنَّ الباحثين وعلماء النَّفس حصروها بمفهوم المشاعر والدَّوافع والإنفعالات، ولكن مفهومها في الإسلام حسب ما تُبيِّنُه الآيات والأحاديث شملت صفات ودلالاتٍ كثيرةً للجانب العاطفي. ولزيادة بيان مفهوم العاطفة يأتي تفصيل لمعناها اللُّغوي والإصطلاحي كالآتي :

(1) - محمَّد أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدَّعوة، المرجع السَّابق، ص 195.

(2) - الطَّيِّب برغوث، منهج النَّبي ﷺ في حماية الدَّعوة والحفاظة على منجزاتها خلال الفترة المكيَّة (المعهد العالي للفكر الإسلامي، 1996م)، ص 69.

(3) - سليمان بن قاسم العيد، المنهاج النَّبوي في دعوة الشُّباب، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمَّد بن سعود، كليَّة الدعوة والإعلام، قسم الدَّعوة والإحتساب، 1411هـ/1991م، ص 1.

- لغة

- لفظة العاطفة في اللغة جاءت متعدّدة وكثيرة، إلّا أنّي إقتصرتُ على بعضها :
- عرّفها العلامة ابنُ منظور في "لسان العرب" بالقول: (العطف لغة: نقول عَطَفَ يَعْطِفُ عَطْفًا، انصرف، رجل عاطفٌ وعطُوفٌ عائد بفضلِه حسن الخلق)⁽¹⁾.
- ويعرّفها عالم اللغة لويس معلوف في "المنجد في اللغة" بالقول: (العاطفة هي بمعنى الشفقة)⁽²⁾. وكلمة العطف لها دلالات كثيرة منها: الرّأفة/ الرّحمة/ اللّطف/ الشّفقة/ الرّقّة/ طيب الكلام/ العفو/ الصفح/ الإحسان/ مساعدة المحتاج/ التّسامح/ الإخاء/ التّواصل/ البشاشة/ البشّر/ المواساة/ العشق/ الشّوق/ الموالاة)⁽³⁾... وهذه الصّفات من أنبل وأثمن صفات الكمال التي يتّصف بها الأنبياء عليهم السّلام والنّبي ﷺ خاصّة، كان لها أثر كبير في نجاح دعوته ﷺ، فجعلها الصّحابة رضوان الله عليهم والتّابعين من بعده دعامة لمنابر الدّعوة على مرّ الأزمان.

- اصطلاحاً

نظرًا لتعدّد المفاهيم الإصطلاحية للعاطفة، والتي تتباين ما بين الشّعور والأحاسيس والدّوافع، كان لها وجودٌ في القرآن والسنة المطهّرة من حيث المفهوم والأصالة، وقد عرّفت العاطفة عند ثلّة من علماء النّفس وأصحاب الفكر بتعريفات شتى وهي كالآتي :

• عند علماء النّفس

كان لموضوع العاطفة جانب مهمّ في العلوم النّفسية فخصّصوا لها دراسات وأبواب و مباحث و وضعوا لها تعريفات عديدة منها :

- العاطفة إستعداد نفسي ينزع بصاحبه إلى الشّعور بانفعالات معيّنة والقيام بسلوك خاص حيال فكرة أو شيء⁽⁴⁾ والعاطفة تجمع عدّة إنفعالات ،وانتظامها وتركزها حول موضوع معيّن ،أو هي نوع

(1) - ابنُ منظور، لسان العرب، مادة عطف، ج9، المصدر السّابق، ص 268.

(2) - لويس معلوف اليسوعي، المنجد في اللغة العربية والأدب والعلوم، مادة عطف (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ط18، 1956م)، ص 513.

(3) - جاسم حسين المشرف، العاطفة كالماء، مقارنة سيكولوجية فنية في العاطفة وتداعياتها (دار الفكر العربي، ط1، 2012م)، ص 13.

(4) - يحيى الرخاوي، الأساس في الطبّ النّفسي ملف الوجدان واضطرابات العواطف، الفصل الخامس، إصدارات مؤسّسة العلوم النّفسية العربية، 2015م، ص 18.

من الإستعداد العقلي المكتسب يرتبط بموضوع خاص ويدفع الإنسان إلى القيام بأنواع من السلوك ترتبط بهذا الموضوع، ولل عاطفة أثر كبير على السلوك ف عاطفة الشفقة هي التي تدفعه إلى مساعدة الفقراء، و عاطفة الصداقة تدفعه إلى التعاون واختلاف الناس في سلوكهم هو نتيجة لتباين عواطفهم⁽¹⁾.

- وعرفها الدكتور معروف زريق في كتابه "علم النفس الإسلامي" بالقول: (ال عاطفة هي دافع تبلور حول موضوع معين جعل صاحبه يحس ببعض المشاعر تجاهه مركزاً على فكرة ثابتة ومؤدياً لسلوك معين بحيث يشكل شخصيته، ويحدد سلوكه، ويطبع حياته بطابع خاص)⁽²⁾.

- ال عاطفة ترجع إلى التجارب الذاتية إلى ما يشعر به الفرد وما يحس به في كل تصرف، فهي إذاً تتعلق بمجالات المشاعر والأحاسيس وتضم حالات إنفعالية مختلفة قد تكون ممتعة أو مؤلمة⁽³⁾.

- وفي تعريف آخر لها هي: (شعور أليم أو سائر ثابت مستقر في أعماق النفس حول شيء معين، كما رآته العين أو سمعته الأذن أو خطر على بال صاحبه ذلك الشعور السار أو المؤلم)، وقيل هي كل ما يعطف بالمرء ويميله إلى عمل فيه بلغة لما تنزع إليه نفسه، كعاطفة الغضب والكرم وغير ذلك، وهي ذات أثر بالغ في حياة المرء وقد تتحكم فيه بالكلية ما لم يضبطها، وال عاطفة شعور داخلي لا يظهر للعيان وإنما تظهره آثاره، يذكره الدكتور جاسم حسين المشرف في "كتابه ال عاطفة كالماء" بالقول: (إنَّ ال عاطفة كالقطرة... مشاعر... يهتزُّ بها القلب لا يعرف كنهها لكن ترى نتائجها)⁽⁴⁾ وقد كان لموضوع ال عاطفة وجودٌ ووصفٌ دقيقٌ في القرآن والسنة العطرة، فعن الثَّمان بنِ البشير ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «تُرى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحمَّى»⁽⁵⁾ أمَّا علماء الإسلام لم يطلقوا عليها بهذا الاسم، بل كانوا يسمونها الميل أو الحب أو العشق أو الهوى، يذكر الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله في كتابه "إحياء علوم الدين" يعرف الحب فيقول: (إذ المحبة عبارة عن ميل النفس إلى الشيء الموافق، ثم قال:

(1) - كامل محمد عويضة، علم نفس الشخصية (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1416هـ/1996م)، ص 139.

(2) - معروف زريق، علم النفس الإسلامي (دمشق: دار المعرفة، 1408هـ/1989م)، ص 60.

(3) - لوشاخي فريدة، دراسة أحلام الأطفال في ظل الحرمان الوالدي، شهادة الدكتوراه علوم في علم النفس العيادي، جامعة منتوري قسنطينة، قسم علم النفس وعلوم التربية والأرطوفونيا، 2010/2009م، ص 88.

(4) - جاسم حسي المشرف، ال عاطفة كالماء، المرجع السابق، ص 30.

(5) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة النَّاس والبهائم، رقم حديث 6011، ص 748.

قد بينّا أنّ الإحسان موافق للنفس والجمال موافق أيضاً وأنّ الجمال والإحسان تارة يدرك بالبصر، وتارة يدرك بالبصيرة، والحبُّ يتبع كل واحد منهما، وكما عرف العشق بأنّه عبارة عن الميل الغالي المفرط يقصد به ميل النفس⁽¹⁾ أمّا الهوى فقد عرّفه الإمام ابنُ الجوزي رحمه الله بالقول: (بأنّه ميل الطّبع إلى ما يلائمه)⁽²⁾ وقال: (أنّه أكثر ما يستعمل في الحبِّ المذموم)⁽³⁾ ولأهميّة العاطفة في حياة الدّاعية إلى الله، فإنّ الإسلام عدّ العاطفة جزءاً أصلاً في إيمانه لا يكتمل إلّا به ولا ينمو إلّا بنمائه، فالحبُّ في الله والبغض في الله من أرقى درجات الإيمان، يقول الدُّكتور عبد الله علوان رحمه الله معلّقاً على "صاحب العاطفة الإيمانية" ممّن جمعت فيهم خصلة العاطفة مع الإيمان فيقول: (إذا خطب أو تحدّث أو دعا إلى الله رأيت الإيمان يبرق من خلال عينيه، والإخلاص يشرق من تقاسيم وجهه، والصّدق يتدفّق من حنان صوته وخشوع لهجته وإشارة يده، بل كلامه يسري في القلوب، ويبدّد ظلام النفوس كما يسري الماء القراح البارد في النفوس العطشى، وكما يبدّد النّور السّاطع موجات الظّلام، أولئك الذين هداهم الله فبهداهم يهتدي الخلق وبدعوهم يستجيب النّاس بموعظتهم تحفّق القلوب وتذرف العيون، وتذكيرهم يتوب العاصي ويهتدي الضّال)⁽⁴⁾.

مفهوم العاطفة عند علماء الإسلام في العصر الحديث

– عرّفها الدُّكتور محمّد السيّد الوكيل في "كتابه تقنين الدّعوة ومراحلها ومناهجها" بالقول: (العاطفة هي القوى الباطنة التي يدرك بها الإنسان ما لا يدركه شيء من الحواس كالخوف، والحزن، والفرح والرّغبة، والرّغبة، فهذه أمور يدركها المرء بوجدانه، ويشعر بها في قرارة نفسه دون أن يلمسها بإحدى حواسه، ولا يعارض ذلك ظهور آثار الخوف والحزن والفرح والغضب والرّضا، وبهذا تكون العاطفة حاسّة سادسة في الإنسان فكما أنّ الحواس الخمسة تترك الإنسان متأثراً بما تحسّه من الجمال والقبح والحرارة والبرودة، فكذلك العاطفة تترك في الإنسان أثراً بالانفعالات التي يتأثّر نحوها)⁽⁵⁾.

(1) – يُنظَر: أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدّين (بيروت: دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنّشر والتّوزيع، ط1، مج1، 1418هـ/1998م)، ص 421.

(2) – ابنُ الجوزي، ذمّ الهوى، تحقيق: خالد عبد اللّطيف (بيروت: دار الكتاب العربي، ط2، 1419هـ)، ص 35.

(3) – المرجع نفسه، ص 36.

(4) – عبد الله ناصح علوان، روحانية الداعية (دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط4، مج1، 2013م)، ص 94.

(5) – محمّد السيّد الوكيل، تقنين الدّعوة ومراحلها ومناهجها (دار المجتمع للنّشر والتّوزيع، ط1، 1414هـ/1994م)، ص

- ويعرّف محمّد موسى الشّريف العاطفة الإيمانية في كتابه "العاطفة الإيمانية في الأعمال الإسلامية" بالقول: (ما يحمل على جميل التّأثّر، وحسن التّجاوب، وقوّة الانطلاق، وعظم التّأثير الإيماني، فمن جُبِلَ على هذا فيا حُسن ما جُبِلَ عليه، وليس المراد تلك العاطفة الهوجاء التي تعمي وتصم وتحملُ صاحبها على التسرّع وعدم التّبصّر في العواقب، وإلى ارتكاب ما يندم عليه بعد ذلك أشدّ الندم)¹.

- ويذكر الشّيخ الغزالي رحمه الله في تعريفه للعاطفة في كتابه "الجنب العاطفي في الإسلام": (وأيّ عاطفة لا يصحبها تفصيل صحيح لأصول الإسلام وفروعه وعمل تامّ بها، فليس لها عند الله وزن، وصدق العاطفة ليس عذراً للخلط العلمي ولا للقول في دين الله بالهوى والرّأي، فإنّ الإسلام ينابيع معروفة محصورة تؤخذ أحكامه منها وحدها، ولا يؤذن لبشر التّزيد عليها أو الانتقاص منها)⁽²⁾.

وعلى غرار ما سبق تبين مفهوم العاطفة عند علماء الإسلام وعلماء النّفس متطابق من حيث المعنى في كونها تمثّل المشاعر والأحاسيس والميول والاستعدادات النّفسية والقوى الباطنة التي لا يعرف عنها كما أشار إليها بعضهم.

ج : مفهوم المنهج العاطفي

اتّفق منظّرو الدّعوة على أنّ الدّعوة إلى الله تعتمد على مناهج علميّة دقيقة مستوحاة من التّوجيهات الإلهية والتّبويّة، فذكروا المنهج العقلي والحسّي والعاطفي، وهذا الأخير -المنهج العاطفي- معنيّ بالدراسة يمثّل إنسجاماً مع طبيعة الإنسان العاطفيّة، وعندما نلاحظ التّوجيه القرآني للنبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْكَ اللَّهُ فَعَلْهُ لَبِئْسَ مَا كَانُ يَفْعَلُ﴾ [آل عمران: 159] نستوحي أنّ صاحب الدّعوة يجب أن يستمدّ عطفه ورحمته من خالقه فيترجمها على أرض ميدان الدّعوة، لئنا يحركّ العواطف، وهمسة تثير الأحاسيس، ومسحة تمسّ المشاعر، وعليه لم أقف في حدود الإطلاع على تعريف المنهج العاطفي في مصدرٍ أو مرجعٍ عدا تعريف الدكتور محمّد أبو الفتح البيانوني في "كتابه المدخل إلى علم الدّعوة" وهو كالآتي: (هو النّظام الدّعوي الذي يركّز على القلب ويحركّ الشّعور والوجدان⁽³⁾)، ويحركّ المشاعر في النّفس لكلّ جوانب الخير، ويدفع بالعواطف والأحاسيس إلى الصّدق وحسن التّوجّه إلى الله تعالى، وتعميق أواصر المحبّة لله ولرسوله وللمؤمنين، وهذا المنهج عميق الصّلة، وثيق التّرابط بكلّ من المنهج

(1) - محمّد موسى الشّريف، العاطفة الإيمانية وأهمّيّتها في الأعمال الإسلامية، المرجع السّابق، ص 8.

(2) - محمّد الغزالي، الجنب العاطفي في الإسلام، المرجع السّابق، ص 10.

(3) - محمّد أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدّعوة، المرجع السّابق، ص 304.

الحسِّي والعقلي⁽¹⁾ يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 78] فالأفئدة هي القلوب، مركز المشاعر ومنبع العواطف ومستقرُّ الأحاسيس، وهناك تعريف آخر له حسب ما ذكره الباحث أحمد بن أحمد بن علي العامري في دراسته للمنهج العاطفي بآئه: (مجموعة الأساليب الوجدانية التي تركز على القلب، وتحرك الشعور والوجدان أثناء تقديم الحقائق الدعوية وفق الكتاب والسنة)⁽²⁾ وبمحاولة الرِّبط بين هذه المفاهيم السَّالفة الذكر يتَّضح أنَّ المنهج العاطفي في الدَّعوة إلى الله يقوم على تحريك الشعور والأحاسيس، وعلى التأثير والإنفعال، وإثارة كوامن الحسِّ وخبايا النفس من رحمة ورأفة وشفقة ولين، وهذا يتطلَّب من الدَّاعية إلى الله أن يعرف طبيعة المدعوين، وأن يدرس أحوالهم العقلية والنفسية وظروفهم الاجتماعية، وأن يقف على أساليب الإقناع المثلى

5-2 : مفهوم الدَّعوة

إنَّ علاقة الدَّعوة بسيرة النَّبي ﷺ علاقة إرتباط وثيقة يستلهم منها الدَّاعية أساليب شتى تتناسب مع مُدْهَمَّات الأحداث، كما أنَّ في سير الأعلام والأنبياء -عليهم السَّلام- نماذج رفيعة تترَّبَع على أرضية زاخرة قد يستنجد بها الدَّاعية ما أُشْكِلَ عليه، وهي النِّماذج العملية للدَّعوة، وبناء على هذا تحتلُّ الدَّعوة مركزاً مرموقاً في الدِّراسات الحديثة يستوجب التَّطَرُّق إلى معرفة مكنوناتها وتعريفها وهي كالآتي :

أ- لغة

- يعرفها العلامة الرَّازي في "مختار الصَّحاح" بالقول: (من الفعل دَعَا والدَّعوة بالفتح: يقال: كنَّا في دعوة فلان ومدعاة فلان وهو مصدر، والمراد بهما الدُّعاء إلى الطَّعام، والدَّعوة من الدُّعاء، ومنه دَاعِيَةُ اللَّبَنِ: مَا يُتْرَكُ فِي الضَّرْعِ لِيَدْعُو مَا بَعْدَهُ)⁽³⁾ ويضيف الفيومي في "المصباح المنير" بالقول: (والجمع دعاة

(1) - أصول الدَّعوة و طرقها 2، مناهج الدَّعوة، جامعة المدينة العالمية، جامعة المدينة، كود المادة، IDWH3033، ج1، ص 215.

(2) - حامد بن أحمد بن علي العامري، الدَّعوة إلى الله بالمنهج العاطفي في القرآن الكريم والسنة المطهَّرة، رسالة مقدَّمة لنيل شهادة دكتوراه في الدَّعوة والإحتساب، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كَلِيَّة الدَّعوة والإعلام، ج1، 1422هـ / 1423هـ، ص 63.

(3) - أبو بكر الرَّازي، مختار الصَّحاح، تحقيق: محمَّد أبي ترتيب محمود خاطر، مادة دعا (بيروت: مكتبة لبنان، ط1، 1376هـ / 1957م)، ص 86.

وداعون⁽¹⁾ ويعرفها أبو الحسين أحمد بن زكريا في "معجم مقاييس اللغة" بالقول: (الدال والعين والحرف المعتل أصل واحد، وهو أن يُميل الشيء إليك بصوت وكلام منك، تقول: دعوت أدعو دعاءً، ومنه داعية اللبن: ما يترك في الضرع ليدعو ما بعده)⁽²⁾ ومن المعاني اللغوية التي وقفت عليها لمصطلح الدعوة :

- **الإستعانة:** يقال أدع المسلمين أي: إستغث بهم ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 23] أي: إستغيثوا بأهتكم⁽³⁾.

- **العبادة والدعاء**⁽⁴⁾ جاء هذا المعنى لكلمة الدعاء في حديث رسول الله ﷺ الذي رواه الثعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «الدعاء هو العبادة»⁽⁵⁾ وقرأ الآية: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60].

- **الحث على الشيء والسوق إليه، كقولك دعاه إلى الأمير إذا ساقه إليه أو حثه للذهاب إليه**⁽⁶⁾.

- **النداء:** يقال دعا الرجل دعوا ودُعَاء أي: ناداه، ودَعَوْتَ فلاناً أي: صِحت به واستدعيت، ودعا فلاناً صاح به وناداه⁽⁷⁾، والذي يؤدّن وينادي الناس للصلاة يسمّى داعي الله، والنبي ﷺ داعي الخلق إلى التوحيد، قال تعالى: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: 31].

(1) - الفيومي، المصباح المنير، مادة دعوت (بيروت: مكتبة لبنان، 1407هـ/1987م)، ص 74.

(2) - أبو الحسين أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبد السلام هارون، مادة دعو (إيران: دار الكتب العلمية، ج2، د، ت)، ص- ص 279، 282.

(3) - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مج1، المصدر السابق، ص 152.

(4) - الفيومي المقرئ، المصباح المنير، المصدر السابق، ص 74.

(5) - أخرجه الترمذي في سننه الجامع الكبير، تحقيق: بشار عواد معروف، كتاب الدعوات، باب منه 3، رقم الحديث 3372 (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1996م)، ص 386.

(6) - ابن منظور، لسان العرب، مادة دعا (بيروت: دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، ط 3، ج4، 1419 هـ/ 1999م)، ص395.

(7) - الفيروز آبادي، القاموس المحيط (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط3، 1310هـ)، ص 104.

ب- اصطلاحاً

مفهوم الدَّعوة في الاصطلاح كموضوع ومنهج من أوسع المفاهيم التي تناولها الباحثون والعلماء والمفكِّرون، مختلفة الألفاظ والصِّيغ ومتقاربة جدًّا من حيث المعنى، فجميعها تدور في فلك التَّبليغ، تستمدُّ شموليتها من شمولية الرِّسالة الخاتمة على صاحبها عليه أفضل الصَّلَاة وأزكى التَّسليم. ولتحديد المفهوم الاصطلاحي للدَّعوة جزَّأها إلى ثلاثة معاني :

- مِنْ حَيْثُ الْإِعْلَامُ وَالتَّبْلِيغُ

فالدَّعوة هي البلاغ والنَّشر⁽¹⁾، وحثُّ البشرية على الإيمان بالله وحده وإفراده بالعبودية والطَّاعة فيما أمر والانتفاء عمَّا نهى، بفعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه.

- ويعرِّفها شيخ الإسلام ابنُ تيمية رحمه الله بالقول: (هي الدَّعوة إلى الإيمان به وبما جاءت به رسله، بتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا به، وذلك يتضمَّن الدَّعوة إلى الشَّهادتين، وإقام الصَّلَاة، وإيتاء الزَّكاة، وصوم رمضان، وحجِّ البيت، والدَّعوة إلى الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشرِّه، والعبد والدَّعوة أن يعبد ربَّه كأنَّه يراه)⁽²⁾ هذا التعريف نجدُه مطابقاً لما جاء في حديث عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه الذي سأل فيه جبريل النَّبي ﷺ عن الإسلام والإيمان، حيث يتضمَّن أصول الدَّعوة الإسلامية التي أشار إليها محمَّد أمين حسن وهي التَّوحيد والشَّريعة والإحسان⁽³⁾، ويصوِّرها جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه عندما وقف أمام النَّجاشي فقال: «أيُّها الملك، كنَّا قومًا أهل جاهليَّة ... حتَّى بعث الله إلينا رسولاً منَّا، نعرفُ نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحِّده ونعبُدَه، ونخلع ما كنَّا نعبدُ نحنُ وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرَّحم، وحسن الجوار، والكفِّ عن المحارم، ونهانا عن الفواحش»⁽⁴⁾. وبعد أن عرض الصَّحابي رضي الله عنه لصورة الجاهلية الأولى، أخذ في عرض صورة الإسلام التي جاء بها النَّبي ﷺ.

(1) - أحمد أحمد غلوش، الدَّعوة الإسلامية (القاهرة: دار الكتب المصري، ط2، 1407هـ/1987م)، ص 12.

(2) - ابنُ تيمية، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابنُ تيمية (المملكة العربية السُّعودية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، د، ط، مج 15، 1425هـ/2004م)، ص 157.

(3) - محمَّد أمين حسن محمَّد بني عامر، من فقه الدَّعوة أساليب الدَّعوة والإرشاد (الدَّعوة، الدَّاعية، المدعو) (جامعة اليرموك، 1999م)، ص 5.

(4) - سيرة ابنُ هشام، تحقيق: طه عبد الرُّؤوف سعد (بيروت: دار الحيل، د، ط، ج2، د، ت)، ص 179.

- ويعرفها الدكتور رؤوف شلي فيقول: (الدعوة الإسلامية هي حركة إحياء للنظام الإلهي الذي أنزله الله عز وجل على نبيه الخاتم)⁽¹⁾ وهذا يدل أن الدعوة إلى الله حركة دائمة ومستمرة، لا تعرف اليأس ولا القنوط، تحاول قمع جميع المعوقات وتحاول إستغلال جميع الأسباب من أجل الوصول إلى الهدف⁽²⁾.
- وعرفها الدكتور صالح بن علي أبو عرّاد بالقول: (بأنها إبلاغ الناس دعوة الإسلام في كل زمان ومكان، بالأساليب والوسائل التي تتناسب مع أحوال المدعوين)⁽³⁾.
- و عرفها الدكتور علي محفوظ في كتابه "هداية المرشدين" بأنها: (حث الناس على الخير والهدى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليفوزوا بسعادة العاجل والآجل)⁽⁴⁾.
- ويعرفها الدكتور عبد الكريم زيدان في كتابه "أصول الدعوة" والذي إرتأى أن يضع مفهوماً للدعوة بعد نظره في دراسة مصطلحات علم الدعوة بالقول: (الدعوة تبليغ الإسلام الناس وتعليمه إياهم وتطبيقه في واقع الحياة)⁽⁵⁾.
- وعرفها الدكتور أبو بكر الرّازي في "كتابه الدعوة إلى الإسلام" بالقول: (الدعوة هي: قيام من له أهلية النصّح والتّوجيه السّديد من المسلمين في كلّ زمان ومكان، بترغيب النّاس في الإسلام اعتقاداً ومنهجاً، وتحذيرهم من غيره بطرق مخصوصة)⁽⁶⁾.
- و يعرفها محمّد أمين حسن في كتابه "خصائص الدعوة الإسلامية" بالقول: (الدعوة هي تبليغ النّاس جميعاً دعوة الإسلام وهدايتهم إليها قولاً وعملاً في كلّ زمان ومكان بأساليب ووسائل خاصة تتناسب مع المدعوين على مختلف أصنافهم وعصورهم)⁽⁷⁾.

(1) - رؤوف شلي، الدعوة الإسلامية في عهدها المكي منهاجها وغاياتها (دار القلم، ط3، ج1، د، ت)، ص 32.

(2) - محمّد أمين حسن محمّد بني عامر، فقه الدعوة أساليب الدعوة، المرجع السابق، ص 5.

(3) - صالح بن علي أبو عرّاد، الدعوة إلى الله من خلال الأنترنت، مقال، كلبية المعلمين في أبها، 1426هـ، ص 5.

(4) - يُنظر: علي محفوظ، هداية المرشدين (دار الإعتصام، ط9، 1399هـ/1979م)، ص 17.

(5) - محمّد أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، المرجع السابق، ص 40.

(6) - أبو بكر الرّازي، الدعوة إلى الإسلام (القاهرة: مكتبة دار العروبة، د، ت)، ص 8.

(7) - محمّد أمين حسن محمّد بني عامر، من فقه الدعوة أساليب الدعوة، المرجع السابق، ص 9.

- مِنْ حَيْثُ الْمَضْمُونُ

- هو الإسلام الذي ارتضاه الله للعالمين وأنزل تعاليمه وحياً على رسول الله ﷺ ليلبغه الناس⁽¹⁾ والتعريفات التي تتضمن هذا المعنى كثيرة منها :
- يعرفها الدكتور أحمد غلوش في كتابه "الدعوة الإسلامية" بالقول: (الدعوة إلى الله هي النظام العام والقانون الشامل لأمر الحياة ومناهج السلوك الإنساني التي جاء بها محمد ﷺ من ربه وأمره بتبليغه إلى الناس وما يترتب عن ذلك من ثواب أو عقاب في الآخرة)⁽²⁾.
 - ويعرفها الدكتور رؤوف شلي بالقول: (إنها دين الله الذي ارتضاه للعالمين تمكيناً لخلافتهم، وتيسيراً لضرورتهم، ووفاءً بحقوقهم ورعايةً لشؤونهم، وحمايةً لوحدهم، وتكريماً لإنسانيتهم وإشاعةً للحق والعدل فيما بينهم هي الضوابط الكاملة للسلوك الإنساني وتقرير الحقوق والواجبات)⁽³⁾.

- مِنْ حَيْثُ الْوَسِيلَةُ

هو العلم الذي يهتم بنشر الدعوة وبلاغها إلى الناس جميعاً، وكان ممن عرفها بهذا المعنى الدكتور أحمد غلوش بالقول: (الدعوة هي العلم الذي تعرف به كافة المحاولات الفنية المتعددة الرامية إلى تبليغ الناس الإسلام بما حوى من عقيدة وشريعة وأخلاق)⁽⁴⁾.

إن هذه المفاهيم التي تتعلق بالدعوة ليست متعارضة، بل تتفق في إعطاء صورة الإسلام الذي هو الدعوة، فجميعها تصب في فلك التبليغ والإعلام والدين والعلم، ومن الملاحظ أن مصطلح الدعوة قد نطلق عليه بأنه: طريق ومنهج سلكه الأنبياء عليهم السلام جميعاً، ولا سيما النبي ﷺ، فأقام الأدلة القاطعة في إثبات رسالته، وأقام الحجّة الناصعة في حالة إنكار ما جاء به، فشمّل أساليب ووسائل ارتكزت على العاطفة لمخاطبة القلوب والمشاعر والأحاسيس بالحكمة والموعظة الحسنة والمعاهدة والصّلاح والتأليف وغيرها.

1) _ عبد الكريم زيدان ، أصول الدعوة (د، دار نشر ، ط3، 1396هـ / 1976م) ، ص 7.

(2) _ أحمد أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، المرجع السابق، ص 13.

(3) _ رؤوف شلي، الدعوة الإسلامية في عهدها المكي منهاجها وغاياتها، المرجع السابق، ص 23.

(4) _ أحمد أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، المرجع السابق، ص 14.

6- الدراسات السابقة

لقد كتب في موضوع المنهج العاطفي كثيرون، وكانت هناك مجهودات قام بها مجموعة من الدعاة والباحثين وعلماء الدعوة، حيث تناول كل منهم الموضوع من زوايا معينة تخدم غرضه، ودون شك فقد استعنت ببعض المجهودات واستفدت منها الكثير محاولة جمع شتات مادة البحث من بين صفحات هذه المجهودات في البحوث والدراسات والكتب حتى تجتمع في الدراسة وكل ما يهم الموضوع، فالدراسات السابقة المتعلقة بموضوع الدراسة متباينة، منها ما أفرد له مبحث خاص، ومنهم من أفرد له فصلاً كاملاً كما فعل الدكتور البيانوني، ومنهم من ألف حوله رسائل ماجستير ودكتوراه، فلم تُسعف دراستي في الحصول إلا على بعضها رغم البحث والإطلاع، ومن هذه الدراسات والتي قسّمتها إلى قسمين :

أ- الكتب

- "المدخل إلى علم الدعوة" للدكتور "محمد أبو الفتح البيانوني" خصّص فصلاً كاملاً عن المناهج الدعوية من خلال ثلاث مباحث من صفحة 195 إلى صفحة 240.

المبحث الأول: تعريف المناهج و أهدافها.

المبحث الثاني: التعريف بالمناهج الثلاث العقلية والعاطفية والحسّية.

المبحث الثالث: الملامح العامة للمناهج و خصائصها.

يلتقي الكتاب مع الدراسة الحالية ما كتب عن المنهج العاطفي من أجزاء تتعلق بالمفهوم والخصائص والأساليب وأصناف المدعوين والتعريف بالمنهج من خلال المبحث الأول والثاني استعنت بها في وضع خطة الدراسة، فتوسّعت الدراسة الحالية من حيث مفهوم المنهج العاطفي بلفظيه المنهج والعاطفة والأهمية، والتطرّق إلى جزئية تتحدّث عن العلاقة التداخلية والتلازمية بين المنهج العاطفي والمناهج الأخرى في كون عدم استغناء المنهج العاطفي عن المناهج الأخرى في بعض المواقف، كما استوفت بأقوال العلماء والدعاة والباحثين من مختلف التخصصات فكانت تطبيقية بإسقاط المنهج العاطفي في دعوة النبي ﷺ وقد كانت مفصلة معتمدة على الشواهد والأدلة.

- "مناهج الدعوة وأساليبها" للدكتور علي جريشة" يتكوّن الكتاب من خمسة أبواب على النحو التالي:

الباب الأول: مناهج الدعوة وبه ثلاثة فصول.

الفصل الأول: تعريف المنهج وأقسام المناهج حيث قسمها إلى فطري عقلي وأخلاقي، وتحدث عن العاطفة من حيث المفهوم وضرب لها أمثلة من صفحة 32 إلى صفحة 37، الكتاب اشتمل على بعض عناصر الموضوع إستفادت منها الدراسة من حيث الخطّة والمفهوم، فاقترنت على المنهج عمومًا والمنهج العاطفي خصوصًا من حيث المفهوم، وكانت إضافات الحديث في هذه العناصر بشكل مفصّل.

- "تقنين الدّعوة مراحلها ومناهجها وإستمراريتها من القرن الأوّل إلى القرن السّادس" للدكتور "محمّد السيّد الوكيل" تحدث في الفصل الثّاني من الكتاب عن المنهج العقلي والعاطفي وضوابطهما والغرض من استعمالهما من صفحة 138 إلى صفحة 205، فيما يتعلّق بهذا الكتاب وجد هناك اختلاف من حيث تقسيم المناهج المتعلّقة بالدّعوة من حيث الموضوع ومن حيث تقسيمها بالنّسبة للمدعو، وقد حدّدها صاحب الكتاب بأنّها (فطري - عقلي - أخلاقي) على عكس ما كتبه غالبية علماء الدّعوة ضمن مصنّفاتهم مناهج الدّعوة هي (العقلي - العاطفي - الحسّي) والذي تناول الكاتب جزءًا منها في الفصل الثّاني فاستفادت الدراسة الحالية من الوقوف عند المنهج العاطفي والعناصر المتعلّقة به، فكانت مفصّلة وموسّعة ومتخصّصة في مجال دعوة النّبي ﷺ بالوقوف على شواهد وأدلة.

ب- الدّراسات الجامعية

- الدّعوة إلى الله بالمنهج العاطفي في القرآن والسّنّة المطهّرة، دراسة حامد بن أحمد علي العامري، رسالة مقدّمة لنيل درجة الدّكتوراه في الدّعوة والاحتساب⁽¹⁾.

تحدّثت عن جوانب عديدة تتعلّق بالمنهج العاطفي، وتوسّعت فيه فقسمت الدراسة إلى خمسة فصول تناولت:

- الفصل الأوّل: موضوعات الدّعوة بالمنهج العاطفي اشتمل على خمسة مباحث.
- الفصل الثّاني: أساليب عرض المنهج العاطفي اشتمل على ثلاث مباحث.
- الفصل الثّالث: تناول مواطن استخدام المنهج العاطفي وخصائصه قسم إلى مبحثين.
- الفصل الرّابع: ضوابط المنهج العاطفي في الكتاب والسّنّة اشتمل على أربعة مباحث.

(1) - حامد بن أحمد بن علي العامري، الدّعوة إلى الله بالمنهج العاطفي في القرآن والسّنّة، المرجع السّابق، تمّ تهميشه سابقًا، يُنظر: ص 21.

- الفصل الخامس: آثار المنهج العاطفي وأوجه الاستفادة.

هذه الدراسة تلتقي مع الدراسة الحالية في غالبية عناصرها، وقد تناولت المنهج العاطفي بشكل موسّع، وقد استفادت الدراسة من الوقوف على بعض عناصر ومفاتيح الدراسة خصوصاً ما يتعلّق بالمنهج العاطفي في السنّة والخطّة المتّبعة والتي كانت دليل الدراسة الحالية، ويكمن الاختلاف مع دراسة حامد بن أحمد علي العامري أنّها ستتناول المنهج العاطفي في دعوة النّبي ﷺ من خلال مواقفه وأساليبه، والتنوّع في استخدام المناهج، فقد كان المنهج المتّبع المنهج الوصفي والاستقرائي والمنهج التحليلي والاستنباطي من خلال السنّة النبوية والخروج بنتائج وفوائد، إضافة إلى عرض عناصر المنهج العاطفي في دعوة النّبي ﷺ، وعرض أهمّ الأساليب الدّعوية والمواقف النبويّة في هذا الموضوع.

- أسلوب التّرجيب في دعوة النّبي ﷺ دراسة سليمان بن عبد العزيز بن أحمد الدويش بعنوان⁽¹⁾ رسالة ماجستير، تحدّث فيها عن التّرجيب فقط والذي يعدّ من أساليب المنهج العاطفي، وتتكوّن الدراسة من أربعة فصول كالآتي :

الفصل الأوّل: مفهوم التّرجيب لغة واصطلاحاً وضوابط هذا الأسلوب ومكانته.

الفصل الثّاني: أنواع التّرجيب ووسائله في دعوة النّبي ﷺ.

الفصل الثّالث: أنواع التّرجيب ووسائله في دعوة النّبي ﷺ.

والفصل الأخير: آثار هذا الأسلوب النبوي.

وتلتقي هذه الدراسة مع الدراسة الحالية في عنصر التّرجيب في دعوة النّبي ﷺ والذي تناوله الباحث بشكلٍ موسّع يفيد الدراسة الحالية في العديد من العناصر، منها مفهوم التّرجيب ومجالاته في دعوة النّبي ﷺ وأنواعه مع عرض للعديد من النّماذج التي تدعّم الدراسة بشكلٍ وافٍ في هذه الجزئية.

- التّرهيب في الدّعوة في القرآن والسنّة أنواعه، مجالاته، تأثيره، رسالة ماجستير للباحثة رقية بنت نصر الله بن محمّد نياز، رسالة ماجستير تحدّثت عن التّرهيب فقط وأنواعه ومجالاته وتأثيره.⁽²⁾ والتي قسمت الدراسة إلى أربعة فصول وهي كالآتي :

(1) - سليمان بن عبد العزيز بن أحمد الدويش، أسلوب التّرجيب في دعوة النّبي ﷺ، بحث مقدّم إلى قسم الدّعوة والإحتساب لنيل درجة الماجستير، المملكة العربية السّعودية، جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلامية، كليّة الدّعوة والإعلام، قسم الدّعوة والإحتساب، 1416هـ.

(2) - رقية بنت نصر الله بن محمّد نياز، التّرهيب في الدّعوة في القرآن والسنّة، أنواعه، مجالاته، تأثيره، المملكة العربية السّعودية، جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلامية، كليّة الدّعوة والإعلام بالرياض، قسم الدّعوة والإحتساب، 1415هـ.

الفصل الأول: مفهوم الترهيب لغة واصطلاحاً وضوابطه ومكانة هذا الأسلوب بين الأساليب الأخرى.

الفصل الثاني: أنواع الترهيب ووسائل كل نوع من أنواعه وبيان خصائص كل وسيلة.

الفصل الثالث: مجالات الترهيب مع أصناف المدعويين الكفار والمنافقين والعصاة المؤمنين.

الفصل الرابع: آثار أسلوب الترغيب.

هذه الدراسة لم تتعرض لنقاط الموضوع كما ستعرض لها الدراسة الحالية، إلا أنها استفادت من بعض العناصر من حيث المفهوم ومجالات أسلوب الترهيب مع أصناف المدعويين، ويختلف الأمر من حيث استخدام هذا الأسلوب في دعوة النبي ﷺ حيث لم تتطرق الدراسة إلى ذلك.

- **الدعوة إلى الله بالمنهج الحسي في السنة النبوية**، دراسة محمد بن عبد الله العمري.⁽¹⁾ كانت مشتملة على مفاتيح الموضوع والاستفادة من خطة الدراسة والعناصر التي ينبغي الوقوف عليها.

و من خلال الدراسات السابقة فإن الإضافة العلمية التي حاولت تحقيقها، هي الدراسة العلمية الشاملة لموضوع المنهج العاطفي في دعوة النبي ﷺ وما يشمله من مواقف وأساليب راقية، حتى يجتمع للقارئ أو الداعية كل ما يهم هذا الموضوع.

7- المنهج المتبع

بالنظر إلى موضوع الدراسة يمكن تقسيمه إلى قسمين :

- المنهج من حيث الأسلوب والأفكار والمصادر.

- المنهج العلمي المتبع.

أ- المنهج من حيث الأسلوب والأفكار والمصادر

- **من حيث المصادر:** إجهت إلى المصادر الأصلية لتزويد دراستي بروايات صحيحة موثقة للأحاديث كالصحيحين البخاري ومسلم، وكتب السنن والمسانيد كمسند الإمام أحمد بن حنبل و"ابن ماجه"، و"سنن أبي داود"، و"الترمذي"، و"البداية والنهاية" غيرها كثير، واعتمدت على

(1) - محمد بن عبد الله العمري، الدعوة إلى الله بالمنهج الحسي في السنة النبوية، بحث مقدّم لنيل درجة الماجستير في الدعوة إلى الله، المملكة العربية السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية الدعوة والإعلام، قسم الدعوة والإحتساب، 1420هـ/1421هـ.

كتب السيرة "لابن هشام"، وكتب التفسير "لابن كثير" و"القرطبي" وشروح الحديث والكتب المتخصصة في مجال الدعوة وغيرها من الكتب العامة والأكاديمية التي تناولت هذا المنهج بأساليبه المختلفة، وبعدها قمت بجمع الأحاديث والمواقف من الكتب التي لها علاقة بموضوع الدراسة، قمت بتصنيفها ثم توزيعها على فصول الدراسة ومباحثها ووضعت ذلك كله في الفصل المناسب مما وجدت صعوبة في حصرها فاكثفت بالقدر الكافي، كما قمت بعد ذلك بالرجوع إلى كتب الشروح بالاستفادة منها والإقتصار على التعليق على كل حديث بأسلوبٍ الخاص، مما ساعدني على استخلاص العبر المستفادة في مجال الدعوة.

- من حيث الأسلوب: فقد حاولت أن تكون الدراسة جامعة بين السهولة والدقة بعيداً عن الإسهاب والإطناب مراعية إختيار الكلمات والعبارات السهلة والواضحة، مستخدمة في ذلك النقل من النصوص وما كان وافيًا وكافيًا للعرض.

- من حيث أفكار الدراسة وعرضها: فقد كانت الفكرة الأساسية تقدم منهج في الدعوة إلى الله من خلال السنة والسيرة النبوية متمثلة في شخصية النبي ﷺ، ولهذا إقتصرت على العديد من الأحاديث والمواقف والأساليب التي تتعلق بدعوة المصطفى ﷺ، حيث يظهر هذا المنهج وأساليبه في كافة فصول الدراسة بهدف الكشف عن أسرار دعوته، وما يميّز به من مشاعر وعواطف متسمة بالرحمة واللين والرفق.

ب- المنهج العلمي المتبع

المنهج في البحث العلمي العمود الفقري لكل دراسة، فهو الضابط والموجه الأساسي لكل باحث يتحدد استعماله حسب هدف الدراسة والإشكالية العلمية المعالجة، ونظرًا لتعدد معنى هذا المصطلح إلا أنه يمكننا أن نورد بعضها: هو الطريق أو الطريقة المحدد التي توصل الإنسان من نقطة إلى نقطة أخرى، وفي البحث يعتبر وحدة متكاملة ذات كيان مستقل يتألف من أساليب ووسائل معنوية ومادية⁽¹⁾، كما يعتبر المنهج العلمي طريقة منظمة تتيح أسلوبًا وخطّة معيّنة لدراسة ظاهرة ما، يهدف التوصل إلى الحقائق وترسيخ المعارف واختيارها بعد التأكد من صحتها⁽²⁾.

وبما أن طبيعة الموضوع هي التي تحدّد نوع المنهج المستعمل فقد اعتمدت على :

(1) - سعيد إسماعيل صيني، قواعد أساسية في البحث العلمي (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1994م)، ص-ص 62، 63.

(2) - عقيل حسين، فلسفة مناهج البحث العلمي (مصر: مكتبة مدبولي، د، ط، 1999م)، ص 47.

– المنهج الوصفي

الذي هو عبارة عن عملية تقدم بها المادة العلمية كما هي في الواقع إنَّه عمل تقرير يعرض موضوع البحث عرضاً إخبارياً بلا تعليل أو تفسير، ولذلك فإنَّه يكون في نهاية المطاف عبارة عن دليل علمي يهدي إلى القضايا أو الموضوعات أو المصطلحات أو الإشكالات العلمية فيصفها كمَّا أو كيفًا أو هما معًا بطريقة منهجية دون أنْ يبدي رأيًا أو تعليلًا أو تفسيرًا لوضعها أو طبيعتها، إذْ يقوم على استقراء المواد العلمية التي تخدم إشكالاً ما أو قضية ما وعرضها عرض مرتباً ترتيباً منهجياً وقد يكون الوصف تعبيرياً فيسمَّى العرض أو يكون رمزيًا أيْ باعتماد أرقام الصَّفحات فيسمَّى التَّكشيف⁽¹⁾ وهو الذي يهدف إلى تصوير وتحليل وتقويم خصائص مجموعة معيَّنة أو موقف معيَّن يغلب عليه صفة التَّحديد أو دراسة الحقائق الرَّاهنة المتعلِّقة بطبيعة الظَّاهرة ووصفها من خلال جمع الحقائق والمعلومات والملاحظات العامَّة.

– المنهج التَّحليلي

يهتمُّ بدراسة العلوم التي تعتمد على قواعد وأنسقه في التَّحليل، فهو ينطلق من استعادة القاعدة أو التَّسق ثمَّ استيعاب الظَّاهرة أو القضية، والمنهج التَّحليلي خاص للتَّطبيق في العلوم الإسلامية القاعدية أو النَّسقية، ولذلك يمكن استئناس هذا المنهج أساساً في غالبية العلوم الفقهية والحديثية والتَّفسيرية وما حول ذلك، لأنَّها علوم تحكم إلى قاعدة قرآنية أو سنية، كما يلجأ المنهج التَّحليلي عندما تكون هناك نصوص أو قواعد أو مبادئ في حاجة إلى تحليل بالنسبة للموضوع كمبدأ عام للتَّنهيج، وعلى الباحث أنْ يتبنَّى منهجاً أساسياً ويكمِّله إذا اقتضت الضَّرورة بالاستعانة بمنهج أو منهجين آخرين بصفة تكميلية، والمنهج التَّحليلي يتلخَّص في عمليات ثلاثة قد تجتمع كلُّها أو بعضها في عمل واحد وهي: التَّفسير والاستنباط^(*) والنَّقد⁽²⁾، وعليه قمتُ باستقراء^(*) النُّصوص من

(1) – فريد الأنصاري، أبعاد البحث في العلوم الشرعية (الدَّار البيضاء: منشورات الفرقان، مطبعة النَّجاح، ط1، د، ت)، ص 66.

(*) – التَّفسير: شرح موضوعات البحوث العلمية بتحليل نصوصها وتأويل مشتبهاتها والكشف عن مبهماتا لتبدو بصورة واضحة والنَّقد عملية لرصد مواطن الخطأ والصَّواب في موضوع علمي معيَّن، يستند الباحث إلى الأصول والثَّوابت العلمية المقرَّرة وذلك من أجل تقويم وتصحيح بعض المفاهيم والقضايا المتعلِّقة بذلك الموضوع، الاستنباط: يشمل كل عمل يهدف إلى وضع نظرية علمية ما أو بناء قاعدة في الفقه أو الأصول أو التَّفسير أو غيره من العلوم الشرعية أو أيِّ مبحث من مباحثها (يُنظَر: فريد الأنصاري، أبعاد البحث في العلوم الشرعية محاولة في التَّأصيل المنهجي (ضوابط، مناهج، تقنيات، آفاق، المرجع السابق، ص 96.

(2) – المرجع نفسه، ص – ص 64، 96.

السنة والسيرة النبوية وحصر كافة الجزئيات المتعلقة بموضوع الدعوة بالمنهج العاطفي عند النبي ﷺ، والذي يتمثل في ملاحظة الباحث للجزئيات أو الفرعيات موضوع اهتمام وبطريقة تحليلية تهدف إلى اشتقاق بعض القوانين والأطر النظرية، وذلك من خلال تعميم النتائج التي تم التوصل إليها بعد اختيار بعض الجزئيات أو الحالات على كافة الأجزاء أو الحالات المكونة للظاهرة⁽¹⁾.

- المنهج الاستقرائي

وهو جمع جزئيات الموضوع الواحد ثم استخراج الحكم الكلي من جملة أجزائه، فالدراسة تقوم باستقراء النصوص وجمعها واستخراج الأفكار منها⁽²⁾، وهو منهج قائم على حصر كافة الجزئيات والوقائع والنصوص المتعلقة بفكرة واحدة أو موضوع محدد⁽³⁾، وذلك عن طريق جمع البيانات التي لها علاقة بالمشكلة البحثية التي يراد بحثها، ثم يتم القيام بتبويبها وتنظيمها معتمدة على القراءة والاستفادة من الدراسات السابقة والخبرة للوصول إلى نتائج، وبهذا سوف يتم جمع كافة النصوص وما كتب عن المنهج العاطفي من خلال ما تبرزه أحاديث النبي ﷺ وسيرته واستخراج الأفكار الهامة.

وفي كلاً المنهجين المتبعين الاستقرائي والتحليلي اتبعت الدراسة الخطوات التالية في

استخدامها كالآتي :

- استقراء الآيات إن وجدت التي لها علاقة بالمنهج العاطفي في دعوة النبي ﷺ.
- استقراء ما في الصحيحين من الأحاديث والسُّنن والمسند وغيرها التي لها علاقة بالمنهج العاطفي وأساليبه في دعوة النبي ﷺ.
- جمع الأحاديث وإن أمكن وبعض الآيات وتصنيفها وتبويبها في موضوعات حسب خطة البحث.
- تحليل النصوص وبيان ما فيها من فوائد.
- محاولة الإحاطة ما أمكن من أحاديث تمس استخدام النبي ﷺ للمنهج العاطفي.

(*) - الاستقراء: في الأصل يطلق على المنهج التجريبي ويستخدم في العلوم النظرية عند علماء المسلمين، تسمى بالعلوم التأصيلية وهو يعني التفكير التأملي لقياسات أجريت في آن واحد، أو طرح حقائق متعددة بغرض استنباط نتيجة من وراء هذه الحقائق (ينظر: عمار بوحوش ومحمد محمود الذبيات، مناهج البحث العلمي أسس وأساليب، الأردن: مكتبة المنار للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1410هـ)، ص 134.

(1) - محمد عبيدات وآخرون، منهجية البحث العلمي القواعد والمراحل والتطبيقات (عمان: كلية الاقتصاد والعلوم الإدارية، الجامعة الأردنية، ط2، 1999م، دار وائل للطباعة)، ص 48.

(2) - فاروق يوسف، قواعد المنهج العلمي (القاهرة: مكتبة عين شمس، ط1، 1985م)، ص 43.

(3) - غازي حسين عناية، مناهج البحث (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، د، ط، 1984م)، ص 80.

- التزمْتُ ألا أُخْرِجَ حديثًا من غير الصَّحَّاحين إلَّا فيما تعذَّر وجودها في الصَّحَّاحين.
- استنباط المسائل المتعلِّقة بالبحث مع بيان وجه صلتها بالموضوع الذي أورد فيه.
- تضرب الدِّراسة أمثلة ونصوص من السُّنَّة والسِّيَرَة لكلِّ مسألة أو جزئية أو سلوك أو كل ما يناط بعناصر البحث.
- تستفيد الدِّراسة من أمَّهات كتب التَّفْسير وشروحات السُّنَّة.

8- أدوات جمع البيانات

الإستفادة من نظرات الباحثين من خلال دراسات سابقة لم تصل إلى درجة الإستقراء التَّام حسب ما لاحظته، فالدِّراسة تحاول جمع شتات هذا الموضوع المتناثر في الكتب والرَّسائل والبحوث وشروح السُّنَّة وغيرها، ولهذا فإني إعتمدت بعد توفيق الله تعالى على القراءة المتعمِّقة للجوانب المتعلِّقة بمجال البحث من كتب الحديث وشروحها والكتب العلمية والإسلامية والدَّعوية وكتب التَّفْسير، إضافة إلى الإستفادة ما أشكل عليَّ من مسائل وموضوعات عن طريق الأسئلة والمقابلة من لهم صلة بالموضوع ودراية به.

وفي الأخير أسأل الله العلي القدير أن يتقبل مني هذا العمل وأن يجعله نافعا مدرار بالعطاء الفكري والدعوي إنه ولي ذلك والقادر عليه وصل اللهم وسلم على محمد الأمين و آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

تمهيد

أرسى القرآن الكريم قواعد الدَّعوة ومبادئها، وعيَّن طرائقها وأساليبها، فجعلها حُجَّةً على المدعو وشرطاً على الدَّاعية، أمَّا السَّنة النَّبويَّة فقد رَسَمَ فيها صاحب القدوة مُحَمَّد ﷺ منهجاً قوياً للدَّعاة من بعده يقتحمون به قلوباً غُلُفاً، ويُبَصِّرُنَّ به أعْيُنًا غُمِّيًّا، ويُسَمِّعون به آذاناً صُمًّا، ويقيمون النَّاسَ على الإسلام الخالص، وتقوِّم البشريَّة جُهد مُضني، يحتاج إلى زمنٍ وإلى تأثُّرٍ وانفعالٍ بالكلمة، وإلى حركةٍ تُترجمُ هذا التَّأثُّر وهذا الانفعال إلى واقع، يقول تعالى في مُحكمِ نَزْله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: 125] والدَّعوة أصلها أن تكون في سبيلِ الله، تمتدُّ فروعها على مرتكزات الحكمة، وحسنِ الموعظة، وتلمُّسِ لطفِ الجدل وأعدبه، فهو أحصنُ لماءِ الوجه، وأجدر لفتحِ القلب لتنسب الدعوة إلى الله بسلاسة، والمنهج موضوع مهمٌّ جدًّا في الدَّعوة إلى الله من جميع النَّواحي العلميَّة منها والأخلاقيَّة، وقد زخر التَّاريخ الإسلامي منذ بدء الرِّسالة بدعوات الأنبياء عليهم السلام إلى ظهور كوكبة من الدَّعاة والعلماء ساروا على نهج أسلافهم إلَّا أنَّهم قد تعثر بهم مُشكلاتٌ عديدة أخطرها التَّعافل والتَّهاون في إصابة المنهج الصَّحيح وعدم وضوحه للنَّاس، ممَّا نتجت عنه العديد من العقبات وبعض الانحرافات أصابت الخطاب الدَّعوي في مَقْتَلٍ فخلف من بعدهم خلف سلكوا سُبُل الإفراط والتَّفريط، وحتَّى تعتدل بوصلة سبيل دعوة ربِّ العالمين تبين لي أن أولى أهميَّة خاصَّة للمنهج النَّبوي ولاسيما "المنهج العاطفي" الذي يدفع بالدَّعوة قدماً إلى الأمام وإلى الصِّدارة والجدارة، وعليه تبين لي التَّركيز في موضوع المنهج العاطفي وعلاقته بالدَّعوة إلى الله ومدى ارتباطه بدعوات الأنبياء ﷺ، والذي يدفع بها قدماً إلى برِّ الأمان.

المبحث الأول: تأصيل المنهج العاطفي من خلال القرآن الكريم والسَّنة

المطهَّرة

تستمدُّ الدَّعوة الإسلاميَّة منهجها وموضوعاتها من مصدرين أساسيين هما: "القرآن" و"السَّنة"، اللذان بهما تنظَّم علاقة الدَّاعية برَّبِّه وعلاقته بمدعويه، من خلال الأسلوب الأمثل والمنهج الصَّحيح الذي يعصمه من الشَّطط ويُدَلِّل له جميع الصُّعوبات والعقبات، وهذا المنهج تحدَّث فيه القرآن الكريم والسَّنة المطهَّرة، وأصله في مواضع عديدة نذكر منها كالاتي :

المطلب الأول: تأصيل المنهج العاطفي من القرآن الكريم

القرآن الكريم هو كتاب الله الخالد للدعوة الإسلامية ودليلها في الحركة في كل حين، وهو قاعدة الدين الإسلامي ومصدره الأصيل يقول تعالى: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا يَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٢﴾ [الشورى: 52] وهو كتاب الدعوة جاء بالإصلاح ليخرج الناس من الظلمات إلى النور يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ٩١﴾ [الإسراء: 9] فالقرآن الكريم يعلي سمة العطاء والمحبة والصّفح والعتف وغيرها من العواطف السّامية، والإسلام يريد من الإنسان عموماً والدّاعية على وجه التّحديد التّلازم بين محبة القلب وعقيدة الفكر ولا يمكن أن يصل إلى كماله إلاّ بهذا التّناغم المتّزن⁽¹⁾، يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31] هذه العواطف سلكها القرآن الكريم في إيصال الحقّ للنّاس من خلال المنهج العاطفي، والذي ظهر بوضوح على شكل أساليب اهتمّ بها القرآن، تُبرز أهمّيّتها ومكانتها في الدّعوة إلى الله من خلال مواضع كثيرة سيتمّ التّطرّق إليها لاحقاً، والقرآن الكريم -إضافة لما سبق- أفاض بحديثه عن العاطفة في آيات عديدة يذكّر فيها أنّ رقيّ المشاعر وصدق العواطف أمرٌ يقتصر على مناهج الأنبياء والمرسلين، من سيّدنا آدم عليه السلام إلى خاتم الرّسل محمّد ﷺ⁽²⁾ جاء منها في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ٥٨﴾ [مریم: 58] واهتمّ بعاطفة النّبي ﷺ على وجه الخصوص، والذي لا يمكن تصوّر أخلاقه العظيمة المؤسومة بالعواطف الإيمانية، إذ أنّ العاطفة والأخلاق صنوان متلازمان، والنّبي ﷺ بلغ حرصه على هداية قومه ونجاتهم أنّ يُجهد نفسه في دعوتهم بما يفوق طاقة البشر⁽³⁾، فيعاتبه في صدر سورة طه في قوله تعالى: ﴿طه ١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ٢﴾ [طه: 1-2] ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٣﴾ [الشّعراء: 3] وقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾ [الكهف: 6] وقوله أيضاً: ﴿فَلَا نَذْهَبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنْ

(1) - جاسم حسين المشرف، العاطفة كالماء مقارنة سيكولوجية فنيّة في العاطفة وتدايها، المرجع السابق، ص 35.

(2) - أصول الدّعوة وطرقها، كتاب المادة IDWH3023، جامعة المدينة العالمية، الجزء 2، 2009م، ص 219.

(3) - جاسم حسين المشرف، العاطفة كالماء مقارنة سيكولوجية فنيّة في العاطفة وتدايها، المرجع السابق، ص 32.

اللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ [فاطر: 8] كما صَوَّرَ عاطفة المؤمنين بأهم أصحاب مشاعر وعواطف صادقة، والكافرين ذوي عواطف وقلوب قاسية مُتَحَجَّرة، فقال عنهم: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح: 4] وإنشراح الصدر ثمرة من ثمار الإيمان، فإذا ما إنشراح صدر الإنسان لأن قلبه ورقت عواطفه وارتقت مشاعره وصدقت أحاسيسه، ولقد امتنَّ الله على رسوله ﷺ بإنشراح الصدر⁽¹⁾ فقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ [الشرح: 1] وقال أيضاً: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ قَوْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَيْكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر: 22-23] ذلك أن الجفاف الرُّوحِيَّ والجذب العاطفي أخطر آفات العمل الإسلامي، التي لو تعرَّضت لها روح الإسلامِيَّ العامِلُ لأفقدته أهم قوى الجذب والمغناطيسية والاستقطاب في أمةٍ تطالب الإسلاميين ولاسيما الدُّعاة إلى الله أن يشيعوا في أوساطها الصِّفاء والتَّقاء والتوكل، والتعبُّد والدُّعاء،⁽²⁾ ولأجل تأصيل المنهج العاطفي في القرآن الكريم يستوجب التَّعرُّف على أساليبه أهمُّها :

أولاً : الموعظة الحسنة

هي النَّصيحة والتذكير بالعواقب⁽³⁾ يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبَنِيهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: 13] استخدمها جميع الأنبياء عليهم السلام في دعوتهم، فقال عن نوح ﷺ: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف: 62] وعن هود: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف: 68] والموعظة الحسنة أمر الله باستخدامها في الدَّعوة إلى الله، وأمر نبيه عليه الصَّلَاة والسَّلَام فقال له: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ

(1) - أصول الدَّعوة وطرقها، المرجع السَّابق، ص - ص 217، 219.

(2) - محمد موسى الشريف، العاطفة الإيمانية وأهميتها في الأعمال الإسلامية، المرجع السَّابق، ص 23.

(3) - أبو بكر الرَّايزي، مختار الصَّحاح، مادة وعظ (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 1410هـ)، ص 303.

سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ [النحل: 125] هذه الآية أشارت إلى أنَّ الموعظة الحسنة قاعدة أساسية في الدعوة، وأسلوب جوهري يُميّزه التفاعل والتأثير المباشر في إصابته للقلب وكوامنه، ولكنها في ذات الوقت لا تمثل الأسلوب الأوحده الذي يجب على الداعية استعماله في مجال دعوته، ذلك أنَّ من الأساليب ما تتعلق بالعقل والفكر، ومنها ما يتعلق بالحس والتجارب الإنسانية، ومنها ما تتعلق بالعاطفة، فجميعها متداخلة تكمل بعضها البعض، فأسلوب الحكمة يضع الشيء في موضعه، والموعظة الحسنة تحتاج إلى هذه الحكمة حين يختار الداعية الموقف المناسب في الوقت المناسب والمكان المناسب وكذلك بالنسبة للمجادلة بالتي هي أحسن⁽¹⁾، وهذه الموعظة قد تكون حسنة وقد تكون سيئة، وذلك بحسب ما يعظ به الإنسان ويأمر به، وبحسب أسلوب الوعظ، فهي نافعة ومفيدة، إذ تفتح أبواب الهداية للمؤمنين، فيقول تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 57]، وعليه فللموعظة الحسنة دلالات وصور ذكرت في مواضع كثيرة من القرآن الكريم وهي كالآتي:

أ- الإشارات اللطيفة

وردت الإشارة في موضع واحد في القرآن الكريم جاءت في قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْعِدِ صَبِيًّا﴾ [مریم: 29] فهي من الوسائل والأساليب التي تساعد على إيضاح المعنى للسامع، وقد حصرها العلامة الجاحظ في خمس: اللفظ، الإشارة، العقد، الخط، الحالة الدالة وقال عنها: الإشارة واللفظ شريكان ونعم العون هي له ونعم الترجمان هي عنه⁽²⁾، دليل مشروعيتها قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مریم: 11] أي: أشار إشارة خفيفة أن سبّحوا بكرة وعشيًا⁽³⁾، ففي الحالة التي يحتاج الداعي إلى القول الصريح له أن يستخدم الإشارة المناسبة سواء كان ذلك بيده، أو إصبعه، أو بهز كتفيه، أو تحريك رأسه، أو وضع إصبعه على فهمه، في إشارة إلى الصمت، أو بالعض على بنانه إلى غير ذلك من الإشارات المفهومة، وقد

(1) - محمد الجوهري، بحث الموعظة الحسنة وأثرها في الدعوة، المرجع السابق، ص 1.

(2) - الجاحظ، البيان والتبيين (بيروت: دار ومكتبة الهلال، ط1، ج1، 1423هـ)، ص57. ومحمد التونجي، المعجم المفصل في الأدب (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، ج2، 1999م)، ص 442.

(3) - إبن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط1، ج5، 1418هـ/1995م)، ص 216.

عُني الإسلام بذوي الاحتياجات الخاصّة من فئة الصّمّ البكم عناية عظيمة ، ودعا إلى التّعامل معهم وعدم تجنّبهم حفاظاً على كرامتهم واحتراماً لمشاعرهم، ولحرمانهم من نعمة السّمع قدّم الإسلام بدائل للوصول إليهم وتبليغهم رسالة الاسلام ، فكانت الإشارة إحدى الطرق والأساليب الممكنة في الدعوة إلى الله، وللقدرة العجيبة في إثارة العواطف واستثارة المشاعر، ممّا يتوجّب على الدعاة اليوم توفير متخصصّين في لغة الإشارة وعلى دراية بأمور الدعوة .

ب- القصّة

يتميّز أسلوب القصّة في القرآن الكريم بخصائص جلّية، تعطي للسّاق القرآني روعةً ووضوحاً، ويأتي هذا من خلال التّعبير الفنّي والبيان المتناسق الذي يتميّز به القرآن⁽¹⁾، لهذا اعتنى بالقصّة عناية خاصّة، لما فيها من عنصر التّشويق والإثارة والإثّاعاظ، والتي كان من أهدافها تصحيح العقيدة والإيمان بالله واليوم الآخر، ومواساة الضّعفاء، ومجاهدة الطّغاة والظّلّمة وغيرها من الأهداف الأخرى السّامية⁽²⁾ والقصّة في القرآن الكريم كثيرة، من ذلك على سبيل المثال قصّة موسى عليه السّلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۖ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمْلَنَ وَقَرْنُوهُ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۖ﴾ [غافر: 23-25] فقصّة موسى عليه السّلام من أهم القصص القرآني وأكثرها زخماً وثراءً سواء في الأحداث أو في الدّروس المستفادة والعظات، فقد تحمّل - عليه السّلام - في سبيل دعوته الكثير، والله تعالى منحه يقيناً لم يمنحه أحداً غيره ليكون عوناً له في مواجهة فرعون والملا من القوم، فتميّز بالأسلوب الحوارّي الرّاقّي واللّين في إقناع هؤلاء، ولاسيما في التّأثير على أكبر طاغية في ذلك الزّمان، فعرف عنه الفصاحة والأخلاق العالية والقوّة والشّجاعة في الكلمة ، وفي قصّة إبراهيم عليه السّلام يعرض القرآن عظته لأبيه آزر، لكي يكون أنموذجاً أصيلاً يحتذى به، اجتمع فيه الأسلوب الرّاقّي واللّين والمثابرة مع الصّبر على أذى قومه له فقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْعَةٍ لِإِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۖ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۖ أَفَبِكُلِّ عِلْهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ۖ﴾ [٨٤] ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ﴾ [الصّافات: 83-87] وازداد عليه السّلام ليّناً مع والده قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ

(1) - نهان حسون السعدون، بحث حول مشاهد من قصّة موسى عليه السّلام في القرآن الكريم، دراسة أسلوبية، مجلّة كلىة العلوم الإسلامية، مج1، العدد 12، 1433هـ/2012م، ص 1.

(2) - حامد بن أحمد بن علي العامري، الدّعوة إلى الله بالمنهج العاطفي في ضوء القرآن والسّنّة، المرجع السّابق، ص 82.

إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَأْتَبَتْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ ﴿مريم: 41-42﴾ لقد كانت كلمات سيدنا إبراهيم عليه السلام تفيض حنانًا وشفقةً، وتتدفق عطفًا ورقةً، أظهرت رابطة الأبوة التي من شأنها أن تجعل الابن حريصًا على مصلحة الأب، بأن ما يعبده فاقد لأوصاف الرئوسية، وأعلمه شدة خوفه عليه من أن يمسّه مجرّد مسّ عذاب من الرّحمان فيكون للشّيطان وليًّا⁽¹⁾ فأحيانًا باستخدام أسلوب القصّة يمكن للدّاعية الوصول إلى أعماق النفوس والتأثير فيها، والنفس البشرية غالبًا تتوق إلى الحدث الذي تقوم عليه القصّة، لما لها من مؤثرات وجدانية تقتضي التفاعل مع أحداث القصّة.

ج- التذكير بنعم الله

إنّ التذكير بنعم الله تعالى من أهم أشكال الموعظة الحسنة، وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ [البقرة: 40] وقال جلّ شأنه: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: 47] ومعلوم أنّ الله سبحانه تعالى عندما يذكرنا بنعمة يتطلّب ذلك منّا الشكر والتقيّد بأمره والابتعاد عن نهيّه، إلى جانب تسخير تلك النعم في طاعته وحسن خلافة الكون، كما أنّ الأنبياء عليهم السلام كانوا يذكرّون أقوامهم بنعم الله عليهم: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: 47]. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: 20] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفِّطُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِيَا بَطِلَ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَةَ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: 67] وعليه يُعدّ التذكير بنعم الله شكلاً آخر من أشكال الموعظة الحسنة، ولكن لا بدّ أن يكون التذكير بنعم الله مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالموضوع، أو المشكلة، أو المخالفة، أو المعصية المراد وعظ الناس من أجلها، فإذا كانت فاحشة مثلاً: يذكر الدّاعية أو الواعظ الناس بنعمة العافية والصحة، وإذا كانت المخالفة كالتبذير مثلاً: يذكرهم بنعمة الرّزق التي يجب شكرها، ويبيّن أنّ من مستلزمات شكرها البعد عن التبذير وهكذا⁽²⁾.

(1) - عبد الكريم زيدان، أصول الدّعوة (د، دار نشر، ط3، 1396هـ/1976م)، ص 455.

(2) - أبو بكر محمد أبو بكر، أساليب الدّعوة عند الشّيخ محمد الغزالي، ماليزيا، جامعة المدينة العالمية، كُلية العلوم الإسلامية، قسم الدعوة وأصول الدّين، 1434هـ/2013م، ص 30.

فنبئ الله موسى عليه السلام كان يذكر قومه بالنعم التي فضلهم بها عن غيرهم فقال: ﴿يَقَوْمُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة: 20) فالتذكير بنعم الله من الأساليب التي سلكها الأنبياء عليهم السلام في دعوتهم، إهتم بها القرآن وذكر في آيات كثيرة سنذكرها لاحقاً إن شاء الله.

ت- المدح والذم

عني الإسلام بغريزة المدح والذم فخطبها من خلال ذكر الخصائص والمزايا التي يتميز بها الإنسان، ومن ذلك على سبيل المثال أكمل الخلق النبي الكريم محمد ﷺ، يحمل أسمى العواطف النبيلة والمشاعر العالية تجاه الناس عامة وقومه خاصة، وعندما أراد القرآن الكريم أن يخلد كماله فإنه وصفه بالخلق العظيم مستخدماً في ذلك أكبر أدوات التوكيد⁽¹⁾ فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: 04) وقال أيضاً في سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (التحل: 120) يذكر الإمام الطبري رحمه الله تفسيره لمنهج نبي الله إبراهيم عليه السلام قائلاً: (وهذا إعلام من الله تعالى أهل الشرك به من قريش أن إبراهيم عليه السلام منهم بريء وأنهم منه براء شاكراً لأنعمه، يقول: كان يخلص الشكر لله فما أنعم عليه ولا يجعل معه في شكره في نعمة عليه شريكاً من الآلهة والأنداد وغير ذلك كما يفعل مشركو قريش، والحنيف هو المطيع لله عز وجل وأن الحنيفية السمحة التي كان عليها إبراهيم عليه السلام هي أحب الأديان إلى الله)⁽²⁾ ويظهر هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « قيل لرسول الله ﷺ أي الأديان أحب إلى الله ؟ قال: الحنيفية السمحة(*) »⁽³⁾ وقوله

(1) - جاسم حسين المشرف، العاطفة كالماء مقارنة سيكولوجية فنية في العاطفة وتداعياتها، المرجع السابق، ص 31.

(2) - الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن - تفسير الطبري -، ج 14، المصدر السابق، ص 393.

(*) - قوله ﷺ الحنيفية: وهي الملة الإبراهيمية مقتبساً من قوله تعالى: ثَمَلَةً إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا [البقرة: 135] والحنيف عند العرب ما كان على ملة إبراهيم عليه السلام ثم سُموا من إحتتن وحج البيت حنيفاً، والحنيف: المائل عن الباطل، وسمي إبراهيم حنيفاً: لأنه مال عن عبادة الأوثان، وقوله السمحة: هي صفة الحنيفية ومعناها: السهلة، والمساحة، والملة السمحة التي لا حرج فيها ولا تضيق فيها على الناس، وهي ملة الإسلام (بدر الدين العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، رقم الحديث 39، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط 1، ج 1، د، ت)، ص 235.

(3) - أخرجه أحمد في مسنده، تحقيق: شعيب الأرنؤوط (بيروت: مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، ج 4، د، ت)، ص 17. وأخرجه الطبراني في الأوسط، رقم الحديث 7351، من حديث عثمان بن أبي عاتكة عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة بنحوه، ومن حديث عفير بن معدان عن سليم بن عامر عنه، وعبد الله بن إبراهيم الغفاري منكر الحديث. وفي الكبير، برقم 11572. وقال العراقي: رواه أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف دون قوله «السهلة» (يُنظر: محمد الحسيني الزبيدي

تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ٤٤﴾ [ص: 44] فالمدح له تأثير في النفس عميق، لأن الإنسان مُولعٌ بتقليد من هو أفضل لديه، فالتأقص يطلب الكمال والجزء يسعى إلى الكل والقطرة تسعى إلى البحر، والقلوب عاشقة لجمال الروح والنفس، وبهذه الصفات نال النبي ﷺ الثبوة وبهذا شهد له قومه، لذلك جعل من أساليب المنهج العاطفي، أمّا أسلوب الذمّ مثلاً في الأعمال المذمومة التي تصدر عن جماعات من الناس كأكل الشحّ ظهرت في الآية الكريمة: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْأَثَرِ وَالْعُدُونِ وَأَكْثِلَهُمُ الشُّحَّتْ لِيَسَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٦٢﴾ [المائدة: 62] وكما ظهر في آيات سورة المسد يقول تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ٥﴾ [المسد: 1-5] سورة المسد هي معجزة كبيرة وعظيمة بحد ذاتها، إذ أنّها قامت بالتوعّد لأبي لهب وزوجته، وقدّ ظهر فيها أثر الذمّ لبعض الشخصيات التي زامنت الدّعوة إلى الله، في ذمّ صريح لشخصية أبي لهب الذي كان شديد العداوة للنبي ﷺ، حيث برز في السّورة مجموعة أساليب الذمّ منها الدّعاء عليه بالهلاك والخسران في قوله: ﴿تَبَّتْ﴾ فهذا إشعار أنّها نزلت لتوبيخ ووعيد، وأيضاً أسلوب بيان سوء العاقبة من خلال الوعيد في الآية الثالثة⁽¹⁾.

ث- التّغريب

أسلوب من أساليب الموعظة الحسنة له تأثير كبير في النفس البشرية التي جُبلت على حبّ الخير، وقد ورد هذا الأسلوب في الدّعوة في الأغلب الأعمّ من المواقف المتعدّدة في القرآن الكريم⁽²⁾، ولعلّ أوضح صور التّغريب وأقواها في دعوة الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم ما كان من نبيّ الله نوح عليه السلام لقومه جاء على لسانه: ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَتُ لَهُمُ الْوُجُوهَ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ١ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ

مرتضى، إتخاف السّادة المتّقين بشرح، إحياء علوم الدّين، كتاب الخوف والرّجاء، بيروت: دار الكتب العلميّة، ط1، ج 11، 2016م)، ص 362، وترجم البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أحبّ الدّين إلى الله الحنيفيّة السّميحة، من حديث أبي هريرة، رقم الحديث 39، ص 20.

(1) - عبد العباس حسن الأسدي، معاني القبول والرّفص في القرآن الكريم دراسة في الألفاظ والأساليب، أطروحة الدّكتوراه فلسفة في اللّغة العربيّة وآدابها، جامعة الكوفة، كلّية التّربية للبنات، قسم اللّغة العربيّة وآدابها، 1430هـ/2009م، ص-ص 201، 202.

(2) - مرفت محمّد أحمد حماد، الموعظة في ضوء القصص القرآني، رسالة ماجستير، غزة، الجامعة الإسلاميّة، كلّية أصول الدّين، قسم التّفسير وعلوم القرآن، 1436هـ/2015م، ص 105.

كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيجعل لكم أنهرًا ﴿١٢﴾ [نوح: 9-12] في الآيات إشارة إلى مثابة النبي نوح عليه السلام في دعوة قومه تكررًا وتنوعًا، فهو يدعوهم إلى الله سرًا وجهرًا وليلاً ونهارًا، ويوجههم أن يستغفروا ربهم مبشرًا إيّاهم بأنه غفور رحيم، فظهر فيها ترغيب في كثرة الاستغفار، فإذا إطمأن الإنسان إلى وجود قبول لفعله فعله، كما استعرض نبي الله نوح عليه السلام مغريات ما أعدّه الله لعباده المؤمنين المستغفرين خيرًا كثيرًا، فكان أول ما بشرهم بالمطر الذي سينزل عليهم مدرارًا كثيفًا غزيرًا يكفيهم سقاية وزراعة ويزيد.⁽¹⁾

ج- الترهيب

كما للترغيب أثر في النفس البشرية فللترهيب أثره كذلك، وقد حرص الأنبياء عليهم السلام في غالبية مواقفهم مع أقوامهم في دعوتهم بالموازنة بين الترغيب والترهيب واللين والشدّة، منها ما ورد على لسان رسول الله ﷺ في صدر سورة هود الآية [هود: 2-4] هنا يحذر النبي ﷺ قومه ناهيًا إيّاهم أن لا يعبدوا أحدًا غير الله، وهو بهذا التوجيه نذير لهم مخوف من العذاب للكافرين، ومبشر بالجنة التي وعدت للمتقين، ثم تأتي توجيهاته لهم بالتوحيد والاستغفار والتوبة فيرغبهم في السمع والطاعة ويعدهم بعطاء جزيل وخير كثير وأول هذا الخير⁽²⁾، وفي سياق الحديث عن الترهيب في القرآن الكريم، ما جاء على لسان نبي الله إبراهيم عليه السلام في دعوته لأبيه آزر، حينما وجده على ما هو عليه وقومه من كفر وشرك فقال: ﴿يَتَّبِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ ﴿٤٣﴾ يَتَّبِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَتَّبِعْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ [مريم: 43-45] أي: تكون كذلك إن لم تتدارك أمرك وتتب فتكون وليًا له، أي ناصرًا وقرينًا في النار،⁽³⁾ لقد سلك النبي إبراهيم عليه السلام في دعوته أجمل الآداب في الحجاج، واحتج بأروع البراهين ليرد أباه عن غيّه ويوقفه إلى طريق الهدى والرّشاد فيقول: (يا أبتِ إِنِّي وَإِنْ كُنْتُ مِنْ صُلْبِكَ وَتَرَانِي أَصْغَرَ مِنْكَ لِأَنِّي وَلَدُكَ فَاعْلَمْ أَنِّي قَدْ إِطْلَعْتُ مَعَ الْعِلْمِ عَلَى مَا لَمْ تَعْلَمْهُ أَنْتَ، وَلَا إِطْلَعْتُ عَلَيْهِ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ طَرِيقًا مُسْتَقِيمًا)⁽⁴⁾ وينذر نبي الله إبراهيم عليه السلام أباه مرهبًا إيّاه

(1) - الخازن، تفسير الخازن المسمى باب التأويل في معاني التنزيل، ج 4، المرجع السابق، ص 345.

(2) - يُنظر: الخازن، تفسير الخازن المسمى باب التأويل في معاني التنزيل، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، ج 2،

1425هـ/2004م)، ص 471.

(3) - جلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين (القاهرة: دار الحديث، ط 1، ج 1، د، ت)، ص 308.

(4) - ابن كثير، تفسير ابن كثير، المصدر السابق، ص 234.

بقوله: ﴿يَتَأْتِيَ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ ﴿فَبَيْنَ سَبَبِ النَّهْيِ عَنْ طَاعَتِهِ، أَنَّ الشَّيْطَانَ عَاصٍ مُسْتَكْبِرٌ، فَحَذَّرَهُ مِنْ سُوءِ عَاقِبَةِ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ فَقَالَ اللَّهُ: ﴿يَتَأْتِيَ إِيَّيْكَ أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾﴾ يفسر الشيخ المراغي قول إبراهيم عليه السلام فقال: (أي: يا أبي إني أخاف لمحبتني لك أن يصبك عذاب من الرحمن على شركك وعصيانك فتكون للشيطان قريناً في النار فلا يكون لك ناصرًا ولا مغيثاً إلا الشيطان)⁽¹⁾.

فغرض الدعوة ليس التعدي على أبيه، وإنما إشفاق المحب على حبيبه من أن يصيبه عذاب الرحمن فيكون بذلك قد حكم على نفسه أن يكون قريناً للشيطان⁽²⁾، ورغم العداء الذي بادر به أبوه وقومه، إلا أنه لن يقابلهم بالمثل، فجاء في قوله تعالى على لسان أبيه: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَتَّبِعُهُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ ﴿[مریم: 46] فما كان ردُّ نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام لأبيه بالحسن قائلاً: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا﴾ ﴿[مریم: 47] وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ ﴿[مریم: 48] كان ردُّ إبراهيم عليه السلام على أبيه بأسلوب راقٍ تجلَّى فيه كل معاني القيم الإنسانية السامية، وكان جميلاً مناقضاً للموقف العدائي الذي اتخذته أبوه وقومه ضده، إذ ألقى عليه السلام إشارة منه إلى أنه لن يقابلهم بمثل ما قابلوه من العداء، فبمثل هذه المواعظ اهتم بها القرآن الكريم جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿[١١] وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصَبِرَ عَلَىٰ مَا أَذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ﴿[١٢] وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُولُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿[١٣] وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ ﴿[١٤] وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ﴿[إبراهيم: 11-15].

(1) - حمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي (مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط1، ج26، 1365هـ/1946م)، ص-ص 56، 57.

(2) - أبو الليث السمرقندي، تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم، تحقيق: علي محمد عوض وآخرون (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، ج1413، 2هـ/1993م)، ص 376. ومرفت محمد أحمد رجاء، الموعظة في ضوء القصص القرآني دراسة موضوعية، رسالة ماجستير غزوة، الجامعة الإسلامية، كلية أصول الدين، قسم التفسير وعلوم القرآن، 1436هـ/2015م)، ص 75.

ثانياً: إثارة منابع الرحمة والرفقة

من أساليب المنهج العاطفي الفعالة لوصول الداعية إلى قلوب الناس وأعماق نفوسهم فيستميلها إلى الحق طائعة من خلال إثارة منابع الرحمة والشفقة والرفقة بهم، والشعور بمشكلاتهم ومعاناتهم وتقديرها فيأتي الأمر الرباني لنبية قائلاً: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظًا أَلْقَلْبَ لَا نَفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159] يذكر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله عند تفسيره للآية أهمية هذا الأسلوب ومبرراً أهم مواطن استعماله فقال: (واللّٰين هنا مجاز في سعة الخلق مع أمة الدعوة والمسلمين، وفي الصّفح عن جفاء المشركين، وإقالة العثرات)⁽¹⁾ وقال رحمه الله: (أرسل محمد ﷺ مَفْطُورًا على الرَّحْمَةِ، فكان لينه رَحْمَةً من الله بِالْأُمَّةِ في تَنْفِيذِ شَرِيعَتِهِ بدونِ تَسَاهُلٍ وَبِرْفِقٍ وَإِعَانَةٍ على تَحْصِيلِهَا، فَلِذَلِكَ جُعِلَ لِيْنُهُ مُصَاحِبًا لِرَحْمَةٍ من الله أَوْدَعَهَا الله فِيهِ، إِذْ هو قد بُعِثَ لِلنَّاسِ كَافَّةً، وَلَكِنْ اخْتَارَ الله أَنْ تَكُونَ دَعْوَتُهُ بَيْنَ الْعَرَبِ أَوَّلَ شَيْءٍ لِحِكْمَةٍ أَرَادَهَا الله تَعَالَى فِي أَنْ يَكُونَ الْعَرَبُ هُم مَبْلُغِي الشَّرِيعَةِ لِلْعَالَمِ)⁽²⁾ وأوضح سبب اختيار العرب تحديداً فقال: (والعرب أُمَّةٌ عُرِفَتْ بِالْأَنْفَةِ، وَإِبَاءِ الضَّيِّمِ، وَسَلَامَةِ الْفِطْرَةِ، وَسُرْعَةِ الْفَهْمِ، وَهُمْ الْمُتَلَقُّونَ الْأَوَّلُونَ لِلدِّينِ فَلَمْ تَكُنْ تَلِيقُ بِهِمُ الشَّدَّةُ وَالْغَلْظَةُ، وَلَكِنَّهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَى اسْتِنْزَالِ طَائِرِهِمْ فِي تَبْلِيغِ الشَّرِيعَةِ لَهُمْ، لِيَتَجَنَّبُوا بِذَلِكَ الْمَكَابِرَةَ الَّتِي هِيَ الْحَائِلُ الْوَحِيدُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْإِدْعَانِ إِلَى الْحَقِّ)⁽³⁾ ويقول الشيخ السَّعْدِي رحمه الله في تعليقه على الآية: (أي: برحمة الله لك ولأصحابك من الله عليك، أَنْ أَلْتَمَسَ لَهُمْ جَانِبَكَ، وَخَفَضْتَ لَهُمْ جَنَاحَكَ، وَتَرَقَّقْتَ عَلَيْهِمْ، وَحَسَنْتَ لَهُمْ خَلْقَكَ فَاجْتَمَعُوا عَلَيْكَ وَأَحْبَبُوكَ وَامْتَثَلُوا لِأَمْرِكَ)⁽⁴⁾ وأضاف موضِّحاً سُنَّةَ الْإِقْتِدَاءِ بِأَخْلَاقِهِ الْعَظِيمَةِ فقال: (أليس من أوجب الواجبات وأهم المهمَّاتِ الْإِقْتِدَاءُ بِأَخْلَاقِهِ الْكَرِيمَةِ وَمُعَامَلَةُ النَّاسِ بِمَا كَانَ يَعَامِلُهُمُ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ اللَّيْنِ، وَحَسَنِ الْخَلْقِ، وَالتَّأْلِيفِ إِمْتِثَالًا لِأَمْرِ الله وَجَذْبًا لِعِبَادِ الله لَدِينِ الله)⁽⁵⁾ فجاءت هذه الآية مؤكدة للرحمة بأسلوب من

(1) - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير (تونس: الدار التونسية للنشر، د، ط، ج4، 1984م)، ص 144.

(2) - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، المرجع السابق، ص 145.

(3) - المرجع نفسه، ص 145.

(4) - السَّعْدِي، تيسير الكريم الرَّحْمَانِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمُتَّانِ، تحقيق: عبد الرَّحْمَانِ بْنُ مَعْلَا الْوَيْحَقِ (الرِّيَاض: دار السَّلام للنَّشْرِ وَالتَّوْزِيع، ط2، 1422هـ/2002م)، ص 164.

(5) - المرجع نفسه، ص 164.

أقوى أساليب التوكيد، ألا وهو أسلوب الحصر، وأداته هنا التّفي والاستثناء، فدلّ على ذلك أنّ الرّحمة عامة،⁽¹⁾ ولإثارة منابع الرّحمة والرّأفة تجاه المدعويين له صور شتى أشار إليها القرآن الكريم منها :

أ- القول اللّين

هو مفتاح الدّخول إلى عقول المدعويين وقلوبهم، وقد أمر الله به في قوله لنبيّه موسى عليه السلام: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ فَقُولَا لَهُ ۖ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: 43-44] موسى عليه السلام صفيّ الله من خلقه، وفرعون بجبروته وطغيانه يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ﴾ [التّازعات: 24] ومع ذلك يأمر الله موسى وأخاه أن يقولوا له قولاً لّيناً: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ بمعنى أنّ القول اللّين والكلمة الطيبة مظنة التأثير على السّامع حتّى يستجيب فيتذكّر قلبه ويخشى الله⁽²⁾ أمّا عدم إستجابة المشركين للنبيّ ﷺ وما لحقه من مشاق وأذى، توجّه إلى ربّه قائلاً: ﴿وَقِيلِهِ يَرْبِّ إِنَّا هَنُوكَاءُ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزّحرف: 88] فالله تعالى يدعو نبيّه إلى أن لا يملّ ولا يكلّ، وأن لا يجيد عن منهج الدّعوة إلى الله، وأن يقابلهم بأعذب كلمة وصفح جميل مهما كان جهل الطّرف الآخر، فأمره الله بالقول: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزّحرف: 89] وهذا قمة الأخلاق وأرفعها، اصطبغ بها نبيّ الرّحمة ممّا تلقّى من أوامر ربّه في أي ذكره، كلّما قالوا: فُحشا، قلّ لهم: سلاماً ومغفرة، وقد أشار القرآن إلى ما أثمره القول اللّين من نجاح في دعوة النبيّ ﷺ وتأثيرها في النّاس⁽³⁾ من خلال قول الله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَقُضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159] إنّ السّياق هنا يتّجه إلى النبيّ ﷺ يذكره بالرّحمة الإلهية التي وهبها إيّاه، أن جعله ليّناً مع أتباعه في كلّ أحواله، تجلّت في أحلك الطّروف كانتكاسة غزوة أُحُد، فلم يسرف ﷺ في تعنيفهم ولومهم على ما كان منهم من أخطاء، فقد تصرّف معهم تصرّف الحكيم الملمهم فلا عنف ولا وئخ، وهو يراهم يؤرّهم الحزن أزّاً، فأعطى الله لنبيّه ﷺ منهجاً في الدّعوة ليتّخذة محوراً أساسياً في حياته، وينبّهه أن لو كان فظّاً غليظ القلب في ذلك

(1) - محمّد بن إبراهيم الحمد، بحث حول الرّحمة والعظمة في السّيرة النبوية، جامعة القصيم، كليّة الشريعة، قسم أصول الدّين والعقيدة، 1428هـ، ص 42.

(2) - عودة عبد عودة عبد الله، الكلمة الطيبة وأثرها في الدّعوة إلى الله من منظور قرآني، مجلّة معهد الإمام الشّاطبي، معهد الإمام الشّاطبي للدراسات القرآنية، 2014م، ص 24.

(3) - المرجع نفسه، ص - ص 24، 25.

الموقف العصب الذي أصابهم يوم أُحُد، لتفرّقوا عنه ونفروا منه ولم يسكنوا إليه، عن عبد الله بن عمر بن العاص رضي الله عنه قال: «إني أرى صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة أنه ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي السيئة، ولكن يعفو ويصفح»⁽¹⁾ ونبي الله ﷺ لم يكن فظاً وسيء الخلق، خشن الكلام، ولم يكن غليظ القلب قاسياً وشديداً، بل كان رفيقاً داعياً إلى الرفق⁽²⁾ فقال: «من يجرم الرفق يجرم الخير»⁽³⁾ يقول الأستاذ سيّد قطب رحمه الله: (فهي رحمة الله التي نالته ونالتهم، فجعلته ﷺ رحيماً بهم، ليتنا معهم، ولو كان فظاً غليظ القلب ما تألفت حوله القلوب، ولا تجمّعت حوله المشاعر، فالناس في حاجة إلى كنف رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة، وإلى ودّ يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم... في حاجة إلى قلب كبير يُعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء، ويحمل همومهم ولا يعينهم بهم، ويجدون عنده دائماً الإهتمام والرعاية والعطف والسّماحة والودّ والرّضا، وهكذا كان قلب رسول الله ﷺ، وهكذا كانت حياته مع الناس، ما غضب لنفسه قطّ، ولا ضاق صدره بضعفهم البشري، ولا احتجز لنفسه شيئاً من أعراض هذه الحياة، بل أعطاهم كلّ ما ملكت يده في سماحة نديّة، ووسعهم حلمه وبرّه وعطفه وودّه الكريم، وما من واحد منهم عاشره أو رآه إلّا امتلأ قلبه بحبّه؛ نتيجة لما أفاض ﷺ من نفسه الكبيرة الرحية، وكان هذا كلّ رحمة من الله به وبأمّته .. يذكرهم بها في هذا الموقف ليرتب عليها ما يريد سبحانه حياة هذه الأمة من تنظيم: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159]⁽⁴⁾، وقوله تعالى أيضاً في الرفق: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: 08] وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: 83].

ب- الكلمة الاستعطافية

كقول يا أبت، يا بني، يا قوم، يا أيّها الذين آمنوا ... هذه الكلمات استخدمها الأنبياء عليهم السلام في دعواتهم لأبائهم وأبنائهم وأقوامهم والناس أجمعين، لاستمالتهم واستدراجهم للدخول إلى

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كراهية السّخب في الأسواق، رقم الحديث 2125، ص 511.

(2) - محمّد جمال الدّين القاسمي، تفسير القاسمي المسمّى محاسن التّأويل، تحقيق: محمّد باسل عيون السّود (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، ج 2، 1418هـ)، ص 1020.

(3) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب فضل الرفق، رقم الحديث 2592، ج 2، ص 1202.

(4) - يُنظر: سيّد قطب، في ضلال القرآن (القاهرة: دار الشّروق، ط 1، مج 1، ج 4، 1972م)، ص 500.

الإيمان، وذكرت في مواضع كثيرة في القرآن الكريم نورد منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ [مریم: 41-42] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّكَ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13] وما يتعلّق بالدّاعية للمدعو كقوله إني أحبك، إني أخشى عليك، أو أخاف عليكم ... يقول تعالى في الآية: ﴿إِنِّي أَرِيدُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ (٨٤) [هود: 84] هذه الألفاظ اللطيفة والمعبرة عن المحبة والألفة والرّفق لها تأثيرها الفعّال في النفوس ودورها النّاجح في إستقطاب المخاطبين⁽¹⁾، وهذا الأسلوب له فعالية في تمكين الدّعوة ونجاحها، فكلّما أحسّ المدعو أنّ قلباً رحيماً يخاطبه كان أدعى له أن يستجيب لما يسمعه، وقد اهتمّ بها القرآن فكرّرها في أكثر من موضع، فينبغي على الدّاعية تلطيف أسلوبه في إستخدام مثل هذه العبارات الوجدانية في مخاطبه مدعويه.

ثالثاً: قضاء الحاجات وتأمين الخدمات

يعدّ هذا الأسلوب منهجاً دعويّاً وعمليّاً خالصاً، يربط بين الحاجات المادّية والرّغبات النّفسيّة للمدعو وعموم النّاس، ويسعى إلى تحقيق أواصر المحبة بين الدّاعية والمدعويين من خلال السّعي وراء خدمة مصالحهم وقضاء حاجاتهم وخدمة المجتمع وإقامته على أسس سليمة، والسّعي في قضاء حوائج النّاس من الأخلاق السّامية التي ندب إليها الإسلام وحثّ الدّعاة عليها، فجعلها من باب التّعاون على البرّ والتّقوى الذي أمرنا الله تعالى به فقال في محكم تنزيله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا نَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: 2] كما اعتنى القرآن بهذا الجانب الخيري فحثّ على التّعاون والبذل والعطاء ومساعدة النّاس، والشّواهد في هذا كثيرة، منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا نَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: 2] يقول الإمام ابن كثير رحمه الله مفسّراً للآية: (يأمر الله تعالى عباده بالمعونة على فعل الخيرات، وهو البرّ، وترك المنكرات وهو التّقوى، وينهاهم عن التّنصر على الباطل، والتّعاون على المآثم والمحارم)⁽²⁾ وقال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتٍ

(1) - حامد بن أحمد بن علي العامري، الدّعوة إلى الله بالمنهج العاطفي، المرجع السّابق، ص - ص 93، 141.

(2) - ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج3، المصدر السّابق، ص 10.

اللَّهُ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ [النساء: 114] أي: لا خير في كثيرٍ ممَّا يتناجى به النَّاس ويتخاطبون، وإذا لم يكن فيه خير، فإمَّا لا فائدة فيه كفضول الكلام المباح، وإمَّا شرٍّ ومضرة محضة كالكلام المحرم بجميع أنواعه، فدعا القرآن إلى التَّعاون والسَّعي في قضاء حوائج النَّاس ومساعدتهم بدل من المحادثات التي لا فائدة منها، وذلك من خلال الأمر بالصدقة والحثُّ عليها، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والإصلاح بين النَّاس، لأنَّ ترك المنهيات من المعروف والإصلاح لا يكون إلَّا بين متنازعين متخاصمين والنَّزاع والخصام والتَّغاضب يوجب من الشرِّ والفرقة ما لا يمكن حصره، فلذلك حثَّ الشارع على الإصلاح بين النَّاس في الدِّماء والأموال والأعراض بل وفي الأديان (1) يقول تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103] وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ ﴿٢٨﴾﴾ [الحج: 28] وقوله أيضًا: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان: 8] فهذه الأعمال السَّالفة الذِّكر تعدُّ من أعظم مقاصد الدِّين، يترتَّب عليها تكافل المجتمع ووحدته، وتوثيق أواصر المحبة بين أفرادها، وتأسيس وحدة الشُّعور بالآخر، وعلى غرار ما سبق ذكره نجد القرآن الكريم أفاض بالعديد من الآيات التي تتحدَّث على المنهج العاطفي، فلا تكاد تخلو سورة من سورهِ إلَّا ودُّكر الجانب العاطفي وأساليبه، ولاسيما في دعوات الأنبياء عليهم السلام ليكونوا أنموذجًا أصيلًا يحتذى به الدَّاعية في أيِّ زمان وأيِّ مكان، وعليه إقتصرتُ على بعض النَّماذج من بابِ البيان وإيضاح المعنى.

المطلب الثاني: تأصيل المنهج العاطفي في السَّنة النَّبوية

بما أنَّ القرآن الكريم غنيٌّ بمشاهد كثيرة ومتعدِّدة في المنهج العاطفي، فإنَّ السَّنة النَّبوية أيضًا تزخرُ بشتَّى الأساليب التي تتعلَّق بالمنهج العاطفي، يمكن أن يقف عندها أيُّ داعية في أيِّ زمان ومكان منها، فيجد فيها الحلول الصَّحيحة والمواقف السَّليمة التي تعينه في دعوته، وبمَّا أننا بصدد الحديث عن المنهج العاطفي في الدَّعوة ولاسيما في دعوة النَّبي ﷺ فإنَّ دلالة مشروعيته قائمة وثابتة، والدِّراسة الحالية ستنتقي كمًّا كبيرًا من الأحاديث المتعلِّقة بالموضوع، كما لا يخفى أنَّ السَّنة النَّبوية تحمل من الدَّلالات ما لا يعدُّ ولا يحصى، إلَّا أنَّني في هذا المطلب سأقفُ على بعض الأحاديث

(1) - السَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمان في تفسير كلام المَنَّان، تحقيق: عبد الرَّحمان بنُ معلا اللويحي (مؤسَّسة الرِّسالة، ط1، ج1، 1420هـ/2000م)، ص 202.

الواردة في المنهج العاطفي من خلال أساليبه كما فعلنا ذلك أثناء حديثنا عن مشروعيته في القرآن الكريم، وسيتم التفصيل فيها لاحقاً من خلال فصول الدراسة المقبلة منها كالآتي:

أولاً : الموعظة الحسنة

كان النبي ﷺ ينحى بدعوته منحى حسن الموعظة على أوفر دعائمها، وسبب عناصرها، فكانت مواعظه تُحدث مسحة على القلوب وتهيج العيون بعبراتها فتذرفها، عن أبي نجيح العرياض بن سارية رضي الله عنه أن النبي ﷺ: «وعظنا يوماً بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب...»⁽¹⁾ وعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رجل: «يا رسول الله لا أكاد أدرك الصلاة مما يطول بنا فلان، فما رأيت النبي ﷺ في موعظة أشد غضباً من يومئذ، فقال: يا أيها الناس إنكم منفرون فمن صلى بالناس فليخفف، فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة»⁽²⁾ فالذي قاله ﷺ كان وعظاً منه وتعليماً، وللموعظة الحسنة دلالات وصور متعددة وردت في مواضع كثيرة من السنة النبوية نذكر منها كالآتي:

أ- الإشارة اللطيفة

استخدم النبي ﷺ الإشارة في دعوته للناس، فجاءت متنوعة من حيث الهدف والتوظيف، فظهرت تارة بالأصبع، وتارة باليد أو اليدين أو غيرها، أو تغير ملامح الوجه، أو هيئة الجلسة بهدف التعبير أو بلورة الأحاسيس، وكل إشارة تحقق هدفاً من زيادة لوضوح المعنى إلى إثارة انتباه لترسيخ فكرة ما، ومن أمثلة استخدام الإشارة ما رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي بردة عن أبي موسى رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، ثم شبك بين أصابعه»⁽³⁾ كان أسلوب الإشارة في الحديث واضحاً، فاستخدم عليه الصلاة والسلام الإشارة بحركة اليد فكانت حركة مقصودة تعبر عن معنى الموعظة ودلالاتها في التعاون والتكافل بين المؤمنين، وهو بلا

(1) - أخرجه الترمذي في سننه الجامع الكبير، تحقيق: بشار عواد معروف، كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، رقم الحديث 2676 (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ج4، 1998م)، ص 341. وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه أحمد في مسنده، برقم 16886. وأخرجه البيهقي في الشئب الكبير، كتاب آداب القاضي، باب ما يقضي به القاضي ويفتي به المفتي فإنه غير جائز له أن يقلد أحداً من أهل دهره، رقم الحديث 19709. وأخرجه أبو داود، كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، برقم 4607، ج2، ص611. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح ليس له علة، وقال البغوي: حديث حسن.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره، رقم الحديث 90، ص 24.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً، رقم الحديث 6026، ص 1511.

شكَّ له الأثر العميق في نفوس الصحابة رضوان الله عليهم⁽¹⁾ وحثَّه ﷺ وترغيبه في كفالة اليتيم ما رواه سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وقال بأصبعيه السبابة والوسطى»⁽²⁾ أشار النبي الكريم للمخاطبين من حوله إشارة لطيفة تفهم أنَّ كافل اليتيم معه في الجنة، وروى الدارمي عن عبد الله بن سفيان عن أبيه قال: «قلت يا رسول الله: أخبرني بعمل في الإسلام لا أسأل عنه أحدًا؟ قال: اتَّقِ الله ثم استقم فأشار إلى لسانه»⁽³⁾ فمعنى إشارة النبي ﷺ هنا هي حفظ اللسان، فالشاهد من خلال الأحاديث أنَّ الإشارة تزيد الكلام قوَّةً وبلاغةً وتأثيرًا في النفوس، وهي من أساليب المنهج العاطفي في الدعوة، فينبغي على الداعية أن يحسن استخدامها تأسيًا برسول ﷺ.

ب- الكناية

وهي لفظٌ أطلق وأريدَ به لازمٌ معناه، وهي نوعٌ من التعبير غير المباشر يعطي الكلام عمقًا وإجلالًا ويلبسها طراوةً وجمالاً، فالأسلوب الكنائي يتضمَّن بلاغةً وبراعةً في الكلام ونُكتًا وفوائد في البيان لا تتحقَّق تلك اللطائف بالتعبير المباشر⁽⁴⁾، وقد ظهرت في أحاديث كثيرة منها عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت الآخرة همَّةً جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همَّةً جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأتها من الدنيا إلَّا ما قدر له»⁽⁵⁾، ففي الحديث كنايات لطيفة كقوله: «من كانت الآخرة همَّةً» كناية عن التمسُّك بدين الله، وقوله: «جعل الله غناه في قلبه» عن القناعة بما قسم الله له الرِّزق ... وهكذا فللكناية جمالاً لغويًا في النفوس والمشاعر والأحاسيس وقد ظهرت بوضوح أكثر في حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثرُوا ذكرَ هادمِ اللَّذَاتِ»⁽⁶⁾ فهو كناية عن الموت، استخدم النبي ﷺ

(1) - عبد الله سعد الفالح، آداب الموعظة الحسنة (دار ابن الأثير، د، ط، 1427هـ)، ص 17.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب فضل من يعول، رقم الحديث 6005، ص 1507.

(3) - أخرجه الدارمي في سننه، تحقيق: مصطفى ديب البغا (دمشق: دار القلم، ط3، ج2، 1417هـ)، ص 754.

(4) - صور الكناية في الكلام النبوي، إضاءات نقدية، فصلية محكمة، السنة 3، العدد 9، 1392هـ/2013م، ص 49.

(5) - الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، كتاب التوبة والزُّهد، باب التَّوْبَةُ فِي الْفَرَاغِ لِلْعِبَادَةِ، رقم الحديث 3169 (الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط1، 1421هـ/2000م)، ص 231.

(6) - أخرجه الترمذي في سننه الجامع الكبير، كتاب الزُّهد، باب ما جاء في ذكر الموت، رقم الحديث 2307، ج4، المصدر السابق، ص 129. وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ، وفي صحيح سنن إِبْنِ مَاجَه، كتاب الزُّهد، باب الهمَّ بالدنيا، رقم الحديث 3329، ص 346. وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ. وفي السُّلْسِلَةُ الصَّحِيحَةُ لِلألباني، رقم الحديث 949 (الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط1، ج2، 1415هـ/1995م)، ص 633، وقال الشَّيْخُ الألباني: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

الكناية لأهداف سامية ومقصودة، ثم إنَّ للكناية جمالاً لغوياً مؤثراً في النفوس والمشاعر والأحاسيس، فعندما ذكر عليه الصلّاة والسلام في الحديث كلمة - هادم اللذات - فالواقع النفسي لهذه الكلمة أكثر عمقاً من ذكر كلمة الموت التي اعتاد الناس عليها⁽¹⁾، وعليه - توضيحاً لما سبق - تعدُّ الكناية من أهم أساليب القول اللين في الدعوة إلى الله، لأنَّه الأسلوب الذي يمدُّ للمتكلِّم يد العون في مقامات لا يحسن فيها التصريح والمواجهة⁽²⁾، ولدرجة تأثيرها جعلت إحدى أساليب المنهج العاطفي في الدعوة إلى الله، فالأساليب البيانية تثير خطاب الداعية تلفت الانتباه وتثير المشاعر.

ت- القصص الوجدانية

القصّة من أجمل الأساليب الخطابية والدعوية المؤثرة والمثيرة، تشدُّ المستمع إليها، تثير عواطفه وميوله وتساعد على تقليد الشخصيات، وقد سلك النبي ﷺ هذا المنهج في مواعظ عدّة منها ما رواه الإمام البخاري رحمه الله عن خبابٍ رضي الله عنه قال: «أتيت النبي ﷺ متوسّداً برده وهو في ظلّ الكعبة وقد لقينا من المشركين شدّة، فقلت: يا رسول الله ألا تدعو لنا؟ فقعد وهو محمّر وجهه، فقال: لقد كان قبلكم ليمشطُ بمشاط الحديد، ما دون عظامه من لحمٍ أو عصبٍ، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشأ على مفرق رأسه فيشقّ باثنين، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله»⁽³⁾ كان هذا في مكّة في وقت الأذى والإضطهاد لطائفة من أهل الإيمان، فهم قلة وضعفاء، والمشركون يسومونهم ألوان العذاب وصنوفه، فجاء الصحابة يشكون النبي ﷺ أن يدعو لهم ويستنصر لهم فلجأ إلى القصّة الوجدانية لإقناع الصحابة بأنّ الصبر مفتاح النصر، وأنّ المؤمنين السابقين لقوا من البلاء والظلم ما لقوا، بل ضحوا بأنفسهم في سبيل الله ما يصرفهم ذلك عن دينهم، فيصف النبي ﷺ لصحابته من خلال ظاهر الحديث طريقة ما تعرض له الأنبياء عليهم السلام والمؤمنين من الأمم السابقة، طريقة قتلهم حيث كانت وحشية تتحرّك لها المشاعر والعواطف وتقشعّر منها الجلود ويتأثّر بها أهل الإيمان، ليستسهلوا أنواع البلاء والحن التي تواجههم إذا ما قورنت بتضحيات المؤمنين السابقين، ثمّ ختم ﷺ القصّة بعرض

(1) - أخرجه الترمذي في سننه الجامع الصحيح، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، كتاب الزهد، باب ما جاء في ذكر الموت، رقم الحديث 2307 (مصر: شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ج4، 1382هـ/1962م)، ص 553.

(2) - محمد بن عبد الله الخراز، القول اللين وخلافه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المفهوم والتطبيقات دراسة بلاغية تحليلية، كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، جامعة القصيم، د، ت، ص 21.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة، حديث رقم 3852، ص 942.

الثقة الكاملة للنبي ﷺ وبثها في نفوس صحابته بأن الله سوف يتم هذا الأمر ويظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وأن الله ينصر من ينصره وما النصر إلا من عند الله⁽¹⁾، وهناك قصص أخرى كثيرة(*) تجلّت في موعظة النبي ﷺ كان لها أبلغ الأثر.

وعلى هذا ينبغي على الدّاعية أن يجعل هذا المشهد بين عينيّه، ليكون سبباً ودافعاً في تصبيره وثباته على الحقّ، لا يتنازل عنه في حال طمعٍ في رغبةٍ ولا في حال رهبةٍ، ومن جانبٍ آخر عليه أن يوظّف هذا الأسلوب عملياً في خطابه الدّعوي يسوق القصص المعيرة والمهادفة، بل ويكون حكيماً في عرضها تأسيّاً برسول الله ﷺ فلا يجعل قصصه كلّها ترهيباً ولا كلّها ترغيباً، بل يتناوب بين الإثنين حسب مقام الوعظ.

ث - التذكير بنعم الله

يعدّ التذكير بنعم الله شكلاً من أشكال الموعظة الحسنة، بحيث يكون مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالموضوع أو المشكلة أو المخالفة أو المعصية المراد وعظ الناس من أجلها، فهو يوقظ قلب الغافل وينبّهه إلى ما يرتع فيه الإنسان من خيرات عظيمة ونعم جليّة، فيكون ذلك أدعى للاستجابة لهدي الله، والأنبياء عليهم السلام كانوا يذكرون أقوامهم بنعم الله عليهم طالبين توحيده وناهيهم عن عبادة الأوثان⁽²⁾ وكان النبي ﷺ يستخدم أسلوب التذكير في معالجة بعض الأحوال التي مرّ بها، ومن ذلك ما رواه الإمام البخاري رحمه الله عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال: «لَمَّا أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسّم في الناس في المؤلفة قلوبهم، ولم يعط الأنصار شيئاً، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب

(1) - يُنظَر: العثيمين، شرح رياض الصّالحين (الرياض: دار الوطن للنشر، ج1، 1426هـ)، ص 251.

(*) - من القصص التي يحكي فيها النبي ﷺ: قصّة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار (يُنظَر: الألباني، صحيح التّرجيب والترهيب، عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، كتاب الإخلاص، باب التّرجيب في الإخلاص والصدّق في النّيّة، حديث 1 (الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتّوزيع، ط1، مج 1، 1464هـ)، ص 62. وفي صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم الحديث 3465، ص 858، وقصّة الذي قتل مائة نفس، و(يُنظَر: يحيى بن شرف النووي، المنهاج في شرح صحيح مسلم، شرح النووي على مسلم، كتاب التّوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم الحديث 2766، (بيت الأفكار الدّولية، د، ط، د، ت)، ص 1617، وقصّة الأعمى والأبرص والأقرع، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل، رقم الحديث 3464، ص 857.

(2) - محمّد أحمد محمّد عبد القادر خليل ملكاوي، عقيدة التّوحيد في القرآن الكريم، رسالة قدمت في جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلامية، الرياض، لنيل درجة الماجستير، ص 230.

النَّاسَ فخطبهم فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي؟ وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمْ اللَّهُ بِي؟ وَعَالَهُ فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ بِي؟ كُلُّمَا قَالَ شَيْئًا، قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرٌ قَالَ: مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُجِيبُوا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرٌ، قَالَ: لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ: جِئْنَا كَذَا وَكَذَا، أَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى رِحَالِكُمْ؟ لَوْلَا (*) الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا أَوْ شِعْبًا (*) لَسَلَكْتُ وَادِي الْأَنْصَارِ وَشِعْبَهَا، الْأَنْصَارُ شِعَارُ وَالنَّاسُ دِثَارُ، إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَهُ، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْخَوْضِ»⁽¹⁾ تجلَّى في الحديث أخلاق النبي ﷺ العاطفية، وكيفية تعامله مع المواقف الصعبة والنُّفوس المختلفة عندما غنم المسلمون غنائم عظيمة فقَسَّمَهَا على المؤلفة قلوبهم ولم يعطِ لِلْأَنْصَارِ شَيْئًا ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ الرِّسُولَ قد نسيهم، فبلغ النبي ﷺ فتعجَّب ما حلَّ ذلك في نفوسهم، فخطبهم خطبة ألانت قلوبهم، وأدْمَعَتْ أعينهم وأقْنَعَتْ عقولهم، والشَّاهد في ذلك أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عمد إلى استخدام أسلوب التذكير بنعم الله على الأنصار عندما ظنَّ منهم أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قد نسيهم أو تناساهم بعد النَّصر، فلم يعطهم شَيْئًا مِمَّا أُعْطِيَ قَرِيشًا وَغَاب عَنْهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ لِيَتَأَلَّفَ قَرِيشًا، وَأَنَّهُ أُعْطَاهُمْ أَفْضَلَ النِّعَمِ صَحْبَتَهُ وَجَعَلَهُمْ مِنْ خَاصَّتِهِ مُبَيِّنًا لَهُمْ حِكْمَتَهُ وَقَصْدَهُ، وَالنَّبِيُّ ﷺ عندما لجأ إلى هذا الأسلوب لِأَنَّهُ الْأَفْضَلُ وَالْأَنْجَحُ وَالْذَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الْأَنْصَارَ بَعْدَ نَهَايَةِ خُطْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ بَكَوْا وَنَدِمُوا، وَهَذَا مِنْ أَكْبَرِ نِعَمِ اللَّهِ فِي بَعَثَةِ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ أَنَّ أَلْفَ بِهِ بَيْنَ قَوْمٍ قَوِيَّتْ بَيْنَهُمُ الْعَصَبِيَّاتُ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ شَأْنُ الدَّاعِيَةِ هَكَذَا يُؤَلَّفُ بَيْنَ الْمُتَفَرِّقِينَ وَيَأْتَلَفُ حَوْلَهُ الْمُحِبُّونَ⁽²⁾.

(*) - وَلَوْلَا الْهَجْرَةُ: أَيُّ: لَوْلَا شَرَفُهَا وَجَلَالَةُ قَدَرِهَا عِنْدَ اللَّهِ، (يُنْظَرُ: سَنَنْ إِبْنُ مَاجَه، تَحْقِيقُ: مُحَمَّدٌ فُؤَادُ عَبْدِ الْبَاقِي، كِتَابُ الْمَقْدَمَةِ، أَبْوَابُ فُضَائِلِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، بَابُ فَضْلِ الْأَنْصَارِ، رَقْمُ الْحَدِيثِ 164 (دَارُ إِحْيَاءِ الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ، فَيَصِلُ عَيْسَى الْبَابِي الْحَلَبِيِّ، د، ط، ج 1، د، ت)، ص 58.

(*) - شِعْبًا: الشَّعْبُ الطَّرِيقُ فِي الْجَبَلِ أَوْ انْفِرَاجُ بَيْنِ جَبَلَيْنِ، (يُنْظَرُ: سَنَنْ إِبْنُ مَاجَه، الْمَصْدَرُ السَّابِقُ، ص 58)، وَقَالَ إِبْنُ السَّكَيْتِ: هُوَ الطَّرِيقُ فِي الْجَبَلِ، وَفِيهِ فَضِيلَةُ الْأَنْصَارِ وَرِجَاحَتُهُمُ (الْمَنْهَاجُ فِي شَرْحِ صَحِيحِ مُسْلِمَ بْنِ الْحَاجَّاجِ الْمُسَمَّى بِشَرْحِ النَّوَوِيِّ عَلَى مُسْلِمَ، كِتَابُ الرِّكَاتِ، بَابُ إِعْطَاءِ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبَهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، رَقْمُ الْحَدِيثِ 1061، الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 668).

(1) - أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، كِتَابُ الْمَغَازِي، بَابُ غَزْوَةِ الطَّائِفِ فِي شَوَالِ سَنَةِ ثَمَانٍ قَالَهُ مُوسَى بْنُ عَقِبَةَ، رَقْمُ الْحَدِيثِ 4330، ص 1060.

(2) - مُحَمَّدٌ مُحَمَّدُ الْخَزْنَادَرِ، هَذِهِ أَخْلَاقُنَا (الرِّيَاضُ: دَارُ طَبِيعَةِ النَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ، ط 2، 1417هـ/1997م)، ص 194.

ج- المدح و الذم

إستخدم النبي ﷺ مختلف أساليب المنهج العاطفي وكان من أبرزها أسلوب المدح والذم، فالمدح يدفع النفوس إلى التحلي بالفضائل والذم يمنعها من الوقوع في الرذائل، مع مراعاة أن هذا الأسلوب يهدف إلى تنشيط نوازع الخير لدى المدعو والإبتعاد عن نوازع الشر، ومثال ذلك ما جاء عن النبي ﷺ عندما قال: «ألا خبركم عن التفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله، وأما الآخر فاستحيى الله منه، وأما الآخر فأعرض الله عنه»⁽¹⁾ ففي هذا الأسلوب ترغيب للمحسن وتحذير للمسيء، وفي مدحه ﷺ لأصحابه رضوان الله عنهم، كان يذكر خصائصهم ومزاياهم، ومن أمثلة ذلك عن ابن بُرَيْدَةَ ﷺ عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أمرني بحب أربعة، وأخبرني أنه يحبهم، قيل: يا رسول الله سمهم لنا؟ قال: علي منهم، يقول ذلك ثلاثا، وأبو ذرٍّ والمقداد وسلمان أمرني بحبهم وأخبرني أنه يحبهم»⁽²⁾ وعن أبي سعيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع في أفق السماء، وإن أبا بكرٍ وعمرَ منهم وأنعماء»⁽³⁾، وقوله ﷺ مادحا الأنصار: «الأنصار شعائرٌ (*) والناس دثارٌ»⁽⁴⁾ فالأنصار هم البطانة والخاصة والأصفياء، وألصق برسول الله ﷺ من سائر الناس، وهذا من مناقبهم الظاهرة وفضائلهم الباهرة⁽⁵⁾ كما إستخدم النبي ﷺ الذم أيضا بكشف العيوب والأخطاء، خاصة إن كان الخطأ يتعلق بالعقيدة أو إتهام محارم الله، عن

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من قعد حيث ينتهي به المجلس ومن رأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، رقم الحديث 66، ص 29.

(2) - أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب مناقب علي ﷺ، حديث 3718 المصدر السابق، ص 83. وقال: حديث حسنٌ غريبٌ إلا من حديث شريك. وفي شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى الكاشف عن حقائق السنن، كتاب المناقب، باب جامع المناقب، رقم الحديث 6258، ص 316. وقال: هذا حديث صحيح، وفي مقدمة صحيح سنن ابن ماجه، فضل سلمان وأبي ذرٍّ والمقداد رحمهم الله، رقم الحديث 122، 149، ص 66. وقال: هذا حديث حسنٌ.

(3) - أخرجه الترمذي في سننه الجامع الكبير، أبواب المناقب، باب مناقب أبي بكر الصديق ﷺ، رقم الحديث 3658، مج 6، المصدر السابق، ص 39، وقال: هذا حديث حسنٌ صحيح، وأخرجه أحمد 27/3، وابن ماجه 96، والطبراني في الصغير له 353 و570. والمسند الجامع 477/6، رقم الحديث 4652، وصحيح الترمذي للألباني حديث 2892.

(*) - الشعائر: هو الثوب الذي يلي الجسد والدثار: فوقه (المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج المسمى بشرح النووي على مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، رقم الحديث 1061، المرجع السابق، ص 668).

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف في شوال ثمان قاله موسى بن عقبة، رقم الحديث 4330، ص 536. وفي المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج المسمى بشرح النووي على مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، رقم الحديث 1061، المرجع السابق، ص 668.

(5) - المرجع نفسه، ص 668.

عدي بن حاتم أن رجلاً خطب عند النبي ﷺ فقال: « من يُطع الله ورسوله فقد رَشَدَ، ومن يعصهما فقد غَوَى، فقال رسول الله ﷺ: بُسَ الخطيبُ أنتَ قل: ومن يعص الله ورسوله»⁽¹⁾ يقول العلامة القاضي رحمه الله: (إنما أنكر عليه لتشريكه في الضمير المقتضي للتسوية، وأمره بالعطف تعظيماً لله تعالى بتقديم اسمه كما قال ﷺ)⁽²⁾ كان سبب النهي أنه مسَّ أمراً من أمور العقيدة، فذكر العيب لمرتكبه ولمن بلغه هذا الحديث في الوقت نفسه، ليبين أن دلالة كلامه أمراً خطراً، وذمَّ مرتكب الخطأ صراحة فيه دلالة على أن الأمر بالغ الخطورة، ومبيناً ذلك في قوله: «لا يقل أحدكم ما شاء الله وشاء فلان، ولكن ليقُلْ ما شاء الله ثم شاء فلان»⁽³⁾ ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ: «إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً لتفهم»⁽⁴⁾ وقال محذراً: «لا تكذبوا عليّ، فإنه من كذب عليّ فليج النار»⁽⁵⁾.

ثانياً: إثارة منابع الرحمة والرأفة بالمدعويين

السنة مليئة بالعبر، وحافلة بالأسرار، ومريّة للعواطف باعثة على الاقتداء، والحديث في مناهج النبي ﷺ في الرحمة لمن أعظم ما تنشرح به الصدور، وتحقق له الأفئدة، وتجيش له العواطف، وكيف لا وهو الحديث عن المبعوث رحمةً للعالمين، فلا يستطيع أحد أن يتصوّر مثلاً للتضحية بالنفس والرحمة والرأفة بالآخرين أسمى من مثالية النبي ﷺ⁽⁶⁾، فأثبت أن مثالية الدّاعية إلى الله في إرتدائه ثوب الرحمة، التي عظمها عليه الصلاة والسلام، وعدّها من أسس التعامل في الإسلام بين الدّاعية ومدعويه ومع غيرهم من صنوف الناس المسلمين وغير المسلمين، من ذلك ما روي عن السيّدة عائشة رضي الله عنها قالت: «استأذن رهط من اليهود على النبي ﷺ فقالوا: السّام عليك، فقلت: بل عليكم السّام واللّعة، فقال: يا عائشة، إنّ الله رفيق يحبُّ الرّفق في الأمر كلّ، قلت: أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: قلت: وعليكم»⁽⁷⁾، وقال: «إنّ الرّفق لا يكون في شيء إلّا زانه، ولا ينزع من شيء إلّا شأنه»⁽⁸⁾.

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلّاة والخطبة، رقم الحديث 870، ص 594.

(2) - النووي، شرح النووي على مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلّاة والخطبة، رقم الحديث 870، ج 6، المرجع السابق، ص 568.

(3) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلّاة والخطبة، رقم الحديث 870، ص 594.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم عنه، رقم الحديث 94، ص 36.

(5) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي ﷺ، رقم الحديث 106، ص 39.

(6) - راغب الحنفي السّرجاني، الرّحمة في حياة الرّسول ﷺ، المرجع السابق، ص 37.

(7) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الرّفق في الأمر كلّ، رقم الحديث 6024، ص 1510.

(8) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البرّ والصلّة والآداب، باب فضل الرّفق، رقم الحديث 2594، ص 2004.

فالرفق إذا عُقد على نواصي الأشياء جملها، ويكون ذلك بالمعاملة الحسنة والكلمة الطيبة والصّفح الجميل، وأمّا إذا جعله مقبوحاً ومكروهاً يكون بالألفاظ القاسية والأسلوب الفضّ، والتهجّم بالوجه والتأفف من المدعو وأفعاله فيؤدّي به إلى التّفور، ففي سورة عبس أنزل الله قرآناً في حقّ عبد الله ابن أم مكتوم إذ عبس في وجهه ﷺ لا بغضاً له إنّما كان في ذلك مجتهداً مقدّماً مصلحة دعوة صناديد قريش التي يراها ﷺ مهمّة وعاجلة على دعوة عبد الله ابن أم مكتوم الآجلة، فإذا عوتب النّبي ﷺ في ذلك فكيف حال بعض الدّعاة اليوم الذين يتهجّمون في وجوه النّاس وكأنّ بينهم وبين المدعويين حرباً ضرورياً وعداءً مستحكماً، فعلى الدّاعية أن يراجع أسلوبه فهو عامل نجاح دعوته⁽¹⁾ فبالرفق تزدان النفوس وتلتئم القلوب وتجتمع الأرواح، وتتآلف ولا تتخالف، والنّبي ﷺ هو نبيّ الرّحمة قال عنه تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء : 107].

ثالثاً: قضاء الحاجات وتأمين الخدمات

لقد ضرب النّبي ﷺ المثل الأعلى في حرصه على قضاء حوائج النّاس وخدمة مجتمعه، وحثّ صحابته وأمّته من بعده على هذا المنهج وهذا الأسلوب مبيناً في ذلك ما جاء عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفّس عن مؤمن كربة من كُرب الدُّنيا، نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسّر على معسر، يسّر الله عليه في الدُّنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً، ستره الله في الدُّنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»⁽²⁾ وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً فقال رجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً، أفرأيت إذا كان ظالماً كيف أنصره؟ قال: تحجزه أو تمنعه من الظلم فذاك نصره»⁽³⁾ ولعلّ أبلغ تعبيراً يوضحه النّبي ﷺ في قوله: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً»⁽⁴⁾ مثل النّبي ﷺ حال المؤمنين فيما تربطهم من خلال كريمة: المودّة والرّحمة والوقوف مع الضّعيف، وإغاثة الملهوف، ودرة القلب المكشوف كالبنيان الذي تتشابك فيه الحجارة الصّغيرة والكبيرة ممّا يجعل البنيان قوياً ومتماسكاً وإنّ تشبيك الأصابع جاء

(1) - عدنان بن محمد آل عرعور وآخر، منهج الدّعوة المعاصرة في ضوء الكتاب والسنة، منهج الدّعوة، ط10، 1432هـ، ص 322.

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والإستغفار، باب فضل الإجماع على تلاوة القرآن، رقم الحديث 2699، ص 2074.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً، رقم الحديث 2443، ص 591.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً، رقم الحديث 6026، ص 749.

تشبيهها لتعاقد المؤمنين ممّا يدلُّ على أنَّ أقوالهم يعدُّ ركنًا، وضعيُّهم مُستندٌ إلى ذلك الرُّكن القوي⁽¹⁾، وهذا تأكيدًا لقوله وتمثيلًا لهم كيف يكونون فيما حولهم من ذلك: أنَّ العالم إذا أراد المبالغة في البيان أنَّه يمثل لهم معنى أقواله وحركاته⁽²⁾ فحركة العضو كالأصابع وتشبيكها أبلغ، فترسم صورة في عقل السامع لتكون ردءً لذاكرته السَّمعية إقتداء بما وصف به النَّبي ﷺ المؤمنين بعضهم لبعض، يذكر الإمام الحافظ ابن حجر رحمه الله قائلًا: (وفي هذا الفعل فائدة دعويّة ينبغي للدُّعاة اعتبارها والإفادة منها، وهي أن الذي يريد المبالغة في بيان أقواله يمثلها بحركاته ليكون أوقع في نفس السامع)⁽³⁾.

فحريٌّ على الدَّاعية أن يحرصَ على تألّف وتماسك المجتمع من خلال حثِّهم على التَّراحم والتَّعاقد من غير إثْم ولا مكروه، وحرصه على استعمال آداب النَّبي ﷺ والإقتداء بما وصف به المؤمنين بعضهم لبعض من الشَّفقة والنَّصيحة.

وفي إطار هذا الأسلوب يصبر الدَّاعية في خدمته النَّاس بالسَّعي لقضاء حاجاتهم التزامًا بحديث النَّبي ﷺ الذي قال فيه: «المؤمن الذي يخالط النَّاس ويصبر على أذاهم، خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم»⁽⁴⁾ ويقول ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»⁽⁵⁾ وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته»^(*)، ومن فرَّج عن مسلم كربة فرج

(1) - يُنظَر: المباركفوري، تحفة الأحوذى (بيروت: دار الكتب العلمية، د، ط، ج2، د، ت)، ص 329.

(2) - ابنُ بَطَّال، شرح ابنُ بَطَّال على صحيح البخاري، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم (الرياض: مكتبة الرُّشد، ط2، ج9، 1423هـ/2003م)، ص 227.

(3) - ابنُ حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج10، المرجع السَّابق، ص 450.

(4) - أخرجه التَّرمذى في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، رقم الحديث 2507، ج4، المصدر السَّابق، ص 662. ورواه ابنُ ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب الصَّبْر على البلاء، رقم حديث 4032، ج2، المصدر السَّابق، ص 1338. وذكر حكم الألباني: حديثٌ صحيحٌ.

(5) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب من سأل سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، رقم الحديث 6800، ص 1165.

(*) - من كان في حاجة أخيه أي: من سعى لقضاء حوائج النَّاس كان الله في قضاء حاجاته معينًا له ميسرًا عليه (صالح بن عبد الله بن عبد المحسن الفريح، معالجة مشكلة الفقر في الفكر الإسلامي مع بعض التطبيقات العملية المعاصرة، مجلَّة جامعة أمم القرى للعلوم الشَّريعة والدراسات الإسلامية، العدد 45، ذو القعدة 1429هـ)، ص 322.

الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»⁽¹⁾ وعن جابر بن عبد الله قال: «لدغث رجلاً منا عقرب ونحن مع رسول الله ﷺ فقال رجل: يا رسول الله، أرقه؟، فقال ﷺ: من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل»⁽²⁾ فحدير بكل داعية إلى الله تعالى أن يهتم بهذا الأسلوب الذي يعود عليه بالفضل العظيم والخير العميم، والذي يترتب عليه صلاح المجتمع وتعاونه على الخير، وإحساسه بالمسؤولية، ووقوفه عند الحد الذي ينبغي أن يقف عنده، والتبني ﷺ كثير الوقوف مع كل مؤمن مكروب أو مهموم حتى تُفرج كربته، وهذا في شأن المؤمن عموماً فكيف بالمدعو.

هناك أساليب كثيرة تحسّدت في السنّة النبوية بقوة، غالبيتها تمثّل المنهج العاطفي، إلا أنني في هذا المبحث إقتصرت على بعضها كإشارة لبيان دليل مشروعيتها والتفصيل في البقية لاحقاً.

المبحث الثاني: أهميّة المنهج العاطفي وملازمته للمناهج الدعوية الأخرى

المطلب الأول: أهميّة المنهج العاطفي في الدّعوة إلى الله

تعود أهميّة المنهج العاطفي إلى ما يلي :

1- مخاطبته للقلب والعاطفة

ذكر سالفاً أنّ المنهج العاطفي أحد المناهج الدعوية التي أرسى قواعدها القرآن الكريم والسنّة المطهّرة، والتي لا غنى عنها في مجال الدّعوة إلى الله، وهو ملازم ومتداخل مع المناهج الأخرى⁽³⁾، لكونه يخاطب العاطفة ويستثيرها من منبّتها الأصلي ألا وهو القلب، جاء عن النّعمان بن البشير ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّهُ، وإذا فسدت فسد الجسد كلّهُ ألا وهي القلب»⁽⁴⁾ وقد خصّ القلب بذلك لأنّه أمير البدن وبصلاح الأمير تصلح الرّعية، وبفساده تفسد، وفيه تنبيه على تعظيم قدر القلب والحثّ على صلاحه والإشارة إلى أنّ لطيب الكسب أثراً فيه⁽⁵⁾ والدّعوة في أصلها تحتاج إلى وسائل وأساليب لتحريك هذا القلب

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم ولا يسلمه، رقم الحديث 2442، ص 591.

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السّلام، باب إستحباب الرقية من العين والتملة والحمة، رقم الحديث 2199، ص 1726.

(3) - حامد بن أحمد بن علي العامري، الدّعوة إلى الله بالمنهج العاطفي، المرجع السّابق، ص 11.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من إستبرأ لدينه، رقم الحديث 52، ص 24.

(5) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من إستبرأ لدينه، رقم الحديث 52

(المكتبة السّلفية، ج1)، ص 125.

نحو الإيمان، ولتحقيق ذلك يحتاج من الدّاعية إلى خبرة بذلك القلب ومعرفة الدّوافع التي جبل عليها، لأنّ القلب يمكن أن تعثره الغفلة والنّوم، كما عليه أن يقوم بإيقاظه عبر المنهج العاطفي الذي يختصّ بذلك، ولما لهذا المنهج من تأثير في النّفس البشرية يعدّ من أهمّ عوامل الإقناع والتأثير، وقد بيّن القرآن ذلك فقدّمه على المنهج العقلي في بعض المواقف كما هو حاصل في سورة العاشية⁽¹⁾ كما تكمن أهميّة المنهج العاطفي في تقرير مبدأ الرّعاية والجسد والروح معاً، لأنّ الأمرين متلازمان، فإذا انفصل أحدهما عن الآخر انتهى بمعنى أنّه لا جسد بلا روح ولا روح بلا جسد⁽²⁾، والدّاعية يجب أن ينطلق في دعوته من القاعدة الرّوحية، وأنّ يصطبغ سلوكه بذلك، يقول الدّكتور بسّام العموش: (لأنّنا نؤمن أنّ الإنسان إنسان بروحه لا بجسده، فالجسد يفنى والروح تبقى)⁽³⁾ والدّاعية عليه أن يتذكّر قول المصطفى ﷺ: «الأرواح جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»⁽⁴⁾ وإنّ طرق باب الرّوح هو الأسلوب الأقصر لبلوغ الهدف يقول المولى عزّ وجلّ: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النّساء: 63] أي: يبلغ شغاف قلوبهم، وهذا لا يتحقّق إلّا إذا كان الخطاب لأنفسهم وليس لآذانهم، وإنّ الدّاعية لا يستطيع أن يصل إلى ذلك ما لم يكن كلامه نابعاً من روحه وقلبه، فما خرج من القلب استقرّ في القلب، وما خرج من اللسان لم يتجاوز الآذان⁽⁵⁾.

2- مراعاته أحوال المدعو

يعدّ المنهج العاطفي من الموضوعات الحيويّة المعاصرة قديماً وحديثاً يحتاج إليها الدّاعية في جميع مجالات دعوته، فهو يتّجه لإيصال الدّعوة باللّطف واللّين، يقوم على تحريك الشّعور والأحاسيس وإثارة كوامن الحسّ وخبايا النّفس من غضبٍ ورضا ورحمةٍ وشفقةٍ وغلظةٍ ولين وسرور وأحزان⁽⁶⁾، فيراعي في ذلك أحوال المدعو النّفسية والعقلية والاجتماعية والوجدانية وتهيئة نفوسهم لقبول الدّين عن طواعية يقول تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتْلُغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التّوبة: 6] ومن ذلك إعلان النّبي ﷺ لأهل مكّة ورغم ما حصل

(1) - حامد بن أحمد بن علي العامري، الدّعوة إلى الله بالمنهج العاطفي في القرآن والسنة، المرجع السّابق، ص 11.

(2) - سارة بنت عبد الله جمعة البلوشي، فقه الدّعوة من أمثال النّبي ﷺ، المملكة العربية السّعودية، جامعة طيبة بالمدينة المنورة، كلفة التّربية والعلوم الإنسانية، 1425هـ، ص 168.

(3) - بسّام العموش، فقه الدّعوة، المرجع السّابق، ص 18.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء ﷺ، باب الأرواح جنود مجنّدة، رقم الحديث 3336، ص 820.

(5) - بسّام العموش، فقه الدّعوة، المرجع السّابق، ص 18.

(6) - أصول الدّعوة و طرقها، جامعة المدينة، المرجع السّابق، ص-ص 213، 219.

منهم طوال سنوات الدعوة إلى تلك الساعة، وكما دعا المسلمين إلى نشر الأمان فقال ﷺ: «من دخل دار أبا سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»⁽¹⁾ ثم قبل جوار أم هاني رضي الله عنها لاثنتين من المشركين وقال: «قد أجرنا من أجرت وآمنا من آمن»⁽²⁾ وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال أخبر رسول الله ﷺ أي أقول: «والله لأصومن النهار ولأقومن الليل ما عشت فقلت له: قد قلته بأبي أنت وأمي قال: فإنك لا تستطيع ذلك فصم وأفطر، وقم ونم وصم، من الشهر ثلاثة أيام، فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر قلت: إني أطيق أفضل من ذلك قال: فصم يوماً وأفطر يومين، قلت: إني أطيق أفضل من ذلك، قال: فصم يوماً وأفطر يوماً، فذلك صيام داود عليه السلام وهو أفضل الصيام فقلت: إني أطيق أفضل من ذلك، فقال النبي ﷺ: لا أفضل من ذلك»⁽³⁾ وما حدث في شأن المرأة الغامدية في زمن النبي ﷺ والتي زنت فعن عمر رضي الله عنه أن بن حصين رضي الله عنه قال: «أن امرأة من جهينة أتت نبي الله ﷺ وهي حبلى من الزنى، فقالت: يا نبي الله! أصبت حداً فأقمه علي - إقترفت ذنباً عظيماً إستوجب الحد - فطهرني منه قال: فدعا نبي الله ﷺ وليها فقال: أحسن إليها»⁽⁴⁾ وهذا على غير عادة الناس فإنهم إذا زنت امرأة آذاها قومها وأولياؤها، والنبي عليه السلام أمر بالإحسان إلى هذه المرأة رغم أنها زانية، فإذا كان النبي ﷺ يأمر بالإحسان إلى أصحاب الكبائر، فما بالك بإحسانه عليه السلام مع أفاضل الصحابة كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، قال: قال: أحسن إليها، فإذا وضعت فأتني بها ففعل، فأمر بها نبي الله ﷺ وليها فشددت عليها ثيابها*.. ثم أمر بها فزجمت، ثم صلى عليها، فقال: عمر رضي الله عنه يا رسول الله نصلي عليها وقد زنت؟، قال: والذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو قُسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم»⁽⁵⁾ فحري

(1) - السيرة النبوية لابن هشام ج4، المرجع السابق، ص 22.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما جاء في زعموا، رقم الحديث 6158، ص 1539.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب صوم الدهر، رقم الحديث 1976، ص 475.

(4) - سارة بنت عبد الله جمعة البلوشي، فقه الدعوة من أمثال النبي ﷺ، المرجع السابق، ص 168.

(*) - فشددت عليها ثيابها: يعني: فشددت عليها ثيابها خلافاً للرجل، فإن الرجل حين إقامة الحد عليه لا يشد عليه ثوبه، إنما المرأة يشد عليها ثوبها ويحفر لها إلى صدرها وترجم وهي جالسة خلافاً للرجل، فالرجل يقام عليه الحد وهو قائم أو جالس، أما المرأة فإنه يقام عليها الحد وهي جالسة قولاً واحداً (صحيح مسلم ، كتاب الحدود ، باب من اعترف بنفسه بالزنى ، رقم الحديث 1696، ص 1324).

(5) - إثن السبكي وآخرون، استخراج أبو عبد الله محمود بن محمد الحداد، تخريج أحاديث إحياء علوم الدين (الرياض: دار العاصمة للنشر، ج 5، د، ت)، ص 2111.

بالداعية أن يعرف طبيعة المدعو يدرس أحواله العقلية والنفسية وظروفه الاجتماعية، ويحسن التعامل مع المواقف المخرجة بحكمة وبعاطفة.

3- تعدد أساليبه وسعة دائرته

تزيد أهمية المنهج العاطفي في الدعوة إلى الله لتعدد أساليبه وسعة دائرة استعماله في الدعوة إلى الله، لكون الطابع العاطفي⁽¹⁾ أغلب من غيره وأسرع تأثيراً في كثير من الناس، ذلك أن الناس يقبلون على من يتلطف معهم ويتفقد بهم⁽²⁾، ويقتصد بسعة دائرته كثرة المخاطبين، فالمنهج العاطفي يخاطب كافة الناس وجميع أصناف المدعويين يقول تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 57] فيستخدم مع المؤمنين في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفُسُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: 6] ويستخدم في دعوة أهل الكتاب فيرددهم في رفق عن دينهم ويدكرهم بما جاء به رسولهم ويدعوهم إلى كلمة سواء، يجتهد المجادلة ولا يحرص على حصولها إلا إذا اضطر لذلك فتكون بالتي هي أحسن يقول تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: 46] ويستخدم في دعوة الوثنيين بالكلمة الطيبة والتذكير والتخويف من العذاب يقول تعالى على لسان نبيه شعيب عليه السلام: ﴿وَيَقَوْمٌ لَا يَجْرَمُكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لُّوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: 89].

4- ارتباطه الوثيق بالعاطفة

يُنظر إلى أهمية المنهج العاطفي ارتباطه الوثيق بالعاطفة، وهو أنه لا بد أن يعيش العقل والقلب في حضارة الحب وإشرافه وتوجيهه، ولا بد أن تساند الدين وتغذيه عاطفة قوية وحب منبعه قلب مؤمن حنون، فإذا تجرد الدين عن العاطفة والحب، أصبح مجموعة طقوس وأوضاع وأحكام لا حياة فيها ولا روح ولا حماسة فيها ولا قوة، يقول الشيخ الغزالي رحمه الله تعالى موضعاً ذلك: (مع قيام الإسلام على العقل، وترحابه بالفكر الجيد والبحث الأصيل، وحضه على الارتباط المادي المعنوي بالكون عملاً وتأملًا، مع ذلك كله فهو دين يعقد أوثق العلاقات بالقلب اليقظان والمشاعر الجياشة،

(1) - محمد أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، المرجع السابق، ص 207.

(2) - رمضان محمد علي مبروك مطايرد، أصول الدعوة ومناهجها دراسة تأصيلية في الجانب النظري، مذكرة دراسية جامعة قطر، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ص 78.

ويجعل الإيمان عاطفة دافقة بالحب والبر إلى جانب أنه نظر يتسم بالسداد والصواب⁽¹⁾ كما تحدّد أهميّة المنهج العاطفي بمدى أهميّة العاطفة وقوّة تأثيرها في المدعويين، فله الأثر القويّ في إثارة هذه العواطف وتوجيهها، وهذا الأثر المنبعث من الشعور الداخلي أعمق وأرسخ في النفوس من أيّ أمرٍ آخر يقوم به الإنسان، فالشعور العاطفي ينشأ عنه الإقتناع العاطفي ومن ثمّ يكون التطبيق العملي مستمرّاً، وهذا ما يهدف الدعاة الوصول إليه أن يكون التّغيير جذريّاً حقيقياً أو صورياً.

5- صلاحيته لجميع المدعويين

تكمُن أهميّة المنهج العاطفي صلاحيته لجميع المدعويين، ولعلاقته القويّة بالمنهج الفطري، والفطرة موجودة لدى الإنسان فلكلّ إنسان عواطفه ومشاعره وأحاسيسه⁽²⁾، ولكلّ إنسان لابدّ له من أسلوب مناسب ومنهج محدّد، والمنهج العاطفي كفيل ما هو كامن من هذه العواطف ومن ثمّ توجيهها الوجهة الصّحيحة البعيدة عن الرّيبة⁽³⁾، إذنّ فهو يصلح لجميع المدعويين ففيهم الكبير والصّغير، والحاكم والمحكوم، والذكر والأنثى، والمسلم وغير المسلم، والعاصي والمؤمن، والأعجمي والعربي، والمتقف والعامي، هؤلاء يتفاوتون بلا شكّ من جهات شتّى فيحتاج كلّ واحد منهم إلى خطابٍ يخصّه به، والمنهج العاطفي يشمل الجميع، لأنّه مرتبط بالقلب وهو يوجد في أيّ إنسان بالقوّة.

6- كثرة وروده في القرآن الكريم و السنة النبوية

تتحلّى أهميّة المنهج العاطفي كثرة وروده في القرآن والسنة، وكلاهما تراثٌ ضخمٌ وبحرٌ زاخرٌ بعطاءٍ لا حدّ له، وقد تحدّثنا عن المنهج العاطفي بشكلٍ مثير للانتباه، حيث لا نجدُ صفحة من صفحات كتاب الله إلّا واشتمل الحديث عن العاطفة أو أحد لوازمها وأثارها⁽⁴⁾، وهنا يؤكّد عظم أهميّة الكبرى في الدّعوة إلى الله وفي القرآن والسنة، ممّا يستوجب على الدّعاة اليوم الاعتماد على هذا المنهج، ونظراً لمكانته العالية وأثره الواضح والبلغ في نجاح الدّعوة، فقد ظهر بقوّة في مصاف دعوة النبي ﷺ والأنبياء السابقين، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا لِلّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 103].

(1) - محمّد الغزالي، ركائز الإيمان بين العقل والقلب (دار الشروق، د، ط، د، ت)، ص 95.

(2) - يُنظر: علي جريشة، مناهج الدّعوة وأساليبها، المرجع السّابق، ص- ص 30، 32.

(3) - محمّد عبد العمري، الدّعوة إلى الله بالمنهج الحسّي في السّنة النبوية، المرجع السّابق، ص 16.

(4) - محمّد عبد العمري، الدّعوة إلى الله بالمنهج الحسّي في السّنة النبوية، المرجع السّابق، ص- ص 15، 16.

المطلب الثاني: ملازمة المنهج العاطفي للمناهج الدعوية الأخرى

لقد تناولتُ سابقاً مفهوم المنهج العاطفي في اللغة والإصطلاح، وأهميته في الدعوة إلى الله، وأوضحْتُ الفرق بين المنهج والأسلوب، وذكرت أنَّ منهج الدعوة إلى الله يقوم على العقل والعاطفة، والتي أطلق عليها العلماء بمناهج الدعوة، وهذه المناهج استخدمها الأنبياء عليهم السلام والدعاة من بعدهم في تبليغ الحق وبيانهم للناس على اختلاف مشاربهم وأحوالهم وأصنافهم، فهي تتنوع من حيث ركائزها تبعاً لتنوع الفطرة الإنسانية، وتتميز بترابطها مع بعضها البعض، بحيث لا يمكن الفصل بينها نظراً لتلازم وترابط الركائز الأساسية القلب والعقل والحس⁽¹⁾، ومما يقتضي منا في هذا المطلب تبيان تفاصيل هذا الترابط وهذا التلازم بعد تقديم سطور مضيئة لمفهوم المناهج الدعوية من الناحية اللغوية والإصطلاحية، ما عدا المنهج العاطفي فقد سبق تعريفه لكونه المعنى بالدراسة.

أولاً: التعريف بالمناهج الدعوية

الدعوة إلى الله بطبيعتها ربانية وشرعية، قدسية التوجه والوسيلة والغاية، منذ أن انطلق بها الدعوة الأوائل من الأنبياء عليهم السلام إلى النبي محمد ﷺ، وظلت على مدار التاريخ تسلك طريقها إلى عقول وأفئدة زبائنهم تحلللتها عروض متعددة الأساليب ومتنوعة الوسائل من قبل دعاة ومصلحين تركوا بصمات ساطعة على صفحات الدعوة، وعلى غرار صفحات الدعوة قديماً وحديثاً، رُسمت معالم وتجارب أسهمت في نجاح الدعوة، مما جعل مُنظري الدعوة يتخذوا هذه المعالم مناهج ومرتكزات أساسية حديثة يمكن للدعاة أن ينحوا حذوها، وهذه المناهج لها سمة خاصة عند أهل الدعوة المختصين، فهي الطرق والخطط الواضحة البيّنة الموضوعية على أسس راسخة متينة، مستمدة من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، والتي ترسم خطاها وسلك سبيلها ونهج نهجها الأنبياء والمرسلين والتابعين ومن تبعهم⁽²⁾، ولذلك فقد عمد هؤلاء المنظرون في علم الدعوة إلى تقنين هذه المناهج الدعوية، مصدرهم في ذلك الكتاب والسنة المطهرة، فجاءت على النحو التالي:

أ- المنهج العقلي

المنهج العقلي مصطلح مركب من مفردتين الأول: المنهج وقد سبق تعريفه، والثاني: العقل سيسبق التعريف به لاحقاً وهو كالاتي :

(1) - محمد أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، المرجع السابق، ص 198.

(2) - خالد بن محمد الحافظ العلمي، منهج أمهات المؤمنين في الدعوة إلى الله (المدينة المنورة: مكتبة دار الزمان للنشر والتوزيع، ط3، 1437هـ/2016م)، ص 28.

- العقل لغةً

- يُعرّفه العلامة ابنُ منظور بالقول: (هو الحجر والمنتهى)⁽¹⁾ ويُعرّفه العلامة الجرجاني بالقول: (العقل جوهر مجرد يدرك الغائبات بالوسائط، والمحسوسات بالمشاهدة)⁽²⁾ ويعرّفه العلامة الفيروز آبادي بالقول: (يطلق على العلم بصفات الأشياء من حسن وقبح، وكمال ونقصان، أو هو العلم بخير الخيرين وشر الشرين، أو هو قوّة يكون بها التّمييز بين القبح والحسن)⁽³⁾.

- العقل اصطلاحاً

للمكانة التي يتولّاها العقل وضرورته للإنسان، جعل إهتمام عدد كبير من العلماء الذين نقّبوا عن ماهية العقل بغية التعرّف عليه، وبحثوا في إهتماماته وآثاره وحاولوا تقصّي جلّها، ومن ثمّ عمدوا إلى وضع تعريفات للعقل، فكانت متباينة تبعاً لما استقر لدى كلّ واحد بحسب معرفته وعلمه ومن هؤلاء:

- يعرّفه العلامة الرّاعب الأصفهاني رحمه الله وقد قسّمه إلى قسمين :

الأوّل: يطلق على القوّة المتهيّئة لقبول العلم، **والثّاني:** العلم الذي يستفيد منه الإنسان بتلك القوّة، وما كان مبتدأً في النفوس⁽⁴⁾ ويعرّفه الحافظ الماوردي بالقول: (العقل هو العلم بالمدرّكات الضّرورية، وذلك نوعان: أحدهما ما وقع عن ذلك الحواس⁽⁵⁾ يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ بِنُجُومِهِمْ﴾ [الحج: 46] دلّت الآية إلى أمرين أحدهما أنّ العقل علم، والثّاني محلّه القلب، ولفظة يعقلون بها تأويلان أحدهما يعلمون بها، والثّاني: يعتبرون بها، فهذه جملة القول في العقل الغريزي وهو أحد أنواع العقل⁽⁶⁾ ويعرّفه العلامة ابنُ الجوزي رحمه الله بالقول: (العقل غريزة كأتمّها نور يُقَدَفُ في القلب فيستعد لإدراك الأشياء، فيعلم جواز الجائزات، واستحالة المستحيلات، ويتلمح عواقب الأمور)⁽⁷⁾ وعرفه الشّيخ ابنُ

(1) - ابنُ منظور، لسان العرب، مادة عقل، ج11، المصدر السّابق، 485. وابنُ منظور، لسان العرب، دار صادر، ج5، المصدر السّابق، ص 65.

(2) - الجرجاني، التّعريفات (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1983م)، ص 152.

(3) - الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق: محمّد نعيم العرقسوسي، مادة عقل (مؤسّسة الرّسالة، ط8، 2005م)، ص 1033.

(4) - يُنظر: الرّاعب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، المصدر السّابق، ص 342.

(5) - يُنظر: أبو الحسن الماوردي، أدب الدّين والدّنيا (بيروت: دار إقرأ، ط4، 1405هـ/1985م)، ص 9.

(6) - يُنظر: أبو الحسن الماوردي، أدب الدّين والدّنيا، المرجع السّابق، ص 10.

(7) - ابنُ الجوزي، ذم الهوى (دار الكتب العلمية، د، ط، د، ت)، ص 13.

الغثمين رحمه الله إستناداً للآية، ذاكراً أنّ محلّ العقل القلب استناداً ليقوله تعالى في سورة [الحجّ: 46] حيث جعل القلوب آية العقل، ثم أكد أنّ المراد به القلب الحقيقي الموجود في الصّدر ، فدلّ هذا على أنّ القلب هو الذي يُبصر المعاني ويميّز بينها ويعقلها ، وقال ﷺ: «ألا إنّ في الجسد مضغة ... الحديث»⁽¹⁾ فجعل مدار تصوّف الجسد كلّ على القلب⁽²⁾ وبناءً على المفاهيم السّابقة جاء العقل بمعانٍ عدّة: هو غريزة محلّها القلب، وهو محلّ الإدراك للأشياء والمحسوسات، وهو القوّة والجوهر الذي يميّز به بين الخير والشرّ والنّافع والضّار ، وأمّا **المنهج العقلي** من حيث الإستخدام في الدّعوة إلى الله تعالى، هو قدّم يرجع إلى بداية خلق الإنسان ونشاطه على وجه الأرض، لأنّه مرتبط ارتباطاً وثيقاً به وهو موجود فيه، وعليه فلم أقف على محاولات تعريفه سوى ما اعتمده الدّكتور محمّد أبو الفتح البيانوني حيث عرّفه بتعريفين:

- هو النّظام الدّعوي الذي يتركز على العقل ويدعو إلى التّدبّر والتّفكّر والإعتبار.
- مجموعة الأساليب الدّعوية التي تتركز على العقل وتدعو إلى التّفكّر والتّدبّر والإعتبار.
- وذلك لأنّ النّظام الدّعوي لا يظهر إلّا بمجموعة أساليبه المطبّقة له⁽³⁾.

وعلى هذا فإنّ "**المنهج العقلي**" يعتمد أساساً على الجانب العقلي في مخاطبة المدعوين باستخدام الإستدلال والجدل والمناظرة، ويستخدم في هيئة مناهج متعدّدة متفرّعة منه **كالمنهج الإستدلالي** الذي عرّفه الدّكتور عبد الرّحمان بدوي بالقول: (بأنّه البرهان الذي يبدأ من القضايا المسلّمة وينتهي إلى قضايا تنتج عنها بالضرّورة دون اللّجوء إلى عملية التّجربة)⁽⁴⁾ والجدلي الذي هو مجموعة الأساليب الجدلية المستخدمة لإثبات قضيّة ما أو نفيها أو لبيان صحتّها أو كذبها⁽⁵⁾.

ب- التّعريف بالمنهج الحسيّ

يتميّز المنهج الحسيّ لكونه خطاباً موجّهاً للعقل والعاطفة أو كلاهما معاً من خلال الإعتماد على الحواس، وهذا يعكس عظم أهمّيّته في مخاطبة شرائح واسعة من المجتمع الإنساني، وقبل الوقوف على تطبيقات هذا المنهج في دعوات الأنبياء عليهم السّلام، سأبيّن مفهوم هذا المنهج، وهو كالآتي:

(1) - تمّ تخرجه سابقاً، يُنظر الصفحة، ص-ص 63، 64.

(2) - الغثمين، إزالة السّتار عن الجواب المختار لهداية المختار، د، ط، د، ت، ص 70.

(3) - محمّد أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدّعوة، المرجع السّابق، ص 208.

(4) - عبد الرّحمان البدوي، مناهج البحث العلمي، المرجع السّابق، ص 5.

(5) - عبد الرّحمان البدوي، مناهج البحث العلمي، المرجع السّابق، ص 7.

- الحسُّ لغة

- يعرفه العلامة ابنُ منظور بالقول: (من حسَّ بالشَّيءِ يحسُّ حسًّا شعر به، ويقال: حسَّنتُ بالشَّيءِ إذا وجدته وأبصرته وعلمَّته وعرفته وأيقنت به، والحسُّ والحسيس الصَّوتُ الخفي)⁽¹⁾.

- الحسُّ اصطلاحاً

- يعرفه العلامة الجرجاني بالقول: (هو القوَّة التي ترتسم فيها صورة الجزئيات المحسوسة)⁽²⁾ وفي تعريف آخر هو: (القوَّة التي بها تُدرك العوارض الجسمية)⁽³⁾، والحسُّ يدرك به العلم الواقع عن الحواس، وهو علم ضروري غير مكتسب، لأنَّ دخول الشكِّ عليه غير جائز⁽⁴⁾

وبناءً على التعريفات السابقة يمكن القول أنَّ الحسُّ بمعنى: إدراك الأشياء بالحواس، وهو علم غير مكتسب يعتمد على الحواس وأما "المنهج الحسي" فلم أعثر على تعريفٍ له، سوى ما اعتمده الدكتور محمَّد أبو الفتح البيانوني حيث عرَّفه بتعريفين :

- النظام الدَّعوي الذي يركّز على الحواس، ويعتمد على المشاهدات والتَّجارب.

- مجموعة الأساليب الدَّعوية التي تركز على الحواس وتعتمد على المشاهدات والتَّجارب.

وذلك لأنَّ النظام الدَّعوي لا يظهر إلّا بمجموعة أساليبه المطبَّقة له⁽⁵⁾.

ثانياً: أساليب المناهج الدَّعوية

أ - أساليب المنهج العقلي

كلُّ أسلوبٍ لمنهج دعوي يتميَّز به عن غيره من المناهج الأخرى، ومن أبرز ما تميَّز به المنهج العقلي من أساليب مُتنوِّعة ومن أهمّها :

- أسلوب المحاكمات العقلية والأقيسة بجميع أشكالها :

هذا الأسلوب هو أحد خصائص التَّفكير المنطقي التي تعمل بصيغة المجادلات التي قد تكون صائبة أو خاطئة، وقد استخدم النَّبي ﷺ أقيسة بجميع أشكالها بما فيها:

(1) - يُنظَر: ابنُ منظور، لسان العرب، مادة حسس، المصدر السَّابق، ص- 170، 171.

(2) - الجرجاني، التَّعريفات (بيروت: دار الكتاب العربي، ط1، 1405هـ)، ص 117.

(3) - المناوي، التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف (القاهرة: عالم الكتب 38 عبد الخالق ثروت، ط1، ج1، 1990م)، ص 139.

(4) - أبو بكر الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، تحقيق: أبو عبد الرَّحمان (المملكة العربية السُّعودية: دار ابنِ الجوزي، ط1، مج2، 1417هـ/1996م)، ص 37.

(5) - محمَّد أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدَّعوة، المرجع السَّابق، ص 214.

- قياس الأولى: ما جاء في قوله ﷺ في حديث الأمر بحفظ العورة لَمَّا قال له الصَّحَابِي الجليل معاوية بْنُ حيدة ؓ: «يا نبيَّ الله إذا كان أحدنا خاليًا؟ قال: فالله أحقُّ أن يُستحيى منه من النَّاسِ»⁽¹⁾.

- والقياس المساوي: كقياس إتلاف مال اليتيم على أكله، فلا يوجد دليل خاص من الكتاب والسنة يُحرِّم إتلاف مال اليتيم، وقد أنزل تعالى آيةً يُحرِّم فيها أكل مال اليتيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾ [النساء: 10] وقد قاس العلماء إتلاف الأموال على أكلها، والإتلاف يتساوى مع الأكل، وقياس بالخلف ومنه قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢﴾ [الأنبياء: 22].

- والقياس الضمني: جاء في قوله ﷺ للصَّائم: «إذا نسي فأكل وشرب، فليتمَّ صومه، فإنما أطعمه الله وسقاه»⁽²⁾.

- أسلوب الجدل والمناظرة والحوار

وهو أسلوب دعوي فطري، استعمله كلُّ الأنبياء عليهم السلام والدُّعاة في إثبات وحدانية الله ونفي الأضداد عنه ﴿أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ۝١١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢﴾ [الأنبياء: 21-22] فكان حوار الأنبياء لأقوامهم والمخالفين لدعوتهم لإقامة الحجَّة عليهم وبيان المحجَّة الواضحة.

وتلك الأساليب الثلاثة - الجدل، والمناظرة، والحوار - تشمل نقاشًا بين طرفين متخاصمين إلا أنَّها تختلف في مفهومها الإصطلاح ، فالمناظرة هي توجُّه المتخاصمين في النسبة بين الشَّيْئَيْن إظهارًا للصَّواب، والمجادلة هي المنازعة لا لإظهار الصَّواب بل لإلزام الخصم، وقد لاحظنا القرآن يأمر بالجدل⁽³⁾ في قوله تعالى: ﴿وَجَدِلْهُمْ بِلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125] وكان ممَّا تميَّز به المنهج العقلي اعتماده على العلم وإقامة الأدلَّة لإقناع وإفحام الخصم، وقد أبانها القرآن إذ تقع على الدَّاعية

(1) - أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الأدب، باب ما جاء في حفظ العورة، رقم الحديث 2769، ج5، المصدر السابق، ص 97، وقال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ. وفي سنن إِبْنِ ماجه، كتاب النِّكاح، باب التَّسْتُرُّ عند الجماع، رقم الحديث 1920 (الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط1، د، ت)، ص 333. وقال: هذا حديثٌ حسنٌ، وذكر حكم الألباني: حديث حسن.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصَّوم، باب الصَّائِم إذا أكل أو شرب ناسيًا، رقم الحديث 1923، ص 464. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصَّيام، باب أكل النَّاسِي وشربه، رقم الحديث 1155، ص 809.

(3) - أحمد أحمد غلوش، الدَّعوة الإسلامية، المرجع السابق، ص 380.

ضرورة الجدال فالزمه المولى عز وجل أن يكون بالتي هي أحسن، يقول تعالى: ﴿وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: [النحل: 125] وكان ممّا تميّز به المنهج العقلي إيمانه على العلم وإقامة الأدلة لإقناع وإفحام الخصم.

- ضرب الأمثال بأنواعها الصريحة أو الكامنة جاءت قوله ﷺ: «مثل القائم على حدود الله، والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة... الحديث»⁽¹⁾ وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21] وفيه تقرّيع للبشر إذ لم تتحرّك خشيتهم فتُسيل في أعينهم دُموعاً أو تُحدث في قلوبهم زلزالاً وقشعريرة مقارنة مع جبل أصمّ تصدّع من خشية الله.

- الأسلوب القصصي

الذي يغلب عليه الجانب العقلي يقول تعالى: ﴿فَأَقْصَصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 176] ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111].

ب- أساليب المنهج الحسي

للمنهج الحسي مكانته العظيمة في الدعوة إلى الله تعالى، وذلك لتعدّد أساليبه الدعوية في مجال التبليغ والتعليم والتطبيق، ممّا يشكّل زاداً رافداً للعاملين في حقل الدعوة، خاصّة لما تميّز به من خصائص ميّزته عن بقية المناهج الأخرى كسرعة التأثير واتساع دائرته يقول تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّمُؤْمِنِينَ﴾ [الذّاريات: 20] ومن تلك الأساليب التي اتّفق عليها علماء الدعوة هي كالآتي:⁽²⁾

- أسلوب المعجزات الحسية الخارقة

وهي التي أيّد الله بها الأنبياء عليهم السلام، لأجل لفت انتباه الناس وحملهم على الإهتمام بما جاءوا به ثمّ تصديقهم، كعصا موسى عليه السلام، وناقّة صالح عليه السلام، وكنز خاضعة الإحراق من النّار التي أُلقي فيها إبراهيم عليه السلام، ومعجزات عيسى عليه السلام كانت معجزات حسّية، هذا إلى جانب معجزات النبي ﷺ فقد أيّده الله بمعجزات حسّية، شاهدها الصّحابة كانشقاق القمر، وتسبيح الحصى، والبركة

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشركة، باب هل يُقرع في القسمة والإستهمام فيه؟، رقم الحديث 2493، ص 309.

(2) - يُنظر: محمّد أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، المرجع السّابق، ص- ص 214، 217.

في الطعام، ونبع الماء من بين أصابعه ﷺ، وردّ عين أبي قتادة ؓ وغير ذلك من المعجزات الحسيّة، بجانب المعجزة المعنويّة الكبرى: القرآن الكريم وهذا يؤكّد على أهميّة المنهج الحسيّ في الدّعوة إلى الله.

– وأسلوب لفت الحواس وتنبيهها للنظر فيما حولها من مخلوقات

هذا الأسلوب يقود بالمدعو إلى معرفة الخالق سبحانه فيقول تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53] يذكر الإمام العلامة ابن كثير رحمه الله في معنى الآية: (أي: سنظهر لهم دلائلنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله على رسول الله ﷺ بدلائل خارجية .. ودلائل في أنفسهم .. ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما للإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاق والهيئات العجيبة، كما هو مبسوط في علم التّشريح الدّال على حكمة الصّانع تبارك وتعالى⁽¹⁾) وهناك أساليب أخرى كان لها الأثر في الالتزام بقيم الإسلام وتعاليمه وأحكامه منها:

– أسلوب التّعليم التّطبيقي

على وجه يشاهد المدعو كيفية تطبيق الفعل المأمور به والمدعو إليه، كما فعل النّبي ﷺ في دعوته لتعلّم الصّلاة والحج فيقول ﷺ: «صَلُّوا كما رأيتموني أصلي»⁽²⁾ وقال -ﷺ- : « خُذُوا عَنِّي مناسككم»⁽³⁾.

– أسلوب القدوة العملية

هذا الأسلوب يعدّ من أرقى أنواع الدّعوة إلى الله، فهو يدعو إلى الإمتثال بالعمل قبل القول، ولذلك أحيانا يكون تأثيرها أبلغ من القول أو المقال، وقد بيّن القرآن الكريم القدوة في شخصية النّبي ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21] حتّى قالت عنه السيّدّة عائشة رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن»⁽⁴⁾، فكان له دور في نشر الإسلام ونجاح الدّعوة، فقد كان عليه الصّلاة والسّلام قدوة للمسلمين خاصّة، والأنموذج الأمثل والحجّة القائمة على كلّ داعية، يقول

(1) - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، المصدر السّابق، ص 187.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أخبار الآحاد، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد، رقم الحديث 7246، ص 1791.

(3) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحجّ، باب إستحباب رمي جمرة العقبة يوم النّحر راكبا وبيان قوله ﷺ «لتأخذوا مناسككم»، رقم الحديث 1297، ص 943.

(4) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة اللّيل ومن نام عنه أو مرض، رقم الحديث 746، ج 1، ص 512.

الإمام القرطبي رحمه الله: (القدوة، والأسوة ما يتأسى به، أي: يقتدى به في جميع أحواله)⁽¹⁾ كما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ وهو ينقل من تراب الخندق حتى وارى جلدة بطنه وكان كثير الشعر⁽²⁾، وعندما حاول أسامة بن زيد ﷺ أن يشفع في امرأة مخزومية كان يرده: «والله لو أن فاطمة بنت محمد سرت لقطعت يدها»⁽³⁾.

- و أسلوب التمثيل المسرحي

وذلك بعرض قضايا وأمور دعوية على خشبة المسرح أو سيناريوات التمثيل، والذي أصبح فنًا يعول عليه في تصوير الواقع وطرح أمورًا وقضايا اجتماعية وسياسية واقتصادية لمعالجتها، أفضل من التعبير عنها، لذلك نجد التمثيل وسيلة فاعلة ومؤثرة في ترسيخ القناعات وتعزيز القيم والإيمان بالفكرة، وأكثر الأساليب إثارة وجذبًا، وأكثر نجاحًا في إمتلاك القلوب وأسرها، ذلك لما يتضمنه من أساليب التشويق والإثارة كقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: 17] وقال النبي ﷺ: «مثلي ومثلي الأنبياء كمثلي رجل بنى بُنيانًا فأحسنه وأجمله، فجعل الناس يطوفون به، يقولون: ما رأينا بُنيانًا أحسن من هذا، إلا هذه اللبنة، فكُنْتُ أَنَا تِلْكَ اللَّبْنَةُ(*)»⁽⁴⁾ ولكي يكون هذا التمثيل هادفًا وبناءً، يجب أن يكون منضبطًا بضوابط شرعية دون الإخلال بقيم الإسلام ومبادئه.

- أسلوب تغيير المنكر

أُعتبر درء المنكرات ودفع المعاصي وتغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب، من الأمور المقررة شرعاً، ينبغي على الأمة ودُعائها القيام بهذا الواجب يقول النبي ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا؛ فَلْيُغَيِّرْهُ

(1) - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن - تفسير القرطبي -، ج8، المصدر السابق، ص 1237.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، رقم الحديث 4106، ص 1009.

(3) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود، رقم الحديث 1688، ص 1313.

(*) - اللَّبْنَةُ: بفتح اللام وكسر الباء، ويجوز إسكان الباء مع فتح اللام وكسرها، كما في نظائرها، واللبن كما جاء في المنجد هو المضروب من الطين مريعاً للبناء (صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين، رقم الحديث 2286، ص 1790).

(4) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين، رقم الحديث 2286، ص 1790.

بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلمه، وذلك أضعف الإيمان»⁽¹⁾ وقد استخدم النبي ﷺ اليد في تغيير المنكر يوم فتح مكة، حيث حطّم الأصنام التي كانت حول الكعبة، بأن طعنها بعود في يده فتساقطت على وجهها، واستخدام نبي الله إبراهيم عليه السلام اليد في تحطيم الأصنام: ﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ صَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: 93] فاشترك حاسة اللسان مع جارحة اليد مع مشاعر القلب بالكراهية لمرتكبي المنكر إبرازاً لفاعلية المنهج الحسني⁽²⁾.

ثالثاً: ملازمة المنهج العاطفي للمناهج الدعوية الأخرى

تناولت سابقاً بنوع من التفصيل التعريف بمناهج الدعوة إلى الله، وقد جمعها الله تعالى في آية واحدة جاء في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ شَيْءٍ وَفُرْدَى ثُمَّ نَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: 46] فلموعظة من خلال الآية جاءت مخاطبة للعاطفة ومنه نستنبط المنهج العاطفي، أمّا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُ﴾ فهو مخاطبة للعقل، أمّا المنهج الحسني يستنبط من قوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ بمعنى أن هذا محمد ﷺ أمامكم، وقد عاش فيكم قبل الدعوة أربعين سنة لم يعرف عنه جنون ولم يصبه مرض، ويذكر الدكتور السيد وكيل في تعليقه على الآية وهو يوضح مدى الارتباط بين العاطفة والعقل والحس قائلًا: (ولمّا كان المنهج العاطفي لا يحقّق تلك الغاية إلّا إذا كان مرتبطاً بالعقل موصولاً بالواقع، فإنّ الإسلام قد حرص على أن يوثّق صلته بالعقل، وأن يربطه ربطاً محكماً بالواقع)⁽³⁾ لذلك نجد حسب آراء علماء الدعوة والباحثين، أن المنهج العاطفي وثيق الترابط بكل من المناهج الأخرى العقلية والحسني، وقد أودع الله في الإنسان قوتين :

- قوّة مدركة ظاهرة واعية واضحة العقل الذي يدرك ما تنقله إليه الحواس من العالم الخارجي المحيط بالإنسان، ويتأثر بعوامل كثيرة، كالعلم والتجارب والعادات والتقاليد وشئى جوانب الحياة.
- قوّة مدركة باطنة مبهمة، وهي قوّة الإدراك الشعوريّة الوجدانيّة داخل النفس البشريّة، التي تدرك بها الأمور الباطنة، كالألم والجوع والعطش والفرح والحزن، وتدرك بها الرضا والقبول، والإرتياح لشيء ما، وتدرك بها النفور والرفض لشيء آخر، وهذا إدراك باطني مبهم، نقبل به الشيء أو نرفضه وجداناً

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، رقم الحديث 49، ص 69.

(2) - أصول الدعوة و طرقها، ج2، المرجع السابق، ص 192.

(3) - حامد بن أحمد بن أحمد بن العامري، الدعوة إلى الله بالمنهج العاطفي، المرجع السابق، ص 138.

وشعوراً، وقد لا يكون لدينا مسوّغ واضح لهذا القبول أو الرّفْض، سوى الشعور بالإرتياح أو الإستياء⁽¹⁾ وهذه القوى لها علاقة وهي المحرّك والدّافع ترتكز عليها المناهج الثلاث :

- المنهج العاطفي يرتكز على القلب و القوة الشعورية.

- المنهج العقلي يرتكز على العقل ويدعو إلى التّفكّر والتّدبّر والإعتبار⁽²⁾.

- والمنهج الحسّي يرتكز على الحواس ويعتمد على المشاهدات والتّجارب.

وبالتالي فإنّ هذه المناهج متداخلة فلا يمكن الفصل بينها، لأنّ النّفس البشرية بطبيعتها مكوّنة من خليط من المشاعر والأحاسيس، وتحديد المنهج المناسب تكون بحسب ما يغلب على طبيعة المدعو، و يُعدّ التوجّه إلى العاطفة مؤازراً في أساليب الإقناع والتّأثير للتّوجه إلى العقل، فإذا كان العقل لا يسهّل القيادة في بعض الأحيان مهما وضّحت الحجّة وعكّت في صحتّها وقطعيّتها، فإنّ العاطفة تكون حينئذٍ عوناً على استمالة المدعو وإجتنابه، فهما أسلوبان يدخل منهما نور الهداية ومعاني الخير والرّشاد لكن بطريقتين مختلفتين شكلاً، متّفقين هدفاً⁽³⁾ وعليه فالعلاقة بين العاطفة والعقل علاقة توازن ومقارنة، وترجيح، والدّاعية إلى الله عندما يخاطب العواطف ويثيرها فإنّه في الوقت ذاته يُنبّه العقول لتقارن بين الطّيّب والخبيث، والمعروف والمنكر، وعندما ترتبط العاطفة بالعقل فإنّها حينئذٍ تكون محكومة، محفوظة من الثّورة الهوجاء والحماسة العمياء، والبعد عن التّورط في الحكم على الأشياء مجرد التّأثر بها⁽⁴⁾ ويمكن أن يكون كلّ منهج منها قائماً بنفسه مستغنياً عن المناهج الأخرى، لكنّ الملاحظ أنّه في بعض الأحيان من الصّعب الفصل بينها فصلاً تاماً نظراً لتلازم وترابط الرّكائز الفطرية في النّفس البشرية، ولكن قد يغلب منهجٌ على آخر وذلك حسب إستخدامه، والدّاعية مطالب أن يتخيّر المنهج الأنسب لمقتضى الحال، بهدف تغليبه على بقية المناهج، دون أن يعني ذلك إسقاط المناهج الأخرى، وبقي أن نشير هنا أنّ بعض الباحثين كالدكتور علي جريشة جعل منهجاً جديداً أسماه المنهج الفطري⁽⁵⁾، ولَمّا كان القلب والعقل والحسّ يرتكزون على الفطرة، فإنّه ليس سائغاً أن

(1) - أصول الدّعوة وطرقها، مناهج الدّعوة، المرجع السّابق، ص 221.

(2) - محمّد أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدّعوة، المرجع السّابق، ص 208.

(3) - إبراهيم بنّ صالح الحميدان، الإقناع والتّأثير دراسة تأصيليّة دعويّة، جامعة الإمام محمّد بنّ سعود الإسلامية، كلّية الدّعوة والإعلام، قسم الدّعوة والإحتساب (مجلّة جامعة الإمام، العدد 49، 1426هـ)، ص 287.

(4) - سارة بنت عبد الله جمعة البلوشي، فقه الدّعوة من أمثال النّبي ﷺ، المرجع السّابق، ص 154.

(5) - يُنظر: علي جريشة، مناهج الدّعوة وأساليبها، المرجع السّابق، ص-ص 28، 37.

نفصل المنهج الفطري عن تلك المناهج الثلاثة⁽¹⁾، وبالتالي نستطيع القول بأن المنهج العاطفي أحياناً يحتاج إلى إعمال العقل الرَّاجح حتَّى يضبطها وإلاً طغت وجرّت صاحبها إلى ما لا يُحمدُ عقباه، فكم من مواقف وقفها صاحب العاطفة ولم يحكّم فيها عقله فندم عليها، فالعقل إذن لجام للعاطفة، والعاطفة مسرح للعقل ومخفّفة من غلوائه وسطوته، فكلاهما نافذتان يدخل منهما نور الهداية ويستقرّ في الوعي وينقاد المرء لما يتجهان إليه ويبصرانه به وفي تكافلهما لاشكّ حفاظاً من الزلل، وفي مناجاتهما توفيراً لأسباب الرشد وحيطة في التوجّيه وفي حسن التربية⁽²⁾، يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج : 46] وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانُ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24] تبين الآيتان أنّ العقل غريزة فطريّة، يولد الإنسان مزوّداً بها تنمو شيئاً فشيئاً، ومحلّ هذه الغريزة هو القلب، فيتّضح إذن أنّ العقل مكانه القلب، يقول الإمام البنا رحمه الله: (أجموا نزوات العواطف بنظرات العقول، وأنبروا أشعة العقول بلهب العواطف)⁽³⁾، وقد ظهر تلازم المنهج العاطفي للمناهج الأخرى من خلال حديث النبي ﷺ للأَنْصار: «أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله ﷺ إلى رحالكُم؟ فو الذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنتُ امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً، وسلك الأنصار شعباً لسلك شعب الأنصار»⁽⁴⁾ لننظر كيف ظهر أثر المنهج الحسني على استعمال النبي ﷺ عند إثارته لعواطف الأنصار ببيان محبته لهم ومكانتهم عنده بالموازنة بين ذهاب الناس بالشاة والبعير، وذهابهم برسول الله ﷺ، والموازنة بين أمرين لو قدّر حدوثهما وهما أنّه لو سلك الناس جميعهم وادياً أو شعباً، وسلك الأنصار وادياً وشعباً آخر، لسلك طريق الأنصار وذهب معهم في واديهم وشعبهم، وعندما سلك النبي ﷺ في دعوته إلى الجمع بين هذه المناهج، ما حدث في طريق رجوعه من غزوة حمراء الأسد إلى المدينة أخذ أبا عزة

(1) - يُنظر: محمّد أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، المرجع السابق، ص 219.

(2) - محمّد محمود الشريف، العاطفة الإيمانية وأهميتها في الأعمال الإسلامية، المرجع السابق، ص 103.

(3) - مجموعة رسائل الإمام حسن البنا، pdf، د، ط، د، ت، ص 127.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف في شوال سنة ثمان، رقم الحديث 4330، ص 1059.

ورقم الحديث 4333، ص 1060. السيرة النبوية لابن هشام، علّق عليها وخرج أحاديثها وصنف فهارسها عمر عبد السلام تدمري (بيروت: دار الكتاب العربي، ط3، 1410هـ/1990م)، ص-ص 137، 138.

الجمحي^(*) وهو الذي كان قد منَّ عليه من أسارى بدر؛ لفقره وكثرة بناته، على ألا يظهر عليه أحداً، ولكنه نكت وغدر فحرَّض الناس بشعره على النَّبي ﷺ والمسلمين، وخرج لمقاتلتهم في أحد، فلمَّا أخذه رسول الله ﷺ قال: يا محمد، ألقني، وامنن عليَّ، ودعني لبناتي، وأعطيك عهداً ألا أعود لمثل ما فعلت، فقال ﷺ: «لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول: خدعتُ محمداً مرتين، لا يلدغ المؤمن من جحرٍ مرتين، ثم أمر الزبير أو عاصم بن ثابت فضرب عنقه»⁽¹⁾ ففي هذا الموقف كان إعمال العقل هو الأصوب للنبي ﷺ، وقد أبان القاعدة التي يدور عليها وهي أنه لا يلدغ مؤمن من جحرٍ مرتين، فتقرير العقل هنا كان أقوى من نداء العاطفة المرتكز على فقر الرجل وكثرة بناته، فعامله بالعدل لا بالإحسان إذ أحسن إليه من قبل، وعندما بعث النبي ﷺ سريةً استعمل رجلاً من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه فغضب فقال: «أليس أمركم النبي ﷺ أن تُطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: فاجمعوا لي حطباً فجمعوا فقال: أوقدوا ناراً فأوقدوها، فقال: ادخلوها فهُمُّوا وجعل بعضهم يمسك بعضها ويقولون فرزنا إلى النبي ﷺ من النار فما زالوا حتى حمدت النار فسكن غضبه فبلغ النبي ﷺ فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة الطاعة في المعروف»⁽²⁾ فحكم العاطفة المجردة يقول إنه يجب عليهم أن يطيعوا أميرهم أيًا كان نوع هذه الأوامر، ولكن صريح العقل يقول: إنما الطاعة في المعروف ليس في الباطل، فالمنهج العاطفي إذن ملازم للمناهج الدعوية الأخرى، باعتبارها جميعها قائمة على الفطرة، والفطرة السليمة ما اكتمل فيها العاطفة والعقل والحواس جميعاً.

المبحث الثالث: المنهج العاطفي ومدى ارتباطه بدعوات الأنبياء عليهم السلام

النبوة منحة إلهية لا تنال بمجرد التشهي والرغبة، ولا تنال بالمجاهدة والمعاناة، وقد أخطأ الفلاسفة فيما ذهبوا إليه حينما زعموا أن النبوة تنال بمجرد الكسب والجد والاجتهاد وتكلف أنواع العبادات واقتحام أشق الطاعات والدأب في تهذيب النفوس وتنقية الخواطر وتطهير الأخلاق ورياضة

(*) - أبو عزة الجمحي: الكافر قتله النبي ﷺ يوم أحد صبراً، مذكور في كتاب السير من المختصر والهذب، إسمه عمرو بن عبد الله، وكان شاعراً يحرِّض بشعره على قتال المسلمين، وعزة بفتح العين وتشديد الزاي وبعدها هاء، وكان النبي ﷺ منَّ على أبي عزة هذا يوم بدر، فذهب إلى مكة وقال: سخرت بمحمد، فلمَّا كان يوم أحد حضر وحرَّض بشعره على قتال المسلمين (محي الدين شرف النووي، تهذيب الأسماء واللغات، حرف العين، بيروت: دار الكتب العلمية، د، ط، ج2، د، ت)، ص 132.

(1) - صفى الرحمان المباركفوري، الرِّحيق المختوم، (الجزائر: شركة الشَّهاب للنَّشر والتَّوزيع، 1408هـ/1987م)، ص 336.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب سرية عبد الله بن حذافة السهمي وعلقمة بن مجزز المدلجي، ويقال: إنها سرية الأنصار، رقم الحديث 4340، ص 1062.

النفس والبدن⁽¹⁾، فالنبوة هي نعمة ربانية إلهية بينها الله تعالى في أكثر من آية فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجِبِينَ﴾ [مريم: 58] وحكى الله تعالى قول يعقوب لابنه يوسف عليه السلام: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْثِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: 06] فهؤلاء الأنبياء عليهم السلام اصطفاهم الله من بني البشر ليكونوا هداة مهديين، يبلغون ما أرسل إليهم من العزيز الحكيم فيقول عنهم تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: 75] والله تعالى حين اصطفى الأنبياء وأعدّهم لحمل رسالته وتبليغها للناس فقد اصطبغهم بصبغته ومن أحسن من الله صبغة، وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: 124] وقوله تعالى لنبي الله موسى عليه السلام: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: 41] ففي الأنبياء المدرسة الإصلاحية الكاملة ذات المنهج الإلهي والقدوة النبوية التي تحتضن التربية الإلهية الكاملة للخلق وتعمل على إنمائها وتعميمها بين الناس، ليعم الخير والسلام من ينابيع الحكمة ومحاسن الأخلاق⁽²⁾ ودعوتهم عليهم السلام - الأنبياء - في حقيقتها تضمنت أصولاً كبرى على رأسها الدعوة إلى توحيد الله، فقال كلٌّ منهم لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [إِنْفِ] أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ [الأعراف: 59] فقد تميّزت دعواتهم بوسائل وأساليب أثارت خطابهم وارتقت بهم أن بنى منها الدعوة آفاق ومعالم استطاعوا من خلالها تبليغ الدين ونشره بين الناس، عن طريق التماس العواطف واستجاشة القلوب، وإعمال العقول إلى الفكر والتدبر، ولهذا صار منطلقاً أساسياً لكل داعي، وبناءً على هذه التوطئة التي توحى بضرورة الحديث في مناهج دعوات الأنبياء عليهم السلام فإن هذا المبحث يتضمن مطلبين :

المطلب الأول: المناهج الدعوية في دعوات الأنبياء عليهم السلام - بشكل مختصر - .

المطلب الثاني: المنهج العاطفي في دعوات الأنبياء عليهم السلام.

(1) - عمر سليمان عبد الله الأشقر، الرُّسل والرَّسالات (الكويت: دار النَّفائس، ط2، 1403هـ/1983م)، ص 59.

(2) - محمد الصَّبَاحي عوض الله، حياة وأخلاق الأنبياء (بيروت: دار إقرأ، ط4، 1413هـ/1993م)، ص 23.

المطلب الأول : المناهج الدعوية في دعوات الأنبياء عليهم السلام

أ- المنهج العقلي في دعوات الأنبياء عليهم السلام

من يطالع دعوات الأنبياء عليهم السلام يجد أن دعوتهم قد قامت على أداء مهمات ووظائف تحدّد الغرض الدعوي الذي توحّدوا لأجله من لدن آدم عليه السلام إلى النبي محمد ﷺ فيقول: «والأنبياء إخوة من علاتٍ^(*)، وأُمّهاتهم شتى ودينهم واحد^(*)»⁽¹⁾ والتي لا تقف أساساً على مهمّة البيان والتبليغ والدعوة فقط، بل لأجل الغاية الكبرى وهي تحقيق العبودية لله وحده وإقامة الدين وتبليغ شرائعه للناس يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36] يقول الإمام الطبري رحمه الله: (أي: ولقد بعثنا أيّها الناس في كلّ أمة سلفت، قبلكم رسولاً كما بعثنا فيكم أن إعبدوا الله وحده لا شريك له، وأفردوا له بالطاعة وأخلصوا له العبادة)⁽²⁾ ويقول الشيخ العلامة السعدي رحمه الله: (وما من أمة متقدّمة أو متأخرة إلاّ وبعث الله فيها رسولاً، وكلّهم متفقون على دعوة واحدة ودين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له)⁽³⁾ لقد تصدّى الأنبياء ﷺ لجميع ما يعترضهم في دعوتهم من شبهات ومفتريات يُطْلَقُهَا أقوامهم من افواههم الأفأكة بما هو حجة عقلية دامغة مقنعة، لنقض الأسس التي استند عليها أقوامهم في إلقاء الشكوك والدعايات المغرضة حول دعوتهم ومن هؤلاء على سبيل المثال :

– منهج نبي الله نوح ﷺ

فدعوة نوح ﷺ من أكثر الدعوات الإلهية في إمتدادها الزماني، أبانها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾

(*) – إخوة من علاتٍ: هم الإخوة لأب من أمّهاتٍ شتى، وقال جمهور العلماء: معنى الحديث أصل إيمانهم وشرائعهم مختلفة فإنهم متفقون في أصول التوحيد، وأما فروع الشرائع مختلفة فوقع فيها إختلاف (صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى ﷺ، رقم الحديث 2365، ص 1837).

(*) – ودينهم واحد: المراد به أصول التوحيد، وأصل طاعة الله وإن اختلفت صفتها، وأصول التوحيد والطاعة جميعاً (رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى ﷺ، رقم الحديث 2365، ص 1837).

(1) – المرجع نفسه، ص 1837، وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله: ﴿واذكر في الكتاب إذ ابتذت من أهلها﴾، رقم الحديث 3443 ص 853.

(2) – ابن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، ج14، المصدر السابق، ص 13.

(3) – السعدي، تفسير السعدي تيسير الكريم الرّحمان في تفسير كلام المتّان، المرجع السابق، ص 440.

﴿١٤﴾ [العنكبوت: 14] وقد تعرّضت هذه الدعوة لجملة تحديات وإفتراءات، ظلّ ﷺ يردُّ على المعارضين لدعوته ويبين لهم فساد اعتقادهم ليلاً ونهاراً، سرّاً وعلانية، فقال تعالى على لسان نوح ﷺ: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهْم عَصَوْنِي وَأَتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿١١﴾ [نوح: 21] فكانوا يضربونه بالعصي والنعال ويقذفونه بالحجارة عندما كان ينهاهم عن عبادة الأوثان ويدعوهم إلى عبادة الله وحده فقال لهم: ﴿قَالَ يَقَوْمُ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٢﴾ [نوح: 2] لوحظ من خلال السياق القرآني ردُّ نبيّ الله نوح ﷺ على اعتراضات قومه والشبهات التي أحيكت في شخصه ودعوته في كونه ليس رسولاً، وأنّ دعوته لا يكون أتباعها إلا من الأراذل والضّعفاء وغيرها من الشبهات الأخرى⁽¹⁾ فقالوا: ﴿مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِكَ بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ [هود: 27] فكان جوابه على قولهم أن بين لهم أنّه بشر مثلهم في بشريته ولكن الله يميّز على من يشاء من عباده برسالات أشار إليها القرآن: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [إبراهيم: 10] ثم تأتي مهمّة الإنذار والتذكير تقتضي أن يكون النبيّ رجلاً من أفراد قومه، فذلك ما يقرّه العقل وليس فيه ما يدعو إلى العجب يقول تعالى: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿٦٣﴾ [الأعراف: 63] وأنّ الأدلة المثبتة لنبوته موجودة وهي في المعجزة والكتاب الذي يتضمّن وحي الله إلى عباده وإنّما حجب عنهم هذه الأدلة بسبب كبرهم وجحودهم، وهو ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿قَالَ يَقَوْمُ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهِرُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ [هود: 28] وهذا منهج عقلي واضح في دعوة نوح ﷺ أن دعاهم إلى التعقّل والتفكّر أمام الآيات والبيّنات والمعجزات التي سخرها الله لتكون حجة له، ويتّضح استخدام نبيّ الله نوح ﷺ للمنهج العقلي، من خلال ما دار بينه وبين قومه من حوار وجدال ونفي ما جاء به، إذ أنّه لم يرد ﷺ عندما نفى عن نفسه جميع التهم بأسلوب الشتيمة بل كان في غاية اللين والتلطّف والحكمة قائلاً لهم: ﴿قَالَ يَقَوْمُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي﴾

(1) - يُنظر: معن محمود عثمان ضمرة، الحوار في القرآن الكريم، جامعة النّجاح الوطنية، كلية الدّراسات العليا، رسالة ماجستير،

رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ أَبْلَغُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِمَّنْ لَّا نَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾ ﴿الأعراف: 61-62﴾ واستعمل نوح عليه السلام التدريج مع قومه في وسائل الإقناع فتارة يدعوهم إلى التفكير في أنفسهم وأطوار نشأتهم، وتارة يذكرهم بقدرة الله وآياته الكبرى في الآفاق والكون⁽¹⁾ قائلاً: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح: 13-20]، وكذلك تدريجه مع المدعوين وتدريجه في الأساليب، فتارة يختار أسلوب الإسرار، وتارة أسلوب الجهر وتارة بالموعظة، وتارة بمخاطبة العقل بالحجة والبرهان، وتارة بالجدال والمناظرة بينه وبين الملأ من قومه فما كان يشعرهم بالضعف والهروب من الجدال بل واجههم⁽²⁾، وتحذوه بطلب المعجزات: ﴿قَالُوا يَنْبُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَلَنَا فَأُنِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [هود: 32] لقد صبر نبي نوح عليه السلام واحتمل أذاهم خلال سنين طويلة وتنوع في تجاوز هذه الاعتراضات، فكان إذا اشتدت أذية القوم ووتيرة الإضطهاد توجه متضرعاً بالدعاء أن يفتح بينه وبين قومه الضالين، فكان صبره خارقاً وكان آية خلقية كبرى في الصبر، ولما يبس من هدامهم دعا عليهم فقال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٦١﴾﴾ [نوح: 26] فأهلكهم الله بالطوفان.

- منهج نبي الله إبراهيم عليه السلام

استخدم نبي الله إبراهيم عليه السلام مناهج دعوية متنوعة جمعت بين خطاب العقل وخطاب العاطفة اتخذ منها وسائل وأساليب مقنعة ومؤثرة تجسدت في الجانب الأخلاقي والدعوي لسيدنا إبراهيم عليه السلام، وقد تحدت عنه القرآن الكريم، وبيّن أنه اعتمد في دعوته على الحجة التي تقوم على ما يتقبله العقل فيقول عنه تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: 83] فكان يوجه العقول إلى الحقائق ويهيب بها إلى التأمل في الكون لرؤية مظاهر عظمة الخالق في الإبداع والإتقان

(1) - فريق من المتخصصين، الدراسات الاجتماعية والوطنية 1، النظام الفصلي للتعليم الثانوي، كتاب الطالب، الرياض، وزارة التعليم، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر، 1436هـ/2016م، ص 20.

(2) - كائنات محمود عدوان، محاضرة بعنوان التحدّيات المواجهة للدعوة من خلال سورة نوح عليه السلام، مؤتمر الدعوة الإسلامية ومتغيّرات العصر، غزة، الجامعة الإسلامية، كلية أصول الدين، 1426هـ/2005م، ص 1024.

التي تدلُّ على وجود الخالق جلَّت قدرته⁽¹⁾ وتَّبِعَ ﷺ في منهجه أسلوب المساءلة فقد بدأ مع قومه بكلامٍ يحتوي كثيراً من الأسئلة الموهمة لهم، وذلك لإستثارة عقولهم ليحثُّها على التَّفكير السَّليم عن حال أصنامهم هل تنفع أو تضرُّ أو تغني عنكم شيئاً، فما وجد منهم إلّا الإصرار والعناد والإلحاد الفكري والعقدي الشائع في عصره ﴿وَأْتِلْ عَلَيْهِمْ بَنَاءَ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۖ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ۖ قَالِ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۖ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۖ﴾ [الشُّعراء: 69-74] فقصد ﷺ إلى إبطال حجَّتهم بالبرهان القوي، وكان من منهجه أنه استطاع أن يحاجج قومه بطريق الإستدراج، فلم تكن دفعة واحدة بل تدرَّج في أسلوبه بين اللين والشدَّة والحكمة والإقناع⁽²⁾ وقد تناول القرآن الكريم منهجه الذي أظهر فيه الجانب العقلي في سورٍ عديدة جاءت في سورة الأنعام والأنبياء والشُّعراء والصَّافات ومريم وغيرها، وفيها تقرير منهج شامل لجميع الأنبياء عليهم السلام يسعهم ويسع الدُّعاة من بعدهم، فكان منهجه الدَّعوي درس وعبرة لكلِّ داعية.

ومَّا يلفت الانتباه في منهج نبيِّ الله إبراهيم ﷺ محاجته لأبيه وقومه عند استخدامه للمنهج العقلي في الردِّ على اعتراضاتهم له، بأن جادلهم بالأدلة العقلية المقنعة، وفي مناظرة إستدراجه محاولاً أن يلفت أنظارهم إلى حقائق قد غفلوا عنها، فاستدرج عقولهم وقلوبهم ليهديهم إلى الحقيقة الكبرى وهي إقامة التَّوحيد ونقض الخرافات والبرّهات التي أقامها عبدة الكواكب والشَّمس، فأراهم أن ما كانوا يعبدونه لا يغني من الحقِّ شيئاً⁽³⁾، بأسلوبٍ موافقٍ لهم حتَّى يكونوا هم الحاكمين على أنفسهم بضلال ما هم عليه من إعتقادات لا سند لها ولا برهان، فيقول عنه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَا زَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۖ قَالُوا نَحْنُ وَمَا آتَاكَ بِشَيْءٍ مِّنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۖ﴾ [البقرة: 175] وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ۖ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ لَا مَنَاجِيَ لَهُ مِنَّا وَحْدَ لَيْلٍ ۖ فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ بِهَٰذَا رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۖ فَلَمَّا رَأَىٰ الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُرِيدُ أَنِ يَكْفُرَ بِكَ بَاطِلٌ مُّشْرِكٌ ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ بِهَٰذَا رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ بِهَٰذَا رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ بِهَٰذَا رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۖ

(1) - محمد أمين بنى عامر، أساليب الدَّعوة، المرجع السَّابق، ص 29.

(2) - محمد علي الصَّابوني، صفوة التَّفاسير (القاهرة: دار الصَّابوني للطباعة والنَّشر، ط 1، ج 1، 1417هـ/1997م)، ص-ص 372، 373.

(3) - بَصْرُف: أبو الليث السَّمُرْقندي، تفسير السَّمُرْقندي المسمى بحر العلوم، ج 1، المرجع السَّابق، ص 463.

وَجَهَتْ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَائِفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ [الأنعام: 74-82] تمثلت مناظرة نبي الله إبراهيم عليه السلام لأبيه حينما دعاه بأدبٍ ورفقٍ راجياً هدايته مبيّناً خطأه في عبادته للأصنام، فكانت كلماته تفيض حناناً وشفقةً وتتدفق عطفاً ورقةً، إذ بيّن له أن ما يعبد من أصنام فاقداً لأوصاف الربوبية والألوهية، ثم أعلمه بشدة خوفه عليه من أن يمسه عذاب الرحمن فيكون للشيطان ولياً، وأمام هذه الدعوة الحانية المتزنة يردُّ عليه الأب بعبارات قاسية غليظة نابية، فلم يواجهه إلاّ بالتي هي أحسن قائلاً له: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾ [مریم: 47] ووعدته بالاستغفار، ومناظرته للملك النمرود في إثبات مبدأ الألوهية في إحياء الموتى، هذه المناظرة وقعت بعد نجاة سيدنا إبراهيم عليه السلام من النار التي ألقى فيها، وكانت معجزة للفتت أنظار الناس فتعجبوا من نجاته من النار، فيبادر الملك ليوقعه في الحرج ظناً منه الغلبة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: 258] أوضح الإمام ابن كثير رحمه الله معنى الآية في قوله: (استدل إبراهيم عليه السلام على وجود الخالق قائلاً: إِنَّ رَبِّيَ الَّذِي يَخْلُقُ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ فِي هَذِهِ الْأَجْسَادِ، وَلَكِنَّ الطَّاعِيَةَ اعْتَرَضَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَقَالَ: أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ، وَذَلِكَ بِقَتْلِهِ مَنْ يَشَاءُ وَتَرْكِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَعِنْدَ ذَلِكَ انْتَقَلَ إِبْرَاهِيمَ إِلَى حُجَّةِ أَقْوَى، وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأُرِيدُ أَتِيهَا النَّمْرُودُ أَنْ تَأْتِيَ لِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ، فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ حَتَّى وَقَفَ حَائِزاً لَا حَوْلَ لَهُ وَلَا قُوَّةَ) ⁽¹⁾، ورغم اعتراضات قومه تواصلت محاولات إبراهيم عليه السلام بالأدلة العقلية القاطعة قائلاً لهم : ﴿يَنْقُومُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ [الأنعام: 78] أي: أنا بريء من عبادتكم وموالاكن، فإن

(1) - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، المصدر السابق، ص 318.

كانت آلهة فكيدوني بها جميعاً ثم لا تنظرون ⁽¹⁾، فأبطل نبي الله إبراهيم كل المعبودات بالأدلة والحجج العقلية في الحوار الذي دار بينه وبين أبيه آزر في سورة مريم: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَأْتِ بِكُم تَعْبُدُونَ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۚ﴾ [مريم: 42] ثم أثبت رسالته فقال: ﴿يَأْتِ بِكُم إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۚ﴾ [مريم: 43] يقول الإمام الشَّهرستاني رحمه الله: (كانت الحجَّة في دعوة الخليل وما جرى بينه وبين قومه من عبدة الأوثان والكواكب من أظهر ما يتصور حيث قال لهم: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا نَنْحِتُونَ ۚ﴾ [الصافات: 95] ⁽²⁾ وبناء على ذلك فقد تجسَّدت حجَّة سيِّدنا إبراهيم عليه السلام من خلال المواجهة والمُحاجة التي جرت بينه وبين قومه، فاعتمد على الهداية والعقل، وقد قال عنه تعالى أَنَّ حُجَّتَهُ هِيَ حُجَّةُ الْعَقْلِ، وهي الجديرة بأن تنسب إلى الله وقد نسبها تعالى إليه فقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۚ﴾ [الأنعام: 83] أي: وفَّقناه للحجَّة يخاصم بها قومه بإلهام الفطرة السليمة والعقل الحصيف الذي لا يميل إلَّا للحقِّ ولا يتَّجه إلَّا إليه، وكانت هذه الحجَّة قويَّة انتصر بها على قومه وقامت الحجَّة عليهم ⁽³⁾ وعليه تعتبر دعوة نبي الله إبراهيم عليه السلام خطوة في التَّرقية العقلية، وحركة أوسع في إتجاه الدعوة العالمية ⁽⁴⁾ لقد كان هذا المشهد الدَّعوي الرِّفيع بما فيه من أسلوب بديع وأخلاق راقية سردها القرآن في قالب حوارٍ فصيح فيها من العبر والعظات والنُّبؤات الشَّيء العظيم، فحريٌّ على الدَّاعية المطالعة وتكثيف البحث في مناهج دعوات الأنبياء عليهم السلام فهي مصدر النَّظر والتَّطبيق.

– منهج نبي الله موسى عليه السلام

ذكر القرآن الكريم منهج نبي الله موسى عليه السلام العقلي، وأساليبه في الدعوة إلى الله من خلال آيات كثيرة، فكانت حجَّته قويَّة في دعوة قومه عند إظهاره للحقِّ، وبيان ما هم عليه من الباطل والزَّيف، وقد تحدث عنه القرآن الكريم وبيَّن أنَّه اعتمد على الحجَّة والبرهان في بيان صدق رسالته والتي تقوم على ما يتقبله العقل ويلتمسه الوجدان يقول تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ﴾ [١٧] قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَسُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقَهَا يَمْوَسَىٰ ﴿١٩﴾

(1) – المصدر نفسه، ج3، ص 292.

(2) – محمَّد بن عبد الكريم أبو الفتح الشَّهرستاني، نهاية الإقدام في علم الكلام (بيروت: دار الكتب العلمية، ج1، ط1، 2004م)، ص 150.

(3) – أبو زهرة، زهرة التَّفاسير (دار الفكر العربي، د، ط، ج5، 1987م)، ص 2571.

(4) – أحمد أحمد غلوش، الدَّعوة الإسلامية (القاهرة: دار الكتاب المصري، ط2، 1407هـ/1987م)، ص 137.

فَالْقَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴿٢٢﴾ لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَبَيِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَؤُلَاءِ آخِيَ ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نَسْحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْرُكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴿٣٦﴾ ﴿طه: 17-36﴾ هذه الحجة يجب أن تتوافر فيها عناصر الفصاحة والوضوح، فموسى عليه السلام حينما بعثه إلى فرعون لإبلاغ دعوته سأل أن يحلل عقدة لسانه ويشرح صدره ليكون بيانه مقرونًا بالبرهان والحجة الصحيحة القائمة على أعمال العقل نحو التفكير والتدبر في لا معبود غير الله، فامتثل منهجه العقلي حينما عرض على الملأ من قومه وفرعون العقيدة الصحيحة وأتبعها بالحجج الدالة على ثبوتها لقيمهم على الإقناع لا الإكراه، ومن الحجج العقلية والبيانية التي سلكها نبي الله موسى حين كان فرعون يسأل وموسى يجيب بشجاعة دون خوف لأن مهمته تتطلب البيان والتوضيح فقال لله فرعون سائلاً: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾ ﴿٢١﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٥١﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ ﴿طه: 49-54﴾ كان جواب موسى عليه السلام لفرعون قائم على الثقة والكمال وقوة إيمان ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿طه: 50﴾ ظهر جواب موسى عليه السلام من أروع الكلام والطفه تجلّت في محاورته بين داعية مؤمن مع ملحد كافر، فيعلق عنه الشيخ الصّابوني قائلاً: (وهذا جواب في غاية البلاغة والبيان لاختصاره على جميع الموجودات بأسرها)⁽¹⁾ ويقول الإمام الزّمخشري رحمه الله: (ولله در هذا الجواب ما أحصر هو أجمعه وأبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف)⁽²⁾ ومن منهج سيّدنا موسى عليه السلام العقلي استخدامه أسلوب الحوار الذي هو عبارة عن عملية إلقاء مجموعة من الأسئلة المختارة بعناية، بحيث تؤدي تلك الأسئلة إلى معلومات جديدة تزيل الأوهام عن عقول المدعويين فهو لغة العقلاء يحلّون بها مشكلاتهم فييدي كل واحد منهم وجهة نظره ويدعمها بالأدلة والبراهين، ويحكمون عقولهم فيما يعرضونه

(1) - محمد علي الصّابوني، صفوة التّفسير، ج2، المرجع السّابق، ص 217.

(2) - الزّمخشري، تفسير الكشّاف (بيروت: دار المعرفة، ط3، ج16، 1430هـ/2009م)، ص 657.

ويستمعون إليه⁽¹⁾، وفي سياق الحديث عن منهج سيدنا موسى عليه السلام كان غرضه من أجل إثارة مشاعرهم وتحريك عقولهم ليتفكروا وليتدبروا في قدرة الله فيأتي سؤال فرعون: ﴿وَمَارَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) [الشعراء: 23-28] استدلل بال مخلوقات وهدايتها على موجدتها وخالقها، فالناظر والمتأمل والمتدبر يدرك أن موحداً واحداً وهو الله المستحق للعبادة، فهذه المخلوقات جميعها آيات كونية أشارت إليه الآية، وفي هذا دلالة عقلية ضرورية في الاستدلال على ربوبيته تعالى، بأنه المستحق للعبادة وحده دون سواه ، لذا فإن دعوة الأنبياء عليهم السلام لا تجد حرجاً في خوض العقل في حاجة أقوامهم مهما بلغت من الحساسية أو شدة الإنكار وموسى عليه السلام سلك طرقاً متنوعة للإفهام، ووسائل شتى للإقناع.

- منهج نبي الله عيسى عليه السلام

وعيسى عليه السلام عندما احتج قومه إلى الله حين إتخذه إلهاً كانت حجته فيها من البيان والكمال يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١١٧) [المائدة: 116-117] وهكذا أخذ الله سبحانه وتعالى حججاً على الأنبياء ومن سار على نهجهم من الدعاة.

- منهج نبي الله شعيب عليه السلام

وشعيب عليه السلام كان منهجه منهج الأنبياء عليهم السلام جميعاً يدعو قومه بحب وحرص، جسده الآية من سورة هود حين قال لقومه: ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَنبَغٍ مِّنْ رَبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَضَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (٨٨) [هود: 88] فقد عليه السلام كان خطيباً بارعاً في إقامة حجة الله ودحض حجة الباطل، وكان

(1) - سلمى محمد سالم القرعان، منهج النبي موسى عليه السلام في الدعوة إلى الله، دراسة تربوية، جامعة اليرموك، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم أصول الدين، 1423هـ/2002م، ص 74.

سيداً عابداً كريماً مضيافاً صالحاً زاهداً حليماً رشيداً، فسمّاه المفسّرون خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه في إقامة الدعوة الإلهية⁽¹⁾، أتى إلى قومه قائلاً: (يا قوم إعبدوا الله وحده واتركوا عبادة الأصنام، فإنّ الله أرسلني إليكم لأنّهاكم عن معصيته وأحذركم من نعمته، وأنّهاكم عن بخس الكيل والميزان، فأمن به فريق وكذب به فريق آخر فقال المكذّبون: يا شعيب لا نترك ما كان يعبد آباؤنا ولنا أن نفعل في أموالنا ما نشاء، ولئن لم تنته عمّا تقول لنخرجنك من أرضنا وسنترك بعض الوقت إلى عقلك لعلّك ترجع عمّا أنت فيه من سفه)⁽²⁾ وقف نبيّ الله شعيب عليه السلام خطيباً مصعقاً، فأقام حجّة الله بأسلوب قويّ رصين فقال: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف: 84-85-86] فما كان ردّهم: ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ أَصْلَوْنَا تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: 87] وحذّره من الغشّ في الكيل والوزن الذي انتشر وشاع بينهم ودعاهم إلى الصدق في البيع والشراء فقال: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف: 85] وقال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ [هود: 84] ولمّا أخرج شعيب عليه السلام قومه وأعجزهم بالحجّة المفحمة، ولمّا رأوا أنّه قد غلبهم بالحجّة والبرهان وقهرهم بالبيان، وعزّهم في الخطاب مبيناً لهم فساد اعتقادهم وباطل أعمالهم، لجأوا إلى المراوغة في القول ولم يجدوا سبيلاً إلى مواجهته ومجادلته بغير الشتم

(1) - محمد الصباحي عوض الله، حياة وأخلاق الأنبياء عليهم السلام، المرجع السابق، ص 164.

(2) - المرجع نفسه، ص - ص 164، 165.

والتَّهْدِيدُ⁽¹⁾ فقالوا : ﴿يَشْعِبُ مَانَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ﴾ [هود: 91] فما آل به أن تعامل معهم بتواضع وصبر يبين لهم الحق بحكمة ومع ذلك لم يؤمن به إلا قليل.

– الاستفادة من المنهج العقلي في دعوات الأنبياء ﷺ

إنَّ الدَّعوة إلى الله عمومًا ودعوات الأنبياء عليهم السلام على وجه الخصوص متأصلة علميًا في حياة الدُّعاة إلى الله وتطبيقاتهم في المجال الدعوي، وهي مصدرًا أساسيًا ومرتكزًا من مرتكزات الدَّعوة يرجعون إليه في أيِّ زمان ومكان، ليقبَسوا منها العبر والعظات، إلَّا أنَّ الالتفات إليها من حيث هي علم والعناية بمناهجها وأساليبها يعطي آمالًا في تطوُّر هذه الدَّعوة وتقدُّمها وتعمُّق جذورها، وعليه من باب الوفاء لهذه الدَّعوة أقفُ إلى ما توصَّلت إليه في مجال الاستفادة من المنهج العقلي للأنبياء عليهم السلام وهو كالآتي :

– إنَّ دراسة المنهج العقلي في دعوات الأنبياء ﷺ يكشف عن ضرورة إهتمام الدَّاعية بمنطقه وبيانه لتكون حجَّته قويَّة وواضحة، لأنَّ قوَّة التعبير وفصاحة اللسان من أسس الحوار النَّاجح، وضعف الحجَّة ورداءة الأسلوب يضعف من شخصية الدَّاعية وعمله في الدعوة إلى الله.

– على الدَّاعية أن يكون حكيماً في بيانه للحقِّ، بالأدلة المقنعة والحجَّة النَّاصعة على حسب لغة المدعو وعرفه، ولا ريب أن هذا يتطلَّب منه التزوُّد من علوم الدِّين من فقه وعقيدة والعلم بأحكام الشريعة، والمعرفة بأحوال المدعوين.

– على الدَّاعية عند إستخدامه لأسلوبَي الجدال والمناظرة، يجب أن تكون بالتي هي أحسن، وبحسن خلق ولطف ولين الكلام مع تحسينها بالأدلة العقلية والنقلية، ولا يكون القصد من ذلك بمجرد المغالبة فلا بدَّ أن يكون القصد هو تحقيق الغاية المرجوة.

– كما على الدَّاعية أن يتحلَّى بالصَّبْر في مواجهة أذى النَّاس القولي والعملي، فطبيعة أعداء الدعوة يقابلون الإحسان بالإساءة والتُّفُور واللامبالاة، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم: ﴿لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: 186] في الآية

(1) – محمَّد الصباحي عوض الله، حياة وأخلاق الأنبياء ﷺ، المرجع السابق، ص 167.

نكت لطيفة ينبغي لفت نظر الدُّعاة إليها حينما وصف الأذى المسموع من أهل الكتاب والمشرّكين، ولاسيما مع جميع أهل الكفر والوثنية من الملائم والقوم بالكثرة، وهذا يدل على أنّ حرباً كلامية وإعلامية ستشُنُّ على أهل الإيمان وأهل الدُّعوة تحديداً، أسلحتها التّشويه والتّشويش والدسّ والإفراء والتّحريف، شعارها الغاية تبرّر الوسيلة، أكذب حتى يصدّقك النّاس، فعلى الدّاعية الصّبر على تجرّع غصصها حتى يأتي الله من عنده الفرج والنّصر⁽¹⁾.

- على الدّاعية أن يجادل من خالفه بالتي هي أحسن كما جادل الأنبياء عليهم السّلام أقوامهم، وكما جادل النّبي ﷺ قريش واليهود والنّصارى، وجادل نوح الملائم من قومه، وكما جادل إبراهيم عليه السّلام أبيه وقومه.

- على الدّاعية وهو يواجه عواصف الإفراءات والشُّبهات والأكاذيب التي يحسبونها حججاً لهم في مواجهة الدُّعوة إلى الله ودعائها بأن يجمعونها بالأدلة القطعية والمقنعة، والحجّة والبرهان السّاطع لنفي ما ضرب من إتهامات وأكاذيب ليس لها قرار، ويحصر جداله لغرض الدّعوة لا لغرضه الشّخصي، فالدّاعية الحقيقي لا ينتصر لنفسه بل لدعوته ولدينه، فلا يغضب ولا يتعفّف بل يصبر ويتحلى بالحلم والأناة كما حلم الأنبياء وصبروا على أقوامهم.

ب- المنهج الحسّي في دعوات الأنبياء عليهم السّلام

استطاع الأنبياء عليهم السّلام بالمنهج الحسّي هداية الكثير من النّاس الذين فأكدوا لهم صدق دعوتهم وما جاءوا به من العلم والآيات، والبراهين ومنهم على سبيل المثال :

- منهج نبيّ الله سليمان عليه السّلام

مع الملكة بلقيس حيث آمنت بدعوته - عليه السّلام - حينما رأت من المشاهد ما أخذ لبُّها، حيث جعلها ترى قصرًا عظيمًا يفوق ملكها، وهو الأمر الذي جعلها تسلم مع سليمان الله ربّ العالمين: ﴿قَالَ نَكْرِوْا هَٰذَا عَرْشَنَا نُنْظَرُ أَهُمْ نَدَبَىٰ أَمْ تَكُوْنُ مِنَ الَّذِيْنَ لَا يَهْتَدُوْنَ﴾ [النمل: 41] يقول الإمام ابن كثير رحمه الله: (والغرض أن سليمان إنّخذ قصرًا منيفًا من زجاج لهذه الملكة ليرىها عظمة سلطانه، فلمّا رأت ما أتاه الله، وجلالة ما هو فيه وتبصّرت في أمره إنقادت مدعنة لأمر الله تعالى، وعرفت أنّه نبيّ كريم وملك عظيم، وأسلمت لله وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(1) - سعيد بن علي بن وهف القحطاني، مقوّمات الدّاعية النّاجح (مكتبة الملك فهد الوطنية، ط 1، 1415هـ/1994م)، ص - ص 205، 206.

﴿[النمل: 44] أي: متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده لا شريك له الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً﴾⁽¹⁾.

- منهج نبي الله موسى عليه السلام

لم يقتصر نبي الله موسى عليه السلام في دعوته على المحاجة العقلية بل أقام حجته بالملاموسات الحسية التي أيده الله بها ومن سار معه من النبيين عليهم السلام، فكانت المعجزة منهج حسّي للإقناع كمعجزة العصا التي ألقاها فإذا هي حية تسعى، ممّا دفع السحرة أمام هذه المعجزة إلى الإيمان حيث قال: ﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِهِ نَلَقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾^(٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٧٠﴾ [طه: 69-70] ومعجزة اليد التي نزعها من جيبه فإذا هي بيضاء للناظرين من غير سوء، عندها لجأ فرعون إلى تخويف موسى بالسجن ليقطع دعوته من أصلها قائلاً: ﴿قَالَ لَنْ أُنْخَذَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾^(٢٩) قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيَضَاءٌ لِلنَّظَرِينَ ﴿٣٣﴾ [الشعراء: 29-33] ولَمَّا سأل موسى عليه السلام رؤية الله تعالى، فبيّن الله له عدم قدرته على ذلك، حيث تجلّى للجبل وهو أعظم خلقاً من موسى عليه السلام، فلم يصمد أمام ذلك بل أصبح دكاً، فلما رأى موسى عليه السلام بعينه خرّ صعقاً يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُتُّ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١٤٣) [الأعراف: 143] ومعجزات أخرى كثيرة توضح دلالة صدق دعوته وهي انفلاق البحر والطوفان والقمل والضفادع والدم والجراد والسنين⁽²⁾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾^(١٠١) [الإسراء: 101].

- منهج نبي الله إبراهيم عليه السلام

تجلّى المنهج الحسّي في دعوة نبي الله إبراهيم عليه السلام عند سؤاله أن يريه الله كيف يحي الموتى كي يرتقي بإيمانه إلى أعلى درجات الطمأنينة فيرتقي من علم اليقين إلى عين اليقين، فيرى ذلك مشاهدة الأمر فأمره الله أن يأخذ أربعة أنواع من الطيور فيذبحها ويقطعها ثم يوزع أجزائها على الجبال من

(1) - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، المصدر السابق، ص 178.

(2) - بتصرف: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ج3، المصدر السابق، ص 67.

حوله ثم يأمرها فتأتيه سعيًا، وقد دبَّت فيها الحياة بعد أن ذقت الموت⁽¹⁾، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكَ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة : 260]

فالبيان العقلي والحسِّي منهج دعوي من شأنه أن يظهر الحق ويبطل الباطل، لكنَّه لما جادل عباد الأوثان وبين لهم أنَّها لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع دعاء ولا تستجيب لداع، وأنَّ الركود إلى الأصنام ضلال، استخدم الدليل المعتمد على الحواس بكسر الأصنام ليثبت لعبدها أنَّها لا تنفع نفسها، فكيف تؤله وتعبد فتوجَّه إليها فكسرها يمينه وأهانها⁽²⁾، وهي لا تحسُّ ألمًا ولا تعي ما يفعل بها ﴿فَرَأَوْهُمُ صَرَبًا يَلْعَبِينَ﴾ [الصافات: 93] غير عابئ بما قد يناله من عابديها أو صانعيها، وهذا شأن أصحاب الدَّعوات الذين يضخُّون بكلِّ ما يملكون من أجل دعوتهم وعقيدتهم ولا يخافون في الله لومة لائم، وتتجلَّى دعوة نبيِّ الله إبراهيم ﷺ في استخدامه لأسلوب المناظرة في دعوته للملك وذلك فيما حكاه الله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 258].

هذه المناظرة وقعت بعد نجاة سيِّدنا إبراهيم عليه السلام من النَّار التي ألقى فيها فكانت المعجزة التي لفتت إليه الأنظار وتعجب النَّاس من ربِّه الذي نجَّاه فيبادر الملك إلى مناظرته ليوِّقع في الحرج ظنًّا منه الغلبة، يذكُر الإمام ابنُ كثير رحمه الله مفصَّلًا هذه المناظرة بالقول: (فقد استدلَّ إبراهيم عليه السلام على وجود الخالق قائلاً إِنَّ رَبِّي الَّذِي يَخْلُقُ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ فِي هَذِهِ الْأَجْسَادِ، وَلَكِنَّ الطَّاعِيَةَ إِعْرَاضَ إِبْرَاهِيمَ وَقَالَ: أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ، وَذَلِكَ بِقَتْلِهِ مِنْ يَشَاءُ وَتَرْكِهِ مِنْ يَشَاءُ، وَعِنْدَ ذَلِكَ انْتَقَلَ إِبْرَاهِيمَ إِلَى حِجَّةٍ أَقْوَى وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأُرِيدُ أَنِّي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَغْرِبِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ، فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ حَتَّى وَقَفَ حَائِرًا لَا حَوْلَ لَهُ وَلَا قُوَّةَ)⁽³⁾.

(1) - المرجع نفسه، ج 1، ص 31.

(2) - أحمد أحمد غلوش، الدَّعوة الإسلامية، المرجع السَّابق، ص 136.

(3) - ابنُ كثير، تفسير القرآن العظيم ج 1، المصدر السَّابق، ص 318.

– الاستفادة من المنهج الحسي في دعوات الأنبياء ﷺ

عند عدم نفع الجدل مع المعاندين والمعترضين لهذه الدعوة ولم تؤثر فيهم الحجة والبرهان على الداعية أن يتحوّل إلى استخدام الوسائل المتاحة التقليدية منها والتقنية والإعلامية لتغيير القنوات شكلاً ومضموناً، فتلفت انتباههم وتثير عواطفهم، كما استخدم موسى ﷺ العصا، وأستخدم إبراهيم اليد في تحطيمه للأصنام بعدما يأس من هدايتهم، يقول ابنُ باز رحمه الله: (في وقتنا الحاضر يسر الله عز وجل أمر الدعوة أكثر، بطرق لم تحصل لمن قبلنا فأمور الدعوة اليوم متيسرة أكثر، وذلك بواسطة طرق كثيرة، وإقامة الحجّة على الناس اليوم ممكنة بطرق متنوعة، مثلاً عن طريق الإذاعة، وعن طريق التلفزة، وعن طريق الصحافة، وهناك طرق شتى⁽¹⁾).

المطلب الثاني: المنهج العاطفي في دعوات الأنبياء عليهم السلام

إنّ دعوة الأنبياء ﷺ لا تكتفي بقوة الحجّة فقط بل تحتاج إلى المنهج العاطفي الذي يألّفه الدّوق ويتلمّسهُ الوجدان، والذي هو مجموعة الفضائل التي يمكن أن يستعطف بها قلب المدعو، وأقصر طريق للإقناع ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 165] ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: 134] والذي سيكون محل الحديث في المطلب الموالي، ولمّا كانت غاية الأنبياء عليهم السلام هي الدعوة إلى الله تعالى، فقد راعوا في ذلك طبيعة قومهم الفكرية والعقلية والعاطفية، وكان الأمرُ الرباني للأنبياء عليهم السلام أن بلغوا هذه الدعوة بما يتناسب مع حالهم وواقعهم، فامتثلوا إلى المنهج العاطفي وأساليبه الدافقة الجياشة الممزوجة بمشاعر الرّأفة والرّحمة والحبّ، والرّفق بهذه النفوس النّافرة التي إصطبغت بمظاهر الكره والحقد والمكر والخداع، وعليه نجد جميع دعوات الأنبياء عليهم السلام قد إصطبغت بالتبشير والإنذار، وتقويم الفكر المنحرف والعقائد الرّائفة الشّائعة آنذاك، فكان كلُّ نبيٍّ أُنيطَ بتقويم الانحراف الموجود في عصره، فنوحٌ ﷺ أنكر على قومه عبادة الأصنام، وكذلك إبراهيم ﷺ، وهود ﷺ أنكر على قومه الاستعلاء في الأرض والتجبر فيها، وصالح ﷺ أنكر عليهم الإفساد في الأرض وإتباع المفسدين

(1) – ابنُ باز، مجموعة فتاوى ومقالات متنوعة (الرياض: دار القاسم، ط1، ج8، 1420هـ)، ص 403.

، ولوط حارب جريمة اللواط التي إنتشرت في قومه، وشعيب عليه السلام قاوم في قومه جريمة التّطيف في المكيال والميزان وهكذا⁽¹⁾، فارتكز كلٌّ منهم على العلل والأمراض التي إشتهر بها أقوامهم. وقد خصّصتُ في هذه الجزئية التّركيز على المنهج العاطفي في دعوات هؤلاء الأنبياء عليهم السلام، والذي صار إستخدام هذا المنهج سنّة حسنة لمن أتوا من بعدهم من الدّعاة والمصلحين، ليقيموها بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن من غير تجريح أو إصطدامٍ لعواطفهم، ويظهروا مشاعر الحرص والشفقة والتّواضع لأقوامهم فيقدّرون في ذلك أحوالهم التّفسية والعاطفية، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كأنّي أنظر إلى النّبيّ صلى الله عليه وآله يحكي نبياً من الأنبياء، ضربه قومه فأدّموه فهو يمسح الدّم عن وجهه، ويقول: ربّ اغفر لقومي، فإنّهم لا يعلمون»⁽²⁾، ويقول الإمام النّووي رحمه الله معلّقاً على الحديث: (فيه ما كانوا عليه - صلوات الله وسلامه عليهم - من الحلم والتّصبر والعفو والشفقة على قومهم، ودعائهم لهم بالهداية والغفران، وعذرهم في جنائتهم على أنفسهم: بأنّهم لا يعلمون، وهذا التّبيّ المشار إليه من المتقدّمين، وقد جرى لنبيّنا صلى الله عليه وآله مثل هذا يوم أُخذ⁽³⁾) ويصف الشّيخ الغزالي رحمه الله حال الأنبياء عليهم السّلام وأخلاقهم فيقول: (كانوا أجود نموذج في جذب النّاس إلى الله بطيب أنفسهم، ونقاء معدنهم، وصفاء سريرتهم، ووصولهم في مدارج الكمال الإنساني إلى ذروة تزرع الإعجاب في القلوب وتذر الأتباع عشاقاً لشمائلهم، فهم يضحون تحت أقدامهم بالنّفس والنّفيس عن رغبة عميقة وعن رضا كبير)⁽⁴⁾. وعليه سينشغل التّركيز في هذه الجزئية على تطبيقات المنهج العاطفي في دعوات بعض الأنبياء خلال فترة تجاوزههم للتّحدّيات العصبية التي واجهوها واعترضت طريق دعوتهم، فكانت مواجهتهم لها بحكمة وعاطفة إيمانية، فساقني التّركيز على دعوة نبيّ الله نوح عليه السلام وإبراهيم عليه السلام وموسى عليه السلام وشعيب عليه السلام ولوط عليه السلام كنماذج إحترتها لما كان لهم الحظّ الأوفر من قصصهم في آي الذكر الحكيم ثمّ لكونهم من سادة النّبیین والمرسلين، ولما تميّزوا به من الهمة العظيمة في الدّعوة، والصّبر على ما نالهم من أذى قومهم.

(1) - عمر سليمان عبد الله الأشقر، الرّسل والرّسالات، المرجع السّابق، ص 51.

(2) - أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم الحديث 3477، ص 861. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد، رقم الحديث 1792، ص 1417.

(3) - النّووي، شرح النّووي على مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب إشتداد غضب الله على من قتله رسول الله صلى الله عليه وآله، ج 6، رقم الحديث 3347، ص 249.

(4) - محمّد الغزالي، نظرات في القرآن (القاهرة: شركة نضمة مصر للطباعة والنّشر والتّوزيع، ط6، 2005م)، ص 76.

أولاً: المنهج العاطفي في دعوة نوح عليه السلام

من المتعارف عليه أنّ الأنبياء عليهم السلام أكثر الخلق رحمةً ورأفةً على أقوامهم، والمستبّع لسيرهم في القرآن الكريم يرى من ذلك العجب ...، فظهرت عاطفة نوح عليه السلام في ابنه جلية حين قال عنه القرآن: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: 45] فردّ الله عن نوح عليه السلام بأنّ الكفر لا تلتقي معه عواطف الأبوة أو القرابة: ﴿قَالَ يَنْحُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّبِعْ مَا يَشْكُرُ لَكَ بِهِ عَلِمْتُ إِنَّيْ أَعْطَكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: 46] وهذا الأمر له دليل مثله حينما قتل أبو عبدة عامر بن الجراح أباه في عزوة بدر ثم أصبح حزينا لما يرى أنّه قتل عاطفة الأبوة في نفسه، فأنزل الله قرآناً يطمئنه: ﴿لَا تَحْجُدْ قَوْمًا يَؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: 22].

أ- استخدام أسلوب الترغيب

دعا نبي الله نوح قومه إلى عبادة الله وحده موظفاً أساليب ترغيبية محببة إلى نفوس القوم كإنزال الأمطار لزروعهم ومواسيهم لانتعاش إقتصادهم ومعاشهم، وهذا مشروط على أن يُدعوا إلى الحق مستغفرين بهم يقول تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [يُزِيلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا] ﴿وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: 10-14] وكان من ضمن المرغبات التي وعدهم الله بها :

- محّا الله بعضاً من ذنوبهم فيغفر ما بينه وبين العبد إلّا ما يتعلّق بحقوق العباد وقيل بل جميعها.
- يُطيل في أعمارهم إلى أقصى مدى ويبارك لهم فيها، يقول ابنُ عباس عليه السلام: (أي: يُنسى في أعماركم، ومعناه أنّ الله تعالى كان قضى قبل خلقهم أنّهم إنّ آمنوا بآرك في أعمارهم، وإن لم يؤمنوا عوّجوا بالعذاب، وقال مقاتل: (يؤخّركم إلى منتهى آجالكم في عافية، فلا يعاقبكم بالقحط وغيره، فالمنعنى على هذا يؤخّركم من العقوبات والشّدائد إلى آجالكم)⁽¹⁾.

(1) - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وآخر (القاهرة: دار الكتب المصرية، ط2، ج18، 1438هـ/1964م)، ص 299.

- بسط الرزق، وتكثير المال والأولاد والبنين والبنات، فجمع لهم مع الحظّ الوافر في الآخرة الغنى في الدنيا، إنزال الأمطار الكثيرة المتتابعة يقول الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم *** رعيناه وإن كانوا غضاباً.

هذه الآية دليل على أنَّ الاستغفار من أعظم أسباب المطر وحصول أنواع الأرزاق⁽¹⁾، ولهذا قال: ﴿وَيُمَدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح : 12].

ب- استخدام الكلمات اللطيفة والأسلوب اللين

ظهر اللطف في لسان سيدنا نوح عليه السلام في دعوته لقومه بألفاظ شتى أظهرها على سبيل المثال حين ردّ عليهم بقوله: ﴿يَقَوْمُ﴾ هذه الكلمة اللطيفة كعادة الأنبياء عليهم السلام، فيها كثير من التودّد والعطف لمن هم هدف دعوته، إذ نسبهم لنفسه يقرّبهم منه ويجعلهم أهله وعشيرته، ولم يستخدم معهم أسلوب ردّ الشتيمة بمثلها ولم يقل للذين اتهموه بالضلال بل أنتم ظالمون أو نحوها من العبارات⁽²⁾ فنوح عليه السلام كان يدرك خطورة هذه الاتهامات والشبهات وأنواع الأذى الذي ألحقه الملاء ضده، فاهتم بدفعها بإعطائه الصورة الحقيقية لشخصيته النبوية، فكان يتوجّه بخطابه مباشرة إلى عامة قومه بلين ورفق قائلاً: ﴿يَقَوْمُ لَيْسَ بِي ضَالَّةٌ﴾ [الأعراف: 61] يقول عنه سيد قطب^(*) رحمه الله في "الضلال": (فقد تلقى نوح كل الاتهام والإعراض والاستكبار في سماحة النبي وفي استعلائه وفي ثقته بالحق الذي جاء به واطمئنانه إلى ربّه الذي أرسله وفي وضوح طريقه أمامه واستقامة منهجه في شعوره، فلا يشتم كما شتموا، ولا يتهم كما اتهموا، ولا يدعي كما ادعوا، ولا يحاول أن يخلع على نفسه مظهرًا غير حقيقته ولا على رسالته شيئًا غير طبيعتها)⁽³⁾ وبالتأمل في السورة التي سميت باسمه

(1) - الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير (بيروت: دار المعرفة، ط4، ج29، 1428هـ/2007م)، ص1534.

(2) - عبد الرحمن حبنكة الميداني، فقه الدعوة (دمشق: دار القلم، ط1، ج1، 1417هـ/1996م)، ص639.

(*) - سيد قطب: من عمالقة الفكر الإسلامي، من مواليد 1906م بقرية موشا محافظة أسيوط، كاتب، شاعر، أديب مصري، مؤلف كتاب الضلال، عضو سابق في مكتب إرشاد جماعة الإخوان المسلمون، يعدّ أكثر الشخصيات الإسلامية والفكر الإسلامي، حكم عليه بالإعدام وتمّ تنفيذه 1966م (يُنظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي، سيد قطب، دمشق: دار القلم، ط5، 1431هـ/2010م)، وعبد الله عزّام، عملاق الفكر الإسلامي (باكستان: مركز الشهيد عبد الله عزّام الإعلامي للنشر والتوزيع، ط1، د، ت).

(3) - سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4، المرجع السابق، ص1873.

أظهرت منهج سيدنا نوح عليه السلام العاطفي عند موعظته للناس، وما تحمله هذه الموعظة من عبارات لطيفة وألفاظ تناسب مقامهم بينها القرآن الكريم في أكثر من موضع حين تحدث إليهم: ﴿يَقَوْمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَنبَئَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَانِنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهُونَ﴾ [هود: 28] حاول نبي الله نوح عليه السلام بشئ الوسائل والأساليب إثارة مشاعر قومه وإشعارهم بالشفقة والرحمة، لأن الموعظة الحسنة هي التي تدخل إلى القلوب برفق وتتعمق في المشاعر بلطف، فلا تكون بالزجر والتأنيب في غير موجب فدعاهم بقوله: ﴿يَقَوْمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: 59] فأظهر نوح عليه السلام حرصه وشفقته بقومه من أن ينالهم عذاب الله، وهذه الشفقة تعبر عن الرقة والعطف والرحمة، يصحبها الخوف والحرص على سلامة المنصوح⁽¹⁾ يصف سيد قطب رحمه الله في معنى الآية وأبعادها النفسية والعاطفية في الدعوة إلى الله فيقول: (في سماحة ومودة بندائهم ونسبتهم إليه ونسبة نفسه إليهم، أنكم تعترضون فتقولون ما نراك إلا بشراً مثلنا فما يكون رأيكم عن كنت على اتصال بربي، بين في نفسي مستيقن في شعوري، وهي خاصية لم توهبها وإن كان الله آتاني رحمة من عنده باختياري للرسالة أو آتاني من الخصائص ما استحق به حمل الرسالة - وهذه الرحمة ولا شك عظيمة - ما رأيكم إن كانت هذه وتلك فخفيت عليكم خفاء عماية، لأنكم غير متهيئين لإدراكها وغير مفتوحين البصائر لرؤيتها (أنلزمكموها) أنه ما كان لي وما أنا بمستطيع أن ألزمكم الإذعان لها والإيمان بها وأنتم لها كارهون)⁽²⁾ وفي خطاب نوح عليه السلام العاطفي يمثل قوله لهم: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: 59] وقوله: ﴿وَأَنْصَحْ لَكُمْ﴾ [الأعراف: 62] أشارت الآيات مكانة القوم في نفس نبي الله نوح عليه السلام وما يحمله من مشاعر الحب والشفقة والحرص الكبير على هدايتهم، فهذا النوع من الخطاب الدعوي في أصله يجب أن تحتوي مفرداته على الترغيب والتحفيز وإبراز ملامح الجمال وجوانب الرحمة عبر مخاطبة الوجدان علّه يحقق الهدف والغاية، يأخذ بالداعية إلى الأفق السامي الوضيء من الآداب النفسية والأخلاق العالية مع الله تعالى أولاً ومع أقرب الناس إليه ممن هم في طائفة الكفر، بهذا التلطف وهذه العبارات اللطيفة والمؤثرة، وهذه الرحمة أراد بها نبي الله نوح عليه السلام توجيه أنظار قومه ولمس

(1) - الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مصطفى حجازي مادة شفق، (مطبعة حكومة الكويت، د، ط، ج 25، 1409هـ/1989م)، ص 508.

(2) - سيد قطب، في ضلال القرآن، ج 12، المرجع السابق، ص 1873.

وجدانهم، وإثارة أحاسيسهم لإدراك القيم الخفية عليهم والخصائص التي يغفلون عنها في أمر الرّسالة والإختيار لها⁽¹⁾.

د- التذكير بنعم الله

وأما التذكير بنعم الله منهج عاطفي آخر سلكه جميع الأنبياء عليهم السّلام، فما من نبيّ بعث في قومه إلاّ وذكرهم بنعم الله عليهم ليوحدوه ولا يشركوا به شيئاً، ونوح عليه السّلام كان يذكر قومه بنعم الله عليهم وعجيب خلقه، فقد استخدم أساليب الوعظ والتذكير حينما بيّن لهم كيفية خلقهم، وموتهم، ثمّ معادهم، كما ذكرهم بنعم الله عليهم الكثيرة ومنها جعل الأرض بساطاً لهم⁽²⁾، يقول تعالى على لسان نوح عليه السّلام: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۚ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۚ﴾ [١٤] أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۚ ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ۚ ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۚ ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۚ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۚ ﴿١٩﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۚ﴾ [نوح: 13-20] بهذا الأسلوب يستطيع الدّاعية أن يوقظ القلوب الغافلة ويهدي العقول الشّاردة لحصول الشّكر لله الذي يعدّ من مقتضيات التّوحيد.

و- التدرّج في دعوته عليه السّلام

استخدم نبيّ الله نوح عليه السّلام أسلوب التدرّج في دعوة قومه من اللّيل إلى النّهار، ومن السرّ إلى الجهر ليقوم الحجّة عليهم، فتارةً تكون دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة، وتارةً يخاطب العقل بالحجّة والدّليل، وتارةً يخاطب الوجدان بالتّغيب والتّرهيب الذي يحمل العواطف الإقبال على المرغبات بكلّ رضّى وقناعة حينما يبيّن لهم عاقبة الإيمان بالله تعالى وثماره الطّيبة: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا رُسُلَهُ ۚ يَخْرِجْ لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ وَيُخَفِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۚ﴾ [نوح: 03-04] ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۚ ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۚ ﴿١١﴾ وَيُمِدَّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ۚ﴾ [نوح: 10-12] ومع الدّأب على الدّعوة والإصرار على المواجهة، اتّبع نوح عليه السّلام كلّ الأساليب فجهر بالدّعوة تارةً، ثمّ زاحج بين الإعلان والإسرار تارةً، وفي

(1) - المرجع نفسه، ص 1873.

(2) - بتصرّف: يحيى بن محمّد زمزمي، بحث حول الحوار القرآني في سورة نوح عليه السّلام دراسة تحليليّة، د، ط، د، ت، ص-ص 21،

أثناء ذلك كله أطمعهم في خير الدنيا والآخرة، أطمعهم في الغفران إذا استغفروا ربهم وأطمعهم في الرزق الوفير الميسور وهو المطر الغزير، كما وعدهم برزقهم الآخر من الذرية التي يحبونها والأموال التي يطلبونها⁽¹⁾، وبناءً على ما سبق فقد أخذ نوح عليه السلام بكل السبل الترغيبية والترهيبية لكي يترك قومه العبادة الوثنية التي ظلوا بها سنوات، لكن أكثرهم لم يؤمن بل أصرُّوا على كفرهم وعنادهم فنصبوا له ولمن آمن به العداوة وتوعدوهم بالرجم: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٦٠﴾ [الأعراف: 60] فقابل سفة قومه بالحلم قائلاً: ﴿يَقَوْمُ لَيْسَ بِي ضَالَّةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦١﴾ أبلغكم رسالت ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ ﴿٦٢﴾ [الأعراف: 61-62] في هذا الرد الهادئ نستشعر شخصية نوح عليه السلام الحقيقية وما يحمله من صفات الكمال والحصل النبيلة والتي لا يحملها بشرٌ عدا الأنبياء عليهم السلام، تمثلت في مشاعر الرِّفق والشفقة وتحمل الأذى وعدم الطيش والسَّفه مع مدعويه، فكان عليه السلام في قمة الحلم وسعة صدر عالية يعفو عمن أهانه، ويتسامح مع من ضربه وتوعدده بالأذى من بني قومه... فشخصية نوح عليه السلام في دعوته ظهرت في صورة مجسمة و مترجمة لحقيقة المنهج العاطفي الذي يعطي للداعية أسسه التي تقف عليها الدعوة، فترسم له الأسلوب الأمثل في محاجة النَّاس من مختلف الأطياف والعقائد والفكر، ومن عوام النَّاس وخواصهم، يتحلَّى بالصَّبْر ويتعامل معهم برفقٍ، ويتمسك بالأدب واللِّين، ويظهر في حديثه العاطفة بالحرص على هدايتهم، بأنه لا يريد لهم إلاَّ الخير، يخاف عليهم من مزالق الشَّيطان لهم في الدُّنيا فيكون طريقاً إلى عذاب الله في الآخرة، والتي من خلالها يعلم الدَّاعية أنَّ اللِّين يفتح مغاليق القلوب، ويذيب تصخُّر الطُّباع، فتصل الدَّعوة إلى القلب مباشرة.

ثانياً: المنهج العاطفي في دعوة نبي الله لوط عليه السلام

سلك نبيُّ الله لوط عليه السلام في منهج دعوته مسلك الأنبياء في مخاطبة أقوامهم ومداراتهم والتي هي أحسن، إذ رُزى لوط عليه السلام في قومه الذين انحرفوا عن الفطرة التي فطر النَّاس عليها، فبعث الله نبيّه لوطاً لينتشل منهم فساد عقولهم وخبث أنفسهم من إتيانهم الفاحشة التي لم يسبق بها أحد من العالمين، ويغرس في أنفسهم الفضيلة والآداب العامّة والحياء وحسن الخلق، فجاء على لسان حاله يوجِّههم بالرفق واللِّين: (يا قوم إنَّ هذه الفاحشة هي الأولى من نوعها في تاريخ البشر وهي جناية

(1) - سيّد قطب، في ضلال القرآن، ج 29، المرجع السابق، ص 3713.

على الفطرة الإنسانية ومفسدة للشباب، وإذلال للرجال، وتعطيل للنسل، ومفسدة للنساء فطالبهم في أدب بالطاعة وقابله قومه في هذه الموعظة اللينة وذلك الأسلوب الهادي⁽¹⁾ بقولهم: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: 167] فلم يقابل لوط عليه السلام هذا التهديد بمثله ولكنه قال لهم: ﴿قَالَ إِنِّي لَعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ [الشعراء: 168] أي: أنكر صنيعكم وأبغض عملكم ثم لجأ إلى الله تعالى أن ينجيه هو وأهله من عقوبة عملهم فأجاب الله دعوته⁽²⁾.

ثالثاً: المنهج العاطفي في دعوة نبي الله إبراهيم عليه السلام

سيدنا إبراهيم عليه السلام كغيره من الأنبياء - عليهم السلام - استخدموا المنهج العاطفي في دعوته بأساليب يكتنفها جمال الرفق واللين، نظراً للسمات اللطيفة التي انصفت بها من حكمة بالغة ومبادئ عالية، ومن تواضع جم ورحمة وجدال دون تجريح أو سخرية أو طعن أو إحتقار. ويمكن تصنيف أساليبه كالاتي :

أ- أسلوب التبشير والإنذار

وكان مما يلفت النظر في منهج سيدنا إبراهيم عليه السلام العاطفي شأنه شأن مناهج دعوة الأنبياء عليهم السلام هو أسلوب التبشير والإنذار اللذين من خلالهما توقظ بهما العواطف وتحركها نحو الخير وترهبها من غيلاء الشرك، وقد بينهما القرآن الكريم في بعض آياته فكان عليه السلام مبشراً ومنذراً: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: 25] وقد أوضح العلامة الزنجشيري رحمه الله منهج نبي الله إبراهيم عليه السلام مفصلاً بالقول: (أنظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورطاً فيه من الخطأ العميم والإرتكاب الشنيع الذي عصى فيه أمر العقلاء، كيف رتب الكلام معه في أحسن إتساق، وساقه أرشق مساق، مع إستعماله المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن منتصفاً في ذلك بنصيحة ربّه عز وجلّ، فطلب منه أولاً أن يبين العلة من عبادته لهذه الأصنام طلب منبه على تماديه موقظ لإفراطه وتناهيمه وذلك ... ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترففاً به متلطفاً، فلم يسم أباه بالجاهل المفرط ولا نفسه بالعالم الفائق

(1) - محمد الصباحي عوض الله، حياة وأخلاق الأنبياء، المرجع السابق، ص 119.

(2) - المرجع نفسه، ص 120.

ولكنه قال: إِنَّ مَعِيَ طَائِفَةٌ مِنَ الْمَعْلَمِ وَشَيْئًا مِنْهُ لَيْسَتْ مَعَكَ فَاتَّبِعْنِي أَجْنَحُ مِنْ أَنْ تَضِلَّ وَتَنْتَبِهُ ثُمَّ ثَلَّثَ بِتَشْبِيْطِهِ وَنَهْيِهِ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ بِأَنْ يَبَيِّنَ لَهُ أَنَّ الشَّيْطَانَ عَدُوٌّ لَهُ لَا يَرِيدُ بِهِ إِلَّا كُلَّ الْهَلَاكِ وَخِزْيٍ وَنَكَالٍ، ثُمَّ رُبِعَ بِتَخْوِيفِهِ سُوءَ الْعَاقِبَةِ وَعَمَّا يَجْرُهُ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ التَّبَعَةِ وَالْوَبَالِ، وَلَمْ يَخْلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ حَسَنِ الْأَدَبِ، حَيْثُ لَمْ يَصْرَحْ بِأَنَّ الْعِقَابَ لَا حَقَّ لَهُ وَأَنَّ الْعَذَابَ لَا صَقَّ بِهِ وَلَكِنَّهُ قَالَ: أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ فَذَكَرَ الْخَوْفَ وَالْمَسَّ وَنَكَّرَ الْعَذَابَ وَجَعَلَ وَلَايَةَ الشَّيْطَانِ وَدُخُولَهُ فِي جَمَلَةِ أَتْبَاعِهِ وَأَوْلِيَائِهِ أَكْبَرَ مِنَ الْعَذَابِ، وَقَدْ صَدَرَ كُلُّ نَصِيحَةٍ مِنْ هَذِهِ النَّصَائِحِ الْأَرْبَعِ بِقَوْلِهِ: يَا أَبْتَ تَوْسُّلًا إِلَيْهِ وَاسْتِعْظَافًا⁽¹⁾ وَهَكَذَا فَقَدْ كَانَ مِنْهَجَهُ ﷺ فِي دَعْوَةِ أَبِيهِ وَقَوْمِهِ بِرَفْقٍ وَلَيِّنٍ فَلَمْ يَقْسُ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَتَعَنَّفْ مَعَهُمْ فِي الْخُطَابِ، بَلْ كَانَ يَحَاوِرُهُمْ بِأَدَبٍ وَوَقَارٍ وَبِالْطَّفِ الْعِبَارَاتِ، وَبِالرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ فَلَمْ يَسْتَجِيبْ لَهُ إِلَّا الْقَلِيلَ وَقَوَّلَ بِالْجُحُودِ وَالنُّكْرَانِ وَالتَّهْدِيدِ.

ب- إظهار الرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ عَلَى أَبِيهِ وَقَوْمِهِ

تجسَّدَ هَذَا الْمَنْهَجُ فِي أَسْلُوبِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ ﷺ وَطَرِيقَتِهِ فِي الْجَذْبِ وَالِاسْتِمَاعِ وَالتَّأَثُّرِ، كَمَا وَتَجَسَّدَتْ فِي مَشَاعِرِهِ الَّتِي انْبَثَقَتْ مِنْ قَلْبِهِ الرَّحِيمِ تَحَاهُ أَبِيهِ آزَرَ حِينَ تَوَجَّهَ إِلَيْهِ بِأَسْلُوبٍ مَلِيٍّ بِالْحَنُوِّ وَالْعُطْفِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾^(٤٣) يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا^(٤٤) يَتَابَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا^(٤٥) [مريم: 43-45] فَلَمْ يَسْتَعْمِلِ ﷺ مَعَهُ الْغُلْظَةَ وَالشَّدَّةَ رَغْمَ إِشْرَاكِهِ، وَإِنَّمَا أوردَ عَلَيْهِ الدَّلَائِلَ وَالْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ بِأَسْلُوبٍ هَيِّنٍ لَيِّنٍ أَنْ صَدَرَ مِنْهُ نِدَاءٌ لَطِيفٌ: ﴿يَتَابَتِ﴾ فَكَّرَ إِسْتِخْدَامَهَا مَرَاتٍ عَدِيدَةً وَفِي مَوَاضِعَ مُخْتَلِفَةٍ، هَذِهِ الْكَلِمَةُ مَرْقُوقَةٌ تَدُلُّ عَلَى التَّوَدُّدِ وَالتَّرَاحُمِ وَاسْتِمَالَةِ لِلْعَاطِفَةِ الْأَبَوِيَّةِ لِيَبَيِّنَ لَهُ شِدَّةَ حُبِّهِ لَهُ وَرَغْبَتَهُ فِي نَجَاتِهِ مِنَ الْعِقَابِ، يَقُولُ الْإِمَامُ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (فِي الْآيَةِ بَيَانٌ إِشْفَاقٍ إِبْرَاهِيمَ ﷺ عَلَى أَبِيهِ مِنَ النَّارِ وَوَعْظُهُ لَهُ فِيهِ إِذْ بَارَأَ لَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَهُوَ يَدْعُوهُ إِلَى الْهُدَايَةِ وَإِلَى صِرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، الَّذِي فِيهِ السَّعَادَةُ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَيَخَافُ عَلَيْهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَيَنْذِرُهُ كَيْ لَا يَقَعَ فِي سَخَطِ اللَّهِ وَعِقَابِهِ)⁽²⁾ ثُمَّ تَتَجَلَّى الْعَاطِفَةُ وَالْحَرَصُ فِي قَوْلِهِ:

(1) - الرَّخْشَرِي، الْكُشَّافُ، ج 16، الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 637.

(2) - يُنْظَرُ: الْقُرْطُبِيُّ، الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ، تَحْقِيقُ: عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُحْسَنِ التُّرْكِيِّ (بَيْرُوتُ: مُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَةِ، ط 1، ج 11، 1427هـ/2006م)، ص 117.

﴿يَتَأْتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مریم: 42] فلننظر إلى هذه العاطفة الموجهة إلى العقل والإقناع والفطرة السليمة، ولننظر إلى هذا اللطف في الخطاب، فهو يصدر عند كل دعوة بقوله: ﴿يَتَأْتِ﴾ ومع ذلك فهذه الدعوة اللطيفة لم تصل إلى القلب القاسي حيث قابلها بالاستنكار وأشد أنواع التهديد، فكان رد أبيه الذي أشرب حب الأصنام، وقدم ما وجد عليه آباؤه تجاه هذا الخطاب اللين المؤدب الوعيد والتهديد⁽¹⁾ قائلاً له: ﴿أَرَاغِبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مریم: 46] ومع ذلك فإن سيدنا إبراهيم عليه السلام لم يخرج عن أسلوبه اللين، ولم يفقد عطفه وبره بأبيه، ولم يقابل التهديد والوعيد بالمثل ولكن قال له: ﴿سَلِّمْ عَلَيَّكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [٤٧] وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مریم: 47-48] ومع هذه العاطفة لم يغفل نبي إبراهيم عليه السلام أيضاً عن طبيعة العلاقة بين الشرك والتوحيد التي تقوم على البراء فقال: ﴿وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مریم: 48] وما كان استغفاره لأبيه إلا إنفاذاً للوعد الذي وعد أباه⁽²⁾، إنَّ هذا النوع من الخطاب تعبيراً عن الأخلاقيات الكبرى التي اتسم بها نبي الله إبراهيم عليه السلام التي ينبغي على الداعية أن يتحلَّى بها ويترجمها على أرض الواقع حتى تنتشر دعوته بين الناس وتقبل، جاء في الحديث القدسي عن الله عز وجل: (أوحى الله إلى إبراهيم يا خليلي حسن خلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الأبرار فإن كلمتي سبقت لمن حسن خلقه أن أظله في عرشي وأن أسكنه حضيرة قدسي وأن أدنيه من جواني)⁽³⁾.

(1) - أحمد بن محمد بن حسان القرشي، الإستهزاء بالدين أحكامه وآثاره (المملكة العربية السعودية: دار ابن الجوزي، ط1، 1426هـ/2005م)، ص 162.

(2) - أحمد بن محمد بن حسان القرشي، الإستهزاء بالدين أحكامه وآثاره، المرجع السابق، ص 162.

(3) - أبو القاسم الطبراني، المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد وآخر، رقم الحديث 6502 (القاهرة: دار الحرمين، د، ط، ج6، د، ت)، ص 313. أبو محمد بن نور التلمساني، طراز الكم المذهب في الأذكار الواردة من الكتاب والسنة، تحقيق: أبي عمر الحسيني بن عمر بن عبد الرحيم (بيروت: دار الكتب العلمية، رقم الحديث 164، باب حسن خلقك لو مع الكفار تكن في ظل الله)، ص 91. رواه الطبراني في معجمه الوسط حديثي محمد بن داود بن أسلم الصديقي حدثنا عمر بن سوار السروجي حدثنا مؤمل بن عبد الرحمن به وابن عدي في الكامل من حديث مؤمل بن عبد الرحمن بن العباس بن عبد الله بن عثمان بن أبي العاص الثقفي حدثنا أبو أمية بن يعلى عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أوحى الله إلى

رابعاً : المنهج العاطفي في دعوة نبي الله موسى عليه السلام

ذكر القرآن الكريم قصة موسى عليه السلام وأبان منهجه في دعوة ملك مصر وقومه إلى الإيمان، فكانت الغاية تصحيح العقيدة التي ظلَّ عنها قومه ومجاهدة حاكم طاغية كفرعون ممن أدعى الربوبية والألوهية، فخاطبه بأساليب متعددة استطاع من خلالها الوصول إلى قلب فرعون أن أنصت إليه ومن ثمَّ سأله.

أ- استخدام القول اللين

عرض القرآن منهج نبي الله موسى عليه السلام في أروع بيانٍ وأبسط أسلوبٍ فيقول عنه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۖ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَجْنَ وَقُرُونِ فَقَالُوا سَحَرُ كَذَّابٍ ۖ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۖ ﴿٢٥﴾﴾ [غافر: 23-25] هدد فرعون موسى تهديداً صارخاً بالقتل فقال على صريح لسانه: ﴿ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ۖ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: 26] فما كان على نبي الله أن يقابل هذا التهديد القاسي برداً برئ وهادئ: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ۖ ﴿٢٧﴾﴾ [غافر: 27] هذا الموقف يجسّد صورة حيّة للمنهج العاطفي الذي سلكه نبي الله موسى عليه السلام وكان جليلاً واضحاً حين استخدامه القول (*) اللين مع الدّ أعداء الإسلام وطاغية عصره الملك فرعون لعله يتعظ أو يخشى، والتزاماً للأمر الرباني الذي دعاه إلى ذلك أن يخاطبه بلين: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ ﴿٤٣﴾ فَقَوْلَا لَهُ قَوْلَا لِنَا أَلَعَلَّهٗ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۖ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: 43-44] يقول الإمام السّمعاني رحمه الله: (معنى فقولا له قولاً لئنا أي داريه -

إبراهيم ... فذكره إلى آخره ولين مؤمل بن عبد الرحمن وقال عامّة حديثه غير محفوظ». ورواه أبو عبد الله الترمذيّ الحكيم في كتابه نوادر الأصول في الأصل الثاني والثلاثين بعد المائتين، فقال: حدّثنا عمر بن أبي عمر يرفعه إلى أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام أن يا إبراهيم حسن خلقك ولو مع الكفار» - إلى آخره وهذا معضل -.

(*) - القول: هو الأصل في تبليغ الدعوة إلى الله وهو الوسيلة الأصلية في إيصال الحق للناس، وهي من أبسط الوسائل استعمالاً وأسهلها تناولاً، وأسرعها استجابة وأكثرها انتشاراً وأعظمها نفعا (يُنظر: عبد الكريم زيدان، أصول الدّعوة، المرجع السّابق، ص 447، يوسف القرضاوي، تعامل الدّاعية مع المستجدّات الفقهيّة، المرجع السّابق، ص 66).

بالرفق - وارفقا به⁽¹⁾ وخرج المفسرون من هذه الآية بفوائد ونتائج مفيدة للدعوة إلى الله كالإمام بن كثير رحمه الله قائلًا: (هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتوّ والاستكبار، وموسى عليه السلام صفوة الله من خلقه، إذ ذاك ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين، كما قال يزيد القرشي عند هذه الآية: يا من يتحبب إلى من يعاديه، فكيف بمن يتولاه ويناديه)⁽²⁾ والقول اللين في الدعوة إلى الله لا يكون بالملق أو المدهانة، وإنما يكون باللين والرفق حتى لا يصدم في أمره بالجفوة، ومن القول اللين ألا يخاطبه بما لا يمس سلطانة، فإن طواغيت الدنيا لا يجدون شيئًا أعز عليهم من سلطانهم في الأرض، فيصابون في حسّهم إذا مُسّ ولو من بعيد، وأن اللطف في الدعوة من موسى لفرعون يقتضي الرفق في القول، لأنّه ربّاه صغيرًا ورعاه، وكانت له به محبة فكان له مثل حقّ الأبوّة⁽³⁾ وعليه فإنّ القول اللين مهمّ في الدعوة إلى الله تعالى وهو الكلام الدال على معاني الترغيب والعرض وإستدعاء الإمتثال بأن يظهر المتكلم للمخاطب أن له من سداد الرّأي ما يتقبل به الحق ويميّز به بين الحقّ والباطل مع تجنّب أن يشتمل الكلام على تسفيه رأي المخاطب أو تجاهله، فشبه الكلام اللين المشتمل على المعاني الحسنة بالشّيء اللين^{(4)(*)} فلين القول أحد الأسباب التي جعلت فرعون يسمع لكلام موسى وهارون عليهما السلام ويسألهما عن ربّهما، حتّى تمكّنا من إيراد الحجج والبراهين الدالة على صدق دعوته فيقول عنه الإمام القرطبي رحمه الله: (فإن كان موسى عليه السلام بأن يقول لفرعون قولاً ليناً، فمّن دونه أخرى بأن يقتدي بذلك في خطابه، وأمره بالمعروف في كلامه)⁽⁵⁾ وقد أكثر نبي الله موسى عليه السلام من ذلك في دعوته حيث كان يحاور فرعون في كلّ شيء

(1) - أبو المظفر السمعاني، تفسير القرآن، تحقيق: أبي بلال غنيم بن عباس بن غنيم (الرياض: دار الوطن، ط1، مج3، 1418هـ/1997م)، ص 331.

(2) - ابن كثير، تفسير بن كثير، ج5، المصدر السابق، ص 260.

(3) - يُنظر: أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج9، المرجع السابق، ص 4730.

(*) - اللين: حقيقة من صفات الأجسام، وهو رطوبة ملمس الجسم وسهولته، وضدّ اللين الخشونة، واستعان اللين لسهولة المعاملة والصفح (أبو زهرة، زهرة التفاسير، ج9، المرجع السابق، ص 4730).

(4) - معتز محبوب محمد البخاري، منهج أولى العزم من الرّسل في الدّعوة عليهم السلام، جامعة الرّباط الوطني، كلّية الدّراسات العليا والبحث العلمي، رسالة ماجستير في الدّراسات الإسلامية، 2015م، ص 47.

(5) - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن تفسير القرطبي، ج14، المصدر السابق، ص 65.

مستخدمًا المنطق السليم والحجج المنطقية، ومع أن فرعون كان يحاوره بالتهديد والجهل والتباهي بالقوة والطغيان إلا أن ذلك لم يمنع موسى عليه السلام من القول والحوار بأسلوب مؤدّب ولين.

ب- إظهار الشفقة والرحمة على قومه

شهدت مواضع نبي الله موسى عليه السلام بالشفقة على قومه وخوفه عليهم من الضلال، فكان ذا قلب ينبض بالرحمة والعطف والحنان، يعظهم بأسلوب لطيف ومؤدّب، يحمل في مكنوناته الخوف عليهم من عقاب الله إن ظلّوا على كفرهم، فكان لا يتوانى عن إقناعهم وإرشادهم إلى الإيمان، ومواقفه معهم تثبت ذلك بأن دعاهم إلى توحيد الله لأن في ذلك نجاتهم من النار وفوزهم برضوان الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ۝٣٨﴾ يَقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيَا مَتَعٌ وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ۝٣٩﴾ مَن عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَن عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٤٠﴾ وَيَقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجْوَىٰ وَتَدْعُونِي إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١﴾ تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ۚ مَا لِيَ لِي بِهِ ۖ عَلِمْتُ أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَفْرِ ۝٤٢﴾ لَآ جُرْمَ أَنَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْآخِرَةِ وَأَن مَّرَدَّنَا إِلَى ٱللَّهِ وَأَن ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ ۝٤٣﴾ [غافر: 38-43] وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلنَّارِ ۝٣٢﴾ [غافر: 32].

ج- تذكيرهم بنعم الله

في إطار تنوع نبي الله موسى عليه السلام في أساليب الإقناع والتأثير، كان يذكّرهم بنعم الله عليهم عندما رأى تردّدهم في دخول الأرض المقدسة ونكوصهم على الأعقاب إشفافاً عليهم، لأنّه كان يعلم بأن وراء ذلك التردّد الخسران الأكيد⁽¹⁾ فقال لهم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ۖ يَقَوْمِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِىكُمْ أَنبِيَآءَ وَجَعَلَ لَكُم مَّلُوكًا وَءَاتٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَالَمِينَ ۝٢٠﴾ يَقَوْمِ أَدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ ۝٢١﴾ [المائدة: 20-21] ودعاهم إلى شكر الله على نعمه وعدم الجحود بها مبيّنًا جزاء الشكر مع الإحسان فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: 7] يذكرهم إن شكرتم الله لكم الزيادة من عنده وإن كفرتم بنعمة الله وجحدتموها فإنّه سوف يسلبها منكم

(1) - بتصرف: سيّد قطب، في ظلال القرآن، ج2، المرجع السابق، ص 869

ويعاقبكم على جحودها⁽¹⁾ ، مواقف موسى عليه السلام العاطفية مع قومه كثيرة، تدلُّ على حبه لهم وتشجيعهم على الإقبال إلى الله تعالى والإيمان به وترك ما هم عليهم من الكفر والضلال.

خامساً: منهج نبي الله شعيب عليه السلام

أ- استخدام الألفاظ اللطيفة

أتبع شعيب عليه السلام في دعوته منهج التدريج في إقناع قومه وإرشادهم إلى صواب الحق، فكان شأنه شأن بقية الأنبياء - عليهم السلام - جميعاً أن بدأ دعوته بالمنهج العاطفي كما بدأ به هود وصالح عليهما السلام، طلباً لإقبال أذهانهم وتمهيداً لقبول نصحه فهو لا يريد لقومه إلا ما يريد لنفسه أن قال لهم مترففاً بهم ومستميلاً إليهم: ﴿يَقَوْمُ﴾ استعمل نبي الله شعيب عليه السلام هذه الألفاظ المحبة في محادثه قومه لإستمالتهم في تجاوز الأزمنة الطويلة عليه من الصبر والكفاح، وليجمعهم في موطن واحد تحكمهم عقيدة واحدة ورسالة واحدة، فكانت ألفاظه كلها ذات مودة ورحمة، لم يتكبر أو يتعالى عليهم، لأن طبيعة الألفاظ القاسية والثابتة والغليظة تجرُّ إلى النفور والعصيان، فخطبهم بهذه الكلمة التي إتفقت عليها كل الرسائل النبوية، ولم يحاكمهم بلفظ الكفر أو الإجرام بل بالانتساب والتعاطف يقول تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنِقَوْمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَمْثَلُكُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 85] ثم استخدم أسلوب الطلب الصريح في دعوتهم إلى عبادة الله وحده بقوله: ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وخبرهم بعدم وجود إله غيره⁽²⁾ قائلاً لهم بكل لطف وحب: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وهذا حكم قطعي ينفي الألوهية لغير الله.

ب- استخدامه أسلوب التَّغْيِيبِ والتَّهْذِيبِ

عمد نبي الله شعيب عليه السلام في دعوته استخدامه لأسلوب التَّغْيِيبِ والتَّهْذِيبِ والتذكير والتَّخْوِيفِ من العذاب الذي أصاب أمماً سابقة مصرحاً بالقول: ﴿وَيَقَوْمُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمُ نُوحٍ أَوْ قَوْمُ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: 89] وذكرهم بنعم الله

(1) - بتصرف: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، المصدر السابق، ص 291.

(2) - أحمد أحمد غلوش، فقه الدعوة، المرجع السابق، ص 141.

الكثيرة ⁽¹⁾ في قوله: ﴿إِنِّي أَرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ﴾ [هود: 84] وقال: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ، وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ ۖ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 86] وحذرهم من نقمة الله بهم إن خالفوا ما أرشدهم إليه ودلهم عليه فرغبتهم في الكسب الحلال فيه وإن قل، فالحرام لا يجدي وإن كثر ⁽²⁾ ولهذا قال: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [هود: 86] ورغبتهم في الإخلاص لله وحده والبعد عن الرياء ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [هود: 86] كل هذا تحريض على الإيمان وإغراء لهم باستنفاد أنفسهم من الهلاك، وهذا من خيرة ما يدعو إليه الداعية مدعويه، أن يبين لهم أنهم على جانب من الخير، وفيهم بذرة طيبة، وعليهم أن يستمروا على هذا الخير الموجود عندهم، واستعمل أسلوب الترهيب حين بصرهم بعواقب الرغب عن الحق إلى الباطل بأسلوب هادئ أظهر فيه الخوف والشفقة عليهم من سوء العاقبة ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: 84] أي: في الدار الآخرة ⁽³⁾.

ج- إظهار الشفقة لقومه

كما سلك نبي الله شعيب عليه السلام في منهجه العطف والاحترام لعلية القوم أثناء محاورتهم بما يتناسب مع حالهم أو مقامهم، لأن الحديث مع أشرف القوم يختلف الحديث مع الآخرين لذلك يتطلب مزيداً من ضبط النفس والحكمة والثبات على الحق، والتمسك بلغة الحوار الجيد معهم، وهو ما حدث مع نبي الله شعيب والملا من قومه، حيث واجهوه بلغة القوة والتهديد والاستهزاء وواجههم باللطف واللين: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَةٍ أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: 88] ليرد عليهم نبي الله شعيب برد مناسب: ﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفَتَحْبِطُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاحِشِينَ﴾ [الأعراف: 89].

(1) - ابن كثير، تفسير بن كثير (دار طيبة، ط2، ج6، 1420هـ/1999م)، ص 159.

(2) - يُنْظَرُ: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج3، المصدر السابق، ص 447.

(3) - المصدر نفسه، ج4، ص 342.

وعليه يتعين على الداعية الاستفادة من المنهج العاطفي في دعوات الأنبياء ﷺ كالآتي:

- تنمية وترسيخ قاعدة الإخلاص

الأصل في المنهج العاطفي إقامته على أعمال قلبية وأساليب عاطفية، وجُلّها لا تقوم لها قائمة إلا بالإخلاص الذي محلّه القلب والذي يعبر عن حقيقة الدّين وجوهره وصفائه، وقد بدأ قوياً في كوامن الأنبياء عليهم السلام وظاهر أعمالهم، فنجدهم لا يبتغون سمعة ولا رياء ولا ثناء الناس ولا مدحهم، وإنما كانوا يبتغون محبة الله ورسالته، فحريّ على الدّاعية أن يسلك مسلكهم في هذه القاعدة القلبية التي يتصفون بها، فالإخلاص هو تخلص القلب من الشوائب وتصفية الأعمال من الكدورات⁽¹⁾ وهو روح عمل الدّاعية وأهم صفاته، فبدونه يكون جهد الدّاعية وعمله هباءً منثوراً⁽²⁾ وهو جوهر الدّعوة ولبّها، ولولا الإخلاص لما استمرت الدّعوات وبلغت الآفاق، وأعظم الناس مطالبة بهذه الخصلة، وأشدّ حاجة إليها الداعية إلى الله، فعليه أن يكون مهموماً بآلام أمته كما حملها الأنبياء من قبلهم، وأن يكون واعياً دارساً لواقعهم، بصيراً بأحوالهم، وممن يمكرون لهذه الدّعوة من شبهات ودعايات مغرضة، فطناً لأساليبهم واعياً لما تضرره نفوسهم من كيدٍ وحقدٍ لهذه الدّعوة الكريمة، يقول الشيخ الغزالي^(*) رحمه الله منكرًا على المسلمين جهلهم بواقعهم وانشغالهم بأمور صغيرة واهتماماتٍ حقيرة: (تُرى ماذا يشغل فقهاءنا ومفكرينا إذا كانت حياة الدّين كلّ في مهب العواصف؟ وما هي القضايا الأهم التي تشدّ انتباههم ويبدؤون فيها ويعيدون، وإذا كان المسلمون حملة دعوة عالمية فهل درسوا العالم حولهم وعرفوا ما يسوده من ملل ونحل؟ وهل عرفوا العدو والصدّيق؟)⁽³⁾ فلا بدّ من الدّاعية أن يصل بإخلاصه منزلة الأنبياء والمرسلين ﷺ، يكون مخلصاً

(1) - الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق: محمد الصديق المنشاوي، باب الألف (القاهرة: دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتّصدير، د، ط، د، ت)، ص 15.

(2) - سعيد بن علي بن وهف القحطاني، مقوّمات الدّاعية النّاجح، المرجع السّابق، ص 271.

(*) - محمد الغزالي: إِبْنُ أَحْمَدَ السَّقَا، من أكبر مفكرّي الإسلام ودعااته، ولد سنة 1335هـ بقرية في مصر، اشتهر بالغزلي لأن والده رأى الإمام الغزالي في المنام فأخبره أنّه سيرزق بمولود وأشار عليه أن يسمّيه الغزالي، تعلّم بالأزهر وانضمّ إلى جماعة الإخوان المسلمون، وأعتقل ثم أفرج عنه، درّس بعدة جامعات في العالم العربي، وعيّن وكيلاً بوزارة الأوقاف بمصر، نال جائزة الملك فيصل العالمية، توفي بالرياض سنة 1416 هـ، له عدو مصنّفات (يُنظر: أحمد العلاونة، ذيل الأعلام، جدّة: دار المنارة للنشر والتّوزيع، ط1، 1418هـ/1998م)، ص-ص 192، 194.

(3) - محمد الغزالي، هموم داعية (القاهرة: شركة نهضة مصر للطباعة والنّشر والتّوزيع، ط6، 2006م)، ص 49.

صادقًا في دعوته مُجَرَّد قلبه من حبِّ الدُّنيا وطلب الشهرة، يقول الإمام ابنُ القيم رحمه الله: (وقد جرت عادة الله التي لا تَبَدَّلُ، وسنته التي لا تُحَوَّلُ، أن يلبس المخلص من المهابة والنور والحبّة في قلوب الخلق، وإقبال قلوبهم إليه ما هو بحسب إخلاصه ونيّته ومعاملته لبرّه، ويلبس المرائي اللابس ثوب الزور من المقت والمهانة والبغضة ما هو اللائق به، فالمخلص له المهابة والحبّة وللآخر المقت والبغضاء)⁽¹⁾ وبناءً على ما عرض في هذا المبحث من الحديث عن المنهج العاطفي والمناهج الأخرى في دعوات الأنبياء عليهم السّلام تبين لنا أنّ ما أصيب به الأنبياء ﷺ من اعتراضات وتحديات ضخمة في مسارهم الدعوي، قد تجاوزوها بروح إيمانية وعقيدة ساحقة بسماحةٍ ورحمةٍ وصبرٍ، وبدون كلل أو ملل، وتقتضي سنّة الله في خلقه أن يتعرّض الدّعاة أيضًا في كلّ زمانٍ ومكانٍ إلى اعتراضات النّاس لفكرتهم ودعوتهم، ممّا يستوجب عليهم الاستفادة من مناهج الأنبياء، والتّعرّف على كيفيات معالجة الأمراض العقائدية والنّفسيّة والاجتماعية والسّياسية والاقتصادية المنتشرة في عصره، وكلّ ما يتعلّق بجوانب الحياة العامّة، مع مراعاة أحوال النّاس وما جبلوا عليه من غرائز وميول يجب التّعامل معها بحكمة وروية، لأنّ هذه الدّعوة تحتاج إلى داعية له فقه عميق في النّفس البشريّة وخصوصياتها، وفقه كبير في دراسة الواقع وقضاياها، فالمنهج العاطفي من المناهج المؤثّرة في دعوة الأنبياء عليهم السّلام فلا تخلو دعواتهم من أساليبه العاطفية وألفاظه المؤثّرة، فهي تعبّر أساسًا عن الحبّة والألفة تجاه المدعوين، لها تأثيرها الواضح في النّفوس، ولهذا استخدمه الأنبياء الكرام مع أحبّ النّاس إليهم من آبائهم وأبنائهم وعشائرتهم وأقوامهم، وقد اهتم به القرآن الكريم وكرّره في أكثر من آية، وأشاد بدورها في أكثر من قصّة، مما يتحتّم على الدّاعية الأخذ بعين الاعتبار تطبيق هذا المنهج، وعليه نلخص جملة "الأساليب" التي يجب على الدّاعية تطبيقها في واقع الحياة وواقع الدّعوة هي كالآتي :

– التّلطف مع المدعوين

التّلطف بمعنى الترفّق⁽²⁾، وقد لاحظنا من خلال قصص دعوات الأنبياء ﷺ في القرآن الكريم تطبيقات هذا الأسلوب عندهم تجاه أقوامهم، فوجدناها في الغالب مع القوم الكافرين المكذّبين الذين لم يؤمنوا بما جاء به الأنبياء والرّسل الكرام، وذلك لغرض تليين قلوبهم وترويض نفوسهم وتأليفها بلطف وقصد هدايتهم وإيمانهم بالرجوع عن غيهم وعنادهم، فكان الأنبياء عليهم السّلام المثل

(1) - ابنُ القيم، إعلام الموقعين عن ربّ العالمين (بيروت: دار الكتب العلميّة، ط1، ج4، 1411هـ/1991م)، ص 200.

(2) - زين الدّين الرّازي، مختار الصّحاح، ج1، المصدر السّابق، ص 282.

الأعلى لبّ الإنسانية والإنسان، وكان كلُّ منهم يدعو قومه إلى طرق الهداية والسَّعادة بتوحيد الله وإتباع شرعه، لإنقاذهم من الضَّلالة إلى نور الهدى، ومن الإنحراف إلى الإستقامة، بلطف ورحمة، ومع ذلك كان القوم يقابلون الإحسان بالإساءة، والمعروف بالإعراض والإنكار، والجحود والعداوة⁽¹⁾ ممَّا يتحتَّم على الدَّاعية التَّمسُّك بهذا الأسلوب في مخاطبة النَّاس والاستفادة من طريقته، وذلك باستعمال الألفاظ اللَّطيفة واللَّبقة التي تساعد على جذب القلوب وأسرها، ومن ثمَّ يسوقها إلى الإصغاء وقابلية الدعوة، كأنَّ يناديه بقوله: يا أخي، يا ابنَ جلدتنا، يا ابنَ عشيرتنا، إخوة الإيمان، أيُّها الأحباب ... وغيرها من الكلمات الإستعطافية الأخرى، وأمَّا التَّلَطُّف مع الكفرة والعصاة من المسلمين أسلوب معترف به منذ أن انطلق الأنبياء بدعوتهم، قد أقرَّه القرآن وأمر الله تعالى به أنبياءه، يذكر الإمام القرطبي رحمه الله في تفسيره لسورة النحل الآية 125 والتي تبين المنهج الصحيح والأساليب المحكَّمة والمؤثِّرة قائلاً: (حينما أمر الله تعالى نبيَّه مُحَمَّد ﷺ أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطفٍ ولينٍ دون مخاشنة أو تعنيف ولو مع كفَّار قريش وهذا ما يسعى إليه أن يكون عليه الواعظ والمرشد من المسلمين إلى يوم القيامة)⁽²⁾ والتَّلَطُّف مع المدعوين لا يعني المداينة ولا النَّفاق، وإنَّما مراعاة النَّفسيات والتَّعاطف معها، ومن ثمَّ تشويقها وإثارتها حتى تقبل بهذه الدَّعوة، إذن فهو خلق حسن وأسلوب حكيم يظهر حقيقة الدَّاعية الإسلامي النَّاجح، ولإقامة الدَّاعية علاقات مع مدعويه يجب أن تكون على أساس العقيدة وحدها، فرابطة العقيدة هي أخلد الرِّوابط وأدومها وأعظمها، وقد رأينا ذلك واضحاً في دعوة الأنبياء عليهم السلام.

– الشَّفقة على المدعو والنُّصح له

يعرّف ابنُ القيم الشَّفقة بالقول: (الإشفاق رِقَّة الخوف، وهو خوف برحمة من الخائف لمن يُخاف عليه، فنسبته إلى الخوف، نسبة الرَّأفة إلى الرَّحمة، فإنَّها أَلطف الرَّحمة وأرقُّها)⁽³⁾ ومقارنة ما صدر من الأنبياء - عليهم السلام - من ليونة أخلاقهم ومرونة تعاملهم وبساطة أسلوبهم والتي أنتجتها مشاعر الشَّفقة والرَّحمة البارزتين، على الدَّاعية أن يمتثل إلى هذه الرَّحمتين، ويتعدَّ عن رُوح الإستعلاء عن النَّاس واحتقارهم والتَّكبرُ عليهم، فيخاطبهم بروح المشفق المخلص في دعوته.

(1) - يُنظر: وهبة بن مصطفى الرَّحيلي، التفسير الوسيط (دمشق: دار الفكر، ط1، مج1، 1422هـ)، ص 680.

(2) - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي، ج10، المصدر السَّابق، ص 200.

(3) - ابنُ القيم، دارج السَّالِكين، تحقيق: ناصر بن سليمان السعوي وآخرون (الرياض: دار الصمعي، ط1، ج1، 1432هـ/2011م)، ص 514.

– استخدام الكلام الطيب أو القول اللين

الكلمة الطيبة في نظر الإسلام كائنٌ حيٌّ له تأثيره الطيب على الناس، لذلك أخبر به النبي ﷺ بالقول: «الكلمة الطيبة صدقة»⁽¹⁾ فليس المهمُّ توصيل الحقيقة إلى الناس فقط، ولكن الأهمُّ من ذلك الأسلوب والطريقة التي يصل بها، فإذا كان النبي ﷺ يقول: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»⁽²⁾ لكي يتشوّق السامع وينجذب إليه فيؤثّر فيه فكيف بكلام الداعية ؟ ألا يحتاج إلى تزيين⁽³⁾ والكلام الطيب ليس مداهنةً ولا نفاقاً بل هو مراعاة النفسانيات كما تراعى المصالح والمقاصد، فقد كان أحدُ الصالحين ناصحاً للدعاة: (كونوا كالشجر: يرمى بالحجر فيلقى بالثمر، يرمونكم بالتهكُّم والسُّخرية والاستهزاء والتَّنكيل والإخراج، وأنت ترميهم بالرَّفق واللين والصَّبْر على الإيذاء لأنَّ الله يحبُّ الرَّفق في الأمر كله)⁽⁴⁾ وممَّا لا يخفى على كلِّ جماعةٍ مسلمة فالدعوة بحاجة ماسّة إلى نوع معيّن من الدعاة ممّن يحملون في ثنايا قلوبهم وعمق وجدانهم هذه التعابير وهذه العواطف وتلك الصفات الرقيقة، وبحاجة إلى من يحسنون فنَّ التعامل والتّواصل مع المدعوين وكيفية الوصول إلى قلوبهم، فمن أكبر المشكلات التي أبتلي بها بعض الدعاة قد نقول القلّة منهم أساءوا الفهم الصّحيح لهذا الدّين وطبيعته ومقاصده الحقيقية وما يدعو إليه، ولأنّ الفهم الخاطي تكون نتائجه عكسية وضارّة للدعوة⁽⁵⁾، فغياب المعاني النبيلة في الدّعوة إلى الله عند البعض يشكّل ضرراً كبيراً، فنجد على لسان أحدهم التّكفير والتّضليل بدلاً من المرونة واللين، لدرجة أنّ بعضهم ينقّر عن الإسلام بدلاً من أن يؤلّف قلوب الناس عليه⁽⁶⁾، فيجب أن تكون دعوة الدّاعية المخلص واضحة لا غموض فيها ولا التباس، وقديماً شكى الإمام ابنُ القيم رحمه الله: (من أن بعض المدرّسين والمفتين والقضاة غلب عليهم جفاف الطّبع وقسوة القلب، وإن كانت براعتهم النّظرية في ميدان العلم لا مطعن فيها)⁽⁷⁾ فجميع الأنبياء عليهم السلام بدّأوا في

(1) – أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب طيب الكلام، رقم الحديث 6023، ص 749.

(2) – العراقي وآخرون، تخرّيج أحاديث إحياء علوم الدّين، كتاب آداب تلاوة القرآن، رقم الحديث 838 (الرياض: دار العاصمة للنشر، ط 1، ج 1، 1408هـ/1987م)، ص 698. قال العراقي: رواه أبو داود والنسائي وإبْنُ ماجه وإِبْنُ حبان والحاكم وصحح من حديث البراء بن عازب، 1هـ.

(3) – علي بنُ نايف الشحوذ، الخلاصة في فقه الدّعوة (ماليزيا: دار المعمور، ط 1، 1430هـ/2009م)، ص 106.

(4) – علي بنُ نايف الشحوذ، الخلاصة في فقه الدّعوة، المرجع السّابق، ص 107.

(5) – محمّد موسى الشّريف، العاطفة الإيمانية، المرجع السّابق، ص، ص 56.

(6) – عودة عبد الله عودة عبد الله، الكلمة الطيبة وأثرها الدّعوة إلى الله من منظور قرآني، المرجع السّابق، ص 3.

(7) – محمّد موسى الشّريف، العاطفة الإيمانية، المرجع السّابق، ص 40.

دعوة أقوامهم بالمنهج العاطفي علّه يثير العواطف ويوقظ المشاعر ويحقق طمأننتهم لهم والارتياح النفسي بما قد يعرضونه عليهم من الآيات والحكم والبيّنات، فكان كلّ واحد منهم مترقّقاً بقومه ومستميلاً إياهم فيقول: ﴿يَقَوْمُ﴾ ثمّ توجّهوا إلى المناهج الأخرى العقلية والحسّية للفت الأنظار وتوجيه العقول إلى التفكير والتدبّر والتأمّل، يقول الشّيخ الغزالي رحمه الله: (مع قيام الإسلام على العقل، وترحابه بالفكر الجيّد والبحث الأصيل، وحضّه على الإرتباط المادي المعنوي بالكون عملاً وتأمّلاً، مع ذلك كلّهُ فهو دين يعقد أوثق العلاقات بالقلب اليقظان والمشاعر الجياشة، ويجعل الإيمان عاطفة دافقة بالحبّ والبرّ إلى جانب أنّه نظر يتّسم بالسّداد والصّواب)⁽¹⁾.

- المواجهة بالأخلاق الفاضلة

استخدم الأنبياء عليهم السّلام النّفس الطّويل في دعوتهم والثّقة الكاملة بنصرة دعوتهم فلا يخشوا بأس سلطان ولا بطش القوم، والدّاعية عليه أن يتعلّم من الأنبياء، فهم المنارة الأولى والمنبع الصّافي الذي يستقي منه الحكم والأخلاق والآداب، كما عليه أن يقابل أذى النّاس وسفاهتهم بصدرٍ واسعٍ وحلمٍ كبيرٍ كما قابل الأنبياء إعتراضات أقوامهم وسفاهتهم بالحلم والإعفاء والتلطّف والرّحمة، ويتحلّى بالحلم والتّغاضي عن جميع الثّمم والأكاذيب والإفتراءات وكل أنواع الأذى المعنوي والجسدي واللفظي إقتداء بأئمة الدعاة أنبياء الله الكرام.

- التنوّع في الأساليب

لم يلتزم الأنبياء - عليهم السّلام - بطريقةٍ واحدة في دعوتهم، بل تنوّعت أساليبهم، فاستخدموا أسلوب الترغيب، وأسلوب التهيب والتّخويف إذا تطلّب الأمر لذلك، وأسلوب لفت الأنظار إلى التدبّر والتّمعّن في آيات الله والتّصديق برسالة الأنبياء - عليهم السّلام -.

رابعاً: الاستفادة من تطبيقات مناهج الدعوة في دعوات الأنبياء ﷺ

من جملة ما يستفاد من مناهج دعوات الأنبياء عليهم السّلام ما يلي :

أ- دعوات الأنبياء ﷺ مرجعاً تاريخياً

تعتبر قصص دعوات الأنبياء عليهم السّلام مرجعاً تاريخياً يعود إليه الدّعاة على مرّ الأزمنة، لينهلوا منها الطّرق والأساليب والمناهج المناسبة في دعوة جميع صنوف النّاس، فإذا ضاق بالداعية ما

(1) - محمّد الغزالي، الجانب العاطفي في الإسلام، المرجع السّابق، ص 6.

يمكر به أهل الفتن والمترصدين لدعوته فلينظر في سير ومنهج ما سبقه من الأنبياء -عليهم السّلام- فهو ليس أفضل ممّا أصيبوا به.

ب- التدرّج في استخدام المناهج

من خلال الحديث في مناهج دعوات الأنبياء عليهم السّلام نجد أنهم قد تدرّجوا في استخدامهم لهذه المناهج مستخدمين كلّ الأساليب الممكنة، فتارة استخدموا المنهج العاطفي، وتارة العقلي، وتارة الحسّي، وبدأوا بالأهمّ قبل المهمّ، ابتدأوا بالدّعوة إلى إقامة التّوحيد وثبتت العقيدة في النّفوس، ثم انتقلوا إلى مجادلتهم ومحاورةم ثم إنذارهم.

ج- أخلاق الأنبياء زاد للدّاعية إلى الله

من الضّرورة الملحّة أن يتحلّى لداعية إلى الله بالأخلاق الفاضلة ويتزّين بها إلى جانب علمه وأسلوبه وطريقته، ليكون له النّصيب الأوفى من إرث الأنبياء عمومًا والنّبي ﷺ على وجه التّحديد علمًا أخلاقًا، وحينئذ تجتمع القلوب على محبّته كما اجتمعت على محبة الأنبياء عليهم السّلام والتّأسي بهم، وقد قدّمت دعوات الأنبياء عليهم السّلام أخلاقًا رفيعة تشكّل زادًا في طريق الدّعوة إلى الله، والذي لا يستهان به لكونه طريق مخفوف بالعقبات والتّحديات والفتن والابتلاءات، وقد كان العنصر الإيماني المحرك والدّافع الأصلي في تحقيق هذه الأخلاق، والتي في حقيقتها ليس ما ينطق به اللّسان وإنّما ما يعمل بها ويطبّقها في واقع الحياة⁽¹⁾، كالحلم والثّقة بالنّفس والصّبر وغيرها كثير، وخلو الدّاعية وجفاء قلبه قد تعرضه إلى عقبات أشدّ خطورة. يقول الدّكتور سعيد حوى^(*): (نحن في عصر مادي ويقتضي منا أن نقابله بفكر مكافئ وبجيوية روحية عالية، ونحن في عصر شهواني جاهليّ وهذا يقتضي منا أن نقابله بأشواقٍ روحية راقية)⁽²⁾، وقال أيضًا: (إنّ عصرنا عصر الشّهوة، وعصر النّزوة، وعصر المادّية، ولا بدّ أن نقابل هذه الأشياء فيه بما يكافئها ويقابلها... فالشّهوة لا يحلّ مشكلتها المقال وحده ... بل لابد من البيئة والتّربية، والمادّية لا يكافئها الكلمة وحدها بل لابدّ من الشّعور والدّوق والإحساسات الإيمانية مع المقال، والتّمرّد لا يعالج بالكلمة وحدها بل يعالج بالإخبارات لله

(1) - سارة بنت عبد الله جمعة البلوشي، فقه الدّعوة من أمثال النّبي ﷺ، المرجع السّابق، ص 71.

(*) - سعيد حوى: سعيد بن محمّد ديب حوى، أبو محمّد عالم مجاهد، ولد سنة 1354 بحماة في سوريا وتعلّم فيها وفي كلية الشريعة بجامعة دمشق، والتحق بجماعة الإخوان المسلمون حكم عليه بالإعدام ثمّ عفي عنه، وارتحل إلى العراق والسّعودية، ثم عاد إلى دمشق فسجّن خمس سنوات، ثمّ خرج من السّجن إلى الأردن، أصيب بشلل جزئي فلزم بيته حتّى توفي سنة 1406هـ رحمه الله تعالى وله عدّة مصنّفات (يُنظر: أحمد العلاونة، ذيل الأعلام، المرجع السّابق، ص- ص 93، 94).

(2) - سعيد حوى، تربيتنا الرّوحية (القاهرة: دار السّلام للطباعة والنّشر والتّوزيع، ط6، 1419هـ/1999م)، ص 7.

والتَّقوى والورع والأدب)⁽¹⁾ وفي إطار الحديث عن الأخلاق فقد اهتمَّ الأنبياء عليهم السلام بالآفات الأخلاقية والاقتصادية والاجتماعية الشائعة في زمنهم وبين قومهم، ومتابعتهم لكافة الأحداث التي يعاني منها كلُّ مجتمع، كالتطفيف في الكيل والبخس في الميزان وآفة اللواط وغيرها من المشاكل الأخرى، ولا يخفى على كل داعية اليوم وهو يجاهر بدعوته السَّعي في محاربة العديد من الأمراض والآفات كالتي واجهها الأنبياء -عليهم السلام- فنجد غشَّ في البيع، واحتكار السلع، والرَّشوة والزَّنا والقروض المحرَّمة، وآفة الزَّنا التي أصبحت لها مراكز وبيوت منتشرة في العديد من المجتمعات الإسلامية، فيقتضي منه اليقظة والحزم ومواجهتها بمثل ما واجهها الأنبياء -عليهم السلام- بالدراسة في مناهجهم وأساليبهم ووسائلهم والطُّرق الممكنة للمعالجة، كما على الدَّاعية استخدام كلِّ الأساليب والوسائل الممكنة والمتاحة لإيصال الدَّعوة إلى قلب المدعو وعقله، وهو ما فعله الأنبياء عليهم السلام وقد وفَّقوا في دعوتهم.

- شخصية الدَّاعية إلى الله

كان مجال الحديث بيان لمناهج الأنبياء -عليهم السلام- في الدَّعوة إلى الله، والذي يستدعي من الدَّاعية التَّأسي بهم في أساليبهم وطريقتهم في الدَّعوة، والسَّعي في أن يجعل من شخصيته قريبة من شخصية الأنبياء عليهم السلام، فلا يتأثر بالبيئة أو المجتمع الفاسد وأهله، بل يثبت ويساهم في إصلاحه لدرجة أن يكون هو المؤثر فيه، وليس المتأثر به، ويستحضر في ذهنه مناهج الأنبياء وطريقتهم في الدَّعوة⁽²⁾ يقول تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْدَهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 90] يقول الشيخ الغزالي رحمه الله: (الإسلام المكتمل ليس نظرية علمية أو اقتصادية، وليس فكرة مجردة عن الله مهما كانت هذه الفكرة صحيحة من حيث التَّصوُّر والاستدلال، إنَّه قلب انفتحت أفعاله، وانفسحت أرجاؤه، وأشرق معنى الحبِّ في جوانبه، فهو متعلِّق برَّبِّه، متبَّع لآثاره في كونه، عاشق للخير مبغض للشرِّ، يمتدُّ مع كلِّ شيءٍ حسن، وينكمش مع كلِّ شيءٍ قبيح ...)⁽³⁾ ويقول صاحب "تفسير المنار" محمَّد رشيد رضا رحمه الله: (وموافقة رسول لمن قبله في أصول الدين وبعض فروعه لا يسمَّى إقتداءً ولا تأسياً، وإنَّما يكون التَّأسي

(1) - المرجع نفسه، ص 13.

(2) - عبد الكريم زيدان، المستفاد من قصص القرآن للدَّعوة والدُّعاة (بيروت: مؤسَّسة الرِّسالة ناشرون، ط1، ج1، 1419هـ/1998م)، ص 208.

(3) - محمَّد الغزالي، ركائز بين الإيمان والعقل، المرجع السَّابق، ص-ص 193، 194.

في طريقته التي سلكها في الدعوة إلى الدّين⁽¹⁾ فقد قدمت دعوات الأنبياء عليهم السّلام مناهج متعدّدة أوضحت الطّريق الصّحيح والأساليب المناسبة في إقناع القوم والتّأثير فيهم.

- تنوع الدّاعية في المناهج والطّرق

إنّ المنهج العقلي والحسّي من أهمّ المناهج المستخدمة في الدعوة إلى الله، ولا يمكن للأنبياء - عليهم السّلام- أن يستقلّ بمنهج عن الآخر في العملية الدّعوية، فكلاهما مكملّين لهذه العملية، فمن خلالهما حقّق الأنبياء- عليهم السّلام- نتائج وآثار التمسّنها من النّصوص القرآنية، والدّاعية النّاجح هو ذلك الذي يستثمر كلّ موقف وكلّ فرصة تخدم دعوته وتقوّي دعائمها وتعمّق جذورها من خلال مخاطبة العقل وإثارته تارة، والتّوجّه إلى الحسّ وإثارته تارة أخرى، لأنّ التّنوع يكون له عمق ورسوخ في الأذهان والنّفوس.

الخلاصة

هذا الفصل يناقش المنهج العاطفي من جانبه النّظري والتّطبيقي في واقع دعوة الأنبياء عليهم السّلام، وقد تبين لي من خلاله الوقوف على بعض النّتائج المستوحاة منها نذكرها كالآتي :

- من خلال ما عرض عن المنهج العاطفي تبين أثره البالغ في النّفوس، وسرعته في انصياع المدعوّين للحقّ، ممّا جعلني أشعر بأهمّيّة هذا المنهج وعظمته، ولاسيما الإستفادة منه في الوقت المعاصر والذي أشبه ما نسّميه بعصر المادية، كثرت فيه الفتن وتعدّدت فيه العصبية واختلّفت فيه المذاهب والإبّجّهات بشكل مثير للانتباه، يقتضي مقابله بفكر مكافئ وبحيويّة روحية عالية وبأشواق روحية راقية.

- المنهج العاطفي في الدّعوة إلى الله عمومًا وفي دعوة الأنبياء - عليهم السّلام- على وجه التّحديد من أكثر المناهج حضورًا وتأثيرًا في النّفس البشرية، لأنّه بطبيعته يخاطب العاطفة الإنسانية التي تحدّد الميول وتساهم في صياغة القناعات، والنّاس في الأصل تحكمهم العواطف ويتأثرون بالأسلوب اللّين والكلمة الطّيبة، ويتضجّروا ويفزعوا من منهج الرّهبة والنّذارة.

- المنهج العاطفي لكونه أصيل له مكانة مرموقة في دعوات الأنبياء - عليهم السّلام- لصبغتهم الرّقيقة التي اصطبعوها بها، كشفت عن معدنهم وجوهر قلوبهم، والشّواهد في ذلك كثيرة حتّى أنّنا لا نمرّ على سورة أو آية إلّا وذكر هذا المنهج.

(1) - محمّد رشيد رضا، تفسير المنار (القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، د، ط، د، ج، 1990م)، ص 85.

- إنّ المنهج العاطفي من أفضل المناهج تأثيراً وقوّة، كونه ينبع من رحمة الإنسان، يحاكي القلوب ويفتح مغاليقها، ولأنّ الدّاعية بغير هذا المنهج يكون عاجزاً عن إيصال هذه الدّعوة على أئمّتها.
- دعوة الأنبياء عليهم السّلام هي الدّعوة التي تقدّم للدّعاة إلى الله في كلّ زمانٍ ومكانٍ أبرز المناهج والمعالِم والأخلاق، وقد خاطب الأنبياء -عليهم السّلام- أناس كثير وجماعات مختلفة، وكان لكلّ منهم معتقداته وأفكاره وعاداته، ومن أجل ذلك تعدّدت المناهج والأساليب والوسائل لتلائم طبائع المدعوين وإنّجاءاتهم، فكانوا أُمُودجاً يمتلكون جميع القوى العقلية والرّوحية والوجدانية والعلمية، والتي ساهمت في تنقية وتصفية المجتمعات آنذاك من المعتقدات الوثنية الشائعة في كل قوم.
- للمنهج العاطفي أساليب كثيرة يشتمل كلّ منها على صور وأشكال متعدّدة، راعى فيها الأنبياء -عليهم السّلام- عليهم أحوال المدعوين وظروفهم.
- طريق دعوات الأنبياء عليهم السّلام محفوف بالعقبات والتّحدّيات، وقد تجاوزوا عناد أقوامهم وتمرّدهم عن الحقّ بصبر وثبات وبلطف وشفقة، وكلّهم يقين بعودتهم إلى الإيمان، فكذلك طريق الدّعاة اليوم نجده أيضاً محفوف بالأشواك والمتاعب وهذا من سنن الله في خلقه، عليهم أن يتمسّكوا بهذا المنهج، ولا يعني ذلك التّخلي عن الدّعوة كأن يصرفه أذى النّاس عن دعوته، بل عليه مواصلة الطّريق للمضي بها قدماً نحو تحقيق أهدافها واستراتيجياتها البعيدة المدى.
- عناية الدّعوة بالمنهج العاطفي تأصيلاً وعلماً أمر مهمّ، لأنّ الدّعوة في ضوء هذا المنهج تستجيب لها القلوب وتأسر به النّفوس، وتجيش العواطف، وذلك لما فيه من عنصر الإثارة والتّشويق.

تمهيد

على غرار ما سبق ذكره من مناهج دعوات الأنبياء عليهم السلام والذي أبان لنا على شكل أساليب مستخدمة يجمعها نظام واحد، هذه الأساليب تمثل طرق وكيفيات تطبيق هذا المنهج في الواقع الدعوي، منها ما تختص بتحريك العقل فتدعوه إلى التفكير والتدبر متمثل في المنهج العقلي، ومنها ما تعتمد على الحس والتجارب الإنسانية متمثل في المنهج الحسي، ومنها ما تحرك الشعور والوجدان متمثل في المنهج العاطفي، وقد زود القرآن الكريم والسنة المطهرة من هذه الأساليب، فتنوعت تبعاً لتنوع النفوس والعقول، فأسلوب دعوة العالم مثلاً يختلف عن أسلوب دعوة الجاهل وأدوات التعبير التي يفهمها كل واحد منهما، تتباين في مستوياتها، فالعالم يفهم من الإشارة في حين يحتاج الجاهل إلى تفصيل وبيان في تلقيه الدعوة، ولعل مجموعة أموراً اتصف بها النبي ﷺ ساهمت في إنجاح دعوته، وهذه الأمور حث عليها القرآن وأمر بها وقد راعى فيها مستويات الفهم للمدعوين⁽¹⁾، فكان الأمر الرباني للنبي ﷺ أن يراعي تلك المستويات بما يناسبها من أساليب تبيينها الآية الكريمة: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: 125] و عليه كانت حكمة الداعية إلى الله في هذا المجال التأثير في النفس ومحاصرتها من جميع مداخلها العقلية والعاطفية والنفسية.

فجاء هذا الفصل يعالج أساليب المنهج العاطفي من الجانب التطبيقي في دعوة النبي ﷺ، ومحاولة الإطاحة بها من جميع جوانبها، هذه الأساليب تجلّى فيها عمق شخصية النبي ﷺ ومعالمها والصفات التي تجلّى بها أهله ليكون داعياً ومربياً عظيماً، ولحصر جميع أساليبه والمواقف الدالة عليه أمراً صعباً لتنوعها وكثرتها فلا يكاد يخلو منها نص قرآني أو حديث نبوي، فجاء بعضها نصاً صريحاً مباشراً واكتفى بعضها بالإشارة إليها، ولتحديدتها تبين بعد التقصي والبحث تحديد ثلاثة أساليب وهي كالآتي: **أسلوب الموعظة الحسنة**: وأشكالها كثيرة ومتنوعة منها الترغيب والترهيب، والتذكير بنعم الله على عباده المستوجبة للشكر، والقصص العاطفية المؤثرة والمدح والذم، والكناية، والإشارة وغيرها من أساليب تدخل في باب الموعظة الحسنة، و **أسلوب إثارة منابع الرحمة والرفقة** بالمدعوين والتي تكون بالكلمة الطيبة المؤثرة، والرفق واللين والرحمة، والقول اللين، والمشاركة الوجدانية في موقف أو بمساعدة شخصية في أزمة، وغيرها من الأساليب الأخرى.

(1) - جنان محمد مهدي العقيدي، لغة الحكمة وإقناع المخاطب في أسلوب الخطاب النبوي، مجلة العميد فصلية محكمة، العدد 2، السنة الثانية، 1434هـ/2013م، ص-ص 245، 247.

وأسلوب قضاء الحاجات وتأمين الخدمات: يتنوع هذا الأسلوب بتنوع الحاجات المطلوبة، والمساعدات المقدمة مادية كانت أو معنوية، والخدمات المؤسسة لخدمة المدعو والمجتمع في جميع المجالات وغيرها كثير ، وبهذا سأجعل لكل أسلوب مبحثاً خاصاً أبين فيه تعريفه، ومظاهره وأشكاله وأهميته وبعض المسائل الدعوية المتعلقة به، والأمثلة التفصيلية لكل شكل من أشكاله وتطبيقاته في دعوة النبي ﷺ.

المبحث الأول: أسلوب الموعظة الحسنة

قبل الحديث عن أسلوب الموعظة الحسنة وتطبيقاتها في دعوة النبي ﷺ يتوجبُ التعريف بالأسلوب أولاً، حتى يتضح المعنى أكثر.

المطلب الأول: مفهوم الأسلوب

اختلفت المفاهيم الإصطلاحية للأسلوب إختلاف تنوع في اللفظ لا إختلاف تضاد⁽¹⁾، وهذا الإختلاف بحسب الفن أو العلم المضاف إليه، فهناك أسلوب أدبي وبلاغي ودعوي، وكل مصطلح يحمل معنى خاصاً ولكنه يدور حول معنى واحد وهي الطريقة المتبعة، وعليه سأحاول تقديم بعض المفاهيم التي جمعتها تعالج الموضوع وتناسبه بدءاً بالمفهوم اللغوي وهو كالاتي :

أولاً: لغة

يعرفه العلامة ابن منظور بالقول: (هو الطريق والمذهب يقال: سلكْتُ أسلوباً فلانٍ في كذا: على طريقته ومذهبه، والأسلوب هو الفن، يقال: أخذنا في أساليب من القول: فُتونا متنوعاً، ويقال هو على أسلوب من أساليب القوم، أي: على طريق من طرقهم، وجمع أسلوب أساليب)⁽²⁾ ويعرفه العلامة الفيروز آبادي بالقول: (الأسلوب هو الطريق، وعُنق الأسد، بأنه الشموخ في الأنف)⁽³⁾ ويعرفه العلامة الزبيدي بالقول: (هو الطريق، الوجه، المذهب، يُقال: هم في أسلوب سوءٍ ويجمع على أساليب، وقد سلك أسلوبه: طريقته وكلامه على أساليب حسنة، والجمع أساليب)⁽⁴⁾، ومن خلال هذه المفاهيم اللغوية تبين أن "الأسلوب" في اللغة جاء بمعنى: الطريق، والفن، والمذهب.

(1) - محمد الزرقاني، مدخل العرفان في علوم القرآن (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ج2، 1416هـ/1996م)، ص 199.

(2) - يُنظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة سلب، مج4، المصدر السابق، ص 2058، والفيومي المقرئ في المصباح المنير، مادة سلب، مج4، المصدر السابق، ص 1228.

(3) - الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مادة سلب، المصدر السابق، ص 98.

(4) - المرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، باب سلب (مطبعة الكويت، ط2، ج3، د، ت)، ص 71.

ثانيًا: إصطلاحًا

مِنْ خِلَالِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ مَعْنَى لُغَوِيٍّ لِلْأُسْلُوبِ وَمِنْ خِلَالِ مَا إِطْلَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ مَضَامِينٍ تَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْجَانِبِ، يُمْكِنُ لِي التَّعْبِيرُ عَنْ هَذَا الْمَصْطَلَحِ مِنَ الْمَفْهُومِ الْإِصْطِلَاحِيِّ، وَقَدْ تَنَاوَلَهُ عُلَمَاءُ فِي الدَّعْوَةِ وَبَاحِثِينَ فِي عُلُومٍ أُخْرَى بِاهْتِمَامٍ فِي دَرَسَاتِهِمْ نَذَكُرُ مِنْهُمْ كَالآتِي :

يَعْرِفُهُ الدُّكْتُورُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ أَبَا بَطِينٍ بِالْقَوْلِ: (عَرَضَ مَا يَرَادُ عَرْضُهُ مِنْ مَعَانٍ وَأَفْكَارٍ وَقَضَايَا فِي عِبَارَاتٍ وَجَمَلٍ مُخْتَارَةٍ لِنَتَأَسُّبِ فِكْرِ الْمَخَاطَبِينَ وَأَحْوَالِهِمْ وَمَا يَجِبُ لِكُلِّ مَقَامٍ مِنْ مَقَالٍ)⁽¹⁾ وَيَعْرِفُهُ الدُّكْتُورُ حَمْدُ نَاصِرِ الْعِمَارِ بِالْقَوْلِ: (وَطَابَعَ الْكَلَامَ أَوْ فَتَنَهُ الَّذِي إِنْفَرَدَ بِهِ الْمُتَكَلِّمُ)⁽²⁾ وَفِي تَعْرِيفٍ آخَرَ لَهُ: يُعَرَّفُ الْأُسْلُوبُ بِ: (الطَّرِيقَةِ الْكَلَامِيَّةِ الَّتِي سَلَكَهَا الْمُتَكَلِّمُ فِي تَأْلِيفِ كَلَامِهِ وَإِخْتِيَارِ مَفْرَدَاتِهِ)⁽³⁾ وَفِي دَرَسَةِ بَلَاغِيَّةٍ لِلْأُسْلُوبِ يُعَرَّفُ بِ: (جُمْلَةُ الصِّيَغِ اللَّغَوِيَّةِ الَّتِي تَعْمَلُ عَمَلَهَا فِي إِثْرَاءِ الْقَوْلِ وَتَكثِيفِ الْخُطَابِ، وَمَا يَتَّبَعُ ذَلِكَ مِنْ بَسْطٍ لِدَاتِ الْمُتَكَلِّمِ، وَكَشْفٍ عَنْ سِرَائِرِهِ، وَبَيَانٍ لِتَأْثِيرِهِ عَلَى السَّمَاعِ، وَهُوَ طَرِيقَةُ التَّعْبِيرِ أَوْ طَرِيقَةُ الْكِتَابَةِ أَوْ الْإِنْشَاءِ أَوْ طَرِيقَةُ إِخْتِيَارِ الْأَلْفَاظِ وَتَأْلِيفِهَا لِلتَّعْبِيرِ بِهَا عَنْ الْمَعَانِي قَصْدُ الْإِيضَاحِ وَالتَّأْثِيرِ أَوْ الضَّرْبِ مِنَ النُّظْمِ وَالطَّرِيقَةِ فِيهَا)⁽⁴⁾ وَأَخْتِمُ الْمَفَاهِيمَ بِتَعْرِيفِ شَارِلِ بَالِي "مُؤَسَّسِ عِلْمِ الْأُسْلُوبِ" حَيْثُ يَتِمَثَّلُ الْأُسْلُوبُ عِنْدَهُ بِالْقَوْلِ: (فِي مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْعُنَاوَةِ الْجَمَالِيَّةِ فِي اللُّغَةِ، يَكُونُ بِمُسْتَطَاعِهَا إِحْدَاثُ تَأْثِيرٍ نَفْسِيٍّ عَاطْفِيٍّ عَلَى الْمُتَلَقِّي)⁽⁵⁾ وَبِمَا أَنَّ الْبَحْثَ يَتَنَاوَلُ مَوْضُوعًا دَعْوِيًّا فَالْأَجْدَرُ بِنَا تَقْدِيمَ مَفْهُومِ الْأُسْلُوبِ فِي الدَّعْوَةِ :

- يَعْرِفُهُ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ أَبُو الْفَتْحِ الْبِيَانُونِي بِالْقَوْلِ: (الْأُسْلُوبُ هُوَ طَرِيقَةُ الدَّاعِي فِي دَعْوَتِهِ أَوْ كَيْفِيَّةُ تَطْبِيقِ مَنَاهِجِ الدَّعْوَةِ)⁽⁶⁾ وَيَعْرِفُهُ الدُّكْتُورُ عَلِيٌّ عَبْدُ الْحَلِيمِ مُحَمَّدٌ بِالْقَوْلِ: (أُسْلُوبُ الدَّعْوَةِ هُوَ الطَّرِيقَةُ

(1) - أحمد بن محمد أبا بطين، المرأة المسلمة المعاصرة (الرياض: دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، 1412هـ/1991م)، ص 523.

(2) - حمد ناصر العمار، أساليب الدعوة المعاصرة (الرياض: دار اشبيلى، ط1، 1412هـ/1991م)، ص 28.

(3) - فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرُّومِي، خصائص القرآن الكريم (الرياض: مكتبة الحرمين، ط9، 1417هـ/1997م)، ص 18.

(4) - أحمد الشايب، الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية (القاهرة: مطبعة السعادة، الناشر مكتبة النهضة المصرية، ط7، 1396هـ/1976م)، ص 44.

(5) - سمير أبو حمدان، الإبلاغية في البلاغة العربية (بيروت: منشورات عويدات الدولية، ط1، 1991م)، ص 35.

(6) - محمد أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، المرجع السابق، ص 47.

أو المذهب الذي يلجأ إليه الداعي إلى الله ليحقق بذلك أهداف الدعوة⁽¹⁾ ويعرفه الشيخ سعيد القحطاني بالقول: (العلم الذي يتصل بكيفية مباشرة التبليغ وإزالة العوائق عنه)⁽²⁾ وفي تعريف آخر له: (هو أن الأساليب الدعوية هي كفاءات وطرق تطبيق تلك النظم والخطط الدعوية، وهذه الأساليب قد تكون بيانية - لفظية - وقد تكون سلوكية - معنوية - تأتي ضمن صورة من صور التعامل مع الآخرين أثناء دعوتهم، وهذا خلافاً لبعض الباحثين الذين يؤكدون على أن المراد بالأسلوب الدعوي هو: الصور اللغوية والبيانية التي ترد على السنة الرُّسل والأنبياء ﷺ في دعوتهم من كونها خبراً أو إنشاءً - أمراً أو نهياً أو استفهاماً - حواراً، أو قصصاً، وما إلى ذلك)⁽³⁾ والأسلوب بطبيعته نوعان: إما أن يكون شاذاً أو حسناً، ودراسي تُعنى بالأسلوب الحسن الذي يكون ملائماً لفهام الناس وفطرتهم ومداركهم، فتكون الفكرة واضحة، والكلمة فصيحة، والعبارة متناسقة والتركيب قوياً، ويكون هناك انسجاماً بين المعنى واللغة وسلاسة في الأسلوب، ممّا يحدث تأثيراً جالياً في النفس، وهو أحد العوامل الحساسة التي توفر على الداعية الوقت والجهد وتصل به إلى الغاية المنشودة بأقل التكاليف وأيسرها⁽⁴⁾ يقول تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الرُّم: 23] .

المطلب الثاني: مفهوم الموعظة الحسنة وأهميتها في الدعوة إلى الله أولاً: مفهوم الموعظة الحسنة

قبل الحديث عن تطبيقات الموعظة الحسنة في دعوة النبي ﷺ إرتأيت أن أعرض المفهوم اللغوي والإصطلاحي للموعظة :

أ - لغةً

- يعرفها العلامة ابن فارس رحمه الله بالقول: (الوعظ والعين والظاء كلمة واحدة؛ الوعظ التخويف، والعة الاسم منه، قال الخليل: هو التذكير بالخير وما يرق له قلبه)⁽⁵⁾ ويعرفها العلامة الزاغب

(1) - علي عبد الحليم محمود، فقه الدعوة إلى الله (المنصورة: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، ج1، 1410هـ/ 1990م)، ص 215.

(2) - سعيد بن علي بن وهف القحطاني، الحكمة في الدعوة إلى الله (الرياض: مكتبة الملك فهد، ط1، 1425هـ)، ص 125.

(3) - حسين عبد عواد الدليمي، أسلوب

الرَّفَق في دعوة إبراهيم ﷺ لأبيه، جامعة الأنبار للعلوم الإسلامية، العدد 16، مج4، 2013م، ص 561.

(4) - محمد خير رمضان يوسف، الدعوة الإسلامية والوسائل والأساليب (مطابع الفرزدق التجارية، ط1، د، ت)، ص 67.

(5) - أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، باب الواو والعين وما يثلثهما (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج6، د، ت)، ص 126.

الأصفهاني بالقول: (الوعظ زجر مُقْتَرَنٌ بِتَخْوِيفٍ)⁽¹⁾ وعند الأزهري يقول الليث: (والعِظَةُ الموعِظَةُ، وكذلك الوَعْظُ، والرَّجُلُ يَتَعَظُّ إِذَا قَبِلَ الموعِظَةَ حين يذَكِّرُ الحَيْرَ ونحوه، ممَّا يرقُّ لذلك قلبه. يقال: وَعَظْتُهُ عِظَةً. ومن أمثالهم المعروفة: لَا تَعْظِيْنِي وَتَعْظَعْظِي، أَي: اتَّعِظِي وَلَا تَعْظِي. قلت: وقوله: تَعْظَعْظِي، وإن كان كمكرّر المضاعف، فإنَّ أصله من الوَعْظِ، كما قالوا: خَضَخَصَ الشَّيْءُ فِي المَاءِ وَأَصْلُهُ مِنْ خَاضَ)⁽²⁾ ومن هذه المفاهيم اللُّغوية تَبَيَّنَ أَنَّ "الموعظة" في اللُّغة جاءت بمعنى: التَّخْوِيفُ والإنذار، والتذكير بالخير، وتذكير الإنسان بما يُليئُ قلبه.

ب- إصطلاحاً

توسَّع العلماء والمفسِّرون في تقديم مفهوم للموعظة، لاسيما الموعظة الحسنة، التي كانت أساساً لدعوة الأنبياء - عليهم السَّلام - والمرسلين وهذه مفاهيم بعض العلماء للموعظة: يعرفها الإمام الطَّبري رحمه الله بالقول: (هي التَّذْكِيرُ والتَّخْوِيفُ والتَّرهيبُ ممَّا سيحيق بالمقصود بالموعظة إذا ما تَعَنَّتْ وأبى أن يستجيب)⁽³⁾ ويعرفها العلامة الجرجاني بالقول: (هي التي تُليئُ القلوب القاسية، وتُدْمِعُ العيون الجامدة، وتُصْلِحُ الأعمال الفاسدة)⁽⁴⁾ ويعرفها الإمام الشُّوكاني رحمه الله بالقول: (الموعظة هي المقالة المستعملة على الموعظة الحسنة التي يستحسنها السَّامع، وتكون في نفسها حسنة باعتبار إرتفاع السَّامع بها، وقيل هي الحُجَجُ الظنِّية الإقناعية الموجبة للتَّصديق بمقدِّمات مقبولة)⁽⁵⁾ ويعرفها الدكتور محمَّد أمين حسن بالقول: (هي النَّصْحُ والتَّذْكِيرُ بالخير والحقُّ على الوجه الذي يرقُّ له القلب، وَيَبْعَثُ على العمل)⁽⁶⁾ أمَّا "الموعظة الحسنة" ككلمة مركَّبة، فقد عرَّفها علماء الدَّعوة والباحثون بتعاريفٍ مختلفةٍ نذكر منها وهي:

(1) - الرَّاغِبُ الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن الكريم، تحقيق: صفوان عدنان داوودي (دار القلم، 1430هـ/2009م)، ص 564.

(2) - محمَّد بُنُّ أحمد بُنُّ الأزهري، تهذيب اللُّغة، تحقيق: محمَّد عوض مرعب (بيروت: دار إحياء الثُّراث العربي، ط1، ج3، 2001م)، ص 93.

(3) - إنُّ جريير الطَّبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تفسير الطَّبري (بيروت: مؤسَّسة الرِّسالة، ط1، ج2، 1415هـ/1994م)، ص 172.

(4) - الجرجاني، معجم التَّعريفات، باب الميم، ج1، المصدر السَّابق، ص 199.

(5) - الشُّوكاني، فتح القدير الجامع بين فَنِّي الرِّوَاية والدَّرَاية من علم التَّفْسِير، تحقيق: عبد الرَّحمان عميرة (دار الوفاء، ج3، دت)، ص 281.

(6) - محمَّد أمين حسن محمد بني عامر، أساليب الدَّعوة والإرشاد (الدَّعوة والدَّاعية، المدعو)، المرجع السَّابق، ص 78.

- التَّغْيِب والعرض المشوِّق المبني على المنطق والعقل السَّليم بالرفق والمدارة ولين الكلام والتَّعريض دون التَّصريح والتَّنبية دون الزَّجر، فإنَّ الرفق في الموعظة كثيرًا ما يهدي القلوب الشاردة ويؤلِّف بين القلوب المتنافرة⁽¹⁾.

- ويعرِّفها الشَّيخ البيضاوي رحمه الله في تفسيره بالقول: (بأنَّها الخطابات المقنعة والعبر النَّافعة، فالأولى لدعوة خواصِّ الأُمَّة الطَّالِبين للحقائق، والثَّانية لدعوة عوامهم)⁽²⁾ بمعنى أنَّ دعوة النَّاس وتوجيههم تكون بقدر عقولهم ومستوياتهم، فتصطبَّح بالكلمات الواضحة البَيِّنة والحجَّة المقنعة المزيِّلة للشُّبهة.

- ويعرِّفها الإمام ابنُ القَيِّم رحمه الله بالقول: (بأنَّها الأمر والتَّهْيِي المقرون بالتَّغْيِب والتَّهْيِب)⁽³⁾. وهو ما على الدَّاعية إلى الله أن يستخدم الأسلوب المناسب الذي يكون أدعى لاسْتِجَابَةِ النَّاس، فبعضهم يحتاج حاله إلى الموعظة بالتَّغْيِب، وبعضهم يحتاج إلى الموعظة بالتَّهْيِب، وبعضهم يحتاج إليهما معًا، وذلك بحسب الحال والمقام.

- ويعرِّفها الدُّكتور عبد الرَّحمان حَبْنَكَة المِيداني بالقول: (التَّغْيِب بالعاقبة الحسنة، والسَّعادة الخالدة لمن اتَّبَعَ سَبِيلَ رَبِّهِ، والتَّهْيِب مِنْ العاقبة السيِّئة الوخيمة والشَّقَاوَةِ والتَّعَاسَةِ لمن أَبَى أَنْ يَتَّبَعَ سَبِيلَ رَبِّهِ، بشرط عرضها بأسلوبٍ حسنٍ جميلٍ مقبول لا تنقُر منه الطَّبَاعُ السَّوِيَّةُ)⁽⁴⁾ وعليه فالموعظة الحسنة في أصلها معالجة دعوية تدور في فلك التَّغْيِب والتَّهْيِب، وفي تعريفٍ آخر لها: (هي المقالة التي يستحسنها السَّامع، وتكون في نفسه حسنة باعتبار انتفاع السَّامع بها، والحجج الظنيَّة الإقناعية الموجبة للتَّصديق بمقدماتٍ مقبولة، وهو أسلوبٌ يدخل إلى القلوب برفق لا بالزَّجر والتَّأْنِيب، فالرفق في الموعظة كثيرًا ما يهدي القلوب ويؤلِّف بينها ويشرح صدور كثير من الملحدِّين، وقد ساعد النَّبِيُّ ﷺ في تبليغ الدَّعوة حلمه وصبره وسعة صدره حتَّى اسْتَطَاعَ أَنْ يُوَلِّفَ القلوب ويطفئ نار الحروب بين المسلمين ويَحْقِنَ دماءهم)⁽⁵⁾، يقول عنه تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التَّوْبَةُ: 128] وفي تقييد الموعظة الحسنة مِنْ خِلالِ الآيَةِ 125 مِنْ سورة النَّحْلِ، يُفْهَمُ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ موعظة حسنة بل مِنْ الموعظِ ما

(1) - عوده عبد عوده عبد الله، الكلمة الطيبة وأثرها في الدعوة إلى الله من منظور قرآني، المرجع السابق، ص 5.

(2) - محمد الشيرازي البيضاوي، تفسير البيضاوي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط1، د، ت)، ص 254.

(3) - التفسير القيم لابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي (بيروت: دار الكتب العلمية، د، ط، د، ت)، ص 344.

(4) - عبد الرَّحمان حسن حَبْنَكَة المِيداني، فقه الدَّعوة إلى الله (دمشق: دار القلم، ط2، ج1، 1417هـ/1996م)، ص 609.

(5) - مها عيسى إبراهيم صيدم، نحو خطاب دعوي مؤثّر من خلال قصّة إبراهيم عليه السلام، بحث متطلب لمشروع تخرج 5499 في

تخصص التربية الإسلامية، رفح، جامعة القدس المفتوحة، 2010م، ص 20.

هو قبيح وسيئ، فالسيئ حينما يشتمل على تعنيف المدعو أو فضحه أو تعييره، والحسن أسلوبه أن يكون هادئاً ليناً رقيقاً ومؤدباً يدعو إلى المحامد وينهى عن المقابح⁽¹⁾ متجنباً في ذلك الألفاظ النابية والقاسية والعبارات السيئة بعيداً عن الرِّياء والمداينة، يستعمل فيها القول اللطيف والكلام الملين بما فيه من ترغيب وترهيب فيحمل السامع إذا ما اتعظ وقبل الموعدة وأثر فيه⁽²⁾ وعليه تبين من خلال المفاهيم السالفة أن دعوة الناس وتوجيههم يجب أن تكون بأسلوب يشتمل على مواعظ تحرك القلوب، وتثير العواطف بالرفق واللين دون فضاضة أو غضاضة، يحقق على إثرها الأهداف والغايات المرجوة فيزيل بها العلل ويزكي بها الأنفس، ويقضي على جميع الإحن القلبية والأخلاقية والاجتماعية المستوطنة في النفس والخلق والطباع.

ثانياً: أهمية الموعدة الحسنة في الدعوة إلى الله

تظهر أهمية الموعدة الحسنة كونها أمرٌ إلهي وضرورة دعوية لإصلاح الأمة وتقويمها، بحيث لا تستكمل الدعوة دعائمها إلا بالموعدة الحسنة، وقد كان الأمر الرباني في أي ذكره جلياً حث على استخدامها فقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125] وقوله تعالى: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: 63] ﴿فَقَوْلًا لَهُ قَوْلًا لَنَا لَعَلَّهُ يُتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: 44] وقال: ﴿وَكَلَّا نَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: 120] واستخدمها جميع الأنبياء عليهم السلام في دعواتهم، فقد أخبر عن نوح عليه السلام أنه قال تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: 62] وعن هود قال: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: 68] وتظهر أهمية الموعدة الحسنة كونها الكلمة الطيبة التي يوجهها الداعية إلى المدعوين ليصل بها إلى سويداء قلوبهم، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: 24] وهي بلسم شافٍ الذي يداوي الجراح ويخفف الآلام، كما أنها تأخذ بأيدي الناس إلى طريق الحق والصواب، وتبعدهم عن طريق الشر والعقاب، خاصة وأن الناس تصيبهم غفلة ونسيان بما تفتحهم على قلوبهم شهوات تنسيهم الآخرة والعمل لها فينعمون في الدنيا وينسون الآخرة والعمل لها، وهنا تأتي مهمة الداعية في تنبيه الناس وإيقاظهم من غفلتهم وربطهم برحم من

(1) - محمد الجوهري، الموعدة الحسنة وأثرها في الدعوة، المرجع السابق، ص-ص 1، 2.

(2) - عبد الحميد بن باديس، الدور الغالية في آداب الدعوة والداعية (دار المنار، د، ط، د، ت)، ص 32.

جديد⁽¹⁾، والموعظة الحسنة اختُصَّت أساسًا لمخاطبة العواطف والمشاعر قبل العقول، لهذا يكمن سرُّ تفاعلها، ولعظم أهميتها في الدعوة إلى الله فهي تُعنى بالدرجة الأولى المدعو، إذاً فهي السَّيَّاح الآمن له من جميع الآفات والرزائل التي تُفسدُ صلاحه وأمنه الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي، فتخلق الموعظة الحسنة تمايزًا للأمة المؤمنة عن بقية المجتمعات الأخرى فيقول تعالى: ﴿ذَلِكُمْ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [الطلاق: 2].

المطلب الثالث: أثر أسلوب الموعظة الحسنة في دعوة النبي ﷺ

استخدم النبي ﷺ الموعظة الحسنة في توجيه أصحابه وكلِّ من خالطه على اختلاف مستوياتهم ومشاربهم، مراعيًا حالهم وموظفًا وسائل وأساليب كان لها الأثر البالغ في معالجة قلوبهم وتعديل سلوكهم وتزكية نفوسهم فامتثلت مع ما يلي :

أولاً: موعظة النبي ﷺ لأصحابه

فقد كانت بأحاديث ومواعظ تستفزُّ عواطفهم لدرجة تهيج أعينهم بالبكاء، ومن ثمَّ استعدادهم إلى التَّضحية بأرواحهم في سبيل الدِّفاع عن النبي ﷺ ودعوته، ويتَّضح ذلك من خلال أحاديثه المنيعة التي كان فيها النبي ﷺ القدوة المثلى المتميزة في معالجة نفسيات شتى، ومما لا يغيب عنه ﷺ مراعاة مدى استعداد النفوس للموعظة، فيتخير الفرص والزَّمن المناسب مخافة أن تكون السَّامة حائلًا دون غائية، جاء عن ابن مسعود ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السَّامة علينا»⁽²⁾ وكان يأتيهم ﷺ بمواعظ هادفة ومؤثرة، يراعي في ذلك أحوالهم، فلا يُثقل عليهم بالمواعظ ولا يطيل عليهم الكلام، لأنه يعلم أثره السلبي على النفس كالممل والسَّامة والشُّعور بحالة التَّشبع بالتكاليف، ومن ثمَّ فإنَّ مداومة الحديث وكثرة الوعظ والإطالة على النَّاس وإتيانهم في غير الوقت المناسب يكون له أثرًا عكسيًّا، جاء عن أبي نجيح العرياض بن سارية ﷺ: «أنَّ النبي ﷺ وعظنا يومًا بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال رجل: إنَّ هذه موعظة مودِّع يا رسول الله»⁽³⁾، ممَّا سبق من موعظته ﷺ للصَّحاب الكرام نستشفُّ أنَّ موعظته -ﷺ- كانت تخاطب الجانب العاطفي بالدرجة الأولى، ممَّا جعلهم يشعرون وكأنَّه يودِّعهم، فوجلت

(1) - محمد أمين حسن محمد بن عامر، أساليب الدَّعوة والإرشاد، المرجع السَّابق، ص 78.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدَّعوات، باب الموعظة ساعة بعد ساعة، رقم الحديث 6411، ص 1957.

(3) - رواه الترمذي في سننه الجامع الكبير، تحقيق: بشار عواد معروف، كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسَّنة واجتناب البدع، رقم الحديث 2676، ج 4، المصدر السَّابق، ص 341.

قلوبهم وعلى صفحات العيون رسمت حروفاً من الدُموع، والمتأمل في مواعظه ﷺ يجدُّها تُبعثُ إلى الارتياح النفسي والأنس والقبول، فيقول عنه الحافظ ابن حجر رحمه الله معلِّقاً: (وفيه رفقُ النبي ﷺ لأصحابه وحسن التَّواصل إلى تعليمهم وتفهمهم ليأخذوا عنه بنشاطٍ لا عَنْ ضجرٍ ولا ملل)⁽¹⁾ يقول تعالى في هذا الشأن: **ثُمَّ فَإِنَّ الذِّكْرَ نَفْعُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴿٥٥﴾ [الذَّارِيَات: 55] ويقول الإمام ابن جرير الطَّبري رحمه الله في الآية: (وعظُ يا مُحَمَّدُ مَنْ أُرسلت إليه، فَإِنَّ العظة تنفع أهل الإيمان)⁽²⁾.

و عليه يمكن للدَّاعية أَنْ يستفيدَ من هذا الأسلوب النبوي كالآتي:

- أَنْ يسلك مسلك النبي ﷺ في التماسِ الموعظة التي تستقرُّ في القلب.
- يقتني أثره ويسلك منهجه، فيتعلَّم منه كيفية التأثير والوصول إلى القلوبِ عَنْ طريقِ الموعظة الهادفة
- أَنْ يسلك مسلك الموعظة الحسنة حتَّى يحقِّق بها نجاحًا ويدفع بعجلة الدَّعوة قُدماً.
- كما على الدَّاعية مراعاة أحوال النَّاسِ بعدم الإكثارِ عليهم والإطالة في موعظتهم، فهي مِنْ الآفات التي تصيب النَّفس الملل والسَّامة، والتي تورث حالة التشبُّع بالتكاليف وتقاصر الهمم عَنْ الحضور، فبعض الدَّعاة يبالغ في حديثه فإذا تكلم لا يسكت حتَّى يُقال عنه ليتهُ سكت، وبعض الدَّعاة إذا سكت يقول النَّاس عنه ليتهُ لم يسكت، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ مداومة الحديث والإطالة وإتيان النَّاس في غير الوقتِ المناسبِ يكون سبباً في إملالهم.
- كما على الدَّاعية أَنْ يختار الموعظ المؤثرة في مضمونها وطريقة عرضها، بشرطِ أَنْ لا يطيل الكلام الذي يسبِّبُ التُّقور والملل خصوصاً في الخطب المنبرية، والخطابات الجماهيرية، وفي المحاضرات والندوات، والإحتفالات العامة ...
- على الدَّاعية أَنْ ينظر في مواطن الرِّحمة عند معاملته للنَّاس وتوجيههم بالتي هي أحسن، يراعي في ذلك ظروفهم وأحوالهم ومستواهم الفكري والعقلي والعلمي، إلّا أَنْ المتأمل في واقع الدَّعوة يلاحظ وقوع بعض الإشكالات التي تنتاب الممارسين لها عند فئةٍ مِنَ الدَّعاة، نجدهم عند مباشرتهم للدَّعوة بمعزل عن التَّفاعل مع المدعو بدراسة أحواله واختيار الوقت الملائم لموعظته، والمدعو هنا هو العنصر الرئيسي الذي تقوم عليه الدَّعوة، له أحوال خاصَّة يتأثر بها.

(1) - ابنُ حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخوَّلهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، رقم الحديث 68، ج 1، ص 162.

(2) - ابنُ جرير الطَّبري، تفسير الطَّبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج 21، المصدر السابق، ص 533.

- ومن ناحية أخرى يجب أن تكون موعظة الدَّاعية إلى الله مثيرة، يختار الألفاظ الجَزيلة والكلمات الواضحة، وهذا طبعاً على حسب الموضوع، فإن كان يريد أن يعظ النَّاس للمشاركة في محاربة الفساد الأخلاقي والسياسي والاجتماعي يجب أن تكون موعظته حماسية، وإن كان لعمل الآخرة تكون مرققة للقلوب وهكذا، إذا فالموعظة في الدَّعوة إلى الله تشكُّل قاعدة كبرى، لها وقع في النَّفس وتأثير في القلب إذا صُدرت من قلب صادق ناصح سليم، ذو عاطفة إيمانية قويَّة مؤثِّرة، وبدون شك سيجدُّ من خلالها الدَّاعية توافد النَّاس إليه، فينبسطون لمواعظه، ويستريحون لسماعه، فيكون بذلك مفتاح الإستجابة إن شاء الله.

ثانياً: موعظة النَّبي ﷺ للأعرابي الجاهل

لقد استعمل النَّبي ﷺ هذا الأسلوب في العديد من المواقف، فقد كان يعظ الصَّغير والكبير والذكر والأنثى والحرَّ والعبد، وما كان يخصُّ به النساء يعلمهنَّ أمور دينهنَّ، ووعظه لأصحابه وحثَّهم على أعمال الخير ونهيهم عن الشرِّ⁽¹⁾ فكانت موعظته - ﷺ - للأعرابي مثالاً على ذلك، كانت بمثابة الدَّرس العملي عن كيفية أداء الموعظة لأجلاف النَّاس، جاء عن أنس بن مالك ﷺ قال: «بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ، إذ جاء أعرابيٌّ فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله: مه مه، قال: قال رسول الله لا تزرموه^(*) دعوه، فتركوه حتَّى بال، ثمَّ إنَّ رسول الله ﷺ دعاه فقال له: إنَّ هذه المساجد لا تصلحُ لشيءٍ من هذا البول ولا القدر، إمَّا هي لذكر الله والصَّلَاة وقراءة القرآن»⁽²⁾، والمتأمل في الحديث يستوحي أنَّ النَّبي ﷺ بعاطفته الفدَّة منع صحابته من تعنيف الأعرابيِّ لما شرع يبول في المسجد على الرُّغم أنَّه مُنكرٌ تستقبُّه الطُّباع السَّليمة، ليلقي موعظته ﷺ فتسرَّب إلى سويداء قلبه وذلك لأنَّ إيقاف بوله عنه مضرٌّ ببدنه، وتقديراً لمصلحة الدَّعوة فالعبرة من هذا الأسلوب النبوي - عند توظيفه في موعظة النَّاس وتوجيههم - أن يكون برفقٍ ولينٍ دون اللُّجوء إلى الغلظة والخشونة التي تسبب النفور والإعراض، نظراً لعظمة هذا الحديث الذي جرى بين النَّبي ﷺ

(1) - فواز بن مبيريك حماد الصَّعدي، الأساليب التَّربوية النَّبوية المتبعة في التَّوجيه وتعديل السُّلوك وكيفية تفعيلها مع طلاب المرحلة الثَّانوية بنين، بحث مكمل لنيل درجة الماجستير في التَّربية الإسلامية والمقارنة، جامعة أمِّ القرى، كُلية التَّربية، قسم التَّربية الإسلامية والمقارنة، 1430هـ/2009م، ص 184.

(*) - لا تزرموه: أي: لا تقطعوا عليه بوله. يُقالُ زَرِمَ الدمعُ والبولُ إذا انقطعَا، (يُنْظَر: ابنُ الأثير، النَّهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي وآخر (بيروت: المكتبة العلمية، د، ط، ج2، 1399هـ/1979م)، ص 301.

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطَّهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النَّجاسات إذا حصلت في المسجد، رقم الحديث 285، ص 144.

والأعرابي وما يحويه من مزايا جليلة للدعوة إرتأيت أن أقف على بعض الحُكم والأساليب العاطفية المستوحاة من هذا الحديث وهي كالآتي :

أ- تأليف قلب الرجل

أسلوب التأليف من الأساليب المهمة في الدعوة إلى الله، وهي نافعة ومتنوعة، إستخدمها النبي ﷺ في دعوته كثيراً، منها على سبيل المثال: عندما زار أم حرام في بيتها في قباء، وطعم ونام واستيقظ وهو يضحك وقال: «عرض علي أناس من أمي يركبون ظهر البحر الأخضر كالمملوك على الأسرة، فقالت أم حرام (*)»: يا رسول الله فادع الله أن يجعلني منهم، قال: اللهم اجعلها منهم»⁽¹⁾ والداعية تبعاً لرسول الله ﷺ وهو قدوته ، يجب أن ينوع في تأليف مدعوّيه تارةً بالدعاء، وتارةً بالترغيب وإلى غير ذلك، يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله مبيّناً دعاء النبي ﷺ للمشركين: (... كان تارةً يدعو عليهم، وتارةً يدعو لهم، فالحالة الأولى حيث تشتد شوكتهم ويكثر أذاهم، والحالة الثانية حيث تؤمن غالتهم ويرجى تألفهم ...) ⁽²⁾ بهذا الأسلوب القوي استطاع النبي ﷺ أن يأخذ بقلب الأعرابي، أن أشفق عليه عند ارتكابه الخطأ دون توبيخه أو زجره أو احتقاره، فما آل به ﷺ أن صارحه بقول: أخطأت، دون مهاجمته بكلام جارح فضّ، ممّا جعل الأعرابي يردّد مقولته: «اللهم إرحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً» لأن النبي ﷺ كان يعلم يقيناً الثمار التي يجنيها أسلوب التأليف وأثره على القلب، وذلك أن القلب هو وعاء العاطفة وهو مصدر الحبّ، وهو محل الإيمان وبه يكون الإقبال والإدبار، ومنه يكون الإقدام والإحجام، لذلك عمّد عليه الصلّاة والسلام إلى تأليف قلب الأعرابي بالأسلوب القوي عن طريق الكلمة الطيبة، وبالأسلوب العملي بالترفق له وإحجامة عن الخطأ بلين دون إحالته إلى الضرب والعقاب.

(*) - أم حرام: هي الأنصارية أم حرام بنت ملحان مالك بن خالد بن غنم من بني عدى بن النجار من الخزرج، وأمها مليكة بنت مالك من بني النجار، وأم حرام هي خالة الصحابي أنس بن مالك فأختها أم سليم وقد كُتبت أم حرام لأخيها الصحابي حرام بن ملحان، تزوّجت عمرو بن قيس من بني النجار، وولدت له قيساً وعبد الله، وبعد إستشهاد زوجها وإبناها قيس تزوّجها الرسول الله ﷺ فولدت له محمد (يُنظر: شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، كتاب الجهاد، باب التّغيب في الجهاد، رقم الحديث 1026، ج3، ص- ص 55، 57)، و(عبد الصبور شاهين وآخر، مهاجرات أنصاريات روايات، نخضة مصر للطباعة والتوزيع، ص 236).

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة المرأة في البحر، رقم الحديث 2877، ص710.

(2) - سعيد بن علي بن وهف القحطاني، فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري (الدراسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة، ط1، 1421هـ)، ص 192.

فكان التنبيه النبوي للدّاعية ما يلي : معرفة حال المدعو وظروفه ، وأن يسلك السُّبل التي تربطه بالنّاس وتؤثّر في قلوبهم، لأنّ القلوب ترتاح لمن يأتيها من المداخل التي تريحها، ويتحقّق ذلك بأسلوب التّأليف، وقد تجسّد هذا الأسلوب في دعوة النبي ﷺ فكان يتعامل مع كلّ بحسبه، فيعطي محبّي المال شيئاً يتألّف به قلوبهم، ويتعامل مع حديثي العهد بالإسلام بما يرسّخ الإيمان في قلوبهم يؤلّفهم ببذل العطاء العظيم كما فعل في حنين⁽¹⁾ وكان يتألّف ﷺ النّاس بما يعلم فيه صلاحهم ويتناسب مع حالهم، فإن كانوا ممن يؤثّر المال تألّفهم بالمال، وإن كانوا سوى ذلك تألّفهم بالعفو وهكذا، يقول تعالى:

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: 199].

ب- الرّفق و اللّين

كان النبي ﷺ يري أصحابه ويوجّههم بهذا الأسلوب في السّراء والضّرّاء، في الحرب والسّلم، في البيت والمسجد ولاسيما الأعراب، فقد كان يعاملهم بالمثل، والشّاهد من الحديث إلى أيّ حدّ كان النبي ﷺ ليناً ورفيقاً بالأعرابي، فصنّعه يُبعث على الغضب، ولهذا غضب الصّحابة فكادوا أن يقعوا فيه لكنّ النبي ﷺ قال: «دعوه»، وبعد أن فرغ الأعرابي، دعاه النبي ﷺ وأخذ يعلمه في رفقٍ ولينٍ قائلاً له كما في رواية مسلم: «إنّ هذه المساجد لا تصلح لشيءٍ من هذا البول ولا القدر، إنّما هي لذكر الله والصّلاة وقراءة القرآن»⁽²⁾ بيّن الحديث تعامل النبي ﷺ مع الأعرابي الجاهل الذي أخطأ وكيف بيّن له خطأه بلينٍ وبرفقٍ دون غلظة أو ضجر أو تعنّف، في حين نجد تعامله مع المعاند والمتعمّد بأسلوبٍ آخر، فالرفق بالجاهل وتعليمه ما يلزمه من غير تعنيف إذا لم يكن ذلك منه عناداً، ولاسيما إن كان ممن يُحتاج إلى استئلافه⁽³⁾، في هذا درس وعبرة للدّعاة فإذا رأوا جاهلاً أو معوجاً قوّموه بالرفق واللّين والرّحمة، لا بالعنف والغلظة والتي لا يأتي من ورائها خيرٌ، وما أهون الهدم وما أصعب البناء، والنّفس بطبيعتها جبلت على حبّ من يُحسن إليها يقول تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: 63] يقول الأستاذ

(1) - عبد الرّحمان حسن حبّنة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها (دمشق: دار القلم، ط3، ج 2، 1413هـ/1992م)، ص 196.

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطّهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النّجاسات إذا حصلت في المسجد، رقم الحديث 285، ص 144.

(3) - محمّد صالح المنجد، الأساليب النبوية في معالجة الأخطاء (دار الوطن للنشر، د، ط، د، ت)، ص 26.

سيد قطب رحمه الله: (عندما نلمس الجانب الطيب في النفوس نجد أن هنالك خيراً كثيراً قد لا تراه العيون أول وهلة ... حتى الذين يبدو في أول الأمر أنهم شرّيون فقراء الشعور شيء من العطف على أخطائهم، وحمافتهم، شيء من الود الحقيقي لهم، وشيء من العناية غير المصطنعة باهتماماتهم وهمومهم... ثم ينكشف النبع الخير في نفوسهم حين يمنحونك حبهم ومودتهم وثقتهم في مقابل القليل الذي أعطيتهم إيّاه في نفسك، متى أعطيتهم إيّاه في صدق وصفاء وإخلاص⁽¹⁾) وبالتالي فتوجيه القلوب نحو الإيمان وجادة الصواب يحتاج من الدعية إلى خبرة بتلك القلوب التي يراد تحريكها ومعرفة الدوافع التي جبلت عليها، وعليه يعدّ هذا الأسلوب من أعظم الحكم التي رسمها النبي ﷺ لأُمَّته والدعاة من بعده، لتكون لهم طريقاً ونهجاً سليماً وحجة وعبرة يقتدى بها عند دعوتهم وتأثيرهم على أفهام الناس، وهو ما ترك أثراً كبيراً في حياة الأعرابي ومن على شاكلته، وليتعلّم كل داعية إلى الله كيفية التعامل مع الجاهل والغافل بمثل ما تعامل به النبي ﷺ مع الأعرابي، وبهذا فإنّ اللين والرفق بالمدعويين أسلوب لا يخب في تحقيق أفضل النتائج.

ج- فقه إنكار المنكر

إنّ الحديث أشار إلى عنصر مهم في الدعوة إلى الله وهو فقه تغيير المنكر، وهذه قاعدة أساسية إتبعها النبي ﷺ في مواجهة خطأ الأعرابي الجاهل، وطريقته المثلى في تغيير هذا المنكر، فنظر في عواقب الأمور، بأنّ الأمر يدور بين احتمالين، إمّا أن يمنعه وإمّا يتركه، وأنّه لو منع فإمّا أن ينقطع البول فعلاً فيحصل على الأعرابي ضرر من احتباس بوله، وإمّا أن لا ينقطع ويتحرّك خوفاً منهم فيزداد انتشار النجاسة في المسجد أو على جسد الرجل وثيابه، فرأى ﷺ بثاقب نظره أنّ ترك الأعرابي يبول، هو أدنى المفسدتين وأهون الشرّين، خصوصاً وأنّ الرجل قد شرع في المفسدة، والنجاسة يمكن تداركها بالتطهير، فأمر أصحابه: «دعوه لا تزموه» بالكفّ لأجل المصلحة الراجحة، وهي دفع أعمّ المفسدين باحتمال أيسرهما وتحصيل أعمّ المصلحتين بترك أيسرهما إليه⁽²⁾، ويبلغ الأخير مداه حينما يُعلم النبي ﷺ الأعرابي الجاهل بالأمر والجواب عليه دون أن يصارحه بقوله: أخطأت، وهذا قمة التعامل وقمة المشاعر التي خصّها النبي ﷺ في دعوته بل وفي حياته كلّها، يحسن التصرف في مختلف المواقف، ويراعي كلّ أمر بما يناسبه، ويوجّه المدعويين بما يناسب أحوالهم ومستواهم وإدراكهم، ويختار أفضل الطرق والأساليب والوسائل الملائمة لواقع الدعوة والمدعو، فالموعظة عند النبي ﷺ غالباً ما

(1) - سيد قطب، في ضلال القرآن، ج1، المرجع السابق، ص 1781.

(2) - محمد صالح المنجد، الأساليب النبوية في التعامل مع أخطاء الناس، المرجع السابق، ص 51.

تسوق بالمدعو إلى التّفكّر والتّأمّل كثيراً، ومراجعة خطّاه أو إعترافه بالخطأ، فتدفعه أن تكون نقطة تحوّل في حياته، وهو ما وقع فعلاً مع هذا الأعرابي الجاهل، والدّاعية إلى الله في أمس الحاجة إلى هذا الأسلوب المثالي، يحتمل جهل المخطئ في الوقت نفسه يرشده إلى الصّواب برفقٍ دون ضجرٍ، والمطلّع على سنّة النبي ﷺ ودعوته وأسلوبه المذهل في تعليم الأعراب والجهلة يرى التشابه بين أخطاء الأعراب في العصر النبوي وفي العصر الحاضر ممّا يُظهر لنا أهميّة الاستفادة من هذا المنهج كآلاتي :

- إنّ النبي ﷺ بهذا الأسلوب خطّ للدّعاة من بعده منهجاً في التّعامل مع أخطاء المدعوين خصوصاً ممّن يقعون في الأخطاء الشرعية والسلوكية والأخلاقية متمثّل في "المنهج العاطفي"، يتجنّب فضحه أو تعييره أمام النّاس بعنف أو إحتقار أو سخرية، وهذا الأخير يتولّد لدى المدعو المخطئ مكتسبات سلبية تؤثر حتماً على الدّعوة، أوّلاً وعلى الدّات الشخصية ثانياً.

- إنّ فضح المدعو ونهيه أمام النّاس يوقع الشّعور بالإذلال وضعف الشخصية، وفي هذا يؤدّي إلى ذوبان حبّ الدّات وعزّة النّفس التي يحملها قلب المدعو خصوصاً المخطئ فتبقيه على حالة من التّشبّث بالخطأ والإصرار عليه، وهذا يشكّل خطراً على الدّعوة ومنهجها.

- الدّعوة إلى الله ليس هدفها تصحيح أخطاء المدعوين فقط، وإنّما هي عرضٌ لمبادئ الإسلام وأحكامه الشرعية بأساليب مؤثّرة ووسائل مناسبة لتأسيس التّصورات وتثبيتها في النّفوس .

- إنّ الدّعوة إلى الله أحوج إلى من يمثّل لأخلاق النبي ﷺ العالية، يسعى إلى إصلاح النّزاع ومعالجة الأخطاء حتّى ولو كان الأمر بينه وبين صنوف المدعوين كالجهلة مثلاً، بأسلوبٍ حكيم وعاطفة جيّاشة مراعيّاً حالهم وحاجاتهم ومستواهم دون ضجر وتعنّفٍ، يتحلّى بالصّبر والحلم ويظهر معالم الحبّ ويعاملهم بقدر عقولهم.

ثالثاً: موعظته وموقفه يوم حنين

لقد أبدع النبي ﷺ في موعظته للنّاس بشقّي الوسائل والطّرق، فلم يكتفِ بالقول فقط، وإنّما كان للعمل الأثر البالغ في استجابة المدعوّين، في محاولة تأليفهم على الحقّ والأخذ بأيديهم برفقٍ حتّى يؤمنوا به ويدعّوا إليه، فكان التّأليف أحد أساليب دعوة النبي ﷺ، تجلّت بوضوح عند موقعة حنين حينما رأى ﷺ أن يتألّف الطّلقاء(*) والأعراب بالغنائم وذلك لحداثة عهدهم بالإسلام، وكانت غنائم

(*) - الطّلقاء: بضمّ الطّاء وفتح اللّام وبالمدّ، وهم الذين أسلموا يوم فتح مكّة، وهو جمع طليق، يقال: ذاك لمن أطلق من أسار أو وثاق، قال القاضي في المشارق: قيل لمسلمي الفتح الطّلقاء لمن النبي ﷺ وعليهم (يُنظر: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن

المسلمين حينها كبيرة جدًا حوالي ستّة آلاف من النساء والأطفال، وأربعة وعشرين ألفًا بغير وأربعين ألف شاة وأربعة آلاف أوقية فضّة، فأمر النبي ﷺ أن يقسّمها فكان النّصيب الأوفر للمؤلّفة قلوبهم^(*) أولى النّاس، فأعطى أبا سفيان مائة من الإبل وأربعين أوقية، وأعطى ابنه يزيدًا مثل ذلك، وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل ثمّ سأله مائة فأعطاه⁽¹⁾، والنّظر بن الحارث، وغيرهم من أشرف قريش فأكثر وأجزل ثمّ أمر بإحضار الغنائم والنّاس ففرضها عليهم⁽²⁾ فكان يعطي هؤلاء عطاء من لا يخشى الفقر حتّى نفدت الغنائم، وكان الهدف من هذا العطاء المجزي هو تحويل قلوبهم من حبّ الدّنيا إلى حبّ الإسلام⁽³⁾ حتّى عبّر عنه ابن شهاب في حديث صفوان بن أميّة قائلاً: «لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنّه لأبغض النّاس إليّ فما برح يعطيني حتّى أنّه لأحبّ النّاس إليّ»⁽⁴⁾ فالتأليف هنا من قبيل الإغراء والتشجيع حتّى يخالط الإيمان بشاشة قلوبهم ويتذوّق حلاوته، يوضّح الشّيخ الغزالي رحمه الله حقيقة هذا الأسلوب وأثره في الدّعوة إلى الله في مثال محسوس فقال: (...إنّ في الدّنيا أقواماً كثيرين يقادون إلى الحقّ من بطونهم لا من عقولهم فكما تهدى الدّواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظلّ تمُدُّ إليه فمهما حتّى تدخل حظيرتها آمنة، كذلك هذه الأصناف من البشر تحتاج إلى فنون الإغراء حتّى تستأنس بالإيمان وتهشّ له)⁽⁵⁾، لقد تأثّر الأنصار من هذا العطاء تأثّرًا كبيرًا بحكم طبيعتهم البشرية،

الحجاج المسمى بشرح النّووي على مسلم، كتاب الزّكاة، باب إعطاء المؤلّفة قلوبهم على الإسلام، رقم الحديث 1059، المرجع السّابق، ص 666).

(*) - المؤلّفة قلوبهم: هم السّادة المطاعون في عشائهم ممّن يرجى إسلامه أو يخشى شرّه أو يرجى بعطيته قوّة الإيمان منه أو إسلام نظيره، أو جباية الزّكاة ممّن لا يعطيها أو الدّفع عن المسلمين، (يُنظر: ابن جرير الطّبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، ج10، المصدر السّابق، ص 161. ويعرّف ابن حجر المؤلّفة قلوبهم بأنهم: (ناس من قريش، أسلموا يوم الفتح إسلامًا ضعيفًا، وقيل: كان فيهم من لم يسلم بعد كصفوان بن أميّة، وقد اختلف في المراد بالمؤلّفة قلوبهم الذين هم أحد المستحقّين للزّكاة، فقيل: كفار يعطون ترغيبًا في الإسلام، وقيل: مسلمون لهم أتباع كفار ليتألفوهم، وقيل: مسلمون ما دخلوا في الإسلام ليتمكّن الإسلام من قلوبهم) (يُنظر: ابن حجر، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ج8، المرجع السّابق، ص 48).

(1) - يُنظر: علي محمّد الصّلابي، السّيرة النّبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنّشر والتّوزيع، ط4، 1429هـ/2008م)، ص-ص 788، 789.

(2) - أبو الحسن علي الحسيني النّدوي، السّيرة النّبوية (جدة: دار الشروق للنّشر والتّوزيع، ط8، 1410هـ/1989م)، ص 355.

(3) - يُنظر: علي محمّد الصّلابي، السّيرة النّبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، المرجع السّابق، ص 789.

(4) - النّووي، المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج المسمى بشرح النّووي على مسلم، كتاب الفضائل، باب ما سُئل رسول الله ﷺ شيء قطّ فقال: لا وكثرة عطائه، رقم الحديث 2312، المرجع السّابق، ص 1428.

(5) - محمّد الغزالي، فقه السّيرة (دمشق: دار القلم، ط1، 1427هـ/2006م)، ص394.

فتردّدت منهم المقالة عندما أعطى نبيّ الله محمد ﷺ من تلك العطايا قريش وقبائل العرب ولم يكن في الأنصار منها شيء، فكثرت منهم المقالة حتّى قال قائلهم: «لقيَ والله رسول الله ﷺ قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله، إنّ هذا الحيّ من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا القيّء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطائاً عظيماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحيّ من الأنصار منها شيء، قال: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: يا رسول الله، ما أنا إلاّ من قومي، قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة، فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردّهم، فلمّا اجتمعوا له أتاه سعد فقال: لقد اجتمع لك هذا الحيّ من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله، وأثني عليه، ثمّ قال: يا معشر الأنصار، ما قاله بلغني عنكم، وجدّة(*) وجدتموها على في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهذاكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بلى، الله ورسوله أمّن وأفضل، ثمّ قال: ألاّ تحيوني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المن والفضل، قال: أما والله لو شئتم لقلت، فصَدَقْتُمْ ولصُدِّقْتُمْ: أتيتنا مُكذِّباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فأويناك، وعائلاً فأسَيْنَاكَ، أوجدْتُمْ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لَعَاةٍ(*) من الدُّنيا تَأَلَّفْتُ بها قوماً لِيُسَلِّمُوا، ووَكَّلْتُكم إلى إسلامكم؟ ألاّ ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب النَّاسُ بالثَّاءِ والبعير، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكُم؟ فو الذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك النَّاسُ شِعْباً، وسلك الأنصار شِعْباً لسلك شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار، فبكى القوم حتّى أخضَلُوا لِحَاهُم وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قَسَمًا وحظاً، ثمّ انصرف رسول الله ﷺ، وتفرَّقوا⁽¹⁾ وفي حديث آخر عن أنس بن مالك ﷺ قال: «قال ناس من الأنصار حين أفاء الله على رسوله ﷺ ما أفاء من أموال هوازن،

(*) - جدّة: مصدر وجد، أي: وجدتم في أنفسكم شيئاً، (يُنظر: السِّيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري

(بيروت: دار الكتاب العربي، ط3، 1410هـ/1990م)، ص 138

(*) - اللُّعَاة: تعني الخصب، أو شجرة خضراء شبه بها نعيم الدُّنيا (السِّيرة النبوية لابن هشام، المرجع نفسه، ص 138) وهي بقلة خضراء وناعمة، شبه بها زهرة الدُّنيا ونعمها. (أبو الحسن الندوي، السِّيرة النبوية، المرجع السابق، ص 355).

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف في شوال سنة ثمان، رقم الحديث 4330، ص 1059. السِّيرة النبوية لابن هشام، علّق عليها وخرّج أحاديثها وصنّف فهارسها عمر عبد السلام تدمري (بيروت: دار الكتاب العربي، ط3، 1410هـ/1990م، ص-ص 137، 138) و(إئذ جرير الطبري، تاريخ الطبري تاريخ الأمم والملوك، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، ج2، د، ت)، ص 177. (وصفي الرّحمان المباركفوري، الرّحيق المختوم، المرجع السابق، ص 410).

فطفق النبي ﷺ يعطي رجالاً المئة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، قال أنس رضي الله عنه: فحدث رسول الله ﷺ بمقاتلتهم، فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من آدم، ولم يدع معهم غيرهم، فلما اجتمعوا قام النبي ﷺ فقال: ما حديث بلغني عنكم؟ فقال فقهاء الأنصار: أمّا رؤسائنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً، وأمّا ناسٌ منا حديثه أسناهم فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال النبي ﷺ: فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم، أمّا ترضون أن يذهب الناس بالأموال وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم؟ فو الله تنقلبون به خير مما ينقلبون به، قالوا: يا رسول الله قد رضينا، فقال لهم النبي ﷺ: ستجدون أثره شديدة، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله فإني على الحوض، قال أنس رضي الله عنه: فلم يصبروا⁽¹⁾ بدأ أثر منهج النبي ﷺ العاطفي واضحاً جلياً من خلال:

- موقفه ﷺ مع الأنصار، تمثل في أروع صوره وأبلغ تأثيراته، والذي صدر عنه نوع من الاعتراض في البداية بحكم الطبيعة البشرية، لكن النبي ﷺ راعى هذا الاعتراض وعمل على إزالته بحكمة وبرفق، فكانت النتيجة أن إنقادوا طائعين مختارين راضين بقسمة الله تعالى ورسوله، والأثر الآخر الذي أحدثه خطاب النبي ﷺ وهو خطاب الحاكم لرعيته والدعاء لهم بالخير ولأبنائهم وأحفادهم وهو جالب لمحبة الرعية لراعيها وثقتهم فيه
- الدعاء لهم ولأبنائهم فيه بُعد تربوي عميق ومقصد عظيم، وهو دعوة ضمنية إلى تربية النشء الصالح والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، فالدعاء للولد من أكبر دواعي تحريك العاطفة
- تقم الغنائم على الرعية دون أن يبقى الحاكم لنفسه شيئاً، وهو قمة الافتقار إلى الله والتوكل عليه وهو مسلك النبي ﷺ وصحابته وخلفائه.

لقد اتبع النبي ﷺ مع الأنصار منهجاً تربوياً فريداً وخاطبهم خطاباً إيمانياً عقلياً وعاطفياً وجدانياً يتأثر له كل قارئ على مرّ العصور والأزمنة عندما يمرّ بهذا الحدث العظيم⁽²⁾، فكان حبه للأنصار بارز وفريد، كيف ولا وقد ربط علامات الإيمان في حبّ الأنصار فقال: «آية الإيمان حبّ الأنصار»⁽³⁾ فكان بهذا الإيمان القلبي وهذا المنهج العاطفي هدفه هو تأليفهم وتثبيتهم وتحويل قلوبهم من حبّ الدنيا إلى حبّ الإسلام، بعد أن يخالط الإيمان بشاشة قلوبهم، ويتذوّقون حلاوته، ويتربون

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف في شوال سنة ثمان، رقم الحديث 4331، ص 1059.

(2) - أمير بن محمد المدرى، غزوة حنين دروس وعبر، سلسلة غزوات النبي ﷺ دروس وعبر pdf، د، ط، د، ت، ص 32.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حبّ الأنصار، رقم الحديث 17، ص 17.

في مدرسته ⁽¹⁾ وقد حدث ذلك ، كما تجلّت أيضًا سمة في أسلوب النبي ﷺ في حين، الصبر على جفاء الأعراب، فكان مثالاً للمربي الذي يصبر، يبين لهم الدين بحكمة ورفق، ويعاملهم على قدر عقولهم، فكان بهم رحيماً ولهم مربيّاً، وعلى أذاهم صابراً، ومع علوّ قدره ومنزلته كان كأحد أصحابه يخاطبونه ويعاتبونه، ولا يحتجّب عنهم قط ، كما ضرب النبي ﷺ للأنصار صورة مؤثرة، قومٌ يبشّرون بالإيمان يقابلهم قومٌ يبشّرون بالجمال، وقومٌ يُضجّبهم رسول الله ﷺ، يقابلهم قوم يصحبهم الشاة والبعر، لقد أيقظتهم تلك الصّور، وأدركوا أنّهم وقعوا في خطأ ما كان لأمثالهم أن يقع فيه، فانطلقت حناجرهم بالبكاء وماقيهم بالدموع، وألستهم بالرضا، فطابت نفوسهم واطمأنت قلوبهم بسياسة النبي ﷺ الحكيمة في مخاطبتهم ⁽²⁾، فالتأليف بالمال والعطايا والهدايا من السياسات العاطفية الحكيمة التي انتهجها النبي، وذلك بهدف تلافي الإحن، وتجميع القلوب فتجعلها متهيّئة للنظر في صدق الدّعوة وصحة العقيدة، يوضح الإمام ابن القيم رحمه الله أثر التّغيب بالعطاء - المال والغنائم - في الدّعوة إلى الله بالقول: (وهو جازر لما فيه من تقوية الإسلام وإزالة الكفر بجلب قلوب رؤوس القبائل والعشائر الذين إذا غضبوا غضب لغضبهم أتباعهم وإذا رضوا لرضاهم، فإذا أسلم هؤلاء لم يتخلّف عنهم أحد من قومهم، فو الله ما أعظم موقع هذا العطاء وما أنفعه للإسلام وأهله، ولو وضع الغنائم بأسرها في هؤلاء لمصلحة الإسلام العامة، لما خرج عن الحكمة والمصلحة والعدل، وقد أثرت هذه السياسة في كثير من أعداء الإسلام، فلانت قلوبهم ورضت نفوسهم فأحبّوا الإسلام ودخلوا فيه) ⁽³⁾ بمثل هذا الأسلوب وقوّته المبهرة في التأثير، يدفع بالدّعوة إلى الله قدماً إلى الأمام، والدّاعية إلى الله بحاجة إلى هذا المنهج الأخلاقي ليحقّق بذلك بقاء الدّعوة الإسلامية نابضة حيّة في القلوب، ومهما بلغت الدّعوات الأخرى في العطاء والأخلاق فلن تبلغ مبلغ دعوة النبي ﷺ، وهو ما يستوجب على الدّاعية إقتفاء أثره ﷺ والاستفادة من أسلوبه كالآتي :

- تقسيم الغنائم فائدة خلقية وعملية قام بها النبي ﷺ لتحقيق غرض دعوي، وهو تأليف حديثي عهد بالإسلام ، وهذا يلّمح إلى كرم النبي ﷺ وجوده المنقطع النّظير إلى حدّ أن يعطي مئات الإبل لأفراد لم يتقاسموا معهم مشقّات الطّريق، ولكنّها الحكمة النبوية الرائعة، فالمال بالنسبة للدّاعية أو القائد الرّبّاني لا يعني له شيئاً وإنّما يعنيه مصلحة الدّعوة .

(1) - النّووي، المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج المسمى بشرح النّووي على مسلم، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيء قط فقال: لا وكثرة عطائه، المرجع السّابق، ص 1428.

(2) - محمّد علي الصّلاّبي، السّيرة النبوية، المرجع السّابق، ص 790.

(3) - ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد (الرّياض: دار البحوث العلمية، د، ط، ج 2، د، ت)، ص 192.

— غنائم حنين ملهمة لكل داعية إلى الله، بأن يتحلّى بخلق العطاء والكرم والسَّخاء بمثل ما تخلق به المصطفى ﷺ فكان أجود بالخير من الرِّيح المرسلة⁽¹⁾ وكان إذا سئل شيئاً أعطاه لا يردُّ سائله⁽²⁾، وقد انتقل إلى الرفيق الأعلى وما ترك ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا وليداً، وترك درعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين صاعاً من شعير⁽³⁾، وقد ملك جزيرة العرب، فهذا قَمَّة العطاء وأرفع الأخلاق وأقربها إلى التأثير في قلوب المدعوين المسلمين منهم أو غير المسلمين، عن أنس بن مالك ﷺ وهو يصف النبي ﷺ فيقول: «كان النبي ﷺ أحسن النَّاس، وأجود النَّاس، وأشجع النَّاس»⁽⁴⁾.

— إذا تأملنا موقف الأنصار من النبي ﷺ نجدُ هناك حباً كبيراً وطاعة مطلقة له، فرغم أنَّ الغنائم قد جُعِلَتْ لغيرهم إلاَّ أنَّهم لم يعارضوا سياسته، ووافقوا رأيه لاعتقادهم الجازم أنَّ ما يفعله النبي ﷺ إنما هو وحيٌّ من الله تعالى يقتضي الرِّضا والتَّسليم، وهذا أنموذجاً فريداً في الدَّعوة إلى الله نجح فيه النبي ﷺ فأسَّس مجتمع شابَّ يحكمه مبدأ العطاء قبل الأخذ، يوجَّهه الإيمان العميق في سكناته وحركاته، قدوتهم النبي ﷺ ومثالهم الأعلى في تجرُّده وإيثاره وعطائه⁽⁵⁾.

رابعاً: موعظة النبي ﷺ من خلال الخطب المؤثرة

تجلَّت موعظة النبي ﷺ في سيرته العطرة من خلال الخطب المنبرية المؤثرة، حيث كان يلامس عقول النَّاس وعواطفهم، ويختار الظروف المناسبة وبما يناسب قدرة أصحابه على تحمُّله، فالخطبة شُرِعت للموعظة وتذكير ومعالجة الأخطاء التي يقع فيها النَّاس بجِدٍّ، وكانت أوَّل خطبة خطبها النبي ﷺ عندما أقام بالمدينة واستجمع له إسلام حيِّ الأنصار، وذلك ما ورد عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ﷺ أنه أقام فيهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ، فَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ. تَعَلَّمَنَّ وَاللَّهِ لِيُصْعَقَنَّ أَحَدَكُمْ، ثُمَّ لِيدَعَنَّ غَنَمَهُ لَيْسَ لَهَا رَاعٍ، ثُمَّ لِيَقُولَنَّ لَهُ رُبُّهُ، وَلَيْسَ لَهُ تَرْجُمَانٌ وَلَا

(1) — أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصَّوم، باب أجود ما كان النبي ﷺ يكون في رمضان، رقم الحديث 1902، ص 458. وأخرجه أحمد في المسند، ج5، ص 358. وأخرجه الترمذي في السنن، وصحَّحه برقم 1666، ج3، ص 85.

(2) — أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب ذكر التَّساج، رقم الحديث 2093، ص 504. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قطَّ، فقال: لا، رقم الحديث 2311، ص 1805.

(3) — أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب، رقم الحديث 2916، ص 719. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب الرهن وجوازه في الحضر والسَّفر، رقم الحديث 1603، ص 1226.

(4) — أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب حُسن الخلق والسَّخاء وما يُكره من البُخل، رقم الحديث 6033، ص 1512.

(5) — عماد الدِّين خليل، دراسة في السِّيرة (بيروت: دار النَّفائس، ط2، ج1، 1425هـ)، ص 156.

حاجبٌ يَحْجُبُهُ دُونُهُ: أَلَمْ يَأْتِكْ رَسُولِي فَلَبَّغَكَ، وَآتَيْتُكَ مَالًا وَأَفْضَلْتُ عَلَيْكَ؟ فَمَا قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ؟ فَلْيَنْظُرَنَّ يَمِينًا وَشِمَالًا فَلَا يَرَى شَيْئًا، ثُمَّ لِيَنْظُرَنَّ قُدَّامَهُ فَلَا يَرَى غَيْرَ جَهَنَّمَ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقِيَ وَجْهَهُ مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقٍّ مِنْ تَمَرَةٍ فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِيكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ، فَإِنَّ بِهَا تُجْزَى الْحَسَنَةُ عَشْرَ أَمْثَالِهَا، إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ»⁽¹⁾ وَصَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ الْمِنْبَرَ يَوْمًا، وَكَانَ آخِرَ مَجْلِسٍ جَلَسَهُ مُتَعَطِّفًا مَلْحَفَةً عَلَى مَنْكِبَيْهِ، قَدْ عَصَبَ رَأْسَهُ بِعَصَابَةٍ دَسِمَةٍ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِلَيَّ، فَتَابُوا إِلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْأَنْصَارِ، يَقُولُونَ وَيَكْثُرُ النَّاسُ، فَمَنْ وَلِيَ شَيْئًا مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَاسْتَطَاعَ أَنْ يَضُرَّ فِيهِ أَحَدًا أَوْ يَنْفَعُ فِيهِ أَحَدًا، فَلْيَقْبَلْ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَيتجاوزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ»⁽²⁾ وَكَمَا جَاءَ فِي خُطْبَةِ حَجَّةِ الْوَدَاعِ حِينَما خُطِبَ قَائِلًا: «أَيُّهَا النَّاسُ، اسْمِعُوا قَوْلِي، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا، بِهَذَا الْمَوْقِفِ أَبَدًا، أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، إِلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، وَكَحُرْمَةِ شَهْرِكُمْ هَذَا، وَإِنْكُمْ سَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ وَقَدْ بَلَغْتُ، فَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا إِلَى مَنْ ائْتَمَنَ عَلَيْهَا وَإِنَّ كُلَّ رِبَاٍّ مَوْضُوعٌ، وَلَكِنْ لَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ، لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ قَضَى اللَّهُ أَنَّهُ لَا رَبًّا وَإِنَّ رَبَّ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ، وَإِنَّ كُلَّ دِمٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دِمَائِكُمْ أَضْعُ دَمِ رِبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ - وَكَانَ مَسْرُوعًا فِي بَنِي لَيْثٍ، فَقَتَلْتُهُ هُذَيْلٌ - فَهَوَّ أَوَّلُ مَا أَبْدَأُ بِهِ مِنْ دِمَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ.. أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ حَقًّا، لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوْطِئَنَّ فُرْشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، وَعَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذَنَ لَكُمْ أَنْ تَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ، وَتَضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مَبْرَحٍ، فَإِنْ انْتَهَيْنَ فَلَهُنَّ رِزْقُهُنَّ وَكَسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٍ لَا يَمْلِكُنَّ لَأَنْفُسِهِنَّ شَيْئًا، وَإِنَّكُمْ إِنَّمَا أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، فَاعْقِلُوا أَيُّهَا النَّاسُ قَوْلِي، فَإِنِّي قَدْ بَلَغْتُ وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا، أَمْرًا بَيْنَنَا كِتَابَ اللَّهِ وَسِتَّةً»⁽³⁾ إِنَّ الشَّاهِدَ مِنْ خِلَالِ خُطْبِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا كَانَتْ وَسِيلَةً نَاجِحَةً إِسْتَعْدَمَهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي دَعْوَتِهِ، وَكَانَتْ مُؤَثِّرَةً وَبَلِيغَةً فِي حُجَّتِهَا، عَاجَلَتْ قَضَايَا مُتَعَدِّدَةً مِنْ قَضَايَا الْإِسْلَامِ وَالْمَجْتَمَعِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَإِصْلَاحِ النُّفُوسِ وَكُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ

(1) - عبد السلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام (بيروت: مؤسسة الرسالة، دار البحوث العلمية، ط14، 1406هـ/1985م)، ص-ص 122، 123.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب من قال في الخطبة بعد الثناء أمَّا بعد، رقم الحديث 927، ص 224.

(3) - صفى الرحمان المباركفوري، الرِّحْقُ الْمُخْتَوِّمُ (مَكَّةُ الْمَكْرُمَةُ: رَابِطَةُ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ، 1991م)، ص517.

بأمور الدين والحياة، فعرفت خطبه ﷺ بالكلمات البالغات والعظات النافعات، أُوتِيَ جوامع الكلم وبدائع الحكم وكمال النصيح وحسن البيان وفصاحة القول مع رحمة وشفقة وحرص على نفع الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور⁽¹⁾ يقول تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ زَسُولا يَنْلُوا عَلَيْكُمْ إِنْ عَلِمَ اللَّهُ مَبِيتَكُمْ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الطلاق: 10-11] كما تميّزت خطبه ﷺ بالوفاء والنصح والبيان في كل وقت بما تقتضيه حاجة المخاطبين ومصلحتهم⁽²⁾ تمثل الأثر العاطفي في خطبه ﷺ حرصه على تبليغ ما يصلح أمرهم ويُعلي شأنهم ويُجَنِّبهم الفُرقة من بعدهم، والتي تمثلت بوصية مودّع فكانت مؤثرة وبليغة: «فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا» تركت هذه الموعظة وقعاً وأثراً كبيراً في النفوس حينما أظهر خشيته عليهم كخشيته على نفسه، أن ناشدهم للتمسك بمعالم الدين وأركانه وبالشرعية وأصولها، فالتأثير في النفوس يجب أن يكون بأسلوبٍ لِيَن عن طريق الكلمات المؤثرة والألفاظ السهلة اللَّبقة والجزلة الأقدر على التعبير، وعليه فالمستفاد من هذا الأسلوب النبوي - الموعظة الحسنة - كالاتي :

- الموعظة الحسنة من أبلغ أساليب المنهج العاطفي المؤثرة لقدرتها العجيبة والمبدعة في الإقناع وحكمتها البالغة في التأثير، خصوصاً عند استعمال الخطب المنبرية المؤثرة، والتي يجب أن تكون مناسبة تعالج الواقع بقضاياها المتعددة والمستجدة، والتي تحتاج إلى صرح قوي وعاطفة دافقة .

- على الدّاعية أن يكون أهلاً لها، فيكون كفوّاً يملك قدرات فنية وأسلوبية تزيد موعظته قوةً وتأثيراً، وهذه الموعظة لها أثر كبير في نفوس المدعوين، بلطف العبارة ومناسبتها للمقام فتولد المودّة وتغرس المحبة، وتحاصر المنكرات وتقضي على إنتشارها أو المجاهرة بها⁽³⁾.

- ودعوة إلى أصحاب المؤسسات الدّعوية والتّدريبية والمساهمات الخيرية، السّعي في إعداد دعاة ووعاظٍ وخطباءٍ أكفأ غايتهم نفع الناس وإصلاح ما أمكن إصلاحه في واقع حياتهم، بأن يكونوا دوا عواطف دافقة وعقول نابغة تلامس أفئدتهم، فما قيمة دعاة يعطون الناس ويحدثونهم عن الأحوال العظام والخشية والتّقوى، وتنبيه الغافل، والتذكير بالعواقب والتّخويف إلى الله والعمل بالطّاعات

(1) - عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، خطب ومواعظ (المدينة المنورة: مكتبة الملك فهد الوطنية، ط1، 1426هـ/2005م)،

(2) - المرجع نفسه، ص 9.

(3) - محمد صالح وقيع الله، ثقافة الدّاعية وأثرها في الدّعوة، المرجع السّابق، ص 32.

والإقبال عليها دون أن تذرف منه دمعة أو تُصيب منه عبرة، فالواجب الدَّعوي أن تكون مَوَاعِظُهُ متميِّزةً يثيرها الأسلوبُ الحسنُ والكلمةُ البليغةُ.

المطلب الرابع: أشكال الموعظة في دعوة النبي ﷺ

بناءً على ما سبق ذكره بخصوص موعظة النبي ﷺ، التمسْتُ تميِّز أسلوبه باللُّطف والرِّقَّة في وعظ مخالفه، فلم ينههم عن شيءٍ بأسلوب الزَّجر والغلظة، بل كان رفيقاً حليماً ليناً، وكان يعظُ النَّاسَ بأشكالٍ متعدِّدة نذكر منها :

أولاً: أسلوب القصَّة

أ- مفهوم القصَّة

- لغة

تعدَّدت المفاهيم اللُّغوية لمصطلح القصَّة، واختلفت من معجم لآخر، إذ يعرفها بعض علماء اللُّغة كالآتي :

- يعرفها العلامة الزُّبيدي بالقول: (مادتها قَصَصٌ، وقَصَّ أثره أي: يُقَصِّه قصاً وقصيصاً، والقَصُّ إِتِّباع الأثر ويقال فلانٌ قَصَصَ في أثر فلان وقصاً وذلك اقتصَّ أثره، وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهَ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [١١] القصص: 11] أي: تتبَّعي أثره، وقيل القصُّ تتبُّع الأثر شيئاً بعد شيء، ومنهم من خَصَّ في القصِّ تتبُّع الأثر بالليل، والصَّحيح في أي وقتٍ كان، وقَصَّ عليه الخبر قصاً وقصصاً علَّمه به وأخبره، ومنه قص الرُّؤيا، يقال: قَصَصْتُ الرُّؤيا أفصَّها قصاً⁽¹⁾ ويعرفها العلامة ابنُ فارس بالقول: (القاف والصَّاد أصلٌ صحيح، يدلُّ على تتبُّع الشيء، من ذلك قولهم قصَّ الشيء يُقَصِّه قصصاً، وقصصاً بمعنى: تتبَّعه لأمرٍ وغايةٍ ينتهي إليها، من ذلك التَّبُّع ومن ذلك قولهم اقْتَصَصْتُ الأثر إذاً تتبَّعته⁽²⁾) ويعرفها العلامة فيروز الآبادي بالقول: (وتأتي القصَّة بمعنى البيان ومنه قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام مع إخوته: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: 3] أي: نبين لك أحسن البيان، والقصص من يأتي

(1) - يُنظر: مرتضى الزُّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد الكريم العزباوي، مادة قص (مطبعة حكومة الكويت، ج18، 1399هـ/1979م)، ص 98.

(2) - ابنُ فارس، معجم مقاييس اللُّغة، تحقيق: عبد السلام محمَّد هارون، مادة قص (دار الفكر للطباعة والنَّشر والتَّوزيع، ج5)، ص11.

بالقصّة⁽¹⁾ وجاءت في موضع آخر بمعنى: (قصص خبري فلان على فلان قصصاً، وقصص أثره، وقص جناح الطائر أي: قطع)⁽²⁾.
إذاً تبين أن المفهوم اللغوي المشترك بين المفاهيم لكلمة القصّة يدور حول: التتبع لأمر ما، وتتبع الأثر، والبيان، والإخبار.

– اصطلاحاً

حُظِيت القصّة باهتمام كبير من طرف العديد من العلماء والباحثين من مختلف العلوم، كعلوم القرآن والسنة نذكرها كالاتي :

- إضافة إلى المفاهيم اللغوية فإنّ القصّة في القرآن الكريم هي: (إخبار عن أحوال الأمم الغابرة، وشأن النبوات السابقة والحوادث الواقعة، وأمور كثيرة أخرى، وقد اشتمل على كثير من وقائع الماضي وتاريخ الأمم وذكر البلاد والديار وما حدث فيها، وتتبع آثار كل قوم، كما جاء في القرآن الكريم عن الجميع صورة ناطقة كما كانوا عليه في عصورهم وحياتهم)⁽³⁾.
- وفي السنة النبويّة فمفهومها لا يخرج عن مفهوم القصّة في القرآن الكريم وهي: (تتبع الأحداث الماضية وإبراز جوانب العبرة فيها، تتناول أخبار الأقدمين وأحداث الأولين سواء أكانوا من الأنبياء عليهم السلام أو من أقوامهم مع التّحديد الزماني والمكاني، ويُطلق اسم القصص النبوي على القصص الواقعة للنبي ﷺ في فترة من فترات حياته، تساق في شكل من أمثال وقصص أخرى من عالم الغيب)⁽⁴⁾ فقَصَصُ النبي ﷺ لا تحدّد نمطاً واحداً من الأداء، ولكنها تتبلور وتختلف حسب ما يميله مقام الفكرة فطوراً قصيرة وطوراً آخر طويلة⁽⁵⁾، إذن فالقصّة النبوية هي الإخبار عن قضية ذات مراحل يتبع بعضها بعضاً⁽⁶⁾.

(1) – الفيروز آبادي، القاموس المحيط (الهيئة المصرية العامة، ط3، ج2، 1978م)، ص 311.

(2) – أبو إبراهيم الفراء، ديوان العرب (مكتبة لبنان، ط1، 2003م)، ص 689.

(3) – محمد أحمد محمد معبد، نفحات من علوم القرآن (القاهرة: دار السلام، ط2، ج1، 1426هـ/2005م)، ص 106.

(4) – يُنظر: مأمون فريز حرار، خصائص الفقه الإسلامي (جدة: دار المنارة للنشر والتوزيع، ط1، 1988م)، ص 113.

(5) – محمد لطفي الصّباغ، التصوير الفني في الحديث النبوي (بيروت: المكتب الإسلامي، ط1، 1409هـ/1988م)، ص 499.

(6) – مرفت محمد أحمد حماد، الموعظة في القصص القرآني، دراسة موضوعية، رسالة ماجستير في التفسير وعلوم القرآن، الجامعة الإسلامية غزة، كلية أصول الدين، قسم التفسير وعلوم القرآن، 1436هـ/2015م، ص 11.

ب- أسلوب القصة في دعوة النبي ﷺ

تُمثِّل القصة في السنة المطهرة دورًا في ترسيخ القيم والأخلاق الفاضلة بشكل لا يخفى على كل ذي لب، والدَّاعية إلى الله عليه أن يتزوّد ب زاد القصص العاطفية المؤثرة والمناسبة كي يدعم بها قوله إذا أراد تهيج المشاعر تجاه أمر معيّن، فإن أراد حثّ النَّاس عن الصّدقة وترغيبهم فيها، قال: «قَالَ رَجُلٌ: لَأَتَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدِّقَ عَلَى سَارِقٍ فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، لَأَتَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِي زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى زَانِيَةٍ ؟ لَأَتَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فَوَضَعَهَا فِي يَدِي غَنِيٍّ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدِّقَ عَلَى غَنِيٍّ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى سَارِقٍ وَعَلَى زَانِيَةٍ وَعَلَى غَنِيٍّ، فَأُتِيَ فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سَارِقٍ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَتِهِ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ عَنْ زِنَاهَا، وَأَمَّا الْغَنِيُّ فَلَعَلَّهُ يَعْتَبِرُ فَيَنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ»⁽¹⁾ وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَوَّلَ مَنْ سَلَكَ مَسَلَكَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَاتَّبَعَ خَطَاهُ، حَيْثُ اخْتَذَ مِنَ الْقِصَّةِ وَسِيلَةً لِبَلُوغِ الْهَدَفِ الدَّعَوِيِّ، فَهِيَ إِقْنَاعٌ لِلْعَقْلِ وَإِمْتِنَاعٌ لِلْعَاطِفَةِ، وَقَدْ اعْتَمَدَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ كَأَسْلُوبٍ مِنْ أُسَالِيبِ التَّأْثِيرِ، وَذَلِكَ لِتَعَلُّقِ النَّفْسِ غَالِبًا بِالْحَدِثِ الَّذِي تَقُومُ عَلَيْهِ الْقِصَّةُ وَمَا يَصَاحِبُهَا مِنْ مُؤَثِّرَاتٍ وَجَدَانِيَّةٍ وَعَاطِفِيَّةٍ تَقْتَضِي التَّفَاعُلَ وَالْإِنْدِمَاجَ مَعَ أَحْدَاثِهَا، لَمَّا فِيهَا مِنْ تَدْرُجٍ فِي سَرْدِ الْأَخْبَارِ وَتَشْوِيقٍ فِي الْعَرْضِ وَطَرَحٍ لِلْأَفْكَارِ مَزْجُوجَةٍ بِعَاطِفَةٍ إِنْسَانِيَّةٍ مُرْهِفَةٍ⁽²⁾، فَشَهِدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْعَدِيدَ مِنَ الْمَوَاقِفِ الَّتِي يَحْكِي فِيهَا قِصَّةً مِنَ الْقِصَصِ، مِنْهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْعَقِيدَةِ وَمِنْهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَخْلَاقِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ.

– قِصَّةُ تَوْبَةِ قَاتِلِ الْمِائَةِ نَفْسٍ

وما قصة الرجل الذي قتل تسعًا وتسعين ثم أتمّ المائة ثم تاب الله عليه إلاّ أنموذجًا لإستخدام النبي ﷺ للقصة العاطفية والتي تهدف إلى تحضير العصاة للتوبة والإنابة إلى الله مهما عظم ذنبهم، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «كَانَ فَيَمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ،

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب إذا تصدق على غني وهو لا يعلم، رقم الحديث 1421، ص 345.

(2) - أيمن محمد عبد العزيز عمرو، أسلوب القصة وأغراضه التربوية في الصحيحين، مجلة جامعة الخليل للبحوث، المجلد 9، العدد 1، ص 3.

فقال: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فقال: نعم، ومنْ يُحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أَنْاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فاعْبُدِ اللَّهَ معهم، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ، فَانْطَلِقْ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيِّهِمَا كَانَ أَذْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَذْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ، قَالَ قَتَادَةُ: فَقَالَ الْحَسَنُ ذُكِرَ لَنَا، أَنَّهُ لَمَّا أَتَاهُ الْمَوْتُ نَأَى بِصَدْرِهِ⁽¹⁾ هذه القصة يذكرها النبي ﷺ كي يأخذَ منها أصحابه العبرة والعظة فيقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: 111] وجاءَ عن النبي ﷺ أيضًا في قوله: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وخير الخطَّائين التَّوَّابُونَ»⁽²⁾ اتَّضح المنهج العاطفي من خلال القصة بشكل واضح في بيان صفة من صفات الله تعالى وهي الرحمة والعفو، وكيف ساقها ليبي في نفوس صحابته عدم القنوط من رحمة الله مهما كانت المعاصي إذا اتَّبَعَ تلك المعاصي توبة صادقة⁽³⁾، فأَرَادَ أَنْ يوضح سعة رحمة الله وعفوه عند لزوم المرء الندم على ما كان منه رجاء مغفرة الله وتكفيره عن سيئاته، وأنَّ القتل من أعظم الجرائم والكبائر فقد يُغفر لصاحبه إذا أخلص في التَّوْبَةِ وأُتَابَ إلى الله، جاءَ في الحديث القدسي: «يَا ابْنَ آدَمَ لو لقيتني بقرابِ الأرضِ خطايا لقيتُك بقرابِها مغفرةً»⁽⁴⁾ كانت هنا لفظة لطيفة تبيِّنُ سعة رحمة الله وعفوه عند لزوم المرء الندم على ما بدر منه من كبائر وآفات خلقية وغيرها من المساوئ الكبرى، فيكفِّر عن سيئاته إذا ثبت عنه ذلك شعوره بالذنب؟،

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التَّوْبَةِ، باب قبول توبة قاتل، رقم الحديث 2766، ص 1268.

(2) - أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب منه، رقم الحديث 2499، ص 596. وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث علي بن مسعدة عن قتادة. أ. هـ، و(أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصَّحَّاحين، كتاب التَّوْبَةِ والإنابة، باب خير الخطَّائين التَّوَّابُونَ، رقم الحديث 7691، دار المعرفة، ط 1، 1418هـ/1998م) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرِّجْه، وأخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الرُّهْدِ، باب ذكر التَّوْبَةِ، برقم 4251، ص 92.

(3) - أيمن محمد عبد العي عمرو، أسلوب القصة وأغراضه التَّربوية في الصَّحَّاحين، العدد 1، مج 9، 2014م، ص 9.

(4) - أخرجه الترمذي في سننه، الجامع الكبير، تحقيق بشار عواد معروف، كتاب الدَّعَوَات، باب 98 (107)، رقم الحديث 3540، ج 5، المصدر السَّابِق، ص 509. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وتحفة الأشراف 102/1، رقم الحديث 253، والمسند الجامع، تحقيق: بشار عواد معروف وآخرون، كتاب الذِّكْر والدُّعَاء، رقم الحديث 1091. (بيروت: دار الجليل، ط 1، مج 2، 1413هـ/1993م)، ص 216.

مبيناً أن الله يجازي عبده حسب نيته وعزمه بشرط أن يكون صادقاً في نيته⁽¹⁾ فأشار ﷺ إلى رحمة الله الواسعة لعبده وعدم مؤاخذته بذنوبه لأول وهلة وأنه تعالى يمهلهم أملاً في التوبة فيقول: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْضِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: 61] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: 45] إنها نعمة من الله أن فتح باب التوبة والمغفرة قبل وقوع المحذور وهذا ليس شأنه مع العبد مرتكب الكبيرة أو ظلم أو جور وغيرها من المحظورات، وإنما شأنه مع أهل الكفر أيضاً، يقول الإمام الرّازي رحمه الله مبيناً سعة رحمة الله على عباده: (إعلم أنه تعالى لما حكي عن القوم عظيم كفرهم وقبيح قولهم بين لهم أنه يمهل هؤلاء الكفار ولا يعاجلهم بالعقوبة إظهاراً للفضل والرحمة والكرم)⁽²⁾ فهذه الرحمة سخّرها الله تعالى لنبيه محمد ﷺ وكتبها على قلبه فكان للعالمين رحيمًا، فاستخدم هذه القصة إذعاناً منه لتحببهم في الدين والعمل به وقبولهم للحق واستعجال التوبة، فأراد عليه الصلاة والسلام أن يثبت بأن القصة ركيزة من ركائز الموعظة أو بالأحرى الدعوة إلى الله، القائمة على الإقناع العاطفي والإطمئنان القلبي والإرتياح النفسي بما يعظ به من اليقين برحمة الله وعفوه لعبده حتى لمرتكب الكبائر فتعشاه رحمة الله حين العودة إلى التوبة.

– قصة من زار أخاً له في قرية محبة لله

عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ: «أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى فأرصد الله على مدرجته ملكاً فلما أتى عليه قال: أين تريد ؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربها، قال: لا غير أبي أحبته في الله عز وجل، قال: فإنني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحبته فيه)⁽³⁾ لجأ النبي ﷺ من خلال القصة إلى تنمية عاطفة الحب في الله لدى أصحابه رضوان الله عليهم والحث عليها وبيان فضلها، وأما سبب حبّ الله تعالى للعبد، والسّر الذي ملك به النبي ﷺ زمام قلوب صحابته رضوان الله عليهم، إنّ الحبّ عاطفة لها تأثيرها القوي في نفوس الصحابة في بناء

(1) - ناصر بن محمد الأحمد، قاتل المئة نفس، 1419/05/06 هـ، ص-ص 2، 3.

(2) - فخر الدّين الرّازي، مفاتيح الغيب (بيروت: دار إحياء الثّراث العربي، ط3، ج20، 1420هـ)، ص 227.

(3) - النّووي، شرح النّووي على مسلم، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب فضل الحبّ في الله، المرجع السّابق، رقم الحديث 2567، ص 1539.

علاقاتهم مع الله تعالى، وفيما بينهم، من خلال التَّزاور والتَّحابب، فكشف حديث النبي ﷺ فضل الزَّيَّارة وأجرها العظيم، فكان الحاملُ له على هذه الزَّيَّارة هو الحبُّ في الله، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: 165] فالقصة في هذا الجانب تعتبر من المواعظ العاطفية السامية التي تجلَّى فيها المنهج العاطفي بصورة قوية تَبعث إلى تأليف القلوب ببعضها من خلال سرد أحداث القصة التي تثير الشعور وتقرَّبُ الأفهام وتصغى إليها بتأمل وتفكر، وهنا يقتضي من الدَّاعية بأن يكون حكيماً، في تبليغ دعوته يتنوع في سرد القصص التي تذكر بالتوبة إلى الله تعالى، فلا يجعل قصصه كلّها ترهيباً ولا كلّها ترغيباً بل يتناوب بينها، كما يسعى إلى إختيار القصص الهادفة والمؤثرة التي تلين القلوب وتبعث فيها الأمل بعفو الله ومغفرته للذنوب والخطايا مهما عظم شأنها .

ثانياً: أسلوب التَّرجيب

في هذه الجزئية سأطرق بالحديث حول أسلوب التَّرجيب، وليس خفياً علينا مدى تأثيره في النَّفس التي جبلت على حبِّ الخير، يستهوئها العطاء ويروقها البذل، وقد وَرَدَ في الدَّعوة في الأغلب الأعمَّ من المواقف الدَّعوية المتعددة من القرآن والسنة، وقد سبق الحديث عليها سابقاً، يقول تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَكَ رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: 90] وخلال هذه التَّوطئة، وقبل التَّفصيل في بيان أثره في دعوة النبي ﷺ، يستدعي منَّا التَّعريف بمصطلح التَّرجيب من الناحية اللُّغوية والإصطلاحية.

أ- مفهوم أسلوب التَّرجيب

– لغة

تعددت المفاهيم اللُّغوية لمصطلح التَّرجيب واختلفت من معجم لآخر، إذ يعرفه بعض علماء اللُّغة كالآتي :

- يعرفه العلامة الرَّغب الأصفهاني بالقول: (مصدر رَغِبَ تَرْغِبًا على القياس ككرم تَكْرِمًا وله معان عدّة منها: إِرَادَةُ الشَّيْءِ: تقول رَغِبْتَ في الشَّيْءِ إذا أَرَدْتَهُ⁽¹⁾ يقول تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [الأنبياء: 7-8] الشَّرْح: 7-8] ويعرفه العلامة ابن منظور بالقول: (رَغِبَهُ أَعْطَاهُ ما رَغِبَ، ورَغِبَ النَّفْسُ: سَعَةُ الأَمَلِ وطلب التَّفكير)⁽²⁾ ويعرفه العلامة الزَّبيدي بالقول: (التَّرجيب مصدر من رَغِبَ الرَّغْبُ والرَّغْبُ، والرَّغْبَةُ هي الحرص على الشَّيْءِ والطَّمع فيه، وهو يعني التَّشويق والحث على فعل الشَّيْءِ والرَّغْبَةُ والسَّؤال والطَّمع، وأنشد الأعرابي قائلاً:

(1) – رغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم (دمشق: دار العلم، ط1، 1412هـ)، ص 358.

(2) – ابن منظور، لسان العرب، مادة رغب، ج3، المصدر السابق، ص 352.

إذا مالت الدنيا على المرء رغبته ... إليه ومال الناس حيث يميل⁽¹⁾.

- اصطلاحاً

جاء مفهوم التَّغْيِيب عند بعض علماء الدَّعوة على هذا التَّحوُّل التَّالي:

- يعرفه الدكتور علي محفوظ بالقول: (هو قوة كبيرة تجذب النفس الإنسانية إلى طريق الخير وتستعطفها نحوه بما أعدّه الله لسالكيه من منافع ولذات وخبرات عظيمة معجلة أو مؤجلة)⁽²⁾ ويعرفها الدكتور جمعة عبد العزيز أمين بالقول: (وهي الحث على فعل الخير وأداء الطاعات والإستقامة على أمر الله مقرونا ببشريات كبيرة في الدنيا والآخرة معاً)⁽³⁾ ويعرفه الدكتور يوسف القرضاوي حفظه الله بالقول: (هو تحبيب الإنسان في عبادة الله وفعل الخير وعمل الصالحات ومكارم الأخلاق والقيام بكل ما أمر الله تعالى به في كتابه وعلى لسان نبيّه وقيادته إلى ذلك بزمام الرّغبة فيما رتب الله على ذلك من حسن الجزاء وجزيل المثوبة في الدنيا والآخرة)⁽⁴⁾ وفي تعريف آخر له: (التَّغْيِيب يقصد به كل ما يشوّق المدعو إلى الإستجابة وقبول الحقّ، والدُّعاة عليهم أن يتأسّوا بدعوة النّبي ﷺ وأن يبدأوا دعوتهم بأسلوب التَّغْيِيب وتذكير النّاس بنعيم الآخرة)⁽⁵⁾ فيقول: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟ قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ»، قال: فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا»⁽⁶⁾ وفي تعريف آخر له: (هو تحبيب المدعو في الإسلام ومبادئه، وإستمالته نحو الإلتزام له)⁽⁷⁾ وعليه من خلال عرض المفهوم اللُّغوي والإصطلاحي تبين لنا أن التَّغْيِيب جاء بمعنى: الحث على أعمال الخير، والتَّحْيِيب والتَّشْوِيق في الطَّاعات والعبادات، والحرص على الشَّيء والطَّمع فيه، ووصف بالقوّة المؤثّرة والجاذبة.

(1) - محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس (بيروت: دار مكتبة الحياة، د، ط، ج 2، 1306هـ)، ص 51.

(2) - يُنظَر: علي محفوظ، هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة (بيروت: دار الاعتصام، ط 9، 1399هـ/1979م)، ص - ص 196، 200.

(3) - جمعة عبد العزيز أمين، الدَّعوة قواعد وأصول (دار الدَّعوة، ط 2، 1409هـ)، ص 208.

(4) - يوسف القرضاوي، المنتقى من كتاب التَّغْيِيب والتَّهْيِيب للمندري (مركز بحوث السنّة والسيرة، د، ط، ج 1، د، ت)، ص 1.

(5) - كيلان خليل حيدر، التَّغْيِيب والتَّهْيِيب في القرآن الكريم وأهميتها في الدعوة إلى الله، بحث في مجلّة كَلِيّة العلوم الإسلامية، العدد 13، مج 7، 1434هـ/2013م، ص 5.

(6) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصَّلَاة، باب الصَّلوات الخمس كفارة، رقم الحديث 528، ص 139.

(7) - محمد الجوهري، مقالة في الموعظة الحسنة وأثرها في الدَّعوة، المرجع السَّابق، ص 2.

ب- الأساليب والوسائل المتاحة للتَّغْيِيب في دعوة النبي ﷺ

لقد كانت حكمة النبي ﷺ في التَّغْيِيب إلى الإسلام بكلِّ الوسائل والأساليب المتاحة والمناسبة، فافتضى أن يرعَّب بما يلي :

- التَّغْيِيب بالعطاء والمال

النفوس كعادتها تميل إلى من يحسن إليها ويغدق عليها، خاصة ضعاف الإيمان سواء كان المعروف أو النصيح، والنبي ﷺ لما استعمل أسلوب العطاء، كان بهدف ترغيب الناس في لإسلام، فكان عطاؤه لا حدَّ له، على سبيل المثال : حينما قدم إليه رجل أعطاه غنما بين جبلين فرجع إلى قومه قائلاً لهم: «يا قوم: أسلموا فإنَّ محمد يعطي عطاءً من لا يخشى الفقر»⁽¹⁾، «وما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، وإن كان الرَّجُل ليسلم ما يريد إلا الدنيا فما يلبث إلا يسيراً حتَّى يكون الإسلام أحبُّ إليه من الدنيا وما عليها»⁽²⁾ كان ﷺ يحبِّبهم في الإسلام بالعطاء والإحسان الذي ترتاح له النفوس وتقبل نحو صاحبه بالحبِّ والقرب، فالعطاء له دافعية تأثيرية في دعوة غير المسلم وفي تثبيت ضعيف الإيمان، وكان ﷺ يؤثر في حديثي الإسلام بالعطايا لتثبيت قلوبهم على الإسلام فعن سعد بن وقاصٍّ رضي الله عنه قال: «أنَّ رسول الله ﷺ أعطى رهطاً وأنا جالس، فترك رسول الله ﷺ رجلاً هو أعجبهم إليَّ فقلت: يا رسول الله ما لك عن فلانٍ فو الله إليَّ لأراه مؤمناً؟ فقال: أو مسلماً، فسكت قليلاً ثمَّ غلبي ما أعلم منه فعدت لمقاتلي فقلت: ما لك عن فلانٍ فو الله إليَّ لأراه مؤمناً، فقال: أو مسلماً، ثمَّ غلبي ما أعلم منه فعدت لمقاتلي وعاد رسول الله ﷺ ثمَّ قال: «يا سعد إليَّ لأعطي الرَّجُلَ وغيره أحبُّ إليَّ منه خشية أن يُكَبِّه الله في النَّار»⁽³⁾ لقد كان النبي ﷺ في منهجه يتألَّف رجالاً بالعطايا والهبات ليرغبهم في الدِّين، وأنَّ العطاء عنده ليس بحسب الفضائل في الدِّين وإنما كان عطاؤه لأناسٍ مؤلَّقة قلوبهم في إيمانهم ضعفٍ، خشية إبقائهم على الكفر لو لم يعطهم، يقول الشيخ العيني رحمه الله: (في قوله ﷺ خشية أن يُكَبِّه الله في النَّار على وجهه: أي:

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ما سئل عن رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال لا وكثرة عطاءه، رقم الحديث 2312، ص 1805.

(2) - التَّوَوِي، شرح التَّوَوِي على مسلم، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال لا وكثرة عطاءه، رقم الحديث 2312، المرجع السَّابِق، ص 1427.

(3) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزَّكَاة، باب إدعاء من يخاف على إيمانه، ج 2، رقم الحديث 150، ص 73. وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخرف من القتل، رقم الحديث 19، ص 14.

أتألف قلبه بالإعطاء مخافةً من كُفره إذا لم يُعطَ، والتقدير أنا أعطي من في إيمانه ضعفاً لأني أخشى عليه لو لم أعطه أن يعرض له اعتقاد كفرٍ به فيكبه الله في النار ... والحاصل أن النبي ﷺ كان يوسع العطاء لمن أظهر الإسلام تألقاً⁽¹⁾ وقد حفظت سيرته ﷺ مواقف كثيرة في تأليفه للقلوب نقف على إحداها ما رواه المسور بن مخرمة بن نوفل قال: «قَدِمْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَقْبِيَّةً^(*) فَقَالَ: لِي ابْنُ مَحْرَمَةٍ: انْطَلِقْ بِنَا إِلَيْهِ عَسَى أَنْ يُعْطِينَا مِنْهَا شَيْئًا قَالَ: فَقَامَ أَبِي عَلَى الْبَابِ فَتَكَلَّمَ فَعَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ صَوْتَهُ فَخَرَجَ وَمَعَهُ قَبَاءٌ وَهُوَ يَرِيئُهُ مُحَاسِنُهُ وَهُوَ يَقُولُ: خَبَّاتُ لَكَ هَذَا خَبَّاتُ لَكَ هَذَا»⁽²⁾ كشف الحديث أن خلق النبي ﷺ العظيم من الجود والكرم، ولهذا الخلق تأثير خاص في القلب، إستخدمه ليرغب الناس ويحببهم للإسلام، يقول القسطلاني رحمه الله: (ما ترك النبي ﷺ عند موته درهما ولا ديناراً ولا عبداً ولا أمة ..)⁽³⁾ يظهر هنا دلالة خبرية على أن من ذكر من رقيق النبي ﷺ في جميع الأخبار كان إما مات وإما أعتقه، ويقول الشيخ العيني رحمه الله معلّقاً: (وقد ذكرنا تاريخنا الكبير أنه ﷺ كان له عبيد ما ينيف على ستين سنة وكانت له عشرون أمة فهذا يدل على أن منهم من مات في حياة النبي ﷺ ومنهم من اعتقهم ولم يبق عبد بعده ولا أمة وهو في الرقية⁽⁴⁾ فحكمة هذه العطايا كانت لتلافي ما في قلوبهم من حقدٍ لأن الهدايا تذهب الأحقاد، والدّاعية مطالب أن يكون كريماً رحيماً، لأنّ القلوب مجبولة على حبٍّ من يحسن إليها، وهذا من أعظم أساليب المنهج العاطفي الذي بلا شك له الأثر الكبير في إستمالة القلوب وجذبها يقول أنس بن مالك ﷺ: «إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيْسَ بِمَا يَرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا فَمَا يَسْلَمُ حَتَّى يَكُونَ الْإِسْلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهِ»⁽⁵⁾ ويتّضح كذلك في غزوة حنين في 8هـ فبعض من خرج من المسلمين من أهل مكة على كفره وبعضهم كان ضعيف الإيمان ممّن أسلم

(1) - بدر الدّين العيني، كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ: آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ

قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾، رقم الحديث 27 (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د، ت)، ص 198.

(*) - أَقْبِيَّةٌ: قوله قدمت أقبية، قُبَاءٌ من ديباج هو واحد الأقبية وأصله من ذوات الواو لأنّه من قبوت إذا ضمنت والأقبية ثياب ضيقة من ثياب العجم معلومة (يُنظر: القاضي عياض، مشارق الأنوار على صحاح الآثار في شرح غريب الحديث، حرف القاف، بيروت: دار الكتب العلمية، د، ط، د، ت)، ص 285.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب القباء وفروج الحرير، رقم الحديث 5800، ص 1468.

(3) - سعيد بن علي بن وهف القحطاني، فقه الدّعوة صحيح الإمام البخاري (المملكة العربية السّعودية: وكالة لشؤون المطبوعات والنشر بوزارة الشؤون الدّينية والأوقاف، ط1، 1461هـ)، ص 61.

(4) - المرجع نفسه، ص 61.

(5) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ما سئل عن رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال لا وكثرة عطاءه، رقم الحديث 2312، ص 1806.

ولا يزال متأثراً بما كان يقصد بالقتال في الجاهلية من الحصول على الأموال والغنائم حتى أن بعضهم ارتدَّ حين هُزم المسلمون من أوّل هذه الغزوة، حيث قال قائل منهم: الآن ترجع العرب إلى دين آبائها، وقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، فلمّا انتصر المسلمون بعد هزيمتهم وغنموا في هذه الغزوة من الغنائم التي لا تعدّ ولا تحصى إشرأت أعناق قريش إليها وامتدّت أعينهم نحوها، فأراد النبي ﷺ أن يؤثرهم بشيءٍ من هذه الغنائم ليتألّف ممّن أسلم منهم ويرغب في الإسلام من بقي منهم على شركه، فبسط يده في العطاء وأعطاهم كثيراً ممّا امتدت إليه أعينهم، فقد آتت مواقف البذل والعطاء ثمارها، فالأنت هذه الأعطيات قلوب زعماء قريش وأتباعهم، واستمالتهم إلى الإسلام فرضوا به، ودخلوا فيه طائعين، يقول صفوان بن أمية لما أعطاه النبي ﷺ شعباً مملوءة نعماً وشاة، فقال صفوان: «ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلاّ نفس نبي، أشهد أنّه لا إله إلاّ الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله»⁽¹⁾ وما هذا العطاء من النبي ﷺ لأشراف قريش من المرغبات التي ترغّب الضّعفاء في الإسلام وتعاليمه كما ترغّب غير المسلمين في إمعان النظر والفكر في الإسلام، يقول الإمام القرطبي رحمه الله مبيّناً أثر هذا الأسلوب مع صفوان ومن على شاكلته من المؤلّفة قلوبهم مثل حكيم بن حزام: (وحسن إسلام المؤلّفة قلوبهم وسائر المؤلّفة متفاضلون منهم الخير الفاضل المجمع على فضله، كالحارث بن هشام، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، ومنهم دون ذلك)⁽²⁾، وقال مالك: (بلغني أنّ حكيم بن حزام أخرج ما أعطاه النبي ﷺ في المؤلّفة فتصدّق به بعد ذلك)⁽³⁾ ويرى العلامة الإمام ابن القيم رحمه الله أثر هذا التّأليف فيقول: (يتعيّن على الإمام أن يتألّف أعداءه لاستجلابهم إليه ودفع شرّهم عن المسلمين فيقول: الإمام نائب عن الإسلام والذبّ عن حوزته واستجلاب رؤوس أعدائه إليه، ليؤمن المسلمون شرّهم ساغ له ذلك بل تعيّن عليه، فإنّه وإن كان في الحرمان مفسدة فالمفسدة المتوقّعة من فوات تأليف العدو أعظم، ومبنى الشريعة على دفع أعلى المفسدتين احتمال أديهما، وتحصيل أكمل المصلحتين بتفويت أديهما، بل بناء مصالح الدّنيا والدّين على هذين الأصلين)⁽⁴⁾ لقد برز أثر المنهج العاطفي في ظاهر الأحاديث السّابقة من خلال أسلوب التّروغيب بالعمل بدل القول، وكان الموقف الحكيم والعظيم للنبي ﷺ دلالةً على مدى درجة سخائه

(1) - أخرجه مسلم كتاب الفضائل باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال لا، وكثرة عطائه، ج4، رقم الحديث 2313، ص 1806.

(2) - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج8، المصدر السّابق، ص 108.

(3) - سليمان بن عبد العزيز أحمد الدويش، أسلوب التّروغيب في دعوة النبي ﷺ، المرجع السّابق، ص 58.

(4) - علي محمّد الصّلاّبي، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، المرجع السّابق، ص 790.

وغزارة جوده، فكان يعطي العطاء ابتغاء مرضاة الله وترغيباً للناس في الإسلام وتأليفاً لقلوبهم، ولهذا الأسلوب الأخلاقي أثر كبير في النفوس، أن ألانت القلوب، وهزّت الوجدان، وأطربت الرُوح فاستجابت لهدف النبي ﷺ فأعلنت إسلامها، وهكذا شواهد التّرجيب عند النبي ﷺ كثيرة منها التّرجيب في الطّاعات والعمل الصّالح والتّقوى وغيرها كثير، فالدّعوة تطالب دعاة الإسلام التّنوّع في وسائل وأساليب التّرجيب، باتّخاذ أسلوب العطاء مسلّكاً أساسيّاً ومهمّاً جعله النبي ﷺ أرقى الأساليب وأعظم الوسائل المؤثّرة والمحبّبة خصوصاً عند المؤلّفة قلوبهم أو حديثي عهد بالإسلام، دون الإعتماد على القول والألفاظ والكلمات التي قلّما تصلح عند فئة من المدعوين.

- التّرجيب بالتّبشير بثواب الجنّة

هناك شواهد كثيرة تناولت هذا النوع من التّرجيب نقف على إحداها وهي من أعظم المشاهد التاريخية في الإسلام لدى فئة الضّعفاء من المدعوين، ما جاء عن جابر بن عبد الله ﷺ أن النبي ﷺ مرّ بعمار بن ياسر وبأهله يعدّون في دينهم فقال: «أبشروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة»⁽¹⁾ فالنبي ﷺ كان لا يقدر على عمل شيء لآل ياسر وهم يعدّون غير الدّعاء لهم وتصبيرهم، فيمرّ عليهم ويشيرهم ببشارة أن رغبهم في الجنّة بأنّها موعدهم، فما آل بعائلة ياسر أن يصبروا حتى ولو أدّى ذلك إلى موتهم، كان هدفه ﷺ تثبيتهم على الدين وقد انصاغوا لكلام النبي ﷺ فمنهم من استشهد ومنهم من ثبت، وقد يتخيّل أحداً إلى أيّ حدّ وصل الرّباط الذي يجمع النبي ﷺ بأصحابه، فكان رباطاً عاطفياً قوياً، ولذلك أظهر الاهتمام بهم وتألمه وإحساسه لمصيبة ومحنة آل ياسر، فكانت الشّفقة بادية على عينيه تفيض حزناً لحال الرّعية المسلمة في حالات الموت والتعذيب، وكما بشرهم بالثّواب عند الصّبر على البلاء ليأخذ بالعواطف إلى التعلّق بالله وما أعدّه لهم من جنّات الخلد ماكثين فيها أبداً، فعرف عنه ﷺ قدرته العاطفية في إمتلاكه زمام القلوب، والحكمة التي كانت تلازمه ﷺ في جميع أموره جعلته يهتمّ لأمر الرّعية ويتفقّدهم ويدعو لهم ، وعليه لأهميّة أسلوب التّرجيب في الدّعوة إلى الله يتعيّن على الدّاعية إقتفاء منهج النبي ﷺ والإستفادة منه وتطبيقه في الواقع الدّعوي كالآتي :

- على الدّاعية أن يتفقّد الرّعية أو المدعو بمعرفة أحواله وظروفه، ومعرفة نقاط الضّعف والقوّة لديهم، والمقاييس التي يبنى عليها القبول أو الرّفص، خصوصاً في الوقت الذي طغى فيه الإعلام الموجّه للعالم

(1) - سليمان بن أحمد بن أبي أيوب أبو القاسم البراني، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي (الموصل: مكتبة العلوم والحكم، ط2، ج4، 1407هـ/1983م)، ص 303.

كلُّهُ، أن يستغلَّه في ترغيب النَّاس للإسلام باختيار الأسلوب النبوي قدوة ومنهجًا ناجح في التأثير والإقناع.

- يشارك النَّاس همومهم مقدِّمًا لهم النَّصيح والحلول الممكنة محاولاً علاجها وإخراجهم ممَّا فيه، فهو بهذا الأسلوب الوجداني والعملي ينمِّي في العاطفة الإيمان والشُّعور الدِّيني الحيِّ والأحاسيس الصَّادقة بين النَّاس عمومًا أو بين مدعويه على وجه الخصوص، فهو بهذا يكرِّس قاعدة الشُّعور بالآخر.

- التَّربُّغِب بالأعمال الصَّالحة

إنَّ أسلوب التَّربُّغِب هو أسلوب قرآني يعالج في النَّفس البشرية حبَّها للخير وحرصها عليه والاستكثار منه، ويمكن عرض الدَّعوة إلى الله من خلال هذا الأسلوب لجذب النَّاس إلى الخير العميم الذي ينتظرهم في الدُّنيا والآخرة إذا كانوا حيث أمرهم الله⁽¹⁾، وقد ظهر ذلك في قول صحابة النَّبي ﷺ: «اللَّهُم لا عيشَ إلَّا عيشُ الآخرة»⁽²⁾ وهذا الأسلوب زاد في نشاط الصَّحابة وشوقهم إلى العمل، ورغبتهم في عيش الآخرة، ولهذه الرَّغبة قالوا: نحن الذين بايعوا محمَّدًا على الجهاد ما بقينا أبدًا⁽³⁾ وكان ﷺ بهذا الأسلوب يرغبتهم في الإيمان والأعمال الصَّالحة، عن أبي هريرة ؓ عن النَّبي ﷺ قال: «إذا أحبَّ الله عبدًا نادى جبريل إنَّ الله يحبُّ فلانًا فأحبُّه، إنَّ الله يحبُّ فلانًا فأحبُّوه فيحبُّه أهل السَّماء ثمَّ يوضع له القبول في أهل الأرض»⁽⁴⁾ فينبغي على الدَّاعية العناية بهذا الأسلوب لما فيه النَّفع للمدعويين⁽⁵⁾، فأنجلي أثر المنهج العاطفي من خلال هذا الأسلوب التَّربُّغِب بالدَّعوة إلى الأخلاق الكريمة، والتَّحلي بكمال صفات الإيمان، مبيِّنًا فضائل ذلك أن جعله في مصافِّ الذين يحبُّهم الله وملائكته، وهذه من أجَلِّ العواطف وأرفعها مقامًا عند العبد وأكملها إيمانًا في قلبه، يذكر الإمام النَّووي رحمه الله في هذا الشَّأن فيقول: (إنَّ العبد الذي أحبَّه الله تسقط عليه محبَّة الملائكة باستغفارهم

(1) - علي عبد الحليم محمود، فقه الدَّعوة إلى الله، المرجع السَّابق، ص 230.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرِّقائيق، باب لا عيشَ إلَّا عيشُ الآخرة، رقم الحديث 6413، ص 791.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسَّير، باب التَّحريض على القتال، رقم الحديث 2834، ص 359.

(4) - ابنُ حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب المَقَّة من الله تعالى، رقم الحديث 6040 (المكتبة السَّلفية، ج 10، د، ت)، ص 461.

(5) - سعيد بنُ علي بنُ وهف القحطاني، فقه الدَّعوة في صحيح الإمام البخاري (الرَّئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة، ط 1، 1421هـ)، ص 331.

له وإرادتهم خير الدارين وميل قلوبهم إليه لكونه مطيعاً لله محباً له ومحبة العباد له اعتقادهم فيه الخير وإرادتهم دفع الشر عنه ما أمكن، وقد تطلق محبة الله تعالى للشيء على إرادة إيجاداه وعلى إرادة تكميله وحقيقة المحبة عند أهل المعرفة من المعلومات التي لاتحد، وإنما يعرفها من قامت به وجداناً لا يمكن التعبير عنه، والحبُّ ثلاثة أقسام إلهي وروحاني وطبيعي⁽¹⁾ فكان وعدُّ منه تعالى للمؤمنين العاملين بأن يجعلهم محل رحمة وإحسانه وموضع عطف الملائكة وقبول الناس أجمعين⁽²⁾.

ثالثاً: أسلوب الترهيب

في هذه الجزئية سأطرق لأسلوب الترهيب، وليس خفياً مدى تأثيره في النفس البشرية التي يُخيفها عقاب الله فتسعى إلى استقامة عوجها رهبةً وخوفاً من هذا الجزاء، وقد استخدمه الأنبياء عليهم السلام جميعاً في دعوة أقوامهم ومن يتوجهون إليهم بالدعوة، ولا سيما في دعوة النبي ﷺ الذي وازن بين الترغيب والترهيب، واللين والشدّة، علّه يحقق الوصول إلى سويداء قلوبهم، وفي سياق الحديث عن الترهيب سأحاول استعراض أثره في دعوة النبي ﷺ بدءاً بتعريفه أولاً وهو كالاتي :

أ- مفهوم الترهيب

- لغة

تعددت المفاهيم اللغوية لمصطلح الترهيب واختلفت من معجم لآخر، إذ يعرفها بعض علماء اللغة كالاتي :

- يعرفها العلامة أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري بالقول: (في اللغة مشتقة من الفعل رهب بالكسر، يَرْهَبُ، رَهْبَةً، وَرَهْبًا بِالضَّمِّ، وَرَهْبًا بِالتَّحْرِيكِ أَي: خَافَ)⁽³⁾ وأضاف العلامة الزبيدي رحمه الله: (مخافة مع تحرز واضطراب)⁽⁴⁾ يقول تعالى: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ﴾ [الحشر: 13] وقال أيضاً: ﴿وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [القصص: 32] أي: من

(1) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب المقة من الله تعالى، رقم الحديث 6040، المرجع السابق، ص- ص 462، 463.

(2) - علي محفوظ، هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة (بيروت: دار الاعتصام، ط9، 1399هـ/1979م)، ص 196.

(3) - يُنظَر: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، مادة رهب (بيروت: دار العلم للملايين، ط4، ج 1، 1407هـ/1987م)، ص 140.

(4) - مرتضى الزبيدي، تاج العروس في جواهر القاموس، مادة رهب، ج 1، المصدر السابق، ص 280.

الفرع⁽¹⁾، ويعرفه العلامة ابن منظور في القول: (ورهب الشيء رهبا ورهبا ورهبة، أي: خافه)⁽²⁾، يقول تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَكَ رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: 90] وعلى ضوء ما سبق نستنتج أن الترهيب جاء بمعنى: الخوف، والخوف مع التحرز، والاضطراب، والفرع، هذه المعاني تصب في وعاء واحد، خاصة ونحن نعلم أن التحرز يسبق الخوف والاضطراب نتيجة الخوف والفرع، وإن كان الفرع يحمل معنى الخوف، إلا أنه يمثل ثمرة من ثماره، لأن الإنسان إذا خُوف فإنه سيفزع.

- اصطلاحاً

كما أشرنا سابقاً إلى أن النفوس بطبيعتها تلين وتسارع في الخيرات إن لاقت ما ينفعها ويلقي بها في طريق الصلاح فيرغبها في عمل الخير، في حين نجدها تنزجر وترتدع إذا علمت بسوء ما وعدت به يقول تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشَّمْس: 7-10] والدَّاعِيَةُ إلى الله عليه أن يشجع الناس على الخير ويرغبهم إن وجدده عليهم، ولا يقنطهم من رحمة الله إن رآهم على معصية فيعظهم، والأهم من ذلك عليه أن يرهّب صاحب المعصية بالعقاب الشديد إن أصرّ على معصيته فينذره ويعاتبه، وهذا الأسلوب ماثله الأنبياء عليهم السّلام ويسير على درجهم الدّعاة في سبيل الله بأن يختاروا الأسلوب الأمثل لدعوة العصاة وأصحاب الفسق وتنفيرهم ممّا أُجِلُوا عليه، وهو ما حدث لنبيّ نوح عليه السلام مع قومه يقول تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ۝ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝﴾ [نوح: 1-4] وقد عرّف بعض العلماء المعاصرين والباحثين الترهيب بالقول:

- هو أسلوب قرآني يعالج النفس البشرية حبّها للأمن والسّلامة وإيثارها البعد عن الخوف والخطر وذلك من خلال تخويفها وتهديدها، ويمكن عرض الدّعوة إلى الله بهذا الأسلوب لجذب الناس حول الحقّ خوفاً من العقاب وخوفاً من فقدان السّلامة والأمن⁽³⁾، ويعرفه أحمد بن محمّد أبا بطين

(1) - يُنظَر: الرَّاغِبُ الْأَصْفَهَانِي، المفردات في غريب القرآن، حرف الرّاء (مكتبة نزار مصطفى الباز، ج1، د، ت)، ص 269.

(2) - ابن منظور، لسان العرب، مادة رهب (بيروت: دار المعرفة، ج1، د، ت)، ص 1237.

(3) - علي عبد الحليم، فقه الدّعوة إلى الله (مطابع دار الوفاء، ط3، 1412هـ/1991م)، ص 232.

بالقول: (هو عملية دفع المدعو إلى رفض وترك وتقبيح المنكر، وإن كان وفق هواه أحياناً)⁽¹⁾ ويعرفه الدكتور عبد الكريم زيدان بالقول: (الترهيب كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله)⁽²⁾ ويعرفه الدكتور محمد أبو الفتح البيانوني في حديثه عن الموعظة الحسنة في اصطلاحها الدعوي بأنها: (ترادف النصيحة، ولها أشكال عديدة منها: الترهيب والترغيب، فهنا جعل الترهيب وجهاً أو شكلاً من أشكال النصيحة)⁽³⁾، وكأن الذي يرهّب المدعويين إنما هو ينصحهم، أما الشيخ محمد الغزالي رحمه الله فقد جعل الترهيب مرادفاً للخوف، وعرف الخوف بقوله: هو إحساس فطري يؤدي نتائجه في سهولة... وهذا الخوف كمال نفسي وليس مرضاً ولا شبه مرض)⁽⁴⁾ ويقول الإمام ابن الجوزي رحمه الله عن الخوف: (الخوف خاصّة من خواص النفس تظهر عند المخوف، والخوف لما يستقبل)⁽⁵⁾ وعرف الدكتور حسن الشرقاوي الترهيب فقال: (هو نوع من التذكير بما آلت إليه النفس من ارتكاس ونكوص ووقوع في الرذائل والآثام)⁽⁶⁾ وفي تعريف آخر له: (هو تخويف المدعو من التّمادي في الانحراف، والبعد عن منهج الإسلام اللطيف)⁽⁷⁾ وعليه بعد استعراضي للمفاهيم اللغوية والإصطلاحية للترهيب تبين أنّها متقاربة في المعنى وهي تحقّق الهدف الدعوي، فجاء بمعنى: التخويف، والتهديد، والتّحذير، والتذكير، والنّصح.

ب- أسلوب الترهيب في دعوة النبي ﷺ

- البدء بنذارة الأقربين

بعد نزول الآية ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214] عمل النبي ﷺ جاهداً على إنذار أقربائه من خطر الشرك والوثنية، وكان أمراً من الله تعالى، يحكي ابن عباس رضي الله عنهما عن ذلك فقال: «لَمَّا نَزَلَتْ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ، صَعَدَ النَّبِيُّ ﷺ الصُّفَا فَجَعَلَ ينادي يا بني فهر، يا

(1) - أحمد بن محمد أبا بطين، الترهيب في الدعوة في القرآن والسنة، المرجع السابق، ص 2.

(2) - عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، المرجع السابق، ص 421.

(3) - يُنظر: محمد أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، المرجع السابق، ص 258.

(4) - أحمد بن محمد أبا بطين، الترهيب في الدعوة في القرآن والسنة، المرجع السابق، ص-ص 20، 21.

(5) - ابن الجوزي، نزهة الأعين التواظر في علم الوجوه والنظائر، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 1، ج 1، 1404هـ/1984م)، ص 279.

(6) - أحمد بن محمد أبا بطين، الترهيب في الدعوة في القرآن والسنة، المرجع السابق، ص 21.

(7) - محمد الجوهري، الموعظة الحسنة وأثرها في الدعوة، المرجع السابق، ص 2.

بني عدي، لبُطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ف جاء أبو لهب وقريش فقال: رأيتمكم لو أخبرتمكم أنّ خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدّقي؟ قالوا: نعم، ما جرنّا عليك إلاّ صدقاً قال: فإنّي نذيرٌ لكم بين يديّ عذابٍ شديدٍ، فقال أبو لهب: تبّاً لك سائر اليوم ألهذا جمعنا، فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ ۚ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَأُمْرَأَتُهُ ۖ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾^(١) كما نزلت هذه الآية كأمر إلهي للنبي ﷺ لرفع المحاباة والتّغيب في دعوة الإسلام بأُتَمَّا الخير كلّ الخير، فأمر أن يبدأ بدعوة قومه وعشيرته وأقربائه أولاً، عن أبي هريرة ؓ قال: «لَمَّا نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ قريشاً فعمّ وخصّ فقال: يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النّار، يا بني مرّة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النّار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النّار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النّار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النّار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النّار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النّار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النّار فإنّي لا أملك لكم من الله شيئاً غير أنّ لكم رجماً سابلها ببلاها»^(٢)، وقال: «يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمّة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت رسول الله ﷺ سليني ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً»^(٣) فَقَدْ عمّ النّبي ﷺ خطابه قريشاً وشملها وخصّ بعض بطونها بأن يشتروا أنفسهم من الله فقال لهم: «أسلموا تُسَلِّمُوا من العذاب، فإنّ لكم رجماً سابلها ببلاها»^(٤) أشار النّبي ﷺ بأنّ لكم رجماً ساصلها بوصلها الحقّ، بمعنى إنّّي أعطيتكم ما تسألون، ولكن لا تسألوني دفاعاً عنكم عند الله إنّ لم تُسَلِّمُوا وتعملوا خيراً، قد يكون المقام هنا مقام التّخويف والتّحذير، أو أنّه أراد المبالغة في الحضّ على العمل جاء ذلك في

(١) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التّفسير، باب ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، رقم الحديث 4770، ص 1196.

(٢) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، رقم الحديث 348، ج 1، ص 192.

(٣) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التّفسير، باب ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، رقم الحديث 4771، ص 1196.

(٤) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، رقم الحديث 203، ص 192. وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التّفسير، باب ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، رقم الحديث 4770، ص 1196.

قوله: «لا أعني عنكم من الله شيئاً»⁽¹⁾ تشير الآية من الجانب الدّعوي أنّ الأقربين أحقّ الناس بالنصيحة والتّوجيه، وكان الأمر الرّباني إنذار الأقرب فالأقرب من قومه، فيبدأ في ذلك بمن هو أولى بالبداة ثمّ الذي يليه، بمثل ما بدأ النبي ﷺ بزوجه خديجة وأبناء عمومته وأصحابه ثمّ قومه ثمّ القبائل والأمصار، لأنّ عامّة الناس غالباً ما ينظرون إلى قرابة الدّاعية، فهو محلّ التقدير في أعماله وتصرفاته وأهل بيته وأسرته وأقربائه في مدى تطبيقهم لما يدعو إليه، وهنا حريّ بالدّاعية أن يكون قدوة في نفسه أولاً قبل غيره، بحيث عليه أن يبدأ بأقرب الناس إليه، يُلزمهم بما يأمر به الناس ويدعوهم إليه، ثمّ يتوجّه إلى الناس، ولأهميّة ذلك كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء جمع أهله فقال: «إني نهيّت الناس عن كذا وكذا، وإنّ الناس ينظرون إليكم نظر الطّير إلى اللحم، وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله إلّا أضعفت عليه العقوبة»⁽²⁾ ويقول الإمام الحافظ ابن حجر رحمه الله في هذا الأمر: (والسرّ في الأمر بإنذار الأقربين أولاً، أنّ الحجّة إذا قامت عليهم تعدّت إلى غيرهم وإلّا كانوا علّة للأبعدين في الإمتناع، وأن لا يأخذه ما يأخذ القريب من العطف والرّأفة، فيحاييهم في الدعوة والتّخويف فلذلك نصّله على إنذارهم)⁽³⁾ فالقرشيّون كانوا واقعيّين عمليّين فلمّا رأوا النبي ﷺ وشهدوا عليه بالصادق الأمين هداهم بإنصافهم وذكائهم فأذعنوا إلى تصديقه فقالوا: (نعم)، ولمّا تحقّقت شهادتهم أنذرهم قائلاً لهم: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»⁽⁴⁾ كان أسلوب النبي ﷺ هنا موعظة وإنذاراً في حكمة وبلاغة لا نظير لها في التّاريخ، فسكت القوم من ذلك ولكن أبا لهب قال: «تبّاً لك ما جمعنا إلّا لهذا، ثمّ إنصرف فنزل قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾»⁽⁵⁾ وفي رواية أخرى: «تبّاً لك سائر اليوم أمّا دعوتنا إلّا لهذا»⁽¹⁾ فكانت النتيجة الصّدّ

(1) - يُنظر: موسى شاهين لاشين، فتح المنعم شرح صحيح مسلم (القاهرة: دار الشّروق، ط 1، ج 2، 1423هـ/2002م)، ص-ص 41، 45.

(2) - سعيد بن علي بن وهف القحطاني، مقوّمات الدّاعية النّاجح (المملكة العربية السّعودية: مكتبة الملك فهد الوطنية، ط 1، 1415هـ/1994م)، ص 325

(3) - سعيد بن علي بن وهف القحطاني، فقه الدّعوة في صحيح الإمام البخاري، المرجع السّابق، ص 87. وابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب التّفسير، باب ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، رقم الحديث 4770، ج 8، المرجع السّابق، ص-ص 502، 503.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التّفسير، باب ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، رقم الحديث 4770، ص 603.

(5) - عمار دحماني، منهج النبي ﷺ في مواجهة التّحدّيات الدّعوية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، كليّة العلوم الاجتماعيّة والإسلاميّة، قسم أصول الدّين، 1430هـ/2009م، ص 31.

والإعراض والإيذاء النفسي والجسدي والمقاطعة والحصار الإقتصادي والاجتماعي... بدأ أثر منهج النبي ﷺ العاطفي بقوة في كلامه ﷺ ومن خلال عاطفته المبذبة تجاه عشيرته وحرصه على أن يسلموا لله تعالى قبل أن يحاسبهم وهم على شركهم الوثني، فأوضح إليهم أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلة بينه وبينهم، وأن عصبية القرابة التي يقوم عليها العرب ذابت في حرارة هذا الإنذار الذي جاء من عند الله، فقد دعا قومه إلى الإسلام ونهاهم عن عبادة الأوثان ورغبهم في الجنة وحذّره من النار، فالنبي لم يضرب لصرخات قريش واستمر يدعو إلى الله ليلاً ونهاراً سرّاً وجهراً⁽²⁾ هذا بلا شك أن الداعية إلى الله عليه أن يبدأ أول شيء بنفسه، يمثل لأوامر الله ويجتنب نواهيه، قبل أن يدعو الآخرين⁽³⁾، ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ إِنَّ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: 88] وكذلك الله جلّ وعلاه عاب على بني إسرائيل: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 44] ثم يوجّه دعوته إلى عشيرته وأهله وأقربائه فإنهم أولى الناس بالدعوة إلى الله، فهي من الصلة والبر، ودلالتهم على الخير منصفة الإحسان، وأن يعلم حال من يدعوهم وأن يستخدم الترهيب بأسلوب لين ذو حكمة، كالتذارة والتحذير دون الوعيد، وهذا يمثل أحد صور المنهج العاطفي في الدعوة يؤدي إلى استمالة القلوب وقبولها للحق وثباتهم على الدين، وكما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها: «أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله ﷺ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ فقال أسامة فكلّمه أسامة فقال رسول الله ﷺ أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم قام فخطب ثم قال: إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وإني لله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»⁽⁴⁾ إن رد النبي ﷺ لأسامة وشفاعته للمرأة المخزومية التي سرقت في عهده أن يقيم حد السرقة عليها لأسباب يراها النبي ﷺ تخدم دعوته ومصالح الناس من بعده، وأن الأمر لا ينبغي

(1) - علي محمد الصلابي، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (بيروت: دار المعرفة، ط7، 1429هـ/2008م)، ص-ص 120، 121.

(2) - سعيد بن علي بن وهف القحطاني، مواقف النبي ﷺ في الدعوة إلى الله، سلسلة الرسائل الدعوية ط1، ص 10.

(3) - إبراهيم بن عبد المطلق، التدرج في دعوة النبي ﷺ (مركز البحوث والدراسات الإسلامية، ط1، ج1، 1417هـ)، ص 150.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم الحديث 3475، ص 438.

السُّكُوت عليه والتَّساهل في حكم من أحكام الإسلام، فالموقف هنا بحاجة إلى هذا التَّرهيب لأنَّ النبي ﷺ نظر في عواقب الأمور التي هي أساس صلاح المجتمع ودوام إستقراره، فقد كان ﷺ يقول: «لو أن أقرب النَّاس إليه فاطمة سُرقت لقطعت يدها» فقد جرَّد عاطفة الأبوة أمام حدٍّ من حدود الله، وأراد أن يقول أني أنا رسول الله إليكم لا أملك أمر نفسي فنفسي بيد خالقها يقبلها كيف شاء⁽¹⁾ ولا يعني قطع يد السَّارق ينافي رحمة النبي ﷺ بل إنَّه قد شرع في ذلك رحمة بالسَّارق لأمر كثيرة فإن قطع يده في ذلك مصالح عديدة، فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «إني لأذكر أوَّل رجل قطعه رسول الله ﷺ أتى بسارق فأمر بقطع يده فكأنما أسف وجه رسول الله ﷺ، أي حزن على الرَّجل عندما قطعت يده فقال: يا رسول الله كأنك كرهت قطعه؟ قال: وما يمنعني؟ لا تكونوا أعوانا للشَّيطان على أخيكم أنَّهُ لا ينبغي للإمام إذا انتهى إليه حدٌّ إلَّا أن يقيمه إنَّ الله عفو يحبُّ العفو: ﴿وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾»⁽²⁾ [التَّور: 22].

- فتح باب الرِّجاء والملاينة عند التَّرهيب

قد يرى بعض الدُّعاة اليوم أنَّ أصل أمرهم الدَّعوي قائمٌ على محبَّة النَّاس والعطف عليهم فيفتح لهم باب الرِّجاء والأمل فيما عند الله تعالى سواء بأسلوب التَّرجيب الذي تطرَّقت إليه سابقاً، أو بأسلوب التَّرهيب الذي يثير فيهم الخوف والرَّهبة وفقدان السَّلامة والأمن، فالنَّاس بفطرتهم لا يستجيبون إلَّا إذا أخيفوا أو هُدِّدوا، وهذا النَّوع أحياناً لا يمثل المنهج العاطفي في حقيقته فعندما نلاحظ أسلوب النَّبي ﷺ نجده قد استخذه بملاينة ورفقٍ أن دعاهم إلى معرفة الله والتَّعلُّق به فأخوف النَّاس أتقاها عند الله، يقول عليه الصَّلَاة والسَّلام: «إني لأحشاكم الله وأتقاكم الله»⁽³⁾ وفي رواية عائشة أمُّ المؤمنين رضي الله عنها: «والله إني لأعلمهم بالله وأشدَّهم له خشية»⁽⁴⁾ فالنَّبي ﷺ كان يريد من النَّاس حبَّ الله تعالى ومعرفته حقَّ المعرفة والذي يفتح في قلبه باب الرِّجاء لأنَّه بالرِّجاء يكون العبد أخوف النَّاس وأشدَّ خشية له يقول تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾⁽⁵⁾

(1) - أميمة بدر الدِّين، التكرار في الحديث النَّبوي الشَّريف، مجلَّة جامعة دمشق، كُلية الآداب، قسم اللُّغة العربيَّة، المجلد 26، العدد 2، 2010م، ص 90.

(2) - أخرجه أحمد في مسنده، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، تنمَّة عبد الله بن مسعود، رقم الحديث 4168 (بيروت: مؤسَّسة الرِّسالة، ج7، د، ت)، ص 232.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النِّكاح، باب التَّرجيب في النِّكاح، رقم الحديث 5063، ص 647.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من لم يواجه النَّاس بالعتاب، رقم الحديث 2101، ص 756.

[الأعراف: 154] فسعى ﷺ جاهداً في التقليل من الترهيب وفتح باب الرجاء للمذنبين، بطريقة لينة دون رهبة لأن من خلاله اكتسبت دعوته التأييد والنصرة، وهذا منهج عاطفي سلكه النبي ﷺ في بعض الحالات التي تستدعي الإنابة والتوبة، عن أبي هريرة ؓ قال سمعتُ النبي ﷺ قال: «إنَّ عبداً أصاب ذنباً وربما قال: أذنب ذنباً، فقال ربِّ أذنبت، وربما قال: أصبت، فاغفر لي فقال ربه: أعلم عبدي أنَّ له ربّاً يغفر الذنب ويأخذ به غفرت لعبدي، ثمَّ مكث ما شاء الله ثمَّ مكث ما شاء الله ثمَّ أصاب ذنباً أو أذنب ذنباً، فقال: ربِّ أذنبتُ أو أصبت آخر فاغفره، فقال: أعلم عبدي أنَّ له ربّاً يغفر الذنب ويأخذ به غفرت لعبدي، ثمَّ مكث ما شاء الله ثمَّ أذنب ذنباً وربما قال: أصاب ذنباً، قال: ربِّ أصبت أو قال: أذنبت آخر فاغفره لي، فقال: أعلم عبدي أنَّ له ربّاً يغفر الذنب ويأخذ به، غفرت لعبدي ثلاثاً فليعمل ما شاء»⁽¹⁾ فالنبي ﷺ جمع بين الخوف والرجاء لأنه يعلم أنَّ النفوس بطبيعتها تميل إلى من يراعي حالها ويغدق عليها بالرجاء بدل الخوف يقول تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: 57] فكلاهما له تأثير خاص في النفس، ونبينا الكريم - ﷺ - عندما يدعُو الناس يراعي مشاعرهم ما نسي أنَّ هناك أنفساً بحاجة إلى ملاينة لكي لا يتسرَّب إليهم القنوط واليأس إلى أذهانهم، وأنَّ هناك أنفساً بحاجة إلى الاستدراج بالتخويف حتَّى تنخلع ممَّا تشبثت به من معاصي، يقول الإمام النووي معلِّقاً على ما سبق: (لو تكرَّر الذنب مائة مرة أو ألف مرة أو أكثر، وتاب في كلّ مرة قبلت توبته وسقطت ذنوبه، ولو تاب عن الجميع توبة واحدة بعد جميعها صحَّت توبته، وهذا جاء على القاعدة التي ذكرها ﷺ: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، وييسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتَّى تطلع الشمس من مغربها»⁽²⁾ فأسلوب الترهيب هنا استخدمه النبي ﷺ تارة للتخويف، وتارة للتَّحذير خصوصاً مع الطُّغاة والكفرة، وهو ما حدث عندما مرَّ ﷺ على أبي جهل وأبي سفيان وهما جالسان فقال أبو جهل: «هذا نبيُّكم يا بني عبد شمس، فقال أبو سفيان: وتعب أن يكون منَّا نبيُّ فالنبيُّ يكون فيمن أقل منَّا وأذل؟ فقال أبو جهل: أعجب أن يخرج غلام من بين شيوخ نبيِّاً، ورسول الله ﷺ يسمع فأتاهما فقال: أمَّا أنت يا أبا سفيان فما لله ورسوله غضبت ولكنك حميت الأصل، وأمَّا أنت يا أبا الحكم فو الله لتضحكن قليلاً ولتبكين

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التَّوْحِيد، باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾، رقم الحديث 7507، ص 1852.

(2) - النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم، كتاب التَّوْحِيد، باب قبول التَّوبَة من الذُّنُوب وإن تكرَّرت الذُّنُوب (بيروت: دار إحياء الثَّراث العرب، ط 2، ج 17، 1392هـ)، ص 75.

كثيراً»⁽¹⁾ تبين منهج النبي ﷺ العاطفي في موقفه مع كبار المشركين حينما تهجموا عليه بكلام جرح غير لائق، فتحلّى بالصبر وضبط النفس بعدم مقارعة القوة بالقوة حرصاً على حياتهم وخوفاً على الدعوة، لأنها لا زالت في بدايتها ولم يشتدّ عودها، فاختار الحكمة في الردّ حفاظاً على الدعوة، والداعية إلى الله رسول دعوته، والنبي ﷺ قدوته مطالب أن يسعى إلى استثمار هذا الأسلوب الوجداني المثمر في النفوس، فهو من أنجح الأساليب المنهج العاطفي وأكثرها فاعلية في دعوة المذنبين وأهل الشؤء.

رابعاً: أسلوب الإشارة اللطيفة

إنّ بلاغة الكلام لا تقتصر على الكلام المنطوق وحده، وإنما تشتمل على بعض الحركات بغرض التواصل مع الطرف الآخر، وهذه الحركات متمثلة في الحركات الجسمية المختلفة من بينها لغة الجسد والإشارة، استخدمها البلاغيون ورجال الاتصال والدعوة في البيان والإقناع، ومما لاشكّ فيه أنّ أساليب الموعظة في أمر من الأمور تقتضي ألا يكون على صورة واحدة وإلاّ أدت إلى الثفور والسأم، لأنّ النفس البشرية تميل إلى التحدّد والتنوع المستمر، وقد تعرضت فيما سبق إلى أسلوب الترغيب والترهيب والقصة، وفيما يلي هنا شكلاً آخر في الموعظة متمثل في الإشارة، وهي من أهمّ الأساليب التي استخدمها النبي ﷺ وكان لها أثر كبير في دعوته، وقبل الحديث في جانبها التطبيقي وبيان أثرها في دعوة النبي ﷺ يجدر بنا التعرف على معنى الإشارة من الجانب اللغوي والإصطلاحي.

أ- مفهوم الإشارة

تعتبر الإشارة من أكثر الوسائل والأساليب استخداماً في الدعوة من خلال الإتصال غير اللفظي، فلا تقتصر على نقل الأفكار والمعاني كاستخدام الكلمات المقروءة أو المنطوقة، بل يتبع ذلك التأثير في المدعو من خلال الإشارة بالحركات ليكون أكثر وقعا على القلوب والعقول، فالجسد وسيلة نقل صادقة لحركاته وسكناته، ولمعرفة أثرها في دعوة النبي ﷺ يجدر بنا التعرف على مفهومها اللغوي والإصطلاحي.

– لغة

- يعرفها العلامة ابن منظور بالقول: (أشار الرجل يشير إشارة، إذا أومأ بيده، ويقال: شورت إليه بيدي وأشرت إليه أي لوّحت إليه، وألحت أيضاً، وأشار إليه باليد أومأ، وأشار عليه بالرأي

(1) - ابن كثير، البداية والنهاية، (بيروت: دار المعرفة، ط4، ج3، 1419هـ)، ص 81.

وأشار يشير إذا ما وجَّه الرَّأي، والمشيرة هنا الأصبع التي يقال لها السَّبَّابة، يقول تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ [مریم: 29]⁽¹⁾ ويعرّفها العلامة الفيروز الآبادي بالقول: (وَرَدَتْ الإشارة بمعنى الإيماء باليدِ أو الرَّأس، أي أومأتُ إليه، وهي ترادف التُّطق في فهم المعنى، كما لو استأذنه في شيءٍ فأشار بيده أو رأسه أن يفعل أولاً يفعل، وشوّر إليه بيده أوماً ولوّح كإشارة ويكون بالكفّ والعين والحاجب)⁽²⁾ وفي تعريفٍ آخرٍ لها: (وَرَدَتْ الإشارة بمعنى الإيماء باليدِ أو الرَّأس، وهي ترادف النطق في فهم المعنى كما لو استأذنته في شيءٍ فأشار بيده أو برأسه أن يفعل أو لا يفعل، إنَّ فنَّ الإشارة أخذ بعداً جديداً حيث استخدمه البلاغيون وهو تعبير باللفظ الظاهر عن المعنى الخفي كما في قوله تعالى في سورة [آل عمران: 37] أي: هو رزق لا يأتي به في ذلك الوقت إلاّ الله تعالى⁽³⁾، فإسم الإشارة هو ما وضع ليدل على معين بواسطة إشارة حسّية أو معنوية، وله ألفاظ معينة، وبعضهم عرّفه بأنّه الاسم المبهم، ووجه إبهامه عمومته وصلاحيته للإشارة به إلى كل جنس وإلى كل شخص نحو هذا حيوان، هذا رجل وما إلى ذلك⁽⁴⁾ وعليه من خلال عرض المفاهيم اللُّغوية جاءت الإشارة بمعنى: الإيماء، والتَّلويح.

– اصطلاحاً

- أمّا تعريفها من النَّاحية الإصطلاحية فقد وردت فيه تعريفات كثيرة ومتنوّعة منها :
- عرّفها العلامة الجاحظ والذي يُعدُّ أوَّل مَنْ لَفَتَ الأنظار إلى الإشارة وأهمّية استخدامها في الكلام، وقد اشترط بلاغة المعنى توافق الإشارة مع اللفظ وعدم تنافرها، فقال: (وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة أبين وأنور كانت أنفع وأنبج، وقد حدّد الجاحظ أعضاء الإشارة الجسمية بقوله فأما الإشارة فباليدِ والرَّأس والعين والحاجب والمنكب)⁽⁵⁾.

(1) – إِبْنُ منظور، لسان العرب، مج4، المصدر السَّابِق، ص 2358.

(2) – الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مج 2، المصدر السَّابِق، ص 67.

(3) – محي الدّين الدرويش، إعدداد القرآن الكريم وبيانه (حمص: دار الإرشاد للشؤون الجامعية، ط3، ج 4)، ص 502.

(4) – برير محمّد أحمد سناده، أسماء الإشارة دراسة تطبيقية، رسالة ماجستير في اللغة العربية، جامعة الخرطوم كلية الدراسات العليا، كلية الآداب، قسم اللّغة العربية، 2007م، ص 31.

(5) – الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، المرجع السَّابِق، ص 77. والحيوان للجاحظ، تحقيق: فوزي عطوري (بيروت: دار الفكر العربي، ج3، 1982م)، ص 39.

ب- أسلوب الإشارة في دعوة النبي ﷺ

مشروعية الدعوة بالإشارة ثابتة في الكتاب والسنة، وقد وردت آيات قرآنية على ذلك منها ما جاء قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَادَّكُرَ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ۝٤١﴾ [آل عمران: 41] ومعنى قوله: ﴿إِلَّا رَمَزًا﴾ إلا إشارة باليد أو الرأس أو العين أو الحجاب وما إلى ذلك، والنبي ﷺ استخدم أشكالاً مختلفة من الإشارة في أداء الحديث، فإذا أراد أن يبين شدة الأمر ظهر ذلك على ملامحه وفي صوته، وإذا أراد بيان الملازمة جمع بين أصبعيه السبابة والوسطى، وفي حديث النبي ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة» وقال بأصبعيه السبابة والوسطى⁽¹⁾ «فاستخدم ﷺ إشارته العاطفية بطريقة عفوية للتعبير عن مشاعره وعواطفه، بين فيها منزلة اليتيم عنده والجزاء العظيم من يكفل اليتيم في الدنيا، وأنه سيكون قريب المنزل من النبي ﷺ، وعلو منزلته ودخوله الجنة قبل الناس وهذه الإشارة لها أثرها الكبير في النفس، وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو وضعت أصابعه»⁽²⁾ إشارة عاطفية قوية أخرى للنبي ﷺ عنايته بالبنات وحسن تربيتهن، وهو ما كان عليه العرب من كراهية البنات في أن من قام عليها بالمؤونة والتربية كان إلى جانبه في الجنة⁽³⁾ وباستخدامه ﷺ للإشارة الحسية عن سفيان بن عبد الله الثقفي ﷺ قال: «قلت يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به، قال: قل ربّي الله ثم استقم قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليّ؟ فأخذ بلسان نفسه ثم قال: هذا»⁽⁴⁾ كما استخدم النبي ﷺ بيده الشريفتين في إبراز بعض المعاني يستخدمها للكتابة والتفريق بين الفجر الصادق والفجر الكاذب حيناً آخر كما يشير بهما للدلالة على أيام الشهر ومن ذلك قوله: (الشهر هكذا وهكذا و هكذا وصفق بيده مرتين ثم عقد بإبهامه في الثالثة)⁽⁵⁾ كان ﷺ يعتمد عليها

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب اللعان، رقم الحديث 5305، ص 674.

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الإحسان إلى البنات، رقم الحديث 2631، ص 1216.

(3) - محمد أبو العلا أبو العلا الحمزاوي، الخصائص البلاغية للبيان النبوي (مكتبة الرشد، 1428هـ/2007م)، ص 53.

(4) - أخرجه الترمذي في سننه الجامع الكبير، كتاب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان، رقم الحديث 2410 (دار المغرب العربي، ط 1، ج 4، 1996م)، ص 607. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن سفيان بن عبد الله الثقفي.

(5) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب قول النبي ﷺ لا نكتب ولا نحاسب، رقم الحديث 1913، ص 237.

في حديثه، وهو الذي سبق البلاغيين في ذلك، فقد جعل الإشارة في بعض المواضع تتقدّم على اللفظ أو تنوب عنه، وبقدر الدور الذي تؤدّيه الإشارة وإنّما أبعد بلاغة من الصّوت قائلاً ومبلغ الإشارة أبلغ من مبلغ الصّوت⁽¹⁾ فكانت بلاغته ﷺ لم تقتصر على الكلام المنطوق وحده، وإنّما كانت تشمل على بعض الحركات الجسميّة بغرض التّواصل بينه وبين أصحابه، حيث كان يدرك الصّحابة أنّ الإشارة في بيان النبي ﷺ مقام رفيع لا يقلُّ عن مقام اللفظ، فكانوا يقولون: كقول رسول الله ﷺ كذا، وأشار بالسّبابة الوسطى... وشبك بين أصابعه... وخطّ خطوطاً في الأرض.. وما إلى ذلك⁽²⁾ وكما تقدّم استخدام أصابع اليد ودورها في التّخاطب عند رسول الله ﷺ، لها دلالات مختلفة فتارة يستخدم أصبعاً واحدة، وتارة أخرى يستخدم أصبعين وتارة ثلاثة أصابع، وحيناً يشير بأربع، ومرة أصابعه الخمسة وكل مرة تحقّق إشارته ﷺ هدفاً دلاليّاً كتأكيد المعنى أو الانتباه أو ترسيخ فكرة ما، مما جعل شراح الحديث النبوي لها باباً خاصّاً، فتراهم يعنونون لبعض أبوابهم مثل: باب الإشارة في الصّلاة، باب الإشارة في الخطبة، باب من أجاب الفتيا...، ويصف النبي ﷺ أنّه إذا أشار بكفه كلّها، وإذا تعجّب قلبها، وإذا تحدّث اتّصل بها فضرب بإبهامه راحته اليسرى⁽³⁾ فكان يوظّف الإشارة الجسميّة حسب ما يقتضيه المقام مع طبيعة السّياق، حيث يوضّح الرّؤية كاملة في لوحة فنيّة محسوس، وعليه تبيّن استخدام النبي ﷺ للإشارة للتّعبير والتّصوير الفنّي والإنفعالي، فكانت مطابقة للكلام حسب مقتضى حال السّامع وحسب ما أقرّه البلاغيون، فجاءت إشاراته عفوية قادرة على الإيحاء والتّعبير عن مشاعره وانفعالاته وأفكاره وصوره، وتشكيلها من جميع جوانبها النفسيّة والعاطفيّة والواقعيّة، ممّا كان لها أبعد الأثر على مستمعيه، فأسلوب الخطاب العاطفي يستثير العاطفة من مكانها، فيقذف فيها التّأثير والانقياد فتتجذبّ النّفس إلى الإنابة بالتّذكير لها ترغيباً وترهيباً، عن النبي ﷺ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «اشتكى سعد بن عبادة شكوى له، فأثأه النبي ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم، فلمّا دخل عليه فوجده في غاشية أهله فقال: قد قضى؟ قالوا: لا يا رسول الله، فبكى النبي ﷺ فلمّا رأى القوم بكاء النبي ﷺ بكوا، فقال: ألا تسمعون؟ إنّ الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب، ولكن

(1) - مروة إبراهيم سعيان قوته، الأحاديث القدسيّة دراسة بلاغية، رسالة ماجستير في اللّغة العربيّة غزّة، الجامعة الإسلاميّة، كليّة الآداب، قسم اللّغة العربيّة، 1428هـ/2007م، ص 22.

(2) - المرجع نفسه، ص 15.

(3) - مروة إبراهيم سعيان قوته، الأحاديث القدسيّة دراسة بلاغية، المرجع السّابق، ص 16.

يَعَذَّبُ بِهَذَا -وأشارَ إلى لسانه- أَوْ يَرْحُمُ، وَإِنَّ الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ، وَكَانَ عُمَرُ ؓ يَضْرِبُ فِيهِ بِالْعَصَا، وَيَزِمِي بِالْحِجَارَةِ وَيَحْتِي بِالتُّرَابِ»⁽¹⁾ كان النبي يعلم أنَّ للقلوب أقبالاً ولالأقفال مفاتيح، كما أنَّ للقلوب أبواباً ولكل منها مفتاح، فكان يرفق بالمرضى لترجم عيناه بحروف الدَّمع حين حَضَرَتْ وفاة المريض، فكانت حكمة ﷺ في هذا الموقف صادراً عن فعلٍ قوليٍّ وعمليٍّ ليومئٍ للناس بالحكمة من وراء ذلك، والشَّاهد منها أنَّ الإشارة تزيد الكلام قوة وبلاغةً وتأثيراً في النَّفس، ويكفي دليلاً على أهميتها أنَّ أفصح الخلق نبينا محمد ﷺ عبَّر ما في نفسه من معاني جليلة في الدَّعوة بالإشارة، وهذه المعطيات فُرِضَتْ أَنْ تكون الإشارة إحدى أساليب المنهج العاطفي في الدَّعوة، فينبغي على الدَّاعية :إستثمارها وإستخدامها في دعوته ومواعظه وخطبه تأسيساً برسول الله ﷺ، وعندما يخاطب مدعويه ويعظهم وكأنَّه جماد لا يتحرك ولا يظهر عليه أيُّ تفاعل مع كلماته فإنَّ دعوته ستكون جامدة غير مؤثِّرة، لذا ينبغي أن يمتثل إلى أسلوب النبي ﷺ بتجسيد كلامه من خلال إظهار الحزن على ملامح الوجه أو الفرح أو الضَّرب بيده الأخرى أو الإشارة بالإصبع واليد أو الإشارة بها ذات اليمين والشَّمال، بحسب المعاني والكلمات فتكون هذه الإشارات بقدر ما تدعو إليه الحاجة الدعوية لأنَّ الغاية إيصال الدعوة فلا يخرجها عن هذه الغاية.

خامساً: أسلوب الكناية

لأسلوب الكناية أثره الخاص في عمليات الإقناع والتَّأثير وفي الدعوة إلى الله على وجه التَّحديد، وما يميِّزه عن غيره من أساليب البيان في كونها تعطي الحقيقة بالإقناع والإمتاع، ومتى ما جاء المعنى مصحوباً بدليله كان أشدَّ أثراً وتأثيراً وأقوى إقناعاً وأوقع في النَّفس وأعلق بالفؤاد، وأكد للمعنى، وأشدَّ تأثيراً في النَّفوس⁽²⁾، فالكناية هي الوسيلة الوحيدة التي تيسِّر للمرء أن يقول كل شيء، وأن يعبِّر بالرمز والإيحاء عن كل ما يحول بخاطره فكانت أبلغ من التَّصريح بالمعنى ذاته⁽³⁾.

وقبل التَّفصيل في تطبيقات هذا الأسلوب البلاغي في دعوة النبي ﷺ أستهلُّ بتقديم المفهوم اللُّغوي و الإصطلاحي.

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب البكاء عند المريض، رقم الحديث 1304، ص 315.

(2) - أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري، الكناية والتَّعريض، تحقيق: عائشة حسين فريد (القاهرة: دار قباء للطباعة والنَّشر والتَّوزيع، 1998م)، ص 44.

(3) - المرجع نفسه، ص 44.

أ- مفهوم الكناية

- لغة

- يعرفها العلامة ابن منظور بالقول: (أن تتكلم بشيء وتريد غيره)⁽¹⁾ ويعرفها العلامة ابن فارس بالقول: (الكاف والثون والحرف المعتل يدل على تورية عن اسم بغيره يقال: كنييت عن كذا، إذا تكلمت بغيره، مما يستدل به عليه)⁽²⁾ وبناء على ما تم عرضه من المفاهيم اللغوية جاءت الكناية بمعنى: التورية، والإيحاء، والتكلم بشيء يريد غيره.

- اصطلاحاً

ورد مصطلح الكناية في العديد من المؤلفات النقدية والبلاغية، واختلف مفهومها حسب رؤية النقاد والبلاغيين، إذ عرفها كل واحد منهم حسب وجهة نظره، نذكر منهم :

عرفها العلامة عبد القادر الجرجاني بالقول: (الكناية أن يُريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يحى إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به ويجعله دليلاً عليه)⁽³⁾ وفي تعريف آخر لها: (هي إحدى الصور البلاغية المعروفة على مستوى التعبير، ومستوى البحث البياني، والكناية هي ترك التصريح، أي التعبير المباشر غير الخفي، أو أن تتكلم بشيء ونريد غيره، وهي ذات معنيين إرادة المعنى الحقيقي والمعنى اللازم)⁽⁴⁾ فمن خلال ما عرض من المفاهيم اللغوية والإصطلاحية تبين أن الكناية ظهرت بمعنى: التكلم بشيء وتريد غيره، إثبات المعنى دون لفظ، تصريح غير مباشر.

ب- أسلوب الكناية في دعوة النبي ﷺ

إن التعبير الذي يتخذ شكل الصور الكنائية تعبير بليغ أجمل من التعبير المباشر، وقد ذكر ابن الأثير بالقول: (الحديث الجامع لها هو أنها كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز، والدليل على ذلك أن الكناية في أصل الوضع أن تتكلم بشيء وتريد غيره، يقال: كنييت

(1) - ابن منظور، لسان العرب، مادة كنى (بيروت: دار صادر، ط 1، ج 15، د، ت)، ص 233.

(2) - أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون مادة كنو (دار الفكر، ج 5، 1399هـ/1979م)، ص 139.

(3) - عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، دلائل الإعجاز، فصل في اللفظ يطلق والمراد به غير ظاهره، د، ت، د، ط، ص 66.

(4) - أحمد يوسف علي، البلاغة العربية دراسات ونصوص، د، ط، د، ت، ص 18.

بكذا عن كذا فهي تدلُّ على ما تكلمت به وعلى ما أوردته عن غيره⁽¹⁾ وقد ظهرت هذه الكناية في حديث أبي هريرة ؓ عن الأعرابي الذي بال في المسجد حينما سلّم عليه النبي ﷺ قائلاً له: «لقد حجّرت واسعاً^(*)» يريد رحمة الله، فتتمثل الكناية هنا في كلمة واسعاً، وهي كناية عن موصوف هو رحمة الله فيها جرى القرآن ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 156] يقول الدكتور أحمد ياسوف^(*): (إنَّ الإسلام يستبعد تضخم الذات على حساب الآخرين ثم إنَّه قلب الرواية ليستنبط من كلِّ معناه، ففي كلمة حجرت معنى القسوة والشدة لإقترانها بالحجر، والأعراب يوسمون بقسوة وتحجّر، ولكنهم لا يؤبنون بدناءة نفس أو هبوط حيواني)⁽²⁾ ومن لطائف الكنايات النبوية قوله لفاطمة بنت قيسٍ لما حللت - أي انقضت عدتها - وذكرت أنَّ معاوية بن أبي سفيان وأبا جهم خطباها فقال لها رسول الله ﷺ: «أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لا مال له، إنكحي أسامة بن زيدٍ فكرهته، ثم قالت: فنكحته فجعل الله فيه خيراً واغتبطت به»⁽³⁾ وجاء في حديث أبي هريرة ؓ قال: «قلت يا رسول الله إني رجلٌ شاب وأنا أخاف على نفسي العنت ولا أجد ما أتزوَّج به النساء، فسكت عني، ثم قلت: مثل ذلك، فسكت عني، ثم قلت: مثل ذلك، فسكت عني، ثم قلت: مثل ذلك، فقال النبي ﷺ: يا أبا هريرة! جفَّ القلم بما أنت لاقٍ، فاخص على ذلك أو ذر»⁽⁴⁾ فالعنت هنا كناية عن الزنا، وأبا هريرة لم يجد ما يتزوَّج به النساء، فطلب من النبي ﷺ أن يؤذن له بالإختصاص، فكان رده ﷺ بعد أن سكت عليه مرّات: «لقد جفَّ القلم بما أنت لاقٍ فاخص على ذلك أو ذر» أي: نفذ المقدور بما كتب في اللوح المحفوظ، فبقي القلم الذي كتب به جافاً لإمداد فيه لفراغ ما كتب فيه فاخص على ذلك أو ذر، بمعنى إقتصر على الذي

(1) - حميد قبائلي، الصُّورة البيانية في المدحة النبوية، المرجع السابق، ص 90.

(*) - «لقد تحجرت واسعاً: أي ضيق ما وسعه الله وخصصت به نفسك دون غيرك، (يُنظر: التَّهْيَاة في غريب الحديث والأثر، مادة حجر، ج 1، المرجع السابق، ص 342).

(*) - أحمد ياسوف: كاتب معاصر، أستاذ بكلية الآداب بجامعة حلب، (يُنظر: بحث جماليات المفردة القرآنية، مركز القائمية بأصفهان للتحرّيات الكمبيوترية، طباعة دار المكتبي بسوريا، ص 10).

(2) - مصعب حمود، الإختراع في الكنايات النبوية وأثره في كلام العرب، كلية الشريعة، قسم علوم القرآن والسنة، مجلّة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، مج 26، العدد 1، 2010م، ص 712.

(3) - النووي، شرح النووي على مسلم، كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها، رقم الحديث 1480، المرجع السابق، ص 936.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب ما يكره التبتل والخصاء، رقم الحديث 5076، ص 1295.

أمرتك به أو أتركه وافعل ما ذكرت من الخصاء، ففي الرواية ليس الأمر فيه لطلب الدفع بل هو للتهديد⁽¹⁾ فينطبق عليه قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: 29] يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: (والمعنى إن فعلت أو لم تفعل فلا بد من نفوذ القدر، فإن الذي قدر فلا بد أن يقع وقوعه على ذلك هي متعلقة بمقدر، أي اختص حال استعلانك على العلم بأن كل شيء بقضاء الله وقدره وليس هذا إذنًا في الخصاء بل فيه إشارة إلى النهي عن ذلك كأنه قال: إذا علمت أن كل شيء بقضاء الله فلا فائدة في الاختصاء)⁽²⁾ استخدم النبي ﷺ الأسلوب الكنائي العاطفي عند موعظته للشباب أن راع موقفه عند الإذن منه للقيام بالفاحشة فلم يقابله برد جري وبغضب وانفعال، وإنما التزم الصمت والسكون مرات وهو يسأله لأنه كان يراعي حالة الشاب فكان رده ﷺ هادئًا لينًا رقيقًا به لأنه يعلم تأثيره في النفس وشدة وقرة في القلب، وهذا من مميزات الكناية وجمالها التي استطاع النبي ﷺ أن يثبت بها الإيمان بالقضاء والقدر ودفعه من الوقوع في الفاحشة خوفًا عليه، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «... وإعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»⁽³⁾ يقول الإمام الحافظ ابن حجر رحمه الله: (هنا كناية عن تقدم كتابة المقادير كلها، والفراغ منها من أمد بعيد، فإن الكتاب إذا فرغ من كتابته ورفعت الأقلام عنه وطال عهده فقد رفعت عنه الأقلام، وجفت الأقلام التي كتب بها من مدادها، وجفت الصحيفة التي كتب فيها، والمداد المكتوب به فيها)⁽⁴⁾ وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: «لقيني رسول الله ﷺ فقال لي: يا جابر ما لي أراك منكسرًا؟ قلت: يا رسول الله استشهد أبي، وترك عيًّا لا وديئًا، قال: قال ألا أبشرك بما لقي الله به أباك؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: ما كلم الله أحدًا قط إلا من وراء حجاب، وأحي أباك فكلّمه كفاحًا، فقال: تمنّ علي أعطيك قال: يا ربّ

(1) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب ما يكره من التبتل والاختصاء، رقم الحديث 4888، ج 9، المرجع السابق، ص - ص 21، 22.

(2) - بتصرف: ابن حجر العسقلاني، كتاب النكاح، باب ما يكره من التبتل والاختصاء، رقم الحديث 4888، ج 9، المرجع السابق ص 22.

(3) - أخرجه الترمذي في سننه الجامع الكبير، كتاب صفة القيامة، باب 59، رقم الحديث 2516، ص 409. وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(4) - مصعب حمود، الاختراع في الكنايات النبوية وأثره في كلام العرب، المرجع السابق، ص 707.

تحيني فأقتل فيك ثانية، قال الرب تبارك وتعالى: إنه قد سبق مني أنهم لا يرجعون قال: وأنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: 169]»⁽¹⁾ فقله كفاحاً أي مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول، والإنكسار كناية عن صفة الحزن والهم، والصَّحابي الجليل حزن على موت أبيه واعتلاه الهم من الديون التي تركها له ومسئولية إخوته الصغار، وهي كناية واضحة للزوم وليس لها وسائط فهي نوع من الإشارة والإيماء، وفي الحديث تطيب ل خاطر الصَّحابي الجليل من الابتلاء الذي نزل به، وكان النبي ﷺ دائماً يهتم بتطيب خواطر أهل الابتلاءات وأصحاب الهموم، ففي الحديث شرف كبير لوالد الصَّحابي أن كلمه الله دون حجاب، وبشرى بالثواب العظيم الذي ينتظره في الآخرة حتى أنه تمى أن تردّ روحه فيقتل مرة أخرى، كما جاء في الحديث التعبير عن الموت في كنيات الأحاديث القدسية بعدة ألفاظ منها القبض، خروج الروح، لقاء الله واشتمل بعضها على معاني المواساة والتطبيب لمن ابتلي بمصيبة الموت أو غيرها من المصائب الأخرى⁽²⁾ مثال ذلك عن أبي موسى الأشعري ؓ: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبِضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبِضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمْدُكَ وَاسْتِرْجَع، فَيَقُولُ اللَّهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ»⁽³⁾ وعن جابر ؓ قال: «جاء سراقه بن مالك بن جعشم قال: يا رسول الله بين لنا ديننا كانا خلقنا اليوم فيما العمل اليوم أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما تستقبل؟ قال: لا بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير، قال ففيم العمل؟ فقال: إعملوا فكل ميسر» فالتبى ﷺ لم يزد في الجواب الأوّل على ما قاله سراقه من هذه الكناية تأكيداً واستحساناً وتمكيناً لها في بابها، فاستخدم الكناية لأهداف سامية منها الإيجاز، فقد أوتي جوامع الكلم ومنها تعليم الأدب والسُمُو بالألفاظ إلى غير ذلك، إضافة إلى هدف التأثير فإنّ للكناية جمالاً لغوياً مثيراً في النفوس والمشاعر والأحاسيس، مما

(1) - أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب من سورة آل عمران، رقم الحديث 3010، ص 673، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(2) - سوسن محمد عثمان جابر وآخر، بحث حول جماليات الأسلوب الكنائي في الأحاديث القدسية، مجلّة العلوم والبحوث الإسلامية، جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، كلية العلوم، قسم اللغة العربية، كلية اللغات 2018م، ص 54.

(3) - أخرجه الترمذي في سننه، جامع الترمذي، باب فضل المصيبة إذا احتسب، حديث رقم 1021، المصدر السابق، ص 242، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب. وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والورع عن رسول الله ﷺ، رقم الحديث 2516، ص 186. وقال: هذا حديث صحيح.

ينبغي على الدّاعية أن لا يغفل هذا الأسلوب المؤثّر، وأن يكون على دراية بالأساليب البلاغية التي تعطي للكلام جمالاً ورونقاً وجذباً بما فيها الكناية التي تعد إحدى أساليب المنهج العاطفي.

سادساً: أسلوب المدح

أ- مفهوم المدح

- لغة

- يعرفه العلامة ابن منظور بالقول: (المدح نقيض الهجاء، وهو حسن الثناء، وقيل الوصف الجميل، وعدّ المآثر)⁽¹⁾ ويعرفه العلامة الفارابي بالقول: (هو الثناء الحسن، وقد مدّحه وامتدّحه بمعنى واحد، وكذلك المدحة والمديح والأمدوحة، وتمدّح الرجل تكلف أن يمدح، ورجل مُمدّح أي ممدوح جدّاً، وامدّح بطنه: لغة في إمدح إذا اتسع وتمدحت خواصر المشية أي: اتسعت شعباً)⁽²⁾ ويعرفها العلامة ابن فارس بالقول: (جذر الفعل (م، د، ح) يدل على وصف محاسن لكلام جميل ومدحه مدحاً: أحسن عليه الثناء والأمدوحة المدح، ويقال المنقبة أمدوحة)⁽³⁾ ومن خلال عرض المفاهيم اللغوية جاء المدح بمعنى: الثناء الحسن، وصف محاسن الشيء، الوصف الجميل.

- اصطلاحاً

- المدح من أساليب الدعوة المؤثّرة، والتي وقف عليها علماء البلاغة الأوائل وفصلوا في الحديث عنها::
- يعرفه العلامة الجوهري بالقول: (بأنه وصف محاسن بكلام جميل، ومدّحه يمدّحه مدحاً أحسن عليه الثناء، وقد مدّحه وامتدّحه، بمعنى وكذلك المدّحه والمديح والأمدوحة، وأنشد أبو عمرو لأبي ذؤيب: لو كان مدّحه حيّ مُنْشِراً أحداً أحياناً أباننّ ياليلي الأماديخ⁽⁴⁾).
- ويعرفه العلامة الجرجاني بالقول: (المدح هو الثناء الحسن باللسان على الجميل الاختياري قصداً، وعبر عنه آخرون بأنه ذكر مناقب شخص أو هيئة اجتماعية أو مزايا عمل من الأعمال في خطاب علني نثراً أو شعراً، فمن البديهي أن يكون المادح راضياً عن الممدوح، وعنده من القبول النفسي ما يدفعه إلى التصريح بالمدح، فأسلوب المدح يظهر على شكل عبارات ثناء يجسدها

(1) - يُنْظَر: ابن منظور، لسان العرب، مادة الميم، ج2، المصدر السابق، ص-589، 590.

(2) - الفارابي، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربية، المصدر السّابق، ص 403.

(3) - أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللّغة، كتاب الميم، ج5، المصدر السّابق، ص 308.

(4) - الجوهري، تاج اللّغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور، مادة مدح (دار الملايين، ط4، مج6، 1990م)، ص

الكلام، فهو قول يجسد قبولاً نفسياً يحاول من خلاله التأثير في السامع بأن ينقل كل هذا القبول إليه أو بعضه من خلال إظهار الجوانب الحسنة⁽¹⁾ والمدح في هذه الدراسة هو مدح لغوي مقتصر باللسان أو بغيره كالإشارة مثلاً، وقد نَوَّع النبي ﷺ في أسلوب المدح في مواضع عديدة سنذكرها لاحقاً، وقد يكون المدح بإرادة الشخص المدح وباختياره، في حين نجد الشعراء يمدحون لغاية مقصودة أو مصلحة باختياره الحر، والمدح في العادة يكون وصفاً لجميل عندما يكون من البشر غير الأنبياء، أما الأنبياء يكون المدح من جهة التعزيز وتوجيه السلوك نحو فعل الخير، قال تعالى:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ بِالْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: 90].

ب- طريقة النبي ﷺ وأسلوبه في المدح

ظهر المدح في أحاديث النبي ﷺ بصور متعددة، برز فيها أسلوب الدَّعوي والعاطفي لمن استحقوا ثناءه، ومدحه لأتباعه والتمسُّك بما جاء به ﷺ ومن هذه الصور نذكرها كالاتي :

- مدح النبي ﷺ نفسه

إنَّ مدح النبي ﷺ لنفسه يخبر فيها أُمَّته بتكريم الله له وتفضيله إيَّاه عن سائر الأنبياء والرُّسل عليهم السَّلام، لامتيازهم بأسماء منحها الله إيَّاه، فكلُّ اسم يحمل صفةً إنقطع نظيرها لغيره من الأنبياء عليهم السَّلام، عن أبي موسى الأشعري ؓ قال: «كان رسول الله ﷺ يسمِّي لنا نفسه أسماء، فقال: أنا محمَّد وأحمد والمقفي والهاشر ونبيُّ التَّوبة ونبيُّ الرَّحمة»⁽²⁾ والمقفي وكأن المعنى هو آخر الأنبياء والمقفي والعاقب معنى واحد، لأنَّه تبع الأنبياء والمقفي المتَّبِع للنبِيِّين⁽³⁾ استحقاقه ﷺ لهذه الأسماء ليس بغرض التَّباهي بالنَّفْس أو الفخر -حاشا رسول الله- فهو سيِّد العالم أجمع ونبيُّهم، وإِنَّمَا لِيَبَيِّنَ لِلنَّاسِ المَكَانَةَ الجَلِيلَةَ الَّتِي عَلَيْهَا ﷺ وما عُلِمَ عنه من أشرف الصِّفَات وأهم المزايا التي لا تليق إلَّا به ﷺ، فهو الذي يمحو به الله الكفر، لأنَّه ﷺ بعث والدُّنيا مظلمة بغيابه الكفر، فَاتَى بنورٍ ساطعٍ حتَّى مَحَا

(1) - عبد العباس حسن الأسدي، معاني القبول والرفض في القرآن الكريم دراسة في الألفاظ والأساليب، أطروحة دكتوراه فلسفة في اللغة العربية وآدابها، جامعة الكوفة، كَلِّية التَّربِيَّة للبنات، قسم اللُّغة العربيَّة وآدابها، 1430هـ/2009م، ص-ص 149، 150.

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب أسمائه ﷺ، رقم الحديث 2355، ص 1829.

(3) - الطَّبَّي، شرح الطَّبَّي على مشكاة المصابيح المسمَّى بالكاشف عن حقائق السنن، باب أسماء النبي ﷺ وصفاته (الرِّياض: مكتبة نزار مصطفى الباز، ط1، ج12، 1417هـ/1997م)، ص 3684.

الكفر فعلى أثره ﷺ وزال الكفر وأهله⁽¹⁾، وعمَّ نور الهداية للأمة، وهو الذي يحشر أناس خلفه وعلى ملته فيحشر نبينا الكريم قَبْلَ الناس ويحشر الناس على أثره وعلى نبوته وهو خاتم النبيين⁽²⁾ فكان هدف النبي ﷺ من أسلوب المدح هنا ليُعلمهم بأحقية ما جاء به، وأنه ليس بشراً كعامة الناس بل نبيٍّ أوجب عليهم الإيمان برسالته لما اشتمل على صفات لم تنسب إلى أحد غيره، يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: (في معنى أنا محمد وأحمد فهي من أشهر أسمائه فهو أحمد الحامدين وأكثر الأنبياء حمداً وأعظمهم في صفة الحمد، ومحمد من أشهر هذه الأسماء)⁽³⁾، وبالمقابل تحذير الدعاة من مدح أنفسهم لدرجة المبالغة، فهم بشر يعتريهم الخطأ والضعف، فيعدّ ذلك أمراً سلبياً قد تساق دعوتهم إلى التفور والسأم والطعن في شخصهم، وفي الوقت نفسه فقد منع عليه الصلاة والسلام المبالغة في إطرائه ورفع أعلى من بشرته روى عُمر بن الخطاب رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإتما أنا عبده، فقولوا عبد الله ورسوله»⁽⁴⁾، وقوله نبي الرحمة فقد جاء رحمة ومهداة للعالمين، وكانت هذه الرحمة من أهم ميزاته، فكان يعامل من حوله برأفة ولطف وإشفاق فيقول ﷺ: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعث إلى الناس عامة»⁽⁵⁾ ولعظم شخصية النبي ﷺ وثقته بنفسه وتواضعه الجَمَّ فقد أسرَّ به قلوب الموحددين، فقرَّب به البعيد وأقنع الملحددين برسالته لدرجة أن بعض المستشرقين كالدكتور مايكل هارت وهو أمريكي الجنسية قال: (أقرأ في شخصية رسولنا العظيمة وتأثيره الجلي على هذه الأمة فكان أعظم تأثير عالمي في مختلف المجالات، فقد أسس أروع حضارة ونشر أعظم الأديان وأصبح أحد الزعماء العامين السياسيين العظام فإن تأثيره لا يزال

(1) - الطيبي، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بالكشاف عن حقائق السنن، باب أسماء النبي ﷺ وصفاته، المرجع السابق، ص 3683.

(2) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ، رقم الحديث 3535، (القاهرة: دار البيان للتراث، ط1، ج6، 1407هـ/1986م)، ص 641.

(3) - المرجع نفسه، ص 641.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [مريم: 16]، رقم الحديث 3445، ص 854.

(5) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التيمم، باب قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: 6]، رقم الحديث 335، ص 93.

قويًا وعارمًا حتى قيام الساعة⁽¹⁾ إِنَّ هذا تكريم الله له لما إشتمل عليه من أسماء وصفات عظام فضله بها عن سائر الناس ، كتخصيصه بالرحمة ولواء الحمد، وهي أرفع المقامات وأعلى مراتب الأخلاق لأنه أحمد الخلائق يأوي إليه الأولون والآخرون.

- أسلوب الرّجز والشعر الممدوح

وفي موضوع المدح كان النبي ﷺ يمدح الشعر ويدعو إلى التغني به وإنشاده، ويثني على الشعراء فيستمع ويتأثر بكلامهم، وذلك ما رواه أبو داود عندما جاء ردّ النبي ﷺ للأعرابي الذي تكلم بكلام فأعجب به فقال: «إِنَّ من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكماً»⁽²⁾ ومما لاشك فيه أن الشعر المحمود والرّجز الممدوح من أساليب الدعوة التي يجذب بها الدّاعية بعض المدعوين عند الحاجة إلى ذلك، ولكن لا يستعمل منه إلا ما فيه نفع، وحثّ على الخير وترغيب في الطّاعات وتخويف من المعاصي والسيئات⁽³⁾، ولهذا قال عنه النبي ﷺ: «إِنَّ من الشعر حكمة»⁽⁴⁾ فما جاء عنه ﷺ إمّا أن يكون من باب الرّجز، وإمّا أن يكون كلاماً لغيره يتمثل ببعضه وإمّا أن يكون قال ذلك ولم يقصد الشعر ولم يعتن به، وإمّا جاء على لسانه، فإختار الطّحاوي رحمه الله بالقول: (إِنَّ ما حكي عن النبي ﷺ من الكلام الذي ادّعي به أنّه شعرٌ أو رجزٌ هو من الحكيم التي في الشعر، فتكلّم به على لسانه على أنّه حكمة، والله يجري الحكمة على لسانه لا أنّه شعر أرادته ممّا لا حكمة فيه)⁽⁵⁾ بمعنى أن يكون الشعر قولاً صادقاً ما بقي للحقّ، فالشعر منه حسن ومنه قبيح، والدّاعية عليه أن يأخذ بالحسن ويدع القبيح، ولهذا فعله النبي ﷺ عند حفر الخندق مع أصحابه لمّا سمع هذه الأبيات فقد أثّرت فيه حتى دمعت عيناه فقال: «نصرت يا عمرو بنّ سالم، ثمّ عرض للنبي ﷺ عنان من السماء فقال: إِنَّ هذه السّحابة لتستهل بنصر بني كعب»⁽⁶⁾.

(1) - ساجدة أحمد حسين أبو رواع، المدح في السنّة النبوية دراسة موضوعية، رسالة ماجستير، جامعة الأردن، كلّية الدّراسات العليا، 2007م، ص 34.

(2) - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب ما جاء في الشعر، رقم الحديث 5011 (دمشق: دار الرّسالة العالمية، ط1، ج7، 1430هـ/2009م)، ص 358. وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ.

(3) - سعيد بنّ علي بنّ وهف القحطاني، فقه الدّعوة في صحيح الإمام البخاري، (الدّراسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدّعوة والإرشاد، ط1، 1421هـ/2001م)، ص 220.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرّجز والحداء وما يكره منه، رقم الحديث 6145، المرجع السّابق، ص 1535.

(5) - سعيد بنّ علي بنّ وهف القحطاني، فقه الدّعوة في صحيح الإمام البخاري، المرجع السّابق، ص 220.

(6) - ابنُ هشام، السّيرة النبوية (بيروت: دار الكتاب العربي، ط3، ج3، 1410هـ/1990م)، ص 105.

يا ربِّ إِنِّي نَاشِدُ مُحَمَّدًا حَلَفَ أَيْبَا وَأَيْبِهِ الْاِتِّلَدَا
قَدْ كُنْتُمْ وَلَدًا وَكُنَّا وَالِدَا ثُمْتُ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا
فَانصُرْ هَذَاكَ اللَّهُ نَصْرًا أَعْتَدَا وَاذْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدَا
فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا إِنَّ سِيمَ حَسَنًا وَجْهَهُ تَرَبَّدَا
فِي فَيْلَقٍ كَالْبَحْرِ يُجْرِي مُزِيدَا إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَقُوكَ الْمُوعِدَا
وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُوَكَّدَا وَجْعَلُوا لِي فِي كِدَاءٍ رُصَّدَا
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ أَدْعُو أَحَدَا وَهُمْ أَذِلُّ وَأَقَلُّ عَدَدَا
هُمْ يَبْتَئُونَ بِالْوَتِيرِ هُجَّدَا وَقَتَلُونَا رُكْعًا وَسُجَّدَا¹

إِتَّخَذَ النَّبِيُّ ﷺ هذا النوع من المدح ليرفع بها الهمم ويقوّي بها العزائم، وكان أكثر ما يستعمله عند الحرب يقول الإمام الحافظ ابنُ حجر رحمه الله: (وفيه أن في إنشاد الشعر تنشيطاً في العمل، وبذلك جرت عادتهم في الحرب وأكثر ما يستعملون في ذلك الرّجز)⁽²⁾ ولهذا فعله عليه الصّلاة والسّلام في حفر الخندق مع أصحابه، وهذا الرّجز منسوب إلى عبد الله بن رواحة رضي الله عنه⁽³⁾ يقول الإمام العيني رحمه الله: (وفيه استعمال الزجر والشعر إذا كانت فيه إقامة النفوس وإثارة الأنفة ودفع المعرّة)⁽⁴⁾ فالشعر من الأساليب المؤثّرة والبليغة التي استخدمها النبي ﷺ ودعا إلى استخدامهم في الدعوة إلى الله، لما فيه من الحكم والبيان، فلا ينبغي للدّاعية أن يغفل عنه ويستتهين به، فهو من الأساليب البيانية التي يحظى بها المنهج العاطفي لقدرته على التأثير، فالعرب قديماً تتأثر بالشعر أكثر منه من السّرد، وهذا يبين أهميّة هذا الأسلوب عند الحاجة إليه مع الإلتزام بالمحمود منه واجتناب المذموم⁽⁵⁾ وهناك أحاديث كثيرة ومواقف متنوّعة يمدح فيها النبي ﷺ أصحابه في وجوههم وغيابهم، وذلك لما عرف منهم قوّة الإيمان والتّمسك الشديد بالعقيدة الغراء كما أشارت إليه الآية في سورة الفتح.

(1) - المرجع نفسه ، ص 105.

(2) - ابنُ حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، ج7، المرجع السّابق، ص 395.

(3) - المرجع نفسه، ص 395.

(4) - سعيد بنُ علي بنُ وهف القحطاني، فقه الدّعوة صحيح الإمام البخاري، المرجع السّابق، ص 292.

(5) - المرجع نفسه، ص 329.

- مدحه وثناؤه لأصحابه عليهم السلام

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدُّهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان، وأقضاهم علي بن أبي طالب، وأقرأهم لكتاب الله أبي بن كعب، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، ألا وإن لكل أمة أميناً، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»⁽¹⁾ قدّم النبي ﷺ من خلال الحديث السلوك الطيّب لأصحابه الكرام، فخصّهم بالألقاب الحسنة لمن يستحقّها، لكي يكونوا موضع غبطة للمكانة العالية عند النبي ﷺ، حيث ذكر في سنن ابن ماجه للرّاجحي قوله: (أبو بكر اشتهر بالرحمة، وعمر بالشدة في الدين، وعليّ اشتهر بالقضاء، ومعاذ ابن جبل بالعلم بالحلال والحرام، وأبو عبيدة أمين هذه الأمة)⁽²⁾ وكذلك قوله ﷺ مادحاً الأنصار: «الأنصار شعائر والناس دثار»⁽³⁾ ومدحه قبيلة من اليمن قائلاً: «أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة، وألين قلوباً، الإيمان يمان والحكمة يمانية»⁽⁴⁾ ومدحه للقبائل التي أسلمت من الأعراب، منهم أسلم غفّار وجُهينة، كانوا حول المدينة، وكانوا من أسبق القبائل للإسلام، فحصلوا على هذه المكانة والشرف بسبب ذلك⁽⁵⁾ فقال ﷺ عن غفّار: «أسلم سالمها الله، وغفّار غفر الله لها»⁽⁶⁾ لقد استخدم النبي ﷺ المدح في مواضع عدّة، غرضه في ذلك التأثير في المدعو وإستمالته على الحقّ، تجلّى في إبراز الصّفات والإشادة بمن يستحقّها، وبيان المكانة العالية للمسلمين آنذاك في قلبه ﷺ، وهذا فيه تشجيع للمدعو وتفاعله مع الدّعوة إقتفاءً وإتباعاً، فأسلوب المدح هنا يبعث في النفوس نوعاً من الإرتياح الوجداني، خاصّة لمن عرفوا بحبّ المفاخرة والعجب بما فيهم الأعراب والملوك فحريّ بالدّاعية إلى الله أن يحسن استخدام هذا الأسلوب في دعوته خصوصاً إن كان يريد الحديث

(1) - أخرجه الترمذي في سننه الجامع الصحيح، أبواب المناقب، باب مناقب معاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبي عبيدة بن الجراح، تحقيق: بشار عوا معروف، رقم الحديث 3791 (دار الغرب الإسلامي، ط1، ج6، 1996م)، ص 127. وقال: هذا حديث حسن غريب. وأخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب المقدّمة، أبواب فضائل الصحابة، برقم 154. والألباني في صحيح السنن وصحيح الجامع، برقم 895، وقال: حديث صحيح.

(2) - ابن أبي الدنيا، رسائل ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمّد عبد القادر أحمد عطا، كتاب الحلم، باب طلب العلم والصبر عليه، رقم الحديث 3 (بيروت: مؤسّسة الكتب النّقافية، ط1، 1413هـ/1993م)، ص 18.

(3) - تمّ تخرجه سابقاً، يُنظر: صفحة 60.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المغازي، باب قدوم الأشعريّين وأهل اليمن، رقم الحديث 4388، ص 544.

(5) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج6، المرجع السّابق، ص-ص 53، 54.

(6) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب ذكر أسلم وغفّار، رقم الحديث 3513، ص 868.

إلى أصحاب الفساد العقائدي والدِّيني والخلقي والاجتماعي كأن يقول لهم: أنتم من أمة تميّزت بالأخلاق، وتأدّبت بأدب القرآن، وتربّت في مدرسة النبوة، فاحذروا أن تتسرّب إليكم مثل هذه العادات الذميمة والغريبة، وإن أراد الحديث إلى أصحاب الهوى المستسلمين لمداخل الشيطان يقول لهم: أنتم من أمة عرفت بالعفة والصبر والثبات والشجاعة فكيف لا تسيطرون على أنفسكم وهواها.

سابعاً: أسلوب الذم

أ- مفهوم الذم

الذم هو قول ناتج عن رفض نفسي فهو مرتبة شديدة من اللوم وكل مذموم مرفوض لم يأت هذا اللفظ بصيغة الفعلية في القرآن الكريم، بل جاء بصيغة اسم المفعول ثلاث مرات، أن تداركه نعمة من ربه قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: 18] أي: يذم عليه ويلام من جهة سوابقه وأعماله السيئة، والذم نقيض المدح يقال: ذمته فهو ذميم، أي: مذموم جداً، وشيء مذموم أي: مُعيب، فأسلوب الذم تعبير صريح عن رفض نفسي للمذموم، لأن عبارات الذم كلام يجسّد ما في نفس المتكلّم من رفض⁽¹⁾.

ب - طريقة النبي ﷺ وأسلوبه في الذم

- ذمّ الأخطاء التي تمسّ الدين والعقيدة

استخدم النبي ﷺ المنهج العاطفي من خلال أسلوب الذم، وذلك بكشف العيوب والأخطاء خاصة فيما يتعلّق بانتهاك الحرمات، وأخطاءٍ تتعلّق بالأخلاق والعبادات والعقيدة، ومثال ذلك ما رواه الإمام مسلم عن عديّ بن حاتم أن رجلاً خطب عند النبي ﷺ فقال: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصيهما فقد غوى، فقال رسول الله ﷺ: بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله»⁽²⁾ ممّا أثار كلام الرّجل غضب النبي ﷺ، أن جعل النبي ﷺ ندّاً لله تعالى، فكانت طريقته في معالجة الخطأ بأسلوب حكيم وهادئ، حيث ذكر العيب لمرتكبه صراحة دون أية تعنيف أو ضجر،

(1) - فيلة عبد العباس حسن الأسدي، معاني القبول والرفض في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه، جامعة الكوفة، كلّية التربية للبنات، قسم اللغة العربية، 1430هـ/2009م، ص 76.

(2) - النووي، شرح النووي على مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم الحديث 870، ج6، المرجع السابق، ص 568.

وهذا أسلوب كان فيه ردّ النبي ﷺ للرجل سريعاً، وفي الوقت نفسه فيه دلالة على أنّ الأمر لا يجب السكوت عليه لأنّ أمره خطيرٌ قد يؤدّي إلى عواقب وخيمة للدعوة .

– ذمّ خلق الغضب

لقد كانت توجيهات النبي ﷺ لأصحابه وهو يرشداهم إلى أبواب مكارم الأخلاق، وهي أثقل شيء في ميزان العبد يوم القيامة، ككفّ النفس عند الغضب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أن رجلاً قال للنبي ﷺ أوصني، قال: لا تغضب فردّ مراراً، قال: لا تغضب»⁽¹⁾ ذمّ النبي ﷺ في ظاهر الحديث صفة الغضب التي يأتيها كثير من الرجال، وجاء الذمّ مؤكّداً على غرار ما ردّد المستوصي فيوصيه ﷺ مرّات عدّة: لا تغضب، وفعلًا أنّ الذي استطاع أن يملك زمام نفسه، فهو جدير أن يأخذ بحُطام العصاة إلى حضيرة الإسلام، وهي من أبرز الخصال التي مارسها النبي ﷺ مع قومه المشركين على وجه التّهي عند إتيانهم الغضب، ودعوتهم إلى التّحلي بالحلم والأناة والعفو، وهي من أبرز الخصال التي مارسها النبي ﷺ مع قومه المشركين، ولم يكن غريباً أن يوجّهه الله فيقول: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(١٩٩) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ^(٢٠٠) [الأعراف: 199-200] فلهذا إقتصر في وصيّته له على ترك الغضب، فللغضب مفسد كبيرة، ومن عرف هذه المفسد عرف مقدار ما اشتملت عليه هذه الكلمة اللطيفة «لا تغضب» من الحكمة واستجلاب المصلحة في درء المفسد⁽²⁾ وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه حينما قال لرجل: يا ابن السّوءاء^(*) فوقع في خصومة بينهما، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا ذرٍّ بلغني أنّك اليوم عيّرت أخاك بأّمه فقال: نعم، فانطلق أبو ذرٍّ ليرضي صاحبه فسبقه الرجل فسلمّ عليه فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: يا أبا ذرٍّ ارفع رأسك فانظر ثمّ اعلم أنّك لست بأفضل من أحمر فيها ولا أسود إلاّ أن تفضّله بعمل،

(1) – أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم الحديث 6116، ص 1529.

(2) – ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق: عبد القادر شيبه الحمد، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم الحديث 6116، (مكتبة الملك فهد الوطنية للنشر، ط1، ج10، 1421هـ/2001م)، ص 536.

(*) – أبو ذرٍّ: جندب بن جنادة الغفاري صحابي من السّابقين إلى الإسلام، قيل رابع أو خامس من دخل في الإسلام، وأحد الذين جهروا بالإسلام في مكة قبل الهجرة النبوية. وروى عنه أحاديث كثيرة، مات رضي الله عنه، بالريذة سنة اثنتين وثلاثين، وصلى عليه ابن مسعود رضي الله عنه، ثم مات بعده ببسبر، ومناقبه وفضائله كثيرة جداً ﷺ (يُنظر: حسين حيدر، أبو ذرٍّ الغفاري الثائر المنتفض، دراسة تاريخية، كربلاء: مؤسّسة دار علوم نهج البلاغة، ط1، 1437هـ، 2016م).

(*) – ابن السّوءاء: وقيل: إنّ الرجل المذكور هو بلال المؤذن مولى أبي بكر رضي الله عنه (بدر الدّين العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، كتاب الإيمان، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، ج1، 1421هـ/2001م)، ص 329.

ثم قال: إذا غضبت فإن كنت قائماً فاقعد، وإن كنت قاعداً فأتكى، وإن كنت متكئاً فاضطجع»⁽¹⁾، وكان نبي الله ﷺ إذا غضبت السيدة عائشة رضي الله عنها أخذاً بأنفها وقال: «يا عويش قولي: اللهم رب النبي محمد ﷺ اغفر لي ذنبي واذهب غيظ قلبي...»⁽²⁾ كما دعا ﷺ إلى التمسك بالحلم وكظم الغيظ الذي هو دلالة كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب وكان أجمل ما ورد عنه دُعائه ﷺ المعروف: «اللهم أغني بالعلم، وزيني بالحلم، وأكرمني بالتقوى، وجملني بالعافية»⁽³⁾ هذه الخصال الرفيعة من الحلم وكظم الغيظ والرفق هي الرّاد الأساسي الذي يركز عنه كل دأعية فعليه أن يكون حكيماً في ذمّ أخطاء من يدعوهم، بصير دون ضجر ولا تعنيف، يعظمهم بسعة صدرٍ وبرفقٍ، وإذا واجه من المدعويين ما يُثير الغضب عليه أن ينزل منازلهم تأسيّاً بالنبي ﷺ الذي ضرب مثلاً في أسلوب الذمّ، وتصحيحه لدى المدعو، كما عليه أن يستلهم من خلق النبي ﷺ وأساليبه العاطفية التي قد يفتح بها على قلوب غلفه.

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، رقم الحديث 30، ص 18. وأبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، كتاب ذمّ الغضب والحقد والحسد (بيروت: دار المعرفة، ج 3، د، ت)، ص-ص 173، 176.

(2) - إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، كتاب الغضب والحقد والحسد، ج 9، المصدر السابق، ص 425. و(أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، كتاب الغضب والحقد والحسد (بيروت: دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر، مج 1، 1998م)، ص 222. وقال: عزاه الحافظ، وفي كنز العمال، 141/7، رقم الحديث 18409 إلى ابن السني (يحيى بن شرف النووي، كتاب الأسماء، رقم الحديث 901، الأذكار النووية، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ص 303. وقال النووي: لفظه عن ابن السني، برقم 449 عن القاسم بن محمد بن أبي بكر، وقال: إسناده حسن).

(3) - علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، تحقيق: محمود عمر الدميّطي، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، كتاب الأذكار، قسم الأقوال، رقم الحديث 3660 (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، ج 1، 2016م)، ص 81. وأبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، تحقيق: عبد الله الخالدي، كتاب العبادات، باب ذمّ الغضب والحقد والحسد (بيروت: دار الأرقم بن أبي الأرقم، د، ط، مج 1، د، ت)، ص 226. لابن النجار عن ابن عمر ولم يجد الحافظ له أصلاً.

ثامناً: أسلوب ضرب الأمثال

أ- مفهوم المثل

- لغة

- يعرفه العلامة إبراهيم مصطفى بالقول: (المثل: بفتح التاء الشَّبه وقيل: الحديث نفسه ومنه مثل له الشيء أي صوره حتى كأنه ينظر إليه⁽¹⁾ والشيء بالشيء تمثيلاً وتمثلاً شَبَّهه به وقدره على قدره ... الشَّبه و النظير)⁽²⁾.

- اصطلاحاً

المثل أسلوب أقرته السنة النبوية باعتباره أحد الأساليب الإقناعية العاطفية، لما له الأثر البالغ على عواطف الإنسان وسلوكه، من ترقيق للقلب، ومخاطبة النفس واستثارة لعواطفها، ولفت الانتباه وحضور العقل، فاستخدمه النبي ﷺ عند موعظته، والموعظة المؤثرة هي التي تفتح طريقها إلى النفس مباشرة عن طريق الوجدان فتتهز هزاً أو تثير كوامنه في لحظة من الوقت⁽³⁾ يقول أحد الباحثين: (إنَّ الأمثال أوقع في نفوس وأبلغ في الوعظ وأقوى في الزجر وأقوم في الإقناع، فضرب الأمثال في البيان النبوي لم يأت لغاية فنية بحتة كغاية الأدباء في تزيين الكلام، وإنما جاء لهدف أسمى وهو إبراز المعاني في صورة مجسمة لتوضيح الغامض وإظهار المعقول في صورة المحسوس، والمتأمل في الأمثال النبوية يجد التنوع صفة ظاهرة فيها فقد ربط المثل في موضوعات متعدّدة الأغراض في أمور العقيدة، العبادة، الأخلاق، العلم، الدعوة، التَّغْيِيب والتَّهْيِيب وما إلى ذلك)⁽⁴⁾.

(1) - ابن منظور، لسان العرب، مادة مثل فصل الميم، ج 11، المصدر السابق، ص 611.

(2) - إبراهيم مصطفى وآخرون، مجمع اللغة العربية تركيا: دار الدعوة، ط 2، د، ت، ص-ص 853، 854.

(3) - صالح بن علي أبو عراد، مقدّمة في التَّربية الإسلامية (الدار الصوتية للنشر والتوزيع، ط 1، 1424هـ/2003م)، ص 74.

(4) - أحمد بني عيسى، المدخل إلى إدارة الإسلام الحديثة (عمّان: دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، ط 1، ج 1، 2018م)، ص 102. ومحمد أبو العلا الحمزاوي، الخصائص البلاغية للبيان النبوي (مكتبة الرُّشد، د، ط، 1428هـ/2007م)، ص 112.

ب - ضرب الأمثال في دعوة النبي ﷺ

استخدم النبي ﷺ ضرب الأمثال في بيان الحقائق وإقامة الحجّة⁽¹⁾ وتربية العاطفة بإثارة الانفعالات المناسبة من خلال ضرب المثل، يقول عنها الشيخ محمد عبده رحمه الله: (واختير له لفظ الضرب لأنه يأتي عند إرادة التأثير وهيج الانفعال، كان ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعاً ينفذ أثره إلى قلبه وينتهي إلى أعماق نفسه)⁽²⁾ كما تستخدم في تربية العقل على التفكير الصحيح، لهذا جعلها النبي ﷺ أهم أساليبه في تربيته لصحابته وموعظتهم، ففي بعض المواقف يؤثر النبي ﷺ ضرب الأمثال لكونه له طابع خاص، سواء في إصابة المعنى بدقة أم في إيجاز اللفظ مع فصاحته، أم في أداء الغرض الذي سيق من أجله وهو أعظم من أسلوب التلقين لأنه يثير في النفس العواطف والمشاعر، وعن طريق ذلك يعدّ دافعاً إلى الالتزام بالمبادئ عملياً وتصوير المعاني وتجسيدها في الذهن⁽³⁾، فيظهر اهتمام النبي ﷺ بالمشاهد التي تمرّ في حياة الناس فلا يلتفتون إليها ولا يلقون إليها بالاً، ففي بعض المواقف كان يكفيه ﷺ أن يردّ ردّاً مباشراً لكنّه أثر ضرب المثل لما يحمله من توجيه تربوي وسرعة في إيصال المعنى المراد به، وقد لا يؤدي غيره دوره في هذا المقام، عن عبد الله ﷺ قال: «نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثّر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً، فقال: ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها»⁽⁴⁾.

- ضرب الأمثال بالوصف

من الجوانب التي تبرز شدة اهتمامه ﷺ بالمثل، أنّه اتخذ لضربه طرقاً متعدّدة منها الوصف، فعن حذيفة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأبى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأبى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين،

(1) - سالم بن سعيد بن مسفر بن جبار، الإقناع في التربية الإسلامية (جدة: دار الأندلس الخضراء، ط2، 1422هـ/2001م)، ص-ص 107، 108.

(2) - عبد الرحمن النحلوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع (دمشق: دار الفكر، ط25، 1428هـ/2007م)، ص 202.

(3) - سالم بن سعيد بن مسفر بن جبار، الإقناع في التربية الإسلامية، المرجع السابق، ص-ص 207، 208.

(4) - أخرجه الترمذي في جامع الترمذي مختصر السنن، كتاب الزهد، باب ما جاء في أخذ المال بحقه، ج4، رقم الحديث 2377، المصدر السابق، ص390. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه الترمذي في سننه، تحقيق: أحمد محمد شاكر آخر (مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، ج4، 1395هـ/1975م)، ص 588. وذكر حكم الألباني: حديث صحيح.

قلب أبيض مثل الصِّفا فلا تضرُّه فتنةٌ مادامت السَّمَاوَات والأَرْض والآخِر أَسْوَدَ مرَباداً^(*) كالكَوزِ مُجَحِّياً^(*) لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلَّا ما أشرب هواه⁽¹⁾ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «أَرَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِيَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرْنِهِ شَيْءٌ؟ قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرْنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: فَذَلِكَ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ يَمْحُو اللَّهُ بِهَا الْخَطَايَا»⁽²⁾ فَضَرَبَ الْمَثَلَ ضَرْبَ ضَرْبٍ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، لِأَنَّهُ يَحْدِثُ فِي النَّفْسِ حَالَةَ الْتِفَاتٍ بَارِعَةٍ يَلْتَفِتُ بِهَا الْمَرْءُ مِنَ الْكَلَامِ الْجَدِيدِ إِلَى صُورَةِ الْمَثَلِ الْمَأْنُوسِ، إِلَّا أَنَّهُ مِنَ الْمَهْمِ أَنْ يَكُونَ الْمَثَلُ بِهِ أَمْرًا مَعْرُوفًا وَمَشْهُورًا لَدَى الْمَثَلِ لَهُمْ، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَمَثُلُ لِأَصْحَابِهِ بِالنَّخْلَةِ وَالثَّمَرَةِ وَالبَعِيرِ وَالشَّوْكَ⁽³⁾، وَيَصُورُ ﷺ أَرْوَعَ تَصْوِيرٍ لِصَحَابَتِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا، وَيَضْرِبُ لَهُمُ الْمَثَلَ بِرَجُلٍ تَرَكَ عَلَى جِسْمِهِ الْوَسْخَ فَهُوَ يَغْتَسِلُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، فَبِالتَّأَكِيدِ لَا يَبْقَى مِنْ دَرْنِهِ شَيْءٌ، وَالصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ تَمْحُو الْخَطَايَا وَالدُّنُوبَ كَمَا يَمْحُو الْمَاءُ الْوَسْخَ، وَهَذَا تَرْغِيبٌ فِي إِقَامَةِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَالْحِفَاظَةِ عَلَيْهَا، ثُمَّ يَرْغَبُ النَّبِيُّ ﷺ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ لِمَا لَهُ الْأَجْرُ الْعَظِيمُ وَالثَّوَابُ الْجَزِيلُ وَالْقُرْبُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فَاسْتَعْدَمَ الْمَثَلَ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ الْمُؤْمَنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرَجَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمَنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الثَّمَرَةِ لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حَلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ

(*) - مرَباداً: يكون مرید مسودّ ومحمّر (رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً وأنه يأزر بيم المسجدين، رقم الحديث 65، ص 76).

(*) - مجحياً: معناه مائلاً، وفُسِّرَ الرَّأْيُ فِي الْكِتَابِ بِقَوْلِهِ: مَنْكُوسًا وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ مَعْنَى الْمَائِلِ، وَكَالْكَوزِ مُجَحِّياً: وَقَالَ الْقَاضِي عِيَّاضُ: قَالَ لِي بَنُ سَرَّاجٍ: لَيْسَ قَوْلُهُ كَالْكَوزِ مُجَحِّياً تَشْبِيهًا لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ سَوَادِهِ، بَلْ هُوَ وَصِفٌ آخَرُ مِنْ أَوْصَافِهِ، بَأَنَّهُ قُلْبٌ وَنُكْسٌ حَتَّى لَا يَلْقَى بِهِ خَيْرًا وَلَا حَكْمَةً، وَمَثَلُهُ بِالْكَوزِ الْمَجْحِيُّ وَبَيْنَهُ بِقَوْلِهِ: لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مَنْكَرًا (المرجع نفسه، ص 76). وَبِمَعْنَى: مَائِلًا مَنْكُوسًا مَشْبِهَا مِنْ هُوَ خَالَ مِنَ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ بِكَوزٍ مَائِلٍ لَا يَثْبِتُ فِيهِ شَيْءٌ وَلَا يَسْتَقِرُّ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: لَا يَعْرِفُ -القلب- مَعْرُوفًا وَلَا يَنْكِرُ مَنْكَرًا، وَالْمَعْنَى: لَا يَبْقَى فِيهِ عَرَفَانٌ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ، وَلَا إِنْكَارٌ مَا هُوَ مَنْكَرٌ إِلَّا مَا أَشْرَبَ -القلب- مِنْ هَوَاهُ (مُحَمَّدُ الْقَارِي، مَرْقَاةُ الْمَفَاتِيحِ شَرْحُ مَشْكَاةِ الْمَصَابِيحِ، كِتَابُ الْفِتَنِ، رَقْمُ الْحَدِيثِ 5380، الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 378).

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً وأنه يأزر بيم المسجدين، رقم الحديث 65، ص 76.

(2) - إِبْنُ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِي، فَتَحُ الْبَارِي بِشَرْحِ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، كِتَابُ مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ، بَابُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ كِفَارَةً، رَقْمُ الْحَدِيثِ 528، ج 2، الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 11.

(3) - أحمد خزعل جاسم، أساليب النبي ﷺ في الدَّعوة إلى العقيدة الإسلامية، مجلَّة الأنبار للعلوم الإسلامية، بغداد، د، ت، ص 251.

مثل الرِّيحانة ريحها طيب وطعمها مرٌّ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريحٌ وطعمها مرٌّ»⁽¹⁾ فضرب المثل في الحديث الشريف بأشياء محسوسة ملموسة، يدركها الناس ويتذوقون طعمها، ويعرفون عملها، وريحها من جهة الحلو والمر والطيب والخبيث، والنبي ﷺ ضرب الأمثال في موعظة صحابته لأغراض: لتقريب الفهم لبيان فضيلة قراءة القرآن في زيادة الإيمان، وطمأنينة القلب، وطيب النفس، ورفعة قدر حامله وعلو منزلته، وبيان لحال خصَّ الحديث صفة الإيمان بالطَّعم، وصفة الرِّيح بالتلاوة وبيان علاقتهم، يقول الشيخ العيني رحمه الله: (فالتشبيه الوارد والتَّمثيل هو وصف إشتغال على معنى معقول صرف لا يبرزه عن مكنونها لا تصويره بالمحسوس المشاهد، ثم إنَّ كلام الله له تأثير في باطن العبد وظاهره والعباد متفاوتون ومن ذلك التأثير هو المؤمن القارئ فكان هذا المثل في أروع صورة للأمثال لم يجد ما يوفقها ولا أحسن منها)⁽²⁾ وقد ضرب النبي ﷺ المثل بما تنبته الأرض ويخرجه الشَّجر للمشابهة التي بينها وبين الأعمال فإنَّها ثمرات النفوس، فخصَّ من يخرج الشَّجر من الأثرجة والتمر بالمؤمن، وبما تنبته الأرض من الحنظلة والرِّيحانة بالمنافق⁽³⁾ وعليه كان لضرب الأمثال دورٌ في تحريك العاطفة والميل بها، أنْ شوَّفها إلى حبِّ القرآن والإقبال على حفظه وقراءته، وقد عدّه الإسلام من الأساليب العاطفية التي تثير الانتباه وتوقظ العاطفة، فهو ذو أثر بليغ في النفس، والنبي ﷺ خصّه في دعوته بكلماتٍ وألفاظٍ تلفت انتباه المستمع وتجبُّه لقراءة القرآن والإقبال عليه، وتنبيهها إلى علو شأن المؤمن وارتفاع علمه وتوقيفًا على ضعة شأن المنافق وإحباط عمله وقلة جدواه والدَّاعية مطالب لإستثمار هذا الأسلوب في دعوته، فيجعله ديدنه في خطبه ومواعظه، لأنَّها الضَّامن الأساسي في إيصال الفهم على أكمل صورة وأبهى حُلَّة.

- ضرب المثل في تربيته لأصحابه

تبَيَّن السَّيرة النبويَّة تطبيق النبي ﷺ لأسلوب ضرب المثل في مواعظه وتربيته لأصحابه ولغيرهم من المنافقين والمشركين تجلَّت في مواقف كثيرة، كان من بينها ما حدث في غزوة بدرٍ حين انتصر المسلمون على المشركين وأسَرَ منهم الكثير، وكان فيمن أسروا أبو عزة الشَّاعر وكان ذا عيال فقال: «يا رسول الله إنِّي ذو عيال وحاجة أنت تعرفها فامنن علي وأطلقني فقال رسول الله ﷺ: أطلقك على ألا تعين

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأطعمة، باب ذكر الطعام، رقم الحديث 5427، ص 1381.

(2) - بدر الدِّين العيني، عمدة القرآن شرح صحيح البخاري، كتاب فضال القرآن، باب فضل القرآن على سائر الكلام، رقم الحديث 5020 (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 1421هـ/2001م)، ص 54.

(3) - بدر الدِّين العيني، شرح صحيح البخاري (بيروت: دار إحياء الثَّراث العربي، ج 20، د، ت)، ص 38.

علي المشركين بشعرك، فعاهده أبو عزة ألا يقول شعراً فيه إيذاء للنبي ﷺ والمسلمين، فأطلقه النبي ﷺ فلما كان يوم أحد دعا صفوان بن أمية أبا عزة للخروج، فقال: إنَّ محمد قد منَّ عليَّ وقد عاهدته ألا أعين عليه، ولكن صفوان لم يزل به وكان أبو عزة محتاجاً فأطعمه حتى خرج مع المشركين وأخذ يحرّضُ على النبي ﷺ وأصحابه، ثم أُسر مع من أُسر، فلما قديم إلى النبي ﷺ رجاه أن يمنَّ عليه، فقال النبي ﷺ: «إن المؤمن لا يلدغ من جحرٍ مرتين، إضرب عنقه يا عاصم بن ثابت فضرب عنقه»⁽¹⁾ فالنبي ﷺ لم يغيب عنه هذا الأسلوب في تعليم أصحابه ومن كانوا على صلة به، فكانت من أكثر الأساليب تأثيراً عليهم، تقرب المعاني للأفهام، وتثير المشاعر وتبعث في النفس زيادة في العمل.

المبحث الثاني: إثارة منابع الرأفة و الرحمة

اهتمَّ الإسلام بالجانب العاطفي في الإنسان لخصوبة أرضه في مجال الدعوة إلى الله، فرسم له أساليب شتى القولية منها والفعلية، تظهر جلياً في قدرات الداعية على التأثير، وهذا الجانب إذا اكتمل بالإيمان عظم في النفوس وارتقى بالدعوة مبلغ الكمال والجمال، ولا يخفى على كل ذي لب أن هذه الصفة ارتسمت بقوة في شخصية النبي ﷺ الإنسانية، وفي كل شؤون حياته، نلمسها من جواهر سيرته وعبق سنته، وكيف تعامل مع كل الأمور والمواقف التي واجهته والعوص التي أهدته بطريقة فذة أخرجت لنا كنوزاً جمّة من فنون التعامل النبوي، فبرز عنصر الرحمة بقوة في دعوته ﷺ، وهو الأسلوب الأكثر رواجاً وتأثيراً في الدعوة إلى الله، بل والأقرب إلى النفس البشرية وأحبها و عليه فإنَّ هذا العنصر - الرحمة والرأفة - يتحقّق من خلال أشكاله وصوره الوجدانية والتي منها: الرفق والقول اللين، الكلمة الاستعطافية، المشاركة الوجدانية، وسأجتهّد في هذا المبحث التركيز على هذه الأساليب في دعوة النبي ﷺ والذي لا يستطيع أحد أن يبلّغ المقام الأسمى في القلب الأركى من لدنه ﷺ والذي تدفّق منه عين الرحمة وحنوّ الرأفة، وقبل أن أتحدّث في هذا الأسلوب من حياة النبي ﷺ ودعوته، لابدّ أن أعرف الرحمة والرأفة أولاً من الناحية اللغوية والإصطلاحية.

المطلب الأول: مفهوم الرأفة والرحمة وأهميتها في الدعوة إلى الله

للرحمة والرأفة أهمية كبرى في حياة النبي ﷺ وأخلاقه، وقد تجلّت واضحة في مواضع كثيرة في حياته ﷺ، لذلك إرتأيت تقديم أسطرٍ مُضيئةٍ للتعريف بالرحمة والرأفة لغة واصطلاحاً نعرضها كالاتي :

(1) - عبد السلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام (بيروت: مؤسسة الرسالة، دار البحوث العلمية، ط14، 1406هـ/1985م)، ص-ص 172، 173.

أولاً: مفهوم الرَّأْفَةِ والرَّحْمَةِ

أ – مفهوم الرَّأْفَةِ

– لغة

- يعرفها العلامة ابنُ منظور بالقول: (الرَّأْفَةُ مأخوذة من رَأَفَ: بمعنى الرَّحْمَةِ وقيل: أشدُّ من الرَّحْمَةِ، تَرَأَّفَ به، يَرَأُفُ ورِئُفٌ ورؤُوفٌ رَأْفَةٌ ورَأْفَةٌ، والرَّأْفَةُ أخصُّ من الرحمة وأرقُّ، وفيه لغات قرئ بها معاً: رؤُوفٌ عليّ فعول⁽¹⁾، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: 2] يقول القراءُ رحمه الله: (الرأفة والرأفة مثل: الكأبة والكأبة)⁽²⁾ وقال الإمام الزَّجَّاج رحمه الله: (أي: لا ترحمهما فتُسْقِطُوا عنهما ما أمر الله به من الحدِّ)⁽³⁾ ويقول كعب الأنصاري رضي الله عنه: «نطيع نبينا ونطيع ربا هو الرحمان كان بنا رؤوفاً»⁽⁴⁾ ورؤوف على فعل.

– اصطلاحاً

- ويعرفها العلامة الألوسي رحمه الله بالقول: (هي المبالغة في رحمةٍ خاصَّة، وهي رفع المكروه وإزالته الضَّرَّ، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: 2] أي: لا تَرَأُفُوا بهما فتزفَعُوا الجُلْدَ عنهما)⁽⁵⁾ وفي تعريفٍ آخر لها: (هي رَقَّةٌ خاصَّةٌ تقع في النَّفْسِ دون إختيار عند مشاهدة ضَرٍّ بالرؤوف به)⁽⁶⁾ وفي تعريفٍ آخر لها حسب ما ذهب إليه بعض المفسرين أنَّ الرَّأْفَةَ هي: (الرَّقَّةُ والرَّحْمَةُ والشَّفَقَةُ والعطف)⁽⁷⁾.

(1) – ابنُ منظور، لسان العرب، مادة رَأَفَ، ج5، المصدر السابق، ص 82.

(2) – المصطفوي، التَّحْقِيقُ فِي كَلِمَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، مادة رَأَفَ (بيروت: دار الكتب العلمية، ط3، ج4، 1430هـ/2009م)، ص 11.

(3) – المرجع نفسه، ص 11.

(4) – ابنُ كثير، البداية والنهاية، تحقيق: محمَّد عبد القادر الأرناؤوط، باب غزوة الطَّائِف (دمشق: دار بن كثير، ط2، ج4، 1431هـ/2010م)، ص 612.

(5) – الألوسي، روح المعاني (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د، ط، ج2، د، ت)، ص 7.

(6) – محمَّد الطَّاهِر بُنْ عاشور، تفسير التَّحْرِيرِ والتَّنْوِيرِ، ج7، المرجع السابق، ص 151.

(7) – يُنْظَرُ: محمَّد علي الصَّابُونِي، صفوة التَّفَاسِيرِ (بيروت: دار القرآن الكريم، ط4، مج 2، ج18، 1403هـ/1981م)، ص - ص 325، 326.

ب- مفهوم الرحمة

إذا أضفنا إلى ما سبق نجد أن الرحمة هي الأخرى تعد أمرًا ضروريًا في الدعوة إلى الله، والحديث عنها ضروري هو الآخر، لأهميتها الكبرى في الدعوة ومكانتها في قلب النبي ﷺ، لذلك سيشمل حديثنا في هذه الجزئية بالتركيز على عاطفة الرحمة في حياة النبي ﷺ، والتي تمثل المرجعية الكبرى لنبي الله ﷺ وكيف كانت شاملة لكل الناس، حتى تعدت البشر فشملت الحيوانات والجمادات وخرجت عن إطار المسلمين وغير المسلمين، وقبل الحديث في هذا العنصر سأقدم مفهوم الرحمة من الناحية اللغوية والاصطلاحية.

- لغة

- يعرفها العلامة ابن منظور بالقول: (الرحمة بمعنى: الرقة والعطف)⁽¹⁾. والرحم والرحمة والمرحمة بمعنى واحد⁽²⁾ وقد ذكرت في آيات كثيرة ترددت في سورة الفاتحة في أكثر آياتها، وأعظم رحمة هي رحمة الله بعباده جعلها إحدى أسمائه الحسنى - الرحيم، الرحمان - فصرحت به آية من سورة الأحزاب: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾ [الأحزاب: 43].

- اصطلاحًا

- يعرفها الإمام العلامة الكفوي رحمه الله فيقول: (هي حالة وجدانية تُعرض غالبًا لمن به رقة القلب، وتكون مبدأً للانعطاف النفساني الذي هو مبدأ الإحسان)⁽³⁾ ويعرفها الدكتور يوسف خاطر حسن الصوري فيقول: (هي حركة قلبية وعطف وتألم نفسي وإحساس مرهف ومواساة وانية، وهي العصب الحساس الذي يدفع بالداعية ذاتيًا عن رغبة للتخفيف عن الشخص الذي يدعوه)⁽⁴⁾ ويعرفها قديرة سليم بالقول: (هي كمال في النفس البشرية تجعل المرء يرق لألام الخلق .. وهي صورة من كمال الفطرة وجمال الخلق تحمّل صاحبها على البر، كما هي إنفعال يُعرض على القلب عند مشاهدة النقص أو الحاجة، فيندفع إلى رفع ذلك كحالة الفقير أو اليتيم أو

(1) - ابن منظور، لسان العرب، ج1، حرف الراء، مادة رحم، المصدر السابق، ص 1143.

(2) - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج2، مادة رحم، المصدر السابق، ص 498.

(3) - الكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش وآخر، فصل الراء (بيروت: مؤسسة الرسالة، د، ط، ج1، د، ت)، ص 471.

(4) - يوسف خاطر حسن الصوري، أساليب الرسول ﷺ في الدعوة والتربية، صندوق التكافل لرعاية أسر الشهداء والأسرى، د، ت، ص 15.

المظلوم وما إلى ذلك)⁽¹⁾ ويعرفها الشيخ الدكتور أبو بكر الجزائري رحمه الله بالقول: (الرَّحمة وإن كانت حقيقتها القلب وانعطاف النفس المقتضي إلى المغفرة والإحسان، فإنها لن تكون مجرد عاطفة نفسية لا أثر لها في الخارج، بل إنها ذات آثار خارجية ومظاهر حقيقية تتجسّم في عالم الشهادة، فمن آثارها الخارجية العفو عن ذي الزلّة، وإغاثة الملهوف، وإطعام الجائع، ومواساة الحزين، وما إلى ذلك)⁽²⁾ وفي تعريف آخر لها: (هي عاطفة حيّة نابضة بالحبّ للناس والرّافة بهم والشفقة عليهم، والنبي ﷺ هو الرَّحمة المهداة للعالمين كلّهم بل كأن الغاية من دعوته محصورة في الرَّحمة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107] فخصّهم باسمه الرَّحيم، أي: عطفاً وصنعاً)⁽³⁾، فالرَّحمة المذكورة هنا يُقصد بها رحمة العامّة لكلّ الخلق تراحمًا عامًّا، ليلقى الدّاعي النّاس قاطبةً وقلبه لهم بالعطف مملوء وبالبرّ مكنونٌ، لأنّ الرَّحمة الخاصة قد تتوفر في بعض النّاس كأن يرق قلبه لأولاده حين يلقاهم، ويهش لأصدقائه حين يجالسهم، ولكن الرَّحمة المطلوبة من الدّاعي أوسع من ذلك وأوجب⁽⁴⁾، يقول ﷺ في ذلك: «من لا يرحم لا يُرحم»⁽⁵⁾ ويقول الشيخ محمّد الطّاهر بن عاشور رحمه الله في تفسيره للآية: (جاءت هذه الآية مشتملة على وصف جامع لبعثة النّبي ﷺ، ومزيّتها على سائر الشّرائع مزيّة تناسبُ عمومها ودوامها، وذلك كونها رحمة للعالمين)⁽⁶⁾

• وفي تعريف آخر لها: (هي كمال في الطّبيعة تجعل المرء يرقّ لآلام الخلق ويسعى لإزالتها وبأسى لأخطائهم فيتمنّى لهم الهدى، والرَّحمة عاطفة حيّة نابضة بالحبّ للناس والرّافة بهم والشفقة عليهم)⁽⁷⁾ ويعرفها الدكتور عبد الرّحمان حسن حبنكة الميداني بالقول: (هي منبعٌ كريمٌ يفيض بالعطاء والرّفق، وهي رقة تلامس القلب، وتدفع إلى مشاركة الدّاعية الرّحيم لغيره في آلامه

(1) - قديرية سليم، معنى الرَّحمة والثقافة لغاً واصطلاحاً وعلاقتهما، pdf، الجامعة العالمية بإسلام آباد، باكستان، د، ت، ص 2.

(2) - أبو بكر الجزائري، منهاج المسلم (القاهرة: دار السّلام للنشر والتّوزيع والترجمة، د، ط، د، ت)، ص 126.

(3) - بتصرّف: عمران عزّت يوسف بخيت، الرحمة الإلهية دراسة قرآنية، جامعة النّجاح الوطنية، كلّية الدّراسات العليا، رسالة ماجستير، 2009م، ص- ص 15، 29.

(4) - صالح بن عبد الله بن حميد، بحث القدوة مبادئ ونماذج، د، ت، ص-ص 13، 14.

(5) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقيله، رقم الحديث 5997، ص 1505. وفي باب رحمة النّاس والبهائم، رقم الحديث 6013، ص 1508.

(6) - محمّد الطّاهر بن عاشور، تفسير التّحرير والتّنوير، المرجع السّابق، ص-ص 164، 165.

(7) - صالح بن عبد الله بن حميد، القدوة مبادئ ونماذج، pdf، د، ت، ص 13.

ومسرّاته، والشُّعور بمثل مشاعره، وحبّ الخير له⁽¹⁾ والدّاعية عليه أن يعي أنّ رسالته للنّاس هي رسالة رحمة، في الأخلاق، وفي المعاملة، وفي التّشريع، وفي الأسلوب، وعليه بناء على المفاهيم السّالفة الذّكر، اللُّغوية والإصطلاحية تبين بأنّ الرّحمة تجمع بين الرّقة واللّطف والرّأفة والعطف والشفقة.

ج- العلاقة بين الرّأفة والرّحمة

بناء على ما سبق تبين المفاهيم السّابقة أنّ الرّأفة هي الرّحمة، وكلاهما معنى واحد، وفي مواضع اقترنت الرّأفة بالرّحمة وهي مفسّرة لها، وخصّ المحقّقون من أهل اللّغة، الرّأفة بمعنى رحمة خاصّة، يقول أبو عمرو بن العلاء: (الرّأفة هي رحمة قويّة)⁽²⁾ وكلاهما مشبّهتان فيقول الشّيخ بن عاشور رحمه الله: (الرّؤوف الرّحيم صفتان مشبّهتان، مشتقّة أولاهما من الرّأفة، والثانية من الرّحمة، والرّأفة مفسّرة للرّحمة في إطلاق كلام الجمهور من أهل اللّغة)⁽³⁾.

و عليه فإنّ أسلوب الرّحمة والرّأفة أسلوب يحرّك فيه الشُّعور والوجدان والعاطفة، وهو أشدّ تأثيراً في النّفس وأسرع نتائج في التّغيير والإصلاح، ممّا يجعل القلوب توجل، والعيون تذرف، والجلود تلين، وهو يصلح مع جميع المدعوين بكلمة طيبة مؤثرة، يقول تعالى: ﴿وَيَقَوْمٍ مَا إِلَٰهَ ادْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ

وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾﴾ [غافر: 41]

ثانياً: أهميّة الرّحمة والرّأفة في الدّعوة إلى الله

لأسلوب الرّحمة والرّأفة أهميّة كبرى في الدّعوة إلى الله للأثر البالغ الذي أحدثته في دعوة الأنبياء عموماً ودعوة النبي ﷺ على وجه الخصوص، لذلك تكمن أهمّيّتها في ما يلي :

- الرّحمة مقصد من مقاصد القرآن الكريم، لأنّ إرسال النبي ﷺ بهذا الكتاب رحمة، وهذا يؤكّد أنّ أصول الشريعة وفروغها مبناهما على الرّحمة.
- الرّحمة خلق شامل لكلّ قيم السُّلوك في التّعامل، وهي صفة كريمة وعاطفة إنسانية نبيلة تبعث صاحبها على كل خيرٍ وتحبسه عن كل شرٍّ، فتحمله على بذل المعروف، وإغاثة الملهوف وإعانة المحروم وكف العسف والظلم، ومنع التعديّ والبغي، وهي بهذا رأس الأخلاق ولبّها⁽⁴⁾، عن السيّد

(1) - عبد الرّحمان حسن حبّنة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، ج2، المرجع السّابق، ص 5.

(2) - محمّد الطّاهر بن عاشور، تفسير التّحرير والتّنوير ج2، المرجع السّابق، ص 25.

(3) - المرجع نفسه، ص 25.

(4) - خلود شاكر فهد العبدلي، خلق الرّحمة ومنهج القرآن الكريم في التّروغيب فيه، بحث مقدّم في المؤتمر الدّولي عن الرّحمة في

الإسلام، كلّية التّربية، قسم الدّراسات الإسلامية، د، ت، ص 104.

عائشة رضي الله عنها قالت: «جاءتني مسكينة تحمل إبتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها، فاستطعمتها إبتاتها، فشئت التمرة، التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صنعت لرسول الله ﷺ فقال: إنَّ الله قد أوجب لها بها الجنة، أو أعتقها بها من النار»⁽¹⁾ الرحمة من الأخلاق التي أكَّدها القرآن الكريم وحثَّ عليها، والداعية عليه أن يعي أنَّ رسالته للناس هي رسالة رحمة في الأخلاق، وفي المعاملة، وفي التشريع، وفي الأسلوب.

المطلب الثاني: صور من رحمة النبي ﷺ

برزت هذه الصفة في شخصية النبي ﷺ الإنسانية في جميع جوانب حياته أقوالاً وأعمالاً، حتَّى أنه لا يوجد موقفاً أو حدثاً أو زاوية من زوايا حياته إلا غمرتها رحمته ﷺ، حتَّى في مواقع النزال والحروب والقتال ومواقف إقامة الحدود والعقاب، فرحمته لم تكن متكلِّفة تحدث في بعض المواقف من قبيل التحمُّل أو الإصطناع، وإنَّما كانت رحمةً طبيعية تلقائية مُشاهدة في كلِّ الأحوال، برغم اختلاف الظروف وتعدد المناسبات، فرأينا رحمته مع الكبار والصغار، ورأيناها مع الرِّجال والنِّساء، ورأيناها مع القريب والبعيد ومع الصِّديق والعدوِّ⁽²⁾ ومن رحمته حينما مرَّ أمامه يوماً جنازةً، فقام لها، فقيل له: إنَّها جنازة يهوديِّ فقال: «أليست نفساً»⁽³⁾ وعَضِبَ في إحدى الغزوات لَمَّا وجد امرأةً مقتولة، فكان إذا بعث بعثاً أو جيشاً أوصاهم بعدم قتل النِّساء والصِّبيان قائلاً: «...إغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثِّلوا، ولا تقتلوا وليداً...»⁽⁴⁾ وذلك لما جُبِلَ عليه من الترفُّق في المعاملة، والعدل في الغضب والرِّضا، والحلم والأناة التي أضحت من دواعي التأثير، ولا غرو فقد رَكَاه الله تعالى من فوق سبع سماوات رَزَّى عقله فقال: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَاضٍ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ رَزَّى لسانه فقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ ورَزَّى قلبه فقال: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١﴾ ورَزَّى بصره فقال: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ ورَزَّى صدره فقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ ورَزَّى خلقه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الإحسان إلى البنات، رقم الحديث 2630، ج 4، ص 2027.

(2) - راغب الحنفي السَّرجاني، الرَّحمة في حياة النَّبي ﷺ (المملكة العربية السعودية: المركز العالمي للتَّعريف بالرسول ونصرتة، ط 1، 1430هـ/2009م)، ص 52.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي، رقم الحديث 1312، ص 317.

(4) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الأمير الأمراء على البعوث، ووصيته إياهم بأداب الغزو، رقم الحديث 4521، ص 668.

خُلِقَ عَظِيمٌ ﴿٤﴾ وَرَكَاهُ كُلَّهُ فَقَالَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٠٧﴾ [الأنبياء: 107] فكانت رحمته ﷺ لأهل الأرض شملت جميع الناس المسلم وغير المسلم، يذكر الإمام الطبري رحمه الله في هذا الشأن فيقول: (إنَّ الله أرسل نبيَّه محمدًا ﷺ رحمةً لجميع العالم، مؤمنهم وكافرهم، فأما مؤمنهم فإنَّ الله هداه به وأدخله بالإيمان به وبالعامل بما جاء من عند الله الجنة، وأما كافرهم فإنَّه دفع به عنه عاجل البلاء الذي كان ينزل بالأمم المكذبة رسلها من قبله)⁽¹⁾ وإثارةً منابع الرحمة بالمدعوين والرأفة بهم أسلوب إختصَّ به النبيُّ محمد ﷺ حينما أرسله الله رحمة لكلِّ الأمم، حيث كانت بعثته رحمة، ودعوته رحمة، وكان صمته رحمة، ونطقه رحمة، وسيرته كلُّها رحمة، بل إنَّ رحمته شملت البشر والحجر والشجر: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٠٧﴾ [الأنبياء: 107] فما كان يغضب يومًا من الناس، وكان يستمع لهم بسعة صدر، ويدعوهم دائماً إلى التعامل بالرحمة والعطف والمحبة فيما بينهم، يقول عنه ابنُ عباس رضي الله عنهما: (كان محمدٌ رحمةً لجميع الناس، فمن آمن به وصدَّق به سعد، ومن لم يؤمن به سلم ممَّا لحق الأمم من الخسف والغرق)⁽²⁾ فمن الذين شملتهم رحمة النبي ﷺ هم كالأتي :

1- رحمته بأُمَّته : لقد نالت أُمَّته ﷺ الحظَّ الأوفر من رحمته إلى الحدِّ الذي قال فيه تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿١٢٨﴾ [التوبة: 128] ولقد كانت مشاعره ﷺ وأحاسيسه حيّاشة، فذات مرّة قرأ قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام في سورة [المائدة: 118] فاض ينبوع الرحمة واهتزَّ قلبه ﷺ وهو يناجي الله في خشوع: «اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي وبكى!!، وسرعان ما نزل الأمين جبريل مهديًا من فزعه على أُمَّته مبلِّغًا وقائلاً: إنَّ الله يقول لك إنا سنرضيك في أُمَّتك ولا نسوؤك»⁽³⁾.

2- رحمته ﷺ لغير المسلمين : أظهر النبيُّ ﷺ رحمته لكفار قريش وما ناله من الأذى في مكة والطائف ما ناله، فحضره ملك الجبال ليأمره بإهلاك ثقيف الذين استخفوا به وآذوه، فتحرّكت رحمته بهم قائلاً: «لعلَّ الله يخرج من أصلاهم من يعبد الله»⁽⁴⁾ وكان ﷺ يحرص على دعوة قومه إلى الإسلام

(1) - ابنُ جرير الطبري، تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المصدر السابق، ص 440.

(2) - محمد بنُ علي بنُ جميل المطري، نبي الرحمة محمد رسول الله ﷺ، بحث مقدّم في مسابقة علمية عالمية مخصّصة للعام الهجري 1428هـ، بصنعاء، ص 19.

(3) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب دعاء النبي ﷺ لأُمَّته وبكاه وشفقته عليهم، رقم الحديث 202، ص 114.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال: أحذكم آمين والملائكة في السّماء آمين، رقم الحديث 3231، ص 798.

رغم شدة الأذى التي كان يلقيها عليهم، رحمة بهم لينقذهم من النار، ولقد ضربوه مرة حتى غشي عليه، وقال أنس بن مالك ﷺ: «ما رأيت أحداً كان أرحم بالعباد من رسول الله ﷺ»⁽¹⁾ وذات يوم كان عليه الصلاة والسلام يُصلي عند الكعبة فوضع المشركون على ظهره جلد سلا جزور^(*) وهو ساجد⁽²⁾ ومع إيذائهم الشديد له استمر نبي الرحمة يدعوهم إلى الله حتى قرروا قتله؛ فأمره الله بالهجرة، بعد إقامته بمكة ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الله، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ۝٢٠﴾ [الحج: 19-20] يقول الحسن: (لَمَّا قام رسول الله ﷺ يقول: لا إله إلا الله، ويدعو الناس إلى ربهم، كادت العرب تلبد عليه جميعاً، وقال قتادة: تَلَبَّدَتْ -اجتمعت- الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه فأبى الله إلا أن ينصره ويمضيه ويظهره على من ناواه)⁽³⁾ فقد كانت رحمته لهؤلاء عجيبة ومبهرة وهو يعطف عليهم ويحنو ويبرّ بهم ويدعو لهم، ومن هؤلاء من خصّهم بالدعاء رجلين من ألد أعدائه أبا جهل وعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ قبل أن يُسلم فقال: «اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ يَا بِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ»⁽⁴⁾ فكان أحبهما إلى الله عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ.

3- رحمته بالحيوان: امتدّت رحمته ﷺ لتشمل الحيوان فقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلِيُحَدِّدَ أَحَدَكُمْ شَفَرَتَهُ فَلِيَرَحَ ذَبِيحَتَهُ»⁽⁵⁾ وفرّح حينما رأى حمرة تحوم على فراخها، وعدّ ذلك فجيلة للأمم بأولادها فقال لهم حاثاً إياهم على إرجاعها: «من فجع هذه بولدها»⁽⁶⁾.

(1) - يوسف خاطر حسن الصوري، أساليب الرسول ﷺ في الدعوة والتربية، المرجع السابق، ص 15.

(*) - سَلا جَزُورٍ: الجزور من الإبل ما يجزر أي يقطع، وهو يفتح الجيم، والسلى هي الجلدة التي يكون فيها ولد الناقة عندما يولد، يقال لها ذلك من البهائم وأما من الآدميات فالمشيمة (إنّ حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب إذا أُلقي على ظهر المصلي قدر أو جيفة لم تفسد عليه صلاته، رقم الحديث 240، ج 1، المرجع السابق، ص 349).

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب إذا لقي على ظهر المصلي قدر أو جيفة، رقم الحديث 240، ص 69.

(3) - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 8، المصدر السابق، ص 257.

(4) - أخرجه الترمذي في سننه الجامع الكبير، كتاب المناقب، باب في مناقب أبي حفص عمر بن الخطاب ﷺ، رقم الحديث 3681، مج 6، المصدر السابق، ص 57. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، هذه الفقرة لم يجد لها أثراً في النسخ والشروح ولا نقلها إلا عن الترمذي.

(5) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيد، باب الأمر بإحسان الذبح، رقم الحديث 57، ج 3، ص 1548.

(6) - أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الجهاد، باب كراهية حرق العدو، ج 3، رقم الحديث 1622، ص 55، وصحّحه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم الحديث 52، ص 291.

4- رحمته بالجماد: وفوق كل ذلك فقد شملت رحمته ﷺ لمن لا روح فيه أصلاً، كتعاطفه مع جبل أخذ الصخر الأصم، وكان لا يريد - ﷺ - للناس أن يتشاءموا منه لحدوث مصيبة المسلمين عنده، فلا يريد لهم أن يكرهوه دون جريرة ولا جريمة، فقال وهو يشير إلى جبل أخذ: «هذا جبل يحبنا ونحبه»⁽¹⁾ فأية رحمة وأي عطف من قلب رسول الله ﷺ، إن هذه الصفة الرقيقة واللطيفة يجب توفُّرها عند كل داعية مسلم، فقاسي القلب لا يصلح أن يكون داعياً لأنَّ الرحمة هي حركة قلبية وعطف وإحساس مرهف ومواساة وجدانية يدفع بالداعية ذاتياً وعن رغبة التخفيف ومواساة المدعويين⁽²⁾.

5- رحمته بالضعفاء: كان النبي ﷺ يتميز بأرقّ المشاعر وأكبر درجات الشفقة تجاه الضعفاء الذين يعيشون حالات ضعف، لأنَّ الضَّعْف لوناً من ألوان الألم في النفس، والنبي ﷺ كان رحيماً بالناس في كلِّ أحوالهم، وفي حالة ضعفهم أشدَّ رحمةً بهم، لذلك فقد علَّم أصحابه وأُمَّته من بعده الاستعاذة من جميع صور الضَّعْف فقال: «اللَّهِمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الْعَدُوِّ، وَشِمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ»⁽³⁾.

6- رحمته بكبار السن: كان النبي ﷺ يعظُم قيمة كبير السنِّ حتَّى أنَّه يقدِّمُه على حامل القرآن والحاكم العادل مع عظم قدرهما وسمو مكانتهما⁽⁴⁾، فجاء شيخ ذات يوم يريد النبي ﷺ فأبطأ القوم أن يوسَّعوا له، فرقَّ له رسول الله ﷺ ورحمه وقال: «ليس منَّا من لم يرحم صغيرنا ويوقرَّ كبيرنا»⁽⁵⁾ وما أروع ما قاله للصدِّيق أبي بكر ﷺ يوم فتح مكة حين أتيَّ بأبي قحافة وكان شيخاً مسنّاً ليُسلم بين

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب أحد جبل يُحِبُّنا ونُحِبُّه، رقم الحديث 4083، ص 1002.

(2) - يوسف خاطر حسن الصُّوري، أساليب الرُّسول ﷺ في الدَّعوة والتَّربية، المرجع السَّابق، ص 15.

(3) - أخرجه النسائي في سننه، كتاب الاستعاذة، الاستعاذة من غلبة الدَّيْنِ، رقم الحديث 5475 (عمان: بيت الأفكار الدولية، د، ط د، ت)، ص 556، وقال النسائي: هذا حديثٌ صحيحٌ، وذكر حكم الألباني: حديثٌ صحيحٌ، وأخرجه الطَّبْراني في المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد الحميد السلفي، رقم الحديث 11882 (القاهرة: مكتبة بئر تيمية، ط2، ج11، د، ت)، ص 323. وذكر حكم الألباني: حديثٌ صحيحٌ.

(4) - راغب الحنفي السَّرجاني، الرَّحمة في حياة النَّبي ﷺ، المرجع السَّابق، ص 80.

(5) - أخرجه التَّرمذي في سننه، كتاب البرِّ والصَّلة، باب ما جاء في رحمة الصَّبيان، رقم الحديث 1919، وأخرجه أحمد في مسنده، برقم الحديث 6733، وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ عبد الرَّحمان بن أبي الزناد، ولو أنَّه ضعف في رواية البغداديين عنه، وتوبع من رواية المدنيين عنه، وهي صحيحة فيما ذكر ابن المديني كما في شرح علل التَّرمذي لابن رجب 605/2، 606. وأخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب فضل الكبير، رقم الحديث 358، ص 79، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، وفي صحيح الجامع للألباني، رقم الحديث 5445 (بيروت: المكتب الإسلامي، ط3، مج1، 1408هـ/1988م)، ص 957. وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ.

يأتي رسول الله ﷺ في البيت الحرام فقال ﷺ: «هلاً تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتية فيه، قال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت، قال: فأجلسه بين يديه، ثم مسح صدره، ثم قال له: أسلم، فأسلم...»⁽¹⁾ كانت حكمة النبي ﷺ في أن يعطي كل مقام وكل صنّف حقّه من الرّحمة، فكان بالمؤمنين رحيماً، وبمن يرجو إسلامهم صبوراً حليماً، ويغلظ على الكفّار ممّن إنتهكوا حرّماته وظلّوا عن كفرهم وعيهم، فكانت رحمته سامخة ترسم للدّاعية الأسلوب العاطفي الأمثل في كسب قلوب النّاس وذلك من خلال ما يلي:

- الدّاعية إلى الله إذا كان يحمل فكرة دعوية ليحثّ النّاس عليها، فإنّه بحاجة إلى الأسلوب الأمثل الذي يقدّم من خلاله هذه الفكرة، وإلاّ فإنّه يجد نفسه عاجزاً عن إدارتها وتبليغها، حتى وإن توفّرت لديه جميع الملكات العلميّة والثّقافية والفكريّة التي بها تكتمل شخصية الدّاعية، وهذا النوع من الأسلوب من توفّرت فيه معاني الرّحمة وما يرافقها من عنصر الإثارة والتّشويق.

- فالرّحمة المطلوبة ليست تمثيلاً بل هي ممارسة تترجمها الجوارح وعماً يكمن في القلب من رّحمة وحرّص لإيصال الخير للمدعوين، مجنّباً إيّاهم التّشهير والتّعير والتّنديد، يذكر المحاسن، ويتمنّى أن تزيد، ويذكر الخطأ ويتمنّى زواله⁽²⁾.

- لكسب قلوب النّاس والتّأثير فيهم يجب تحقيق طمأنينة القلب، بما يفرشه الدّاعية من أفرشة المودّة وبما يغطّي مدعويه بأجنحة المحبّة، وهذا هو الانسجام الحقيقي، أمّا عدمه يُلحق بالدّعوة النّفور، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنّه قال: «يا أيّها النّاس إنّ منكم منقرّين»⁽³⁾.

- حاجة الدّعوة إلى دعاة يعيشون متفاعلين مع قضايا النّاس بأسلوب من الرّحمة، كعامله الأب الشّفيق الرّحيم لأبنائه، بل يؤثّرهم على نفسه أحياناً.

(1) - أبو محمّد عبد الملك المعافري بن هشام، السّيرة النبوية لابن هشام، إسلام أبي قحافة (بيروت: دار الكتب العلميّة، ط1، ج2، 2009م)، ص 31.

(2) - بسّام العموش، فقه الدّعوة، المرجع السّابق، ص 42.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أبواب صلاة الجماعة والإمامة، باب من شكّا إمامه ذا طول، رقم الحديث 704، ص

المطلب الثالث: أشكال إثارة منابع الرأفة و الرحمة

تعددت أشكال إثارة منابع الرأفة والرحمة بالمدعوين عند النبي ﷺ بأساليب وأشكال متنوعة هي كالآتي:

أولاً: القول اللين

بعد إستعراضي لنماذج سابقة لأسلوب القول اللين في دعوات الأنبياء عليهم السلام من خلال القرآن الكريم سأسلط الضوء في هذه الجزئية على هذا النوع من الأسلوب في دعوة النبي ﷺ بشيء من التخصيص والوصف، وقبل ذلك سأبتدئ بتقديم المفهوم اللغوي والإصطلاحي .

أ- مفهوم القول اللين

قبل التعريف بالقول اللين ككلمة مركبة، يجدر بنا التعريف بألفاظه على حدّا: القول، واللين، بشيء من التفصيل حتى يتضح المعنى أكثر وهو كالآتي :

- مفهوم القول

- يعرفه الدكتور محمد أبو الفتح البيانوني بالقول: (القول هو كلُّ لفظ مُفهمٍ نطق به الإنسان، ويقابله الصمت والسكوت)⁽¹⁾ وفي تعريف آخر له: (القول هو الكلمة التي تصل إلى المدعو، فإن كانت من القلب دخلت إلى القلب، وإن كانت باللسان لم تتجاوز الآذان، وهي السبب الذي يربط بين الدّاعية والمدعوين، فإن كان السبب واهياً كانت الإستجابة أوهى وأخلق)⁽²⁾ و القول هو الأصل في تبليغ الدّعوة إلى الله، وهو الوسيلة الأصلية في إيصال الحقّ للنّاس، وهي من أبسط الوسائل إستعمالاً وأسهلها تناولاً، وأسرعها إستجابة، وأكثرها إنتشاراً وأعظمها نفعاً⁽³⁾ إستخدمه الأنبياء عليهم السلام جميعاً فما من نبيّ إلّا وقد قال لقومه شيئاً وبين لهم قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: 4] ولكي يؤدي القول وظيفته الدّعوية لابدّ للدّاعية الإلتزام بالضوابط الشرعية له وهي كالآتي :

(1) - محمد أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدّعوة، المرجع السابق، ص 311.

(2) - محمد الصّالح وقيع الله، ثقافة الدّاعية وأثرها في الدّعوة، بحث مقدّم لنيل درجة الماجستير في الدّراسات الإسلامية، جامعة الرّباط، كآية الدّراسات العليا والبحث العلمي، 2015م، ص 43.

(3) - يوسف القرضاوي، تعامل الدّاعية مع المستجدّات الفقهيّة، المرجع السابق، ص 66، ويُنظر: عبد الكريم زيدان، أصول الدّعوة، المرجع السابق، ص 447.

✓ أن يكون هذا القول مشروعاً صادقاً يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ [النحل: 116].

✓ وأن يكون لطيفاً حسناً يقول تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئْنَا﴾ [طه: 44].

✓ وأن يطابق قوله عمله يقول تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَا لَيْتَ لَنَا آخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ [البقرة: 9].

✓ وأن يكون هذا القول بيناً واضحاً يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: 4] وإلى غيرها من مظاهر الحكمة في القول وآداب البيان والموعظة الحسنة⁽¹⁾، وبناءً على ما سبق فإن القول يأتي بأشكال عديدة وهي كثيرة منها: الحديث الفردي، والجماعي، والقراءة، والمواظ، والدروس، والمحاضرات والخطب...⁽²⁾.

وهذا يُبرز لنا أهميته في الدعوة إلى الله والتي كانت من عدة أوجه نذكر منها :

✓ من حيث أنه وسيلة فطرية متوفرة لدى جميع الناس، إلا من شذ منه بسبب خرس أو نحوه.

✓ إهتمام القرآن الكريم والسنة المطهرة بها، فقد وردَ لفظ ﴿قُلْ﴾ في أكثر من ألفي آية، وكثرة أقوال النبي ﷺ التي جمعت في كتب السنة والتي تمثل السنة القولية الشريفة.

✓ استخدمه جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام، فما من نبي إلا وقد قال قولاً لقومه⁽³⁾ يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: 4] وقال عن بعض الرسل: ﴿قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [هود: 84].

– مفهوم اللين

✓ لغة

• يعرفه العلامة ابن فارس بالقول: (مصدر القول لأنَّ يَلِينُ، وهو مأخوذ من مادة (ل ي ن) خلاف الخشونة، يقال: هو في لَيَانٍ من عيشه، أي: في نِعْمَةٍ، وفلان مَلِينَةٌ أي لين الجانب)⁽⁴⁾

(1) يُنظر: محمّد أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، المرجع السابق، ص-ص 315، 316.

(2) - المرجع نفسه ص 311، ومحمّد بن سامي منياوي، بحث أساليب الدعوة ووسائلها، جامعة أمّ القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الدعوة والثقافة الإسلامية، ص 71.

(3) - يُنظر: محمّد بن سامي منياوي، بحث أساليب الدعوة ووسائلها، المرجع السابق، ص 71.

(4) - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج5، المصدر السابق، ص 225.

ويعرفه العلامة الرّازي في "الصّحاح": (اللّينُ ضدُّ الحُشُونَةِ وَقَدْ (لَانَ) الشَّيْءُ يَلِينُ لِينًا وَشَيْءٌ لَيِّنٌ وَلَيِّنٌ مُحَفَّفٌ مِنْهُ وَلَيِّنَ الشَّيْءَ تَلَيَّنًا وَأَلَيَّنَهُ صَيَّرَهُ لَيِّنًا، وَيُقَالُ: أَلَانَهُ أَيُّضًا عَلَى النُّقْصَانِ وَالتَّمَامِ مِثْلُ أَطَالَهُ وَأَطَوَّلَهُ. وَلَا يَنُوهُ مُلَايَنَةً وَلِيَانًا وَاسْتَلَانَهُ عَدَّهُ لَيِّنًا وَتَلَيَّنَ لَهُ تَمَلَّقَ، وَاللَّيْنُ: مِنَ الْمَلَايِنَةِ وَاللُّطْفِ، وَهُوَ الْأَسْمُ مِنَ اللَّيْنِ، وَاسْتَلَانَ الشَّيْءَ عَدَّهُ لَيِّنًا⁽¹⁾). ويعرفه العلامة ابنُ منظور بالقول: (اللّين ضدُّ الحُشُونَةِ، يُقَالُ: فَلَانٌ مُلَيِّنَةٌ: أَيُّ: لَيِّنَ الْجَانِبَ)⁽²⁾.

✓ اصطلاحًا

عرّف العديد من العلماء والمفسرين اللين بتعاريف مختلفة نذكر منهم:

انطلاقًا من الآية الكريمة التي يتجلى فيها معنى اللين يقول تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ﴾ [آل عمران: 159] فقد عمد العديد من المفسرين في إيضاح معنى اللين فجاء في قول بعضهم كالآتي : يقول الإمام البغوي رحمه الله: (لَئِنْ لَمْ: أَيُّ: سَهَّلْتَ لَهُمْ أَخْلَاقَكَ وَكَثْرَةَ إِحْتِمَالِكَ)⁽³⁾ وقال الإمام الرّازي رحمه الله: (لِينُهُ مَعَ الْقَوْمِ: عِبَارَةٌ عَنْ حَسَنِ خَلْقِهِ مَعَ الْقَوْمِ)⁽⁴⁾ ويقول الشيخ العلامة ابنُ السّعدى رحمه الله: (...أَلَنْتَ لَهُمْ جَانِبَكَ وَخَفَضْتَ لَهُمْ جَنَاحَكَ، وَتَرَقَّقْتَ لَهُمْ، وَحَسَنْتَ لَهُمْ خَلْقَكَ، فَاجْتَمَعُوا عَلَيْكَ وَأَحْبَبُوكَ، ... وَعَلَى الضَّدِّ مِنْهَا فِي الْآيَةِ اللَّفْظُ الْغَلِيظُ: أَيُّ: قَاسِيهِ)⁽⁵⁾ و في تعريف آخر: (اللّين بمعنى المداراة وهو ملاينة النَّاسِ وحسن صحبتهم)⁽⁶⁾، وهو سهولة الانقياد للحق، والتلطّف في معاملة النَّاسِ ومحدثهم)⁽⁷⁾ ويعرفه العلامة الشيخ محمّد الطّاهر بنُ عاشور في تفسيره فيقول: (اللّينُ حَقِيقَةٌ مِنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ، وَهُوَ رُطُوبَةٌ مَلَمَسِ الْجِسْمِ وَسُهُولَةٌ لَيْهٍ، وَضِدُّ اللَّيْنِ الْحُشُونَةُ، وَيُسْتَعَارُ اللَّيْنُ لِسُهُولَةِ الْمُعَامَلَةِ وَالصَّفْحِ، قَالَ عَمْرُو بْنُ كُثُومٍ : عَلَى الْأَعْدَاءِ قَبْلَكَ أَنْ تَلِينَا ... فَإِنَّ قَنَاتَنَا يَا عَمْرُو أَعْيَتْ. وَاللّينُ مِنْ شِعَارِ الدَّعْوَةِ إِلَى الْحَقِّ)⁽⁸⁾.

(1) - أبو بكر الرّازي، مختار الصّحاح، مادة لين (بيروت: المكتبة العصرية، ط5، ج1، 1420هـ/1999م)، ص 288.

(2) - ابنُ منظور، لسان العرب، مادة لين، ج13، المصدر السابق، ص 394.

(3) - البغوي، تفسير البغوي معالم التنزيل للبغوي (بيروت: دار ابن حزم، ط1، 1423هـ/2002م)، ص 253.

(4) - الرّازي، تفسير الفخر الرّازي المسمّى بالتفسير الكبير (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج9، د، ت)، ص 63.

(5) - ابنُ السّعدى، تيسير الكريم الرّحمان في تفسير كلام المنان، ج1، ص 444.

(6) - ابنُ منظور، لسان العرب، ج14، المصدر السابق، ص 255.

(7) - إبراهيم بن علي السّلمي، الرّفق واللّين وأثرهما في توجيه النَّاسِ (مكتبة الملك فهم أثناء النشر، ط1، 1433هـ/2012م)، ص 9.

(8) - محمّد الطّاهر بنُ عاشور، التّحرير والتّنوير، ج16، المرجع السابق، ص 225.

وبناءً على التعريفات السابقة تبين لنا أنَّ اللين ينطبق على الجانب القولي والعملي، أي الأخلاقي والسلوكي فظهر بمعنى: المداراة، وخفض الجناح، والترفق، وحسن الخلق، والتلطُّف، والصَّفح وحسن المعاملة، والقول اللين، وأمَّا مفهوم القول اللين ككلمة مركَّبة - وقد سبق التعريف بألفاظه - كالآتي :

✓ هو القول المتَّسم بالرفق والذي يتجنَّب فيه صاحبه الغلظة والفضاضة وقسوة العبارة ولاسيما في مواجهة العامة من النَّاس أو عِليَّة القوم وذوي المكانة، فلا يحقرهم ولا يسفّه من شأنهم، وبهذا الأسلوب يمتلك زمام قلوبهم ويضع فيهم ما يريد من أراء وأفكار⁽¹⁾.

✓ وفي تعريف آخر له: (هو التَّلَطُّف في الحديث مع النَّاس وأكثر ما يكون ذلك مرغوبًا في مجال الدَّعوة إلى الله)⁽²⁾ والتَّلَطُّف بالمدعو هو إظهار البشاشة له ومراعاته دون إخفاء، أو تحسين لباطل، أو تغيير لحقيقة⁽³⁾.

✓ ولين القول بمعنى المداراة والتي هي لين الكلمة وترك الإغلاظ في القول يقول تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: 44] فقد أوصى الله نبيّه موسى وأخاه هارون عليهما السَّلام باللين والمداراة يقول البغوي رحمه الله: (بمعنى دارياه وارفقا به، ثمَّ ذكر قول ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: لا تعنفا في قولكما، ثمَّ قال: وقيل: أمر باللطافة في القول لما له من حقِّ التَّربية)⁽⁴⁾ وقال ابنُ السَّعدي رحمه الله: (أي: سهلاً لطيفاً، برفق ولين وأدب في اللَّفظ من دون فحش ولا صلف، ولا غلظة في المقال، أو فضاضة في الأفعال لعَلَّه بسبب القول اللين يتذكَّر)⁽⁵⁾ وقال الإمام السيوطي رحمه الله: (فيه الحثُّ على اللين في القول والمداراة)⁽⁶⁾.

(1) - عوده عبد عوده عبد الله، الكلمة الطيبة وأثرها في الدَّعوة إلى الله، من منظور قرآني، نشر في مجلَّة معهد الإمام الشَّاطبي للدراسات القرآنية، 2014م، ص 23.

(2) - إبراهيم بن علي السَّلمي، الرفق واللين وأثرهما في توجيه النَّاس، المرجع السَّابق، ص 15.

(3) - أنس سليم الأحمدي، المرونة (الرَّياض: مؤسَّسة الأُمَّة للنَّشر والتَّوزيع، د، ط، د، ت)، ص 4.

(4) - أبو محمَّد الحسين بن مسعود البغوي، تفسير اليعقوبي معالم التَّنزيل للبغوي، المرجع السَّابق، ص 819.

(5) - ابنُ السَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمان في تفسير كلام المئان، ج 5، المرجع السَّابق، ص 159.

(6) - السيوطي، الإكليل في استنباط التَّنزيل، تحقيق: سيف الدِّين عبد القادر (بيروت: دار الكتب العلمية، د، ط 1410هـ)، ص 74.

✓ وفي تعريف آخر له : (هو الكلام الدال على معاني التَّغْيِب والعرض وإستدعاء الإمثال بأن يظهر المتكلم للمخاطب أنه له من سداد الرأى ما يتقبَّل به الحق ويميّز به بين الحقِّ والباطل، مع تحنُّب أن يشتمل الكلام على تسفيه رأي المخاطب أو تجهيليه، فشبه الكلام المشتمل على المعاني الحسنة بالشَّيء اللِّين)⁽¹⁾.

وعليه فقد تبَيَّن لي مِنْ خلال المفاهيم السَّابقة أنَّ مصطلح القول اللِّين يدور في فلكِ المدارة، والتَّغْيِب، والرَّفْق، والتَّلَطُّف، وإظهار البشاشة، وترك الإغلاظ.

ب- أهميَّة القول اللِّين في الدَّعوة إلى الله

في سياقِ الحديثِ عن القول اللِّين جاء القرآن الكريم بدلائل كثيرة تدلي بمكانته وأهميته في الدَّعوة إلى الله عمومًا والأنبياء عليهم السَّلام على وجه الخصوص، منها ما جاء على لسان نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام في دعوته لأبيه، فوضَّحت ما كانت تنطوي عليه كلماته من أدبٍ ورقَّةٍ برغم شركه وعناده، ومن خلال الأمر الربَّاني لنبيِّ الله موسى عليه السلام حين أمره بالقول اللِّين، وهذا دلالة على عِظَم أثره في الدَّعوة إلى الله عمومًا وفي حياة الدَّاعية على وجه التَّحديد، فعَدَّه الإسلام من الأخلاق التي تضع الأمور في نصابها، يصحَّح الخطأ، ويقوِّم السُّلوك، ويهدي إلى الفضيلة بالطف عبارة وأحسن إشارة وبطريقة مؤثِّرة، وقد أمر الله تعالى عباده إلى حسن الموعظة في الدَّعوة إلى الله باستخدام القول اللِّين فقال: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّا الشَّيْطَانُ كَانَتْ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [الإسراء: 53] فيأتي الغرض منه عرض الدعوة وإسداء النصيحة بأسلوب جميل ولطيف وبألفاظٍ وعباراتٍ مؤثِّرة تفتح القلوب وتشرح الصُّدور وتحمل الآخرين إلى الإستماع وحصول الإستجابة، ولا يتحقَّق ذلك طبعًا إلَّا بأسلوب اللِّين سواء في القول أو المعاملة الحسنة أو الخلق الرفيع، والتَّعامل باللِّين يسهِّل إدارة الدعوة ومع النَّاس، والنَّاس بفطرتهم ينصرفون عن من كان جافًا أو قاسيًا مهمًّا علا شأنه وتعالى قيمته، ويميلون إلى من يرفق بهم ويلين لهم القول، ولهذا بعث الله الأنبياء وأمرهم بالقول اللِّين مظنَّة التأثير، فتوجَّه موسى عليه السلام لمخاطبة فرعون بالقول اللِّين دعوة إلى الأخذ بالأسلوب اللِّين في الدعوة إلى الله وتنبيهه للدَّاعية إلى تسلَّحه بهذا القول لأثره المذهل في النفوس، ولأنَّ في اللِّين والرَّفْق قوَّة عاطفية تدفع إلى التَّأثير وزيادة الألفة بين الدَّاعية والمدعو، فإنَّه من الضَّروري

(1) - محمَّد أحمد مصلح الوعيل، مقال حول القول الحسن في القرآن الكريم دراسة تفسيرية موضوعية، مجلَّة جامعة النَّاصر، العدد 7، 2016م، ص 328.

مخاطبة الناس بأجل الكلمات وألطف العبارات التي هي سمة المؤمنين الذين قال عنهم الله تعالى: ﴿وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الحج: 24] يقول طلحة بن عُمَرُ رضي الله عنه: «قلت لعطاء: إنك رجل يجتمع عندك ناس ذوو أهواء مختلفة، وأنا رجل في حدة، فأقول لهم بعض القول الغليظ، فقال: لا تفعل! يقول الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: 83] فدخل في هذه الآية اليهود والنصارى، فكيف بالحنيفي؟»⁽¹⁾، والداعية أثناء دعوته يجعل كلامه في ميزان الصواب فإذا أحكم قوله وسدّد لفظه فقد أوتي من الحكمة باباً عظيماً يقول تعالى: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: 8] ويقول أيضاً: ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ [الإسراء: 28] وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: 83] أشارت الأدلة إلى مبدأ مهم في التعامل مع المدعو وأثرها في تكوين العلاقات معه، بحيث تكون بالكلمة الطيبة والقول الحسن والأسلوب الجميل، لأنّ القول الحسن يفتح القلب وينعش الروح ويقوّي الروابط بين الداعية والمدعو⁽²⁾، يقول الإمام القرطبي رحمه الله: (وقال أبو العالية: قُولُوا لَهُمُ الطَّيِّبَ مِنَ الْقَوْلِ، وجاروهم بأحسن ما تُحِبُّونَ أن يُجَازَوْا به، وهذا كلّ حضٍّ على مكارم الأخلاق، فينبغي للإنسان أن يكون قول للناس لِينًا ووجهه منبسطاً طلقاً مع البرِّ والفاجر، والسُّبِّيِّ والمبتدع، من غير مُدَاهَنَةٍ، ومن غير أن يتكلّم معه بكلام يظنُّ أنّه يُرضي مذهبه، لأنّ الله تعالى قال لِمُوسَى وهَارُونَ: فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا)⁽³⁾.

ج- مواقف القول اللين في دعوة النبي ﷺ

أشار القرآن الكريم والسنة المطهرة والسيرة العطرة إلى ما أثمره القول اللين من نجاح في دعوة النبي ﷺ، فلم يكن ﷺ فظاً غليظ القول، بل كان رفيقاً حليماً، وقد ضرب ﷺ أروع الأمثلة في حسن الكلام ولين القول ومن ذلك توجيهه ﷺ للسيدة عائشة رضي الله عنها حين دخل رهط من اليهود إلى النبي ﷺ فقال لها: «يا عائشة لا تكوني فحاشة فإنّ الفحش لو كان رجلاً لكان رجل

(1) - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وآخر (القاهرة: دار الكتب المصرية، ط 2، ج 2، 1384هـ/1964م)، ص 16.

(2) - عودة عبد عودة عبد الله، الكلمة الطيبة وأثرها في الدعوة إلى الله، المرجع السابق، ص 14.

(3) - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 1، ج 2، 1427هـ/2006م)، ص 16.

سوء»⁽¹⁾ في هذا المعنى يقول الإمام القرطبي رحمه الله: (هو حضُّ على مكارم الأخلاق فينبغي على الدَّاعية أن يكون قوله للنَّاس لِيناً ووجهه منبسطاً طلقاً مع البرِّ والفاجر والسُّئيِّ والمبتدع من غير مداهنة ومن غير أن يتكلَّم معه لكلام يظُنُّ أنه يرضي مذهبه)⁽²⁾ وتعجَّب السيِّدة عائشة ؓ من موقفِ رسول ﷺ حين استأذن رجلٌ بالدُّخول على النَّبي ﷺ فنعتته بقوله: «بئس أخو العشيرة» «فلما دخل ألان له الكلام»⁽³⁾ يقول العلامة ابن بطَّال رحمة الله: (الرَّجل هو عيَّنة بن حصن الفزازي وكان يقال له: الأحمق المطاع)⁽⁴⁾ كان هدفُ النَّبي ﷺ من مداراته لما جُبل عليه من حسن الشَّيم وحسن الخلق بهدف إتقاء شرِّه وفحشه وما عرف عنه من الحمق وسوء الطَّبَّاع، فأظهر له البشاشة والترحيب ولم يجابهه بمكروه، يذكر الإمام الخطابي رحمه الله في هذا الأسلوب: (لم يجابهه بالمكروه لتقتدي به أمته في إتقاء شرٍّ من هذه سبيله، وفي مداراته ليسلموا من شرِّه وغائلته)⁽⁵⁾ ويومَ كانَ رسول الله ﷺ بالموسم بمئى يعرض نفسه على القبائل، فجاء إلى بطن منهم يقال لهم بنو عبد الله، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه حتَّى أنَّه قال: «يا بني عبد الله، إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أحسنَ إسمَ أبيكم»⁽⁶⁾ كان رسول الله ﷺ سهلاً سمحاً لِيناً، دائم البشر، يواجه النَّاس بابتسامه، ويبادهم بالسَّلام والتَّحية والمصافحة وحسن المحادثة، فعلم أصحابه وأمته أدب التَّخاطب وعفَّة اللِّسان فقال ﷺ: «ليس المؤمن بالطَّعان ولا اللَّعَّان ولا الفاحش ولا البذيء»⁽⁷⁾ وكان ﷺ يحاور المخالفين بلين الجانب والهدوء التَّام، فهذا عتبة بن ربيعة والذي كان سيِّداً من سادات قومه، طلب من قومه أن يكلم رسول الله ﷺ ويعرض عليه أموراً فأذنوا له، فجاء النَّبي ﷺ حتَّى جلس، وبدأ بالحديث مع النَّبي ﷺ فقال: «قل يا أبا الوليد، والتفت

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السَّلام، باب النَّهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسَّلام، رقم الحديث 2165، ص 1705.

(2) - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، المصدر السَّابق، ص 16.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب المداراة مع النَّاس، رقم الحديث 6131، ص 1531.

(4) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب لم يكن النَّبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً، رقم الحديث 6031 (المكتبة السَّلفية، د، ط، ج 10، د، ت)، ص 453.

(5) - المرجع نفسه، رقم الحديث 3132، ص 453.

(6) - ابن هشام، السِّيرة النَّبويَّة (بيروت: دار الكتاب العربي، ط 3، ج 2، 1410هـ/1990م)، ص 72.

(7) - أخرجه التَّرمذي في سننه، كتاب البرِّ والصَّلة، باب ما جاء في اللَّعنة، رقم الحديث 1977، ج 3، ص 418. وأخرجه ابنُ حبان في صحيحه، كتاب البرِّ والإحسان، باب ذُكِرَ نَفْيُ اسمِ الْإِيمَانِ عَمَّنْ أَتَى بِبَعْضِ الْحُصَالِ الَّتِي تَنْقُصُ بِإِيَّانِهِ إِيْمَانَهُ، ج 1، رقم الحديث 192، ص 421، وقال التَّرمذي: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ، وجوَّد إسناده الذهبي في المذهب، ج 8، ص 4200، وصحَّح إسناده العراقي في تحريج الإحياء ص 1010. وصحَّح الحديث الألباني في صحيح التَّرمذي 1977.

إليه بهدوء تام، حتى إنتهى من كلامه ثم قال: أَقْدُ فرغتَ يا أبا الوليد ؟، قال: نعم»⁽¹⁾ فهذه أخلاق النبي ﷺ مع خصومه وأعدائه، ومنه يتعلّم الداعية كيفية مواجهة الخصم بهدوء تام وتحكّم في المشاعر والأحاسيس، وقسمات الوجه وتعبيراته، وعدم الإنفعال والغضب، وكيفية محاورته بهدوء، والاستماع إليه بإنصات حتّى إذا إنتهى من كلامه يبدأ بتوضيح فكرته⁽²⁾ فالقول اللّين أحد عوامل الجذب لدخول النَّاس في الإسلام، والنَّاس بفطرتهم يمتقنون العنف وأصحابه، ويألفون الرِّقَّة وأهلها، وجانب اللّين تجاههم أمر ربّاني وخلق سامي من أخلاق النُّبوة وهو ضروري في الدعوة إلى الله تعالى للأثر البالغ في كسب محبّة النَّاس وودّهم، وعامل لخروج الأمّة من الأزمات التي تعاني منها سواء في حقل الدعوة أو في سائر العلاقات بين النَّاس، وقد طبّق النبي ﷺ هذا الجانب في مواقف عديدة من حياته وفي دعوته، فاتخذ منهجاً إنسانياً في أقواله وفي كل الأحوال والظُّروف، فقدم الطّريقة المثلى في التّعامل مع النَّاس، كان إذا أغلظ بعضهم القول معه كان يدفع بالتّي هي أحسن وكان يحسن من أساء إليه، وهذا أحد مقوّمات الدّاعية النّاجح لأثرها العظيم في قبول الدعوة، والتفاف النَّاس حولهم وتصديقهم والتلقّي منهم.

د- المستفاد من القول اللّين في دعوة النبي ﷺ

من خلال ما تمّ عرضه بخصوص القول اللّين في دعوة النبي ﷺ تبين مدى حاجة الدّاعية وتمسّكه بهذا الأسلوب لضمان التّقدّم والنّجاح في دعوته من خلال ما يلي :

— إنّ طول الزّمن قد يُخفّف من رقة الشّعور، وتطاول الأيام قد ينسي بعض القيم، وتقادم العهد قد يغيّر المشاعر القلبية، ما لم يتعهّد المرء نفسه، ويجلو قلبه، ليبقى حاضر الفكر، واعى القلب، يقظ الإحساس، ولأن اللّين ظاهرة سلوكية تنبع عن قلب لين، فقد عاتب الصّحابة بعد هجرتهم إلى المدينة وجدوا راحة البال وطيب العيش، إذ كونهم وجدوا في الهجرة ملاذاً من أذى قريش فأنزل الله على نبيه ﷺ آيات تعاتبهم عتاباً رقيقاً⁽³⁾: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: 16]

وحدّث ابن مسعود رضي الله عنه فقال: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ... إلّا أربع

(1) - يُنظر: صفى الرّحمان المباركفوري، الرّحيق المختوم (قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، د، ط، 1428هـ/2007م)،

(2) - محمد أحمد مصلح الوعيل، مقال حول القول الحسن في القرآن الكريم دراسة تفسيرية موضوعية، المرجع السّابق، ص 339.

(3) - بتصرّف: محمود محمّد خزندار، هذه أخلاقنا، ج1، المرجع السّابق، ص 461.

سينين»⁽¹⁾ فإذا كان الصحابة الكرام قد احتاجوا إلى تلك اللّفة القلبية بعد أربع سنوات من إسلامهم، فكم تحتاج قلوبنا إلى تعهد وتركية؟.

- على الدّاعية أن يتلطف بالقول فيستعمل في خطابه أو كلامه ما يثير المدعو ويقمع فيه نوازع النفور، لأنّه ينساب في النفس كما ينساب الماء العذب فيحيي مواتها وتثمر ثمراتها، والقول الجاني يصدّها صدّا، وإن القول اللّين يتبعه التأمل والتفكير⁽²⁾، لذلك قال الله تعالى في فرعون: ﴿لَعَلَّهٗ يَتَذَكَّرُ﴾ [طه: 44].

- القول اللّين أداة من أدوات التبليغ والتأثير والدّاعية عليه أن يوظّفه في الخطب المنبرية والمحاضرة والدروس الوعظية أو في حالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي كل لحظة من حياته.

- التّلطف في القول لا يعني المداينة والتّفاق ولا إخفاء الحقّ أو تحسين الباطل أو الرضى به، وإنّما هو التّشويق للمدعو لقبول الحقّ وإعانتة على هذا القبول وليس فيه إخفاء مرض المدعو، فإن الداعي كالطبيب فكما أنّ الطبيب لا يخفي على المريض علّته وضرورة العلاج له فكذلك الدّاعي⁽³⁾ يقول تعالى حكاية عن بعض رسله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝١٥٠ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۝١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ [الشّعراء: 150-152].

- بما أنّ لين القول هو نوع من المداينة الإيجابية، فقد إستنتجنا سابقاً أنّ المداينة خلق فاضل يحتاجه الداعية على في حياته الشّخصية والدّعوية، وأنّ المداينة خلق رديء يزري بصاحبه وينزل به إلى درك السّقوط، فإنّ التّمييز بينهما ذو أهميّة كبرى حتّى يسلك الدّاعية طريق المداينة وينأى بنفسه عن المداينة، ودون شكّ فإنّ الدّاعية أحوج النّاس إلى مداينة النّاس ومداينة زمانه ومداينة مخالفه⁽⁴⁾.

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التفسير، باب في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾، رقم الحديث 3027.

(2) - أبو زهرة، زهرة التّفاسير، ج9، المرجع السّابق، ص 4730.

(3) - عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، المرجع السّابق، ص 472.

(4) - آلاء بنت عبد الرّحمان بن رجب كنكار، أساليب الدعوة ووسائلها، مكّة المكرّمة، جامعة أمّ القرى، كّلية الدّعوة وأصول الدين، قسم الدعوة والتّثافة الإسلامية، ص 16.

- على الدّاعية أن يجعل من القول اللّين سلاحه الفَتَّاك في قمع العنف والغضب والتّشدّد ليحقق من خلاله تآلف المسلمين وتوادّهم وتراحمهم، لذلك عدّه البعض أحد مقوّمات الدّاعية النّاجح لأثرها العظيم في قبول الدّعوة، والتّغاف النّاس حوله وتصديقهم والتّلقّي منه.

ثانيًا: الرّفق

في إطار الحديث عن الأساليب العاطفية، نجد أنّ الرّفق أسلوبٌ مؤثّر وفاعلٌ، تجسّد أثره في الجانب الأخلاقي للنبي ﷺ، والذي يعدّ من أعظم الأخلاق التي تنبع من فيض رحمته وعاطفته التي لم يمثاله فيها أحدٌ، ولأهمية هذا الأمر فقد أثبتت التّجارب الدّعويّة للأنبياء عليهم السّلام أنّه كلما كان الأسلوب الدّعوي متحلّيًا بالرّفق أثمر وأنتج، وبالمقابل كلّما إتصف الأسلوب بالعنف والحشونة والغلظة كان مدعاة للتّنفير والإعراض، وعليه أوّد أن أشير أنّ الرّفق كمنهج عاطفي هو جسر موصلاً إلى القلوب بالقول والعمل وفي السلوك والمعاملة، وأنّه سبيل إلى توثيق أواصر المحبة والوحدة والتّفاهم والألفة والقضاء على الفرقة والخصومة والعداوة، وقبل الحديث عن الرّفق في دعوة النبي ﷺ حريٌّ بنا التّعريف به من حيث المفهوم اللّغوي والإصطلاحي حتى يتّضح المعنى أكثر وهو كالآتي :

أ - مفهوم الرّفق

- لغة

- يعرفه العلامة الزبيدي بالقول: (الرّفق حسن الإنقياد لما يؤدي إلى الجميل وهو اللّطف، والرّفق لِينُ الجَانِب، ولطافة الفعل، وصاحبه رقيقٌ، وقد رَفَقَ يَرْفُقُ، رَفَقًا، ومِرْفَقًا، ورَفَقَ فُلَانٌ فُلَانًا: إذا نَفَعَهُ. وكذلك: رَفَقَ بِهِ⁽¹⁾) ويعرفه العلامة الفيروز آبادي بالقول: (لأنّ يَلِينُ وليانًا بالفتح، وتَلِينُ فهو لَيْنٌ، واستلانه: رآه أو وجدّه لَيْنًا، وإنه لذو مليّة: لَيْنُ الجَانِب، وهَيِّنَ لَيْنٌ، ولاينه مُلَا يَنَةٌ وليانًا: لأنّ له⁽²⁾) ويعرفه العلامة الرّازي بالقول: (الرّفق ضد العنف، ورَفَقَ بِهِ، يَرْفُقُ بالضم رَفَقًا ورَفَقَ بِهِ أَرْفَقَهُ، وترَفَّقَ بِهِ كُلهُ بمعنى: وأَرْفَقَهُ أيضًا نفعه⁽³⁾).

(1) - يُنْظَر: المرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، مادة رفق، ج25، المصدر السّابق، ص 346.

(2) - الفيروز الآبادي، القاموس المحيط، مادّة لن، المصدر السّابق، ص 1232.

(3) - أبو بكر الرّازي، مختار الصّحاح، مادّة رفق، المصدر السّابق، ص 173.

- اصطلاحاً

- تبين من خلال المفهوم اللغوي أنَّ الرِّفْقَ بمعنى اللين، وكلاهما يدلّان على المداراة، والتي تعني الدِّفْع بالرِّفْق واللين⁽¹⁾ والرِّفْق ليس من المداينة التي قال عنها العلامة الجرجاني: (وهي أن ترى منكراً وتقدر على دفعه ولم تدفعه حفظاً لجانب مرتكبه أو جانب غيره أو لقلّة مبالاة في الدين)⁽²⁾. وإِنّما هو من المداراة التي تعني: ملاينة النَّاس وحسن صحبتهم، واحتمالهم لئلاً ينفروا عنك⁽³⁾ ودرء المفسدة والشرّ باللين من القول وترك الغلظة، أو الإعراض عن صاحب الشرّ إذا خيف شرّه، أو حصل منه أكبر مما هو ملابس له⁽⁴⁾، ومنه قوله تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فَصَّلَتْ: 34] ويقول تعالى في وصف المؤمنين من أهل الكتاب مادحاً لهم: ﴿وَيَذَرُوكَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: 22] وقد ذكر الإمام القرطبي رحمه الله موضّحاً المعنى فيقول: (أي: يدفعون بالإحتمال والكلام الحسن الأذى ... فهو وصف لمكارم الأخلاق، أي: من قال لهم سوءاً لا يُنَوِّه وقابلوه من القول الحسن بما يدفعه)⁽⁵⁾ ومنه قوله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «واتبع السيئة الحسنة، تَمْحُهَا وخالف النَّاسَ بخلق حسن»⁽⁶⁾ فمن الخلق الحسن دفع المكروه والأذى، والصَّبْر على الجفاء بالإعراض عنه ولين الحديث، وقد فَرَّقَ العلامة ابن بطّال رحمه الله بين المداراة والمداينة حتّى يزِيل الالتباس في نظر البعض فقال: (المداراة من أخلاق المؤمنين وهي خفض الجناح للنَّاس، ولين الكلمة، وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أسباب الألفة، وقال: وظن بعضهم أنَّ المداراة هي المداينة فهذا غلط، لأنَّ المداراة مندوب إليها والمداينة محرّمة، والفرق: أنَّ المداينة من الدّهان وهو الذي يظهر على الشّيء ويستتر باطنه، وفَسَّرَها العلماء بأنّها

(1) - سعيد بن علي بن وهف القحطاني، مقوّمات الدّاعية النّاجح (مكتبة الملك فهد الوطنية، ط1، 1415هـ/1994م)، ص 166.

(2) - الجرجاني، التّعريفات، تحقيق: محمّد صديق المنشاوي، باب الميم (القاهرة: دار الفضيلة، د، ط، د، ت)، ص 174.

(3) - ابن منظور، لسان العرب، مادة رفق، ج 14، المصدر السّابق، ص 255.

(4) - خالد حسين حمدان، بحث بصائر عقديّة في حديث «مثل المذهن في حدود الله» دراسة وصفية تحليليّة، مجلّة الجامعة الإسلامية، سلسلة الدّراسات الإسلامية، مج 18، 2010، صفحته في المجلّة 136، ص 105 عند تحميله pdf.

(5) - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 13، المصدر السّابق، ص 298.

(6) - أخرجه الترمذ في سننه، كتاب البرّ والصّلة عن رسول الله، باب ما جاء في معاشرّة النَّاس، ج3، رقم الحديث 2053، ص 239، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

معاشرة الفاسق وإظهار الرضى بما هو فيه من غير إنكار عليه، والمداراة هي الرّفق بالجاهل في التّعليم، والفاسق في التّهي عن فعله وترك الإغلاظ عليه، حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل ولاسيما إذا احتيج إلى تألّفه ونحو ذلك⁽¹⁾.

- كما عرّف الإمام القاري رحمه الله الرّفق بالقول: (أصل الرّفق ضدّ العنف، وهو المداراة مع الرّفقاء، ولين الجانب، واللّطف في أخذ الأمر بأحسن الوجوه، وأيسرها)⁽²⁾.
- ويعرّفه الإمام الحافظ ابن حجر رحمه الله بالقول: (الرّفق هو لين الجانب بالقول والفعل، والأخذ بالأسهل والأيسر، وحسن الخلق وكثرة الإحتمال وعدم الإسراع بالغضب، والتّعنيف، والشّدّة، والخشونة)⁽³⁾، فيتمثّل في الرّفق بالجاهل في التّعليم، وبالفاسق في التّهي عن فعله وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل ولاسيما إذا احتيج إلى تألّفه ونحو ذلك⁽⁴⁾ وفي تعريف آخر له: (هو التّدبّر بالشفقة والرّحمة مع جميع المخلوقات لا فرق بين إنسان وحيوان والعطف على البؤساء والضّعفاء، ومعاملة جميع النّاس بالرّأفة ولين الجانب والابتعاد عن القسوة والغلظة)⁽⁵⁾ وعليه نجد أنّ اللّين والرّفق جاءا بمعنى: المداراة، وجميعها من مشكاة واحدة.

ب- أهميّة الرّفق في الدّعوة إلى الله

للرّفق أهميّة كبرى في نجاح الدّعوة إلى الله تعالى، وتتجلّى هذه الأهميّة أنّ عظم شأنه القرآن الكريم وحثّ عليه، وأمر به النبي ﷺ وعمل به، فقد بيّنه بفعله بيّنه بقوله فقال: «الرّفق لا يكون في

(1) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب المداراة مع النّاس، ج10، المرجع السّابق، ص 528.

(2) - محمّد القاري، مرّاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، كتاب الآداب، باب الرّفق والحياء وحسن الخلق، بيروت: (دار الكتب العلمية، ط1، ج8، 1422هـ/2001م)، ص 463.

(3) - يُنظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الرّفق في الأمر كلّ، ج 10، المرجع السّابق، ص 449، و(سعيد بن علي بن وهف القحطاني، مقوّمات الدّاعية النّاجح، المرجع السّابق، ص 167).

(4) - يُنظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب المداراة مع النّاس، ج10، المرجع السّابق، ص 528.

(5) - نورة بنت عبد اللّطيف حسين فرج، الرّفق وأثره في الدّعوة إلى الله، رسالة ماجستير، المملكة العربية السّعودية، كُلية الدّعوة وأصول الدّين، قسم الدّعوة والثّقافة الإسلامية، 1429هـ/1430هـ، ص 58.

شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه»⁽¹⁾ إذن هو سبب لكل خير، وقال ﷺ: «من يحرّم الرّفق يحرّم الخير كلّ»⁽²⁾ وعن السيّد عائشة رضي الله عنها أنّ النبي ﷺ قال لها: «إنّ من أعطي حظّه من الرّفق فقد أُعطي حظّه من خير الدُّنيا والآخرة، وصلة الرّحم وحسن الخلق وحسن الجوار يعمران الدّيار ويزيدان في الأعمار»⁽³⁾ وقد دعا النبي ﷺ إلى الرّفق معظّم شأنه في كلّ الأحوال، فبيّن ذلك بفعله وقوله بيّناً شافياً كافياً لكي تعمل به أمته من بعده، خاصة الدّعاة إلى الله فإنّهم أولى الناس بالرفق في جميع تصرفاتهم وأحوالهم وعلاقاتهم، يقول السيّد قطب رحمه الله في شأن هذا الأسلوب اللّطيف وحاجة النّاس إليه فيقول: (فالنّاس بحاجة إلى كنف رحيّم وإلى رعاية فائقة وإلى بشاشة سمحة، وإلى ودّ يسعهم وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم، بحاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء، ويحمل همومهم ولا يعينهم بهمّه ويجدون عنده دائماً الإهتمام والرّعاية والعطف والسّماحة، والودّ والرّضا وهكذا كان قلبُ النبي ﷺ)⁽⁴⁾ وبالنّظر إلى أهميّة الرّفق فهو سبب لكلّ خير، لأنّه يسهّل من المطالب ومن الثّواب ما لا يحصل غيره وما لا يأتي ضده⁽⁵⁾، فالرّفق صفة لازمة لكلّ داعية يخالط النّاس ويخالطونه، وهو من الأمور التي تزيّن خلق الدّاعية وتلبسه ثوب الحكمة والوقار والتّواضع، يوضّح ذلك الدّكتور عبد الرّحمان حبنكة الميداني في "كتابه الأخلاق" بالقول: (على أنّ الرّفق في الأمور، والرّفق بالنّاس، واللين، والتيسير، من جواهر عقود الأخلاق الإسلامية، وأنها من صفات الكمال، وأنّ الله تعالى من صفاته أنّه رفيق، وأنّه يحبّ من عباده الرّفق، فهو يوصيهم به ويرغبهم فيه، ويعدّهم عليه عطاءً لا يعطيه على شيء آخر، ويُفهم من النّصوص أنّ العنف شين

(1) - النّووي، صحيح مسلم بشرح النّووي، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب فضل الرّفق، رقم الحديث 2592 (بيروت: دار إحياء الثّراث العربي، ط2، ج 16، 1392هـ)، ص 145.

(2) - المرجع نفسه، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب فضل الرّفق، رقم الحديث 2593، ص 145.

(3) - أخرجه أحمد في مسنده، مسند الأنصار، رقم الحديث 25135، (بيروت: دار الكتب العلميّة، ج17، 2018م)، ص 554. وقال: إسناده صحيح، وأخرجه التّرمذي في سننه الجامع الكبير، تحقيق: بشار عواد معروف، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب ما جاء في الرّفق، رقم الحديث 2013 (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، مج1، 1996م)، ص 542. وقال أبو عيسى: هذا حديث صحيح.

(4) - سيّد قطب، في ظلال القرآن (القاهرة: دار الشّروق، ط17، ج1، 1412هـ)، ص 501.

(5) - سعيد بن علي بن وهف القحطاني، مقوّمات الدّاعية النّاجح، المرجع السّابق، ص 69.

خلقي، وأنه ظاهرة قبيحة، وأن الله لا يحبُّه من عباده⁽¹⁾، والرِّفق من أهمِّ أساليب المنهج العاطفي التي تعين الداعية في دعوته فإذا لم يستطع بالعمل فبالقول اللين، ولين الجانب يصيب القلوب ويأخذ بأيديها وأحياناً يكون أثرها أبلغ من الفعل، يقول أحد السلف: (لا يأمر بالمعروف إلا من كان رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهى عنه، حليماً فيما يأمر به، حليماً فيما ينهى عنه، فقيهاً فيما يأمر به، فقيهاً فيما ينهى عنه)⁽²⁾.

ج- معالم الرِّفق في دعوة النبي ﷺ

جُبِلَ النَّبِيُّ ﷺ على هذا الأسلوب العاطفي في جميع جوانب حياته القولية منها والفعلية، ومع من لقيه من النَّاس مسلماً كان أم كافراً، فما عاقب أحداً وما قاتل أحداً، وإنما كان يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة، يترك الإنكار الذي يترتب عليه فتنة وشر، فما ضرب ولا قتل ولا سجن حتى مكَّنه الله من ذلك بعد الهجرة إلى المدينة، كل ذلك ما زاده إلا مهابة وعزّة ورفعة بينهم، فالأعراب مثلاً: عُرِفُوا بقسوة القلب والجفاء والغلظة، والملوك وأسياد القوم عُرِفُوا بالمكانة التي يتولَّونها من السَّيادة والزَّعامة وغيرهم كثير، هؤلاء رأى النَّبِيُّ ﷺ طريقة استنزال كبريائهم بهذا الأسلوب اللين، ليتقبلوا بهذه الدعوة أو يتركوا المسلمين وشأنهم، وقد استطاع ﷺ برفقه أن يسوقهم إلى حضيرة الإسلام ومنازل الإيمان، فحرَّيَّ بالدَّاعية أن يجعل أسلوبَ الرِّفق واللين والمدارة مع مدعويه ديدنه لأنَّه الأسلوب الأنجع إذ يُعطي الثَّقة والتَّشجيع على المبادرة، ويقضي على روح الخوف والغموض والتردد، يقول الحافظ المناوي رحمه الله: (ينبغي للعالم إذا رأى من يخل بواجب أو يفعل محرماً أن يترقَّق في إرشاده ويتلطَّف به)⁽³⁾ ويقول العلامة ابنُ بطَّال رحمه الله: (المدارة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للنَّاس، ولين الكلمة، وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أقوى أسباب الألفة)⁽⁴⁾.

(1) - عبد الرَّحمان جَبْنَكَة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها (دمشق: دار القلم، ط5، ج2، 1420هـ/1999م)، ص 334.

(2) - ابنُ قدامة المقدسي، مختصر منهاج القاصدين، تحقيق: زهير الشاويش، كتاب الأمر بالمعروف، جملة، باب المحتسب (بيروت: المكتب الإسلامي، ط9، 1461هـ/2000م)، ص 160.

(3) - أبو عبد الله حمزة النابلي، تذكير المسلمين بأهمية الرِّفق واللين (قطر: دار الإمام البخاري، ط1، 1435هـ/2014م)، ص 14.

(4) - ابنُ حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب المدارة مع النَّاس، رقم الحديث 6131، ج10، المرجع السابق، ص 528.

– الأخذ بالتيسير والسّماحة في التعامل

يقول تعالى في محكم تنزيله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185] كان النبي ﷺ قد اعتاد التيسير والسّماحة في كل شيء، وكان رفيقاً سهلاً ليناً، حسن التعامل، يرأف بالناس ويتغنى التيسير عليهم ويختار الأرفق بهم، فكان من خلقه ﷺ أنه ما خيّر بين أمرين قطّ إلاّ اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، وهذا ما أخبرت به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن حاله ﷺ فقالت: «ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قطّ إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم منه»⁽¹⁾ في الحديث إشارة إلى أحد أساليب المنهج العاطفي الذي استخدمه النبي ﷺ متمثلاً في الأخذ بالأسهل، والحثّ على العفو والانتصار للدين، وأنه يستحب للولادة والدعاة التخلّق بهذا الخلق الكريم فلا ينتقمون لأنفسهم ولا يهملوا حقّ الله تعالى، والنبي ﷺ يعلم أن الأصل في الدعوة التيسير وأنّ هناك مواقف لا ينفع معها التيسير، وإلاّ لكان ذلك نوعاً من التسيّب في دين الله، يقول الحافظ بن حجر رحمه الله: (قوله بين أمرين: أي من أمور الدنيا يدل عليه قوله ما لم يكن إثماً، لأنّ أمور الدين لا إثم فيها وقوله: «إلاّ أخذ أيسرهما» أي أسهلها وقوله: «ما لم يكن إثماً» أي ما لم يكن الأسهل مقتضياً للإثم فإنّه حينئذ يختار الأشد⁽²⁾). والدعوة بالرّفق واللّين ليست هي الصّورة الوحيدة في الدّعوة بل هناك أحوال يُعلَى فيها عن الرّفق فيتحوّل الأمر إلى الغلظة والشّدّة إذا انتهكت محارم الله وانتشر الفساد في الأرض، والداعية إلى الله إذا اعتاد أن يكون سهلاً ميسراً ورفيقاً شفيقاً، وإذا لمح فيه الناس الميل إلى اليُسْر والسّماحة وكان دائماً يختار الطّريق الأرفق والبديل الأحسن ولو على حساب نفسه، أحبه الناس وتقرّبوا إليه وتفاعلوا معه وشاركوه مشاعره، بل ربّما صار العدو وليّاً حميماً بسبب هذا التّعامل⁽³⁾ يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33] كما عليه أن يتصّف ببعد النّظر فيما يترتّب عنه في استخدام أسلوب الشّدّة ومدى تحقّق المصلحة، وهذا الذي منع فيه النبي ﷺ من قتل عبد الله بن أبي بن سلول رأس النّفاق في

(1) – أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب إقامة الحدود والإنّقام لحرّات الله، رقم الحديث 6786، ص 1680.

(2) – إبن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب إقامة الحدود وانتهاك الحرّات، رقم الحديث 6786 (بيروت: دار المعرفة ج12، د، ت)، ص 86.

(3) – عبد العزيز بن محمّد النّعيمشي، علم النّفس الدّعوي، المرجع السّابق، ص 273.

زمنه ﷺ، فحكمته أنه كان يراعي مصلحة الدعوة فأعطى لكل مقام حقه في التعامل، فنجد بالمشهورين رحيمًا، ويقومه رفيقًا يرجو إسلامهم ويأمل نجاحهم، فالمتعمّن في منهج النبي ﷺ يجد أنّ تعامله مع صحابته مبنيّ على اليسر والسّماحة، والشّواهد أكثر من أن تعدّ وتحصى، فاكثفت على سبيل المثال بسرد حادثة وقعت لأحد الصّحابة رضوان الله عليهم، جاء إلى رسول الله ﷺ يريد مخرجًا لها، وهو صحابيٌّ فقير لا يملك قوت يومه، وهي تغني عن جميع ما كان يقع للصّحابة من إحراجات يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجلٌ فقال: يا رسول الله هلكت، قال: ما لك؟ قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم، فقال رسول الله ﷺ: هل تجد رقبة تعتقها؟ قال: لا، قال: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ قال: لا، فقال: فهل تجد إطعام ستين مسكيناً؟ قال: لا، قال: فمكث النبي ﷺ فينا نحن على ذلك أوتي النبي ﷺ بعرق فيها تمر والعرق المكتل، قال: أين السائل؟ فقال: أنا، قال: خذها فتصدّق بها، فقال الرّجل: أعلّى أفقر منّي يا رسول الله؟ فوالله ما بين لابتيها - يريد الحرتين - أهل بيت أفقر من أهل بيتي، فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه ثم قال: أطعمه أهلك»⁽¹⁾ وعليه فإنّ الدعوة أحوج إلى من يتّصف بالحرص على المدعو، فيرفق به دون أن يشقّ عليه، ويأخذ بالتيسير والسّماحة دون التعسير، وذلك تأسّيًا بدعوة النبي ﷺ، فقد رفع الله عن أمّته الحرج وقد امتلأت نفسه بالرحمة، فكانت تفيض بالشفقة، وكان يوصي بها أصحابه ويحثّ عليها أمّته، فكانوا أرحم الناس بالناس وأحرص الناس على هداية الناس⁽²⁾، والناس مفطورون على حبّ الرّفق واليسر في أمورهم كلّها، وهذا أحد مظاهر المنهج العاطفي الذي لا يخلو أمرًا في حياة النبي ﷺ إلّا وأقامه على الرّفق واليسر، وهو السرّ في نجاح الدعوة إلى الله، والذي يقوم على الاندماج بالمدعو والتغلغل داخل نفسه وأسرّها والاستحواذ على شغاف القلب ليسهل بعد ذلك كل ما يريده من مدعويه، فحريّ بأهل الدعوة عمومًا أن يكونوا رفقاء في دعوتهم ليحسوا الثّمرة الكثيرة التي لا يمكن تحقيقها إلّا بالرّفق يقول الشّاعر:

أحسن إلى النّاس تستعبد قلوبهم
فطالما استعبد الإنسان إحسانُ

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء فتصدّق عليه فليُكفّر، رقم الحديث 1936، ص 466.

(2) - محمّد بن إبراهيم الحمد، الرّحمة والعظمة في السّيرة النّبوية، المرجع السّابق، ص 48.

وإن أساء مسيء فليكن لك في عروض زلته صفح وغفران⁽¹⁾.

وهكذا تتجلى معالي أسلوب التيسير والسّماحة، باعتبارها أهمّ القواعد الأساسية في التعامل مع الناس والتأثير فيهم، وذلك لأنّ فطرة الإنسان وطبيعته تميل إلى جانب اليسر والتسامح والرحمة، وقد أثبتت التجارب كلّما كان الأسلوب الدّعوي متّسماً باليسر واللين كلّما أثمر ينفعه وكثر نفعه، وبالمقابل كلّما انّصف الأسلوب بالتشدد والعنف فإنّه عين التنفير.

- تجنّب التشدد والجفاء في الدين وشرائعه

يقول النبي ﷺ مخبراً عن نفسه: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي مَعْتَنًا لَا مَتَعْنَتًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مَيَّسِّرًا»⁽²⁾ وذكر ﷺ أنّ خاصيّة الدين قائمة على اليسر ورفع الحرج ابتداءً من العقيدة وانتهاءً بأصغر أمور الأحكام والعبادات بشكل يتوافق مع الفطرة الإنسانية وتتقبّله النفس البشرية من غير تكلفٍ أو تعنتٍ⁽³⁾ فقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78] وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185] فقاعدة اليسر في الدين من القواعد المهمة التي دعا إليها النبي ﷺ فقال: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْعَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ...»⁽⁴⁾ ويذكر الكحلوي عن قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُشَدِّدًا عَلَى الْغَيْرِ مُلْزَمًا لَهُ مَا يَصْعَبُ عَلَيْهِ أَدَاؤُهُ وَلَا طَالِبَ لَزَّتِهِ، وَلَكِنْ بَعَثْنِي مُعَلِّمًا مَيَّسِّرًا»⁽⁵⁾، ولم يكنف النبي ﷺ بالحديث عن التيسير بل حذر من التشدد والغلو في الدين، فقال في مجمع الحجّ للصّحابة رضي الله عنهم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا كُمْ وَالْغُلُوّ فِي الدِّينِ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوّ فِي الدِّينِ»⁽⁶⁾، ومن ذلك التشدد حمل الناس على ما يشقّ عليهم ويؤذيهم، ويكلفهم ما لا يطيقون،

(1) - أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمّد الأرنؤوط وآخر (دار إحياء

الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي، ج5، 1383هـ/1964م)، ص 295.

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب بيان إنّ تخيير إمرأته لا يكون طلاقاً إلّا بالنّية، رقم الحديث 1478، ص 681.

(3) - عبد العزيز بن محمّد النعيمشي، علم النفس الدعوي، المرجع السّابق، ص 274.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدّين يسر، رقم الحديث 39، ص 20.

(5) - محمّد بن اسماعيل بن صلاح بن محمّد الحسني الكحلاني، التّنوير شرح الجامع الصّغير، حرف الميم، الحديث 1770 (الرياض: مكتبة دار السّلام، ط1، ج3، 1432هـ/2011م)، ص 333.

(6) - أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب المناسك، رقم الحديث 3029، ج2، المصدر السّابق، ص 1008. وأخرجه أحمد في مسنده (1/215، 347)، وأخرجه النسائي في السنن، كتاب المناسك، باب إلتقاط الحصى، رقم الحديث 4049، 4/178، وذكر حكم الألباني: هذا حديث صحيح. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: رواه أحمد والنسائي وابن ماجه من حديث عوف بن أبي جميلة عن زيادة بن حصين عن أبي العالية عنه، وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم، وذكره الألباني في سلسلة

تروي السيِّدة عائشة رضي الله عنها، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْتُقْ عَلَيْهِ وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ»⁽¹⁾ ظهرت في الأحاديث رفق النبي ﷺ ورحمته بأُمَّته فحدَّر من التشدُّد عليها وحملها ما لا تطيق، لأنَّ التشدُّد لا يأتي بخير على هذه الأُمَّة، بل ينجم عنها الإساءة والفرقة والفوضى، فدعا إلى اليسر والإعتدال الذي ينتج عنه الارتياح النفسي شعورًا بسماحة هذا الدِّين ويسره، كما دعا حديث النبي ﷺ إلى أمر هامٍّ من أمور الإسلام وهو يتعلق بالولاء والحكَّام بأن يوفِّروا عند توليتهم الرِّفق بالرَّعية ومراعاة حالها وتوفير شروط الأمن والسَّلام لها من جميع النَّواحي دون الاختلاف، وهذا إن وقع أهلك الحِث والنسل وأوقع بالأُمَّة ما لا يحمد عقباه، وهذا من المهمات الكبرى التي بدت غالب المصالح لا تتمُّ إلَّا بالاتِّفاق⁽²⁾، لدرجة أن أوصى سفراءه الذين يرسلهم إلى الأمصار، فأوصى معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري رضي الله عنهما حين بعثهما إلى اليمن: «يسِّرًا ولا تعسِّرًا وبشِّرًا ولا تنفِّرًا وتطوعًا ولا تحتلفا»⁽³⁾ وقال ﷺ: «إنَّما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»⁽⁴⁾ دعا النبي ﷺ في ظاهر الأحاديث إلى التيسير بدل التشدُّد في ولايتهم، والبشارة بدل التنفير، والتي تأتي ثمارها وتحقِّق إستقرار الأُمَّة في دينها، فقد نجد بعض الدُّعاة ينتهجون أسلوب التخويف والوعيد لغرض الهداية، وهذا سينعكس سلباً على الدعوة ويضعفها، يقول العلامة ابن حجر رحمه الله: (هو أمر بالتيسير والمراد به الأخذ بالتسكين تارة وبالتيسير تارة أخرى، ومن جهة أن التنفير يصاحب المشقة غالبًا وهو ضد التسكين والتبشير يصاحب التسكين غالبًا وهو ضد التنفير)⁽⁵⁾ ويقول الدكتور يوسف القرضاوي حفظه الله: (التبشير يعلِّق بالدعوة والتيسير بالفتوى، وإذا وُفق العالم المسلم إلى إتباع هذا المنهج فقد آوى إلى ركنٍ

الأحاديث الصحيحة، 278/3، رقم الحديث 1283، وقال في تخریج السنَّة لابن أبي عاصم، 46/1: إسناده صحيح. وقد صحَّحه ابنُ خزيمة والحاكم، 466/1، والذهبي والنَّووي وابنُ تيمية.

(1) - النَّووي، صحيح مسلم بشرح النَّووي، كتاب الإمارة، باب فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر والحثُّ على الرِّفق بالرَّعية، ج12، رقم الحديث 1828، المرجع السابق، ص 212.

(2) - النَّووي، صحيح مسلم بشرح النَّووي، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، رقم الحديث 1743، ج 12، ص 41.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قول النبي ﷺ: «يسِّروا ولا تعسِّروا»، رقم الحديث 6124، ص 1530.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، رقم الحديث 220، ص 65.

(5) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب قول النبي ﷺ: «يسِّروا ولا تعسِّروا» وكان يحبُّ التخفيف واليسر على النَّاس، رقم الحديث 2125، ج10، المرجع السابق، ص-ص 524، 525.

ركين⁽¹⁾ وعليه إستوحيت من خلال الأحاديث منهج النبي ﷺ في أرق صورته وأعذبها، تمثلت في صفة جليلة إرتسمت في شخصه ﷺ وهي رحمته ورفقه بأمتته، فكان يسعى في مصالحها ويشق عليه الأمر الذي شق عليها، يحب لها الخير ويكره لها الشر، ويرحم بأمتته أكثر من رحمة الأم بولدها⁽²⁾، وهذا دعوة إلى مراعاة أسلوب التيسير في دعوة الناس وتجنب التشدد عليهم في مخاطبتهم وإقناعهم، والدّاعية النّاجح لا ينبغي أن يكون ذا مشقة على الناس متشدداً في الأحكام والشّرائع والمعاملات بل يجب أن يختار الأيسر والأسهل من الأقوال وأن يعملوا على التّبشير والتّغريب لا على التشدد والغلو والعنف، فبقدر سعة العلم يكون أقرب للتيسير، وكل من اتسع علمه اتسع عذره للآخرين بخلاف قليل العلم فإنّه يضيق بالخلاف والمخالف ذرعاً، يقول الإمام إبن باز رحمه الله: (هذا العصر عصر الرّفق والصّبر والحكمة، وليس عصر الشدّة، فالنّاس أكثرهم في جهل وفي غفلة إثّار للدنيا فلا بدّ من الصّبر، ولا بدّ من الرّفق حتّى تصل الدّعوة وحتّى يبلغ النّاس وحتّى يعلموا)⁽³⁾ فالكلام في هذا الجانب واسع والأدلة عليه كثيرة إلّا أنّني سأذكر إثّنين منها فيما يتعلق بإكراه التّشديد في العبادة على سبيل المثال لا الحصر، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم: أمّا أنا فأنا أصليّ الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوّج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أمّا والله إنّي لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكتّي أصوم وأفطر، وأصليّ وأرقد، وأتزوّج النساء فمن رغب عن سنّتي فليس منّي»⁽⁴⁾ وعن أنس رضي الله عنه قال: «دخل رسول الله ﷺ المسجد فإذا جبل ممدود بين السّارين فقال: ما هذا الجبل؟ قالوا: هذا جبل زينب فإذا فترت تعلّقت به، فقال النبي ﷺ: حلوه ليصلّ أحدكم نشاطه فإذا فتر فليرقد»⁽⁵⁾ فالتيسير والرّفق في الشّرائع من مظاهر الرّحمة بالمدعوين، والشدّة والعنف من مظاهر القسوة بالمدعوين، والأصل في الدّعوة إلى الله ضرورة مراعاة أحوال النّاس بأن يكون يسيراً رحيماً بهم.

(1) - يوسف القرضاوي، خطابنا الإسلامي في عصر العولمة (القاهرة: دار الشروق، ط1، 1424هـ/2004م)، ص 60، وعبد اللطيف مصطفى أحمد الأسطل، مراعاة أحوال النّاس في ضوء السنّة النبوية، غزّة، الجامعة الإسلامية، أصول الدّين، قسم الحديث وعلومه، 1429هـ/2008م، ص 60.

(2) - سعيد بن علي بن وهف القحطاني، فقه الدّعوة في صحيح الإمام البخاري، المرجع السّابق، ص 50.

(3) - إبن باز، مجموع فتاوى ومقالات متنوّعة (الرياض: دار القاسم للنّشر، ط1، 1420هـ)، ص 18.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النّكاح، باب التّغريب في النّكاح، رقم الحديث 5063، ص 1292.

(5) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التّهجد، باب ما يكره في التّشديد في العبادة، رقم الحديث 1150، ص 278.

- اجتناب تحقير المدعو وتعويره

ومن الرفق اجتناب التحقير والتعوير واستخدام الألفاظ الجارحة التي تسيء للدعوة والمدعو، ومن شواهد ذلك ما روي عن الإمام مسلم عن معاوية بن الحكم حينما أخطأ في الصلاة قائلاً: «فو الله ما كهزني، ولا ضربني، ولا شتمني، قال: إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»⁽¹⁾ هذا الحديث يوضح منهج النبي ﷺ وحكمته السامية التي أوتيتها في كل شيء ومع أي أحد، مما أحدثت أثراً في نفس معاوية فزادته حباً لرسول الله ﷺ، لأن النفس بطبيعتها مجبولة على حب من يحسن إليها ويصدق عليها بالشفقة، ومعاوية لم يجد من النبي ﷺ ما لاقاه من الصحابة من استنكار حين تكلم في الصلاة، فلما استدعاه لم يجد ما وجده من الصحابة بل وجد منه العطف والرحمة والخلق الحسن، وفي موقف آخر عن صفوان بن عسال المرادي قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ناداه أعرابي بصوت له جهوري^(*): يا محمد، فأجابه رسول الله ﷺ نحواً من صوته: هاؤم فقلنا له: اغضض من صوتك؛ فإنك عند النبي ﷺ وقد نُهييت عن هذا. فقال: والله لا أغضض، قال الأعرابي: المرء يحب القوم ولما يلحق بهم؟ قال النبي ﷺ: «المرء مع من أحب»⁽²⁾، وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ يتقاضاه ديناً كان عليه، فاشتد عليه حتى قال له أحرّج عليك إلا قضيتني فانتهره أصحابه وقالوا: ويحك أتدري من تُكلم؟ قال: إني أطلب حقي فقال النبي ﷺ: «هلاً مع صاحب الحق كنتم ثم أرسل إلى خولة بنت قيس فقال لها إن كان عندك تمر فأقرضينا حتى يأتيانا تمرنا فنقضيك فقالت: نعم بأبي أنت يا رسول الله، قال: فأقرضته فقضى الأعرابي وأطعمه، فقال: أوفيت أوفى الله لك، فقال: أولئك خيار الناس إنّه لا قدّست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقّه غير متع^(*)»⁽¹⁾ لقد خطّ النبي ﷺ للدعاة منهجاً في التعامل مع من يقعون في الأخطاء شرعية أو

(1) - عبد الحميد الصيد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية (الدار العربية للكتاب، د، ط، 1993م) ص200.

(*) - جهوري: أي عال (مصطفى العدوي، الصحيح المسند من أحاديث الفتن والملاحم وأشرط الساعة، الرياض: دار الهجرة للنشر والتوزيع، ط1، 1412هـ/1991م)، ص 555.

(2) - أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله بعباده، رقم الحديث 3536، ص 809. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وروى البخاري مثله عن عبد الله بن مسعود ﷺ بلفظ (جاء رجل) كتاب الأدب، باب علامة الحب، رقم الحديث 6169، ص 1541. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب، رقم الحديث 2640، ص 2034.

(*) - غير متع: أي من غير أن يصيبه أذى يقلقه ويزعجه (سنن ابن ماجه، كتاب الصدقات، باب لصاحب الحق سلطان، برقم 2، ص810).

سلوكية، بعدم إنتهارهم وتحقيرهم خصوصاً ممن يتسمون بالجهالة والقسوة والجفاء، مع تجنب إحتقارهم أو السخرية منهم أو مقابلتهم بعنف والذي يولّد عنه صفة سلبية للمنكر عليه، والدّاعية مطالباً أن يتودّد ويتلطّف مع المدعوين بما يعينه على نشر دعوته يرقّق القلوب ويلين الأفئدة ويفتح العقول لأجل دعوته، يقول الإمام النّووي رحمه الله: (وهذا فيه بيان ما كان عليه النبي ﷺ من عظيم الخلق الذي شهد الله تعالى له به، وفيه الرّفق بالجاهل وحسن تعليمه واللّطف به وتقريب الصّواب إلى فهمه)⁽²⁾ ويذكر الإمام ابنُ الجوزي رحمه الله: (وهذا يعلم المؤدّبين كيف يؤدّبون فإنّ اللّطف بالجاهل قبل التعليم أنفع له من التعنّف، ثمّ لا وجه للتعنّف لمن لا يعلم إنّما يعنف من خالف مع العلم)⁽³⁾.

د- مواقف من رفق النبي ﷺ

لقد كانت حياة النبي ﷺ مجموعة ابتلاءات وتحديات ومواقف خاض في غمارها تجرّع مرارتها منذ بعثته إلى وفاته، كانت بدايتها أن أُوذي من أهل مكّة أشدّ الإيذاء، ضربوه وعدّبوه ورموه بالقاذورات أثناء صلاته وهو صابر محتسب، وبرغم ذلك كان رحيماً رفيقاً تجاه كل من تصدّى له وسامه، كيف لا وهو الذي اصطفاه الله وأثنى على خلقه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4] فكان سهلاً ليناً قريباً من الناس مجيئاً لدعوة كلّ من دعاه، قاضياً الحاجة من إستقضاه، جابراً لقلب من سأله فلا يردّه خائباً، فإذا عزم على أمر لم يستبدّ به دونه، بل يشاورهم ويؤامرهم، وكان يقبل من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم، وكان لا يعبس في وجهه من جالسه، ولا يغلظ عليه في مقاله ولا يطوي عنه بشره، ولا يمسك عليه فلتات لسانه ولا يؤاخذ بما يصدر منه من جفوة بل يحسن إلى عشيره غاية الإحسان ويحتمله غاية الإحتمال⁽⁴⁾ فكان يتعامل مع من دعاه وواجهه برحابة صدر وبشاشة وجه وإشراقة محياه، وطيب نفس، وحسن منطق، وعطف وحنان ورأفة لا يمكن أن يحملها إنسان غيره⁽⁵⁾، يقول أمير الشعراء أحمد شوقي في النّبي ﷺ مرتجّزاً :

ولو حفظوا سبيلك كان نورا وكان من التّحوس لهم حجابا

(1) - أخرجه ابنُ ماجه في سننه، كتاب الصّدقات، باب لصاحب الحقّ سلطان، رقم الحديث 2426، ج2، المصدر السّابق، ص 810. وصحّحه الألباني في صحيح بن ماجه، 55/2.

(2) - النّووي، شرح النّووي على صحيح مسلم، كتاب الصّلاة، باب تحريم الكلام في الصّلاة ونسخ ما كان من إباحته، ج5، المرجع السّابق، ص20.

(3) - أبو عبد الله حمزة النايلى، تذكير المسلمين بأهميّة الرّفق واللّين، المرجع السّابق، ص 16.

(4) - تفسير السّعدى، المرجع السّابق، ص 879.

(5) - حمدان راجح الهجاري، الأسلوب النّبوي في الدّعوة إلى الله، المرجع السّابق، ص 499.

بُنِيَتْ لَهُمْ مِنَ الْأَخْلَاقِ رُكْنًا فَخَانُوا الرُّكْنَ فَانْهَدَمَ إِظْطَرَابًا ⁽¹⁾
 وقال رحمه الله : لقبتموه أمين القوم في صغر وما الأمين على قول بمتهم
 فاق البدور وفاق الأنبياء فكم بالخلق والخلق من حسن ومن عظم ⁽²⁾
 فأضحى الرِّقُّ من أعظم ما تميَّز به النَّبِيُّ ﷺ وأتَّصف به فشمله في كلِّ شيءٍ ومع أيِّ شخصٍ، ولعظم
 شأنه ومكانته في دعوته ﷺ فإنَّ له مردود طيِّب وثرِيٌّ إلتمسته في مواقف كثيرة من سيرته نذكر منها :
- رفقه بأهل مكَّة - أهل عشيرته -

منَّ المواقف التي شهدها النَّبِيُّ ﷺ في سيرته العطرة تكذيب قومه له أن تحدّوه في أن يجعل لهم
 من الصِّفَا ذهبًا عن ابنِ عَبَّاسٍ ؓ قال: «قالت قريش للنَّبِيِّ ﷺ: أدع الله ربُّك أن يجعل
 لنا الصِّفَا ذهبًا، ونؤمن بك، قال: أو تفعلون؟ قالوا: نعم، فدعا الله فأناه جبريل ؑ فقال: إِنَّ رَبَّكَ
 يقرأ عليك السَّلام، ويقول: إِنَّ شَيْئًا أَصْبَحَ لَهُم الصِّفَا ذهبًا، فمن كفر منهم عدَّته عذابا لا أعذبه
 أحدًا من العالمين، وإنَّ شَيْئًا فَتَحَتْ لَهُم أَبْوَابُ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ؟ قال: يا رب باب التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ» ⁽³⁾.
 ومن رفقه ورحمته ﷺ أن إختار الثَّانِيَةَ لعلَّه بتعنُّتهم ومكرهم فأشفق عليهم الهلاك، واستمرَّ ﷺ
 يدعوهم محاولاً هدايتهم، وتوالى الأذْيَاتُ له حتَّى بعد الهجرة، ففي غزوة أُحُدْ شجَّوْ رأسه وكسروا
 رباعيته، فطلب منه أصحابه الدعاء عليهم فأجابهم: «إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ لِعَانًا وَإِنَّمَا بَعَثْتُ رَحْمَةً» ⁽⁴⁾
 فقدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَحْمِلُ مَا يَحْمِلُهُ الْقَلْبُ الْإِنْسَانِي مِنْ مُشَاعِرٍ وَأَحَاسِيْسٍ فَذَّةً.

- رفقه بمن أذاه من أهل الطَّائِفِ

عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ إِشْتَدَّ عَلَيْهِ عَصِيَانُ قَوْمِهِ
 وَجُحُودُهُمْ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ، قَالَ: لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدُّ
 مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعُقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ ^(*)، فَلَمْ يَجِبْنِي إِلَى مَا

(1) - أحمد شوقي، الشوقيات (بيروت: دار العودة، ج1، 1988م)، ص 72.

(2) - المرجع نفسه، ص 197.

(3) - محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، تحقیق: مصطفى عبد القادر عطا، كتاب التفسير، تفسير
 سورة الأنعام، رقم الحديث 3225 (بيروت: دار الكتب العلمية، 1411هـ/1990م)، ص 344، وقال: هذا الحديث
 صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وقال في التلخيص: هذا حديث صحيح، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى، تحقيق: محمد
 عبد القادر عطا، كتاب السير، باب مبتدأ الفرض على النبي ﷺ ثم على الناس، رقم الحديث 17732 (بيروت: دار الكتب
 العلمية، ط3، ج9، 1424هـ/2002م)، ص 15.

(4) - أخرجه أحمد في مسنده، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، تنمَّة مسند عبد الله بن عباس، رقم الحديث 2166 (مؤسسة الرسالة،
 د، ط، ج4، د، ت)، ص 60. وإسناده صحيح على شرط مسلم، عمران بن الحكم: صوابه عمران بن الحارث السلمي أبو
 الحكم الكوفي، من رجال مسلم، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة 272/2 من طريقين عن
 سفيان الثوري بهذا الإسناد.

(*) - ابن عبد ياليل: هو بتحتانية وبعد الألف لام مكسورة ثم تحتانية ساكنة ثم لام - ابن عبد كلال - بضم الكاف وتخفيف
 اللام وآخره لام واسمه كنانة، والذي في المغازي أن الذي كلمه هو عبد ياليل نفسه، وعند أهل النسب أن عبد كلال أخوه لا أبوه

أردت فإنطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب* ، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلّنتني فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام ، فناداني ، فقال: يا محمد إنّ الله عزّ وجلّ، قد سمع قول قومك لك، وما ردّوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال، فسلم عليّ، ثمّ قال: يا محمّد إنّ الله عزّ وجلّ قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربّك إليك لتأمرني أمرك، وبما شئت، إنّ شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فعلّت، فقال له النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً⁽¹⁾ لقد كان هذا الموقف من أشدّ المواقف على رسول الله ﷺ إيذاءً عندما كان وحيداً، وقد توفّي عمّه أبو طالب وزوجته السيّدة خديجة رضي الله عنها أكثر المناصرين له في دعوته، فأراد نصرة وتأييداً من أهل الطائف وإذا بهم يغرون صبيّانهم عليه يرمونه بالحجارة ويصيحون عليه حتى ألجؤوه إلى حائط ظلّ حينها يدعوه ربّه ويشكوا إليه، وإذا بالله تعالى يستجيب له من فوق سبع سماوات ويرسل له أمين الوحي جبريل عليه السلام ومعه ملك الجبال يبشرانه بالانتقام العاجل فإذا به عليه السلام يرفق بهم ويحجب

وأنه عبد ياليل بن عمرو بن عمير بن عوف، ويقال: إسم ابن عبد ياليل مسعود وله أخ أعمى له ذكر في السيرة في قذف النجوم عند المبعث النبوي، وكان ابن عبد ياليل من أكابر أهل الطائف من ثقيف، وقد روى عبد بن حميد في تفسيره من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى على رجل من القريتين عظيم، قال: نزلت في عتبة بن ربيعة وابن عبد ياليل الثقفي، ومن طريق قتادة قال: هما الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود، ورواه ابن أبي حاتم من وجه آخر عن مجاهد وقال فيه: يعني كنانة. وروى الطبري من طريق السدي قال: هما الوليد بن المغيرة وكنانة بن عبد بن عمرو بن عمير عظيم أهل الطائف. وقد ذكر موسى بن عقبة وابن إسحاق أن كنانة بن عبد ياليل وفد مع وفد الطائف سنة عشر فأسلموا، وذكره ابن عبد البر في الصحابة لذلك، لكن ذكر المديني أن الوفد أسلموا إلا كنانة فخرج إلى الرّوم ومات بها بعد ذلك، وذكر موسى بن عقبة في المغازي عن ابن شهاب أنّه ﷺ لمّا مات أبو طالب توجه إلى الطائف رجاء أن يؤوّه، فعمد إلى ثلاثة نفر من ثقيف وهم سادتهم وهم إخوة عبد ياليل وحبيب ومسعود بنو عمرو فعرض عليهم نفسه وشكا إليهم ما انتهك منه قومه فردّوا عليه أقبح ردّ، وكذا ذكره ابن إسحاق بغير إسناد مطوّلاً، وذكر ابن سعد أنّ ذلك كان في شوال سنة عشر من المبعث، وأنّه كان بعد موت أبي طالب وخديجة (يُنظَر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق رقم الحديث 3059، ص 364)، وفي (صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم الحديث 1795، ص 1421). و(يُنظَر: محمّد الزّرقاني، شرح الزّرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمّدية، دار الكتب العلمية، ط1، ج2، 1996م)، ص 54.

(*) - قرن الثعالب: هو قرن المنازل، وهو ميقات أهل نجد، وهو على مرحلتين من مكة، وأصل القرن: كل جبل صغير ينقطع من جبل كبير. (النّووي، شرح النّووي على مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، ص 486). (وفي صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم الحديث 1795، ص 1420).

(1) - صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم الحديث 1795، ص 1420، وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدهم: آمين والملائكة في السّماء آمين، فوافقت إحداها الأخرى غفر له في ما تقدّم من ذنبه، رقم الحديث 3231، ص 407.

قائلاً: «بل أرجوا أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً»⁽¹⁾ وكيف ولا وقد خصه الله بمكارم الأخلاق ورباطة جأش فكان لين أجانب رفيقاً متلطفاً بهم.

– رفقه باليهود

ومن ذلك ما روته السيدة عائشة رضي الله عنها في شأن الرّهط من اليهود حين دخلوا على النبي ﷺ فقالوا: السّام^(*) عليكم، قالت عائشة: ففهمتها فقلت: وعليكم السّام واللّعة، قالت: فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً يا عائشة، إنّ الله يحبّ الرّفق في الأمر كلّهُ، فقلت: يا رسول الله ألم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: قد قلت: وعليكم»⁽²⁾ ظهر في الحديث الحضّ والحثّ على لين الجانب مع المدعويين بالقول والفعل؛ ولهذا عندما قال اليهود للنبي ﷺ: «السّام عليك» لم يعاقبهم، ولم يزد على قوله ﷺ: «وعليكم» وأنكر على عائشة - رضي الله عنها قولها: «عليكم ولعنكم الله وغضب الله عليكم» فقال ﷺ: «مهلاً يا عائشة، عليك بالرّفق وإياك والعنف والفحش»⁽³⁾ فأية سماحة وأي رفق تلك التي لا تجعله يجازي السيئة بأكثر منها، مع علمه بما يقصد أعداء الله من المكر والضغينة، بل إكتفى بالردّ عليهم «وعليكم» ويتوجّه بالسيدة عائشة رضي الله عنها موجّها لها بعدم التكلف في سبّ النّاس حتّى وإن ابتدروا بأيّ صور الأذى النّفسي كان أم الجسدي، فقال لها: «يا عائشة أنّ الله رفيق يحبّ الرّفق، ويعطي على الرّفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه»⁽⁴⁾ ويبيّن

(1) – المرجع نفسه، ص 407.

(*) – السّام: بمعنى الموت، وهو الذي كانت اليهود تقصده في سلامهم. أما السّام فمعناه أنكم تسأمون دينكم، (يُنظَر: لسان العرب، ج12، المصدر السّابق، ص 313)، (ويُنظَر: فقه الدّعوة في صحيح الإمام البخاري، باب حديث إن الله يحبّ الرّفق في الأمر كلّهُ، ج1، رقم الحديث 2935، المرجع السّابق، ص 510)، (ويُنظَر: النّهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، باب السّين مع الهمزة، مادة سئم، ج 3، ص 328).

(2) – أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً، ج7، برقم 6030، ص 1511. وكتاب الإستئذان، باب كيف يرّد على أهل الدّمة السّلام؟، حديث رقم 6256، ص 1561. وكتاب الدّعوات، باب الدّعاء على المشركين، برقم 6395، ص 1593، وكتاب الدّعوات، باب قول النبي ﷺ يستجاب لنا في اليهود، ولا يستجاب لهم فينا، ج7، برقم 6401، ص 1594، وكتاب إستتابة المرتدّين والمعاندين وقتالهم، باب إذا عرض الدّمي وغيره بسبّ النبي ﷺ ولم يصرح نحو قوله. "السّام عليك"، ج8، برقم 6927، ص 65. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السّلام، باب النّهي عن إبتداء أهل الكتاب بالسّلام وكيف يرّد عليهم؟، ج4، برقم 2165، ص 1706.

(3) – يُنظَر: فقه الدّعوة في صحيح الإمام البخاري، باب حديث «إن الله يحبّ الرّفق في الأمر كلّهُ»، ج1، ص 89-2935، المرجع السّابق، ص512.

(4) – أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب فضل الرّفق، عن عائشة رضي الله عنها، رقم الحديث 2593، ج 4، ص 2003.

ﷺ أَنَّ مِنْ حُرْمِ الرِّفْقِ فَقَدْ حُرِّمَ الْخَيْرُ كُلُّهُ فَقَالَ: «مَنْ يَحْرِمُ الرِّفْقَ يَحْرِمُ الْخَيْرَ»⁽¹⁾ فقد أرشدها ﷺ إلى الرِّفْقِ المبني على المداراة وترك المعادة والمعاناة كما قيل:

دارهم ما دمت في دارهم وأرضهم ما دمت في أرضهم⁽²⁾.

كان هذا من روائع حلمه ﷺ وكماله وحسن خلقه وصفحه وصبره على الأذى في النفس والمال والتَّجاوز على جفا من يريد تألفه على الإسلام⁽³⁾.

– رفقته بالأعرابي الذي جذبه من رداءه

كان النبي ﷺ يتحمَّل جريرة مَنْ يخطئون في حقِّه مِنْ جُفَاةِ الْأَعْرَابِ وذلك تأليفاً لقلوبهم⁽⁴⁾ دليل ذلك ما جاء عن أنس بن مالكٍ ﷺ قال: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بردٌ نجراي غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه بردائه جذبة شديدة، حتَّى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جذبته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء»⁽⁵⁾ فقد أظهر النبي ﷺ مِنْ خلالِ هذا الموقف أخلاقه الرّصينة في التَّعامل مع الأعرابي، جسَّد فيها معاني الرّحمة والرِّفْق والعفو، فلم يعبس في وجهه بل ضحك وأمر له بعطاءً تألفاً له، وبَيَّن درجة حلمه وصبره في التَّجاوز عَن جفَاء من يُريد تألفه على الإسلام، فليتأسى به الوُلاة من بعده في خلقه الجميل من الصَّفح والإغضاء والدَّفْع بالتي هي أحسن⁽⁶⁾.

– رفقته مع من تكلم في الصَّلَاة

وموقفه مع معاوية بنُ الحكم السلمي حين قال: «بَيْنَمَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاتَّكَلُ أُمِّيَاءَ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَازِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمُّتُونِي، لَكِنِّي سَكَتُ، فَلَمَّا

(1) – المصدر نفسه، رقم الحديث 2592، ج 4، ص 2003.

(2) – يُنظر: محمَّد القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، تحقيق: جمال عيتاني، كتاب الآداب، باب السَّلام (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، ج 8، 1422هـ/2001م)، ص 463.

(3) – سعيد بنُ علي بنُ وهف القحطاني، مقوِّمات الدَّاعية النَّاجح في ضوء القرآن والسَّنة، المرجع السَّابق، ص 130.

(4) – محمود خليل أبو دف، منهج النبي ﷺ في تقويم السُّلوك وكيفية الاستفادة منه في تعليمنا المعاصر، بحث مقدَّم لمؤتمر تطوير برامج كليات التَّربية بالوطن العربي في ضوء المستجدَّات المحليَّة والعالميَّة، كُليَّة التَّربية، جامعة الرِّقَازيق، 2006م، ص 9.

(5) – أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزَّكاة، باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة، رقم الحديث 1056، ص 465.

(6) – بدر الدِّين العيني، عمدة القارئ في شرح صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب البرود والحيرة والسَّملة، رقم الحديث 5809 (بيروت: دار إحياء الثَّراث العربي، ج 21، د، ت)، ص 312.

صَلَّى رسول الله ﷺ، فبأي هو وأُمِّي، ما رأيتُ معلِّماً قبله، ولا بعده أحسنَ تعلِّماً منه، فو الله ما كَهَرَنِي ولا ضَرَبَنِي ولا شَتَمَنِي، قال: إِنَّ هذه الصَّلَاةَ، لا يَصْلُحُ فيها شيءٌ من كلامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هو التَّسْبِيحُ والتَّكْبِيرُ وقراءةُ الْقُرْآنِ أَوْ كما قال رسول الله ﷺ، قلتُ: يا رسول الله، إِنِّي حديثٌ عهدٌ بجاهليَّةٍ، وقد جاء الله بالإسلام، وَإِنَّ مِنَّا رجالاً يَأْتُونَ الْكُفَّانَ، قال: فلا تَأْتِهِمْ، قال: وَمِنَّا رجالٌ يَتَطَيَّرُونَ، قال: ذاك شيءٌ يَجِدُونَهُ في صدورِهِمْ»⁽¹⁾ معاوية كان يجهل حكم الحديث أثناء الصَّلَاة فغضب الصحابة لكنَّ نبيَّ الله أوضح خطأه ووعظه بطريقة ليِّنة دون تضجُّر، وهذا من عظم أخلاق النبي ﷺ وأسلوبه الرِّصين في معالجة الأخطاء خصوصاً مع يجهل أحكام الإسلام وشرائعه، وهذا الموقف يعطي للدَّاعية درساً في الرِّفق مع الجُهلة الذي يخطئون في حقِّ الله عليهم، فلا يتعلَّق الأمر بالمسلم الجاهل فقط، بل حتى مع الكافر الذي يحتاج إلى رده بأفضل الطُّرق وأيسرها، فيأتي التَّنبيه النبوي من هذا الموقف كآلآتي :

- الرِّفق من الصِّفات المهمَّة التي ينبغي أن يتَّصف بها كلُّ داعية إلى الله تعالى، ولهذا رفق النبي ﷺ باليهود والأعراب الجُهلة، فلم يقابل قولهم ومقصدهم بالعنف ولا بالفحش، وإِنَّمَا رَدَّ عليهم ما قالوا من حيث لا يشعرون بحكمةٍ وبلطفٍ، فينبغي على الدَّاعية أن يكون رفيقاً، لئِنَّا سهلاً؛ لأنَّ الله رفيق يحبُّ الرِّفق في الأمر كلِّه⁽²⁾.

- أهمِّية مراعاة الدَّاعية للشُّعور النَّفسي عند تبيان المدعو خطأه⁽³⁾ وهو يوجَّهه بأسلوب عفيف وراوع، ومعاوية كاد أن يفتن لولا رفق النبي ﷺ له، فما زجره ولا تعنَّف معه بل استقبله بوجهٍ طلقٍ وأسلوبٍ هادئٍ.

- كان لأسلوب الرِّفق أثر في قلب معاوية، ممَّا جعله يسأله عن أمور كان يفعلها في الجاهلية، ومبادرته بإعتاق رقبة مؤمنة.

- الحَضُّ على لين الجانب بالقول والفعل.

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصَّلَاة، باب تحريم الكلام في الصَّلَاة، رقم الحديث 537، ج1، ص 381.

(2) - سعيد بنُ علي بنُ وهب القحطاني، فقه الدَّعوة في صحيح الإمام البخاري، المرجع السَّابق، ص 512.

(3) - يُنظَر: نورة بنت عبد اللطيف حسين فرج، الرِّفق وأثره في الدَّعوة إلى الله، المرجع السَّابق، ص 221.

هذا الموقف أظهر جمالية أسلوب النبي ﷺ وتلطّفه في وعظ مخالفه، فلم ينهم عن شيء بأسلوب الزجر والغلظة، بل كان رفيقاً رحيماً ليناً، ممّا يستوجب على الدّاعية السّير على خطى النبي ﷺ في حلمه وصفحه ودفع الأذى بالتي هي أحسن.

– رفقّه بالمرأة التي بكت عند القبر

عن أنسٍ رضي الله عنه قال مرّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال: اتّقي الله واصبري، فقالت: إليك عني فإنك لم تُصَبِّ بمصيّتي، ولم تعرفه، فقيل لها، إنه النبي ﷺ فأتت النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك فقال ﷺ: «إنما الصّبر عند الصّدمة الأولى»⁽¹⁾ والمرأة التي مرّ عليها رسول الله ﷺ وهي تبكي طفلها كما جاء في رواية مسلم أنّه ﷺ: «أتى على امرأة تبكي على صبيّ لها»⁽²⁾ فأمرها النبي ﷺ بتقوى الله، وأوصاها بالصّبر على قضاء الله وقدره، فما كان ردُّ المرأة أن أغلظت القول للنبي ﷺ جاهلة لشخصه ومكانته، فلم يتضجّر ﷺ من قولها ولم يتعنّف معها بالقول، بل أشفق عليها وراعى حالها وهي متأثرة بفراق صبيها، فظهر أثر رفق النبي ﷺ وشفقته وحلمه أن توارت المرأة خجلاً عندما علمت أنّه رسول الله ﷺ كما جاء في رواية مسلم: «قيل لها: إنه رسول الله ﷺ فأخذها مثل الموت»⁽³⁾.

– رفقّه في توزيع الغنائم

وعن ابن شهاب قال غزّا النبي ﷺ غزوة فتح مكّة ثمّ خرج بمنّ معه من المسلمين فاقتتلوا بجنين فنصر الله دينه والمسلمين وأعطى رسول الله ﷺ يومئذ صفوان بن أمية مائة من النّعم ثمّ مائة، يقول ابن شهاب رحمه الله حدثني سعيد بن المسيّب أنّ صفوان قال: «والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنّه لأبغض النّاس إليّ، فما برح يعطيني حتّى إنّّه لأحبّ النّاس إليّ»⁽⁴⁾ وهذا دلالة على روائع حلمه ﷺ وكماله وحسن خلقه وصفحه الجميل وصبره على الأذى في النّفس والمال والتّجاوز على جفا من يريد تألّفه على الإسلام⁽⁵⁾.

(1) – أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب في الصّبر عند الصّدمة الأولى، رقم الحديث 926، ج 2، ص 637.

(2) – المصدر نفسه، ص 637.

(3) – أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب في الصّبر عند الصّدمة الأولى، رقم الحديث 926، ص 637.

(4) – أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قطّ فقال: لا وكثرة عطائه، رقم الحديث 2313، ص 1094.

(5) – سعيد بن علي بن وهف القحطاني، مقوّمات الدّاعية النّاجح في ضوء القرآن والسّنّة، المرجع السّابق، ص 130.

هـ - المستفاد من أسلوب رفي النبي ﷺ في دعوته

بَعْدَ معاينة شيءٍ مِنْ مواقف رفي النبي ﷺ ومعاملته في دعوة النَّاسِ، كان لزامًا بيان إمكانية تطبيق هذا الأسلوب في الوقت المعاصر نعرضها كالآتي :

— إِنَّ دلالةَ الأحاديثِ السَّالفةِ تبيِّن مواقف رفي النبي ﷺ، الذي وجلت له القلوب تائبة مستجيبة، والدعوة إلى الله أحوج إلى من يمثلون إلى هذا الأسلوب العاطفي، يراعون مصلحة الدَّعوة أُولَى من مصلحتهم، وقد ظهرت ثماره في سير الخلفاء الرَّاشدين كعمر بن الخطاب وأبي بكر ﷺ عند توليتهم حكم البلاد الإسلامية، وسير العديد من الوعَّاظ والدُّعاة وعلى مستوى الحركات الإسلامية الحاملة لواء الوسطية في منهجها كأمثال محمَّد عبده، وأبو الأعلى المودودي، الإمام حسن البنَّا، الذين أنكسوا أعلام دُعاة الغلظة والجفاء والفضاضة.

— فحينما أمر الله تعالى بالرفق والتلطُّف في مخاطبة النَّاسِ، فهل معنى التلطُّف مع المدعوين تعني المداينة فعلا ؟ فالجواب هنا واضح وقد سبق بيانه، فالتلطُّف في القول هو من المداينة التي تأتي معها النَّتائج والثمار الدَّعوية الياينة، والمداينة والرفق مقتزمان بالصدِّع بالحقِّ وتبيين معاملته للنَّاسِ، ولا يمكن لهما أن ينفكَّا بحال من الأحوال، ويكون هذا على رأي الحكمة لا تكن لينا فتعصر ولا تكن قاسيا فتكسر، وهذا الأسلوب قام به الأنبياء عليهم السَّلام وقام به النبي ﷺ على أكمل وجه⁽¹⁾ وتلطُّف الدَّاعية إلى الله بالمدعو في القول لا يعني مداينة تركي باطلا، فما ينبغي على كلِّ من يحمل رسالة الله المؤيَّد بها عند جميع الأنبياء عليهم السَّلام عموماً وخاتمهم النبي ﷺ خصوصاً، أن يكونوا مداينين للباطل يقول تعالى مخاطباً نبيّه: ﴿وَدُّوا لَوْنُدْهِنْ فَيَدْهِنُوْكَ﴾ ﴿١﴾ [القلم: 9].

— إِنَّ من أهمِّ ما يقف عنه كلُّ داعية ذاك الأسلوب الأخاذ من لدنه ﷺ فلم يكن في دعوته كثير العتاب، وإن عاتبَ فرما أبرزها في ثوب دُعاة، فها هو ينكر على الصحابي^(*) خوات بن جبير

(1) - حسين عبد عواد الدليمي، أسلوب الرفق في دعوة إبراهيم عليه السَّلام لأبيه، المرجع السَّابق، ص 578.

(*) - تفاصيل الحادثة، يقول خوات بن جبير ﷺ: نزلنا مع رسول الله ﷺ مرَّ الظَّهران، قال: فخرجت من خبائي فإذا أنا بنسوة يتحدَّثن، فأعجبني، فرجعت فاستخرجت عيبي، فاستخرجت منها حلَّة فلبستها وجئت فجلستُ معهنَّ، وخرج رسول الله ﷺ من قُبَّته، فقال: أبا عبد الله ما يجلسُك معهنَّ ؟، فلما رأيتُ رسول الله ﷺ هبته واختلطت، قلت: يا رسول الله جمل لي شرد، فأنا أتبعني له قيِّداً فمضى وأتبعته، فألقى إلي رداءه ودخل الأراك كأني أنظرُ إلى بياض مثني في حضرة الأراك، فقضى حاجته وتوضأ، فأقبل والماء يسيل من لحيته على صدره، أو قال: يقطر من لحيته على صدره، فقال: أبا عبد الله ما فعل شراؤك جملك ؟ ثمَّ ارتحلنا فجعل لا يلحقني في المسير، إلا قال: السَّلام عليك أبا عبد الله ما فعل شراؤك ذلك الحمل ؟ فلما رأيتُ ذلك تعجَّلتُ إلى

جلوسه إلى نساء أعجبته، ومحادثته إياهن، ويتأذى رسول الله ﷺ من فعلة خوات، ولكنه مع ذلك يؤدبه، ويعلمه، بأسلوب رقيق ينطوي على حسن مداعبة عال، لدرجة جعلت الحياء والندم يبلغ مداه في نفس خوات رضي الله عنه وأرضاه.

- لقد خطَّ النبي ﷺ للدَّاعية أسلوبًا عظيمًا في الرَّفق، مبيِّنًا له عند تولّيه ريادة الدعوة تشبُّه بأهم الأخلاق عند دعوته للنَّاس وكان من أهمِّها: التَّخَلِّي عن كثرة العتاب للعاصين، وإنشغاله بإزالة الجهل لديهم بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، ومراعاة الجوانب النَّفسية والعاطفية والاجتماعية للفرد المراد توجيهه، وذلك بانتهاج أقل السُّبل الموصلة إلى التأثير من خلال التبشير واجتناب اللُّوم الشَّدِيد والتَّقرُّيع المفرط⁽¹⁾ فالمدعو إذا عومل بالرَّفق وفُهِم باللين يعي حقيقة تصرّف الدَّاعية ومنبعه، فيعترف بخطئهِ جاء في القول: (إني حديث عهد بكفر، وقد جاء الله بالإسلام وإنَّ منَّا يأتون الكُفَّان! قال فلا تأثم قلنا ومنَّا رجال يتطَيَّرون قال: ذلك شيء يجدونه في صدورهم)⁽²⁾.

- وفي الوقت الذي تعيشه الدَّعوة في عالم تغيرت فيه المفاهيم وزادت فيه نِسْبُ التوتُّر والانفعال والإضطراب النَّفسي من عنف وتعصب وحبِّ السَّيادة، كان نتيجتها التَّغافل عن المنهج النَّبوي من الإخلاص وأسلوب، فكان لزاما على الدَّاعية أن يسعى جاهدًا إلى إشاعة القيم الفاضلة في المجتمع وتفعيلها بين النَّاس، عن طريق الخطب والدُّروس والمواعظ والمحاضرات والملتقيات وعبر وسائل الإعلام السَّمعية كانت أم البصرية والإلكترونية، فيتعامل مع النَّاس باحترام وإنسانية.

- على الدَّاعية إلى الله عند ترفُّقه بمدعويه عليه أن ينزل منازلهم ومراتبهم، يدرس واقعهم ومعتقداتهم ونفسياتهم ويعرف مواطن الانحراف لديهم معرفة جيدة حتى يستطيع أن يحدِّد الدَّاء ويقدِّم الدواء.

- كما على الدَّاعية أن لا يجعل من أسلوبه الدعوي مدعاة إلى تنفير النَّاس لخشونة طبعه وجهله وأسلوبه العنيف، فعادة بعض النَّاس تغلب الطَّبِيعَة فيه التطبُّع، فعليه أن يكون سلس القيادة رفيقًا

المدينة، واجتنبْتُ المسجد والمجالسة إلى النَّبي ﷺ، فلما طال ذلك تَحَيَّنْتُ ساعة خلوة المسجد، فَأَتَيْتُ الْمَسْجِدَ فَقَمْتُ أَصْلِي، وخرج رسول الله ﷺ من بعض حجره فجاءَ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ وَطَوَّلْتُ رَجَاءً أَنْ يَذْهَبَ وَيَدْعُنِي، فقال: طَوَّلَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مَا شِئْتُ أَنْ تُطَوِّلَ فَلَسْتُ قَائِمًا حَتَّى تَنْصَرِفَ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: وَاللَّهِ لَا أُغْتَذِرَنَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا أُبْرِنُ صَدْرَهُ، فَلَمَّا قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مَا فَعَلَ شِرَاءُ ذَلِكَ الْجَمَلُ ؟، فَقُلْتُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا شَرَدَ ذَلِكَ الْجَمَلُ مِنْذُ أُسْلِمَ، فقال: رَحِمَكَ اللَّهُ ثَلَاثًا، ثُمَّ لَمْ يُعِدْ لشيءٍ مِمَّا كَانَ.

(1) - عبد الحميد الصيد الزنتاني، أسس التَّربية الإسلامية في السَّنة النَّبوية (الدار العربية للكتاب، 1993م)، ص 200.

(2) - أبو عبد الله حمزة النابلي، تذكير المسلمين بأهمِّية الرَّفق واللين، المرجع السَّابق، ص 2.

حليماً ليناً، لا يجعل للعنف والخشونة مجالاً في دعوته، والتي تعمل على إخماد جذوتها ومن ثمَّ إطفاء جمرتها فيجعلها رماداً حينها تضيع الكثير من مصالح الأمة وشؤونها، فيلقى بها إلى مزلق خطيرة وتحديات عويصة يشقُّ على الدعاة معالجتها.

- لقد خطَّ النبي ﷺ للدَّاعية أسلوباً عظيماً في الرفق، مبيّناً له عند توليه ريادة الدعوة تشبُّه بأهم الأخلاق التي يجب التمسك بها أثناء دعوته للنَّاس أجمعين: التَّخلي عن كثرة العتاب خصوصاً العاصين، وانشغاله بإزالة الجهل لديهم بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، ومراعاة الجوانب النفسيَّة والعاطفية والاجتماعية للفرد المراد توجيهه، وذلك بانتهاج أقل السبل الموصلة إلى التأثير من خلال التبشير واجتناب اللوم الشَّدِيد والتَّقرُّع المفرط⁽¹⁾.

- خطَّ النبي ﷺ للدَّاعية منهجاً في التَّعامل مع من يقعون في الأخطاء الشرعية، ويتحلَّى ذلك الرَّفق بالمخطئ والأخذ بيده والإشفاق عليه من جريرة خطئه، مع تجنُّب احتقاره أو سخريته أو مقابله بعنف، اللذان يولِّدان عنهما صفتان سلبيتان للمنكر عليه، والدَّاعية مطالب أن يتودَّد ويتلطَّف مع المدعوين بما يعينه على نشر دعوته، يرُقِّق القلوب ويلين الأفئدة ويفتح العقول لأجل دعوته، يقول الإمام النَّووي رحمه الله: (وهذا فيه بيان ما كان عليه النبي ﷺ من عظيم الخلق الذي شهد الله تعالى له به، وفيه الرَّفق بالجاهل وحسن تعليمه، واللُّطف به وتقرُّب الصَّواب إلى فهمه)⁽²⁾ ويذكر الإمام ابنُ الجوزي رحمه الله: (وهذا ليعلم المؤدِّبين كيف يؤدِّبون، فإنَّ اللُّطف بالجاهل قبل التَّعليم أنفع له من التَّعنُّف ثمَّ لا وجه للتَّعنُّف لمن لا يعلم، إمَّا يعنف من خالف مع العلم)⁽³⁾.

- على الدَّاعية أن يجعل تواضعه لمدعويه الأسلوب الأمثل للتُّزول إلى منازلهم والعيش في واقعهم ليعرف مواطن الانحراف لديهم معرفة جيِّدة ويستطيع أن يحدِّد الدَّاء ويقدِّم الدواء.

- يظنُّ بعض النَّاس أنَّ استعمال الرَّفق ينقص من قدر الإنسان أو يكون علامة على ضعفه وخَوَره، فإنَّ هذا الفهم خاطئ من موروثات الجاهلية، فسلوك الرفق لا يقتضي المداينة أو التنازل عن الحقوق، وإمَّا يقتضي المداينة، والدَّاعية الرِّفيق يبيِّن شريعة الله ويعامل النَّاس بأسلوبٍ لطيفٍ ومرنٍ.

(1) - تمَّ تخريجه سابقاً، يُنظر: صفحة 233.

(2) - النَّووي، شرح النَّووي على صحيح مسلم، كتاب الصَّلَاة، باب تحريم الكلام في الصَّلَاة ونسخ ما كان من إباحته، ج 5، المرجع السَّابق، ص 20.

(3) - أبو عبد الله حمزة النايلي، تذكير المسلمين بأهمية الرَّفق واللِّين، المرجع السَّابق، ص 16.

ثالثاً: الكلمة الاستعطافية

أ - مفهوم الكلمة الاستعطافية

لإيجاد مفهوم لمصطلح الكلمة الاستعطافية لم أعثر على مفهوم واضح لها عدا ما ذكره الباحث أحمد العامري بالقول: (نقصد بها كأسلوب هي طريقة إبلاغ المعاني الدعوية بألفاظ عاطفية تثير مشاعر الإنسان ووجدانه لقبول الحق والاستجابة للهدى)⁽¹⁾.

ومن باب الإجهاد أمكنني وضع مفهومًا إجرائيًا لهذا الأسلوب وهو كالآتي :

الكلمة الاستعطافية هي: لفظة أو عبارة ينادى بها فردًا أو جماعة قصد إستمالته عاطفيا وربطه وجدانيا، يوظفها الداعية للفت النظر إلى ما يدعو إليه من عقيدة وشريعة وأخلاق، حيث تعبّر في ثانيا مفرداتها مشاعر الألفة والحبّ والشفقة والقربى.

ب - صور الكلمة الاستعطافية في الدعوة إلى الله

إنّ استخدام الكلمات الاستعطافية في مناداة المدعوين ومخاطبتهم من أطف الأساليب القولية في الدعوة إلى الله، لها دلالتها في الحبّ والألفة، وصدق المناصحة وهي كثيرة ومختلفة ، كما تعتبر هذه الكلمات إحدى صور الكلمة الطيبة التي تذكّر بأواصر القربى ومواطن الحبّ والشفقة والرحمة، ومثالها قول الداعي: يا أبت، يا بنيّ، يا قوم ... وكذلك على نحو: إني أخاف عليكم، أخشى عليكم... وهي كثيرة، وهذه الكلمات دورها مهمّ في الدعوة إلى الله لكونها مقدّمات عاطفية سرعان ما تؤلف نكرات القلوب، ولها دلالة في الإقناع وقوة في التأثير ،لذا فهي من أفضل اللهجات التي استخدمها الأنبياء عليهم السّلام في مخاطبة آبائهم وأبنائهم وأقوامهم لإستمالتهم وإستدراجهم للإيمان ومحاضن الإسلام، ولما لها من عذوبة في الآذان وسلاسة في القلوب، تتجلّى فيها أبهى معاني الرّقة واللّطف والتّواضع، وهي تذكّر بالصّلة الوثيقة بين الدّاعية والمدعو كأن تكون بين الأب وابنه والعكس أو مع الأقارب أو القوم والعشيرة، ولقد تجلّت الكلمات الاستعطافية بوضوح في دعوة سيدنا إبراهيم ﷺ لأبيه آزر، بما يحمله قلبه من حبّ وحرصٍ على أبيه والخوف عليه، فخاطبه بصدق: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَأْتَبُ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۚ يَأْتَبُ يَئِي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۚ﴾ يَأْتَبُ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۚ﴾

(1) - أحمد العامري، المنهج العاطفي في ضوء القرآن والسنة المطهّرة، المرجع السّابق، ص 72.

يَتَأَبَّتْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ [مریم: 42-45] لنلاحظ روعة وجمال هذا الخطاب تجلٍّ فيه أرقى مشاعر البنوة استهلاً بنصائحه الأربعة بلفظة لطيفة ورقيقة على القلب: ﴿يَتَأَبَّتْ﴾ توسلاً إليه واستعطافاً⁽¹⁾ فخاطبه بدعوة صادقة مُتمسِّكاً بالأدب الرفيع والكلام الطيب فقام بواجب البرّ نحو والده من أجل استمالة قلبه وترقيق فؤاده ، كما لا ننسى أيضاً لقمان الحكيم عند وصيته لابنه بقوله: ﴿يَبْنُيْ﴾ [لقمان: 17] كلمة إستعطافية أخرى لها وقع على القلب فتَهْزُهُ هزاً، ولاشكَّ أنَّ مثل هذه الألفاظ تعبّر عن المحبّة والألفة والتودّد، ولها تأثيرها الفعّال في النفوس⁽²⁾ هذه الألفاظ لاشكَّ أنَّها لا تصدر إلاّ من قلوب حانية وعاطفة دفاقة بالودّ والمحبّة، وإظهار الرّفق والرّحمة بالمدعو تكون بكلمة طيّبة ومؤثّرة، وتكون بإظهار مثل هذه الكلمات الوجدانية مثل: المناداة بكلمة يا أبت، يا بنيّ .. وكقول الدّاعي للمدعو إِنِّي أَحَبُّكَ، أخاف عليك وما إلى ذلك، والدّاعية عليه أن يتلطّف في مخاطبة من يدعوهم من خلال استعمال الألفاظ اللطيفة التي تساعد على إقبال المدعو وإصغائه له، كأن يقول لأبيه: يا أبت، أو لابنه يا بني، أو لأخيه يا أخي، أو يناديه بكنيته كأن يقول: يا أبا فلان، وإذا كان يخاطب جمعاً من النّاس من الأفضل أن يقول لهم يا قوم، أو يقول لهم يا أبناء عشيرتي، أو يا أبناء محلي ممّا يشعرهم بأنّه واحد منهم وليس بعيداً أو غريباً عنهم⁽³⁾.

ج - مواقف في استخدام النبي ﷺ للكلمة الإستعطافية في دعوته

لَقَدْ عَدَّ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الْكَلِمَةَ الْإِسْتِعْطَافِيَّةَ مِنْ أَسَالِيْبِ الْمَنْهَجِ الْعَاطِفِيِّ الَّتِي جَسَدَهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي دَعْوَتِهِ، ولهذا يقول الإمام الحافظ ابنُ حجر رحمه الله: (وفيه ما كان النَّبِيُّ ﷺ مِنْ كَمَالِ الشَّفَقَةِ عَلَى أُمَّتِهِ وَالرَّفْءِ بِهِم، والفرح بما يسرُّهم)⁽⁴⁾ وقال الإمام ابنُ القَيِّم رحمه الله: (وفي سرور رسول الله ﷺ بذلك وفرحه به وإستنارة وجهه دليل على ما جعل الله فيه من كمال الشَّفَقَةِ عَلَى الْأُمَّةِ، والرّحمة بهم

(1) - عبد الكريم زيدان، المستفاد من قصص القرآن للدّعوة والدّعاة (بيروت: مؤسّسة الرّسالة، ط1، ج1، 1419هـ/ 1998م)، ص 195.

(2) - حامد بن أحمد بن علي العامري، الدّعوة إلى الله بالمنهج العاطفي، المرجع السّابق، ص 94.

(3) - عبد الكريم زيدان، المستفاد من قصص القرآن للدّعوة والدّعاة، المرجع السّابق، ص 106.

(4) - ابنُ حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك وقو الله عزّ وجل:

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ [التوبة: 118] رقم الحديث 4418، ج9، المرجع السّابق، ص 574.

والرأفة حتى لعل فرحه كان أعظم من فرح كعب وصاحبيه⁽¹⁾، فالنبي ﷺ قد نوع في استخدام هذه الكلمة بحسب صنوف المدعويين وحالهم، كبيرهم كان أو صغيرهم، قل شأهم أو عظم شأنه، وهذا هو أصل دعوة الأنبياء عليهم السلام، كما قد أحسن استخدامهما فكانت رقيقة عذبة من لدنه ﷺ، وهو يشق دعوته أشبه ما تكون بتريده على أكتاف المدعويين مثل أسلوب الكنية نحو: يا أبا زيد، أو كقوله: يا أبا عمرو.... وقد تجلّت في عدّة مواقف أبرزها: عند مخاطبته لعمّه لَمّا حضرته الوفاة فجاءه النبي ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، لمحاولة إنقاذه من ضلال الشرك وهدايته إلى نور الإيمان قائلاً له ﷺ: «يا عمّ قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله... الحديث»⁽²⁾ إلا أن عمّه أبا جهل أن يلقى على ملّة عبد المطلب ولم يتراجع، ممّا أثار في النبي حزنه وشفقته لعمّه قائلاً: «والله لأستغفرنّ لك ما لم أُنّه عنك»⁽³⁾ وأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: 113] وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: 56] ومع أن عمّه ﷺ مات على الكفر إلا أن النبي ﷺ حزن لكون عمّه كان منافحاً عليه في دعوته على الرُّغم مخالفة دينه، فكانت عاطفته ﷺ لعمّه غلبت عليه فاجتهد ﷺ ما في وسعه ليموت عمّه على الإيمان لكن مات على الكفر، ومع ذلك كرامات الله لنبيه ﷺ أن جعل شفقتة وحزنه شفعت له حتى خفف عنه العذاب فكان أهون أهل النار عذاباً، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «أهون أهل النار عذاباً أبو طالب وهو مُنتعل بنعلين يغلي منهما دماغه»⁽⁴⁾ فالنبي ﷺ من خلال الحديث يخاطب عمّه بلطف العبارة وبهذه الكلمة المؤثرة «يا عمّ» ليثبت له في قوله اللطيف حبّ العميق وخوفه الشديد عليه إن مات على شركه، لأنّ مشاعر البُنوّة طغت على قلب النبي ﷺ، فلم ينظر إليه بمنظار العقيدة - برغم شركه - وإنما بصلة القرابة التي تربطه بعمّه، وهذا تعبيراً على عظمة النبي ﷺ في أخلاقه وأساليبه الرّاقية التي ارتسمت فيها مشاعر الحبّ والرّحمة والرّأفة والشفقة، وفي موقف آخر لَمّا نزلت الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]

(1) - سعيد بن علي بن وهف القحطاني، فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري، ج 1، المرجع السابق، ص 109.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب قصّة أبي طالب، رقم الحديث 3883، ص 950. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على صحّة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع في الغرغرة ونسخ حوار الاستغفار للمشرّكين، حديث رقم 39، المرجع السابق، ص 54.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب قصّة أبي طالب، رقم الحديث 3883، ص 950.

(4) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أهون أهل النار عذاباً، رقم الحديث 212، ص 117.

انطلق النبي ﷺ إلى روضة من جبلٍ فعلاً أعلاها حجراً ثم نادى: «يا بني عبد منافاهُ إني نذيرٌ، إنما مثلي ومثلكم كمثلي رجلٍ رأى العدوَّ فانطلق يَربأُ»^(*) أهله، فخشى أن يسبقوه، فجعل يهتفُ يا صباحاهُ»⁽¹⁾ فشبه النبي ﷺ نفسه بالرجل الذي يخشى عليهم ويحرص على سلامتهم، فأراد أن يذكرهم برابطة الأهل والعشيرة، ومعلوم أنَّها من أقوى الروابط العاطفية وأصلبها، بأنَّه لا يريد لهم إلا ما يريد لأهله وخاصته، وقد جاءت في مخاطبته ﷺ لأصحابه بأسلوب الكنية نحو: يا أبا زيد .. يا أبا عمرو .. وذلك ما جاء عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: «كنت أمشي مع النبي ﷺ في حرَّة المدينة فاستقبلنا أخذ، فقال: يا أبا ذرٍّ! قلت: لبيك يا رسول الله! قال: ما يسرني أن عِندي مثلُ أُحدٍ هذا ذهباً تمضي عليّ ثلاثة وعندي منه دينارٌ، إلَّا شيئاً أرضدُّه لدينٍ، إلَّا أن أقولَ به في عبادِ الله هكذا وهكذا و هكذا عن يمينه، وعن شماله، ومن خلفه وقليلٌ ما هم»⁽²⁾، وخطابه لأبي موسى رضي الله عنه قائلاً: «يا أبا موسى أو يا عبد الله إلَّا أدلك على كلمة من كنز الجنة قلت: بلى، قال: لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله»⁽³⁾، واستخدم عبارات إستعطافية أخرى كقول: إني أخاف عليكم، أخشى عليكم ... عن عبد الله بن عمر قال: جمعت القرآن فقرأته كله في ليلة، فقال رسول الله ﷺ: «إني أخشى أن يطول عليك الزمان وأن تمل قراءته، ثم قال: إقرأه في شهر، فقلت: دعني أستمع من قوتي ومن شبابي قال: إقرأه في عشرة، قلت: دعني أستمع من قوتي وشبابي، قال: إقرأه في سبع، قلت: دعني أستمع من قوتي وشبابي فأبي»⁽⁴⁾ وقال ﷺ: «إنَّ أكثر ما أخاف عليكم ما يخرجُ الله لكم من بركات الأرض، قيل:

(*) - يَربأُ: على وزن يقرأ، معناه يحفظهم ويتطلع لهم، ويقال لفاعل ذلك: ربيعة، وهو الطليعة الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم العدو، ولا يكون في الغالب إلَّا على جبل أو شرف أو شيء مرتفع لينظر على بُعد، (صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، رقم الحديث 207، ج 1، ص 193).

(*) - يا صباحاه: كلمة يعتادونها عند وقوع أمر عظيم، فيقولونها ليجمعوا ويتأهبوا له. (صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، رقم الحديث 207، ج 1، ص 193).

(1) - المصدر نفسه، ص 193.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقائق، باب قول النبي ﷺ: «ما يسرني أن لي مثل أُحد ذهباً»، رقم الحديث 6444، ص 1605.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله، رقم الحديث 6409، ص 1597.

(4) - أخرجه ابنُ ماجه في السنن، تحقيق: محمَّد فؤاد عبد الباقي، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في كم يستحب يختم القرآن، رقم الحديث 1346 (مطبعة دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي، ج 1، د، ت)، ص 428. وجاء فيه حكم الألباني: صحيح التعليل على ابنِ ماجه.

وما بركات الأرض؟ قال: زهرة الدنيا...»⁽¹⁾ وقوله ﷺ: «وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف أن تنافسوا فيها»⁽²⁾، وعليه فإن مقاييس العظمة ظهرت في شخصية النبي ﷺ وبالأحرى في عاطفته التي فاقت كل عاطفة في الدنيا، ارتسمت فيها نبل نفسه وسمو أخلاقه ورجاحة عقله، لتتجسد فيها كل معاني الداعية الرباني الحليم الذي عُرف عنه من خلال ألفاظه وتعبيراته عند مواجهته للجهالة التي تعرض لها من قبل عمه وعشيرته الرقة والرأفة والشفقة، فكانت طريقته في مخاطبة كل من يواجهه برفق وبكلمات عاطفية يرق لها الفؤاد، فكان إذا دعا ووعظ أخذ بمجامع القلوب، كذلك الداعية إلى الله عليه أن يجعل المدعو يشعر وكأنه منه يخاف عليه مثلما يخاف على نفسه، فلا يتجاهل هذا الأسلوب في دعوته لأن تجاهله يعتبر إساءة للدعوة وإساءة له في الوقت نفسه، ولأن البديل عندئذ سيكون الغلظة أو الشدة ومن ثم النفور والعداوة، لذلك فإن للكلمات الاستعطافية أثر بليغ في إحداث التقارب بين الداعية والمدعو.

وقد لوحظ - من خلال ما سبق ذكره - أثر هذا المنهج في مجتمع النبوة فمنهم من لانت القلوب ومنهم من بقيت متحجرة مشرقة، والداعية الحكيم بدوره عليه أن يتعاطف مع الناس ويشفق عليهم يفرح لفرحهم ويحزن لحزنهم، وتجاهل هذا الأسلوب في الدعوة يعتبر إساءة لها، لكون البديل في غياب هذا الجانب العاطفي عندئذ النفور والعصيان.

د- الاستفادة من الكلمة الاستعطافية في دعوة النبي ﷺ

- تواجه الدعوة الإسلامية صعوبات وعقبات في طريقها كان أهم أسبابها من بعض أبناء هذه الدعوة نفسها وبعض المشتغلين في حقلها فهذا الخطر الأكبر، والداعية الذي لا يحسن فن الدعوة إلى الله، سيتحوّل -دون أن يدري- إلى عقبة كؤود أمام دعوته، ويكون سبباً في نفور الناس منها، يتعامل بغلظة وجفاء، فينفر ولا يؤلف، ويكره ولا يحب، ويفرق ولا يجمع، ويهدم ولا يبني، ومنهم من لا يجيد الحوار والمناظرة العقلية، فيقف عاجزاً أمام أول شبهة تعترضه، فتصبح نفسه مثلبة في صرح دينه ومسببة سائغة يتلفها المتربصون.

- وإذا كان الداعية يدرك أن من البيان سحراً، فعليه أن يستخدم هذه العبارات السحرية في دعوته وللتأثير على أفهام الناس واستمالتهم إلى ما يدعو إليه، فهي تشعر باحترام وتقدير الآخرين له، ولهذا كان النبي ﷺ كثير الاستخدام لها.

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقائق، باب ما يُحذَر من زهرة الدنيا، رقم الحديث 6427، ص 1601.

(2) - المصدر نفسه، ص 1601.

رابعاً: المشاركة الوجدانية

بما أنَّ الإنسان يغلب عنه الطَّابع الاجتماعي فلا غرو أن يجد الدَّاعية ضالَّته في مشاركته في مجتمعه، يبادلهم نفس الشُّعور ليسير بدعوته إلى قلوب مدعويه فتتولَّد علاقة قائمة على الإحترام والعطاء والتَّعاطف مبرَّاة من علاقات المصالح الضَّيقة والغايات الدَّنيئة، فكفى بالدَّاعية شرفاً أن يكون قدوته سيِّد الدُّعاة ﷺ ليقوم هذا النُّوع من العلاقات كالحضور العاطفي والوجداني ومشاركته آلام وأحوال النَّاس وظروفهم من خلال المشاركات الوجدانية، وقبل الحديث عن المشاركة الوجدانية وأثرها في دعوة النبي ﷺ أمكن التعريف بالوجدان كمصطلح عميق له علاقة بموضوع البحث وهو كالآتي :

أ- مفهوم الوجدان

- لغة

- يعرفها العلامة ابنُ منظور بالقول: (الوجدان في اللُّغة ومعاجم قواميسها وَرَدَتْ بعدَّة معاني شبيهة بمعانيها من خلال القرآن والسُّنة مثل: (الغضب والحزن والشُّكَاية والحبُّ)⁽¹⁾ ونجدها في القرآن الكريم جاءت بمعنى: الخوف، والحزن، والنَّدَم، والفرح، والحبُّ، والخشية والبغض، وما إلى ذلك، فلفظ الوجدان لم يرد صراحة في القرآن ومعاجم اللُّغة، بينما في السُّنة جاء لفظها صراحة يحمل عدَّة معاني منها: الحزن، والغضب، والقلق، واضطراب النَّفس، والحبُّ، وغيرها، جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عَلِّمُوا وَيَسِّرُوا، وَلَا تَعْسِّرُوا وَبَشِّرُوا وَلَا تَنْقُرُوا، وَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ»⁽²⁾.

- اصطلاحاً

لقد كان لأسلوب المشاركة الوجدانية تعاريف مختلفة أشارت إليه العديد من البحوث والمقالات وكتب فيها العديد من الدُّعاة والباحثين، فلم أستطع الإمام بالكثير منها، وإِنَّمَا اقتصرت على بعضهم وهم كالآتي :

- يعرفه الأستاذ أحمد أمين بالقول: (هو شعور الإنسان الطَّبِيعي بارتياح من العمل أو النَّفور منه، كالإرتياح والنُّفور الذي يشعر به عند رؤيته شيئاً جميلاً أو قبيحاً فعندما توسوس له نفسه يكذب أو بسرقة يشعر باشمئزاز طبيعي من إتيان ذلك فيحكم عليه بأنَّه شرٌّ، وكذلك عندما يسمع خبر

(1) - ابنُ منظور، لسان العرب، مادَّة وجد (بيروت: دار صادر، ج 3، 1988م)، ص-ص 445، 446.

(2) - الألباني، سلسلة الأحاديث الصَّحيحة وشيخ من فقهها وفوائدها، رقم الحديث 1375 (الرياض: مكتبة المعارف، ط 1، ج 3، 1415هـ/1995م)، ص 363.

بإغاثة ملهوف أو إحسان إلى فقير أو عدل في حكم يشعر بارتياح طبيعي فيحكم على ذلك بأنَّه خير⁽¹⁾ للوجدان أثر في البناء الشَّخصي والعقدي، وكذا الاجتماعي باعتباره أحد مقومات الشَّخصية للداعية وميولاته نحو الخير ، ويعرِّفه الدكتور معروف زريق بالقول: (بأنَّها ميل الإنسان إلى مشاركة النَّاس في أحوالهم العاطفية، ويختلف النَّاس في درجة المشاركات الوجدانية حسب الصِّلات التي تربطهم بها والتي من فوائدها أنَّها توثق العلاقات الاجتماعية بين النَّاس، حيث يشارك الإنسان غيره في الأحوال العاطفية عند الموت والتَّعزية والتَّهنئة في الأفراح وعيادة المريض وإجابة الدَّعوة والسُّؤال عن أحوالهم الاجتماعية والعلمية والصَّحيَّة وما إلى ذلك)⁽²⁾ ويعرِّفه الشَّيخ النعيمشي بالقول: (هي أنْ يُحاول الدَّاعية وضع نفسه مكان المدعو ليتصوَّر حالته ومستواه، ويعايش مشكلته ليتعامل معه بما يناسب هذه الظروف)⁽³⁾ ويعرِّفه الباحث حامد بُنْ أحمد بُنْ علي العامري بالقول: (المشاركة الوجدانية كأسلوبٍ هي فعل يجسِّد حقيقة معانٍ يدعو لها الإسلام أو يهتمُّ بها حفاوةً بمشاعر المدعوين وعواطفهم وربطاً له بالدِّين)⁽⁴⁾ وفي تعريفٍ آخرٍ لها تعني: (مشاركة الغير في الأحوال العاطفية، عند الموت، والتَّهنئة في الأفراح، وعيادة المريض وإجابة الدَّعوة، وكذلك السُّؤال عن الأحوال الاجتماعية والعلمية والصَّحيَّة للمدعوين وما إلى ذلك من الأحوال الأخرى)⁽⁵⁾ وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في وصفه للنَّبِيِّ ﷺ بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التَّوبَة: 128) ومن صورها إظهار مشاعر الرَّحمة لليتامى وإيقاظ مشاعر الحنان والعطف في قلوب الأوصياء على اليتامى بطريقة عاطفية جياشة قال تعالى: ﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ حَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (النِّسَاء: 9) ومواساة النَّاس عند المصائب، فقد وصى الله تعالى المؤمنين بعد واقعة أحد بقوله:

(1) - أحمد أمين، كتاب الأخلاق (القاهرة: مطبعة دار الكتب العلمية، ط3، 1350هـ/1931م)، ص 28.

(2) - معروف زريق، علم النَّفس الإسلامي، المرجع السَّابق، ص44.

(3) - عبد العزيز بُنْ محمَّد النعيمشي، علم النَّفس الدَّعوي (الرِّياض: دار المسلم للنَّشر والتَّوزيع، ط3، 1432هـ/2011م)، ص 299.

(4) - أحمد بُنْ علي العامري، المنهج العاطفي في ضوء القرآن الكريم والسَّنة المطهَّرة، المرجع السَّابق، ص 72.

(5) - أحمد محمَّد أحمد إسماعيل، المنهج العاطفي في الدَّعوة إلى الله، المرجع السَّابق، ص 13.

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: 140] وغيرها من الصور الكثيرة التي حفل بها القرآن الكريم والسنة المطهرة⁽¹⁾، فالمشاركة الوجدانية من الأسس التي تسعى في بناء العلاقات الطيبة مع المدعو، لأنها تعطي الصورة الصادقة والحقيقية للداعية من خلال حرصه ومتابعته وتفقد له لأحوال المدعو، والإسلام لم يهمل هذا الجانب المهم بل دعا إلى ضرورة التراحم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: 2] وقد ورد في النص القرآني مشاركة النبي ﷺ الوجدانية لأصحابه حيث كان يشعر بالمؤمنين ويعزّز عليه عنتهم وما يشقّ عليهم، ويحرص على مصالحهم فيقول تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

ب- صور المشاركة الوجدانية في الدعوة إلى الله

من صور المشاركة الوجدانية ما يلي:

- إظهار مشاعر الرحمة لليتامى، وإيقاظ مشاعر الحنان والعطف في قلوب الأوصياء على اليتامى، يقول تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: 9] وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: 26].

- المواساة، فقد وصى الله تعالى المؤمنين بعد واقعة أحد بقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 139-140].

- والتعزية عند الموت، والتهنئة في الأفراح، وعيادة المريض غيرها من الصور التي حفل بها القرآن الكريم والسنة المطهرة⁽²⁾، فقد دعا النبي ﷺ إلى أن أساس بناء العلاقات وتوطيدها من خلال المشاركة

(1) - أحمد بن علي العامري، الدعوة إلى الله بالمنهج العاطفي في القرآن الكريم والسنة المطهرة، المرجع السابق، ص-ص 94، 96.

(2) - أحمد بن علي العامري، الدعوة إلى الله بالمنهج العاطفي في القرآن الكريم والسنة المطهرة، المرجع السابق، ص-ص 94، 96.

الوجدانية، عن أبي هريرة ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حق المسلم على المسلم خمس، ردُّ السَّلام، وعبادة المريض، وإتباع الجنائز، وإجابة الدَّعوة وتشميت العاطس»⁽¹⁾.

- والتَّحاب الذي دعا إليه النبي ﷺ فقال: «لا تدخلوا الجنة حتَّى تؤمنوا، ولا تؤمنوا^(*) حتَّى تحابُّوا، أولاً أدُّلكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السَّلام بينكم»⁽²⁾.

- والسَّلام هو أحد صور المشاركة الوجدانية فهو تحية ودعاء يقول الدكتور محمود محمَّد الخزندار: (والسَّلام الحقيقي هو الإرتياح القلي المتبادل وما التَّحية إلا مظهراً من مظاهره)⁽³⁾ ويقول الإمام النووي رحمه الله: (والسَّلام أوَّل أسباب التَّآلف ومفتاح إستجلاب المودَّة مع ما فيه من رياضة النَّفس ولزوم التَّواضع، وفيه لطيفة أخرى وهي أنَّه يتضمَّن رفع التَّقاطع والتَّهاجر والشَّحناء وفساد ذات البين التي الحالقة)⁽⁴⁾ وعليه فالمشاركة الوجدانية من الأسس التي تسعى في بناء العلاقات الطَّيبة مع المدعو، لأنَّها تعطي الصُّورة الصَّادقة والحقيقيَّة للدَّاعية من خلال حرصه ومتابعته وتفقَّده لأحوال المدعوين.

والإسلام لم يهمل هذا الجانب المهم بل دعا إلى ضرورة التَّراحم: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: 02] كما دعا إلى إيقاظ مثل هذه الوجدانيات وعدم إغفالها لعظم أهمَّيتها في تكافل المجتمع ووحدته وتراحمه، فأورد مشاركة النَّبي ﷺ الوجدانية لأصحابه حيث كان يشعر بالمؤمنين ويعزِّز عليه عنتهم وما يشقُّ عليهم ويحرص على مصالحهم فيقول تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التَّوبة: 128] وحثَّ على ضرورة تفعيل هذه الخاصَّية وأمر بها من خلال الحرص على إقامة روابط المحبَّة وتوطيد العلاقة بين النَّاس وبالأحرى بين الدَّاعية والمدعو، فأمر ببعض الحقوق التي وردت في حديث أبا هريرة ؓ أن قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ: ردُّ السَّلام وعبادته

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السَّلام، باب من حقَّ المسلم للمسلم ردُّ السَّلام، 2162، ص 1704.

(*) - لا تؤمنوا: بحذف النون من آخره، وهي لغة معروفة صحيحة، وأمَّا معنى الحديث فقوله ﷺ: «لا تؤمنوا حتَّى تحابُّوا» معناه لا يكمل إيمانكم ولا يصلح حالكم في الإيمان إلَّا بالتَّحاب (صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلَّا المؤمنون، رقم الحديث 54، ص 73).

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلَّا المؤمنون، رقم الحديث 54، ص 73.

(3) - محمود محمَّد الخزندار، هذه أخلاقنا (الرَّياض: دار طيبة، ط 5، 1420هـ)، ص 206.

(4) - النووي، شرح النووي على مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلَّا المؤمنون، رقم الحديث 54، ج 2، ص

المريضِ واتبَعَ الجنائزَ وإجابةُ الدَّعوةِ وتشميتُ العاطسِ»⁽¹⁾ يقول الإمام النووي رحمه الله: (والسلام أول أسباب التآلف ومفتاح إستجلاب المودّة مع ما فيه من رياضة النفس ولزوم التّواضع، وفيه لطيفة أخرى وهي أنّه يتضمّن رفع التّقاطع والتّهajer والشّحناء وفساد ذات البين التي هي الحالقة)⁽²⁾.

ج- مواقف المشاركة الوجدانية في دعوة النبي ﷺ

إستخدم النبي ﷺ هذه الخاصية في دعوته مع مختلف الفئات بما فيهم الصّغار والكبار والأيتام والمرضى والنساء والضّعفاء والشيوخ ونحوهم، وذلك لحاجتهم إلى معاني الرّحمة والعطف والشفقة والحنان، ومن النّماذج التي شملتهم مشاركته النبي ﷺ الوجدانية :

- **الأطفال:** حيث كان إذا دخل في الصّلاة فسمع بكاء الصّبيّ، أسرع في أدائها وخفّفها، عن أبي قتادة ؓ عن النبي ﷺ أنّه قال: «إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها، فأسمع بكاء الصّبي، فأجوز في صلاتي، كراهية أن أشقّ على أمّه»⁽³⁾.

- كما شمل إهتمامه لأمر الضّعفاء والخدم فأوصى بهم فقال عنهم: «هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»⁽⁴⁾ فكان ؓ يأتي الضّعفاء المسلمين ويزورهم ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم، وكان يتّخذ من هذه الصور وسيلة لتبليغ الحقّ للنّاس ودعوتهم للإيمان عن أنس بن مالك ؓ قال: «كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعبده فقعد عند رأسه فقال له: أسلم، فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم ؓ فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: الحمد لله الذي أنقذه من النّار»⁽⁵⁾ فعيادة المريض تعدّ أحد المشاركات الوجدانية التي جسّدها النبي ﷺ في دعوته، لأنّ فيها مواساة المريض في أحزانه وهمومه وبلائه، فكان أثره بليغاً في نفس اليهودي وعاطفته، ممّا نتج عنه أثر الطّاعة لرسول الله ﷺ.

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السّلام، باب من حقّ المسلم على المسلم ردّ السّلام، حديث رقم 2162، ص 1034.

(2) - النووي، شرح التّووي على صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أنّه لا يدخل الجنّة إلّا المؤمنون، رقم الحديث 54، ج 2، المرجع السّابق، ص 228.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أبواب صلاة الجماعة والإمامة، باب من أخف الصّلاة عند بكاء الصّبي، رقم الحديث 707، ص 93.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العتق، باب قول النبي ﷺ: «العبيد إخوانكم فأطعموهم مما تأكلون»، رقم الحديث 2545، ص 617.

(5) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصّبي، رقم الحديث 1356، ص 327.

- ولعلَّ أبرز مواقفه مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار فكان لكلِّ رجلٍ من الأنصار أخ من المهاجرين، فأخى بينهم النبي ﷺ على المواساة والتعاون والتآخي، وكان ذلك بعد الهجرة بقليل⁽¹⁾ وآخ بين أصحابه حين نزلوا المدينة ليذهب عنهم وحشة الغربة ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ويشدُّ أزر بعضهم ببعض، فلمَّا عزَّ الإسلام واجتمع الشَّمْل وذهبت الوحشة أنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 75] يقول الإمام الحافظ ابن حجر رحمه الله: (وقد شُرِّعت هذه المؤاخاة لإرفاق بعضهم بعضًا ولتأليف قلوب بعضهم على بعض، فكانوا يتوارثون بهذه الأخوة دون القرابة إلى حين وقعة بدر)⁽²⁾ فكان أوَّل عملٍ قام به النبي ﷺ بناء المسجد لتشريع نظام المؤاخاة، وهي رابطة تجمع بين المهاجريِّ والأنصاريِّ، أُقيمت على أساس العقيدة، وتوثيق مشاعر الحبِّ والمودة، والنُّصرة والحماية، والمواساة بالمال والمتاع، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: 75] وصار التَّوارث بالقرابة والرحم وليس بعقد المؤاخاة، فقام الأنصار بحقِّ هذه المؤاخاة خير قيام، فقد واسوا المهاجرين بأموالهم وطبقة نفوسهم بذلك، فكان من مآثرهم ما جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قدم علينا عبد الرحمن بن عوف وأخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الزبيع، وكان كثير المال فقال سعد: إني أكثر الأنصار مالاً، فأقسم لك نصف مالي، وانظر أيَّ زوجتي هويتَ نزلتُ لك عنها، فإذا حلَّت، تزوّجتها، قال: فقال له عبد الرحمن: لا حاجة لي في ذلك هل من سوقٍ فيه تجارة؟ قال: سوقٌ قَيْنَع، قال: فعدا إليه عبد الرحمن، فأتى بأقِطٍ وسمْنٍ، قال: ثُمَّ تَابَعَ الْعُدُوَّ، فما لبثَ أنْ جاء عبدُ الرَّحْمَنِ عليه أثرُ صُفْرَةٍ، فقال رسولُ الله ﷺ: تَزَوَّجْتَ؟ قال: نعم، قال: ومن؟ قال: امرأةٌ من الأنصار، قال: كم سَقِيتَ؟ قال: زِنَةَ نَوَاةٍ مِنْ دَهَبٍ - أَوْ نَوَاةٍ مِنْ دَهَبٍ -، فقال له النبي ﷺ: أَوْلَمْ وَلَوْ بِشَاةٍ»⁽³⁾ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إنَّ الأنصار قالوا لرسول الله ﷺ: إقسم بيننا وبينهم - أي المهاجرين - النَّخْل فقال ﷺ: لا، فقال الأنصار لإخوانهم المهاجرين: تكفوناً المؤونة - السقي والعمل - وتشركونا في التمر، فقالوا:

(1) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري لصحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب إحياء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، ج7، المرجع السابق، ص112.

(2) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري لصحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب إحياء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، ج7، المرجع السابق، ص112، ويُنظر: عبد الكريم زيدان، المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، ج2، المرجع السابق، ص106.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النِّكاح، باب الوليمة ولو بشاةٍ، رقم الحديث 5167، ص1317.

سمعنا وأطعنا»⁽¹⁾ وكان من أروع ما قام به الأنصار أن عرضوا على النبي ﷺ أن يتولّى قسمة أموالهم بينهم وبين إخوانهم المهاجرين، وقد كانت أموالهم هي النخيل، فأبى عليهم النبي ﷺ وأراد أمرًا تكون فيه المواساة من غير إجحاف بالأنصار، بزوال ملكية أموالهم منهم، فقال الأنصار للمهاجرين تكفونا المؤونة -أي: العمل في النخيل من سقيها وإصلاحها- ونشرككم في الثمرة، فلما قالوا ذلك، رأى النبي ﷺ أن هذا الرأي ضمن سدّ حاجة المهاجرين، مع الإرفاق بالأنصار فأقرهم على ذلك فقالوا جميعًا: سمعنا وأطعنا⁽²⁾، وصارت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تبرز في هذه الأخوة وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال⁽³⁾ ومن باب الإضافة فقد امتثل الصحابة رضي الله عنهم لتوجيهات النبي الكريم ﷺ للمسارعة في الخيرات، والمبادرة بالأعمال الصالحة فأبو بكر الصديق ﷺ خليل رسول الله ﷺ ما وجد طريقًا علم أن فيها خيرًا وأجرًا إلا سلكه ومشى فيه، فحينما وجّه النبي ﷺ إلى أصحابه بعض الأسئلة، كان أبو بكر الصديق هو المحيّب، قال ﷺ: «مَن أصبح منكم اليوم صائمًا؟»، قال أبو بكر ﷺ: أنا، قال: فمَن تبع منكم اليوم جنازة؟، قال أبو بكر ﷺ: أنا، قال: فمَن أطعم منكم اليوم مسكينًا؟، قال أبو بكر ﷺ: أنا، قال: فمَن عاد منكم اليوم مريضًا؟، قال أبو بكر ﷺ: أنا، فقال رسول الله ﷺ: ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة⁽⁴⁾ كان أبو طلحة أكثر أنصاري مالًا وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب قال أنس فلما نزلت هذه الآية: ﴿لَنَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 92] قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الله يقول في كتابه: ﴿لَنَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 92] وإن أحب مالي إليّ بيرحاء، فأثما صدقة لله أرجو برّها ودُخْرها عند الله فضّعها حيث شئت، فقال رسول الله ﷺ: «بخ ذاك مالٌ رابعٌ، بخ ذاك مالٌ رابعٌ، وقد سمعتُ ما قُلتَ فيها وإني أرى أن تجعلها في الأقربين»، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله فقسّمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمّه⁽⁵⁾ إن حياة النبي ﷺ بين أصحابه كانت مفعمة بالمشاركات الوجدانية وقد سار

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المزارعة، باب إذ قال: اكفني مؤونة النخل وغيره وتُشركني في الثمر، رقم الحديث

2325، ص 559

(2) - علي محمد الضلّائي، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، المرجع السابق، ص 318.

(3) - المرجع نفسه، ص 314.

(4) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب من جمع الصدقة وأعمال البر، رقم الحديث 1028، ص 711.

(5) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: ﴿لَنَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، رقم الحديث 4554، 1117.

صحابته على منوالها فآتت أكلها في نشر الدعوة في خيرٍ مُقام وأحسن نديًا بهذا فقط يستطيع كل داعية أن يدعو النَّاس بعاطفة وجدانيةٍ يحقّق بها أهدافاً قد تكون صعبة المنال، فالشّواهد التي تعزّز هذا الأسلوب الوجداني في دعوة النَّبي ﷺ كثيرة لا تعدّ ولا تحصى، وما ذكرته كان على سبيل المثال لا على الحصر، فحريٌّ بالداعية أن يستثمرها في دعوته مقتنياً في ذلك أثر النَّبي ﷺ في منهجه وأسلوبه ومعاملته.

د- الاستفادة من أسلوب المشاركة الوجدانية

في ظلّ ما سبق ذكره من صور ومواقف تعزّز أسلوب المشاركة الوجدانية في دعوة النَّبي ﷺ، حريٌّ بالدعاة وأبناء الأُمَّة المسلمة أن يتدرّبوا على تفعيل هذا الأسلوب في حياتهم الشّخصية والإنسانية ولا سيما الدّعوية، فمن حكمة فريضة الصّوم في المنهج التّربوي الإسلامي أن يعيش الدّاعية حالة الجوع والعطش والإجهاد، فيتذكّر حينها الفقير والمحتاج، ويتصوّر حالته فيرحمه ويواسيه، ومن حكمة الحجّ التجرّد والبساطة حيث تنزل حال الغني إلى حال مساوية أو شبه مساوية لحال الفقير والمعوز في الهيئة والملبس والمكان والحركة، وبهذا يتذكّر ويتصوّر حال غيره من النَّاس الضّعفاء فيواسيهم ويسعى في حاجاتهم⁽¹⁾، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في وصفه للنّبي ﷺ بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

المبحث الثالث: قضاء الحاجات وتأمين الخدمات

إنّ قضاء الحاجات أجرها ونفعها يوافق أجر تأمين الخدمات، والتي تعتبر من أعمال الخير التي لا يهتمُّ لها إلاّ ذوُّ الوشائج الرّحمية، لذا يجب على الدّاعية أن يكون له الحظُّ الأوفر في قضاء حاجة المدعوين وإسداء المعروف لهم، وما دلّ على ذلك النّصوص الشرعية من الكتاب والسنة النبوية التي تدعو إلى البرّ والبذل والعطاء في سبيل الله بكلّ الطّاقات المتاحة قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: 2] وقضاء الحاجات بأنّها واسعٌ يشمل كلّ الأمور الحسّية منها والمعنوية، ففي كلّ مجتمع فيه المحتاج إلى مساعدة أو قضاء حاجاته من مأكلٍ ومشربٍ ومسكنٍ وما إلى ذلك، فإذا... الداعية بها على أكمل وجهٍ يبتغي بها

(1) - عبد العزيز بن محمّد النغمشي، علم النَّفس الدّعوي، المرجع السّابق، ص 300.

وجه الله مؤثراً غيره على نفسه فليستبشر يقول تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9] والإسلام رغب في نفع الناس وقضاء حوائجهم والسعي إلى تفريج كرباتهم، وبذل الشفاعة الحسنة لهم، تحقيقاً لدوام المودة، وبقاء الألفة، وزيادة في روابط الأخوة فيقول تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 114] ويقول تعالى أيضاً: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾ [النساء: 85] ويقول العلامة السعدي رحمه الله: (ليعن بعضكم بعضاً على البر، وهو اسم جامع لكل ما يحبُّه الله ويرضاه، من الأعمال الظاهرة والباطنة، من حقوق الله وحقوق الآدميين)⁽¹⁾ وعلى غرار ما تقدم يعالج هذا المبحث أسلوبين عمليين كان لهما مساحة كبيرة في دعوة النبي ﷺ:

- **المطلب الأول:** أسلوب قضاء الحاجات.

- **المطلب الثاني:** تأمين الخدمات.

المطلب الأول: قضاء الحاجات

أولاً: مفهوم الحاجات

قَبَلُ الحديث في تطبيقاتِ النبي ﷺ لقضاء حاجات الناس، أستهلُّ بداية بتعريفِ هذا الأسلوب من الناحية اللغوية والإصطلاحية وهو كالاتي :

أ- لغة

- يعرفها العلامة عباد بالقول: (اسم مصدر للفعل أحتاج، ويطلق في اللغة على عدّة معاني منها: الغرض والرغبة والمأربة، وتطلق على الإفتقار إلى الشيء كما في تاج العروس، وتطلق الإضطراب إلى الشيء، والحاجة من الحوج أحوجه الله، وأحوج الرجل: إحتاج وجمع الحاجة: الحاج والحوائج والحاجات، والتحوج طلب الحاجة والحاجة هي الإحتياج)⁽²⁾ ويعرفها العلامة الأزهرى بالقول: (بمعنى المأربة والفقير)⁽³⁾ ويعرفها العلامة مرتضى الحسيني بالقول: (الحاجة والحائجة: المأربة قوله تعالى:

(1) - السعدي، تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المتان، تحقيق: عبد الرحمان بن معلا اللويحق، ج1، المرجع السابق، ص 218.

(2) - يُنْظَر: إسماعيل بنُ عباد، المحيط في اللغة، تحقيق: محمد حسن آل ياسين (عالم الكتب، ط1، 1414هـ/1994م)، ص-

ص 142، 143.

(3) - أبو منصور محمد بنُ أحمد الأزهرى، تهذيب اللغة، باب الحاء (الدار المصرية للتأليف والترجمة، ج3، د، ت)، ص 134.

﴿وَلْتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ [غافر: 80] قال ثعلب يعني الأسفار، والحاجة تطلق على الافتقار إلى الشيء⁽¹⁾ جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾ [الحشر: 9] وفي هذا الشأن حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «فأيتكم ما صلى بالناس فليتجوّز، فإن فيهم المريض والكبير وذا الحاجة»⁽²⁾ وعن السعيد بن جبير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أراد الحجَّ فليعجل، فإنه قد يمرض المريض وتُضِلُّ الرَّاحِلَةُ، وتُعْرِضُ الْحَاجَةُ»⁽³⁾.

ب- اصطلاحاً

عرّفها الدعاة والأصوليون بعدّة تعريفات منها :

- يعرفها الإمام الشاطبي رحمه الله بالقول: (الحاجيات معناها أنّها مفتقر إليها من حيث التوسعة ورفع الضيق المؤدّي في الغالب إلى الحرج والمشقة اللاّحقة لفوت المطلوب، فإذا لم تراعى دخل على المكلفين الحرج والمشقة ولكنه لا يبلغ الفساد المتوقع في المصالح العامة)⁽⁴⁾ ويعرفها الدكتور مصطفى الزرقا بالقول: (الحاجة هي ما يترتب على عدم الإستجابة إليها عسر وصعوبة)⁽⁵⁾ وفي تعريف آخر لها: (هي التي يفتر إليها الفرد بعينه أو أفراد محصورون أو طائفة معينة أو فئة مخصوصة، وتتّوَع هذه الحاجة باعتبار عموم النَّاس وخصوصهم إلى الحاجة العامّة أو الخاصّة)⁽⁶⁾.

- وفي الدّراسات النَّفسية عرّفت الحاجة: (بأنّها كلّ حالة من النقص والافتقار أو الإضطراب الجسمي أو النَّفسي إنّ لم تلق إشباعاً أثارت لدى الفرد نوعاً من التوتّر والضيّق، لا يلبث أن يزول متى قضيت

(1) - محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مصطفى حجازي، باب الحاء (مطبعة حكومة الكويت، ج5، 1389هـ/1969م)، ص 495.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الآذان، باب تخفيف الإمام في القيام وإتمام الرّكوع والسّجود، رقم الحديث 702، ص 175.

(3) - أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب المناسك، باب الخروج إلى الحجّ، رقم الحديث 2883 (مطبعة دار إحياء الكتب، ج1، د، ت)، ص 962.

(4) - الشّاطبي، الموافقات (المملكة العربية السّعودية: دار بن عفان، ط1، ج2، 1417هـ/1997م) ص-ص 10، 11.

(5) - أحمد تيجاني هارون عبد الكريم، أثر الضّرورة والحاجة وعموم البلوى، مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا، المؤتمر السنوي الخامس، البحرين، 1428هـ/2007م، ص 6.

(6) - وليد صلاح الدين الزير، بحث ضوابط الحاجة التي تنزل منزلة الضّرورة وتطبيقاتها على الاجتهادات المعاصرة، جامعة دمشق، كلفة دمشق، مجلّة جامعة دمشق للعلوم الإقتصادية والقانونية، مج 26، العدد 1، 2010م، ص 678.

الحاجة، أي: متى زال النقص أو الإضطراب واستعاد الفرد توازنه⁽¹⁾ فكان الغرضُ لتعريفِ الحاجة لتقريبِ مفهومها لدى القارئ وبيان علاقتها بالموضوع، فهي بمثابة النشاط الإنساني الذي يمارسه الداعية في حياته الاجتماعية والدعوية تضامناً مع العديد من حالات الإحتياج والعوز والعجز، ممن تشملهم المعونة والمساعدة سواء أكانت قولية أم فعلية أم ضمنية، وتكون عن طريق البذل والعطاء والكرم والسَّخاء، وبهدف رفع الضيق والحرج ومساعدة الناس والتيسير عليه، وبناءً على ما سبق بيان لمفهوم الحاجة كان من الواجب التعرف على معنى أسلوب قضاء الحاجات نوره كآتي :

أما قضاء الحاجات فقد:

- عرّفها الباحث حامد بن أحمد بن علي العامري بالقول: (قضاء الحاجات تعني الإحسان إلى ذوي المعروف لهم ونصرتهم إذا احتاجوا، ومساعدتهم لتجاوز محتهم ليعيشوا حياة كريمة)⁽²⁾.
- وعبر عنها الدكتور مصطفى البغا بالقول: (كرب الدنيا عديدة وطرق تنفيسها متنوّعة وأنّ الحياة مألّ بالمتاعب و الأكدار وكثيراً ما يتعرض المسلم لما يوقعه في غمّ وضيق وضنك مما يتوجب على المسلمين أن يخلصوه منه)⁽³⁾ وذكر العامري في تعريف آخر له بالقول: (قضاء الحاجات هي طريقة تبليغ الحق ونشر الدعوة عبر المنافع الفردية التي تبذل لسدّ خلّة أهل العوز والحاجة، مثل المساعدات المالية، والشفاعة الحسنة، والنصرة ... وغير ذلك)⁽⁴⁾ ويعرّفها العلامة السَّعدي رحمه الله بالقول: (ليعن بعضكم بعضاً على البرّ، وهو إسم جامع لكلّ ما يحبه الله و يرضاه، من الأعمال الظاهرة والباطنة، من حقوق الله وحقوق الآدميين)⁽⁵⁾ ومن الملاحظ أنّ قضاء الحوائج خير العبادات التي يتعدّى نفعها إلى الغير، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسرّ، يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً، ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد، ما كان العبد في عون

(1) - أحمد عزت راجح، أصول علم النفس (الإسكندرية: المكتب المصري، ط9، 1973م)، ص 172.

(2) - حامد بن أحمد بن علي العامري، المنهج العاطفي في القرآن الكريم والسنة المطهّرة، المرجع السابق، ص 216.

(3) - مصطفى البغا وآخرون، الوافي في شرح الأربعين النووية (دمشق: دار المصطفى للطباعة والنشر، ط2، 1431هـ/2010م)، ص- ص 284، 296.

(4) - المرجع نفسه، ص 75.

(5) - السَّعدي، تيسير الكريم الرّحمان في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرّحمان بن معلا اللّويحي، ج1، المرجع السابق، ص

أخيه»⁽¹⁾، ويقول ﷺ: «مَنْ سَتَرَ مسلماً سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»⁽²⁾ يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: (أَيُّ رَأَى عَلَى قَبِيحٍ فَلَمْ يَظْهَرْهُ أَيُّ عَلَى النَّاسِ)⁽³⁾ فالسَّعْيُ لخدمةِ الدَّعوةِ مِنْ هَذَا الْجَانِبِ خَيْرٌ مِنْ نَوَافِلِ الْعِبَادَةِ، وَهِيَ مِنْ أَسْبَابِ دَوَامِ النِّعَمِ عَلَى صَاحِبِهَا دَعَا إِلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ وَبَيَّنَّ عَظَمَ الثَّوَابِ وَالْأَجْرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فيقول: «مَنْ مَشَى فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ خَيْرًا لَهُ مِنْ إِعْتِكَافٍ عَشْرَ سَنِينَ، وَمَنْ إِعْتَكَفَ يَوْمًا إِبْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ جَعَلَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ ثَلَاثَةَ خَنَادِقَ كُلِّ خَنَادِقٍ أَعْبَدَ مِمَّا بَيْنَ الْخَافِقِينَ»⁽⁴⁾ وَبَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ نَفْعَ النَّاسِ مِنْ أَعْظَمِ الْأَعْمَالِ وَالْقُرْبَاتِ، عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا جَاءَهُ السَّائِلُ أَوْ طُلِبَتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ قَالَ: اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا وَيَقْضِيَ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ مَا شَاءَ»⁽⁵⁾ لذلك تتنوع قضاء الحاجات بتنوع حاجات الناس والتي لا يمكن حصرها باعتبارها مطلوبة شرعاً، وشواهد ذلك في القرآن الكريم كثيرة نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿فَاسْتَيْقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: 148] وقوله أيضاً: ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: 77] وقوله تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 92] فدعا القرآن الكريم إلى ضرورة قضاء حوائج الناس كواجب شرعي جاء دليلاً في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ وَلِلَّذِينَ وَاللَّذِينَ أَلْفَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: 215] وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ﴾ [الحج: 28] وعليه يلحظ أن الدعوة إلى الله لا تنحصر في التبليغ بالقول فقط، بل إن التعاون المثمر والتكافل الاجتماعي وتأمين المنشآت الخيرية، وتقديم الخدمات الاجتماعية والإنسانية تعدُّ هي الأخرى دعوة في سبيل الله في إطارها العملي، والدَّاعية إلى الله مطالب في حقِّ دعوته أن يجود بالمال والجهد من غير كللٍ أو مللٍ، متجنباً في ذلك مصالحه الشخصية لغرض الثناء والمدح من الناس، فإنَّ ذلك يتنافى

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والتوبة والإستغفار، باب الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، حديث 2699، ص 1242.

(2) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري لشرح صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، رقم الحديث 2368، ج 5، المرجع السابق، ص 116.

(3) - المرجع نفسه، ص 386.

(4) - إسنُّ السُّبُكِيِّ وَالثَّيْلِيِّ، تخريج أحاديث إحياء علوم الدِّين (الرِّيَاض: دار العاصمة للنَّشر، د، ط، ج 3، 1408هـ/ 1987م)، ص 1212.

(5) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم ببعض، رقم الحديث 6028، ص 1511.

غرضه الخيري الخالص، فينبغي أن يأخذ هذا الواجب نصب عينيه ويستثمره مع الفئة المحرومة والمعوزة، إمتثالاً لأمر الله وما يستوجب عليه في ظلّ دعوته.

وعليه إستناداً لما سبق من مفاهيم وأدلة، نطلق على أسلوب قضاء الحاجات بمسمّيات عدّة كأن نقول على سبيل المثال: الإستباق إلى الخيرات، البذل والعطاء، والكرم والسّخاء، والسّعي لخدمة الآخرين، وإغاثة الملهوف، والتّعاون على الخير، وإصطناع المعروف أو إسداء المعروف سواء من الجانب المادي أو المعنوي وذلك أضعف الإيمان، ... وغير ذلك كثير.

ثانياً: صور أسلوب قضاء الحاجات في دعوة النبي ﷺ

تبين لي سابقاً أن هذا الأسلوب من أنفع الأساليب وأعمقها أثراً في القلوب، لأنّها بمثابة الرّباط الوثيق بين الدّاعية والمدعويين، يتجلّى بوضوح في الجانب التّكافلي والتّعاوني، وهو من الصّفات الأخلاقية والعملية التي إتّصف بها النبي ﷺ قبل البعثة وبعدها، فكان ﷺ قبل البعثة كما وصفته أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها: «كلاً أبشر، فو الله لا يخزيك الله أبداً، والله إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق»⁽¹⁾ وبَعْدَ البعثة كان أوّل كلامه عند قدومه للمدينة ما رواه أبو يوسف عبد الله بن سلام ﷺ قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة أنجفل النّاس قبّله، وقيل: قدّ قدم رسول الله ﷺ -ثلاثاً- فجئت في النّاس لأنظر، فلمّا تبينّت وجهه عرفت أنّ وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أوّل شيء سمعته تكلم به أن وقال: «يا أيّها النّاس: أفسحوا السّلام، وأطعموا الطّعام، وصلّوا الأرحام، وصلّوا بالليل والنّاس نيام تدخلوا الجنّة بسلام»⁽²⁾ وقال ﷺ: «أتق الله ولا تحقرنّ من المعروف شيئاً، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن أخاك ووجهك إليه منبسطة»⁽³⁾ والقارئ للسّيرة النبوية يرى كيف كان النبي ﷺ يعود من مرض من أصحابه، ويتّبع جنازة من مات منهم، وإذا افتقد أحدهم في صلاة الصّبح سأل عنه، ومن كان منهم في حاجة إلى المال ساعده بماله، وحثّ الصّحابة على مساعدته، وهكذا كان ﷺ حريصاً على المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وعلى إفشاء روح الحبّ والتّعاون والإحترام فيما بينهم.

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم الحديث 252، ج2، ص 84.

(2) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب منه، ج4، ص 550. وصحّحه الترمذي والحاكم ووافقه الذهبي، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب إقامة الصّلاة والسنة فيها، باب ما جاء في قيام الليل، رقم الحديث 1334، ج1، ص 423.

(3) - رواه أحمد من حديث أبي جري الهجيمي، وذكره الألباني في صحيح الجامع، وفي السلسلة الصحيحة، 337/3، وحكم عليه بالصّحة.

فكان من صور هذا الأسلوب في دعوة النبي ﷺ هي كالاتي :

أ- إعانة الملهوف والضَّعفاء من النَّاس

لَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ تَضَاعَفَتْ إِهْتِمَامَاتُهُ، فَكَانَ مِنْ هَدْيِهِ الدَّعْوَةُ إِلَى إِعَانَةِ الْمَحْتَاجِ وَالْمَلْهُوفِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ، فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: يَعْمَلُ بِيَدِهِ، فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ، وَلْيُمْسِكْ عَنِ الشَّرِّ، فَإِنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ»⁽¹⁾ يَقُولُ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعْلِيْقًا عَلَى قَوْلِهِمْ: (يَا نَبِيَّ اللَّهِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ذَكَرَ بِأَنَّهُمْ فَهَمُوا أَنَّ لَفْظَ الصَّدَقَةِ الْعَطِيَّةَ فَيَسْأَلُوا عَنْهُ لَيْسَ عِنْدَهُ شَيْءٌ، فَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ الْمُرَادَ بِالصَّدَقَةِ مَا هُوَ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ وَلَوْ بِإِغَاثَةِ الْمَلْهُوفِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَقَالَ: مَنْ أَمَكَّنَهُ أَنْ يَعْمَلَ بِيَدِهِ فَيَتَصَدَّقَ، وَأَنْ يَغِيثَ الْمَلْهُوفَ وَيَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُمْسِكْ عَنِ الشَّرِّ فَيَفْعَلِ الْجَمِيعَ، وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ أَعْمَالَ الْخَيْرِ وَإِغَاثَةَ الْمَلْهُوفِ تَنْزِلُ مَنْزِلَةَ الصَّدَقَاتِ فِي الْأَجْرِ وَلَا سِيَمَا فِي حَقِّ مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ)⁽²⁾ فَكَانَ مِنْ أَرْوَعٍ مَا تَمَيَّزَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أُعْطِيَ كَانَ أَجُودَ النَّاسِ، وَإِذَا شَعَرَ كَانَ أَرْقَى النَّاسِ عَلَى النَّاسِ، يَرْفُقُ بِالضَّعِيفِ وَيُعِينُ الْعَاجِزَ، وَيُوَاسِي الْمَصَابِ، وَيَجِدُّ فِي الْخِدْمَةِ، وَيُلَازِمُ الصَّدَقَ وَالْإِحْلَاصَ، وَالتَّوَاضُّعَ وَاللِّينَ، وَيَرْغَبُ فِي قَضَاءِ الْحَوَائِجِ وَمُسَاعَدَةِ الْآخَرِينَ، فَكَانَ أَحَبُّ الْأَعْمَالِ عِنْدَهُ - ﷺ - إِعَانَةُ النَّاسِ عَلَى نَوَائِبِ الدَّهْرِ عَنْ ابْنِ عُمرَ رضي الله عنهما: «أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟، وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى سُرُورُ تَدْخُلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كَرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدَ عَنْهُ جُوعًا، وَلَأنَّ أَمْشِيَّ مَعَ أَخٍ فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ - مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ - شَهْرًا، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَمْضِيَهُ أَمْضَاهُ مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ رَجَاءَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يَثْبِتَهَا لَهُ، أَثَبَّتَ اللَّهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزُّكَاة، باب على كلِّ مسلم صدقة، رقم الحديث 1445، ص 351. وفي كتاب الأدب، باب كلِّ معروف صدقة، رقم الحديث 6022، ص 1510.

(2) - ابنُ حجر العسقلاني، فتح الباري لصحيح البخاري، كتاب الزُّكَاة، باب على كلِّ مسلم صدقة فمن لم يجد فليعمل بالمعروف، رقم الحديث 1445، ج 3، المرجع السابق، ص 308.

الأقدام»⁽¹⁾ وكان ﷺ كما وصفته زوجته أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها: «إِنَّكَ تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ»^(*) وتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ^(*) وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ»⁽²⁾ وعندما أقبل الإراشي على نادٍ من قريش، ورسول الله ﷺ في ناحية المسجد جالس، فقال: «يا معشر قريش، مَنْ رَجُلٌ يُؤَدِّبُنِي عَلَى أَبِي الْحَكَمِ بْنِ هِشَامٍ، فَإِنِّي رَجُلٌ غَرِيبٌ، ابْنُ سَبِيلٍ، وَقَدْ غَلَبَنِي عَلَى حَقِّي؟ قَالَ: فَقَالَ لَهُ أَهْلُ ذَلِكَ الْمَجْلِسِ: أَتَرَى ذَلِكَ الرَّجُلَ الْجَالِسَ - لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُمْ يَهْزُؤُونَ بِهِ؛ لَمَا يَعْلَمُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي جَهْلٍ مِنَ الْعَدَاوَةِ إِذْ هَبَ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ يُؤَدِّبُكَ عَلَيْهِ، فَأَقْبَلَ الْإِرَاشِيَّ حَتَّى وَقَفَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، إِنَّ أَبَا الْحَكَمِ بْنِ هِشَامٍ قَدْ غَلَبَنِي عَلَى حَقِّ لِي قَبْلَهُ، وَأَنَا رَجُلٌ غَرِيبٌ، ابْنُ سَبِيلٍ، وَقَدْ سَأَلْتُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ عَنْ رَجُلٍ يُؤَدِّبُنِي عَلَيْهِ، يَأْخُذُ لِي حَقِّي مِنْهُ، فَأَشَارُوا لِي إِلَيْكَ، فَخُذْ لِي حَقِّي مِنْهُ، يَرْحِمَكَ اللَّهُ. قَالَ: انْطَلِقْ إِلَيْهِ. وَقَامَ مَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَلَمَّا رَأَوْهُ قَامَ مَعَهُ، قَالُوا لِرَجُلٍ مِمَّنْ مَعَهُمْ: اتَّبِعْهُ، فَانْظُرْ مَاذَا يَصْنَعُ، قَالَ: وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى جَاءَهُ، فَضْرَبَ عَلَيْهِ بَابَهُ، فَقَالَ: مِنْ هَذَا؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، فَخَرَجَ إِلَيَّ. فَخَرَجَ إِلَيْهِ، وَمَا فِي وَجْهِهِ مِنْ رَائِحَةٍ، قَدْ انْتَقَعَ لَوْنُهُ، فَقَالَ: أَعْطَى هَذَا الرَّجُلَ حَقَّهُ. قَالَ: نَعَمْ، لَا تَبْرَحْ حَتَّى أُعْطِيَهُ الَّذِي لَهُ. قَالَ: فَدَخَلَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ بِحَقِّهِ، فَدَفَعَهُ إِلَيْهِ. قَالَ: ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ لِلْإِرَاشِيَّ: الْحَقُّ بِشَأْنِكَ. فَأَقْبَلَ الْإِرَاشِيَّ حَتَّى وَقَفَ عَلَى ذَلِكَ الْمَجْلِسِ، فَقَالَ: جَزَاهُ اللَّهُ خَيْرًا، فَقَدْ وَاللَّهِ أَخَذَ لِي حَقِّي. قَالَ: وَجَاءَ الرَّجُلُ الَّذِي بَعَثُوا مَعَهُ، فَقَالُوا: وَيْحَكَ! مَاذَا رَأَيْتَ؟ قَالَ: عَجَبًا مِنَ الْعَجَبِ، وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ ضَرَبَ عَلَيْهِ بَابَهُ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ وَمَا مَعَهُ رُوحُهُ، فَقَالَ

(1) - أبو الحسن الشَّيْخُ، تراجعات الألباني (الرَّيَاضُ: دَارُ الْمَعَارِفِ، ج 1، د، ت)، ص 31، هَذَا الْحَدِيثُ جَاءَ بِإِسْنَادٍ خَيْرٍ مِنْ هَذَا فَرَوَاهُ إِبْنُ أَبِي الدُّنْيَا، فِي قِصَصِ الْحَوَائِجِ، بِرَقْمٍ 36، ص 38، وَفِي ضَعِيفِ الْجَامِعِ، بِرَقْمٍ 5824 وَصَحِيحِ الْجَامِعِ بِرَقْمٍ 1766، وَفِي نَهَايَةِ تَخْرِيجِ الْحَدِيثِ فِي الضَّعِيفَةِ، رَقْمٌ 4647، وَأَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، 139/6، بِرَقْمٍ 6026، وَفِي الْكَبِيرِ، 453/1، بِرَقْمٍ 13646، وَفِي الصَّغِيرِ، بِرَقْمٍ 861، 106/2، وَفِي صَحِيحِ الْجَامِعِ، بِرَقْمٍ 176، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ.

(*) - تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ: بِمَعْنَى فَمَنْ تَكْسَبُ غَيْرَكَ الْمَالَ الْمَعْدُومَ، أَيُّ: تَعْطِيهِ إِيَّاهُ تَبَرُّعًا، وَقِيلَ مَعْنَاهُ: تَعْطِي النَّاسَ مَا لَا يَجِدُونَهُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ نَفَائِسِ الْفَوَائِدِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ (صَحِيحُ مُسْلِمٍ، كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ بَدَأِ الْوَحْيِ، رَقْمُ الْحَدِيثِ 252، ص 141).

(*) - تَحْمِلُ الْكَلَّ: الْكَلَّ أَصْلُهُ التَّقَلُّ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ [النَّحْلُ: 76] وَيَدْخُلُ فِي حَمْلِ الْكَلِّ الْإِنْفَاقُ عَلَى الضَّعِيفِ وَالْيَتِيمِ وَالْعِيَالِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَهُوَ مِنَ الْكِلَالِ وَهُوَ الْإِعْيَاءُ (صَحِيحُ مُسْلِمٍ، كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ بَدَأِ الْوَحْيِ، رَقْمُ الْحَدِيثِ 252، ص 141).

(2) - أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، كِتَابُ مَنَاقِبِ الْأَنْصَارِ، بَابُ هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، رَقْمُ الْحَدِيثِ 3905، ص 956. وَفِي كِتَابِ الْكِفَالَةِ، بَابُ جَوَارِ أَبِي بَكْرٍ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَقْدِهِ، رَقْمُ الْحَدِيثِ 2297، ص 550.

له: أعط هذا حقّه، فقال: نعم، لا تبرح حتى أخرج إليه حقّه، فدخل فخرج إليه بحقّه، فأعطاه إياه، قال: ثمّ لم يلبث أبو جهل أن جاء، فقالوا له: ويلك! ما لك؟ والله ما رأينا مثل ما صنعت قط! قال: ويحكم، والله ما هو إلا أن ضرب عليّ بابي، وسمعت صوته، فملت رعباً، ثم خرجت إليه، وإنّ فوق رأسه لفحلاً من الإبل، ما رأيت مثل هامته، ولا قصّرتّه، ولا أنيابه لفحلٍ قط، والله لو أبّيت لأكلني⁽¹⁾ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «والله الذي لا إله إلا هو، إنّ كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشدّ الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه، فمرّ النبي ﷺ فتبسّم حين رأي، وعرف ما في وجهي وما في نفسي، ثمّ قال: أباهرّ، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: الحق ومضى، فاتّبعتُهُ، فدخل فاستأذن، فأذن لي فدخلت، فوجد لبناً في قدح فقال: من أين هذا اللبن؟ قالوا: أهده لك فلان أو فلانة قال: أبا هرّ، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: الحق إلى أهل الصّفة فادعهم لي، قال: وأهل الصّفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل، ولا مال، ولا على أحد، وكان إذا أتته صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هديّة أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها، فسأني ذلك فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصّفة؟ كنت أحمق أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها، فإذا جاءوا أمرني، فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بدّ، فأتيتهم فدعوئهم، فأقبلوا واستأذنوا، فأذن لهم وأخذوا بحالسهُم من البيت قال: يا أبا هرّ، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: خذ فأعطهم قال: فأخذت القدح فجعلت أعطيهِ الرّجل فيشرب حتى يروى، ثمّ يرُد عليّ القدح، فأعطيه الآخر فيشرب حتى يروى، ثمّ يرُد عليّ القدح، حتى انتهيت إلى النبي ﷺ، وقد روي القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده، فنظر إليّ فتبسّم، فقال: أبا هرّ قلت: لبيك يا رسول الله قال: بقيت أنا وأنت قلت صدقت يا رسول الله، قال: افعد فاشرب فقعدت فشربت: فقال: اشرب، فشربت، فما زال يقول: اشرب حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكاً، قال: فأرني فأعطيتُهُ القدح، فحمد الله تعالى، وسمّى وشرب الفضلة⁽²⁾ فالدّاعية مطالب بقدر ما يملك من البذل والجهد أن يُقدّم على قضاء حوائج النّاس مادياً كان أم معنوياً، سواء بالمشاركة أو الحثّ عليها، فيعين على نشر أواصر الرّحمة وتمكين خلق التّكافل بين النّاس والقضاء على نوائب الفقر والعالَة

(1) - إبن كثير، البداية والنهاية (بيروت: مكتبة المعارف، ج3، 1412هـ/1991م)، ص 45.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرّقائق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم عن الدّنيا، رقم الحديث

والعجز، ليعترف بجميل صنيعه وعمله الخيري والمجهودات المقدمة في رعايته لذوي الاحتياجات من مختلف أصنافهم، فيلقى الاستجابة والإحترام المتبادل إن شاء الله، يقول النبي ﷺ مبيِّناً فضائل جهده: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته»⁽¹⁾ ويوضح الإمام ابن حزم رحمه الله معلقاً: (يفرض على أغنياء في بلد أن يقوموا بحاجة فقرائهم العاجزين عن العمل أو الذين لا يجدون عملاً، ويجبرهم السلطان على ذلك، إن لم تقم الزكاة بهم، ولم يكن في بيت مال المسلمين فضل يكفيهم).⁽²⁾ واستدل بما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان عنده طعام إثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس أو كما قال»⁽³⁾ وقد ورد من قصص المحتاجين من صحبة رسول الله ﷺ ما رواه مسلم عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصَّامت قال: «خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هذا الحي من الأنصار قبل أن يهلكوا فكان أول من لقينا أبا اليسر^(*) صاحب رسول الله ﷺ ومعه غلام له معه ضمانة^(*) من صُحُفٍ وعلى أبي اليسر بُرْدَةٌ وَمَعَاوِي^(*)، فقال له أبي: يا عَمَّ إِنِّي أرى في وجهك سَفْعَةٌ^(*) من غضبٍ، قال: أجل كان لي على فلان بن فلان الحرامِي مالٌ فأتيتُ أهله فسَلَّمْتُ فقلتُ ثم هو؟

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم أخاه المسلم ولا يسلمه، رقم الحديث 2442، ص 591.

(2) - أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبي، المحلى بالآثار، المسألة 725 (بيروت: دار الفكر، د، ط، ج 2، د، ت)، ص 157.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم الحديث 3581، ص 882.

(*) - أبا اليسر: اسمه كعب بن عمرو، شهد العقبة وبدراً، وهو ابنُ عشرين سنة، وهو آخر من توفّي من أهل بدر، رضي الله عنهم، توفّي بالمدينة سنة خمس وخمسين (صحيح مسلم، كتاب الزُّهد والرِّقَاق، باب حديث جابر الطَّويل، وقصة أبي اليسر، رقم الحديث 3006، ص 2301).

(*) - ضمانة من صحف: بكسر الضاد، أي: رزمة يضم بعضها إلى بعض، هكذا وقع في جميع نسخ مسلم: ضمانة، وكذا نقله القاضي عن جميع النسخ، وقال القاضي: صوابه إضمامه، بكسر الهمزة قبل الضاد، وقال القاضي: ولا يبعد عندي صحة ما جاءت به الرواية هنا، كما قالوا: صبارة، وإضبارة لجماعة الكتب، ولغافة لما يلف فيه الشيء، وذكر صاحب نهاية الغريب أنَّ الإضمامة لغة في الإضمامة، والمشهور في اللغة: إضمامة الألف (صحيح مسلم، كتاب الزُّهد والرِّقَاق، باب حديث جابر الطَّويل، وقصة أبي اليسر، رقم الحديث 3006، ص 2301).

(*) - معافري: نوع من الثياب، يعمل بقرية تسمى معافر، وقيل هي نسبة إلى قبيلة نزلت تلك القرية، والميم فيه زائدة (صحيح مسلم، كتاب الزُّهد والرِّقَاق، باب حديث جابر الطَّويل، وقصة أبي اليسر، رقم الحديث 3006، ص 2301).

(*) - سفعة من غضب: هي بفتح السين المهملة وضمها: لغتان، علامة وتغيّر (المصدر نفسه، 2301).

قالوا: لا، فخرج عليّ بنٌ له جَفَرٌ^(*) فقلت له: أين أبوك؟ قال: سمع صوتك فدخل أريكة أمي، فقلت: أخرج إليّ فقد علمتُ أين أنت، فخرج، فقلت: ما حملك على أن إحتبأت مِنِّي، قال: أنا والله أُحَدِّثُكَ ثم لا أُكْذِبُكَ، خشيت والله أن أُحَدِّثَكَ فَأُكْذِبَكَ، وأن أَعِدَّكَ فَأُخْلِفَكَ، وكنت صاحب رسول الله ﷺ وكنت والله مُعْسِراً، قال: قلت: آله، قال: الله قُلْتُنَ آله قال، الله قُلْتُ، آله قال، الله قال، فأُتِيَ بصحيفته فمحاها بيده فقال: إن وجدت قضاءً فاقضني وإلا أنت في حلٍّ فأشْهَدُ بِصَرَ عَيْنِي هَاتَيْنِ ووضع إصبعيه على عَيْنَيْهِ وسمِعَ أَذْيَ هَاتِي، ووعاه قلبي هذا - وأشار إلى مناطِ قلبه - رسول الله ﷺ وهو يقول: من أَنْظَرَ مُعْسِراً أو وَضَعَ عَنْهُ أَظْلَهُ الله في ظِلِّهِ⁽¹⁾.

ب- تفقُّد أصحابه من المرضى والمعوزين

وكان من هديه ﷺ مع أصحابه أنه كان ذا خلقٍ رفيع، كان يسأل عنهم ويتفقدهم ويتواضع معهم ويزور مرضاهم، ويشهد جنائزهم، ويشفق عليهم، يشعر بالأمهم ويسعى في تفرغ همومهم وقضاء حوائجهم، فكان يقوم على حاجة الأرامل والضُعفاء والأيتام عَنْ أَنَسٍ ﷺ قال: «أَنَّ امْرَأَةً كَانَتْ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، فَقَالَ: يَا أُمُّ فُلَانٍ، انْظُرِي أَيَّ السَّكِّكِ شِئْتِ، حَتَّى أَقْضِيَ لَكَ حَاجَتَكَ، فحَلَا معها في بعض الطُّرُق، حَتَّى فَرَّغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا»⁽²⁾ وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي قتادة وفيه في قصَّة نومهم عن صلاة الفجر ...: «قال ودعا بالمِيضَاة فجعل رسول الله ﷺ يصب وأبو قتادة يسقيهم - أي أصحابه - فلم يعد أن رأى الناس ماء في المِيضَاة تكابوا عليها. فقال رسول الله ﷺ: أحسنوا المأكلَ كُلَّكُمْ سيروى، قال: ففعلوا فجعل رسول الله ﷺ يصبُّ وأسقيهم حَتَّى ما بقي غيري وغير رسول الله ﷺ قال: ثم صب رسول الله ﷺ فقال لي: اشرب، فقلت: لا أشرب حَتَّى تشرب يا رسول الله قال: إِنَّ سَاقِي الْقَوْمِ آخِرُهُمْ شَرِبَا. قال: فشربت وشرب رسول الله ﷺ قال: فَأُتِيَ النَّاسُ الْمَاءَ جَامِينَ رَوَاءَ»⁽³⁾ وكان من هديهِ ﷺ السُّؤَالُ عَمَّنْ غَابَ مِنْ أَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهذا كثيرٌ جدًّا في سنَّته ﷺ فعَنْ أَنَسٍ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قال: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِفْتَقَدَ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا أَعْلَمُ لَكَ عِلْمَهُ، فَأَتَاهُ فَوَجَدَهُ جَالِسًا فِي

(*) - الجفَر: هو الذي قارب البلوغ، وقيل: هو الذي قوى على الأكل، وقيل: ابنُ خمس سنين (المصدر نفسه، ص 2301).

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرِّقَاق والرُّهْد، باب حديث جابر الطَّوِيل وقصَّة أبي اليسر، رقم الحديث 3006، ص 1367.

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب قرب النبي ﷺ من النَّاس وتبركهم به، رقم الحديث 2326، ص 1097.

(3) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصَّلَاة، باب قضاء الصَّلَاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها، رقم الحديث 311، ص 472.

بيته مُنْكَسًا رأسه، فقال: ما شأنك؟ فقال ثابت: شرٌّ؛ كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله، وهو من أهل النار، فأَتَى الرَّجُلُ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ: كَذَا وَكَذَا، فقال: اذْهَبْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»⁽¹⁾ مع عظيم إِنْشِغَالِهِ ﷺ بالدَّعْوَةِ وَهُومِهَا، لَمْ يَغْفُلْ غِيَابَ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ ؓ عَنْ مَجْلِسِهِ وَفَقْدَهُ لَهُ، فَتَحَرَّى خَبْرَهُ ﷺ وَفَرَّجَ عَنْهُ كَرْبَهُ، وَزَادَهُ بَشَارَةَ عَظِيمَةِ كَبِيرَةٍ، وَعَنْ عَائِشَةَ بِنْتِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ أَبَاهَا قَالَ: «اِسْتَكَيْتُ بِمَكَّةَ فَجَاءَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعُوذُنِي، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى جَبْهَتِي، ثُمَّ مَسَحَ صَدْرِي وَبَطْنِي، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْدًا، وَأَتِمِّمْ لَهُ هَجْرَتَهُ»⁽²⁾، وَكَذَلِكَ تَفَقَّدَهُ ﷺ لِلْمَرْأَةِ الَّتِي كَانَتْ تَقُمُ الْمَسْجِدَ، أَيُّ: تَجْمَعُ قِمَامَتَهُ، يَرُوي عَنْهَا أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ: فَقَالَ: «أَنَّ امْرَأَةً سُدَاءَ كَانَتْ تَقُمُ الْمَسْجِدَ، فَفَقَدَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلَ عَنْهَا، فَقَالُوا: مَاتَتْ، قَالَ: أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي؟»، قَالَ: فَكَأَنَّهُمْ صَغَّرُوا أَمْرَهَا، فَقَالَ: ذُلُّونِي عَلَى قَبْرِهَا، فَذُلُّوه فَصَلَّيْ عَلَيْهَا»⁽³⁾ فَلَمَّا صَغَّرَ النَّاسُ أَمْرَ هَذِهِ الْمَرْأَةِ، أَعْلَى النَّبِيُّ ﷺ مِنْ شَأْنِهَا بِصَلَاتِهِ عَلَى قَبْرِهَا، وَوَفَّى لَهَا ﷺ بَعْدَ مَوْتِهَا صِفَةً تَمَثَّلَتْ فِي خَلْقِ النَّبِيِّ ﷺ الرَّاسِخَ وَهِيَ أَهْمِيَّةُ الشُّعُورِ بِالْآخِرِ وَالْوُقُوفِ مَعَهُ فِي مَحْنَتِهِ وَأَزْمَاتِهِ، وَالْعَمَلُ عَلَى تَحْقِيقِ حَيَاةٍ أَفْضَلَ لَهُ، وَمِنْ الْبَدِيهِ أَنْ يَرْتَبِطَ هَذَا التَّعَاوُنُ بِالْأَخْلَاقِ الْعَالِيَةِ وَالْقِيَمِ السَّامِيَةِ، وَالِدَّاعِيَةِ الَّتِي يَبْدِي تَعَاوُنًا طَوْعِيًّا مُتَوَاصِلًا مَعَ الْآخَرِينَ لِأَنَّ أَهْمِيَّةَ هَذَا التَّعَاوُنِ وَالْإِحْسَاسِ بِالمَسْئُولِيَةِ الْمُتَبَادِلَةِ، لِأَنَّ السَّبِيلَ لِتَطْوِيرِ الْمُجْتَمَعِ وَاسْتِقْرَارِهِ وَأَمْنِهِ وَاسْتِمْرَارِيَّتِهِ تَكْمُنُ فِي مُسَاعَدَةِ هَؤُلَاءِ النَّاسِ وَالسَّعْيِ فِي قَضَاءِ حَوَائِجِهِمْ لِتَذْلِيلِ كُلِّ الْمَصَاعِبِ الَّتِي قَدْ يَتَعَرَّضُ لَهَا النَّاسُ. وَالشُّوَاهِدُ الدَّالَّةُ تَصْرِيحًا عَلَى خَلْقِ النَّبِيِّ ﷺ الْعَظِيمِ فِي شَفَقَتِهِ وَمُسَاعَدَتِهِ لِلضُّعْفَاءِ مِنَ النَّاسِ ذَوِي الْحَاجَاتِ كَثِيرَةٍ لَا يُمْكِنُ حَصَرُهَا، فَمَا سَأَلَ شَيْءًا إِلَّا أَعْطَاهُ وَكَانَ أَسْرَعَ النَّاسِ فِي الْبَذْلِ وَالْعَطَاءِ، وَقَدْ رُبَّ قَبُولِ الْأَعْمَالِ وَدَوَامِ النِّعَمِ وَغُفْرَانِ الذَّنْبِ فِي مُسَاعَدَةِ النَّاسِ وَقَضَاءِ حَوَائِجِهِمْ، وَالتِّي لَا يَنْبَغِي لِأَهْلِ الدَّعْوَةِ تَبْسِيطُهَا وَالتَّهَانُ فِيهَا فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَسْتَقُوا مِنْ فَيْضِ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلُوا مِنْ مَنْهَجِهِ وَخَلْقِهِ مِثْلًا يَحْتَذِي بِهِ وَعَلَيْهِ نَجْدُ أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ لَا تَنْحَصِرُ فِي التَّبْلِيغِ بِالْقَوْلِ فَقَطْ، بَلْ إِنَّ التَّعَاوُنَ الْمُشْتَرَكِ، وَالتَّكَاثُلَ الْإِجْتِمَاعِيَّ وَتَأْمِينَ الْمُنْشَأَتِ الْخَيْرِيَّةِ وَتَقْدِيمِ الْخِدْمَاتِ الْإِجْتِمَاعِيَّةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ تُعَدُّ دَعْوَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي إِطَارِهَا الْعَمَلِيِّ وَالتَّطْبِيقِيِّ، وَالدَّاعِيَةُ إِلَى اللَّهِ مُطَالِبٌ فِي حَقِّ دَعْوَتِهِ أَنْ يَجُودَ بِالْمَالِ

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم الحديث 3613، ص 452.

(2) - الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، کتاب الجنائز، باب، ج 1، رقم الحديث 1267، ص 492. وقال: هذا الحديث صحيحٌ علی شرط الشيخین، ولم یُحرّجاه بهذا اللفظ.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصَّلَاة، باب كنس المسجد والتقاط الخِزْق والغُذَى والعِيْدَان، رقم الحديث 458، ص

والجهد وبأخلاقه في السَّعي إلى قضاء حوائج النَّاس من غير كِللٍ أو مللٍ، متجنباً في ذلك مصالحه الشخصية لغرض الثَّناء والمدح من النَّاس، لأنَّ ذلك يتنافى غرضه الخيري الخالص، فينبغي أن يأخذ هذا الواجب نصب عينيه ويستثمره مع ذوي الفئة المحرومة والمعوزة، إمثالاً لأمر الله تعالى آخذاً بعين الاعتبار ضميره الإنساني والدَّعوي.

المطلب الثاني: أسلوب تأمين الخدمات

الدَّعوة إلى الله لا تنحصر على الدَّعوة باللسان فقط، بل بالأعمال النَّافعة والمشاريع الهادفة التي تحذو حذوها من خلال التَّعاون المثمر وتقديم الخدمات الاجتماعية والإنسانية النبيلة وتأمين المنشآت الخيرية⁽¹⁾، وهي ما دعا إليها القرآن وحثَّ على إقامتها في كثير من الأحيان منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَيْقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: 148] وهذا دعوة للتَّنَافس في الأعمال الخيرية بتقديم الأفضل في مجال العمل الخيري ثم إنَّ الحديث عن الخير رُبطَ بالعبادة مثلما توضَّحه آية سورة النحل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: 77]، وقوله تعالى: ﴿لَن نَّأَلُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 92] إنَّ هذا العنصر يتعلَّق بالجانب العملي والحيوي في الدَّعوة إلى الله، ويقصد به الخدمات والمشاريع الخيرية التي يقدمها الدَّاعية لخدمة الفئة المحرومة والمعوزة في المجتمع من الأيتام وذوي الإحتياجات الخاصة وغيرها كثير، والتي بتوافر هذا العنصر يسود الأمن والطُّمأنينة وتكرَّس مبدأ الرِّعاية الإنسانية، يكرَّس خلالها قضية التَّكافل الاجتماعي في أكمل نشاطه الحيوي دون الوعظي، وقبل التَّفصيل في هذا الجانب إرتأيت أن أقدم بإيجاز مفهوم هذا العنصر ليتَّضح أكثر لدى القارئ:

أولاً: مفهوم تأمين الخدمات

أ- لغة

- يعرفه العلامة الرَّازي بالقول: (التَّأمين في اللُّغة الأمان، والأمنَةُ بمعنى، وقد أَمِنَ أماناً وأمنَةً بفتحتين فهو آمن وأمنه غيره من الأمن والأمان)⁽²⁾ ويعرفه العلامة ابنُ منظور بالقول: (وقد أمنت، فأنا آمن

(1) - حامد بن أحمد بن علي العامري، الدَّعوة إلى الله بالمنهج العاطفي من القرآن الكريم والسنة المطهرة، المرجع السابق، ص 72.

(2) - أبو بكر الرَّازي، مختار الصَّحاح، مادَّة أمن، ج 1، المصدر السابق، ص 11.

وآمنت غيري من الأمن والأمان والأمن ضدَّ الخوف⁽¹⁾. والمقصود منه طمأنينة النَّفس وسكونها بتوفير أسباب الطمأنينة.

ب- إصطلاحًا

- التَّأمين كنظام يقصد به تعاون منظم تنظيمًا دقيقًا بين عدد كبير من النَّاس معرضين جميعًا لخطر واحد، حتَّى إذا تحقَّق الخطر بالنَّسبة إلى بعضهم، تعاون الجميع في مواجهته بتضحية قليلة يبذلها كلُّ منهم يتلافون بها أضراراً جسيمة تحيق بمن نزل الخطر بهم⁽²⁾، وممَّا لاشكَّ فيه أنَّ الإسلام دعا إلى التَّعاون بين النَّاس وبذل التَّضحيات على أساس من التبرع لا المعاوضة⁽³⁾ يقول تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: 2] وقد جاء الإسلام بكثير من الصُّور والأنظمة التي تحقِّق نظام التَّأمين نذكرُ منها :

✓ نظامُ العاقلة كفالة الغارمين من الزَّكاة: وهم المديونون لمصلحة خاصَّة كالإنفاق على أنفسهم، أو لمصلحة عامَّة كالإصلاح بين متخاصمين.

✓ ونظام كفالة الفقراء والمساكين: وهم الذين لا يجدون ما يسدُّون به كفايتهم مِنْ مطعمٍ ومسكنٍ وسائر ما لا بدَّ لهم منه.

✓ ونظام كفالة بن السَّبيل من الزَّكاة: وهم الذين إنقطعوا عن أموالهم وأصبحوا محتاجين إلى المال في ذلك الموضع، ونظام التَّفقات بين الأقارب.

✓ ونظام التَّكافل الاجتماعي بين أبناء الحيِّ الواحد والبلد الواحد، كما يفعل الأشعريُّون، حيث كانوا كما قال عنهم رسول الله ﷺ: «إذا أرمَلوا في الغزو^(*)، أو قلَّ طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوبٍ واحدٍ، ثمَّ اقتسموه بينهم في إناءٍ واحدٍ، بالسَّوية فهم مني وأنا منهم»⁽⁴⁾.

من أهدافه :

يهدف التَّأمين إلى عدَّة أمور منها :

(1) - إِبْنُ منظور، لسان العرب، مادَّة أمن، ج13، المصدر السَّابق، ص 22.

(2) - محمَّد عثمان شبير، المعاملات المالية المعاصرة في الفقه الإسلامي (عمان: دار النَّفائس، ط6، 1427هـ/2007م)، ص 82.

(3) - المرجع نفسه، ص 82.

(*) - أرمَلوا في الغزو: أي: فنى طعامهم (صحيح مسلم، كتاب فضائل الصَّحابة، من فضائل الأشعريين رضي الله عنهم، رقم الحديث 166، ص 1944).

(4) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصَّحابة، من فضائل الأشعريين رضي الله عنهم، رقم الحديث 166، ص 1944.

- ✓ تحقيق التَّحابب والتَّوَادد والأُخُوَّة وتماسك المجتمع .
 - ✓ تحصيل المجتمع مِنْ آثارِ المصائبِ والتَّكَبُّاتِ، فبدلاً مِنْ أَنْ يتحمَّلَهَا فرد بعينه أو مجموعة بعينها، فإنَّ أفراد الأُمَّة جميعهم يهبون لنصرة ذلك المصاب وتخفيف أثر المصيبة عليه.
 - ✓ تحقيق طمأنينة النَّفس والسَّعادة، فحينما يشعر الفرد أنَّ كلَّ حاجاته مؤمنة في حالات الطَّوارئ ترتاح نفيه ويطمئنَّ على حياته ، وتوفير الأموال وإدِّخارها⁽¹⁾.
- و أمَّا تأمين الخدمات فقد عرَّفه:

- الباحث حامد بُنُّ أحمد بُنُّ علي العامري بالقول: (تأمين الخدمات يقصد به الأسلوب وطريقة تبليغ الحقِّ ونشر الدَّعوة عبر المنافع والخدمات العامَّة التي تقدِّم إلى الفئات المحتاجة والمنكوبة والمعوَّزة، بهدف تليين قلوبهم وجذبهم لما يدعى لهم، وإقبالهم على الطَّاعات، مثل: تأمين مراكز للصَّحة، المدارس، الطُّرق، أعمال الإغاثة وما إلى ذلك)⁽²⁾ وفي تعريفٍ آخرٍ له: (هو سلوك أو عمل أو مجهود شخصي يقوم به الإنسان من ذاته لا يتبغي من ورائه إلاَّ مرضاة الله تعالى، مثل: التبرُّع بالمال لمؤسَّسة أو محتاجين أو إسعاف جريح أو تعليم مجموعة من الأفراد القراءة والكتابة أو إنشاء مشروع كصرح علمي أو بناء مدرسة أو مسجد أو المساهمة في حلِّ مشكلة معيَّنة أو الإنفاق بالمال في سبيل الله، بإمالة الأذى عن الطُّريق)⁽³⁾.

ثانياً: مبادرات النَّبي ﷺ في تأمين خدمات المجتمع المدني

تجليَّاتها في دعوة النَّبي ﷺ كثيرة ومتنوّعة بحيث لا يمكن حصرها، فاقترنت على أهمِّها وهي: بناء المساجد والإنفاق لعمارتها، ومشاركته في حفر الخندق وتعاونه في بناء الكعبة، وإسعاف الجرحى، وسعيه في وفرة الأرض للمسجد، وشراء بئر روما وغير هذا كثير.

أ- بناء المساجد والإنفاق لعمارتها

بعد هجرة النَّبي ﷺ إلى المدينة أوَّل ما أقبل عليه بناء المسجد، أسَّس لغاية دينية واجتماعية وسياسية وقضائية يجتمع فيه المسلمون لأداء الواجبات والتشاور وغيرها من الأعمال الكثيرة، فأمر بذلك أصحابه وشاركهم في البناء لترسيخ خلق التَّعاون على البرِّ والتَّقوى عن أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه قال: «لَمَّا قدم النَّبي ﷺ المدينة نزل في علو المدينة في حيٍّ يقال لهم: بنو عمرو بن عوف، قال: فأقام فيهم

(1) - محمَّد عثمان شبير، المعاملات المالية المعاصرة في الفقه الإسلامي، المرجع السَّابق، ص-ص 83، 84.

(2) - حامد بُنُّ أحمد بُنُّ علي العامري، الدعوة إلى الله بالمنهج العاطفي من القرآن الكريم والسَّنة المطهرة، المرجع السابق، ص 73.

(3) - نافذ حمَّاد وآخر، العمل التطوُّعي ومجالاته الاجتماعيَّة في السَّنة النَّبويَّة دراسة موضوعية، غزَّة، الجامعة الإسلامية، كَلِّية أصول الدِّين، قسم الحديث،، مجلَّة الجامعة الإسلامية، سلسلة الدِّراسات الإسلاميَّة، مج 19، العدد 1، ص 45.

أربع عشرة ليلة ثم أرسل إلى ملأ بني النجار فجاءوا متقلدين سيوفهم قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ على راحلته وأبو بكر بردفه وملأ بني النجار حوله، حتى ألقى بفناء أبي أيوب قال: فكان يصلي حيث أدركته الصلوة في مرابض الغنم، قال: ثم أنه أمر ببناء المسجد فأرسل إلى ملأ بني النجار فجاءوا فقال يا بني النجار ثامنوني^(*) حائطكم هذا فقالوا: لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله فكان فيه ما أقول لكم كانت فيه قبور المشركين وكانت فيه خرب وكان فيه نخل فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت وبالخرب فسويت وبالنخل فقطع، قال فصنفوا النخل قبلة المسجد قال: وجعلوا عَضَادَتِيَّ حجارة قال: قال جعلوا وأي تفلونك الصخر وهم يرتحزون ورسول الله معهم يقولون اللهم أنه لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة⁽¹⁾ وروى البخاري من روائه إِبْنُ شَهَاب: «ثم بنى ﷺ مسجداً وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن في بنيانه ويقول وهو ينقل اللبن: هَذَا الْحِمَالُ لَا حِمَالٌ خَيْرٌ .. هَذَا أَبْرُ رَتْنَا وَأَطْهَرُ»⁽²⁾ فكان مسجد رسول ﷺ يقوم مقام الجمعيات الخيرية في جمع الزكاة والصدقات من الموسرين والمنفقين وتوزيعها على مستحقيها من الفقراء والمساكين وغيرهم من مصارف الزكاة، ومما لا يخفى على كل ذاعية أن يدرك أهمية المساجد في ساحة العمل الدعوي، ودوره في بناء المجتمع الإسلامي، بأن يسعى ويشجع على بنائها في كل قرية، وكل مجمع سكاني وتشبيدها سواء بالإنفاق بماله أو المشاركة بالجهد والعمل، فيكون باعثاً على تذكير الناس بالعبادة وموعظتهم، ومنحهم مقرأً أو مكاناً يجتمع فيه الدعاة والوعاظ لإلقاء مواعظهم وخطبهم العامة يقول الإمام النووي رحمه الله: (يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمِرَادُ أَنَّ فَضْلَهُ عَلَى بُيُوتِ الْجَنَّةِ كَفَضْلِ الْمَسْجِدِ عَلَى بُيُوتِ الدُّنْيَا قَوْلُهُ فِي الْجَنَّةِ يَتَعَلَّقُ بِنَبِيِّ أَوْ هُوَ حَالٌ مِنْ قَوْلِهِ مِثْلُهُ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى دُخُولِ فَاعِلٍ ذَلِكَ الْجَنَّةَ إِذِ الْمُقْصُودُ بِالْبِنَاءِ لَهُ أَنْ يَسْكُنَهُ وَهُوَ لَا يَسْكُنُهُ إِلَّا بَعْدَ الدُّخُولِ)⁽³⁾، ومن الأعمال أيضاً المشاركة في

(*) - ثامنوني بحائطكم هذا: أي قررنا معي ثمنه، وبيعوني به بالثمن، ويقال: ثمنت الرجل في البيع أثمانه، إذا ساومته على بيعه واسترائه، وفي مرجع آخر، ثامنوني: ساوموني بالثمن أو أعطوني بالثمن بحائطكم هذا، أي بستانكم (صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ابتداء مسجد النبي ﷺ، رقم الحديث 524، ج 1، ص 373). و(ينظر: خليل أحمد السهاري، بذل المجهود في حل أبي داود، بيروت: دار الكتب العلمية، ج 3، د، ط، د، ت)، ص 194.

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ابتداء مسجد النبي ﷺ، رقم الحديث 524، ج 1، ص 373.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، رقم الحديث 3906، ص 959.

(3) - إِبْنُ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب من بنى مسجداً، رقم الحديث 450، المرجع السابق، ص 544.

الإنفاق بماله في عمارة المساجد والإنفاق لأجل عمارتها كان يتحمل المشقة والتعب ويعاون المسلمين في البناء والإنفاق عليه، وذلك لأهميتها الكبرى في ساحة العمل الدعوي وفضائلها العظيمة التي تعود على الداعية بالنفع الدنيوي والأخروي على حد قول عثمان بن عفان يقول عند قول الناس فيه حين بنى مسجد الرسول ﷺ: «إِنَّكُمْ أَكْثَرْتُمْ»، وإني سمعت النبي ﷺ يقول: من بنى مسجداً - قال بكثير: حسبته أنه قال: يبتغي به وجه الله، بنى الله له مثله في الجنة»⁽¹⁾.

ب- إنشاء الصفة مكان الإيواء والعبادة

كما سعى في بناء الصفة التابعة للمسجد النبوي لاستيعاب أكثر عدد ممكن من فقراء المهاجرين⁽²⁾ والصفة هو مكان في مؤخرة المسجد النبوي مظلّل أُعِدَّ لنزول الغراء فيه ممن لا مأوى لهم، وهو مكان يأوي إليه المساكين وعابري السبيل⁽³⁾، وكان من بينهم المهاجرين الذين يقدمون إلى المدينة، فيلتقي بهم رسول الله ﷺ ثم يوجههم بعد ذلك إلى من يكفله، فإن لم يجد يستقر في الصفة مؤقتاً، ريثما يجد السبيل، كما كان ينزل بها الغراء من الوفود التي كانت تقدم على النبي ﷺ معلنة إسلامها⁽⁴⁾ والصفة لا تنحصر كونها مكان للإيواء فقط، وإنما فسحت مجالاً لأهل الصفة لأداء العبادات وقراءة القرآن ومدارسة آياته وتعلّموا الكتابة حتى أهدى أحدهم قوسه لعبادة بن الصّامت لأنه كان يعلمهم القرآن والكتابة، فقط جاء في حديث عن عبادة بن الصّامت رضي الله عنه قال: «علمت ناساً من أهل الصفة القرآن والكتابة، فأهدى إليّ رجل منهم قوساً فقلت ليست بمال وأرمي عنها في سبيل الله، فسألت رسول الله ﷺ عنها فقال: إن سرك أن تطوق بها طوقاً من نار فاقبلها»⁽⁵⁾.

ج- بناء سوق بالمدينة

قام النبي ﷺ بدراسة الأوضاع الاقتصادية في المدينة، فرأى أنّ القوة الاقتصادية بيد اليهود، وأنهم يملكون الأسواق التجارية في المدينة وأموالها، ويتحكمون في الأسعار والسلع ويحتكرونها،

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل بناء المساجد والحث عليها، رقم الحديث 533، ص 241.

(2) - علي محمد الصّلاحي، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل الأحداث، المرجع السابق، ص 388.

(3) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب نوم الرجال في المسجد، ج 1، ص 536.

(4) - يُنظر: علي محمد الصّلاحي، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل الأحداث، المرجع السابق، ص 304.

(5) - أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب التجارات، باب الأجر على تعليم القرآن، رقم الحديث 2157، ج 2، ص 730. وأخرجه أبو داود في سننه، كتاب الإجارة، باب في كسب المعلم، رقم الحديث 3416، ج 2، المصدر السابق، ص 237.

ويستغلون حاجة الناس، فعمد إلى بناء سوقٍ للمسلمين ليتنافسوا اليهود على مصادر الثروة والاقتصاد في المدينة ⁽¹⁾.

د- حفر الخندق

ومن الخدمات التي قام بها النبي ﷺ مشاركته في توفير الأمن والحماية للمدينة بحفر الخندق حولها عن أنسٍ رضي الله عنه يقول: «خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم فلمَّا رأى ما بهم من النَّصَبِ والجوع قال: اللَّهُمَّ إنَّ العيش عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة» ⁽²⁾. فكانت دعوات مباركات أحبُّ إلى المهاجرين والأنصار من الدُّنيا وما فيها، فقالوا مجيبين له: نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً، فيُحييهم ﷺ اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الْآخِرَةِ، فبارك الأنصار والمهاجرة ⁽³⁾.

ويصفُ البراء رضي الله عنه النبي ﷺ معاوناً أصحابه، رأيتُه ينقل من تراب الخندق حتَّى وارى عن التُّراب جلده وبطنه، وكان كثير الشعر فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل التُّراب.

وَاللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَأَنْزِلْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتِ الْأَقْدَامَ إِنَّ لَاقِيَنَا
إِنَّ الْأُولَى قَدْ بَعَوْنَا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا
وَرَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ أَبَيْنَا ⁽⁴⁾.

إنَّ ما فعله النبي ﷺ في حفر الخندق مع أهل المدينة من أروع صور التكافل عبر التاريخ الإسلامي، كان له أثر كبير في رفع الرُّوح المعنوية للصَّحابة وتحريضهم على العمل الجماعي فقوي حماسهم ونشطت نفوسهم يقول العلامة الحافظ ابن حجر رحمه الله: (في مباشرته ﷺ الحفر بنفسه تحريض للمسلمين على العمل ليتأسَّوا به في ذلك) ⁽⁵⁾ فأظهر تواضعه ﷺ وهو أفضل البشر وسيّد ولد آدم، ومع ذلك يحفر مع أصحابه الخندق، ويواري التُّراب بطنه ويربط الحجر على بطنه من الجوع، ويقدم بين يديه في هذا المكان الطَّعام الذي له ريح منتن يقول الإمام الرَّاوي رحمه الله: (يؤتون بملء

(1) - يُنظر: علي محمد الصُّلَّائي، السِّيرة النَّبوية عرض وقائع وتحليل الأحداث، المرجع السَّابق، ص 388.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، رقم الحديث 4098، ص 1007.

(3) - يُنظر: علي محمد الصُّلَّائي، السِّيرة النَّبوية عرض وقائع وتحليل الأحداث، المرجع السَّابق، ص 392.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، الحديث 4100، ص 1007.

(5) - سعيد بنُ علي بنُ وهب القحطاني، فقه الدَّعوة في صحيح الإمام البخاري، ج 1، المرجع السَّابق، ص 295.

كفّي من الشعر فيصنع لهم بإهالة سِنْحَة^(*)، وتوضع بين يدي القوم، والقوم جياع وهي بشعة في الحلق ولها ريح منتن⁽¹⁾ فأراد النبي ﷺ بتواضعه ليكرّس قاعدة مهمّة للدُّعاة والقادة أهمية التّواضع فينزلوا منزلة الرّعية أو الأفراد أو المجتمع عموماً، دون كبر أو علوّ خاصّة في مجالات التّعاون وتقديم الخدمات التطوعية الجماعية، وما يؤكّد ذلك حديث جابرٍ ﷺ عندما واجهت الصّحابة رضوان الله عليهم صخرة عجزوا عن كسرها أثناء الحفر ضربها النبي ﷺ ثلاث ضربات ففتتها فقال: «إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدبةً شديدة، فجاءوا النبي ﷺ فقالوا هذه كُدْبَةٌ^(*) عرضت في الخندق، فقال: أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب فعاد كثيباً أهيل أو أهيم، فقلت: يا رسول الله ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبر، أفعندك شيء؟ قالت: عندي شعر وعناق، فذبحت العناق، وطحنت الشعر، حتّى جعلنا اللحم في البرمة، ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأثافي قد كادت أن تنضج، فقلت: طعيمٌ لي؛ فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: كم هو؟ فذكرت له، قال: كثيرٌ طيب! قال: قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التّنور حتّى آتي، فقال: قوموا. فقام المهجرون والأنصار، فلمّا دخل على امرأته قال: ويحك! جاء النبي ﷺ والمهاجرون والأنصار معه، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم. فقال: ادخلوا ولا تضاعطوا، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم، ويخمر البرمة والتّنور إذا أخذوا منه، ويقرب إلى أصحابه، ثم ينزع، فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتّى شبعوا وبقي بقية قال: كلي هذا وأهدي، فإنّ الناس أصابتهم مجاعة⁽²⁾.

و- الإهتمام بالطُّرقات

وقد حثّ النبي ﷺ على العديد من الخدمات المعنوية والعملية لتوفير الرّعاية، ودور المجتمع من خلال الإهتمام بالطُّرقات وتأمينها ما روي عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: «لقد رأيت رجلاً

(*) - والإهالة: بكسر الهمزة تعني الشّحم الذائب، والسّخنة بالنّون والخاء المعجمة وهي المتغيّرة (بجي بن شرف التّووي، رياض الصّالحين، باب فضل الجوع وخشونة العيش (دار الرّيان للتراث، د، ط، د، ت)، ص 162.

(1) - سعيد بن علي بن وهب القحطاني، فقه الدّعوة في صحيح الإمام البخاري، ج 1، المرجع السّابق، ص 295.

(*) - الكدبة: وهي بضمّ الكاف وتقديم الدّال على التّحتانية، وهي قطعة حجر صلبة صماء (ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، رقم الحديث 4101، الرّياض: دار طيبة، ط 1، ج 9، 1426هـ/2005م)، ص 188.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، رقم الحديث 4101، ص 1008.

يتقلَّب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي الناس»⁽¹⁾ فعلى الدَّاعية أن يقدم خدمة لمجتمعها من خلال إمطة الأذى في الطرقات والمشاركة في بنائها وترميمها.

هـ - تأمين وجبات لإفطار الصَّائم

ومن بين الخدمات تأمين وجبات الإفطار ما جاء عن أنسٍ رضي الله عنه قال: «كُنَّا مع النَّبي ﷺ في السَّفر فمنا الصَّائم ومنا المفطر، قال: فنزلنا منزلاً في يوم حار أكثرنا ظلاً صاحب الكساء ومنا من يتقي الشمس بيده قال فسقط الصَّوَّام وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب فقال رسول الله ﷺ ذهب المفطرون اليوم بالأجر^(*)»⁽²⁾ وعليه يمكن القول بأنَّ خدمات النَّبي ﷺ لمجتمع المدني كثيرة لا يمكن حصرها أو عدّها، فاقترنت على بعض منها على سبيل المثال: في السَّفر والحضر، ومع كلِّ طبقات المجتمع المدني والمكِّي، كما لم تقتصر مساعداته على أصحابه فقط، وإنما شملت من يعرفه ومن لا يعرفه، وهذا دليل على نقاء سريره وخلقه العظيم الذي لم يترك باباً من أبواب الخير إلاَّ وطرقها، وكان له نصيبٌ منها في العطاء والبذل والعمل، والمجتمع لا يخلو من أصحاب الحاجات والمعوزين الذي هم بحاجة إلى قضاء حاجاتهم وتأمين العديد من الخدمات التي هم بحاجة إليها.

وعليه نستشفُّ من دعوة النَّبي ﷺ جدية العمل التطوعي وأثره في خدمة الدعوة إلى الله، والداعية بدوره يجب أن يكون سباقاً في تقديم مثل هذه الخدمات والأعمال لينتفع بها مجتمعها ولتشمل أيَّ مجال من مجالات الحياة، كما يسعى بحكمته ومداركه وبقصارى جهده العمل في هذا الجانب سواء من الجانب المادّي أو المعنوي، وحثَّ الناس وترغيبهم في خدمة مجتمعهم بالمشاركة التطوعية النافعة، لأنَّ في تقديم الخدمات والمساعدات العامة أمرها جليل ونفعها عظيم، فالدَّور البارز في حقل الإسلام ومعامله تتجلى في البناء والعمل المثمر.

وبناء لما سلف يتعيَّن على الدَّاعية الاستفادة من دعوة النَّبي ﷺ في تأمين الخدمات وقضاء الحاجات كالآتي:

— إنَّ المهمَّة التي اضطلع بها النَّبي ﷺ في مجتمع المدينة مهمَّة إنسانية واجتماعية تحتاج إلى حكمة وحسن تدبير تجلَّت في مهمَّة تأمين خدمات المجتمع آنذاك والسَّعي في خدمة النَّاس وقضاء حاجاتهم

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البرِّ والصَّلة والآداب، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق، ص 1212.

(*) - ذهب المفطرون اليوم بالأجر: وضحها ابن حجر قوله: أيُّ الوافر وليس المراد نقص أجر الصَّوَّام بل المراد أنَّ المفطرين حصل لهم أجر عملهم ومثل أجر الصَّوَّام لتعاطيهم أشغالهم وأشغال الصَّوَّام، (رندة محمد زينو، العمل التطوعي في السنة النبوية دراسة موضوعية، جامعة الإسلامية غزّة، كلية أصول الدِّين، قسم الحديث وعلومه، 1428هـ/2007م، ص 104).

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصَّوم، باب أجر المفطر في السَّفر إذا تولى العمل، رقم الحديث 1119، ص 499.

المعوزين منهم والفقراء ليتكامل الناس ويتساووا في الحياة بحيث يشعر الغني بحاجة الفقير والجار بحاجات جاره، فيوطد العلاقات التي بها تكون بناء مجتمع إنساني يحتاج فيه إلى داعية يحمل من الصفات ما حمله النبي ﷺ الإنسانية منها والعاطفية والأخلاقية.

- على الداعية التأسي بالنبي ﷺ في خدمة مجتمعه وتوفير ما أمكن من الوسائل والإمكانات ما يدفع بالناس إلى العيش في مجتمع آمن يسوده التكافل والتراحم والتودد.

- الدعوة إلى الله لا تقتصر على البيان والإيضاح وإنما تقتصر أيضاً على العمل والعطاء، فالإسلام ما قر في القلب وصدقه العمل ويتجلى هذا العمل من خلال خدمة الناس وتوفير حاجاتهم الاجتماعية والمعيشية والاقتصادية، فالمجتمع خليط من الناس فهناك الطبقة الضعيفة والفقيرة والطبقة المعوزة.

- النفوس بطبيعتها جبلت على حب من يحسن إليها، والميل إلى من يسعى في قضاء حاجاتها، والداعية أولى الناس في هذا القيام بهذا الواجب ولا سيما مع أقرب الناس إليه، ولذلك يقول النبي ﷺ «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»⁽¹⁾.

- على الداعية أن يتفقد أحوال الناس، يكون من السباقين إلى تقديم المساعدة لهم سواء أكانت مادية أو معنوية، كتقديم مالٍ ليتجاوز به محتته، أو إعانته على حاجة له أو الجلوس معه وزيارته ومشاركته همومه وغيرها.

ثالثاً: المستفاد من أساليب المنهج العاطفي في دعوة النبي ﷺ

هذا الفصل عريق ومتين قدم أروع الأساليب وأجمل المواقف التي سلكها النبي ﷺ في دعوته خلال العهد المكّي والمدني، باستخدامه للمنهج العاطفي وما يحمله من أسرار عظام لها أبلغ الأثر في تقويم سلوك البشر وتربية عواطفهم، فقد كان ﷺ أسلوبه يرسم أرقى الصور في حياة البشرية عمومًا والداعية على وجه الخصوص، حيث كان بتصرفاته وأخلاقه وأقواله وأفعاله القدوة العليا والمنارة الحقيقية لرسالة الإسلام والتاريخ الإسلامي العريق، وهو ما يستوجب على الدعاة اليوم أن تؤتي جهودهم في إيصال محاسن الإسلام، إنطلاقاً من الهدى النبوي بالتأليف والإنجاز ليرسموا الطريق الصحيح والمنشود الذي من خلاله تعيش البشرية جمعاء حياة الأمن والسلام لا عنف ولا تشدد ولا تطرف، فنهوض الأمة المسلمة ورقيها معقود بهذه بالأسلوب النبوي وطرق التعامل مع الآخر.

(1) - أبو عبد الله بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب النكاح، باب حسن معاشره النساء، رقم الحديث 1977 (مطبعة دار إحياء الكتب العربية، ج1، د، ط، د، ت)، ص 636.

ولقد حاولتُ من خلال ثنايا هذا الفصل التفصيل فيما يتعلّق بالدّاعية وما يجب القيام به بالوقوف عند كلّ جزئية من جزئياته ومدى إستفادته منها وتطبيقها في حياته الدّعوية، والدّاعية إذا ما وقف على هذا الجانب من شخصية النبي ﷺ وأساليبه العظيمة التي منحها الله به بها قدرات خارقة في التحمل والصبر على الأذى وقوة الثبات على هذه الدعوة والاستمرار بها لتصل إلى الناس جميعاً، فهو بالنسبة للدّاعية إلى الله المثل الأعلى في الاقتداء إذ لا يمكن أن يجد خطوة من خطواته إلّا وفيها الكثير من العبر والدروس التي لو ترسّم خطاها لكتب لدعوته النّجاح والتّوفيق والنّصر، والدّاعية إلى الله حين يحزُّ به أمر أو تواجهه مصاعب في طريق دعوته، يجب عليه العودة إلى التّجربة النّبوية ليحدّد الدّليل والحلّ للمناسب، وقد إستوحيت من خلال عرض منهجه ﷺ كان يحمل ما يحمله الإنسان من معاني، فكان يعامل النّاس برحابة صدرٍ، وبشاشة وجهٍ، وإشراقة محياه، وطيب نفسٍ، وحسن منطقٍ، وعطف وحنان ورأفة لا يمكن أن يحملها إنسان غيره⁽¹⁾ يقول أمير الشعراء أحمد شوقي:

ولو حفظوا سبيلك كان نورا وكان من النحوس لهم حجابا.
بنيت لهم من الأخلاق ركنا فخانوا الركن فأنهدم إضطرابا⁽²⁾.

وقال رحمه الله :

لقبتموه أمين القوم في صغر وما الأمين على قول بمتهم
فاق البدور وفاق الأنبياء فكم بالخلق والخلق من حسن ومن عظم⁽³⁾.

وكما تعرّفنا عليه سابقاً أنّ للمنهج العاطفي أساليب لها أهميّة بالغة في الدّعوة إلى الله غرضها تحبيب النّاس في الإسلام وتمكينه في القلوب، والتي نرى إغفال كثير من الدّعاة عنها، والشّاهد من الأحاديث التي وردت في هذا الجانب توحى بخيرية دعوة النبي ﷺ وطرق تعامله مع مدعويه تنوّع في الأساليب وأبدع، وإرتكازه عليها لأنّها تكسب القلوب وتحدث السرعة في الإستجابة وإقناع المدعو وقد برز هذا المنهج بقوة وبصور لا مثيل لها في شخصية النبي ﷺ وحسن إستعماله لأساليب في أعذب صورها وأرقّها في العديد من المواقف ومع جميع أصناف المدعوين، مما يدلُّ على أهميّة هذه الأساليب التي جاء بها النبي ﷺ من شريعة الله السّمحة لا حرج فيها ولا مشقّة، تسع النّاس على

(1) - حمدان راجح المحجاري، الأسلوب النّبوي في الدّعوة إلى الله، المرجع السّابق، ص 499.

(2) - أحمد شوقي، الشّوقيات (بيروت: دار العودة، ج1، 1988م)، ص 72.

(3) - المرجع نفسه، ص 197.

اختلاف أجناسهم وأوطانهم وألسنتهم وأحوالهم، وفي أيّ زمانٍ ومكانٍ، يجلب بها المصالح ويكملها ويدفع المفاسد ويقللها يقول تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿١٦٤﴾ [آل عمران: 164] وقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿١٢٨﴾ [التوبة: 128] والدَّاعية في هذا الإطار مطالب بالأخذ بالعظة والعبرة من سيّد الأنام باستخدام أساليبه العاطفية، كما يجب أن يكون في مستوى المسؤولية ليقوم ما انحرف من معاملات يهذب ما فسد متأسيًا في ذلك بسيّد الدُّعاة نبيّ الله محمد ﷺ في تعامله بالأساليب العاطفية التي تؤدي الغرض الدعوي وفي واقع الحياة، وأن يوضح الحقّ ويبينه وقيم عليه الحجّة وأحيانًا لا يكفي الإقناع بالحجّة بل يحتاج بدرجة كبيرة إلى استمالة العواطف ومخاطبة المشاعر وهذه الأساليب السّالفة الذكر تحدث هذه الاستمالة من صدى عميقًا في القلوب وأثرًا كبيرًا في النفوس، وبالمقابل تزيّن الداعية بأعذب الكلام وحسن التعامل.

- العاطفة سلاح فتاك يتسلّح به الدَّاعية لمواجهة الهجمات الشرّسة التي تحيط به من كلّ جانب، وصاحب العاطفة يندفع للقيام بالأعمال التي يريدّها في أيّ مجال من مجالات الحياة، خاصّة في مجال الدَّعوة إلى الله، مندفعًا بهذه العاطفة بأساليب وكيفيات التأثير في النّاس، ولأهمية العاطفة كان لابدّ من الدُّعاة عند مخاطبة النّاس إستثارة عواطفهم وإلهابها حتى يستجيبوا لما يراود منهم، مثلاً إذا كان الوقت وقت جهاد يخاطبهم بمقتضى العقول أم بلهيب العواطف؟⁽¹⁾ والدَّاعية عليه التّأسي بالنبي ﷺ وطريقة حديثه لأصحابه، يتمعّن في أسلوبه ويبحث في كفيّاته، فكان يستثير عواطفهم لدرجة البكاء أو إلى حدّ التّضحية بأرواحهم في سبيل الله، وهو ما حدث في موقعة حنين ومع الأنصار، وأن يكون مخلصًا في دعوته متجنبًا العجب والرياء وكل ما يفسد عمله، وأن يتزوّد بعلمه الشرعي الذي هو عدّته في نشر الخير والرّافة بالنّاس، وأن يتحلّى بأسلوب الرّفق واللّين، ويتعد عن التّنفير والشّدّة ما لم تدع الحاجة إلى ذلك، يقول الإمام بن باز رحمه الله: (هذا العصر عصر الرّفق والصّبر والحكمة، وليس عصر الشّدّة، فالنّاس أكثرهم في جهل وفي غفلة إثّار للدنيا، فلا بدّ من الصّبر، ولا بدّ من الرّفق حتّى تصل الدَّعوة وحتّى يبلغ النّاس وحتّى يعلموا)⁽²⁾ وهذا العصر الذي إنتشرت فيه الشُّبهات والدَّاعية

(1) - محمّد موسى الشّريف، العاطفة الإيمانية وأهمّيّتها في الأعمال الإسلامية، المرجع السّابق، ص-ص 19، 21.

(2) - ابنُ باز، مجموع فتاوى ومقالات متنوّعة (الرّياض: دار القاسم للنّشر، ط1، 1420هـ)، ص 18.

دائمًا يسعى جاهدًا إلى إزالتها ومضطر إلى تنفيذها وإظهار زيفها وبطلانها، لأنها موانع تمنع من رؤية الحق كما تمنع من رؤية الداء الذي يخرق جسد الأمة الإسلامية، والذي لا يمكن إزالته إلا بالحجة والبرهان، والوضوح وحسن البيان مع أدب في القول ولين الكلام ورفق الخطاب، وتعرض الداعية للشبهات لا يستغرب منها ولا يضيق صدره بها، فهي في جوهرها لا تتغير ولا تبدل، والعامل الأساسي هو التغيير في الأسلوب والكيفية قال تعالى: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْفِلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [فصلت: 43] والداعية قد يتمثل في الطعن في شخصه وسيرته وسلوكه كما طعنوا في الأنبياء عليهم السلام، اتهموهم بالسحر والجنون، فيقابلهم بمثل ما قابله الأنبياء جرأ هذه الافتراءات، لا نريد منكم على دعوتنا مالا ولا أجرا لأن أجرا على الله وحده، قال نوح عليه السلام: ﴿ وَيَقَوْمٌ لَا اسْتَلْكُم عَلَيْهِ مَا لِإِن آجَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقَوَارِبِهِمْ وَلَكِنِّي أَرْكَبُ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴾ [هود: 29] كما على الداعية عدم الخروج عن النهج الصحيح في الأسلوب، فإن الخروج عنه يؤدي حتمًا إلى الفشل وعدم بلوغ الغاية، ويؤدي إلى حقوق الأذى بالعاملين وضياح الجهود بلا طائل كالذي يقيم البناء على غير أسس سليمة، فإن بناءه حتمًا يؤدي إلى الزوال مع احتمال إهدامه، والمنهج الصحيح للداعية هو حسن الخلق والترقي، فإن كان فظًا غليظ القلب كان سببًا لانصراف الناس عنه وإن كان محققًا في دعوته إذ هو ليس بأحسن حالًا من رسول الله ﷺ حين خاطبه الله تعالى قائلاً: ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: 159] وآخرًا إن عودة الداعية إلى المنهج النبوي يخلصه من كافة الأزمات التي تعرقل مسيرة الدعوة اليوم، والذي أصاب عمودها الفقري والمتمثل في بعض الدعاة وما يحملونه من أساليب وأفكار شاذة تسيء الفهم الحقيقي لدعوة الإسلام، فأودى بها إلى الغرق والهلاك في بحر التصادم والشعور الغرور والعجب والتعصب والحزبية وما شابهها من صور شتى، وما مبعث النبي ﷺ إلا إعادة الحياة والروح لهذه الدعوة واستقرارها، أعطى صورة الإسلام الحقيقة من خلال منهجه العاطفي الذي شمل كل معاني الإنسانية من رفق ورحمة وعطف وحكمة، والذي أصبحت الأمة عمومًا والدعوة على وجه التحديد بحاجة إلى من يمثل للأسلوب النبوي.

الخلاصة

- من خلال هذه الجولة العلمية والبحثية في أساليب المنهج العاطفي، تبين أن هذا المنهج يوظف وسائل وأساليب مثيرة للعاطفة والوجدان، لغرض الوصول إلى قلب المدعو، مما يجعله أكثر استجابة لما تغمره مشاعر الطمأنينة والإرتياح النفسي والسكينة، وبهذا المنهج يحقق الداعية إلى الله نجاحاً كبيراً على مختلف الأصعدة والدوائر التي يتحرك فيها، فتكون إنجازاته الدعوية سريعة تحقق شيوعاً وانتشاراً عند المدعويين.

- لقد وضع الإسلام لهذه الدعوة نظاماً وخططاً مرسومة تحدد هويّتها، والمناهج تقرّر الأساليب والكيفيات الملائمة لجميع المدعويين، من ضمنها المنهج العاطفي.

- أظهر هذا الفصل أساليب المنهج العاطفي وتطبيقاته في دعوة النبي ﷺ، فكانت كثيرة ومتنوعة ساهمت في تحبيب مختلف المدعويين في الإسلام وتمكينه في قلوبهم، والشاهد من الأحاديث الواردة توحى بخيرية دعوة النبي ﷺ، وبالأحرى منهجه العاطفي الذي يقدم كفاءات وطرق التعامل مع المدعويين بمختلف أصنافهم، ساهمت في كسب قلوبهم وإحداث الاستجابة المطلوبة.

- كما قدم هذا الفصل أروع الأساليب التي تمثل المنهج العاطفي في جانبه النظري والتطبيقي تجلّت في شخصية النبي ﷺ السامقة، كان لها أبلغ الأثر في تقويم سلوك البشر وتربية عواطفهم.

- كان النبي ﷺ بحكمته ورحابته صدره الداعية المثالي الفذ، الذي رسم صفات الداعية الناجح والمؤثر، فكان بتصرفاته وأخلاقه وأقواله وأفعاله القدوة العليا والمنارة الحقيقية لرسالة الإسلام والتاريخ الإسلامي العريق، وأبان الطريق الصحيح والمنشود الذي من خلاله تعيش البشرية جمعاء حياة الأمن والسلام لا عنف ولا تشدد ولا تطرف، فهو ضئ الأمة ورفيها - حسب رأي - معقود بالمنهج النبوي، حريئ بالداعية أن يُثمر جهودُهُ في إيصال محاسن الإسلام إنطلاقاً من الهدي النبوي والرسالة النبوية بالتأليف والإنجاز.

- برز المنهج العاطفي بقوة وبصورة لا مثيل لها في شخصية النبي ﷺ وحسن اختياره للأساليب في أعذب صورها، لا حرج فيها ولا مشقة، تسع الناس على اختلاف أجناسهم وأوطانهم وألسنتهم وأحوالهم في أيّ زمان ومكان، يجلب بها المصالح ويكملها ويدفع بها المفاسد ويقللها يقول تعالى:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ [آل عمران: 164].

- لَقَدْ حاولْتُ من خلال ثنايا هذا الفصل إشارة إلى صفات الدّاعية، والذي مرجعيته الكبرى في شخصية النّبي ﷺ ومنهجه الدّعوي، فإذا ما وقف على هذا الجانب من شخصيته ﷺ ومنهجه في الأسلوب والمعاملة، منحه الله قدرات خارقة في الثّبات على طريق دعوته، والنّبي ﷺ بالنّسبة للدّاعية المثل الأعلى في الاقتداء، إذ لا يمكن أن يجد خطوة من خطواته إلّا وفيها الكثير من العبر والدّروس التي لو ترسّم خطاها لكتب لدعوته النّجاح والتّوفيق والنصر، فحين يحزُّ به أمر أو تواجهه مصاعب في طريق دعوته يجب عليه العودة إلى التّجربة النّبوية ليجد العلاج والحلّ.

تمهيد

من خصوصية الرسالة المحمدية تميزها بالعالمية يقول تعالى عنها: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107] وتميّزت بالشمولية فجاءت شاملة لكل مناحي الحياة ومعاش الثقلين في دنياهم وأخراهم، وقد عبّر عنها أحد العلماء بقوله: (إنّها الدّعوة التي امتدّت طولاً حتّى شملت آباد الزّمن وامتدت عرضاً حتّى إنتنظمت آفاق الأمم وامتدّت عمقاً حتّى إستوعبت شؤون الدّنيا والآخرة)⁽¹⁾ كما تميّزت بالاستمرارية وذلك لصلاحيتها لكلّ زمان ومكان ولكلّ أمة وجيل، وقد تجلّت خطوات النبي ﷺ المهداة في إتّجاه عالمية الدّعوة الإسلامية، فأخذ يدعو النّاس أفراداً وجماعات حكّاماً ومحكومين، فوجّهت إلى كافّة أصناف المدعوين بما يتلاءم مع طبائعهم وبيئاتهم، وخاطبهم بما يناسب مستواهم مستخدماً في ذلك المنهج العاطفي، والذي كان له الأثر الكبير في نجاح دعوته، وقد أرسى حينها أساليب ووسائل أظهرت أحقيّة هذا المنهج وفعاليته في كلّ مرحلة من مراحل الدّعوة، والتي تتراوح بين القوّة والضعف أو السّلم والحرب، وقد اجتهد المهتمّون بشأن الدّعوة إلى الله في وضع تصنيفات مختلفة للمدعوين، فاعتمد بعضهم على ما جاء في القرآن الكريم، والبعض الآخر على رؤية إجتهدية لا تخلو من الإسناد إلى النّصّ القرآني والتّجربة الدّعوية للنّبي ﷺ، لكمال سيرته، وحسن خلقه، وجمال آدابه، ورفق معاملته ونبيل هديه، لهذا كان الرّجل المنصف بمجرد أن يراه أحد أو يستمع إلى حديثه يتيقّن صدقه وصدق ما يدعو إليه⁽²⁾، فكانت علاقته معهم أعلى بكثير علاقة برّ ورحمة بكلّ معانيها، فجعل النّبي ﷺ دعوته موجّهة للمسلمين وغير المسلمين، سخّر لها أساليب متنوّعة لمخاطبتهم واستمالتهم لشرعية الإسلام، فاقترصر على المنهج العاطفي الذي يطغى عليه جانب اللّين والرّفق والرّحمة والحكمة والموعظة الحسنة لتحريك الدّوافع الفطرية الحيّرة، وإعمال منهج التّرويح والتّرهيب والتدرّج وجانب اللّين... لدغدغة العواطف ودعمها بالحجج والبراهين التي يستحسن ترصيعها وتضمينها في ثنايا الإثارات الوجدانية أثناء مخاطبة غير المسلمين⁽³⁾ فالمدعوون الذين شملتهم

(1) - يوسف القرضاوي، الخصائص العامّة للإسلام (بيروت: مؤسّسة الرّسالة، ط8، 1414هـ)، ص 105.

(2) - عبد الرزاق عبد المحسن البر، الجامع للبحوث والرّسائل (كنوز إشبيلية للنّشر والتّوزيع، ط1، 1426هـ/2005م)، ص 496.

(3) - حسن عزوزي، التعريف بالإسلام باللّغات الأجنبية (الإدارة العامّة للثقافة والنّشر، سلسلة دعوة الحق كتاب شهري محكم، السنة 23، العدد 229، 1429هـ/2008م)، ص 51.

دعوة النبي ﷺ كثيرون من شتى الطوائف والقبائل والأجناس والعقائد وسوف أحاول من خلال هذا الفصل تبيان جميع المدعوين الذين شملتهم دعوة النبي ﷺ من المسلمين وغير المسلمين.

المبحث الأول: المنهج العاطفي في دعوة النبي ﷺ لغير المسلمين

إنَّ صنف المدعوين غير المسلمين هم أهل الكفر، لأنَّ من لم يكن مسلمًا فهو كافر⁽¹⁾، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19] ويقول أيضًا: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85] هؤلاء لم يقبلوا بهذا الدين ولم يدعوا إليه، وهم الذين لم يؤمنوا بدعوة النبي ﷺ، ويسمُّون في المصطلح الشرعي "بالكفار"⁽²⁾ والكفار صنفان:

الصَّنْف الأول: غير المسلمين ظاهراً وباطناً، وهم نوعان أصليون : النوع الأول: لم يسبق لهم الدُّخول في دين الإسلام، وهم أهل الكتاب، والمجوس، وغيرهم، والنوع الثاني: من دخل في دين الله ثمَّ خرج منه.

الصَّنْف الثاني: من أظهر الإسلام وأبطن الكفر، ويسمون "المنافقون"⁽³⁾.

والكفار على اختلاف أصنافهم وتباين طرائقهم مخاطبون بالدعوة إلى الله لإخراجهم ما كانوا عليه من ضلال الكفر إلى هداية الإسلام ونور الإيمان، وعلى أهل الدعوة أن يبلغوهم رسالة الإسلام ويبينوا لهم حقيقة هذا الدين، ولا سيما في الوقت المعاصر الذي تعددت فيه الوسائل وتنوعت يقول عنها الشيخ ابنُ باز رحمه الله: (فقد يسَّر الله الطُّرق والوسائل لم تحصل من قبلنا، فأمر الدعوة متيسرة أكثر من طرق كثيرة، وإقامة الحجَّة على النَّاس اليوم ممكنة بطرق متنوِّعة ومن طرق شتى)⁽⁴⁾ ويقول الأستاذ سيّد قطب رحمه الله: (الحكمة في دعوة غير المسلمين النَّظر إلى أحوالهم وظروفهم والقدر الذي سنبينه لهم في كلِّ مرة حتَّى لا يثقل بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها والتنويع في استعمال الأساليب حسب مقتضياتها)⁽⁵⁾ فالنبي ﷺ نوع في طريقته فدعاهم بشتى الطُّرق وبمناهج

(1) - عبد الرزاق عبد المحسن البدر، الجامع للبحوث والرِّسائل، المرجع السابق، ص 484.

(2) - خالد بنُ محمد الماجد، بحث حول أحكام التعامل مع غير المسلمين pdf، 1425هـ، ص 3

(3) - المرجع نفسه، ص 3.

(4) - عبد العزيز بنُ باز، مجموع فتاوى ومقالات متنوِّعة (الرياض: دار القاسم، ط1، 1420هـ)، ص 331.

(5) - سيّد قطب، في ضلال القرآن، ج5، المرجع السابق، ص 2202.

متعددة، وبمجموعة من الأساليب التي أثبتت رحمته وعفوه حتى مع ألد أعدائه وخصومه، محاولاً تأليفهم على الإسلام فعاملهم وفق أحوالهم ومكانتهم، ممّا كان له الأثر الكبير في نفوسهم. والدّاعية حريٌّ به حين ممارسته الدّعوة على مستوى أهل الكفر أن يكون خبيراً بنوع ملّتهم ومدرّكاً لعقائدهم المنحرفة، ومن ثمّ يستطيع أن يخاطبهم ويدعوهم للإسلام بالأسلوب المناسب لهم، فكلّ فئة طريقته في التبليغ، يراعي نفسياتهم وأحوالهم والصّورة التي يكونون عليها كأن يكون ذميّاً أو حربيّاً أو أسيراً .. ومعرفة مواقفهم من الإسلام وأهله، وبعد محاولات البحث في إيجاد أصناف المدعوين الذين شملتهم دعوة النبي ﷺ استقرّ الرّأي على ثلاثة أصناف لغير المسلمين وهم: **المشركون - أهل الكتاب - المنافقون** ويُفصّل ذلك كالآتي:

المطلب الأوّل: دعوة المشركين بالمنهج العاطفي

قبل فسح مجال الحديث في تطبيقات المنهج العاطفي في دعوة النبي ﷺ للمشركين - وهم من أهل الكفر - كما أوضحنا- يجدر بنا التعريف بمصطلح الكفر والكفار من النّاحية اللّغوية والإصطلاحية حتى يتّضح المعنى أكثر.

أوّلاً: التعريف بالمشركين

أوضحنا سالفاً بأنّ المشركين هم من أهل الكفر الذين تصدّوا لرسالة الإسلام ولدعوة النبي ﷺ التي تحمل في ثناياها الإسلام ذاته، فحريٌّ بنا قبل التعريف بمصطلح المشركين الإشارة إلى التعريف بمصطلح الكفر - الذي يطلق على صنف غير المسلمين - من النّاحية اللّغوية والإصطلاحية.

أ - تعريف الكفر والكفار

- لغة

يُعرّفه العلامة الرّازي بالقول: (الكافُ والفاء والرّاء أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على معنى واحد، وهو السّترُ والتّغطية، يقال: لمن غطّى درعه بثوبٍ: قد كَفَرَ درعه، والمكفّر: الرّجلُ الممتّعِي بِسِلَاحِهِ، فأما قوله: حتّى إذا أَلْقَتْ يَدًا فِي كَافِرٍ... وَأَجَنَّ عَوْرَاتِ الشُّعُورِ ظِلَامُهَا، فيُقال: إنّ الكافرَ: مَغِيبُ الشّمسِ، ويقال: بل الكافرُ: البَحْرُ وَكَذَلِكَ فُسِّرَ قَوْلُ الْآخِرِ: فَتَذَكَّرْنَا ثَقَلًا رَثِيْدًا بَعْدَمَا ... أَلْقَتْ دُكَاءَ يَمِينِهَا فِي كَافِرٍ، وَيُقَالُ لِلزَّارِعِ كَافِرٌ، لِأَنَّهُ يُعْطَى الحَبَّ بِشَرَابِ الْأَرْضِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنِائِهِ﴾ [الحديد: 20] وَالْكَفْرُ: ضِدُّ الْإِيْمَانِ، سُمِّيَ لِأَنَّهُ تَعْطِيَةُ الْحَقِّ. وَكَذَلِكَ كُفْرَانُ النِّعْمَةِ:

جُحُودُهَا وَسَتْرُهَا، ﴿إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ عَلِيمُونَ﴾ [القصص: 48] أي: جاحدون وقوله تعالى: ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: 89]⁽¹⁾.

- اصطلاحاً

يعرف الإمام ابنُ تيمية رحمه الله الكفر بالقول: (الكفر هو عدم الإيمان بالله ورسله، سواء كان معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب، بل شك وريب أو إعراض عن هذا كله حسداً أو كبراً أو إتباعاً لبعض الأهواء الصارفة عن إتباع الرسالة، وإنَّ الكافر المكذب أعظم كفراً، وكذلك الجاحد المكذب حسداً مع إستيق صدق الرُّسل والشُّور المكيّة كلّها خطاب مع هؤلاء)⁽²⁾ ويعرّفه الإمام القرطبي رحمه الله في "تفسيره" فيقول: (والكفر ضدّ الإيمان وهو المراد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 6] وقد يكون بمعنى الجحود للنعمة والإحسان ومنه قوله ﷺ: «تصدّقن فإني رأيتكنّ أكثر أهل النار، فقليل بمّ يا رسول الله؟ قال: يكفرنّ، قيل: أيكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير ويكفرن الإحسان»⁽³⁾ وجمع كفر كُفّار، جاء في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ﴾ [الحديد: 20] يعني الزّراع لأنهم يغطون الحبّ ورماد)⁽⁴⁾ ويعرّفه الدكتور عبد الرّؤوف بنُ المناوي بالقول: (والكفر تغطية ماحقّة الإظهار، والكفران ستر نعمة المنعم بترك أداء شكرها، وأعظم الكفر جحود الوحدانية، أو النبوة أو الشريعة، والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالاً، والكفر في الدّين أكثر، والكفور فيهما جميعاً، والكفارة ما يغطي الإثم، وشرعا ما وجب على الجاني جبراً لما منه وقع وزجراً عن مثله)⁽⁵⁾.

(1) - الرّازي، مقاييس اللّغة، تحقيق: عبد السّلام محمّد هارون (دار الفكر، د، ط، ج5، 1399هـ/1979م)، ص 192.

(2) - ابنُ تيمية، مجموع فتاوى (المملكة العربية السّعودية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، د، ط، ج12، 1425هـ/2004م)، ص 335.

(3) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطّاعات وبيان إطلاق لفظ الكفر على غير الكفر بالله ككفر النعمة والحقوق، ص 86.

(4) - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي، ج1، المصدر السّابق، ص 183.

(5) - عبد الرّؤوف بنُ المناوي، التّوقيف على مهمّات التّعريف، تحقيق: الدكتور عبد الحميد صالح حمدان (القاهرة: عالم الكتب، ط1، 1410هـ/1990م)، ص 282.

و أمّا الكافر

يعرّفه العلامة الرّاعب الأصفهاني بالقول: (الكافر على الإطلاق متعارف فيمن يجحدّ الوجدانية أو النبوة أو الشريعة أو ثلاثها)⁽¹⁾ والكفار على أقسام حدّدها الإمام الحافظ ابن حجر رحمه الله فقال: (إنّ الناس إمّا مسلم وإمّا كافر، فالكافر إمّا حربيّ ولا يوصى به، وإمّا ذميّ وقد أوصى به، والمسلم إمّا مهاجري وإمّا أنصاري أو غيرهما)⁽²⁾ وعليه إنطلاقاً من التعريفات السابقة، يتّضح بأنّ أصناف المدعوين الغير المسلمين المعنيين بالدراسة هم من ينطبق عليهم تسميتهم بأهل الكفر، لكونهم ممن تصدّوا لدعوة النبي ﷺ ولشخصه المبجل، وصنف المشركين هم أولهم تصدياً لهذه الدعوة الكريمة. ولمعرفة تطبيقات منهج النبي ﷺ العاطفي في دعوة المشركين، يجدر بنا التعريف بماهية المشركين و أوضاعهم آنذاك و بدايات ظهورهم.

ب - التعريف بالمشركين

هم أهل الأوثان والأصنام الذين عبدوا غير الله وأشركوا معه سواء من الأنداد أو الوسطاء يقول تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: 165] وهؤلاء لا ينكرون وجود الله وخلقه للأشياء، بل يؤمنون بأنّه الخالق الرّازق الملهم المدبّر، لكن جعلوا بينه وبينهم شفعاء يدعونهم ويسألونهم ويستغيثون بهم ويصرفون لهم أنواع العبادة⁽³⁾، فقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: 18] والنبي عليه الصّلاة والسّلام عاش في بيئتهم، وتكلّم بالسنتهم فقد راعى أحوالهم وطبائع نفوسهم ممّا جعل كثيراً منهم يؤمنون برسالته عندما لمسوا فيه الرّحمة، وعاملهم باللين والرّفق، فقد كان يولي قريشاً وأشرافها عناية خاصّة لمكانتهم عنده، وهم أهل قومه، وكان يتألّفهم ويخشى عليهم كما يخشى على نفسه محاولاً بيان الحقّ الذي يحجّبه الكفر والضلال، يقول الإمام ابن كثير رحمه الله: (اجتمع عليه من أشراف قريش ... فبعثوا إليه أنّ أشراف قومك قد

(1) - يُنظر: الرّاعب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، المصدر السّابق، ص-ص 433، 434.

(2) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب قصّة البيعة والاتفاق على

عثمان بن عفان وفيه مقتل عمر بن الخطّاب، رقم الحديث 3700، ج7، المرجع السّابق، ص 84.

(3) - عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، الجامع للبحوث والرّسائل، المرجع السّابق، ص 485.

اجتمعوا لك ليكلموك فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً وهو يظن أنه قد بدى لهم في أمره بدو وكان حريصاً يحبّ رشدهم ويعزّز عليه عنتهم حتى جلس إليهم⁽¹⁾.

ثانياً: لمحة عن طروء الشرك عند العرب وسدّ ذرائعه

أبتلي العرب بتخلّف ديني شديد ووثنية سخيصة لا مثيل لها وانحرافات خلقية واجتماعية وفوضى سياسية وتشريعية، فأشربت قلوبهم زيفاً وانحرافاً وضلالاً، وكان المتسبب في وقوع القوم في شرك الوثنية زعيمهم آنذاك عمرو بنّ عامر بنّ لحي الخزاعي^(*) الذي جلب لأهل مكّة صنماً يدعى هبل فأمر الناس بعبادته وتعظيمه وحصل بهذا العمل انحرافاً خطيراً في عقيدة القوم⁽²⁾ ومن ثمّ عبدوا الأصنام فكان لكل قبيلة صنم بل ولكل بيت صنم يعبدونه ويقدّسونه ويتوسّلون إليه، فكان مجتمعا جاهلياً هيمنت عليه عبادة الأوثان والمظالم والأخلاق الذميمة كالظلم والزنا والرّبا والاستبداد والقهر وسيطرة القويّ على الضّعيف، وفي ظلّ هذا الجوّ الوثني الصّخب أرسل الله نبيّه هادياً إلى طريق الحقّ والسّداد ليخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور الحقّ، فوجد العداء له من قريش وأكابرها، وأوذي بشتّى أنواع الإيذاء الجسدي والنّفسي والرّوحي فاتهموه بالسّحر والكذب ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرُ كَذَّابٍ﴾ [ص: 4] فقابلوا دعوته بالاستهزاء ورموه بالجنون: ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: 6] إنّ تهمة النبي ﷺ بالجنون كان القصد منه تنفير الناس من دعوته، لأنّ التّضحية بالنّفس وتعريضها للهلاك من أجل المحافظة على المبدأ يعدّ عندهم ضرباً من الجنون، والواقع المعاش يشهد بذلك، حيث نجد المحسوبين على الإسلام يُنظر إلى دعاة الإسلام الذين يقاومون الباطل ويدافعون عن الإسلام وهم يتعرّضون لضياح أموالهم والتّشريد والسّجن والقتل أحياناً على أنّهم

(1) - ابن كثير، السيرة النبوية (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، ج1، 1395هـ/1976م)، ص-ص 478، 479.

(*) - عمرو بنّ لحي: أوّل من غير دين إسماعيل عليه السلام فنصب الأوثان وسبب السائبة ووصل الوصيلة، وبحر البحيرة، وحمى الحامية وقاتل جرهما بني إسماعيل عليه السلام فظفر بهم وأجلاهم عن الكعبة وتولّى حجابة البيت بعدهم، وفي رواية يذكرها ابن الكلبي حول هذا الأمر منها إنّ عمرو بنّ لحي مرض مرضاً شديداً ف قيل له: إنّ باللقاء من الشّام حمه أن أتيتها برأت، فأتاها فاستحم بها فبرأ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام، فقال: ما هذه؟ فقالوا: نستسقي بها المطر ونستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا، فقدم بها مكّة، ونصبها حول الكعبة وأمر النّاس بطاعتها وعبادتها (يُنظر: حيدر حسن حمزة وآخر، كتاب الأصنام لابن الكلبي، دراسة تاريخيّة تحليليّة، جامعة بابل، كلّية التربية، مجلّة كلّية التربية، العدد 17، 2014م)، ص-ص 43، 45.

(2) - الطيّب برغوث، منهج النبي ﷺ في حماية الدّعوة والمحافظة على منجاتها خلال الفترة المكيّة (فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1416هـ/1996م)، ص-ص 166، 167.

بجانين لأنّ الدُّنيا عندهم هو عين العقل وطريق الصَّواب⁽¹⁾ فحوصر النبي ﷺ ومن معه من أهله حصاراً لم يشهد له التاريخ مثيلاً، حيث منع البيع لهم والشِّراء منهم والسَّلام عليهم ومواساتهم حتّى من أقرب النَّاس إليهم، جرى كلّ ذلك على أيدي قومه بني عمومته وعشيرته فما قابل إساءتهم إلّا بالصَّبر فنزلت الآيات لتصبره، يقول تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: 35] وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: 127] وقد نال الأذى معه ﷺ أصحابه وخاصّة المستضعفين منهم، فنكل بهم المشركون أشدَّ التَّنكيل وصبّوا عليهم شتى أنواع التعذيب حتّى جعل الله لهم مخرجاً إمّا الشَّهادة في سبيل الله أو الهجرة إلى المدينة أو الحبشة، وبرغم كل هذا التَّصدي لدعوة النبي ﷺ - من قبل قومه المشركين - إلّا أنّه ﷺ آثر السَّلم والسَّماحة والعفو مستخدماً أسلوبه العاطفي شفقة عليهم، أو لعلَّ يخرج من أصلاهم من ينصر الدِّين الذي بُعث من أجله، لذلك فقد شهد النبي ﷺ في دعوة قومه مواقف مؤثّرة، وأساليب مدهشة، كان لها الأثر الكبير في تأليفهم إلى لإسلام والإقبال عليه نوردها كالآتي:

ثالثاً: مواقف النبي ﷺ العاطفية وأساليبه في دعوة المشركين

أ- تأليف القلوب وترغيبها في الإسلام بالحسنى

إنّ ما يحتاجه المدعوون - وهو أصل التَّعامل في الإسلام - الرِّفق ولين الجانب والسَّعي حثيثاً لتأليف قلوبهم والصَّبر عليهم، دون استعجال النَّائج والثَّمرات، فتأليف القلوب له الأثر البالغ في جلبها للخير وتحبيبها في الإسلام، وقد كان النبي ﷺ الرِّحمة المهداة يتألّفهم بالقول والوسيلة والمعاملة، يظهر ذلك في مواقف عدّة منها ما روي في صحيح البخاري أنّه استسقى ﷺ لبعض المشركين عندما جاءه أبو سفيان يطلب منه أن يستسقى لهم فاستسقى لهم⁽²⁾، فكان ذلك إحساناً منه ﷺ إليهم يتألّف به قلوبهم كما كان يتألّف بغير ذلك، وكان يستوصي، بأسارى بدر خيراً فأسلم كثيرٌ من هؤلاء على فترات مختلفة قبل فتح مكّة وبعدها منهم العبّاس، وعقيل بن أبي طالب، ونوفل بن

(1) - عبد العزيز بن عبد الله الحميدي، التاريخ الإسلامي مواقف من السيرة النبوية (القاهرة: دار الدعوة للنشر والتوزيع، ط1، ج1، 1418هـ/1997م)، ص 129.

(2) - يُنظر: صحيح البخاري، كتاب الاستسقاء، باب إذا استشفع المشركون بالمسلمين عند القحط، رقم الحديث 1020، المرجع السابق، ص 248.

الحارث بن عبد المطلب، وخالد بن هشام وغيرهم كثير⁽¹⁾، ولَمَّا هبط عليه في صلح الحديبية ثمانون متسلّحون يريدون غرته فأسرهم ثم منّ عليهم، كما أنه أسر ثمانية في موقف آخر فأطلقه فأسلم⁽²⁾ فكان موقفه مع هذا الأخير - مع سيّد أهل الإمامة ثمانية بنّ أثال^(*) - عندما أُسِرَ ورُبطَ بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: «ما عندك يا ثمانية فقال: عندي خير يا محمد إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكِر، وإن كنت تريد المال فسلّ منه ما شئت، فترك حتّى كان الغد ثمّ قال له: ما عندك يا ثمانية؟ قال: ما قلت لك إن تنعم تنعم على شاكِر، فتركه حتّى كان بعد الغد فقال ﷺ: ما عندك يا ثمانية؟ فقال: عندي ما قلت لك، فقال: أطلقوا ثمانية، فانطلق إلى نَجْلٍ قريب من المسجد فاغتسل ثمّ دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله...»⁽³⁾ بهذه الرّوحيّة العذبة للنبي ﷺ ضرب المثل لأئمّته طرق التّعامل مع الأسارى، وكان جليّاً مع ثمانية بنّ أثال الأسير، ممّا أعطى دروساً وعبراً يستفاد بها الدّاعية في طريق الدّعوة، فكان من جملة مواقفه معه كالآتي :

- تخلية سبيله بلا مقابل، يذكر الإمام ابن القيم رحمه الله أساليب تعامل النبي ﷺ مع الأسرى فيقول: «كان النبي ﷺ يمنّ على بعضهم - الأسرى - ويقتل بعضهم ويفادي بعضهم بالمال، وبعضهم بأسرى المسلمين، وقد فعل ذلك كلّهُ بحسب المصلحة، ففادى أسارى بدر بمال وقال: لو كان المطعم بن عدي حيّاً، ثمّ كلّمني في هؤلاء التّنى لتركتهم له»⁽⁴⁾ فاعتبرهم النبي ﷺ من ضمن

(1) - سليمان بن عبد العزيز بن أحمد الدويش، المرجع السّابق، ص 267.

(2) - ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخر، فصل في هديه ﷺ في الأسارى، (بيروت: مؤسّسة الرّسالة، ط 3، 1418هـ/1998م)، ص 100.

(*) - ثمانية بنّ أثال: سيّد أهل الإمامة، هو أوّل معتمر في الإسلام، وأوّل مسلمٍ يدخل مكّة ملبّيّاً، وهو أوّل من فرض الحصار الاقتصادي في الإسلام نصرته لرسول الله ﷺ، كان أمير بنو حنيفة، وأحد أشراف بكر بن وائل، وسيّد من ساداتهم، من أسارى بدر، كان إسلامه بعد إسلام أبي هريرة ؓ، وهو في سنة سبع، توفّي بعد حروب الرّدة في البحرين. حيث قُتل وهو في طريق العودة إلى الإمامة، فقد كان لابنًا خميصه الحطم بن ضبيعة وظنّ أصحاب الحطم إن ثمانية هو من قتله، ولم يكن ثمانية هو من قتل الحطم بل اشتراها من غنمها في الحرب، فقتلوه انتقاماً للحطم. (يُنظر: ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب (عمان: دار الإعلام، ط 1، 1423هـ/2002م)، ص 282.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمانية بنّ أثال، رقم الحديث 4372، ص 1070.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فرض الخمس، باب ما منّ النبي ﷺ على الأسارى من غير أن يخمس، رقم الحديث 3139، ص 774.

الفئات المستضعفة التي يتوجَّب على المسلمين إحاطتهم بالرَّأفة والرَّحمة، يقول الله تعالى في شأنهم: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: 8] وقال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: «كان النبي ﷺ يأمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغذاء»⁽¹⁾.

- كانت معاملته لثامته وغيره من الأسرى في غاية اللين والرِّفق والرَّحمة، وكان يرجي إسلامه وإسلام قومه، فعندما قال ﷺ لأصحابه: «أطلقوا ثامته» وفي رواية ابنِ إسحاق قال: «قد عفوت عنك يا ثامته وأعتقتك»⁽²⁾ إنقلب بغض ثامته المشرك حبًّا، وعداوته صداقة فأسلم وحسن إسلامه، وذلك لما أسداه إليه النبي ﷺ من العفو والمنِّ بغير مقابل⁽³⁾ هنا يتبيَّن ثمرة الدَّعوة باللين والملاطفة، وكيف استطاع النبي ﷺ أن يتألَّف سيِّدًا من أسياد القبائل العربية بالدُّخول في الإسلام، وأحد أسرى بدر الكبرى حتَّى قال قولته التَّاريخية: «والله ما كان من الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبَّ الوجوه كلِّها إليَّ، والله! ما كان من دين أبغض إليَّ من دينك فأصبح دينك أحبَّ الدين إليَّ، والله ما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك فأصبح بلدك أحبَّ البلاد»⁽⁴⁾ ولَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قال لأهلها: «أُسلِمتُ مع محمَّد رسول الله ﷺ، ولا والله! لا يأتيكم من اليمامة حَبَّة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ»⁽⁵⁾ يشير الإمام النَّووي رحمه الله إلى حكمة نبويَّة في تأليف ثامته فقال: (كان النبي ﷺ يتألَّف القلوب ويلطف من يرى إسلامه من الأشراف الذين يتبعهم على إسلامهم خلق كثير)⁽⁶⁾ وإلى كثير⁽⁶⁾ وإلى دلائل عملية تمثَّلت في الرَّحمة بالأسير ما روي عنه ﷺ أنَّه رأى أسارى بني قريظة موقوفين في قيظ النَّهار تحت الشَّمس، فأمر من يقومون بحراستهم قائلاً: «لا تجمعوا عليهم حرَّ هذا

(1) - ابنُ كثير، تفسير القرآن العظيم، المصدر السَّابق، ص 295.

(2) - ابنُ حجر العسقلاني، فتح الباري لصحيح البخاري، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثامته بن أثال، رقم الحديث 4272، ج 8، المرجع السَّابق، ص-ص 87، 88.

(3) - إبراهيم بن عبد الله المطلق، التَّدْرِجُ في دعوة النَّبي ﷺ، رسالة الماجستير، جامعة الإمام محمَّد بن سعود الإسلامية، كَلِّية الدَّعوة والإعلام، قسم الدَّعوة والاحتساب، 1414هـ، ص 104.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثامته بن أثال، حديث 4372، ص 542.

(5) - ابنُ حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثامته بن أثال، رقم الحديث 4272، ج 8، المرجع السَّابق، ص 88. وإبراهيم العلي، صحيح السَّيرة النَّبوية (الأردن: دار النَّفائس، ط 1، 1415هـ/ 1995م)، ص 295.

(6) - النَّووي، صحيح مسلم بشرح النَّووي، كتاب الأفضية، باب ربط الأسير وحبسه وجواز المنِّ عليه، مج 12، المرجع السَّابق، ص 89.

اليوم وحرّ السلاح.. قيلوهم حتى يردوا»⁽¹⁾ وكثيراً ما أطلق ﷺ سراح الأسرى في سماحة بالغة، رغم أن عددهم بلغ في بعض الأحيان ستّة آلاف أسير⁽²⁾ وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: «أسر أصحاب رسول الله ﷺ رجلاً من بني عقيل - حلفاء ثقيف - فقال: يا محمد، يا محمد، وكان رسول الله ﷺ رحيماً رقيقاً... فقال: ما شأنك؟ قال: إني جائع فأطعمني، وظمآن فأسقني، قال: هذه حاجتك»⁽³⁾ لقد كانت وصيّة نبيّ الرّحمة ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم وأمثته من بعدهم صريحة في الإحسان إلى الأسير، وقد ضرب الصّحابة مثلاً أعلى في العمل بتلك الوصيّة التي أفصح عنها أحد الأسرى في الزّمن الأوّل أبي عزيز بن عمير، أخو مصعب بن عمير قال: كنت في الأسارى يوم بدر، فقال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالأسارى خيراً وكنت في نفرٍ من الأنصار، وكانوا إذا قدموا غداؤهم وعشاءهم أكلوا التّمر وأطعموني الخبز بوصيّة رسول الله ﷺ إليّهم»⁽⁴⁾ بهذا المنهج العاطفي الذي سلكه النبي ﷺ جعل ثمامة يُقبلُ على الإسلام دون تردّد، لأنّ معاملة المدعو بالإحسان يُزيل الكراهية ويزرع الحبّ، فيلين القلب وتحدث الاستجابة، يذكر الإمام الحافظ ابن حجر رحمه الله ثمره هذا الإحسان فيقول: (وأنّ الإحسان يزيل البغض ويثبت الحبّ وأنّ الكافر إذا أراد عمل خير ثم أسلم شرع له أن يستمر في عمل ذلك الخير، وفيه الملاطفة لمن يرى إسلامه من الأسارى وإن كان في ذلك مصلحة)⁽⁵⁾ وعليه نستوحي من حديث النبي ﷺ مع ثمامة "منهجاً عاطفياً" وخلقاً مهماً في طريقة التّعامل مع الأسير الكافر وهو كالآتي:

- المَنّ على الأسير الكافر وتعظيم أمر العفو عن المسيء، لأنّ ثمامة أقسم أنّ بُغضه انقلب حبّاً في ساعة واحدة لما أسداه النبي ﷺ إليه من العفو والمَنّ بغير مقابل.
- الإحسان والرّفق يزيل الكراهية والبغض وينبتُ الحبّ.

(1) - السرخسي، شرح كتاب السير الكبير، تحقيق: محمّد حسن إسماعيل الشّافعي (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، ج2، 1417هـ/1997م)، ص264.

(2) - محمّد مسعد ياقوت، نبيّ الرّحمة الرّسالة والإنسان (القاهرة: الرّواء للإعلام العربي، ط1، 2007م)، ص171.

(3) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النذر، باب لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك العبد، رقم الحديث 1641، ج3، ص1262.

(4) - تمّ تخرجه سابقاً، يُنظر صفحة 265.

(5) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال، رقم الحديث 4372، ج8، المرجع السّابق، ص88.

- الملاحظة لمن يرجى إسلامه من الأسارى إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام، ولا سيما من يتبعه على إسلامه العدد الكبير من قومه⁽¹⁾، وظهرت سمة أخرى في دعوة النبي ﷺ متمثلة في تأليف القلوب بالحكمة والقول اللين وإقامة الدليل على صدق رسالته، لما في ذلك من التأثير في الإجابة، فالصديق أبو بكر رضي الله عنه حين عرض عليه النبي ﷺ الحق دون تردد استجاب له، دليل ذلك قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ قُلْتُمْ كَذِبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقْتَ، وَوَأَسَانِي بِنَفْسِهِ...»⁽²⁾ وموقفه التاريخي - سبق الحديث فيه - مع عمه أبي طالب وهو كبير قريش حيث كان يقول له: «..وأنت أي عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى وأحق من أجابني إليه وأعانني عليه»⁽³⁾ وحين نتأمل في حوار الهادئ مع أحد كبار كفار قريش حصين الخزاعي^(*) كانت قريش تعظمه فأرسلته تطلب منه أن يكلم محمدًا ﷺ في آهتهم، فقالت له: كَلِّمْ لَنَا هَذَا الرَّجُلَ، فَإِنَّهُ يَذْكُرُ آهَتَنَا وَيَسْبِّهُمُ، فَجَاءُوا مَعَهُ حَتَّى جَلَسُوا قَرِيبًا مِنْ بَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: أَوْسَعُوا لِلشَّيْخِ، وَعِمْرَانُ وَأَصْحَابُهُ مَتَوَافِرُونَ، فَقَالَ حَصِينٌ: مَا هَذَا الَّذِي بَلَّغْنَا عَنْكَ؟ إِنَّكَ تَشْتُمُ آهَتَنَا وَتَذْكُرُهُمْ وَقَدْ كَانَ أَبُوكَ حَصِينٌ خَيْرًا فَقَالَ: يَا حَصِينُ، إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ، يَا حَصِينُ، كَمْ تَعْبُدُ مِنْ إِلَهٍ؟ قَالَ: سَبْعًا فِي الْأَرْضِ وَوَاحِدًا فِي

(1) - المرجع نفسه، رقم الحديث 4272، ص-ص 88، 89.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلاً»، رقم الحديث 3461، ص 1339.

(3) - ابن هشام، السيرة النبوية (بيروت: دار الكتاب العربي، ط 3، ج 1، 1410هـ/1990م)، ص 283.

(*) - حصين بن عبيد بن خلف الخزاعي، والد عمران، اختلف في إسلامه، فروى أحمد والنسائي بإسناد صحيح عن ربي، عن عمران بن حصين، أن حصينا أتى النبي ﷺ قبل أن يسلم ... الحديث. وفيه: ثم إن حصينا أسلم. ورواه النسائي من وجه آخر عن ربي، عن عمران بن حصين، عن أبيه أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد، كان عبد المطلب خيرا لقومك منك ... الحديث، وفيه: فلما أراد أن ينصرف قال: ما أقول؟ قل: «اللهم قني شر نفسي، واعزم لي على أرشد أمري» فانطلق ولم يكن أسلم، ثم أسلم، فقال يا رسول الله: فما أقول الآن حين أسلمت؟ قال: قل: «اللهم قني شر نفسي، واعزم لي على أرشد أمري، اللهم اغفر لي ما أسرت وما أعلنت، وما أخطأت، وما عمدت، وما علمت، وما جهلت» وفي رواية للنسائي: فما أقول الآن وأنا مسلم؟ وسنده صحيح من الطريقتين. وروى ابن السكن والطبراني من طريق داود بن أبي هند عن العباس بن ذريح، عن عمران بن حصين، قال: أتى أبي حصين بن عبيد إلى النبي ﷺ، فقال: يا محمد، رأيت رجلاً كان يصل الرحم، ويقرى الضيف، ويصنع كذا وكذا لم يدركك، هل ينفعه ذلك؟ فقال: لا .. الحديث. وفيه: قال: فما مضت عشرون ليلة حتى مات مشركا. وقال الطبراني: الصحيح أن حصينا أسلم، (يُنْظَرُ: أبو عبد الله سيد بن كسروي بن حسن، هدي القاصد إلى أصحاب الحديث الواحد، حرف الحاء، بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، ج 1، 2002م)، ص 301، وفي (الإصابة في تمييز الصحابة، رقم الحديث 1740، ج 2، ص 77).

السَّماء، قال: فإذا أصابك الضر من تدعو؟ قال: الذي في السَّماء، قال: فإذا هلك المال من تدعو؟ قال: الذي في السَّماء. قال: فيستجيب لك وحده وتشركهم معه؟ أرضيته في الشكر أم تخاف أن يغلب عليك؟، قال: ولا واحدة من هاتين. قال: وعلمت أيّ لم أكلم مثله. قال: يا حصين أسلم تسلم، قال: إنّ لي قومًا وعشيرةً، فماذا أقول؟ قال: قل: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَهِدُّكَ لِأَرْشِدِ أَمْرِي، وزدني علما ينفعني، فقالها حصين. فلم يقم حتّى أسلم، فقام إليه عمران فقبّل رأسه ويديه ورجليه، فلما رأى ذلك النبي ﷺ بكى، وقال: بكيت من صنيع عمران، دخل حصين وهو كافر فلم يقم إليه عمران ولم يلتفت ناحيته، فلمّا أسلم قضى حقّه، فدخلني من ذلك الرّقة «فلما أراد حصين أن يخرج قال لأصحابه: قوموا فشيعوه إلى منزله، فلما خرج من سدة الباب رآته قريش فقالوا: صبأ، وتفرّقوا عنه»⁽¹⁾ كان حوار - ﷺ - الهادئ والمؤثّر، له أثرًا في قلب حصين، فبعدما دخل كافرًا منتقمًا خرج مسلمًا صادقًا⁽²⁾، وما حدث مع فضالة بن عمير بن الملوح^(*) الذي فكّر في قتل النبي ﷺ وهو يطوف يوم الفتح فلما دنا من النبي ﷺ قال له: أفضالة؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: ماذا كنت تُحدّث به نفسك؟ قال: لا شيء، كنت أذكر الله، قال: فضحك النبي ﷺ ثمّ قال: استغفر الله، ثمّ وضع يده على صدره، فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: «والله ما رفع يده عن صدري حتّى ما من خلق الله شيء أحبّ إليّ منه»⁽³⁾ قال فضالة: فرجعت إلى أهلي، فمررت بامرأة كنت أتحدّث إليها فقالت: هلمّ إلى الحديث فقلت: لا وانبعث فضالة يقول:

قالت هلمّ إلى الحديث فقلت: لا يأبى الإله عليك والإسلام
لو قد رأيت محمّدا وقبيله بالفتح يوم تكسر الأصنام

(1) - أخرجه الترمذي في سننه، باب (69) (70)، مج 5، رقم الحديث 3483، المصدر السابق، ص 468. وقال: هذا حديث حسن غريب، وقد روي عن عمران بن حصين من غير هذا الوجه، وفي الإصابة في تمييز الصحابة، رقم الحديث 1740، ج2، المرجع السابق، ص 77.

(2) - يُنظَر: صالح بن عبد الله بن حميد، مفهوم الحكمة في الدعوة، المرجع السابق، ص 19.

(*) - فضالة بن عمير بن الملوح: يعني اللّيثي، والد عبد الله، أدرك الجاهلية، فأراد قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح (ابن كثير، السيرة النبوية، بيروت: دار الكتب العلمية، ط3، 2011م)، ص 443.

(3) - محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة (دمشق: دار الفكر، ط25، 1426هـ)، ص 268. والسيرة النبوية لابن هشام، ج2، المرجع السابق، ص 38.

لرأيت دين الله أضحى بيّنا والشرك يغشى وجهه الإسلام⁽¹⁾

إنّ سماحة النبي ﷺ ومعاملته الحسنة باللّين والرّفق حوّلت الكره إلى حبّ، وكافرا حاقداً إلى مسلم، وأثمرت نجاة إنسان من الكفر إلى الإسلام، كما نوع النبي ﷺ في تأليف المشركين بمصاهرته لبعض بطون العرب، ومن بينها استطاع أن يُوقع بني المصطلق في شرك الحبّ للإسلام، من خلال زواجه بجويرية بنت الحارث لَمّا قدمت إليه تطلب فكاكها عندما وقعت في سهم ثابت بن قيس، فقال لها النبي ﷺ: «فهل لك في خيرٍ من ذلك؟»، قالت: وما هو يا رسول الله، قال: أقضي عنك كتابك وأتزوّجك»⁽²⁾ ظهرت حكمة النبي ﷺ في هذه المصاهرة تأليف المرأة وقومها إلى الإسلام، فحينما سارع أصحابه بإعتاق ما في أيديهم وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ دعاهم ذلك إلى الإيمان بالله ورسوله لما رأوه من الكرم وحسن الخلق، فكان الزّواج والمصاهرة وسيلة من وسائل الدّعوة إلى الله، له آثار طيّبة أن دخلوا في هذا الدّين قبائل وأقواماً، وعليه فليُنظر الدّاعية الخير العميم الذي يأتي من وراء الرّفق والملاطفة والقول اللّين، وإنّ المتأمل في الواقع الذي نعيشه يجد كم من أناس يرمون غيرهم بالكفر والإلحاد ويلهبون ظهورهم بالألفاظ الغليظة والكلمات النّابية والأحكام المتعسّفة الجائرة، وكم من كلمةٍ خشنة وأسلوب فظّ أبعد كثيراً من النّاس عن طريق الحقّ، والدّعوة الإسلامية منذ التّاريخ لاقت صدوداً من أهل الكفر والإلحاد، فاتّخذت معالم من الحكمة وأسلحة من الصّبر، حيث لم تتعامل معهم قبل أن تخضعهم في رسكلة مع جوانبهم العاطفية تجاه الإسلام، والدّاعية بمثابة رسول الدّعوة عليه أن يتوخّى الحذر ويحتاط في معاملته مع أمثال هؤلاء، يعظّم أمر العفو عن المسيء فيهم، ويحسن معاملتهم دون تعسّف أو تعنّف أو عجلة في الحكم عليهم، فإنّ أظهرهم ولاءهم للإسلام كان ذلك خيراً وانتصاراً، وإنّ أصروا على إلحادهم جدير بالدّاعية أن يمهّلهم في قبول الدّعوة بشيءٍ محبّب لهم، باعتباره هذا أسلوباً ومنهجاً عاطفياً يمهّل النفوس ويلامس القلوب شفقةً ولطفاً بهم.

ب- الرّحمة والعفو بكفّار قريش

لقد كانت علاقة النبي ﷺ بالمشرّكين موسومة بالتّسامح والرّحمة، ويظهر منه جليّاً في معظم معاهداته وحروبه وعلاقاته، فبرز في صلح الحديبية الذي هو عقد بينه وبين المشركين عندما أراد أن يدخل البيت الحرام، وكان الصّلح فيه حيف من جانب المشركين، وسماحة من جانب النبي ﷺ فقد

(1) - محمّد بن عبد الوهاب، مختصر السّيرة النّبوية (الرّياض: مطبوعات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، 1418هـ)، ص 206.

(2) - يُنظر: أبا محمّد بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، السّيرة النّبوية لابن هشام، تحقيق: طه عبد الرّؤوف سعد (بيروت: دار الجليل، ج 3، 1975م)، ص-ص 175، 176.

أَصْرُوا أَنْ يَمْنَعُوهُ مِنَ الْعِمْرَةِ فَقَبِلَ الشَّرْطَ، وَقَدْ كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ جَيْشٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدَّكَ عَلَيْهِمْ دِيَارَهُمْ حَتَّى ضَجَّ بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ وَوَقَفَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ يَقُولُ: «فَفِيمَ نَعْطِي الدِّينَةَ فِي دِينِنَا»⁽¹⁾ فَكَانَتْ الْحِكْمَةُ النَّبَوِيَّةُ فِي إِثَارِ السَّمَاخَةِ وَحَقْنِ الدِّمَاءِ وَلَمْ يَكُنْ قَبُولًا لِلدِّينَةِ، وَقَدْ سَمَّى اللَّهُ ذَلِكَ الصُّلْحَ فَتْحًا مَبِينًا حَيْثُ قَالَ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝١﴾ [الفتح: 1] وَكَانَ ذَلِكَ فَتْحًا لِلْقُلُوبِ فِي أَثْنَاءِ هَذِهِ الْهُدْنَةِ أَسْلَمَ الْكَثِيرُ مِنْ قَرِيشٍ وَغَيْرِهَا، وَكَمْ كَانَتْ نَتَائِجُ صَفْحِهِ وَسَلَمِهِ ﷺ مَذْهَلَةً فِي خِلَالِ عَامَيْنِ مِنْ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ - 6 هَجْرِي إِلَى 8 هَجْرِي - بَلَغَ عَدَدُ الْمُسْلِمِينَ زَهَاءً مِائَةً أَلْفَ مُقَارَنَةً بَعْدَهُمْ قَبْلَ الْفَتْحِ حَيْثُ لَا يَتَجَاوَزُ عَشْرَةُ أَلْفٍ، ثُمَّ إِنَّ قَرِيشًا بَعْدَ الصُّلْحِ لَمْ يَعْذُ فِي وَسْعِهَا أَنْ تَشَنَّ حَرْبًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَانَ هَذَا الصُّلْحُ الْمَتَسَامِحُ فَتْحًا مَبِينًا⁽²⁾، فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الْمَغَازِيِّ عَنْ عَمْرِو بْنِ سَلَمَةَ قَالَ: «وَكَانَتْ الْعَرَبُ تَلُومُ بِإِسْلَامِهِمُ الْفَتْحَ، فَيَقُولُونَ: أَتَرْكُوهُ وَقَوْمَهُ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ فَهُوَ نَبِيٌّ صَادِقٌ، فَلَمَّا كَانَتْ وَقَعَةُ أَهْلِ الْفَتْحِ، بَادَرَ كُلُّ قَوْمٍ بِإِسْلَامِهِمْ، وَبَدَرَ أَبِي قَوْمِي بِإِسْلَامِهِمْ...»⁽³⁾ لَقَدْ نَبَّهَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى الْحِكْمَةِ الْعَظِيمَةِ وَالْفَوَائِدِ الْجَمَّةِ الْمُرْتَبَةِ عَلَى هَذِهِ الْمَصَالِحَةِ الْإِمَامُ الزَّهْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ بِالْقَوْلِ: (مَا فَتَحَ فِي الْإِسْلَامِ فَتْحَ قَبْلِهِ كَانَ أَعْظَمَ مِنْهُ - أَيُّ مَنْ صُلِحَ الْحُدَيْبِيَّةُ - وَإِنَّمَا كَانَ الْقِتَالُ حَيْثُ لِقِيَ النَّاسُ، فَلَمَّا كَانَتْ الْهُدْنَةُ وَوُضِعَتْ الْحَرْبُ وَأَمِنَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَالتَّفُؤُا فَتَفَاوَضُوا فِي الْحَدِيثِ وَالْمَنَازَعَةِ، فَلَمْ يَكَلِّمْ أَحَدٌ فِي الْإِسْلَامِ يَعْقِلُ شَيْئًا إِلَّا دَخَلَ فِيهِ، وَلَقَدْ دَخَلَ فِي تِينِكَ السَّنَتَيْنِ مِثْلَ مَنْ كَانَ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرَ)⁽⁴⁾ وَقَدْ سَاقَ ابْنُ هِشَامٍ فِي السِّيَرَةِ الدَّلِيلَ عَلَى صَحَّةِ قَوْلِ الْإِمَامِ الزَّهْرِيِّ وَدَقَّتْهُ فَقَالَ: (إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ إِلَى الْحُدَيْبِيَّةِ فِي أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، ثُمَّ خَرَجَ فِي عَامِ الْفَتْحِ بَعْدَ ذَلِكَ بِسَنَتَيْنِ فِي عَشْرَةِ أَلْفٍ)⁽⁵⁾ وَفِي قِصَّةِ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَحْكِي عَنْ أُمِّهَا الْمَشْرُكَةِ فِي عَهْدِ قَرِيشٍ مَعَ الْعِلْمِ أَنَّ قَرِيشًا فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ دَوْلَةٌ مُحَارِبَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ تَسْتَفْتِيهِ فِي أُمِّهَا قَائِلَةً: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أُمَّي قَدِمْتَ عَلَيَّ وَهِيَ رَاغِبَةٌ

(1) - يُنْظَرُ: إِبْرَاهِيمَ الْعَلِي، صَحِيحُ السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ، الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 318.

(2) - نَاصِرٌ مُحَمَّدِي مُحَمَّدٌ جَادٌ، التَّعَامُلُ مَعَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْعَهْدِ النَّبَوِيِّ (الرِّيَاضُ: دَارُ الْمِيْمَانِ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ، ط 1، 1430هـ/ 2009م)، ص 76. (وَيُنْظَرُ: إِبْرَاهِيمَ الْعَلِي، صَحِيحُ السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ، الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص-ص 324، 326).

(3) - أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، كِتَابُ الْمَغَازِيِّ، بَابُ مُقَدِّمِ النَّبِيِّ ﷺ بِمَكَّةَ زَمَنِ الْفَتْحِ، رَقْمُ الْحَدِيثِ 4302، ص 1052.

(4) - أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ الْحُسَيْنِيِّ النَّدَوِيِّ، السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ (جَدَّة: دَارُ الشُّرُوقِ، ط 8، 1410هـ/ 1989م)، ص 282.

(5) - ابْنُ هِشَامٍ، السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ (بَيْرُوت: دَارُ الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ، ط 3، ج 3، 1410هـ/ 1990م)، ص 255.

أفصلها قال: «نعم صليها» ⁽¹⁾ فالتبى ﷺ يأمر أسماء بنت أبي بكر المسلمة أن تصل أمها المشركة تعظيماً للعلاقة العاطفية بين الأم وابنتها، وهذا هو منتهى الرحمة والتسامح عند النبي ﷺ الذي يصف حكمه الإمام النووي رحمه الله بالقول: (وهذا دليل جواز صلة الأقارب بالكفار والإحسان إليهم) ⁽²⁾ إن مهمة الداعية هنا تطهير نفسه من الغيظ وشهوة الانتقام من مخالفه، فيجعل قلبه دائماً وعاءً للحب وإرادة التوفيق لهم، ويخرج من حظ نفسه فيقول لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً وهو يقرأ قول الله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة: 7] ومن بين المواقف العظيمة للنبي الكريم شهدت له بالرحمة عندما بلغه ما فيه أهل مكة من الحاجة والجذب والقحط، فبعث بشعير من ذهب - وقيل: نوى ذهب - مع عمرو بن أمية الضمري وأمره أن يدفعه إلى أبي سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، ويفرقه ثلاثاً ثلاثاً، فامتنع صفوان وسهيل من أخذه، وأخذه أبو سفيان كله، وفرقه على فقراء قريش، وقال: «جزى الله ابن أخي خيراً فإنه موصول لرحمه» ⁽³⁾، وموقفه في دعوة قومه إلى الإسلام رُغم شدة الأذى التي كان يتلقاها منهم لينقذهم من عذاب شديد، ولقد ضربوه مرة حتى غشي عليه ومرة وهو يصلي عند الكعبة فوضع المشركون على ظهره سلا جزور ^(*)، وهو ساجد فقال له الصحابة رضي الله عنهم: «يا رسول الله أدع على المشركين قال: إني لم أبعث لعناً وإنما بعثت رحمة» ⁽⁴⁾ ومع إيذائهم الشديد استمر النبي ﷺ في الجهر بدعوته حتى قرروا قتله حتى أمره الله بالهجرة، يقول الإمام الحسن البصري رحمه الله في هذا الأمر: (لما قام رسول الله ﷺ يقول لا إله إلا الله ويدعوا الناس إلى ربهم كانت العرب تلبدت عليه جميعاً، وقال قتادة: تلبدت عليه الجن والإنس على هذا الأمر ليطفئوه لكن الله أبقى إلا أن ينصره) ⁽⁵⁾ ومن أعجب ما شهد على النبي ﷺ رحمته في معاملته للأسرى المشركين، فقد

(1) - إثن حجر العسقلاني، فتح الباري لصحيح البخاري، أبواب الجزية والموادعة، باب إثم من عاهد ثم غدر، رقم الحديث 3183، ج6، المرجع السابق، ص 281.

(2) - المرجع نفسه، ص 218.

(3) - ناصر محمدي محمد جاد، التعامل مع غير المسلمين في العهد النبوي، المرجع السابق، ص 88.

(*) - سلا جزور: أي: الجلدة التي يكون فيها ولد الناقة عندما يولد (إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية، الأردن: دار التفائس، ط1، 1415هـ/1995م)، ص-ص 67، 68. ومحمد بن علي بن جميل المطري، نبئ الرحمة، دط، دت، ص 26.

(4) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلة والبر والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، رقم الحديث 2599، ص 1204. لقد سبق تخريجه في الصفحات السابقة.

(5) - إثن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج8، المصدر السابق، ص 245.

كان رفيقاً رحيماً بهم، إذ كان يوصي أمته بهم خيراً فيقول: «استوصوا بالأسرى خيراً»⁽¹⁾ وكان من بين الأسرى عمه العباس، وقد تحركت عاطفته ﷺ وهو في الأسر، وكان ممن خرج مع المشركين يوم بدرٍ فأُسِرَ وشُدَّ وثاقه، فسهر النبي ﷺ تلك الليلة ولم ينم، فقال بعض أصحابه: ما أسهرك يا نبي الله ؟ قال: أسهرني أنين العباس، فقام رجل من القوم فأرخى وثاقه فقال النبي ﷺ: «مالي لا أسمع أنين العباس، فقال الرجل: أنا أرخيثُ وثاقه يا رسول الله، فقال نبي الله ﷺ: فافعل ذلك بالأسرى كلهم»⁽²⁾. وعليه ليتأمل أخي القارئ إلى أيِّ حدٍّ بلغت رحمة النبي ﷺ من السُّموِّ والرِّفعة، رحمة تذيب الصَّخر، ومشاعر ارتقت بروحه الطَّاهرة ﷺ وهو يلقي برحمته منع إيذاء الأسرى، ليأمر بإكرامهم وجعلهم ممن يستحقُّون البرَّ، والدَّاعية بدورِهِ لا يضيق صدره بما يقول الأعداء من السَّفه والجهل ولا بما يدبُّون من المكر والخديعة والكيد، فالنبي ﷺ تحمَّل الأذى من المشركين وعاملهم بالحسنى وبالقول اللَّين فكان في قَمَّة من الحلم والسَّماحة فما لبث أن قال عنهم: «بل أرجوا أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»⁽³⁾ وأحياناً لا ينبغي أن يكون الدَّاعية متبلِّد الحسَّ مع الذين يطعنون في الدِّين ويسبِّون رسول الله ﷺ، أو يعيِّون على الإسلام وأهله، ويقىمون حرباً شعواء وخططاً دامية عليه، وإنما يجب الردُّ بما يتناسب مع هجومهم وتطاولهم على الإسلام بالمكر والخبث يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصَرُونَ﴾ [الشورى: 39].

ت- احترام كرامة الإنسان والرَّحمة والرِّفق به

لم تعرف البشرية محارباً أرحم بأعدائه أثناء الحرب قبلها وبعدها من رسول الله ﷺ، فقد كان يوصي بها صحابته في المعارك التي يخوضونها، وكانت وصاياه تصدُّر على أساس احترام كرامة الإنسان في المعركة فمادام المراد كسر شوكة الكفر، فلا يحلُّ بعد ذلك وراء القتل من مثله وغيرها، فقد كان يأمر أصحابه بالصَّدقة وينهاهم عن المثلة⁽⁴⁾، فقال ﷺ: «أعفَّ الناس قِتْلَةَ أَهْلِ الْإِيمَانِ»⁽¹⁾ أي:

(1) - تمَّ تخريجه سابقاً، يُنظر صفحة 265.

(2) - محمد بُنُّ سعد بُنُّ منيع الزهري، كتاب البقات الكبرى، تحقيق: علي محمد عمر (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط1، ج4، 1421هـ/2001م)، ص 12.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين، رقم الحديث 3231، ص 799.

(4) - أخرجه أبو داود في سننه، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخر، كتاب الجهاد، باب النَّهي عن المثلة، رقم الحديث 2667، ج4، المصدر نفسه، ص 301.

أَكْفُهُمْ وَأَرْحَمَهُمْ مَنْ لَا يَتَعَدَّى فِي هَيْئَةِ الْقَتْلِ الَّتِي لَا يَحِلُّ فَعْلُهَا مِنْ تَشْوِيهِ الْمَقْتُولِ وَإِطَالَةِ تَعْذِيهِ⁽²⁾، فَكَانَ مِنْ مَشْهُورِ كَلَامِهِ فِي وَصَايَا لِأَمْرَاءِ الْجُنُودِ مَا جَاءَ فِي حَدِيثِ بَرِيدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «... إَغْرُؤُوا وَلَا تَعْلُؤُوا^(*)، وَلَا تَعْدِرُوا^(*)، وَلَا تَمَثِّلُوا^(*)...»⁽⁴⁾ لَقَدْ كَانَ مَنْ فِيضَ رَحْمَتِهِ ﷺ إِحْتِرَامَهُ لِحُثِّ الْإِنْسَانِ وَلَوْ كَانَ كَافِرًا، فَأَمَرَ بِدَفْنِ جَثِّ الْمَشْرُكِينَ وَلَمْ يَتْرَكْهَا نَهْبًا لِلسَّبَّاحِ وَالْوَحُوشِ، وَأَضْحَى هَذَا الْمَنْهَجَ الْعَاطْفِي الَّذِي وَضَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَيَاتِهِ، يُوَكِّدُ سِمَوَّ مَنْهَجِهِ وَهَدْيِهِ فِي الْحَيَاةِ كُلِّهَا حَتَّى فِي مَوَاقِفِ الْحُرُوبِ وَالْقِتَالِ، وَمَوْقِفِهِ التَّارِيخِي الشَّامِخِ تَحَاهُ هِنْدُ بِنْتُ عَتَبَةَ، كَانَتْ أَشَدَّ حَقْدًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ قَبْلَ إِسْلَامِهَا، وَمَا قَامَتْ بِهِ بَعْدَ مَوْقِعَةِ أُحُدٍ بِالتَّمَثِيلِ بِجَنَاحِ الْمُسْلِمِينَ بَمَنْ فِيهِمْ حِمْرَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ -وَكَانَ حَدَثًا مَرِيْعًا- تَرَكَ هَذَا الْحَدَثُ جَرَحًا عَمِيقًا فِي قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ وَغَضَبَهُ الشَّدِيدَ نَاحِيَةَ هِنْدَ⁽⁵⁾، وَبَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ لَمَّا عَفَى عَنْهَا النَّبِيُّ ﷺ وَخَالَطَ الْإِسْلَامَ قَلْبُهَا قَالَتْ لِزَوْجِهَا أَبِي سَفْيَانَ: «إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَبَايَعَ مُحَمَّدًا، فَقَالَ: قَدْ رَأَيْتُكَ تَكْفُرِينَ فَقَالَتْ: أَيْ وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ اللَّهَ تَعَالَى حَقَّ عِبَادَتِهِ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ قَبْلَ اللَّيْلَةِ، فَقَالَ: فَإِنْ كَانَ لَا بَدَّ فَاذْهَبِي بِرَجُلٍ مِنْ قَوْمِكَ، فَذَهَبَتْ إِلَى عَمْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، فَذَهَبَ مَعَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَعْلَنْتَ إِسْلَامَهَا»⁽⁶⁾ لَقَدْ ظَهَرَ هُنَا تَأَثُّرُ هِنْدَ مِنْ خِلَالِ عَفْوِ النَّبِيِّ ﷺ وَسَمَاحَتِهِ، وَمِنْ دَلَائِلِ إِحْسَانِهِ لِقَتْلَى غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَلَا حِيلَةَ لَهُمُ النِّسَاءُ وَالْوِلْدَانُ، مَا قَالَهُ لِبِلَالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ أَتَاهُ بِامْرَأَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا صَفِيَّةُ بِنْتُ الْأَخْطَبِ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَقَدْ مَرَّ بِهَمَا عَلَى مِصَارِعَ

(1) - رواه أبو داود في سننه، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخر، كتاب الجهاد، المصدر السابق، رقم حديث 2666، ص 300. وأخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الديات، باب أعف الناس قتلة أهل الإيمان، رقم الحديث 2681، ج 2، ص 895. وذكر حكم الألباني: هذا حديث ضعيف.

(2) - أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي مع شرح ابن القيم الجوزي، كتاب الجهاد، باب في النهي عن المثلة، رقم الحديث 2649 (المدينة المنورة: المكتبة السلفية، ط 2، ج 7، 1388هـ/1968م)، ص 328.

(*) - لا تَعْلُؤُوا: أي من الغلول، ومعناه الخيانة في الغنم، أي: لا تحونوا في الغنيمه (أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، رقم الحديث 1731، ج 3، ص 1357).

(*) - لا تَعْدِرُوا: أي: لا تنقضوا العهد (المصدر نفسه، ص 1357).

(*) - لا تَمَثِّلُوا: أي: لا تشوهوا القتلى بقطع الأنوف والآذان، (المصدر نفسه، ص 1357).

(4) - المصدر نفسه، ص 1356.

(5) - راغب الحنفي السرجاني، الرِّحْمَةُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ (المملكة العربية السعودية: رابطة العالم الإسلامي، ط 1، 1430هـ/2009م)، ص 355.

(6) - سليمان بن عبد العزيز بن أحمد الدويش، أسلوب الترغيب في دعوة النبي ﷺ، المرجع السابق، ص 277.

قومهما فقال النبي ﷺ الرحمة المهداة: «أنزعت منك الرحمة يا بلال حين تمرُّ بامرأتين على قتلى رجالهما»⁽¹⁾ وقد نهى ﷺ عن قتل النساء والولدان والشيوخ الذين لا يستطيعون حيلة، فقد وجدت امرأة في بعض مغازي رسول الله ﷺ مقتولة فأنكر وغضب ﷺ من قتل الصبيان والنساء فجاءت في وصاياه: «لا تقتلوا وليدًا»⁽²⁾ وقال لجنوده وأمرأء جيشه: «إنطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملّة رسول الله ﷺ، ولا تقتلوا شيخًا فانيًا، ولا طفلًا، ولا صغيرًا، ولا امرأة...»⁽³⁾ وروى أحد الصحابة غضب النبي ﷺ واستعظامه للمشهد عندما مرَّ على امرأة مقتولة قد اجتمع عليها الناس فقال: «ما كانت هذه تقاتل فيمن تقاتل، ثم قال لرجل: إنطلق إلى خالد فقل له: إنَّ رسول الله ﷺ يأمرك بقول لا تقتلن ذرية ولا عسيفاً»⁽⁴⁾ وكان قد منع الغدر في قتال الكافرين، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ عن الغادر: «ينصب الله له لواء يوم القيامة، فيقال: ألا هذه غدرة فلان»⁽⁵⁾ وهذا من رحمة النبي ﷺ حتى في الجهاد، وفي غزوة الغابة طارد سلمة بن الأكوع ﷺ المشركين الذين أغاروا على إبل المسلمين وقتلوا الراعي، حتى استنقذ جميع ما أخذوه، فقال سلمة: يا رسول الله إنَّ القوم عطاش، فلو بعثتني في مائة رجل استنقذت ما عندهم من السرح، وأخذت بأعناق القوم - أي غنمنا إبلهم وأسرنهم - فقال رسول الله ﷺ: «يا ابن الأكوع ملكت فأسجح»⁽⁶⁾ يقول الإمام النووي رحمه الله: (أي: أحسن وإرفق، ولا تأخذ بالشدة فقد حصلت

(1) - ابن جرير الطبري، تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (مصر: دار المعارف، ط2، د، ت)، ص 14.

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها، رقم الحديث 1731، ج3، ص 1357. وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب السير، باب ما جاء في وصيته ﷺ في القتال، رقم الحديث 1617، ج3، المصدر السابق، ص 260.

(3) - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في دعاء المشركين، رقم حديث 2614، ج4، المصدر السابق، ص 256. وقال: الحديث ضعيف، ولكن له شواهد في أحاديث أخرى مثل النهي عن الغلول وغيره، وأسند الحديث قوله حدَّثنا عثمان بن أبي شيبة، ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة، إلا الترمذي والنسائي فقد أخرج له في أعمال اليوم والليلة.

(*) - العسيف: هو الأخير (مجلّة مجمع الفقه الإسلامي التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي بمكة، ج7، ص 1748).

(4) - أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الجهاد، باب الغارة والبيات وقتل النساء والصبيان، رقم الحديث 2842، ج1، المصدر السابق، ص 948. ورواه أيضًا أحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه، وقال: هذا الخبر سمعه المرقع بن صيفي عن حنظلة الكاتب، وسمعه من جدّه رباح بن الربيع، والخبران محفوظان انتهى.

(5) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما يدعى الناس بأبائهم، رقم الحديث 6178، ص 764.

(6) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة ذي قرد وغيرها، رقم الحديث 1806، ص 1432.

النكاية في العدو والله الحمد⁽¹⁾ وفي سنة 6هـ كان المسلمون في الحديبية يريدون أن يدخلوا مكة معتمرين، فخرج ثمانون رجلاً منهم من الكفار ليلاً، وحاولوا التسلل إلى معسكر المسلمين، فاعتقلهم المسلمون جميعاً، فأطلق نبي الرحمة ﷺ سراحهم وعفا عنهم⁽²⁾ وبناء على ما سبق كانت الرحمة ملازمة للنبي المصطفى ﷺ لم تفارقه في كل مرحلة من مراحل دعوته ومع جميع المدعوين، فراه يرحم المشركين بعد انتصاره عليهم، ونراه يرحم الأعداء والأسرى في المعركة، ونراه يرحم من ساكنه في دار الإسلام بل يرحم المنافقين الذين كادوا للإسلام بل ويرحم المرتد إذا رجع ويعفو عنه ويقبل إسلامه، يقول المستشرق لورد هدي: (إذا رجعنا إلى التاريخ وحكمناه في هذه المسألة - إتهام الأوربيين النبي ﷺ بالقسوة - لتبين لنا أن القسوة لم تكن قط من أخلاق محمد وذلك بدليل معاملته للأسرى بعد غزوة بدر وتسامحه مع أعدائه وصبره على آذاهم وعطفه على الأطفال والمرضى وحقنه للدماء وعفوه عن أولئك الذين قضوا في محاربه ثمانية عشر عاماً وأظهروا له فيها كل صنوف العداة وأذاقوه من خلالها أنواع الجور والاضطهاد والظلم)⁽³⁾ إن هذه الدلائل مع هذه الفئات الغير المسلمة تعظم أهمية الرحمة والرفق في قلب النبي ﷺ تجاه خصومه، ممن أعلنوا حرباً عليه وعلى الإسلام، فكان عليه الصلاة والسلام حين احتدام القتال ضد أعدائه يعلنها مدوية: الرفق بمن ليست لهم اليد الطولى في القتال من ذراري عدوه ونسائه، فإن تبين من هؤلاء إعتداءهم واستغلال نسائهم، وممن كان له رأي وصاحب خطط في القتال ولو كان كبير السن فإن له موقف آخر، إذ يأمر بقتلهم لأن هندستهم للحرب على الإسلام أبلغ من المشاركة فيها، لذلك أمر بقتل دريد بن الصمة^(*) في حنين وكان ابن مائة وستين

(1) - يُنظر: النووي، شرح النووي على صحيح مسلم، ج12، المرجع السابق، ص 174.

(2) - يُنظر: صفى الرحمان المباركفوري، الرحيق المختوم (دار إحياء التراث، د. ط، 1396هـ/1976م)، ص 297.

(3) - محمد فهمي عبد الوهاب، محمد رسول الإسلام في نظير فلاسفة الغرب ومشاهير علمائه وكتابه (القاهرة: دار الإعتصام، ط1، 1395هـ/1975م)، ص 38.

(*) - دريد بن الصمة: شاعر جاهلي، وفارس من قبيلة هوازن قاتل المسلمين فقتل في وقعة حنين، ويرجع نسبه لبنو جشم من هواز، أدرك دريد الإسلام ولكنه لم يسلم وخرج مع قومه لقتال المسلمين يوم حنين شارك مع المشركين وغير مشارك في الحرب ولكنهم أخرجوه معهم تيمناً به وأيضاً للأخذ بمشورته (يُنظر: عمر عبد الرسول، ديوان دريد بن الصمة، القاهرة: دار المعارف، د، ط، د، ت)، ص-ص 9، 11.

سنة، وقد ذهب بصره، لأنه كان ذو رأيٍ وصاحب خطط في القتال عندما أحضروه ليستعينوا به وقد أشار عليهم بأن يرفعوا الثقل إلى عليا بدارهم ويلقوا بالمسلمين على متن الخيل⁽¹⁾.

لذلك يتعين على الداعية الاستفادة من رحمة النبي ﷺ كالآتي :

- لرحمة النبي ﷺ دُررٌ كثيرة ومواقف لا تحصى ولا تعدُّ، والدَّاعية إلى الله من الجانب العملي يجعل من النبي المصطفى ﷺ قدوته في كلِّ شيءٍ، في أخلاقه ومعاملاته في السراء والضراء، في حالات الحرب والسلم، وعليه أن يكون على درايةٍ بما جُبل عليه النبي ﷺ من أخلاق وعواطف لا يماثله فيها أحد، فكان رحيماً بأعدائه وخصومه، فلا ينتقم لنفسه ولا يقابل عداوتهم بالمثل، بل كان يقابلها بالإحسان والرحمة والدُّعاء لهم.

- كما على الداعية دراسة أخلاق النبي ﷺ الفذة وتاريخ دعوته، يطبّقها ويعلمها شعار حياته، فكم من أناسٍ يحسبون أنفسهم على شيءٍ من سُنَّته، إلّا أن أسلوهم وأخلاقهم تُفندُ إدّعاءهم، تراهم حريصين على بعض الواجب بينما يفتقدون إلى مشاعر الإنسانية، يتعاملون مع الناس بكبر بحكم منصب أو شهرة، وهذه أمراض أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته.

- دعوة إلى كل من يحمل دعوة الإسلام ورسالاتها من أشخاص وحركات وجمعيات وقنوات إعلامية ومؤسّسات دينية أن يخصّصوا حصصاً ولقاءات وشعارات تحاكي الدّعوة النبوية في واقع الحياة الإسلامية اجتماعياً وأخلاقياً وسياسياً واقتصادياً.

ج- الصبر والحلم عن المكاره

ومما سبق ذكره مشرّكي مكّة كانوا مع رفضهم للإسلام يستهزئون بالنبي ﷺ ويسخرون منه فضرب ﷺ مثلاً في الصبر عن الأذى، وتحمل كل ذلك لنصرة هذا الدين، ولكنّ الدعوة إلى الله تحتاج إلى التحلّي بصفة الصبر والحلم كأسلوب عاطفي ثمرته بإذن الله تعالى نصر من الله وفتح للقلوب الغلّقى ودخول الناس في دين الله أفواجاً، فتنساق قلوبهم قبل أعناقهم متأثرين بأخلاق النبي ﷺ العالية وحالته الوجدانية السامقة، لِرقة قلبه، وجمال نفسه والتي تشكل مبدأً للإنعطاف الإنساني الذي هو مبدأ الإحسان والرحمة والتسامح والصبر والحلم، فشهد له ﷺ بالحلم حينما أعلن عفوّه عن مشرّكي مكّة عام الفتح، وعندما اجتمعوا إليه قرب الكعبة ينتظرون حكمه فيهم، فقال لهم يا معشر قريش يا أهل مكّة: «ما ترون أيّ فاعل بكم ؟ فقالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم فقال: لا تثريب

(1) - محمد بن عبد الوهاب، مختصر السيرة النبوية، المرجع السابق، ص 204.

عليكم اليوم يغفر الله لكم اذهبوا فأنتم الطلقاء»⁽¹⁾ فكان هذا الموقف من النبي ﷺ لما نزل من القرآن: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: 126] فقال: نصبر ولا نعاقب فاختار العفو والصبر تفضلاً واحتساباً، حيث عفا بلا قيد ولا شرط على كل الذين اضطهدوه وعذّبوه فأغنى فقراءهم وعفا عن ألد أعدائه⁽²⁾، والدّاعية بدورها أحوج من غيره إلى الصبر ومصابرة خصومه، حتّى يصل إلى هدفه وغايته، لأنّه بالصبر يكون أكثر ثباتاً وأقرب إلى نجاح دعوته، وبدون الصبر قد يصيبه الفتور والكسل واليأس، ومن ثمّ القعود عن الدّعوة، والنبي ﷺ كان القدوة والمثل الأعلى يحتذى به على مرّ العصور، فكان يصبر ويعفو في الوقت نفسه، يقول الكاتب الهندي: (كان النبي محمد ﷺ مثلاً يعفو عن مشركي مكّة بعد ما فعلوا بهم ما فعلوه، لقد كان هذا العفو فتحاً كبيراً أن انطوت القلوب الكافرة تحت لواء النبي الكريم ﷺ مطيعة مستسلمة)⁽³⁾ فليس غريباً أن يوجّهه الله تعالى إلى قمة هذه السّيادة حين أخبره: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(١٩٩) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ^(٢٠٠) [الأعراف: 199-200] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(٢٠١) [فصلت: 34] بمعنى من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان، وأروع مشهد للصبر، صبر النبي ﷺ على المشركين حين آذوه ورموه بالكذب واتّهموه بالكهانة وأكثروا من السُّخرية والاستهزاء به والطعن فيه، وأثاروا حوله الشُّبهات الباطلة، والإفتراءات والدّعايات الكاذبة، ونشر الإيرادات الواهية حول ذاته وشخصيته، ومعارضتهم للقرآن بأساطير الأولين وتشغيل الناس بها عنه، بحيث لا يبقى للعامة مجال في تدبّر دعوته، فلقد ذهب النّضر بن الحارث إلى الحيرة وتعلّم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم، و إسفنديار، فكان إذا جلس النبي ﷺ مجلساً للتذكير بالله والتّحذير من نقمته، خلفه النّضر بالقول: والله ما محمد بأحسن حديثاً منّي، ثم يحدثهم عن ملوك الفرس ورستم و إسفنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثاً منّي⁽⁴⁾، وأبو جهل الذي تنوّعت وسائل أذاه للنبي ﷺ وتواترت، ووصل به

(1) - ابن جرير الطبري، تاريخ الطبري تاريخ الرّسل والملوك، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم (مصر: دار المعارف، ط2، ج3، د2)، ص 61.

(2) - سليمان بن عبد العزيز بن أحمد الدويش، أسلوب التّغيب في دعوة النبي ﷺ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلّية الدّعوة والإعلام، قسم الدّعوة والاحتساب، 1416هـ، ص 269.

(3) - محمّد مسعد ياقوت، نبي الرّحمة والرّسالة والإنسان، المرجع السّابق، ص 107.

(4) - منير محمّد الغضبان، المنهج الحركي للسيرة النبويّة، المرجع السّابق، ص 74.

الأمر إلى محاولة إلقاء الحجر عليه وهو ساجد، ولكن الله منعه من ذلك، كان من مواقف إهانات المشركين أن قام عقبة بن معيط لإلقاء سلا جزور على ظهر النبي ﷺ وهو ساجد، فلم يرفع رأسه، فجاءت السيّد فاطمة رضي الله عنها فأخذته عن ظهره ودعت على من صنع ذلك، فقال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ الْمَلَأَ مِنْ قُرَيْشٍ: أَبَا جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ، وَعُتْبَةَ بْنُ رَيْعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنَ رَيْعَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلْفٍ أَوْ أَبِي بْنَ خَلْفٍ - شُعْبَةَ الشَّائِكِ - فَرَأَيْتُهُمْ قَتَلُوا يَوْمَ بَدْرٍ ..»⁽¹⁾ وبينما النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقا شديداً، فأقبل رفيق النبي أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ وقال⁽²⁾ ﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: 28] وبرغم كلّ هذه الإعتداءات فلم يقابل تلك العداوة الظّاهرة بمثلاً، بل قابلها بالصّبر والصّفح والدُّعاء لهم بالهداية، ولم يك ليقتصّ لنفسه ولم يحمل لهم كرهاً أو عداوةً بل عفا عنهم ودعا لهم، وأعجب موقف وأرحمه عندما دخل ﷺ مَكَّةَ فاتحاً ويتذكّر ما فعل به أهل مَكَّةَ من الأذى الشّديد، ولكنه كان ﷺ صاحب القلب الكبير، والعقل الرّصين، والخلق الرّفيع، فقال قولته المشهورة: «اذهبوا فأنتم الطُّلُقَاءُ»⁽³⁾ فكان صبره وحلمه أثر كبير في نجاح دعوته، فلو أنّ الداعية استسلم لصنوف الأذى وخشي غير الله تعالى، أو تكلم بالباطل إرضاءً لهذا الذي خشي منه ماذا بقي لدعوته؟ وما ذا تنتظر الدعوة من أمثاله؟ هنا حتماً يسقط من صنّاع الدّعوة، فالنبي ﷺ حينما مات عمّه أبو طالب اشتدّ إيذاء المشركين له وقابلوه بأنواع العداوة والحقد، فتوجّه إلى الطّائِفِ ليجد العون وإذا به يقابلونه أسوأ مقابلة، أحياناً نجد بعض الدعاة يرفع الله من شأنهم ويجعل كلامه مقبولاً يلقي محبته في قلوب

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكّة، رقم الحديث 3852، ص 478.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكّة، رقم الحديث 3856، ص 479.

(3) - أخرجه البيهقي في سننه الكبرى، كتاب السّير، باب فتح مكّة، حديث 18275 (مطبوعة دائرة المعارف العثمانية بالهند، ط1، ج9، 1356هـ)، ص 118. وفي سنن البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، كتاب السّير، باب فتح مكّة، حديث 18275 (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، ج9، 1424هـ/2003م)، ص 200، وقال الشّيخ الألباني في السّلسلة الضّعيفة والموضوعة (307/3) ضعيف، ورواه ابنُ إسحاق في السّيرة، 31/4-32، ونقله الحافظ ابنُ كثير في البداية والنهاية، 300/4-301، ساكتاً عليه، وهذا سنّد ضعيف مرسل، وقال الحافظ العراقي رحمه الله: رواه ابنُ أبي الدنيا في كتاب العفو وفي ذمّ الغضب، ومن طريقه رواه ابنُ الجوزي في الوفاء وفيه ضعف (تخريج أحاديث إحياء علوم الدّين، 4/182). وذكره ابنُ السّبكي في الأحاديث التي لم يجد لها إسناداً في إحياء علوم الدّين طبقات الشّافعية، 6/323، وضعّفه الشّيخ الألباني - رحمه الله - بقوله: وهذا سنّد ضعيف مرسل.

النَّاسَ، ولكن تجده عجولاً في قطف ثمار دعوته أو متذمراً ممَّا يلقي إليه من ردود، ولكنَّه لا يعلم ماذا تحمّل النبي ﷺ كيف صبر؟ وكم صبر؟ على ملَمَّات إرضاء لله تعالى، إنَّ هذا يرسم للدُّعاة منهجاً عظيماً من مناهج الدعوة إلى الله تعالى ألا وهو العفو والحلم تجاه المسيء والإحسان إليه والصَّبْر عليه، وقد بلغ النبي ﷺ في حلمه وعفوه الغاية المثالية، والدَّلَّائل على ذلك كثيرة منها على سبيل المثال لا الحصر التزام النبي ﷺ لهذا الأمر مع المشركين في غزوات بدر وأُحد، والخندق عندما اشتبك معهم في معارك ضارية وحرموهم حتَّى من أبسط حقوقهم كزيارة الكعبة، وأرجعوهم إلى ديارهم بعد إبرام معاهدات ذات شروط قاسية، ولكن الله تعالى أنعم عليه ففتحوا لأهل مَكَّة فما كان منهم إلَّا أن دخلوا في دين الله أفواجاً⁽¹⁾، وفي معركة أُحدٍ، عندما جرح وسقط على الأرض سأله أحد الصَّحابة أن يستنزل اللَّعنة على العدو، فأجاب النبي ﷺ: «أنا لم أبعث لَعَنًا للعالمين، ولكن بعثت هاديًا ورحمة، اللَّهُمَّ إهدِ قومي فأَهم لا يعلمون»⁽²⁾ واستوصى بأسارى بدر خيراً فأسلم كثيرٌ من هؤلاء على فترات مختلفة قبل فتح مَكَّة وبعدها منهم العباس وعقيل بنُ أبي طالب، ونوفل بنُ الحارث بنُ عبد المطلب، وخالد بنُ هشام وغيرهم كثير⁽³⁾ وموقفه مع من قال: «كُنَّا أَحَقُّ بهذا عندما بعث إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ اليَمَنِ بِذُهيَّةٍ^(*) فِي أَديمٍ مَقْرُوطٍ^(*)، فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ بَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرِ^(*) وَأَفْرَعِ بْنِ حَابِسٍ وَزَيْدِ الْخَيْلِ^(*) وَالرَّابِعِ إِمَّا عُلَقَمَةُ^(*) وَإِمَّا عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ كُنَّا نَحْنُ أَحَقُّ بِهَذَا

(1) - مُحَمَّد علي اللاهوري القادياني، حياة مُحَمَّد ورسالته، ترجمة: مُحَمَّد يعقوب خان (بيروت: دار العلم للملايين، ط2، 1390هـ)، ص 107.

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البرِّ والصَّلة والآداب، باب من لعنه النَّبي ﷺ أو سبَّه أو دعا عليه، رقم الحديث 2599، ص 1204.

(3) - سليمان بنُ عبد العزيز بنُ أحمد الدويش، أسلوب التَّريغيب في دعوة النَّبي ﷺ، المرجع السَّابق، ص 267.

(*) - بِذُهيَّةٍ: أي ذهب أي ذهب (يُنظر: إثنُ حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب بعث علي بنُ أبي طالب ﷺ، رقم الحديث 4351، ج8، ص 68).

(*) - أَديمٍ مَقْرُوطٍ: أي مدبوغ بالقرط (المرجع نفسه، ص 68).

(*) - عُيَيْنَةُ بْنُ بَدْرِ: وهو عيْنَةُ بنُ حصن بنُ حذيفة، نسب لجُدِّه الأعلى (المرجع نفسه، ص 68).

(*) - وَزَيْدُ الْخَيْلِ: وهو كذا في جميع النُّسخ: الخير، وفي الرِّواية التي بعدها زيد الخيل بنُ مهلهل الطَّائي، وسَمَّاه النَّبي ﷺ زيد الخير، بالرَّاء بدل اللَّام، وكلاهما صحيح يقال بالوجهين، كان يقال له في الجاهلية زيد الخيل، فسَمَّاه النَّبي ﷺ في الإسلام زيد الخير (المرجع نفسه، ص 68) وفي (صحيح مسلم، كتاب الرُّكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم الحديث 1064، ص 741).

(*) - عُلَقَمَةُ: هو إثنُ علالة العامري، أسلم وحسُن إسلامه، واستعمله عمرُ على حوران، فمات بها في خلافته (يُنظر: إثنُ حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب بعث علي بنُ أبي طالب ﷺ، رقم الحديث 4351، ج8، ص 68).

مِنْ هَؤُلَاءِ قَالَ فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: أَلَا تَأْمُنُونِي وَأَنَا أَمِينٌ مَنْ فِي السَّمَاءِ يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً، قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ^(*) مُشْرِفُ الْوُجْهَتَيْنِ نَاشِزُ الْجَبْهَةِ كَثُ اللَّحْيَةِ^(*) مَخْلُوقُ الرَّأْسِ^(*) مُشَمَّرُ الْإِزَارِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّهَ !، قَالَ: وَبِكَ أُولَسْتُ أَحَقُّ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ قَالَ ثُمَّ وَلَّى الرَّجُلُ قَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ قَالَ: لَا لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي، فَقَالَ خَالِدٌ وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِيَّيْ لَمْ أُوْمَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ وَلَا أَشَقُّ بَطُونَهُمْ، قَالَ: ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ وَهُوَ مُقَفٌّ فَقَالَ: إِنَّهُ يُخْرِجُ مِنْ ضَنْضِي هَذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ رَطْبًا لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرِّمِيَّةِ وَأَظْنُهُ قَالَ لَئِنْ أَذْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ⁽¹⁾ إِنَّ هَذَا مِنْ أَعْجَبِ مَظَاهِرِ حِلْمِ النَّبِيِّ ﷺ ومواقفه الحكيمة والراشدة، راعى فيها مصلحة الدعوة بدل الدِّفاع عن النفس، وقد أُوذِيَ فلم يؤمر أن يُنقب على قلوب الناس ولا أن يشقَّ بطونهم، والرجل قد استحقَّ القتل لكنَّ النبي ﷺ آثر العفو والصبر لئلاَّ يتحدث الناس أنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ، وموقفه مع الطُّفِيلِ بْنِ عَمْرٍو الدُّوسِيِّ^(*) وقد أسلم قبل الهجرة من مكَّة ثم رجع إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام، فبدأ بأهل بيته فأسلم أبوه وزوجته، ثم دعا قومه إلى الله فأبى عليه وعصت، وأبطأوا عليه، فجاء الطُّفِيلُ إلى رسول الله ﷺ وذكر له أنَّ دوسًا هلكت وكفرت وعصت وأبى، فاستقبل القبلة ورفع يديه فقال للناس: هلكت، فقال ﷺ بروح عذبة

(*) - غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ: أيُّ أَنَّ عَيْنَيْهِ دَاخِلَتَانِ فِي مَحَاجِرِهِمَا، لِاصْتِقَاتِنِ بَقْعِ الْحَدَقَةِ (صحيح مسلم، كتاب الرُّكَاة، باب ذكر الخَوَارِجِ وصفاتهم، رقم الحديث 1064، ج2، ص 741).

(*) - كَثُ اللَّحْيَةِ: الكثافة في اللَّحْيَةِ أَنْ تَكُونَ غَيْرَ دَقِيقَةٍ وَلَا طَوِيلَةٍ، وَفِيهَا كَثَافَةٌ، يُقَالُ: رَجُلٌ كَثُ اللَّحْيَةِ، بِالْفَتْحِ وَقَوْمٌ كُثٌ، بِالضَّمِّ (صحيح مسلم، كتاب الرُّكَاة، باب ذكر الخَوَارِجِ وصفاتهم، رقم الحديث 1064، ج2، ص 741).

(*) - مَخْلُوقُ الرَّأْسِ: حَلَقُ الرَّأْسِ إِذْ ذَاكَ مُخَالَفٌ لِلْعَرَبِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَحْلِقُونَ رُؤُوسَهُمْ، وَكَانُوا يَفْرُقُونَ شَعُورَهُمْ (صحيح مسلم، كتاب الرُّكَاة، باب ذكر الخَوَارِجِ وصفاتهم، رقم الحديث 1064، ج2، ص 741).

(1) - أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، كِتَابُ الْمَغَازِي، بَابُ بَعَثَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، رَقْمُ الْحَدِيثِ 4351، ص 1064. وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، كِتَابُ الرُّكَاة، بَابُ ذِكْرِ الْخَوَارِجِ وَصِفَاتِهِمْ، رَقْمُ الْحَدِيثِ 1064، ج2، ص 741.

(*) - طُفِيلُ بْنُ عَمْرٍو: ابْنُ طَرِيفِ بْنِ الْعَاضِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ سُلَيْمِ بْنِ لَقِيطِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ مَالِكِ بْنِ فَهْمِ بْنِ غَنَمِ دُوسِ الدُّوسِيِّ، لَحِقَ بِالرَّسُولِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ مَعْرَكَةِ أُحُدٍ وَأَقَامَ فِيهَا، اسْتَشْهَدَ فِي حُرُوبِ الرَّدَّةِ بِمَعْرَكَةِ الْيَمَامَةِ. صَاحِبُ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ سَيِّدًا مَطَاعًا مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ، وَدُوسٌ بَطْنٌ مِنَ الْأَزْدِ، وَكَانَ الطُّفِيلُ يُقْبَلُ ذَا النُّورِ، أَسْلَمَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ بِمَكَّةَ، (يُنْظَرُ: مَرْزُوقُ بْنُ هِيَاسِ آلِ مَرْزُوقِ الزَّهْرَانِي، ط1، 1434هـ/ 2013م، ص 97. وَ(يُنْظَرُ: السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ لِابْنِ هِشَامٍ، بَيْرُوت: دَارُ الْجِيلِ، د، ط، ج2، د، ت)، ص-ص 226، 227).

ونفس رحيمة: «اللَّهُمَّ اهْدِ دُوسًا وَائْتِ بِهِمُ اللَّهُمَّ اهْدِ دُوسًا وَائْتِ بِهِمُ»⁽¹⁾، يقول الإمام الكرمانى رحمه الله: (هذا من كمال خلقه العظيم ورحمته بالعالمين، وقد قال الله في حقّه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107] وهذا من كمال رحمته ورأفته بأمتّه ﷺ)⁽²⁾، راعى النبي ﷺ أحوال دوسٍ فلم يدعُ عليهم ودعا على غيرهم من المشركين، فقال عنه الحافظ ابنُ حجر رحمه الله: (كان تارة يدعو عليهم وتارة يدعو لهم، فالحالة الأولى حيث تشتدُّ شوكتهم ويكثر أذاهم، والحالة الثانية حيث تؤمن غائلتهم ويرجى تألفهم)⁽³⁾ إلى هذا الحدِّ تبلغ درجة حلم النبي ﷺ العالية وتأنيبه في دعوته، حيث لم يعجل بالعقوبة ولا الدعاء على من ردَّ الدعوة إلى الله، ولكنّه أثر الدعاء لهم بالهداية فاستجاب الله دعاءه وحصل على ثمرة هذا الصبر أن تأثر الطُفيل بخلق النبي ﷺ وموقفه مع دُوسٍ فرجع إلى قومه ورفق بهم، فأسلم على يديه خلقٌ كثير، ثمَّ قدم إلى النبي ﷺ وهو بخير فدخل المدينة بثمانين أو تسعين بيتاً من دُوسٍ، ثم لحقوا بالنبي ﷺ بخير فأسلم لهم مع المسلمين⁽⁴⁾، يقول الإمام الكرمانى رحمه الله: (ودعا لهم النبي ﷺ بالهداية في مقابلة العصيان، والإتيان بهم في مقابلة الإباء)⁽⁵⁾ ويقول الإمام العيني رحمه الله: (كان النبي ﷺ يحبُّ دخول النَّاسِ في الإسلام، فكان لا يعجل بالدَّعاء عليهم مادام يطمع في إجابتهم للإسلام)⁽⁶⁾ إِنَّ مشهد النبي ﷺ مع الطُفيل يبعث إلى التعجُّب والتعظيم الذي بسببه أسلم خلقٌ كثير. إِنَّ مشهد النبي ﷺ مع الطُفيل يبعث إلى التعجُّب والتعظيم لخلق النبي ﷺ الكريم ﷺ وحلمه الذي بسببه أسلم خلق كثير، وهذا يقَدِّم للدَّعوة دروساً وعبراً على الدَّاعية إلى الله الالتزام بها :

- أن لا يستعجلَ في تحقيق غرض دعوته و نتائجها، بل عليه التحلي بالصبر والحكمة.
- كما عليه أن يتحلَّى بكامل صفات الرِّحمة التي تجسَّدت في خلق النبي ﷺ، ونحن نرى موقفه الرَّائع مع دُوسٍ، من حلمٍ وأناة وصبر ودعاء طيِّب الذي جذب القلوب وأسرها.

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الدَّعاء للمشرِّكين بالهدى ليتألفهم، رقم الحديث 2937، ص 724، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصَّحابة، باب من فضائل غفار وأسلم وجهينة وأشجع ومزينة وتميم ودوس، رقم الحديث 2524، ص 1957.

(2) - سعيد بنُ علي بنُ وهب القحطاني، فقه الدَّعوة في صحيح البخاري، المرجع السَّابق، ص 529.

(3) - سعيد بنُ علي بنُ وهب القحطاني، فقه الدَّعوة في صحيح البخاري، المرجع السَّابق، ص 530.

(4) - الذهبي، سير اعلام النبلاء (بيروت: مؤسسة الرِّسالة، ط 11، ج 1، 1417هـ/1996م)، ص 346.

(5) - سعيد بنُ علي بنُ وهب القحطاني، فقه الدَّعوة في صحيح البخاري، المرجع السَّابق، ص 526.

(6) - المرجع نفسه، ص 527.

- عليه من باب الحكمة أن يتَّصف بالحلم والتَّأني في دعوته ولا يجزع إن لم تُقبل، فلا يكون عجولاً ولا كسولاً، فإنَّ الأناة(*) تعينه على وضع الأمور في مواضعها، بخلاف العجلة فإنَّها تعرِّضه لكثير من الأخطاء والإخفاق والتَّعثر والارتباك والحرمان من تحقق النتائج التي يرجوها⁽¹⁾، ونجده ﷺ في مشهد آخر مع قصَّة الرَّجل الذي يرقى من الرِّيح عندما سمع من أهل مكَّة يقولون: إنَّ محمداً مجنون... وعندما لقي النبي ﷺ قال: «يا محمَّد إنِّي أرقى من هذه الرِّيح، وأنَّ الله يشفي على يدي من يشاء فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه من يهده الله فلا مضلَّ له ومن يضلِّل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات فقال: ما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البرِّ فقال: هات يدك لأبايعك على الإسلام، قال فبايعه فقال له رسول الله ﷺ وعلى قومك فقال وعلى قومي»⁽²⁾ طلب الرجل من النبي ﷺ أن يعالجه من مرض الجنون هو موقف يشير الغضب إلاَّ أنَّه ﷺ قابله بحلم وهدوء أثار إعجاب الرَّجل واحترامه له، وعليه نستشفُّ من هذه القصَّة كيفيَّات التَّأني في الحديث والصَّبر والحلم وأسلوب الحوار الهادئ الذي نعتبره من وسائل الدَّعوة والتَّربية النَّاجحة، ممَّا يستوجب على الدُّعاة أن يتحلَّوا بهذه الأخلاق وهذه الأساليب الرَّاقية، فهي خير سلاح لمواجهة أيُّ أسلوب يثبِّط النَّفس ويضعفها وأن يستحضروا سياسة النبي ﷺ في تعامله من المشركين من خلال العفو الشَّامل والمعاملة الرَّحيمة الحانية التي كانت سبباً في إسراع أهل مكَّة إلى الدُّخول في الإسلام طوعاً واختياراً فتوافدوا عليه ﷺ لياياعوه على الإسلام⁽³⁾، فثبت في الصَّحاحين أنَّ الطُّلقاء من أهل مكَّة قد خرجوا معه إلى حُنين⁽⁴⁾، يذكر الكاتب الهندي محمَّد علي في سياسة العفو عند النبي ﷺ فيقول: (وكان العفو جوهرة أخرى بالغة الإشعاع في شخصية النبي ﷺ وجدت

(*) - الأناة: هي التَّبيُّن والتَّثبت في الأمور والتَّبصُّر والتَّأمل، ويقال: تبصر الشيء، وتأمل في رأيه: تُبيِّن ما يأتيه من خير أو شرٍّ (يُنظَر: القاموس المحيط للفيروز الآبادي، باب الرِّاء، فصل الباء، ص 448) والأناة التَّأني والتَّثبت وترك العجلة، حتَّى يستبين الصَّواب (سعيد بن علي بن وهف القحطاني، المرجع السَّابق، ص 527).

(1) - سعيد بن علي بن وهف القحطاني، فقه الدَّعوة في صحيح البخاري، المرجع السَّابق، ص 527.

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصَّلَاة والخطبة، رقم الحديث 868، ج 1، ص 385.

(3) - ابن جرير الطَّبري، تاريخ الطَّبري تاريخ الرُّسل والملوك، المرجع السَّابق، ص 61.

(4) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري (بيروت: دار المعرفة، ج 3، 1379هـ)، ص 54.

فيه تجسدها الكامل ولقد أوصى القرآن الكريم بأن يأخذ بالعفو ويأمر بالمعروف ويعرض عن الجاهلين⁽¹⁾ .

فيُلتَمَس هنا أنبل وأسمى معاملة أقرها القرآن في معاملة الوثنية إنطلق بها النبي ﷺ لتطبيقها، إمتثالاً للوصية الربانية اللطيفة التي جاءت في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة : 06] فكان النبي ﷺ أحسن الناس عفواً وألطفهم عشرةً، يعفو عن المسيء ويصفح عن المخطئ حتى وصفه الله تعالى بالقول: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128] فانتهج نهج العفو والرحمة في دعوته إلتزام لأمر ربّه أن قال له: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ سَنَّا﴾ [المائدة: 13] فكان يقابل أذى المشركين بالصّفح الجميل، وهو الصّفح الذي لا يكون مقروناً بغضب أو كبر أو تذمّر من المواقف المؤلمة، وإنما كان يقابلهم بالصّفح الجميل، فيعرض عليهم قائلاً: سلام ، ولا عجب أن يسخر في الوقت الحاضر أعداء الدّعوة بالدّعاة إلى الله بزعة مكانتهم في النفوس ، والدّاعية عليه أن يكون موقفه الصّبر والإستمرار في دعوته، فإنّ من المبطلين من لا يستجيب إلا بعد أمدٍ طويل وعنادٍ شديد، فيسعى جاهداً أن يعمّمهم بالعفو والصّفح، و يتألف قلوبهم باللّطف تأسيّاً بالنبي ﷺ وبمواقفه التي لا يماثل في التّاريخ صموده وحلمه وصبره أمام كيد الكائدين وأقوال المبطلين شيئا، والذي لا نجد رجلاً ولا قائداً وقف مع الدّ خصومه بمثل هذا الخلق، أن ألينت قلوبهم واستأمنت برسالته التي عرفوا عنها الصّدق والولاء والسّلام، وعليه يتعيّن على الدّاعية الاستفادة من صبر النبي وحلمه مع المشركين - على الدّاعية التحلّي بخلق الصّبر والحلم في دعوته، فالتجرّد منهما حتما سيؤدي به إلى الإستسلام والضعف والخور، والنبي ﷺ لعظم شأنهما بيّن فضلها وعظم وجودهما في حياة الناس، وتحديدًا في حياة الدّعاة إلى الله فقال: «ما أعطي أحدٌ عطاءً خيراً له وأوسع من الصّبر»⁽²⁾ فالصّبر نصف الإيمان، وقد إصطبغ بها صحابته الكرام في سلوكهم فحقّقوا بذلك إنتصارات ونتائج مذهلة إستطاع الإسلام أن يصل إلى كافة الأمصار والقبائل.

- على الدّاعية أن يوفّر لنفسه طاقة الإحتمال والإستعداد لأيّة مواجهة أو أذى قد يلحقه، وكظم الغيظ والقدرة على الصبر واحتمال ما يصيبه عند دعوته، وأن يكون صاحب قلب كبير وأسلوب

(1) - محمّد مسعد ياقوت، نبيّ الرّحمة والرّسالة والإنسان، المرجع السّابق، ص 106.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزّكاة، باب الاستغفار عن المسألة، رقم الحديث 1469، ص 185.

رصين عند مواجهته للأذى بحكمة وعقلانية، وإن استدعى الأمر الترفق في الحوار وعدم التنفير أو التقيح أو الزجر، لأنه من أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً.

— أمام ذكاء النبي ﷺ وفطنته في مواجهة كافة الحروب النفسية والجسدية من سخرية واتهامات وغيرها وتشويه للتعاليم والقيم التي جاء بها، على الداعية أن ينتبه إلى مثل هذه الأمور خصوصاً وما يشترط اليوم عبر وسائل الإعلام المعاصرة فتناً وحروباً ضد الدعوة الإسلامية من تشويه في قيمها ومبادئها، تستهدف بالدرجة الأولى الشباب المسلم والمرأة المسلمة، فيجب أن يتمتع الداعية إلى الله بالوعي والصبر وإنشاء البدائل التي باستطاعتها إجهاض كافة هذه المحاولات.

د- التدرج^(*) في دعوته للمشركين لحماية الدعوة من المعاندين

أمّا تدرجه ﷺ في دعوة للمشركين هو تبليغ مضامين دعوته عقيدة وشرعية، كتدرجه في اتخاذ الوسائل والأساليب المناسبة، فقد بدأ بعرض دعوته بالحكمة والقول اللين والجدال بالتي هي أحسن، مراعيًا في ذلك ما يقتضيه المقام من معاني الكلام ومن أحوال المخاطبين من خاصّة وعامة⁽¹⁾ ومن خلال التأمل في سيرته العطرة ﷺ نجد أنّ دعوته ﷺ قد جاءت متدرجة⁽²⁾ فبدأ بالتبليغ بالقول والذي أدّى دوره في العهد المكي قامت به الحجّة على المشركين ثمّ شرع الله له القتال لينصر به الحقّ ويقيم به العدل، فاتخذ من الغزوات والسرايا وسيلة دعوية تقوم على حماية الدعوة⁽³⁾ يقول تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: 39] أي: كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول الله ﷺ، حيث كان مشركو مكة يؤذونهم أذى شديداً، وكانوا يأتون رسول الله ﷺ بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه فيقول لهم: اصبروا فإنّي لم أؤمر بالقتال، حتّى هاجر فأنزلت هذه الآية، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لَمَّا أُخْرِجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرِجُوا نَبِيَّكُمْ لِيُهْلَكَنَّ، فَنَزَلَتْ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾ [الحج: 39]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «أَوَّلُ آيَةٍ أُنْزِلَتْ فِي الْقِتَالِ»⁽⁴⁾ من أجل ذلك قاتلهم في بدر حيث خرجوا من مكة بطراً ورياء ومحادة لله ورسوله، وقاتلهم في أحد دفاعاً عن الحقّ وأهله، وقاتلهم في الأحزاب وقد اجتمع أهل الشرك يريدون

(*) - تمّ تعريفه سابقاً، يُنظر صفحة 271.

(1) - محمّد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 14، المرجع السابق، ص 330.

(2) - محمّد منير الغضبان، المنهج الحركي للسيرة النبوية، ج 3، المرجع السابق، ص 173.

(3) - إبراهيم بن عبد الله المطلق، التدرج في دعوة النبي ﷺ، المرجع السابق، ص-ص 73، 74.

(4) - أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الحج، رقم الحديث 3171، ج 5، المصدر السابق،

الإسلام وأهله فأمر بحفر الخندق ودافعهم حتى هزمهم وقتل من قتل من اليهود لأنهم بدأوا بالعداوة ونقضوا العهد معه وآذوه فأراد بهذا القتال حماية الدعوة من شرهم، وما حدث في قصة كعب بن الأشرف⁽¹⁾ نقض عهده مع رسول الله ﷺ فقد قال: «من لكعب بن الأشرف؟ فقد آذى الله ورسوله»⁽²⁾ كان يهجو النبي ﷺ ويحرض عليه قريشا وشبب نساء المسلمين، فانتدب عليه بعض أصحاب رسول الله ﷺ فقتلوه⁽³⁾ فالتبى ﷺ لم يقاتل المشركين إلا لأنهم آذوه وأخرجوه من مكة واستولوا على أموال المسلمين وقصدوا فتنهم في دينهم، ولم يقاتل اليهود إلا لأنهم بدأوا بالعداوة للمسلمين فلم يكن جهاده للإبادة وإنما كان كله رحمة رقيقة حيث لا حرب إلا في ميدان القتال ومع المقاتلين وحدهم⁽⁴⁾ والغريون ينظرون إلى الإسلام يفرض نفسه بحد السيف، يأمر المسلم بضرب عنق الكافر أينما لقيه، إلا أن هؤلاء لم يصيبوا كبد الحقيقة، فالإسلام لم يكن يومًا يفرض نفسه على الناس انطلاقًا من الأمر الرباني: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256] فرسم القرآن للداعية أسلوبًا ومنهجًا قائمًا على عرض الدعوة بالحجة المقنعة، والدعوة في رفق ولين، متقدمًا بدعوته إلى الأفضل والأحسن بأساليب وطرق يكرم بها الإنسانية عمومًا والإسلام خصوصًا في أشخاص غير مسلمين، وقد ورد عن سوسة -وهو كاتب عراقي- قال: (أنه دعا أتباع موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام أن يراجعوا التاريخ ليقفوا على ما يأمر به الإسلام بشأن الرفق بالأطفال والشيوخ والنساء وغير المقاتلين بصورة عامة، ويثبت لنا التاريخ أن المسلمين ساروا وفق شريعتهم القاضية بوجوب عدم مس الأطفال والنساء والشيوخ بكل أمانة وحرص حتى في الظروف التي كان فيها العدو المقاتل يقتل الأطفال والنساء وغير المحاربين من المسلمين)⁽⁵⁾ لقد كان النبي ﷺ ينبذ العنف واستعمال القوة في دعوته، فكان يعفو ويصفح ويعطي

(1) - كعب بن أشرف: وهو أحد بني نبهان من طيء وكانت أمه من بني النضير، وكان قد كبر عليه قتل من قتل بيد من قريش فسار إلى مكة وحرص على رسول الله ﷺ وبكى أصحاب بدر، وكان يشبب بنساء المسلمين، وقد آذى النبي ﷺ بالهجاء وركب قريش فاستغواهم، وقدم المدينة يعلن بالعداوة ويحرض الناس على الحرب، ولم يخرج من مكة حتى أجمع أمرهم على قتال النبي ﷺ وجعل يشبب بأم الفضل بن الحارث وبغيرها من نساء المسلمين، (يُنظر: البداية والنهاية لابن كثير (بيروت: مكتبة المعارف، د، ط، ج4، 1412هـ/1991م)، ص6.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قتل كعب بن الأشرف، رقم الحديث 4037، ص 990.

(3) - يُنظر: إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية (الأردن: دار التفائس، ط1، 1415هـ/1995م)، ص-ص 199، 201.

(4) - أحمد بن أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، المرجع السابق، ص 45.

(5) - محمد مسعد ياقوت، نبي الرحمة والرسالة والإنسان، المرجع السابق، ص 62.

الفرص لمخالفه حتى يتبين لهم الحق، فإن اتبعوه كان ذلك أدعى للنبي ﷺ رفقتهم وصحبته وإن فاءوا غضب عليهم وأعدّ لهم عدّة القتال حماية لدعوته.

إنّ ما تمّ ذكره بخصوص تعامل النبي ﷺ مع المشركين من مواقف، فيه تنبيه للدعاة إلى الله:

- معرفة المهمة التي كلّفوا بها وهي هداية الناس وانتشالهم من وهدة الشرك وعبادة الخلق إلى عزّ الإيمان ورفعة الإسلام وتحقيق العبودية الحقّة في نفسه، والوقوف أمام من يشكّل حجرة عثرة في طريق انتشار الإسلام ووصوله إلى القلوب، والإسلام دين رحمة وتسامح وعدل يفوق كلّ القوانين والنظم بحكمته وعدله وسماحته وإحسانه، والدعاة من جهة عليهم أن يستقوا من أخلاق النبي ﷺ وروحه العذبة وأخلاقه العالية التي تعينه على نوائب الكفر، الصبر أمام مواجهات العصر المحتدمة والتي قلّما يظهر في ساحات الدّعوة من يمثل الدعوة إلى الله على أمّتها.

- عرض الدّعوة بالحجّة المقنعة، متقدّماً بدعوته إلى الأفضل والأحسن بأساليب وطرق يكرّم بها الإنسانية عموماً والإسلام خصوصاً في أشخاص غير مسلمين، وقد ورد عن سوسة - وهو كاتب عراقي - أن قال: (أنّه دعا أتباع موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام أن يراجعوا التاريخ ليقفوا على ما يأمر به الإسلام بشأن الرّفق بالأطفال والشيوخ والنساء وغير المقاتلين بصورة عامة، ويثبت لنا التاريخ أنّ المسلمين ساروا وفق شريعتهم القاضية بوجوب عدم مسّ الأطفال والنساء والشيوخ بكلّ أمانة وحرص حتّى في الظروف التي كان فيها العدو المقاتل يقتل الأطفال والنساء وغير المحاربين من المسلمين)⁽¹⁾.

- فالغريبيون بمكرهم ينظرون إلى الإسلام يفرض نفسه بحدّ السيف، وبضرب عنق الكافر أينما لقيه، إلّا أنّهم لم يصيبوا كبد الحقيقة، فالإسلام لم يكن يوماً يفرض نفسه على الناس، والنبي ﷺ سلك مسلك القرآن ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة : 256] فأوصى ﷺ بها أمّته والدعاة من بعده أن لا يُكرهوا أحداً في الدّخول في الإسلام، لأنّه بيّن جليّاً واضح، فجعل من الإقناع وأسلوب التأثير من يسوقهم إليه، وعليه تجلّت هنا حكمة النبي ﷺ وفطنته من خلال أسلوبه وفيما كان ينتهجه من شئى أنواع الأخلاق الإنسانية التي اشتهر بها، تعود إلى فطنته التي ظهرت بارزة في تعاملاته، وقد أثبتت أساليبه أنّه كان على جانب كبير من معرفة نفسيات من يتعامل معهم ومزاجهم وما إليه يميلون وعنه ينصرون، ولعلّ هذا ممّا عناه الحقّ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4] ليس فقط إزاء أقاربه وقومه فقط، بل تعدّت كذلك المخالفين لدعوته كاليهود والنصارى والمنافقين وغيرهم.

(1) - محمّد مسعد ياقوت، نبيّ الرّحمة والرّسالة والإنسان، المرجع السابق، ص 62.

المطلب الثاني: دعوة أهل الكتاب بالمنهج العاطفي

أولاً: التعريف بأهل الكتاب

هذا الاسم أطلق على اليهود ويشترك معهم فيه النصارى، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم إحدى وثلاثين مرّة، وهم الخارجون عن الملة الحنيفية والشرعية⁽¹⁾، وكلمة الكتاب مراد بها التوراة ويؤخذ ذلك من القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 53] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذَكَرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: 48] وإن كان النصارى لهم كتاب وهو الإنجيل الذي أنزله الله على عبده ونبيّه عيسى عليه السلام، ولكنهم متعبدون بالتوراة إلا ما أحله الله لهم ممّا حرّم فيها على لسان النبي عيسى عليه السلام، وكلمة أهل الكتاب في القرآن تطلق على اليهود والنصارى معاً يقول تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: 65] فنزلت هذه الآية بسبب دعوى اليهود والنصارى أنّ إبراهيم كان على ملّته فأكذبهم الله مبيناً أنّ اليهودية والنصارى كانتا من بعده قائلاً⁽²⁾: ﴿وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: 65] وسمّوا أهل الكتاب لكونهم منتسبين إلى كتبهم السابقة وما إعتراها من تحريف وتغيير وتبديل⁽³⁾، ويطلق على كلّ من تدنّى باليهودية أو النصرانية ولو لم يكن من بني إسرائيل الذين أنزلت على رسلهم التوراة والإنجيل، فأهل الكتاب هم اليهود الذين آمنوا بموسى عليه السلام وبكتابه وهو التوراة، ولم يؤمنوا برسالة النبي ﷺ، والنصارى هم الذين آمنوا برسالة عيسى عليه السلام وبكتابه وهو الإنجيل، ولهذا قال عنهم النبي ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار»⁽⁴⁾ وكانوا يسكنون في المدينة وضواحيها

(1) - يُنظَر: عدنان أحمد البديني، عقائد اليهود من خلال الحوار مع النبي ﷺ، رسالة ماجستير، غزّة، الجامعة الإسلامية،

كلية أصول الدين، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، 1431هـ / 2010م، ص 14.

(2) - محمد بن سيدي بئر الحبيب الشنقيطي، منهج الرسول ﷺ في دعوة أهل الكتاب (جدة: دار القبة للثقافة الإسلامية، ط 1،

1413هـ/1992م)، ص-ص 20، 22

(3) - عبد الرزاق عبد المحسن البدر، الجامع للبحوث والرسائل، المرجع السابق، ص 485.

(4) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان بنبيينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته، رقم

الحديث 153، ص 80.

وفي أطرافها، كيهود بني قينقاع ويهود بني النضير ويهود بني قريظة، وهذه المجموعات اليهودية من أشهر قبائل اليهود في المدينة، وقد وادعهم النبي ﷺ بعد قدومه للمدينة وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم⁽¹⁾، لكنَّ اليهود نقضوا العهد وقاموا بأعمال عدائية ضدَّ المسلمين فكان ذلك سبباً لغزوهم وإخراجهم من المدينة فتصدَّوا لهذه الرِّسالة التي يعلمون صدقها بالعداء والغدر والخيانة، وكان من أبرزها محاولات قتل النبي ﷺ وسحره فكشفهم الله عن طريق الوحي ونجَّى الله نبيَّه، ورغم العداء إلاَّ أنَّه كان يعاملهم برفقٍ ويحرص على دخولهم الإسلام بكلِّ الأساليب بالموعظة الحسنة والرِّفق واللِّين والمعاملة الحسنة، وكانوا أولى النَّاسِ إستجابة بدعوة النبي ﷺ لأنهم أهلٌ علمٍ يعرفون صفة النبي ﷺ ونعته في كتبهم، وقد بشَّروهم به أنبيائهم بل وأخذوا عليهم الميثاق ليؤمننَّ به إن أدركوا نعته،، ما يدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآ أَتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: 81] وأخبر الله في كتابه أن عيسى عليه السلام بشَّر برسالة النبي محمد ﷺ فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾ [الصف: 6].

ثانياً: مواقف النبي ﷺ العاطفية وأساليبه في دعوة أهل الكتاب

كان النبي ﷺ يحسن معاملة أهل الكتاب، وكان يحرص على دعوتهم وتأليفهم للإسلام، ولا يفوِّت فرصة يمكن أن يدعُوهم إلَّا وفعل، حتَّى إنَّه ﷺ لم يبدأ حرباً معهم -بسبب غدرهم وخيانتهم- إلَّا ويسبقها دعوتهم وتذكيرهم، دليل ذلك ما قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم فتح خيبر عندما أعطاه النبي ﷺ الراية: «نقاتلهم حتَّى يكونوا مثلنا، فقال النبي ﷺ: على رِسلك حتَّى تنزل بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَآخِرُهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَ اللَّهُ لَأَنْ يُهْدِيَ بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»⁽²⁾ وهذا التزام للأمر الرَّبَّاني بأن يتعامل معهم بالقسط والبرِّ وحسن الخلق وأداء الأمانة، حيث قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8] ومن برّه ﷺ معاملته لأهل الكتاب والتي هي أحسن

(1) - أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية (دمشق: دار ابن كثير، ط4، 1425هـ/2004م)، ص 282.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب دُعاء النبي ﷺ النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ والنُّبُوَّة، رقم الحديث 2942،

تشهدها مواقف المؤثرة والمشاهد الرائعة التي استخدم فيها أساليب عاطفية لمحاولة استمالة قلوبهم وتأليفها لما جاء به من عند الله تعالى نذكر منها ما يلي:

أ- تأمين حماية اليهود وموادعتهم

عندما جاء النبي ﷺ إلى المدينة وجد بها يهوداً توطَّنوا ومشركين مستقرِّين، فلم يتَّجه فكره إلى رسم سياسة للإبعاد أو المصادرة أو الخصام، بل قَبِلَ عن طيب خاطر وجود اليهودية الوثنية، وعرض على الفريقين أن يعاهدهم معاهدة النَّدِّ للنَّدِّ على أنَّ لهم دينهم وله دينه⁽¹⁾، فأصدر ما يسمَّى بوثيقة^(*) المدينة، والتي وضعها منذ بزوغ فجر الإسلام بالمدينة المنورة، واستكتبها أصحابه، ثمَّ جعلها الأساس المتَّفَق عليه في ما بين المسلمين وجيرانهم اليهود والوثنيين من سكان المدينة.⁽²⁾ وهذه الوثيقة لها مواد زادت عن 50 مادة عن التنوُّع الديني في إطار الدولة الجديدة التي أرساها النبي ﷺ عن المساواة بين الفرقاء المتنوعين فذكر العلاقة بين المسلمين واليهود: «ويهود أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم أنفسهم، وإنَّ بطانة يهود... دون الإثم»⁽³⁾، فأقرَّ ﷺ من خلال وثيقته الحرِّيَّة الدينيَّة وهي في ذلك تؤكد هذا المبدأ القرآني: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: 6] فقد ضمن لهم النبي ﷺ حقَّ حرِّيَّة العبادة والحماية مقابل شروط يلتزمون بها، فأظهر مرونة الكبيرة في التَّعامل معهم ما داموا ملتزمين بما عاهدوا عليه وما قطعوه على أنفسهم من عهود ومواثيق جاء فيها: «...اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين... لليهود دينهم وللمسلمين دينهم

(1) - محمَّد الغزالي، فقه السَّيرة (دمشق: دار القلم، ط1، 1427هـ)، ص 198.

(*) - وثيقة المدينة: أطلق عليها الرُّواة من المحدثين والمؤرِّخين الذين جاءوا بعد ابنِ إسحاق باسم الصَّحيفة والكتاب، أمَّا الباحثون المعاصرون من المسلمين والمستشرقين أطلقوا عليها في كتاباتهم اسم الوثيقة والدُّستور، وبعضهم أطلق عليها اسم الوثيقة والصَّحيفة والدُّستور والكتاب، وقد وضعها النبي ﷺ منذ بزوغ فجر الإسلام بالمدينة المنورة، واستكتبها أصحابه، ثمَّ جعلها الأساس المتَّفَق عليه في ما بين المسلمين وجيرانهم اليهود والوثنيين من سكان المدينة. (أحمد قائد الشَّعبي، وثيقة المدينة المضمون والدَّلالة، (قطر: وزارة الأوقاف والشُّؤون الإسلامية، ط1، 2006م، كتاب الأُمَّة، العدد 113، السنة 25، 1426هـ، ص- ص، 38، 40) وهذه الوثيقة ضبطت العلاقة بين أفراد المجتمع المدني جميعهم مؤمنهم ومشركهم ويهوديهم (سليمان صالح السليمان، حقوق الإنسان في وثيقة المدينة المنورة دراسة مقارنة بالمواثيق الدَّولية (الرَّياض: دار جامعة نايف للرَّشْر، 1437هـ/2015م)، ص 57،

(2) - أحمد قائد الشَّعبي، وثيقة المدينة المضمون والدَّلالة، المرجع السَّابِق، ص 45.

(3) - ابنُ كثير، البداية والنَّهاية، تحقيق: علي شيري (دار إحياء الثَّراث العربي، ط1، ج3، 1408هـ/1988م)، ص 275.

...»⁽¹⁾ كما ارتكز على رعايتهم وحمايتهم إذا خضعوا للدولة لهم حق النصرة على من رامهم أو اعتدى عليهم بغير حق، سواء من المسلمين أو غير المسلمين، وحمايتهم من داخل المدينة أو من خارجها فيقول ﷺ: «وإنه من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين، ولا متناصرين عليهم....»⁽²⁾ فقد أحسن النبي ﷺ مجاورتهم وإعطائهم الأمان فقال: «ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم»⁽³⁾ والاستجارة والحوار بمعنى الحماية والأمان، اللذين كانت الغاية منهما هو تهيئة الفرص لتمكينهم من معرفة حقيقة الإسلام ومرونته، متخذاً من ذلك وسيلة قوية لدعوته وبيائها للناس فيقول عنه تعالى فيقول عنه تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَا آمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 6] فحوت وثيقته ﷺ قيماً وأخلاقاً مرنة وسامية كحماية الجار والدفاع عنه، وأن للمؤمن الحق في أن يجير من يراه أهلاً للحوار حتى سُموا النصير جازاً، وعليه تجلّت عظمة النبي ﷺ في سماحته حتى مع أعدائه من اليهود، فهو هنا يبيح للأفراد والجماعات من الدول المحاربة أن تتصل بالمسلمين وتدخل ديارهم وتقيم فيها في حماية قانون يعرف باسم الأمان والإسلام يقرر عظمة المستأمنين⁽⁴⁾ وكانت من دلائل عاطفته المرنة مع اليهود ترسيخه لفكرة التسامح معتبراً أن أساس تعامل الدولة الإسلامية مع المجموعات الدينية هو التسامح وإبقاء أهل الأديان دون إلزامهم باعتماد الإسلام، فتضمنت أحد إتفاقيات حينما عاهد - ﷺ - مع قبيلة التغلب سنة 6 من الهجرة، وكان دينه قوي، خضعت له العرب ولكنه أباح للتغلب أن تبقى في العرب على نصرانيتهم، وعاهد نجران ولم يتركهم أحرار في دينهم ولم يتعرض لهم، وإن تأهب للهجوم المفاجئ عليهم، فتأهب عندما ظهر الفساد من عندهم، ومع بني ضمرة وخزاعة الحماية لأنفسهم وأموالهم ويعطيهم السلام في ديارهم⁽⁵⁾ واتفاقيته عليه السلام مع ثقيف فقد حافظ على استقلالهم المحلي والسلام الداخلي بمقتضى الأمر

(1) - علي عبد الله بن غلبون، بحث أسس العلاقات الدولية في الإسلام من خلال وثيقة المدينة، مجلة البحوث الأكاديمية، ص 125.

(2) - ابن كثير، السيرة النبوية (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، ج2، 1395هـ/1976م)، ص 321.

(3) - ابن بطال، شرح صحيح البخاري، باب ذمة المسلمين وجوارهم واحدة تسعى به أدناهم، رقم الحديث 978 (الرياض: مكتبة الرشد، ط2، ج5، 1423هـ/2003م)، ص350.

(4) - علي عبد الله بن غلبون، بحث أسس العلاقات الدولية في الإسلام من خلال وثيقة المدينة، المرجع السابق، ص-ص 122، 123.

(5) - يُنظر: عون الشريف قاسم، نشأة الدولة الإسلامية على عهد رسول الله ﷺ (بيروت: دار الجليل، الخرطوم: دار المأمون المحدودة، ط3، 1411هـ/1991م)، ص-ص 43، 51.

الموجه إلى المسلمين، بأن لا يتغولوا على أراضي ثقيف، وأن لا يعبروا واديهم دون إذنهم، وألا يتعرضوا لهم بالذم، ووعدهم النبي ﷺ بالنصر ضد أي معتد أو ظالم، وأعطاهم علاوة على ذلك الحق في أن يمنعوا أي فرد لا يرغبون فيه من الدخول إلى سوقهم⁽¹⁾ وعليه فقد أقرّ النبي ﷺ على أن يهود بني عوف ويهود بني النجار ويهود بني ساعده ويهود بني أوس ويهود بني ثعلبة مع المؤمنين أمة واحدة لليهود دينهم وللمسلمين، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وأن الجار كالنفس غير مضار ولا إثم⁽²⁾ فعادت أول ممارسة سياسية تجسّدت في منهجه العاطفي ﷺ أن صدع بها فأخرج مجتمع المدينة من دوامة الصراع القبلي إلى رحاب الأخوة والمحبة والتسامح، إذ ركّز على الكثير من المبادئ الإنسانية السامية كنصرة المظلوم، وحماية الجار، وتحريم الجريمة، والتعاون على دفع الديّات، وافتداء الأسرى وغيرها من المبادئ والقيم الأخرى التي يشعر فيها جميع مساكني المدينة بمختلف أجناسهم وأعراقهم ومعتقداتهم أنهم أسرة واحدة مكلفة بالدفاع عن الوطن أمام أي اعتداء خارجي⁽³⁾ هنا نستحضر طلاوة الإسلام وعاطفة النبي ﷺ البهجة وروحه العالية القائمة على التسامح في أرقى معانيها، يثبتهما ﷺ ويرسّخهما من خلال معاهداته مع مساكني المدينة وحتى مع من ما جاورها من اليهود والمجوس والفرس والرّوم وغيرهم، فكانت طريقته مثلى في بناء العلاقات مع جميع الأطراف بكافة عقائدهم الدّينية القائمة على الشراكة في الأعباء والتعاون على البرّ وإقرار روح المساواة بينهم، وإقرار إمكانية النصّح والنصيحة والبرّ بين البشر رغم اختلاف عقائدهم الدّينية في دائرة الشأن الإنساني المشترك⁽⁴⁾.

ب - ترغيب اليهود والنصارى في الإسلام

دعا النبي ﷺ اليهود للإسلام بعد هجرته إلى المدينة، ولم يتّجه لرسم سياسة لإبعادهم ومصادرتهم، بل رضي بطيب خاطر جوارهم، وسجّل في هذا الشأن معاهدة النّد للندّ على أن لهم دينهم وله دينه⁽⁵⁾ فعن أبي هريرة ؓ قال: « بينما نحن في المسجد إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: إنطلقوا إلى يهود، فخرجنا معه حتّى جئنا بيت المدراس فقام النبي ﷺ فناداهم: يا معشر يهود

(1) - جنيد أحمد الهاشمي وآخر، بحث حول معاهدات الرسول ﷺ دراسة الأبعاد الإنسانية، 2013م، ص 382

(2) - علي عبد الله بن غلبون، بحث أسس العلاقات الدولية في الإسلام من خلال وثيقة المدينة، المرجع السابق، ص 124.

(3) - أحمد قائد الشعيبي، وثيقة المدينة المضمون والدلالة، المرجع السابق، ص 21.

(4) - السيّد عمر، وثيقة المدينة الدّستور الإنساني المشترك، المرجع السابق، ص 34.

(5) - ناصر محمدي محمد جاد، التعامل مع غير المسلمين في العهد النبوي، المرجع السابق، ص 77.

أسلموا تسلموا»⁽¹⁾ ويقول الإمام الحافظ ابن حجر رحمه الله: (وجه ذلك أنه بلغ اليهود ودعاهم إلى الإسلام والإعتصام به)⁽²⁾ حتى ظهر أثر ذلك في مواقف كثيرة مع أشراف اليهود كان من بينهم :

- موقفه مع زيد^(*) بن سعة أحد كبار اليهود

زيد بن سعة أحد كبار اليهود، وكان حبراً مثل عبد الله بن سلام، عَرَفَ أوصاف النبي ﷺ فقال: «والله ما من شيء من علامات النبوة إلا وقد رأيته في محمد ﷺ، إلا أنني لم أعرف من العلامات علامتين: الأولى: يسبق حلمه جهله، والثانية: لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حِلماً»⁽³⁾ بمعنى حلمه أسبق، ولو جهل عليه إزداد بهذه الجهالة حلماً، حدث ذلك لما جاء زيد بن سعة إلى النبي ﷺ يطلبه ديناً له، فأخذ بمجامع قميصه وردائه وجذبه، وأغلظ له القول، فنظر إلى النبي ﷺ بوجه غليظ وقال: يا محمد، ألا تقضيني حقِّي، إنكم يا بني عبد المطلب قوم مُطْلٌ، وشدد له في القول، فنظر إليه عمر ﷺ وعيناه تدوران في رأسه كالفلك المستدير، ثم قال: يا عدو الله، أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع، وتفعل ما أرى، فو الذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر لومه لضربت بسيفي رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر ﷺ في سكون وتؤددة وتبسم، ثم قال: أنا وهو يا عمر كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التقاضي، اذهب به يا عمر

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإكراه، باب في بيع المكروه ونحوه في الحق وغيره، رقم الحديث 6944، ص 1719.

(2) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب الإكراه، باب في بيع المكروه ونحوه في الحق وغيره، رقم الحديث 6944، ج 12، المرجع السابق، ص 317.

(*) - زيد بن سعة: من أجل اليهود الذين أسلموا، وأحد أجبار يهود ومن أكثرهم مالاً، فحسن إسلامه، وشهد مع النبي ﷺ مشاهد كثيرة، وتوفي في غزوة تبوك مقبلاً إلى المدينة، (أبو عبد الله سيّد بن كُثروي بن حسن، هدي القاصد إلى أصحاب الحديث الواحد، المرجع السابق، حرف الرّأي، ص 111)، و(ناصر محمّدي محمّد جاد، التّعامل مع غير المسلمين في العهد النبوي، المرجع السابق، ص 68) و(الحاكم في المستدرک، بيروت: دار المعرفة د، ط، ج 3، د، ت)، ص-ص 604، 605.

(3) - أخرجه ابن حبان في سننه، كتاب البرّ والإحسان، ذكر الإستحباب للمرء أن يأمر بالمعروف من هو فوقه ومثله ودونه في الدّين والدّنيا إذا كان قصده فيه النصيحة دون التّعير، ، رقم الحديث 288، (السُّعوديّة: بيت الأفكار الدّولية، د، ط، د، ت)، ص 99. وأخرجه علي بن أبي بكر الهيثمي نورالدّين، مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: حسام الدّين القدسي، كتاب علامات النبوة، باب ما كان عند أهل الكتاب من أمر نبوته، رقم الحديث 13899 (القاهرة: مكتبة القدسي، د، ط، ج 8، 1414هـ/ 1994م)، ص 240. ورواه الحاكم في المستدرک (بيروت: دار المعرفة د، ط، ج 3، د، ت)، ص-ص 604، 605، وابن ماجه بنحوه، كتاب الصّفات، باب لصاحب الحق سلطان، ج 2، ص 810، وقال الذهبي في التلخيص: هذا حديث صحيح.

(3) - أخرجه ابن حبان في سننه، كتاب البرّ والإحسان، ذكر الإستحباب للمرء أن يأمر بالمعروف من هو فوقه ومثله ودونه في الدّين والدّنيا إذا كان قصده فيه النصيحة دون التّعير، رقم الحديث 288 (السُّعوديّة: بيت الأفكار الدّولية، د، ط، د، ت) ص 99.

فأفضه حقه، وزده عشرين صاعاً من تمرٍ»⁽¹⁾ فكان هذا الموقف سبباً في إسلامه، فقال: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فالمكسب الذي رغب يد في الدخول للإسلام هو عفو النبي ﷺ وحلمه مما أدى إلى إسلام اليهودي زيد بن سعة، ثم ترقّيه في منازل الإيمان مُعلنًا تصدّقه بشرط ماله على المسلمين، وكان أكثر اليهود مالاً، ولم يكتف ببذل المال بل حرص على طلب الشهادة في سبيل الله»⁽²⁾ فأية أخلاق هذه وأية مشاعر تُحمل في ذات النبي ﷺ تهتز لها القلوب وتجيّش لها العواطف حين نسمع أو نقرأ مثل هذه المواقف التي واجهها النبي ﷺ بصبرٍ وحلمٍ، فنجدته يردُّ عليهم برحابة صدر وصفح لامثيل له، لتأتي ثمرة تعامله سبباً في إسلام زيد، وأية عواطف هذه كالتعامل بها النبي ﷺ مع الدّ أعدائه وخصومه بشكلٍ لا نظير له، يعفو عند المقدرة، ويحلم عند الغضب، ويحسن إلى المسيء، وهي من أسباب اجتماع القلوب عليه والتّصديق برسالته، فشملت أكابر اليهود والنصارى، وكان زيد قبل هذه القصّة كان يقول: «لم يبق شيء من علامات النبوة إلا وقد عرفتها في وجه محمد إلا اثنين لم أخبرهما منه، يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا...»⁽³⁾ فاختبره بهذه الحادثة فوجده كما وصف فأسلم وآمن وصدّق به وبايعه، وشهد مع النبي ﷺ غزوة تبوك مقبلاً غير مدبراً، وشهد عليه النبي الكريم ﷺ على أخلاقه وصدقه⁽⁴⁾ لقد بيّن هذا الموقف ضابط الغضب من خلال السُّلوك السَّامي للنبي ﷺ والذي لا يفهمه الملوك ولا الأمراء ولا القادة ولا عموم النّاس بتواضعه ورباطة جأشه ممّا جعله يقول لعمر رضي الله عنه: «إنّه أحوج إلى نصيحة

(1) - ذكر ابن حجر في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة هذه القصّة وعزاها إلى الطبراني، والحاكم، وأبي الشيخ في كتابه أخلاق النبي ﷺ وابن سعد، وغيرهم، ثم قال ابن حجر رحمه الله: (ورجال إسناده موثّقون. ومحمد بن أبي السري وثقه ابن معين.. والوليد قد صرح بالتحديث 566/1 وذكره ابن كثير في البداية والنهاية، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد 240/8: (رواه الطبراني، ورجاله ثقا).

(2) - سليمان بن عبد العزيز بن أحمد الدويش، أسلوب التّغريب في دعوة النبي ﷺ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كليّة الدعوة والإعلام، قسم الدّعوة والإحتساب، 1416هـ، ص 296.

(3) - علي بن أبي بكر الهيثمي نور الدّين، مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد، المرجع السّابق، ص 240.

(4) - سعيد بن علي بن وهف القحطاني، رحمة للعالمين محمد ﷺ (الرّياض: فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية للنّشر، ط 1، 1427هـ/2006م)، ص 325. وهناء محمد عباس، أسلوب الحكمة وأثرها في الدّعوة إلى الله، بحث تكميلي لنيل ماجستير في الدّراسات الإسلامية، كليّة الدّراسات العليا والبحث العلمي، 2016م، ص 52.

بحسن الأداء»⁽¹⁾ مع أن هذا اليهودي لا يحتاج إلى نصيحة، فالتَّيُّ ﷺ كان يحاول تسكين فؤاد اليهودي والتبس معه فأشار إلى منهج عاطفي رائع يرسم للدَّاعية أن يكون منضبطاً بالأخلاق العالية والمبادئ الرَّاقية والإحتجاج على من آذاه، بأن يكون إحتجاجاً سلمياً وإنكاراً سليماً دون اللُّجوء إلى الغلظة أو التَّشريع في الردِّ، وهذا أثمر من حينه فدخل اليهودي الإسلام في الوقت الذي كان محاداً لله ولرسوله بسبب حلم النَّبي ﷺ، وكان قد أساء إليه وجهاً لوجه بل تجاوز حتى سبَّ بني عبد المطلب جميعاً، ولكنَّ رحمته ورأفته جعلته يتغاضى عن هذا اليهودي المتطرف، فحصل على مرآه ﷺ أن أسلم اليهودي، يتَّضح عبر هذا الموقف التماس منهج النَّبي ﷺ العاطفي في دعوته لأهل الكتاب، أن عفا عنهم وعاملهم بلينٍ دون كرهٍ أو حقْدٍ أو مقابلة النَّدِّ بالنَّدِّ جرأً صنيعهم معه، فكان هذا المنهج قد أثمر ثماراً ملموسة⁽²⁾، لأنَّ ما فعله النَّبي ﷺ باليهود من أقوى مظاهر هذا المنهج، والذي تجلَّت فيه بوضوح عاطفة النَّبي ﷺ الجيَّاشة، وما تميَّز به من سعة صدرٍ وبشاشة وجهٍ قذفت في قلب اليهودي الإيمان والتَّصديق بنبوّته، فالدعوة إلى الله أحوجُّ إلى من يمثّل لهذه الأخلاق العالية ويطبّقها في الواقع، فينبغي على الداعية أن يتحلّى بالحلم واللّين وضبط النَّفس عند الغضب حتى يكون مثمراً ومثيراً ومؤثراً، في معالجة مثل هذه المواقف.

- إسلام اليهودي ابنُ سلام^(*)

ما جاء في قصّة اليهودي عبد الله بنُ سلام يحكي عن نفسه لمّا قدِم النَّبي ﷺ المدينة إنجفل^(*) النَّاس فكنت فيمن أجفل فلمّا تبيّنت وجهه عرفت له ليس بوجه كذاب، فكان أوّل شيء سمعته يقول: «يا أيها النَّاس، أفشوا السَّلام، وأطعموا الطَّعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والنَّاس نيام،

(1) - أخرجه ابنُ حَبَّان في صحيحه، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، كتاب البرِّ والإحسان، ذِكر الإستحباب للمرء أن يأمر بالمعروف من هو قوِّفه ومثله ودونه في الدِّين والدنيا إلّا كان قصده فيه النَّصيحة دون التَّعيير، رقم الحديث 288 (بيروت: مؤسَّسة الرِّسالة، ط1، ج1، 1408هـ/1988م)، ص 521.

(2) - بتصرُّف: محمَّد بنُ سيدي بنُ الحبيب الشَّنقيطي، منهج الرُّسول ﷺ في دعوة أهل الكتاب، المرجع السَّابق، ص 64.

(*) - اليهودي ابنُ سلام: ابن الحارث .جل من بني إسرائيل، ..من اليهود ..عالم من علماء اليهود، الإمام الخبر، المشهود له بالجنة، أبو الحارث الإسرائيلي، حليف الأنصار، من خواص أصحاب النَّبي ﷺ (يُنظَر: محمَّد الصوياني، السَّيرة النَّبوية كما جاءت في الأحاديث الصَّحيحة، مكتبة العبيكان، ج1، د، طد، ت)، ص 298.

(*) - إنجفل: انقلبوا كلُّهم ومضوا (وقيل : قد قدم ... إلخ) أي: إشتهر بين النَّاس هذا الخبر (سنن ابنُ ماجه، كتاب الأطعمة، باب إطعام الطَّعام، رقم الحديث 3251، المصدر السَّابق، ص 300).

تدخلوا الجنة بسلام»⁽¹⁾ لقد كانت هذه الكلمات تذوب فيها كل نظريات العدل والمساواة والإصلاح التي ينادي بها البشر، فأَيُّ مجتمع سيولد في المدينة .. مجتمع تفسو بين أهله التّحايا والهدايا والسلام .. مجتمع يمدّ يديه للمحتاج .. ويشقُّ الطُّرقات بين الأقارب والأرحام .. وعندما يهدأ النهار ويدلف إلى خبائه .. وتسكن الطُّيور في الأوكار .. تحلّق أرواح مؤمنة إلى ربّها تناجي وتخاف وترجو بدموعها رحمة الرّحيم ... فأيقن عبد الله بنُ سلام أنّ هذا الرّجل ليس بكذّاب .. ولا يأتي كذاب بمثل هذا الحبِّ والسلام⁽²⁾ فأمن به عندما سمع منه⁽³⁾ ، وكان الحوار⁽⁴⁾ المشهود بين عبد الله بنُ سلام والنبي ﷺ نقطة تحوّل حياة ابنُ سلام، الذي رغبه في الإسلام وصحبة خير الأنام، وبعد أن شرح صدره للإسلام قال يا رسول الله: «إن اليهود قوم بُهت، ومن بهتاهم: أتهم كذبوا على الله فوصفوه بما لا يليق⁽⁵⁾، وإتهم إن علموا بإسلامي قبل أن تسلمهم عني بهتوني، فجاءت اليهود إليه. قال ﷺ: أيُّ رجل عبد الله بنُ سلام فيكم؟ قالوا: خيرنا وابنُ خيرنا .. وسيدنا وابنُ سيدنا .. قال ﷺ: أرايتم إن أسلم عبد الله بنُ سلام؟ قالوا: أعاذة الله من ذلك .. فخرج عبد الله وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، قالوا: شرنا وابنُ شرنا .. وتنقصوه، قال ابنُ سلام: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله»⁽⁶⁾ يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران: 181] وقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُفِيقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: 64] وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قُلْ لَّهُمْ اللَّهُ أَفِ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: 30] وقد أثنى الله تعالى ونبيه ﷺ على بنُ سلام، فعن سعد بنُ أبي وقاص ﷺ قال: «ما سمعت النبي ﷺ

(1) - أبو عبد الله محمد بنُ يزيد القزويني، سنن ابنِ ماجه، كتاب الأطعمة، باب إطعام الطعام، رقم الحديث 3251 (مطبعة دار إحياء الكتب العربية، ج1، دت)، ص 1083.

(2) - محمد الصوباني، السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة، المرجع السابق، ص 299.

(3) - المرجع نفسه، ص 299.

(4) - محمد الصوباني، السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة، المرجع السابق، ص 299.

(5) - ابنُ كثير، البداية والنهاية ج3، المرجع السابق ص 212.

(6) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه، رقم الحديث 3938، ص

يقول لأحدٍ يمشي على الأرضِ إنَّه من أهلِ الجنةِ إلَّا لعبد الله بنُ سلام⁽¹⁾ قال: وفيه نزلت الآية وشهد شاهد من بني مثله.

- ترغيبه لملوك النصارى للإسلام باللين

لَقَدْ كَانَ مِنْ هَدْيِهِ ﷺ تَرْغِيبَ مَلُوكِ النَّصَارَى مِنْ خِلَالِ مَكَاتِبَاتِهِ لَهُمْ يَدْعُوهُمْ فِيهَا لِلإِسْلَامِ⁽²⁾ فقد ثبت في الصحيحين عن أنس بن مالكٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَتَبَ إِلَى هِرَقْلَ مَلِكِ الرُّومِ وَقِصْرَ وَكُسْرَى مَلِكِ فَارَسَ وَالتَّجَاشِي مَلِكِ الْحَبْشَةِ الَّذِي صَلَّى عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَالْمَقَوْسَ مَلِكِ مِصْرَ وَعَظِيمَ الْقَبْطِ⁽³⁾ وَنَصَارَى الْعَرَبِ كَالنَّصْرَانِيِّ هُوَذَةَ بْنِ عَلِيٍّ، وَيَحْنَةَ بْنَ رُبُوعَةَ، وَجَبَلَةَ بْنَ الْأَيْهَمِ وَغَيْرَهُمْ⁽⁴⁾، فَكَانَ فَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَتَلَطَّفُ بِهِمْ وَيُرَاعِي مَكَانَتَهُمْ وَمُلْكَهُمْ وَعَوَائِدَهُمْ، وَكَانَ مِنْ مَنَهِجِهِ أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى عَظِيمٍ مِنْ عَظَمَائِهِمْ تَلَطَّفَ بِهِمْ وَيَدْعُوهُمْ بِحِكْمَةٍ، فَقَدْ حَاوَلَ ﷺ فِي رِسَائِلِهِ لَهُمْ عَلَى نَمَطٍ يَعْهَدُونَهُ فِي كِتَابَاتِهِمُ الَّتِي تَرُدُّ عَلَيْهِمُ وَالَّتِي يوردونها على غيرهم رغبة منهم في استجابتهم للدعوة على الإسلام، فكانت على نمطٍ واحدٍ قائلًا مثلاً للمقوقس: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الإِسْلَامِ، أَسْلَمَ تَسْلَمَ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ^(*)». يقول تعالى:

﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتٰبِ تَعَالَوْا۟ اِلٰى كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اَلَّا نَعْبُدَ اِلَّا اللّٰهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْۜءًا وَلَا يَتَّخِذَ

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب عبد الله بن سلام ﷺ، رقم الحديث 3812، ص 933.

(2) - يُنْظَرُ: مُحَمَّدُ بْنُ سَيْدِي بْنِ الْحَبِيبِ الشَّنْقِيطِيِّ، مَنَهِجُ الرَّسُولِ ﷺ فِي دَعْوَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ، الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص-ص 196، 235.

(3) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله تعالى، رقم الحديث 1774، ج 2، ص 752.

(4) - يُنْظَرُ: مُحَمَّدُ بْنُ سَيْدِي بْنِ الْحَبِيبِ الشَّنْقِيطِيِّ، مَنَهِجُ الرَّسُولِ ﷺ فِي دَعْوَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ، الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص-ص 236، 243.

(*) - الْأَرِيسِيِّينَ: هُوَ جَمْعُ أَرِيسِيٍّ، وَهُوَ مَنْسُوبٌ إِلَى أَرِيسَ بَوَازٍ فَعِيلٌ، وَقَدْ تَقَلَّبَ هَمْزَتُهُ يَاءً، كَمَا جَاءَتْ بِهِ رَوَايَةُ أَبِي ذَرٍّ وَالْأَصْلِيُّ وَغَيْرُهُمَا هُنَا، قَالَ ابْنُ سَيِّدَةَ: الْأَرِيسُ الْأَكَارُ، أَيْ الْفَلَاحُ عِنْدَ ثَعْلَبٍ، وَعِنْدَ كِرَاعٍ: الْأَرِيسُ هُوَ الْأَمِيرُ، وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: هِيَ لُغَةٌ شَامِيَّةٌ، وَأَنْكَرَ ابْنُ فَارَسٍ أَنْ تَكُونَ عَرَبِيَّةً، وَزَادَ الْبَرْقَانِيُّ فِي رَوَايَتِهِ: الْحَرَاثِينَ، وَفِي رَوَايَةِ الْمَدَائِنِيِّ (فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْفَلَاحِينَ) وَعِنْدَ أَبِي عُبَيْدٍ فِي كِتَابِ الْأَمْوَالِ الْمُرَادُ بِالْفَلَاحِينَ أَهْلُ مَمْلَكَتِهِ، لِأَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ يَزْرَعُ فَهُوَ عِنْدَ الْعَرَبِ فَالَاحٌ، سِوَاهُ كَانَ يَلِي ذَلِكَ بِنَفْسِهِ أَوْ بَغَيْرِهِ، وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: أَرَادَ أَنْ عَلَيْكَ إِثْمُ الضَّعْفَاءِ وَالْأَتْبَاعِ إِذَا لَمْ يَسْلَمُوا تَقْلِيدًا لَهُ لِأَنَّ الْأَصَاغِرَ أَتْبَاعُ الْأَكَابِرِ، وَوَرَدَ تَفْسِيرُ الْأَرِيسِيِّينَ بِمَعْنَى آخَرَ فَقَالَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ يُونُسَ فِيمَا رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ مِنْ طَرِيقِهِ: الْأَرِيسِيُّونَ الْعَشَارُونَ يَعْنِي أَهْلَ الْمَكْسِ... (يُنْظَرُ: ابْنُ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيُّ، فَتْحُ الْبَارِي شَرْحُ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، كِتَابُ بَدَأِ الْوَحْيِ، بَابُ 75، الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 39).

بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ [آل عمران: 64]^(١)،
ولملك الروم قوله ﷺ: «من محمد بن عبد الله إلى عظيم الروم...»^(٢) وكان عليه الصلاة والسلام يولي
عناية فائقة بذوي المكانة والرياسة وتقديمهم في الدعوة ترغيباً لهم في الإسلام، لما لهم من مكانة
وسيادة تجعل أقوامهم تبعاً لهم، فاعتمد على لغة المجاملة في مخاطبتهم، فلم تحمل رسائله تهديداً أو
حرماً أو غضباً، بل تضمنت طمأننتهم على ملكهم إن أسلموا أو تهدأوا، فآمن بعضهم ودخل في
الإسلام، يشير العلامة الإمام ابن تيمية رحمه الله في نكتة إلى هذا الشأن فيقول: (وطالب الرياسة -
ولو بالباطل - ترضيه الكلمة التي فيها تعظيمه وإن كانت باطلاً وتغضبه الكلمة التي فيها ذمه وإن
كانت حقاً)^(٣) فأظهر النبي ﷺ الدراية والحكمة في سياسته الخارجية، فكان مثلاً لمن بعده من
الأمراء والخلفاء والحكام المسلمين والدعاة المخلصين الذين تحتاج منهم الدعوة أن يكونوا على دراية
تامة بعقيدة اليهود وشرائعهم، وأن تكون لهم القدرة على التأثير فيهم وإقناعهم بحكمة وعاطفة
متأسين برسول الله ﷺ حتى يستطيعوا مواجهتهم بالحجة والعاطفة.

ج- حلمه وصفحه ولين الجانب باليهود

إنَّ الحلم عن أهل الكتاب والصَّفح عن زلَّاتهم منهج عاطفي حكيم من مناهج دعوة النبي ﷺ
لهم وسبب في دخولهم الإسلام حيث أمره الله تعالى بذلك: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا
يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: 96] وقد إمتثل النبي ﷺ لأمر الله تعالى سواء مع المشرك أو المنافق أو
الكتابي، وقد ظهر أثر ذلك في دخولهم للإسلام، وذلك ما رواه الإمام الزهري رحمه الله في قصة
اليهودي الذي أساء الأدب مع النبي ﷺ فصفح عنه ولم يأخذ بزلاته فكان سبباً في إسلامه فأسلم
وحسن إسلامه، ومات في زمنه ﷺ^(٤) وتكرر درجة حلمه ﷺ أنه لم يعنف مع اليهود الذين تواطؤوا
في إساءته ما جاء في حديث السيِّدة عائشة أم المؤمنين عن الثلاثة اليهود الذين دخلوا إلى النبي ﷺ

(١) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، رقم الحديث 1774، ج2، ص749.

(٢) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: 64] رقم الحديث 4553، ص564.

(٣) - أحمد بن تيمية، مجموع فتاوى، ج10، المرجع السابق، ص599.

(٤) - محمد بن سيدي بن الحبيب الشنقيطي، منهج الرسول ﷺ في دعوة أهل الكتاب، المرجع السابق، ص64.

في بيته في آن واحد متتابعين يحْيُونَهُ بِتَحِيَّةٍ وَاحِدَةٍ بِقَوْلِهِمْ: السَّامُ (*) عَلَيْكُمْ، فَرَدَّ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ وَعَلَيْكَ، فَأَظْهَرَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا غَضَبُهَا بِمَا تَكَلَّمَتْ بِهِ، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْفَحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ، قَالُوا: قَوْلًا فَرَدَدْنَا عَلَيْهِمْ وَإِنَّ الْيَهُودَ قَوْمَ حَسَدٍ، وَأَنْتُمْ لَا يَحْسُدُونَنَا عَلَى شَيْءٍ كَمَا يَحْسُدُونَنَا عَلَى السَّلَامِ وَعَلَى آمِين»⁽¹⁾ فالْمُوَدَّةُ وَالرَّحْمَةُ وَالتَّسَامُحُ أَسَاسُ الْعِلَاقَاتِ الْإِنْسَانِيَةِ وَالْمُسْلِمُونَ آنَذَاكَ لَا يَجِدُونَ ضَيْرًا وَلَا حَرْجًا فِي أَنْ يَصَاحِبَهُمْ وَيَسْكَاهُمْ مِنْ لَا يَتَّفَقُ مَعَهُمْ فِي الدِّينِ، يَقُولُ الشَّيْخُ الْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (إِنَّ الْإِسْلَامَ لَا يَكْفُ لَحْظَةً وَاحِدَةً عَنْ مَدِّ يَدِهِ لِمَصَافِحَةِ أَتْبَاعِ كُلِّ مِلَّةٍ وَكُلِّ نَحْلَةٍ فِي سَبِيلِ التَّعَاوُنِ عَلَى إِقَامَةِ الْعَدْلِ وَنَشْرِ الْأَمْنِ وَصِيَانَةِ الدِّمَاءِ أَنْ تَسْقُكَ وَحِمَايَةِ الْحُرُمَاتِ أَنْ تَنْتَهَكَ)⁽²⁾ وَاتَّضَحَتْ سَمَاحَتُهُ وَحِلْمُهُ مَا كَانَ مِنَ الْيَهُودِ حَيْثُ كَانُوا يَتَعَاطِسُونَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَجَاءً أَنْ يَقُولَ لَهُمْ يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَلَمْ يَحْرَمَهُمْ مِنَ الدَّعْوَةِ بِالْهُدَايَةِ وَالصَّلَاحِ فَكَانَ يَقُولُ: «يَهْدِيكُمْ اللَّهُ وَيُصْلِحُ بِالْكَمِّ»⁽³⁾ فَالدَّعَاءُ لَدَى الدَّعَاةِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَعْظَمِ صُورِ التَّسَامُحِ وَالرَّحْمَةِ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ مُحَاسِنَةِ الْكِبَرَى الَّتِي تَنْظُرُ لِلْإِنْسَانِ نَظْرَةَ تَكْرِيمٍ وَعِنَايَةٍ، وَهُوَ ظَاهِرَةٌ اسْتِمَالَةٍ لِقَلْبِ الْمَدْعُوِّ فَكُلُّ أَحَدٍ يَتَمَتَّى مِنَ النَّاسِ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ بِالْخَيْرِ، هُنَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَوْ قَالَ لِي فِرْعَوْنُ: بَارِكْ اللَّهُ فِيكَ قُلْتُ: وَفِيكَ، وَفِرْعَوْنُ قَدْ مَاتَ»⁽⁴⁾ فَأَيَّةُ أَخْلَاقٍ عَالِيَةٍ، وَأَيُّ قَمَّةٍ سَامِقَةٍ أَنَّ اللَّهَ يَكْرَهُ الْفَحْشَ وَالتَّفَحُّشَ مَوْقِفٍ تَدَافَعُ فِيهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: 148] وَاسْتَمَرَّ هَذَا النَّهْجُ فِي مُعَامَلَةِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ عِبْرَ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي تَعِيشُ فِي الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ طَوَائِفُ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي مِصْرَ وَالشَّامِ وَبِلَادِ الْمَغْرِبِ الْعَرَبِيِّ لِشَاهِدٍ عَلَى سَمَاحَةِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، جَعَلَتْ الْمُسْتَشْرِقُ الْإِنْجِلِيزِي توماس أرنولد يقول: (إِنَّ الْعَرَبَ الْمَسِيحِيِّينَ الَّذِينَ يَعِيشُونَ فِي وَقْتِنَا هَذَا بَيْنَ جَمَاعَاتٍ مُسْلِمَةٍ

(*) - السَّامُ: بِمَعْنَى الْمَوْتِ (صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ، كِتَابُ الطَّبِّ، بَابُ الْحَبَّةِ السُّودَاءِ، رَقْمُ الْحَدِيثِ 5687، ص 1443).

(1) - أَخْرَجَهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ فِي صَحِيحِهِ، تَحْقِيقُ: مُحَمَّدٌ مُصْطَفَى الْأَعْظَمِيُّ، بَابُ ذِكْرِ حَسَدِ الْيَهُودِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى تَأْمِينِهِمْ، رَقْمُ الْحَدِيثِ 1585 (الْمَكْتَبُ الْإِسْلَامِيُّ، د، ط، ج 3، 1400هـ/1980م)، ص 38. وَأَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهٍ فِي سُنَنِهِ (856). وَقَالَ: إِسْنَادُهُ حَسَنٌ، وَالْأَلْبَانِيُّ فِي السَّلْسَلَةِ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ، رَقْمُ الْحَدِيثِ 306 (الرِّيَاضُ: مَكْتَبَةُ الْمَعَارِفِ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ، ط 1، ج 2، د، ت)، ص 306.

(2) - مُحَمَّدٌ الْغَزَالِيُّ، التَّعَصُّبُ وَالتَّسَامُحُ بَيْنَ الْمَسِيحِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ (الْجِيزَةُ: نَحْضَةُ مِصْرَ لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ، ط 6، 2005م)، ص 78.

(3) - مُحَمَّدٌ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْبُخَارِيِّ، صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ فِي الْأَدَبِ الْمَفْرَدِ، تَحْقِيقُ: الْأَلْبَانِيُّ، بَابُ إِذَا عَطَسَ يَهُودِيٌّ، رَقْمُ الْحَدِيثِ 723/940 (دَارُ الصَّدِيقِ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ، ط 4، 1418هـ/1997م)، ص 348.

(4) - مُحَمَّدٌ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْبُخَارِيِّ، صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ فِي الْأَدَبِ الْمَفْرَدِ، بَابُ كَيْفِ يَدْعُو لِلذِّمِيِّ؟ رَقْمُ الْحَدِيثِ، 852، الْمَرْجِعُ نَفْسُهُ، ص 430.

لشاهد على هذا التسامح⁽¹⁾ مضيئاً قائلاً أيضاً: (لَمَّا كَانَ الْمَسِيحِيُّونَ يَعِيشُونَ فِي مَجْتَمَعِهِمْ آمَنِينَ عَلَى حَيَاتِهِمْ وَمَمْلَكَاتِهِمْ نَاعِمِينَ بِمَثَلِ هَذَا التَّسَامُحِ الَّذِي مَنْحَهُمْ حُرِّيَّةُ التَّفَكُّيرِ الدِّينِيِّ تَمَتَّعُوا وَخَاصَّةً فِي الْمَدِينِ بِحَالَةِ مِنَ الرَّفَاهِيَةِ وَالرَّخَاءِ فِي الْأَيَّامِ الْأُولَى مِنَ الْخِلَافَةِ)⁽²⁾ فهذا ما نشأت عليه الدعوة الإسلامية، خاضت غمار التحديات بهذا المنهج السلمي والعاطفي والذي أجمعت جميع الآثار بنجاحها واستمراريتها، ممّا سمحت للدّاعية إظهار صور التسامح والأخذ بالعتائم، يترقّق بالمدعوين ولو رموه بالحجر أو بالتهكم أو بالسُّخرية، حيث يقوم الأستاذ حسن البنا رحمه الله: (كونوا كالشجر يرمى بالحجر فيلقى بالثمر)⁽³⁾ فاللين والرفق هو القنطرة بين الداعية والمدعو، فإن أُحكمت وضعها وصل للمدعو ما يريده الدّاعية، ويرغب فلا يتعجّل الدّاعية عرض دعوته على الناس قبل أن يضع قنطرتة ويثبتها باللين ويزيّنها بالرفق حتّى مع أعداء الدعوة.

د- الرّحمة والبرّ باليهود والنّصارى

أسّس القرآن الكريم مبدأ من مبادئ التّعامل مع غير المسلمين تتمثّل في أسلوب الرّحمة والبرّ فنصّ على السّماح للمسلمين بأنّ يتقدّموا إلى غير أتباع دينهم بالودّ والبرّ والمعاملة بالحسنى إذا لم يشكّل وجودهم ضرراً بهم يقول تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝٩﴾ [الممتحنة: 8-9] وقد شهد على النبي ﷺ من خلال سيرته العطرة أنّه أحسن معاملة من ساكنه في المدينة من غير المسلمين، فعندما أتى إلى اليهود يدعوهم إلى الإسلام نادى: «يا معشر اليهود أسلموا تسلموا، فقالوا: بلغت يا أبا القاسم، فقال النبي ﷺ: إعلموا أنّ الأرض لله ورسوله، وأني أريد أن أجليكم فمن وجد منكم بماله شيئاً فليبعه، وإلا فاعلموا أنّما الأرض لله ولرسوله»⁽⁴⁾ فهنا تصريح النبي ﷺ بدعوته لليهود وإخبارهم بأنّ سلامتهم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة في إسلامهم، مؤكّداً لهم بأنّه فعل ما بوسعه بما أمره الله

(1) - سميّر توماس وأرنولد، الدّعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، د، ط، 1971م)، ص 70.

(2) - المرجع نفسه، ص 70.

(3) - محمّد أحمد الرّاشد، الرّقائِق (مؤسّسة الرّسالة، ط4، 1410هـ / 1981م)، ص 38.

(4) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب الإكراه، باب في بيع المكروه ونحوه في الحقّ وغيره، رقم الحديث 6944، ج 12، المرجع السّابق، ص 317.

تعالى به لكنهم ضلُّوا ضلالاً بعيداً، وهذا دلالة حرصه ﷺ ورحمته بهم، برغم خروجهم عن ملَّة الإسلام، يقول العلامة الكرمانى رحمه الله: (تسلموا في الدنيا من القتل والجزية، وفي الآخرة من العذاب)⁽¹⁾ وعندما جاء رسلُ نصارى نجران إلى المدينة ليفاوضوا النبي ﷺ منحهم جزءاً من المسجد ليؤدُّوا صلاتهم فيه أثناء إقامتهم بالمدينة، إذ لَمَّا قدم هذا الوفد على رسول الله ﷺ دخلوا عليه المسجد بعد صلاة العصر فحانت صلاتهم فقاموا يصلُّون فأراد النَّاسُ منعهم فقال لهم رسول الله ﷺ: «دعوهم فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم»⁽²⁾، وعندما جاء وفد ثقيف إلى رسول الله ﷺ ضرب عليهم القبة في المسجد فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله إنهم لا يصلون فقال النبي ﷺ: دعهم يا عمر فإنهم سيستحيون ألاَّ يصلُّوا...»⁽³⁾، ومن صور البرِّ عند أوَّل قدومه ﷺ المدينة كان يحبُّ موافقة اليهود في أعمالهم وعاداتهم ليتألَّف قلوبهم على الإسلام، ولكنَّه لما رأى عنادهم وجحودهم و مكابرتهم أمر بمخالفتهم، ونهى عن التشبُّه بهم، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَسْدِلُ شَعْرَهُ وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَفْرِقُونَ رُءُوسَهُمْ فَكَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَسْدِلُونَ^(*) أشعارهم، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَفْرِقُونَ^(*) رؤوسهم وكان رسولُ ﷺ يُحِبُّ مُوَافَقَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِيمَا لَمْ يُؤْمَرْ بِهِ، بِشَيْءٍ فَسَدَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ناصيته ثُمَّ فَرَّقَ بَعْدُ»⁽⁴⁾ ولم يكن ﷺ يترفع عن محاورتهم، بل كان يتواضع لهم، ويجيب على أسئلتهم وإن كان مرادهم منها العنت والمجادلة بالباطل، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قال: «بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرْثٍ^(*) وَهُوَ مُتَكَيِّئٌ عَلَى عَسِيبٍ^(*) إِذْ مَرَّ بِنَقَرٍ مِنَ الْيَهُودِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ

(1) - مُحَمَّدُ بْنُ سَيْدِي بْنِ الْحَبِيبِ الشَّنْقِيطِي، منهج الرسول ﷺ في دعوة أهل الكتاب، المرجع السابق، ص 70.

(2) - البیهقي، دلائل النبوة، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، ج5، 1408هـ/1988م)، ص382.

(3) - عمر بن شبة بن عبيدة بن رية النميري البصري، تاريخ المدينة لابن شبة، تحقيق: فهمي محمد شلتوت، باب الوفود (جدة، د، ط، ج2، 1399هـ)، ص500.

(*) - يَسْدِلُونَ: قال أهل اللغة : يقال سدل يسدل، وقال القاضي: سدل الشعر إرساله، وقال : المراد به هنا، عند العلماء، إرساله على الجبين واتخاذهُ كالفَصَّة، يقال: سدل شعره وثوبه إذا أرسله ولم يضم جوانبه. (صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب في سدل النبي ﷺ شعره وفرقه، رقم الحديث 2336، ص 1817).

(*) - يَفْرِقُونَ: الفرق هو فرق الشعر بعضه عن بعضه، قال العلماء : والفرق سنَّة، لأنَّه الذي رجع إليه النبي ﷺ (صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب في سدل النبي ﷺ شعره وفرقه، رقم الحديث 2336، ص 1817).

(4) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب في سدل النبي ﷺ شعره وفرقه، رقم الحديث 2336، ص 1817.

(*) - فِي حَرْثٍ: هو موضع الزَّرع (المصدر نفسه، ص 1817).

(*) - عَسِيب: هو جريدة النَّخْل (المصدر نفسه، ص 1817).

لِبَعْضٍ سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ فَقَالُوا مَا رَبُّكُمْ^(*) إِلَيْهِ؟ لَا يَسْتَقْبِلُكُمْ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ، فَقَالُوا : سَلُوهُ، فَقَامَ إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ فَسَأَلَهُ عَنِ الرُّوحِ، قَالَ: فَأَسْكَتَ النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ شَيْئًا، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ، قَالَ فَقُمْتُ مَكَانِي، فَلَمَّا نَزَلَ الْوَحْيُ قَالَ:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ : [الإسراء: 85]«⁽¹⁾.

قبوله لهدايا اليهود فقبل هدية زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مشكم في خيبر حيث أهدت له شاة مشوية قد وضعت فيها السم، ... سأله النبي ﷺ عن ذلك، فقالت: أردت لأقتلك قال: ما كان الله لیسلطك على ذاك، قال: أو قال: علي، قال: قالوا: ألا نقتلها؟ قال: لا، قال: فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ⁽²⁾ وهذا بيان للدعاة قبول هدية الكفار بجميع أصنافهم حتى من أهل الحرب، يقول العلامة ابن قدامة رحمه الله في المغني: (يجوز قبول هدية الكفار من أهل الحرب، لأن النبي ﷺ قبل هدية المقوقس صاحب مصر)⁽³⁾، وكان يحسن جوارهم، فهذا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، كان له جار يهودي، وكان إذا ذبح الشاة قال : إحملوا منها، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثني»⁽⁴⁾، وكان يعود مريضهم، عن أنس بن مالك ﷺ قال: «أَنَّ غُلَامًا مِنَ الْيَهُودِ كَانَ يَخْدُمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَرَضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ: أَسْلِمَ، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ : أَطَعَ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ»⁽⁵⁾ فَقَدْ حرص النبي ﷺ على برّ اليهود والإحسان إليهم، كما حرص على إسداء النصيحة لهم بما فيه خيرهم، ما داموا لم يعتدوا على

(*) - مَا رَبُّكُمْ* إِلَيْهِ: هكذا في جميع النسخ، أي: ما دعا إلى سؤاله، ما شككتكم فيه حتى إحتجتم إلى سؤاله، أو ما دعاكم إلى سؤال تخشون سوء عقباه (المصدر نفسه، ص 1817).

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب سؤال اليهود النبي ﷺ، رقم الحديث 2794، ص 2152. وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف مايعنيه، 7297، ص-ص 1801، 1802.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة، باب قبول الهدية من المشركين، رقم الحديث 2617، ص 635.

(3) * - أبو محمد عبد الله بن محمد بن قدامة المغني، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي وآخر، كتاب الجهاد، فصل قبول الهدية من المشركين، رقم الحديث 1686 (الرياض: دار عالم الكتب، ط 1، 1406هـ/1986م)، ص 200.

(4) - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ج 3، المصدر السابق، ص 241.

(5) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يُصلّى عليه، رقم الحديث 1356، ص 327.

المسلمين ولم يظاهروا على عداوتهم، ولم يقفوا في سبيل الدعوة أو يعطلوا سيرها⁽¹⁾ ولدرجة سماحة النبي ﷺ وبرّه باليهود لم يرضى لهم أن ينتهكوا حرمت المسلمين ويتمادوا في حقدهم بمحاولات التصدي والكيد لهذه الدعوة، فكان من جملة هذه المحاولات :

- لَمَّا عَظُمَ أذى كعب بن الأشرف اليهودي للمسلمين، وبدأ يخوض في أعراضهم، ويشبّب بنسائهم في شعره، وارتحل إلى مكة يحرض زعماء قريش على المسلمين أمر النبي ﷺ بقتله والقصة طويلة.⁽²⁾

- وَلَمَّا تَكَثَّرَت محاولات يهود بني النضير لقتل النبي ﷺ، ودسوا إلى قريش يحضونهم على غزو المدينة، ويدلونهم على العورة، أمر النبي ﷺ بإجلائهم من المدينة في السنة الرابعة من الهجرة⁽³⁾ وأما يهود بني قريظة فقد قتل النبي ﷺ مقاتلتهم لما غدروا به يوم الأحزاب، وتحالفوا مع قريش والعرب ضد المسلمين، وخانوا العهد معهم، وكان ذلك في العام الهجري الخامس⁽⁴⁾ وَقَدْ وَرَدَ في أَنَّ النبي ﷺ كان يعفو عن كل من أظهر الوفاء بالعهد من اليهود، ولا يعاقب إلا من شارك في الغدر أو أقرّ ورضي، فعاش النبي ﷺ في كنف اليهود بعهد مع المسلمين فكان في غاية البرّ والرحمة إلا أنهم نقضوا العهد وخانوا رسول الله ﷺ، وكان يقربهم ويخصّهم بأشياء دون غيرهم من ملل الكفر تألفا لهم واستمالة لهم بغية إسلامهم، فكان هذا المنهج سبباً في قبولهم للإسلام، لأنهم رأوا ﷺ يذنبهم ويقربهم ويخصّهم بأشياء دون سائر الكفار، فكانوا إذا رأوا الموافقة بين شريعته وشرائع الأنبياء قبله صدّقه فيما أخبر به⁽⁵⁾، كل هذا لرحمته ﷺ بأمته حتى باليهود الذين هم أشد الناس تنكياً وعداوة له وللمسلمين، فكان في قمة من الرأفة والرحمة والعفو الذي أظهره منهجه العاطفي والذي أثبت دوره الكبير في استعطاف العديد من اليهود ودخولهم في الإسلام.

وعليه يتعيّن على الدّاعية الاستفادة من دعوة النبي ﷺ لليهود وتأليفهم كالاتي :

- بعد هذه الأسطر المستفيضة من منهج النبي ﷺ العاطفي في دعوة اليهود، يستوجب على الدّاعية الحذر من دسائس اليهود وكيدهم الخفي تجاه الدّعوة الإسلامية ورجالها، فإنهم قد ألفوا الكيد

(1) - ناصر محمدي محمّد جاد، التّعامل مع غير المسلمين في العهد النبوي، المرجع السابق، ص 176.

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب قتل كعب بن الأشرف، رقم الحديث 1801، ص 1424.

(3) - يُنظر: إِبْنُ هشام الحميري، السّيرة النبوية، تحقيق: محمّد محيي الدّين عبد الحميد (د، ط، ج 3، 1383هـ/1963م)، ص 682.

(4) - يُنظر: المرجع نفسه، ص 706.

(5) - يُنظر: محمّد بن سيدي بن الحبيب الشنقيطي، منهج الرّسول ﷺ في دعوة أهل الكتاب، المرجع السّابق، ص-ص 70،

والوقية بالمسلمين، وليس من طبيعتهم أن يعيشوا في أجواء نظيفة تلك التي وفرها لهم النبي ﷺ ليعيشوا بأمان بعيدين عن الفتن والمتاعب، فلو أدوا حقوق الحوار، واحترموا العهود والمواثيق لعاشوا آمنين مطمئنين يقول تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: 30] ورغم ما بذلوه من كيدٍ لمحاربة دعوة النبي ﷺ والسعي في خدمة أهوائهم ومصالحهم، باءت كلُّها بالفشل أمام إرادة الله تعالى التي اقتضت أن يحفظ هذه الدعوة فقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: 8].

- إنطلاقاً مما ذكر سابقاً تبين أن عاطفة النبي ﷺ لليهود في قمة المشاعر الإنسانية وألينها، وقد تركت الآثار إسلام طائفة منهم وتأثرهم بأخلاقه ﷺ وأسلوبه المرن، بينما طائفة أخرى أظهرت حقدتها وغيضها حسداً وكرها للفطرة التي نشأوا عليها.

- إنَّ الدعاة قد يقعون في شرك الأعداء أو الحلفاء بسبب النوايا الطيبة، وهذا لا يعفيهم من المسؤولية، فسريرة التخطيط وسرعة البداهة والتعامل في المقابل ببلاهة ظاهرية بجهل مخططات العدو عناصر أساسية في إلقاء شرهم، فالواجب من الداعية أن يكون يقظاً وفطناً، يحسن التصرف معهم في جميع الحالات الصعبة وغير الصعبة⁽¹⁾، لأنَّ الركون والإطمئنان لليهود ليس من السياسة ولا من الدين في شيء، فميزتهم أنهم لا عهد لهم ولا ميثاق⁽²⁾ يقول تعالى: ﴿أَوْ كَلِمَاعَهُدُوا عَهْدًا بَيْنَهُمْ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 100].

- بعض الدعاة اختصوا لأنفسهم منهجاً خاصاً للدعوة إلى الله يختلف عن منهج النبي ﷺ وكيف استطاع اجتياح قلوب اليهود والنصارى وأهل الكفر برغم عنادهم ومكرهم، في الوقت الذي نجدهم انشغلت دعواتهم بأمور جانبية بعضهم إصلاح الحكم والسياسة وآخرين يهتمون بجانب التعبّد وممارسة الأوراد على نهج المتصوّفة ما يهملهم استقطاب الناس معهم دون النظر إلى عقائدهم، وبعضهم يريدون قيام دولة إسلامية على أرضه بينما نجده لم يقمها في نفسه، فعلى كلّ داعية أو كلّ دعوة حملت لواء الإسلام أن تصحّح مفاهيمها بمراجعة الكتاب وسنة النبي المصطفى ﷺ لمعرفة نهجه الصحيح في الدعوة إلى الله في زمن اختلط الحابل بالنابل اختلطت العقائد والمذاهب والطرق.

(1) - منير محمّد الغضبان، المنهج الحركي للسيرة النبوية، المرجع السابق، ص 212.

(2) - محمّد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، المرجع السابق، ص 232.

المطلب الثالث: منهج النبي ﷺ العاطفي في دعوة المنافقين

أولاً: التعريف بالمنافقين

– لغة :

- يعرفه العلامة ابن فارس بالقول: (التَّفَاقُ اسم مأخوذ من مادة (ن ف ق) التي تدلُّ على الخروج، فالتَّفَقَّ سرب في الأرض له مخلص إلى مكان، والتَّفَقَّ المسلك النَّافِذ الذي يمكن الخروج منه⁽¹⁾) لذلك وصفهم القرآن الكريم بالخارجين عن الشَّرع يقول عنهم تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: 67].

– اصطلاحاً

التَّفَاق هو إظهار الإنسان غير ما يضر، والمنافق ظاهره إيمان وباطنه كفر، يقول تعالى في شأنه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَمُ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 8] وسئل حذيفة بن اليمان عن التَّفَاق فقال: (الذي يصف الإسلام ولا يعمل به)⁽²⁾ وأمَّا المنافق هو الشخص الذي يظهر خلاف ما يبطنه ويخفيه وقد قسَّمهم إلى قسمين:

✓ **نفاق في العقيدة:** وهو أن يخفي التكذيب بأصول الدِّين، وهذا التَّفَاق كفر يقول تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: 145].

✓ **نفاق في غير العقيدة:** وهو إذا كان الذي يخفيه غير الكفر بالله وكتابه وإنما هو شيء من المعصية⁽³⁾ يقول ابن جريح عن المنافق: (يخالف قوله فعله وسرّه علانيته ومدخله مخرجه ومشهده مغيبه)⁽⁴⁾ والمنافقون جماعة من عرب المدينة وما حولها أظهروا الإسلام وأضَمُّوا الكفر خوفاً على حياتهم⁽⁵⁾، فقال عنهم تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنَعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يَردُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة 101] فهم يدخلون في صفوف المسلمين فيعلمون أسرارهم ويشيعونها بين الأعداء، وقد حدث هذا مراراً مع

(1) – ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة نفق، ج5، المصدر السابق، ص-ص 454، 455.

(2) – القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، ط2، ج8، 1373هـ/1954م)، ص 122.

(3) – محمد أمين حسن محمد بن عامر، أساليب الدعوة والإرشاد، المرجع السابق، ص 338.

(4) – ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج1، المصدر السابق، ص 399.

(5) – ناصر محمد بن محمد جاد، التعامل مع غير المسلمين في العهد النبوي، المرجع السابق، ص 275.

النبي ﷺ، وهذا النوع من الضرر يكون أشد على النبي ﷺ من خصومه أعداء دعوته، وهم أغلظ الكفار كفراً وأشدّهم على المسلمين خطراً، وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر والفسوق والعصيان⁽¹⁾، يقول تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَإِذَا الْقَوْلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: 14] يذكر الدكتور محمد أبو الفتح البيانوني خطورتهم فقال: (هم أخطر أصناف الكافرين لالتباس أمرهم على الناس وخداعهم لهم حيث يدخلون ظاهراً بين المؤمنين، ولهذا كان جزاؤهم أشد من جزاء غيرهم)⁽²⁾ لذلك جعل الله عقوبتهم أشد العقوبات، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ [النساء: 145] وقال تعالى يصفهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 142-143] وعليه يمكن القول بأن الكفر هو ضد الإيمان، قد يكون ظاهري أو قلبي، فكما أن الإيمان يكون بالقلب واللسان والجوارح، فكذلك الكفر يكون بالقلب واللسان والجوارح.

ثانياً: دلالة كفر المنافقين

إستناداً إلى الآية الكريمة والتي تبين ماهية كفر المنافقين والحذر منهم يقول تعالى عنهم: ﴿وَدُّوا لَوْ تُكْفِرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً﴾ [النساء: 89] أي: إنكم تودّون هداية هؤلاء المنافقين، وهم يودّون أن تكفروا مثلهم فتكونوا متساوين في الكفر معهم، وإذا كانوا كذلك فلا تتخذوا منهم نصراء لكم، ولا تعتبروهم منكم، حتى يخرجوا مهاجرين ومجاهدين في سبيل الإسلام، وبذلك تزول منهم صفة النفاق، فإن عرضوا عن ذلك وانضموا إلى أعدائكم فاقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تعتبروهم منكم ولا تتخذوا منهم نصراء⁽³⁾.

(1) - عبد الرزاق عبد المحسن البدر، الجامع للبحوث والرسائل، المرجع السابق، ص 486.

(2) - محمد أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، المرجع السابق، ص 180.

(3) - المنتخب في تفسير القرآن الكريم (بيروت: دار القلم للطباعة والنشر، وشركة دار الأرقم بُنْ أبي الأرقم، د، ط، 2016م)،

ثالثاً: مظاهر الكفر لدى المنافقين⁽¹⁾

ذكرت سالفًا ماهية المنافقين بأنهم من أهل الكفر في الإسلام، وقد دعا القرآن الكريم إلى أخذ الحيطة والحذر منهم ومن مخططاتهم، وكفرهم هذا يتمثل في عدة أشكال⁽²⁾ نذكرها كالآتي:

- **كفر الشك:** وهو تردّد المنافقين في إتباع الحقّ أو التردّد في كونه حقًّا، وكفر الإعراض: وهو إعراض المنافقين عمّا جاء به رسول الله ﷺ فلا يصدّقونه ولا يكذبونه ولكنّ المنافق يعرض عنه يقول تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّنَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾

﴿التوبة: 45﴾.

- **وكفر التكذيب:** وهو اعتقاد المنافقين كذب الرسول ﷺ في كلّ شيء مما جاء به: ﴿وَلِإِنْ يُكَذِّبُوكَ

فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾^(٣) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا

فَكَيْفَ كَانَتْ نَكِيرِ﴾^(٤) [فاطر: 25-26].

- **وكفر الجحود:** وهو أن يجحد المنافق ما أنزله الله أو يجحد شيئاً مما هو معلوم من الإسلام يقول

تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَعَاثَ اللَّهُ بِمُجْحَدُونَ ﴾^(٥)

[الأنعام: 33].

- **وكفر إباء واستكبار:** وهو مثل كفر إبليس فإنه لم يجحد أمر الله، ولا قابله بالإنكار، وإنما تلقاه

بالإباء والاستكبار وهذا مثل حال المنافقين يعلمون أن الإسلام حق ولكنهم يتركونه إباء واستكباراً

ويَتَّخِذَ لَهُ دِينًا أَوْ مَذْهَبًا مِنْ صَنِيعِ الْبَشَرِ⁽⁶⁾ يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا

رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾⁽⁷⁾ [المنافقون: 5] كان موقف القرآن الكريم موقف الموجه

والحامي للأمة المسلمة من مخططات أهل الكفر وما يضمرونه من حقد للإسلام والمسلمين، وقد تولّى

ملاحقتهم وتنبيه المسلمين ليأخذوا حذرهم مركزاً على عداوة المنافقين قبل غيرهم لشدة خطرهم على

الدعوة الإسلامية ودعاتها، فنهى عن موالاتهم وجدالهم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ

(1) - جملات محمود نايف الجرايدة، السمات الشخصية للمنافقين في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، رسالة ماجستير، غزّة،

الجامعة الإسلامية، كلية التربية، قسم أصول التربية، 2010م، ص 30.

(2) - المرجع نفسه، ص 30.

(3) - جملات محمود نايف الجرايدة، السمات الشخصية للمنافقين في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، المرجع السابق، ص

دُونَكُمْ لَا يَأْتُونَكُمْ حَبَالًا وَدُوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ [آل عمران: 118] وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة: 73].

رابعاً: ظهور النفاق في العهد النبوي

أ- النفاق في مكة

لم يكن للمنافقين وجود في العهد المكِّي لأنه عهد ابتلاء وفتنة وتمحيص، إلا أن المفسرين من رأى أنه كان لهم وجود في مكة استدلالاً بقوله تعالى: ﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَالَاءَ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنفال: 49] يقول سيّد قطب رحمه الله بصدد هذه الآية: (قيل أنهم مجموعة من الذين مالوا إلى الإسلام في مكة ولكن لم تصح عقيدتهم ولم تطمئن قلوبهم وخرجوا مع التّفير مزعزعين فلمّا رأوا قلة المسلمين وكثرة المشركين قالوا هذه المقالة)⁽¹⁾.

ب - النفاق في المدينة

بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة أصبح للمسلمين قوّة وسلطان وانتشر الإسلام في المدينة فظهر النفاق والمنافقون⁽²⁾ واستمرت إلى قرب وفاة النبي ﷺ ولم تنقطع في أيّ وقت تقريباً، وإن تغيّرت مظاهرها ووسائلها بين الحين والحين⁽³⁾، وقد تمثّل المنافقون الذين كانوا في زمن النبي ﷺ حدثوا بإيمانهم وكذبوا وأؤتمنوا على دينهم فخانوا ووعدوا في أمر الدّين ونصره فأخلفوا وفجروا في خصوماتهم⁽⁴⁾، فكان من أشهرهم تمرّدا عبد الله بن أبي بن سلول وتبعه من المشركين واليهود وجماعة من الأوس والخزرج جهروا بالعداء والميل وحقدتهم للنبي ﷺ⁽⁵⁾، فعانى من تكثّل المنافقين في المدينة وكثرتهم وازدياد إيدائهم للمسلمين وسعيهم إلى تفكيك وتخذيّل أتباعه ومع ذلك لم يعدهم النبي ﷺ بقوة عدائيّة بل

(1) - سيّد قطب، في ظلال القرآن (القاهرة: دار الشروق، ط1، ج1، 1972م)، ص 1533.

(2) - عبد الكريم زيدان، أصول الدّعوة، المرجع السّابق، ص 382.

(3) - سيّد قطب، في ظلال القرآن (بيروت: دار الشروق، ط17، ج6، 1412هـ)، ص 3572.

(4) - النّووي، صحيح مسلم بشرح النّووي، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم الحديث 59، ج2، المرجع السّابق، ص 61.

(5) - محمّد عبد الباقي الزّرقاني، شرح العلامة الزّرقاني على المواهب المدينية بالمنح المحمّدية (بيروت: دار الكتب العلميّة، ط2، 1417هـ)، ص 216.

عاملهم بما أمره الله تعالى: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [التوبة: 74] وقوله تعالى: ﴿إِنْ نَعَفُ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ [التوبة: 66] وهذا يبين معاملة النبي ﷺ بهذه الطريقة وعدم تنفيذ الحكم الشرعي⁽¹⁾ يقول الإمام الشافعي رحمه الله: (إنما منع رسول الله ﷺ قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم لأن ما يظهرونه يجب ما قبله، فيقول مالك ﷺ إنما كف رسول الله ﷺ عن المنافقين لبيّن لأمرته أن الحاكم لا يحكم بعلمه)⁽²⁾ فيستخلص أن علة ظهور النفاق في المدينة واضحة وهي إسترجاع النبي ﷺ قوته وكسب أنصار أقوىاء من الأوس والخزرج فلم يبق بيت عربي إلا ودخله الإسلام، ففي هذه الحالة ليس من الهيّن أن يظهروا العداوة الواضحة للنبي ﷺ، لأن من حولهم سوف يفضون عنهم لضعفهم أمام قوة المسلمين فأظهروا بقاءهم بأهم مسلمون، فحاولوا بطريقة الجوسسة صدّ الناس عن دينهم بكل وسيلة أتاحت لهم، حتى أنه إذا دعا النبي ﷺ إلى غزوة اندسوا بين المسلمين فخوّفوهم من الحر والقرّ وكبروا من شأن عدوّهم ليمنعوهم من الخروج، ولهذه الطائفة أوصاف ذميمة وأفاعيل منكرة ما يباعد بينها وبين الإيمان، فكانوا كثيري الأذى للنبي ﷺ تعاملوا معه بالمكر والخداع والحيلة وقد كشفهم الله في الآية ﴿الَّذِينَ يَرَبِّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَالَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [النساء: 141] إلا أن النبي ﷺ لم يقابلهم بالمثل كمقابلة النّدّ بالنّدّ، ولم يحسم أمره معهم، بل قابلهم بالحسنى واللّين والرّفق والعفو.

خامساً: مواقف النبي ﷺ العاطفية وأساليبه في دعوة المنافقين

شهد النبي ﷺ مواقف مؤثرة ومشاهد رائعة في دعوته للمنافقين نذكر بعضها كالاتي:

أ- الحكم على المنافقين بظاهر حالهم ومعاملتهم معاملة المسلمين

كان النبي ﷺ يتعامل مع المنافقين وفق ما يظهر له منهم وقد أظهروا الإسلام وقاموا بأداء العبادات فكان يعاملهم معاملة المسلمين ولم يقاتلهم مقاتلة العدو وهذا يتفق مع قوله: أمرت أن أقاتل الناس، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأنّ محمّداً رسول الله، وقيموا الصلّاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا

(1) - محمّد عزة بن عبد الهادي دروزة، سيرة الرسول ﷺ (قطر: إدارة إحياء التراث الإسلامي، ج2، د، ت)، ص 78.

(2) - ابن كثير، تفسير ابن كثير (الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، ج1، د، ت)، ص 50.

فعلوا ذلك عصموا مَنِيّ دماءهم وأموالهم إلاّ بحقّ الإسلام، وحسابهم على الله تعالى⁽¹⁾ وعندما خرج ﷺ إلى أحد ورجع ناس مَن كانوا معه انقسم أصحاب النبي ﷺ إلى فرقتين قال بعضهم: نقتلهم، وقال بعضهم: لا، فنزلت الآية: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكُسَهُمْ﴾ [النساء: 88] وبناء على ظاهر إسلامهم فقد أطلق عليهم النبي ﷺ لفظ الأخوة بقوله: «يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفِضِ الْإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، لَا تُؤَدُّوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَّبَعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ»⁽²⁾ بين الإمام ابن العربي رحمه الله كيف كان النبي ﷺ يعامل المنافقين فقال: (كان النبي ﷺ يعرض عنهم ويكتفي بظاهر إسلامهم، ويسمع أخبارهم فيلغيها بالبقاء عليهم، وانتصار الفئدة إلى الحق بهم، وإبقاء على قومهم، لئلاّ تُثور نفوسهم عند قتلهم وحذراً من سوء الشنعة في أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، فكان لمجموع هذه الأمور يُقبلُ ظاهر إيمانهم، وبإدائِ صلاتهم وغزوهم، ويكلّ سرائرهم إلى ربهم، وتارة كان ييسطُ لهم وجهه الكريم وأخرى كان يظهر التَّغْيِيرَ عليهم)⁽³⁾ ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (وأما سيرته في المنافقين فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ويكلّ سرائرهم إلى الله، وأن يجاهدَهم بالعلم والحجة وأمره أن يعرض عنهم ويغلظ عليهم وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ونهاهم أن يصلّي عليهم، وأن يقوم على قبورهم وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم)⁽⁴⁾ فالنِّفاق أصبحت له رؤوس ومنابر، ومنافقو هذا الزَّمان يتحرَّكون بخطط وتنظيم، ولمواجهتهم وجهادهم يجب أن تكون بقوة وحكمة وتنظيم، وبأساليب يحسن أهل الدعوة التفنن فيها، وهذه الأساليب يجب أن تكون محكمة، إمّا بالردّ على شبهاتهم وإفترائاتهم أو بوعظهم ونصحهم وإرشادهم يقول تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَيَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ [آل عمران: 120].

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب 17، رقم الحديث 25، ص 16.

(2) - أخرجه الترمذي في سننه، تحقيق: إبراهيم عوة عوض، كتاب البرِّ والصَّلة والآداب، باب في تعظيم المؤمن، رقم الحديث 2032، المصدر السابق، ص 378. وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسين بن واقد وروى إسحاق بن إبراهيم السمرقندي عن حسين بن واقد نحوه وروي عن أبي برزة الأسلمي عن النبي ﷺ نحوه هذا.

(3) - أبو بكر بن العربي، أحكام القرآن، تحقيق: عبد الرزاق المهدي (بيروت: دار الكتاب العربي، ج 2، د، ت)، ص 444.

(4) - ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 3، ج 3، 1418هـ/1998م)، ص 161.

ب- رحمه النبي ﷺ والعفو عن المنافقين

إنَّ النبي ﷺ قد اتَّخذ مع هذه الفئة الأساليب اللازمة لحماية المجتمع من التَّفكك والتَّصادم فقد كان مع صحابته يتوخَّون الحذر والحيطَة منهم، خصوصًا عند تواجدهم في صفوف المسلمين يثبِّطون العزائم فقد شهد عليهم الكيد الماكر للمسلمين، إلا أنَّ النبي ﷺ ترك قتلهم لمصلحة تتضمَّن تأليف القلوب وجمع كلمة النَّاس عليه، فكان يرى في قتلهم تنفير، والإسلام بعد في غربة ورسول الله ﷺ أحرص شيء على تأليف النَّاس وأترك شيء بما ينقِّرهم عن الدُّخول في طاعته⁽¹⁾، فتجسَّدت سماحة النبي ﷺ وعفوه نحو أعدائه بطريقة يعزِّز نظيرها في تاريخ العالم، كعفوه عن عبد الله بن أبي العَدُوِّ اللَّدود للإسلام، وكيف كان ينفق أيَّامه ولياليه في وضع الخطط لإيقاع الأذى بالدين وبالنَّبي ﷺ محرِّضًا اليهود تحريضًا على سحق المسلمين، ومع ذلك فيوم توفِّي فيه عبد الله بن أبي دعا النبي ﷺ ربَّه أن يغفر له، بل وقد قدَّم رِداءه إلى أهله كي يكفونوه به⁽²⁾، وقد صلى النبي ﷺ على عبد الله بن أبي واستغفر له إلى أن تُهي عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التَّوبَة: 84] يقول الإمام الخطابي رحمه الله: (إنَّما فعل ذلك مع عبد الله بن أبي ما فعل، لكمال شفقتة على من تعلَّق بطرف من الدِّين، ولتطيب قلب ولده عبد الله الرَّجل الصالح ولتألف قومه من الخرج لسبق رياسته فيهم)⁽³⁾ وعن عبد الله بن عبد الله جاء إلى رسول الله ﷺ بعد موت أبيه رغب في ذلك وفي أن يكسوه قميصه الذي يلي بدنه، ففعل فلمَّا جاء رسول الله ﷺ ليصلِّي عليه قام إليه عمر رضي الله عنه، فقال يا رسول الله، أتصلِّي عليه وقد نهاك الله عن الاستغفار لهم؟ وجعل يعدُّ أفعال عبد الله، فتبسَّم رسول الله ﷺ وقال: «أخَّره عني يا عمر، فلمَّا أكثرْتُ عليه قال: إني خيَّرتُ فاختَرْتُ، ولو أعلم أبي زدت على السبعين يُغْفَر له لزدت»⁽⁴⁾ فسكت عمر وصلى رسول الله ﷺ على عبد الله، ثم نزلت الآية: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ

(1) - ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، المرجع السَّابق، ص 497. (ناصر محمدي محمَّد جاد، التَّعامل مع غير المسلمين في العهد النَّبوي، المرجع السَّابق، ص 280).

(2) - محمَّد علي اللاهوري القادياني، حياة محمَّد ورسالته (بيروت: دار العلم للملايين، ط2، 1390هـ)، ص 269.

(3) - إبراهيم بن عبد الله المطلق، التَّدْرِج في دعوة النَّبي ﷺ (وزارة الشُّؤون الدِّينية والأوقاف والدَّعوة والإرشاد، ط1، ج1، 1417هـ)، ص 114.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التَّفسير، باب ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾، رقم الحديث 4671، ص 1152.

فَكِسْفُونَ ﴿٨٤﴾ [التوبة: 84] وفي حديث آخر: إِنَّ قَمِيصِي لَا يَغْنِي عَنْهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَإِنِّي لَأَرْجُوا أَنْ يَسْلَمَ بِفَعْلِي هَذَا أَلْفَ رَجُلٍ مِنْ قَوْمِي، فَأَسْلَمَ وَتَابَ بَعْدَ هَذِهِ الْفَعْلَةِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالرَّغْبَةِ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ أَلْفَ رَجُلٍ مِنَ الْخَزَرِجِ⁽¹⁾، وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: (إِنَّمَا صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بِنَاءٍ عَلَى الظَّاهِرِ مِنْ لَفْظِ إِسْلَامِهِ، ثُمَّ لَمْ يَكُنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَمَّا تُهِى عَنْهُ)⁽²⁾، وَفِي رَوَايَةٍ مَا جَاءَ فِي حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي بَعْدَمَةَ أُدْخِلَ حُفْرَتَهُ، فَأَمَرَ بِهِ، فَأُخْرِجَ فَوَضَعَهُ عَلَى رَكْبَتَيْهِ وَنَفَثَ عَلَيْهِ مِنْ رِيقِهِ، وَأَلْبَسَهُ قَمِيصَهُ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ وَكَانَ كَسَا عَبَّاسًا قَمِيصًا قَالَ سَفِيَانُ: وَقَالَ أَوْ هَارُونُ: وَكَانَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَمِيصَانِ، فَقَالَ: لَهُ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلْبَسَ أَبِي قَمِيصَكَ الَّذِي يَلِي جِلْدَكَ قَالَ سَفِيَانُ: فَيَرُونَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَلْبَسَ عَبْدَ اللَّهِ قَمِيصَهُ مَكَافَأَةً لِمَا صَنَعَ»⁽³⁾ كَانَ ذَلِكَ مَكَافَأَةً لَهُ عَلَى صَنِيعٍ سَبَقَ لَهُ، أَيْ: لئَلَّا يَكُونَ لِمُنَافِقٍ عِنْدَهُ يَدٌ، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَبَّاسَ لَمَّا أَخَذَ أَسِيرًا بَيِّدٍ لَمْ يَجِدُوا لَهُ قَمِيصًا يَصْلَحُ عَلَيْهِ، وَكَانَ رَجُلًا طَوِيلًا فَكَسَاهُ عَبْدُ اللَّهِ ﷺ بْنُ أَبِي قَمِيصَهُ⁽⁴⁾، وَمَرِيعُ بْنُ قِيظِي^(*) كَانَ رَجُلًا مُنَافِقًا ضَرِيرَ الْبَصَرِ فَلَمَّا سَمِعَ حَسَّ النَّبِيَّ ﷺ وَمِنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَامَ يَحْثِي فِي وَجُوهِهِمُ التَّرَابَ وَيَقُولُ: «إِنْ كُنْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَإِنِّي لَا أَحِلُّ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ حَائِطِي فَابْتَدَرَهُ الْقَوْمُ لِيَقْتُلُوهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا تَقْتُلُوهُ فَهَذَا الْأَعْمَى أَعْمَى الْقَلْبِ أَعْمَى الْبَصَرِ»⁽⁵⁾، وَعِنْدَمَا طَلَبَ عُمَرُ ﷺ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْإِذْنَ فِي قَتْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي حِينَ قَالَ: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: 8] رَفَضَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ: «دَعِهِ، لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»⁽⁶⁾ وَهَكَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ رَحِمَةً لِلْمُنَافِقِينَ،

(1) - يُنْظَرُ: أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْحَقِّ بْنُ غَالِبٍ بْنُ عَطِيَةِ الْأَنْدَلُسِيِّ، الْوَجِيزُ فِي تَفْسِيرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، تَحْقِيقُ: عَبْدِ السَّلَامِ عَبْدِ الشَّافِيِّ

مُحَمَّدَ (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، ج3، 1422هـ/2001م)، ص 68.

(2) - الْقُرْطُبِيُّ، تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ، ج8، تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّوْبَةِ، الْمَصْدَرُ السَّابِقُ، ص 142.

(3) - أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ هَلْ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْقَبْرِ وَاللَّحْدَ لَعْلَةً، رَقْمُ الْحَدِيثِ 1350، ص 169.

(4) - مُحَمَّدٌ عَلِيُّ الْأَهْوَرِيِّ الْقَادِيَانِي، حَيَاةُ مُحَمَّدٍ وَرِسَالَتِهِ، الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 269.

(*) - مَرِيعُ بْنُ قِيْظِي: مُنَافِقًا وَكَانَ أَعْمَى وَهُوَ الَّذِي سَلَكَ النَّبِيُّ ﷺ حَائِطَةً فِي حِينَ خَرَجَ إِلَى أَحَدٍ فَجَعَلَ يَحْثُو التَّرَابَ فِي وَجْهِهِ الْمُسْلِمِينَ وَيَقُولُ: إِنْ كُنْتُ نَبِيًّا فَلَا تَدْخُلْ حَائِطِي. (يُوسُفُ عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ عَبْدِ الْبَرِّ أَبُو عُمَرَ، الْاسْتِيعَابُ فِي مَعْرِفَةِ الْأَصْحَابِ، بَابُ الْإِفْرَادِ فِي الْعَيْنِ وَبَابُ غَالِبِ، حَرْفُ الْعَيْنِ وَالْغَيْنِ (حَيْدَرُ آبَاد: مَطْبَعَةُ دَائِرَةِ الْمَعَارِفِ النَّظَامِيَّةِ، ط1، ج3، 1319هـ)، ص- ص 132، 133.

(5) - ابْنُ هِشَامٍ، السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ، ج2، الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 165.

(6) - أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، كِتَابُ التَّفْسِيرِ، بَابُ سُوَاءِ اسْتِغْفَرْتَ لَهُمْ، رَقْمُ الْحَدِيثِ 4905، ص 1241.

فبسبب هذه الرحمة الواسعة اختلطوا بالمسلمين واستفادوا من كل الحقوق كما يتمتع بها المسلمون، فلم يقيم بفضحهم وإفشاء أسرار نفاقهم مع أنه يعلم دخائلهم حتى أنه أخبر حذيفة ؓ بذلك، وكان عمر ؓ يراقب حذيفة فإن رآه لا يصلي على جنازة لم يصلها هو كذلك، دون إحداث ضجة أو تشهير بالمنافق الميت⁽¹⁾ وعندما اختار ؓ حذيفة كصاحب سر له ؓ فيه درس وعبرة لكل داعية في مرتبة القيادة أو الإدارة بأن المؤهلات عند الفرد لابد أن تتوفر مع العمل أو المهمة التي يكلف بها، إذ كانت سياسة النبي ﷺ تقوم على إكتشاف مزايا أصحابه والإفادة من طاقاتهم الكامنة، وذلك تكون بوضع الرجل المناسب في المكان المناسب، والنبي ﷺ من شدة كيد المنافقين ومكرهم لم يقابلهم بالمثل، ولم يعاملهم معاملة الأعداء المخارين، ولم يعاملهم بالقتال، فرأى أن يعاملهم بسعة صدر وحلم وصبر حتى النهاية، فكان يرى أن التعفف والقوة معهم قد تفتح في صفوف المسلمين ثغرات واسعة داخلية لاسيما أنه ؓ كان متيقنا بنصر الله الموعود وبمصير المنافقين في النهاية.

والدعوة قد تعترض في طريقها من يلحق بها الضرر القولي والفعلية لمثل هذا الصنف من المنافقين الذين قد يتسللون في صفوف جماعة الدعوة، فإذا كان هذا حدث مع وجود النبي محمد ﷺ المنزل عليه الوحي فإن حدوثه الآن أقرب احتمالاً وأيسر وقوعاً، فعلى الدعاة أنفسهم قادة أو أعضاء أن يرصدوا المتصفين بصفات المنافقين من خلال ما يبدو منهم من أقوال وإتهامات وتهمكيات تصيب كيانهم أو تشوّه سمعتهم، أو فيها تشييط عن أعمال الدعوة أو تشكيك في فائدتها، مما فيه إضعاف لشخصهم ومسيرتهم، بأن لا يتأثروا بها فيقعدهم عن العمل الدعوي، كما ليحذروا بأسلوبهم في تنقيصهم واختلاق العيوب أو تكبيرها وإشاعة سوء الظن بهم.

ت- استدراجهم بالرفق والخطاب اللين

لقد كان النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة يدعو الناس بالقول اللين والخطاب اللطيف والرفق في المعاملة، ومن ذلك ما رواه أسامة بن زيد ؓ عندما مر النبي ﷺ بمجلس عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن فردّ عليه ابن أبي: «أيها المرء -يريد النبي ﷺ- لا أحسن من هذا، إن كان ما تقول حقاً فلا تؤذنا في مجالسنا، وارجع إلى رحلك، فمن جاءك منا فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة: إغشنا في مجالسنا فإننا نحب ذلك، قال: فاستبّ المسلمون والمشركون واليهود حتى هموا أن يتواثبوا، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم، ثم ركب دابته حتى دخل على

(1) - محمد مسعد ياقوت، نبي الرحمة والرّسالة (القاهرة: الزّهاء للإعلام العربي، ط1، 2007م)، ص 62.

سعد بن عباد، فقال: أي سعد، ألم تسمع إلى ما قاله أبو حباب، قال: كذا وكذا؟⁽¹⁾ كان النبي ﷺ يترفق به ويعامله بالصّفح والحلم رغبة في تأليف قلبه، وكان يدعوا المنافقين بأسلوب عاطفي مستخدماً الكنية فكأن ابن أبي بكنيته وهو أبو حباب، فلقي ﷺ الأذى الكبير والجرح من قبل المنافقين، إلا أنه أبى إلا أن يعاملهم بلطف وصبر، يقول الإمام النووي رحمه الله⁽²⁾: (وفي هذا الحديث بيان ما كان عليه النبي ﷺ من الحلم والصّفح والصبر عن الأذى ودوام الدعاء لهم وتآلف قلوبهم)⁽³⁾ وكان له ﷺ تعاملًا رائعًا في موقف آخر بعد غزوة المصطلق، عندما أتاه عبد الله بن عبد الله بن أبي بكنيته بشأن مقتل أبيه فقال: «يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما يلغي عنه، فإن كنت لابد فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فما كان جواب النبي ﷺ أن قال له: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا»⁽⁴⁾ إن عاطفة النبي ﷺ وروعة عفوهِ هدأت من روعة عبد الله - الابن - وأذهبت هواجسه، وقد أنجلت هذه العاطفة في مراعاته ﷺ: عقيدته السليمة التي تأبى الرضا بما صدر من أبيه، فكان لا يحب أن يقتل مؤمناً أبوه فيدخل النار إنتقاماً له وحمية لأبوتِه و صعوبة موقف عبد الله - الابن - حيث أمره بالرفق والإحسان لأبيه.

كان تسامح النبي ﷺ مع عبد الله بن أبي تسامحاً لا مثيل له يفوق كل التصورات، وفي المقابل كان ابن أبي بن سلول كلما أحدث حدثاً كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه، ويعرضون قتله على النبي ﷺ، والنبي ﷺ يأبى ويصفح، فأراد ﷺ أن يكشف لعمر ﷺ آثار سياسته الحكيمة فقال له: «كيف ترى ذلك يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم أمرتني لأرعدت آناف ولو أمرتها

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب التسليم في مجلس فيه إخلال من المسلمين والمشركين، رقم الحديث 6254، ص 1561.

(2) - محمد الصالح المنجد، كيف عاملهم محمد ﷺ، (المملكة العربية السعودية: مجموعة زاد للنشر، ط2، 1436هـ/2015م)، ص 651.

(3) - النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، ج12، المرجع السابق، ص 159.

(4) - ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: محمد قطب وآخرون (المكتبة العصرية، ج3، 1429هـ/2008م)، ص 596.

اليوم بقتله لقتلته، فقال عمرُك أمرُ رسول الله أعظم بركة من أمري⁽¹⁾ فقال عمر: قد -والله- علمتُ لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري⁽²⁾.

ج - حلم وصبر النبي ﷺ وتواضعه مع المنافقين

تحدّث كتب السيرة النبوية عن أساليب النبي ﷺ في دعوته للمنافقين، تمثّلت في إبراز عاطفته في مواقف عدّة، ولقي حينها الأذى المعنوي واللفظي، إلّا أنّه لم يقابلهم بمثل صنيعهم بل تحلّى بالصبر وسعة النفس، وهو ما حدث مع ابنُ أبي بَرْزٍ سلول، ونذكر منها ما جاء عن أنس ﷺ قال: « قيل للنبي ﷺ لو أتيت عبد الله بنُ سلول، فانطلق إليه النبي ﷺ راكباً حملاً فلما أتاه النبي ﷺ قال: «إليك عني والله لقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك...»⁽³⁾ فالتبى ﷺ أمام هذا الموقف قابل إساءة هذا المنافق بلطف أسلوب وأحسن عبارة وبرحابة صدر، ورباطة جأش، فبقدر إساءة هذا المنافق له بقدر حلمه وصبره ﷺ عليه، فكان متواضعاً ليناً حليماً، وبرغم ما يظهره من مكر وخداع، فقد قدّم ﷺ الأسلوب الأمثل في مواجهة الحاقدين والمكربين، ورسم منهجاً أسّس على مبادئ وقيم وأساليب، وما حدث يوم حنين عندما أثار أناساً في القسمة لتأليف قلوبهم للإسلام احتجّ أحد المنافقين على قسمته -ﷺ- قائلاً: «والله إنَّ هذه القسمة ما عُذِلَ فيها وما أريدُ فيها وجهُ الله»⁽⁴⁾ كان ردُّه ﷺ -عندما بلغه مقالة هذا الرجل- في غاية اللطف قائلاً: «فمن يَعْدِلُ إذا لم يَعْدِلِ الله ورسوله؟ رحمَ الله موسى، قد أُوذِيَ بأكثر من هذا فصبر»⁽⁵⁾ وقد ذكر الحافظ ابنُ حجر رحمه الله في مواضع عدّة في فتح الباري معتمداً على رواية للواقدي في مغازيه: (أنَّ القائل هو حرقوص بنُ زهير كان منافقاً وقيل أنّه تاب)⁽⁶⁾ هذا الرجل احتجّ على قسمة النبي ﷺ، فالذي قاله هو نوع من السبِّ، فلم ينتقم منه ﷺ وإمّا تحلّى بالصبر، وعن أبي

(1) - ابنُ حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله سواء عليهم استغفرت لهم ام لم تستغفر لهم، رقم الحديث 4905، ج8، ص 650.

(2) - يُنظر: ابنُ هشام، السيرة النبوية، ج3، المرجع السابق، ص 596.

(3) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب في دعاء النبي ﷺ على أذى المنافقين ج1، رقم الحديث 1977، ص 1424. وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب ما جاء في الإصلاح بين الناس، رقم الحديث 2691، ص 657.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه، رقم الحديث 3150، ص 777.

(5) - المصدر نفسه، ص 777.

(6) - يُنظر: ابنُ حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الصبر عن الأذى، رقم الحديث 6100، ج10، المرجع السابق، ص-ص 511، 512.

سَعِيدُ الْحَذَرِيِّ ﷺ في قصّة الرجل الذي اعترض رجلاً على قسمة النبي ﷺ لبعض المال وقال له: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، اتَّقِ اللَّهَ! فَقَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا أَضْرِبُ عُنْقَهُ؟، قَالَ: لَا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي فَقَالَ خَالِدٌ: وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنِّي لَمْ أُؤْمَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ وَلَا أَشَقَّ بُطُونَهُمْ»⁽¹⁾ يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: (قال بعض العلماء الصّبر على الأذى من باب جهاد النفس وقد جبل الله الأنفس على التّألم بما يفعل بها، ويقال فيها لهذا شَقٌّ على النبي ﷺ نسبتهم له إلى الجور في القسمة، لكنّه حلم عن القائل لما علم جزيل ثواب الصّابرين والصّابر أعظم أجراً من المنفق لأنّ حسناته مضاعفة إلى سبعمئة أمّا الصّابر فيجزى بغير حساب)⁽²⁾ في الحديث إشارة إلى بيان جواز الغيبة في حالة إلحاق المضرة للدعوة والمسلمين، فابن مسعود ﷺ عندما أخبر النبي ﷺ بمقولة الرجل، كان غرضه التّصح وإعلامه بمن يطعن فيه ممّن يظهر الإسلام ويبطن النّفاق لكي يحذر منه، يقول الإمام الحافظ ابن حجر رحمه الله مبيناً: (في الحديث جواز إخبار الإمام وأهل الفضل بما يقال فيهم مما لا يليق بهم ليحذروا القائل، وفيه بيان ما يباح من الغيبة والنميمة لأنّ صورتها موجودة في صنيع بن مسعود هذا ولم ينكره النبي ﷺ)⁽³⁾ وهذا يبيّن للدّاعية إلى الله تعالى مراعاة أحوال المدعوين على حسب عقولهم وعقيدتهم وأجناسهم ومجتمعاتهم، وموقفه - ﷺ - عند شفاعته لليهود حينما نقضوا عهدهم وميثاقهم مع رسول الله ﷺ، فلمّا حاصرهم النبي ﷺ نزلوا على حكمه فقام ابن أبي دونه يمنعه من إنفاذ حكمه ملحاً بلا أدب ولا خجل العفو عنهم قائلاً: «يا محمّد أحسن في موالي - كانوا حلفاء الخزرج - فأبطأ عليه رسول الله ﷺ فكرّر بن أبي مقاتله فأعرض عنه فأدخل يده في جيب درعه فقال له رسول الله ﷺ: ويحك أرسلني، ومضى المنافق على إصراره وقال: لا والله لا أرسلك حتّى تحسن في موالي أربعمئة حاسر وثلاثمئة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود وتحصدهم في غداة واحدة! إيّ والله امرؤ أخشى الدّوائر! فقال رسول الله ﷺ: هم لك»⁽⁴⁾ فالتّبي ﷺ في إجابته لمّا ألح عليه ابن أبي، أراد أن يقدّم للدّاعية درساً في

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزّكاة، باب ذكر الخواص وصفاتهم، رقم الحديث 1064، ص 742.

(2) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الصّبر عن الأذى، رقم الحديث 6100، ج 10، المرجع السّابق، ص-ص 511، 512، ويُنظر: سعيد بن علي بن وهف القحطاني، فقه الدعوة صحيح الإمام البخاري (المملكة العربية السّعودية: وكالة شؤون المطبوعات والنّشر، ط 1، 1461هـ)، ص 349.

(3) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الصّبر عن الأذى، رقم الحديث 6100، ج 10، المرجع السّابق، ص 512.

(4) - ابن هشام، السّيرة النبويّة المرجع السّابق، ص 10.

الفقه السِّيَاسِي، فلعل إجابته «هم لك» من شأنها أن تغسل قلب المنافق وتزيل الغشاوة عنه فتتّم هدايته وهداية أتباعه، ممّا ينبغي أن يتعلّمه الدّعاة والأفراد أن رجالات الدعوات الإسلامية تبعًا لقياداتها، وليس من حقّ الأفراد أن يتّخذوا موقفًا مناقضًا لقياداتهم أمام الأعداء، بل من الواجب أن يتبنّوا الموقف، والدعوة تحتاج إلى رجال ودعاة أقوياء وأشدّاء يعطونها الرّهبة ويكسبونها القوة أمام عدائها، وعليه يتعيّن على الدّاعية الاستفادة من دعوة النبي ﷺ للمنافقين

- سبق الحديث في منهج النبي ﷺ في دعوته لمشركي مكّة، وذكرث مواقف من تصرّفاته التي كانت من أسباب نجاح دعوته، وإكمالًا للفائدة تناولت في هذه الجزئية دعوته - ﷺ - للمنافقين الذين يعدّون الخصم الأشدّ تنكيلاً له ﷺ ولدعوته، وبرغم ذلك كان حريصاً على تمكين الإسلام في قلوبهم، فكان سمحاً ليناً ولطيفاً معهم، يعاملهم بما يبدو من ظواهرهم، وفي الوقت نفسه ألحّت من مواقفه ﷺ عدم موالاة المنافقين واستئمانهم استناداً للآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 57].

- يمكن القول المقصود بالدعوة إلى الله تبليغ شرائع الله تعالى إلى النّاس عامّة، ولا يتمّ التّبليغ التّام والمؤثّر إلّا إذا مالت قلوب المدعوين إلى الدّاعي، وسكنت نفوسهم إليه، وذلك إن كان الدّاعية رحيماً كريماً لطيفاً فهو ليس أفضل من الأنبياء عليهم السّلام من أبلغهم الأمر الإلهي بتجسيد هذه الصّفات كسيدنا موسى وهارون عليهما السّلام.

- للفائدة لا بدّ من الدّاعية إلى الله أن يعلم أنّ دعوته إلى الله محاطة بالأشواك والآلام و المتاعب، قد تقتحم جسده ومشاعره، فهي مهمّة العظماء، يمتحن فيها أيصبر؟ أم يجزع؟، والأنبياء عليهم السّلام تولّوا هذه المهمّة على أكملها، فنجد سيدنا سليمان عليه السّلام يقول: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: 40].

- تشير مواقف النبي ﷺ مع المنافقين إلى إرادة الخير لهم، ودفع أذاهم بالصّبر، خصوصاً وما يضمرونه من أخلاق تظهر الكره والحقد لدعوة الإسلام، من فتن وسفه وكذب وتجسس وإشاعات وسخرية واستهزاء فيقول عنهم الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوا الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعُوا أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: 48] فالصّبر يجعل النّفس لا تنهار أمام الشّدائد جاء في الأثر: (من صبر ظفر، ومن لج كفر، وكلّ عمل لا يخالطه الصّبر فهو فاشل)⁽¹⁾.

(1) - يُنظَر: محمّد أمين بني عامر، أساليب الدّعوة، المرجع السّابق، ص 206.

وبناء على ما سلف يتعيّن على الدّعية الاستفادة من دعوة النبي ﷺ في دعوة غير المسلمين كالآتي :

- إنّ ما لقيه الأنبياء - عليهم السّلام - عامّة والنبي ﷺ على وجه التّحديد من الأذى والصّبر، يعدّ سنّة إلهية في طريق الدعوة إلى الله، والصّراع قائم ومستمر بين الكفر والإيمان، والذي يتوجّب على الدّاعية أن يتحمّل الكثير لأجل هذه الدعوة وإقامة شريعة الإسلام في نفسه وغيره من المدعوين وبخاصّة غير المسلمين، ومن ثمّ في مجتمعه، وفي المقابل يدلّ التّصدّي والإعراض عن هذه الدّعوة تعبيراً واضحاً عن درجة العداوة التي يظهرها أعداء الإسلام -الغير مسلمين- سواء في العهد النّبوي وما واجهه النبي المصطفى ﷺ من مواقف صعبة ومحرجة وتحديات عصيبة إستطاع معالجتها بالمنهج العاطفي من قول لئِنْ وَرَحْمَةً وَتَسَامُحٍ وَسَعَةٍ صَدَرَ، أو في الوقت المعاصر الذي اشتدّت فيه مناخر العداوة على الإسلام، فالدّاعية عليه أن يسير على خطى المنهج النّبوي في دعوته.

- لقد كانت الرّحمة ملازمة للنبي المصطفى ﷺ في حياته ودعوته، لم تفارقه في كلّ مرحلة من مراحل دعوته ومع جميع المدعوين، فكان يرحم المشركين بعد انتصاره عليهم، ويرحم الأعداء والأسرى في المعركة، ويرحم من ساكنه في دار الإسلام بل ويرحم المنافقين الذين كادوا للإسلام، ويرحم المرتدّ إذا رجع ويعفو عنه ويقبل إسلامه، يقول المستشرق لورد هدي: (إذا رجعنا إلى التّاريخ وحكمناه في هذه المسألة -اتّهام الأوربيين للنبي ﷺ بالقسوة- لتبيّن لنا أنّ القسوة لم تكن قطّ من أخلاق محمّد وذلك بدليل معاملته للأسرى بعد غزوة بدر وتسامحه مع أعدائه وصبره على آذاهم وعطفه على الأطفال والمرضى وحقنه للدماء وعفوه عن أولئك الذين قضوا في محاربتهم ثمانية عشر عاماً وأظهروا له فيها كل صنوف العداوة وأذاقوه من خلالها أنواع الجور والاضطهاد والظلم)⁽¹⁾.

- أن النبي ﷺ اتّخذ أساليب عاطفية متنوّعة في دعوته بما يتناسب مع المدعو وعقيدته، وتلك الأساليب جاءت متدرّجة لمست القلوب فاجتاحتها، فكانت النّتيجة الإيمان برسالته، والقاعدة الهامّة هنا في اتّخاذ الدّاعية لهذه الأساليب في الدعوة الله تكون خاضعة لظروف الدعوة والدّاعية الزمانية والمكانية، فكانت دعوة النبي ﷺ قد مرّت بمراحل، وفي كلّ مرحلة من المراحل التي مرّت بها لها منهج

(1) - محمّد فهمي عبد الوهاب، محمّد رسول الإسلام في نظر فلاسفة الغرب ومشاهير علمائه وكتابه (القاهرة: دار الاعتصام، ط1، 1395هـ/1975م)، ص 38.

في التعامل مع غير المسلمين لا يخرج عن التزام العدل معهم وتأمينهم في الغدر والخيانة فكان هدفه في كل مرحلة هداية الناس إلى ربهم.

المبحث الثاني: منهج النبي ﷺ العاطفي في دعوة المسلمين

كان النبي ﷺ طيلة العهد المكي والمدني يمارس دعوته مع صنف المسلمين الذين إستجابوا للرسالة النبوية، فكون منهم جماعة متميزة بعقيدتها وأخلاقها وسلوكها، فعلمهم الكتاب والحكمة ليزكيهم بها ويطهرهم من أخلاق الجاهلية وعاداتها بترسيخ الإيمان في نفوسهم كلما نزل شيء من القرآن⁽¹⁾ يقول تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: 164] فدعا -ﷺ- أصحابه ورباهم على المحبة والطاعة، فكانوا أعلى مستوى من الدين والأخلاق والإخلاص والتفاني في سبيل نصرته دعوته، فغذى أرواحهم بالقرآن وأثار نفوسهم للإيمان، وتكونت على إثرهم دولة الإسلام، ثم توالى الانتصارات وعمّ النور جميع البقاع، ومن الملاحظ أنّ دعوة النبي ﷺ لم تقتصر على مجتمع الصحابة فقط، وإنما شملت أصناف أخرى من المسلمين، فكان لكل منهم أسلوب يتلاءم مع أعمارهم ومستوياتهم المختلفة من حيث الجنس والسن، سأتناولها في هذا المبحث إن شاء الله.

المطلب الأول: دعوة المسلمين باعتبار الجنس (ذكوراً وإناثاً)

توجّهت دعوة النبي ﷺ المهداة إلى الناس جميعاً، الكبير منهم والصغير، العالم والجاهل، الحاكم والمحكوم، الغني والفقير، الرجال والنساء على العموم... يدعوهم إلى الإسلام، وبلاغته وحكمته ﷺ كان يستخدم لكل صنف منهم ما يصلحهم ويتلاءم مع أعمارهم ومستوياتهم، وفي هذا المطلب سأقتصر في بيان دعوة النبي ﷺ لصنف المسلمين باعتبار الجنس -الرجال والنساء- الذين استخدم في دعوتهم المنهج العاطفي.

أولاً : دعوة النبي ﷺ للرجال بالمنهج العاطفي

لقد خصّ النبي ﷺ في دعوته الرجال بخطابٍ خاص يدعوهم فيه إلى الله تعالى، مستخدماً في ذلك أساليب عاطفية رائعة شملت قضايا متعدّدة وفي مجالات مختلفة من حياتهم الشخصية والاجتماعية، إلا أنّني لا يمكنني حصرها جميعاً فإكتفيت ببعضها وهي كالآتي:

(1) - التّدريج في دعوة النبي ﷺ، المرجع السابق، ص 130.

أ- دعوة النبي ﷺ للرجال إلى الرحمة بالنساء والشفقة عليهن

إهتم النبي ﷺ بالنساء اهتماماً بالغاً وعظيماً، فأحاطهنَّ بكلِّ سبلِ التربية والرعاية، وصدع بكلماتٍ من الوحي الإلهي بأنَّ النساء شقائق الرجال في الدِّين والإنسانية منذُ أربعة عشرة قرناً فقال ﷺ: «النساء شقائق الرجال»⁽¹⁾ ولأنَّ النبي ﷺ عاش الكثير من مظاهر الظُّلم والقسوة التي رزحت المرأة تحت وطأتها إبان رسالته، قد حثَّ على الإحسان والرِّفق بها، ووجَّه عموم الرجال الذين كتبت لهم الخيرية بالمعاملة الطيبة للمرأة ولاسيما لأهل البيت، وكان ﷺ القدوة والرَّيادة في هذه المعاملة، فكان أحسن النَّاس عشرةً، وكان قد عاش مع زوجاته الإحدى عشرة حياة طيبة تُمثل تطبيقاً عملياً دقيقاً لقول المولى عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 19] والمعروف كلمة جامعة لكلِّ فعل وقولٍ وخلقٍ⁽²⁾، بيدَ أنَّ المعروف الذي أشارت إليه الآية يكون بالكلمة الطيبة والفعل الطيب، ويتَّسع ليشمل كل أمرٍ من شأنه أن يوطد العلاقة الزوجية وينمِّيها ليصبح البيت واحة أمان يستقرُّ فيها الزوجان، وشجرة وارفة الظلال تظلِّل عليهما، تروي السيِّدة عائشة رضي الله عنها في هذا شأن قول النبي ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»⁽³⁾ وكان النبي ﷺ المثل الأعلى والرجل المثالي في حياته الاجتماعية والزوجية، فكان حلَّو المعاشرة لنسائه، يحسن التَّعامل معهنَّ، ويرفق بهنَّ، ويشفق عليهنَّ، فلو اتَّبع صنف الرجال في تعاملهم لزوجاتهم بمثل ما تعامل به النبي ﷺ لتخلَّصت الأسر الإسلامية من العديد من المشكلات الزوجية الشَّائعة، ونحن نعجبُ لواقعنا اليوم حينما نسمع أو نقرأ العديد من المشكلات الزوجية من حالات الطلاق والخيانة وغيرها إلى الحدِّ الخطير، فبيِّن الحديث السَّالف دليل عظيم في التَّخلص من هذه المشكلات ومن جملتها دعوةٌ إلى "الإحسان بالزَّوجة والعيال"، فجعله ﷺ من أفضل الأعمال والقربات، وفاعله من خيرة الناس، ولأهمِّية هذا الخلق في تعظيم شأن المرأة، جعلها النبي ﷺ من أهمِّ وصاياه التي أكَّد عليها في خطبة حجَّة الوداع قائلاً:

(1) - أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الطَّهارة، باب فيمن يستيقظُ فيرى بلاءً، ولا يذكرُ احتلاماً، رقم الحديث 113، ج1، المصدر السَّابق، ص 154. وقال : هذا حديثٌ صحيحٌ، وأخرجه أحمد في باقي مسند الأنصار من حديث أم سليم بنت ملحان برقم 5869، وأبو داود في كتاب الطَّهارة، باب الرجل يجد البُله في منامه برقم 204 .

(2) - محمَّد صالح المنجد، كيف عاملهم النبي محمَّد ﷺ، المرجع السَّابق، ص 42.

(3) - أبو عبد الله بُنُّ يزيد القزويني، سنن ابنِ ماجه، تحقيق: محمَّد فؤاد عبد الباقي، كتاب النِّكاح، باب حسن معاشرَةِ النِّساء، رقم الحديث 1977 (مطبعة دار إحياء الكتب العربية، ج1، د، ط، د، ت)، ص 636، وقال الألباني: هذا حديثٌ صحيحٌ، في الصَّحيحة (285).

«استوصوا بالنساء خيراً فإنَّهنَّ خلُقنَّ من ضلعٍ، وإنَّ أعوجَ شيءٍ في الضلعِ أعلاه، فإنَّ ذهبتَ تقيمه كسرتَه، وإنَّ تركته لم يزل أعوجَ، فاستوصوا بالنساء خيراً»⁽¹⁾ والتي تمثِّل فيها خطاب النبي ﷺ العاطفي بوضوح عند نظرتَه للنساء بعين الرَّحمة والعطف والوصيَّة، أن يمسك الرَّجل المرأة ويقوم على أمرها، فهي تحت رحمته، ومن ثمَّ وجبت عليه الرَّحمة بها، ولم يجز له الاستبداد بأمرها، إنَّها أمانة الله في يده و عنقه، وليس بعد أمانة الله محرَّجة لمن ألقى السَّمع وهو شهيد⁽²⁾ ويذكر الدكتور راغب السرجاني معلِّقاً على معاني الحديث ومرامه بالقول: (وقد شبَّههنَّ بالأسيرات لكون القوامة في يدِ الرجل، وقرار الانفصال أو الطلاق بيده، ولقوة الرجل وضعف المرأة، مما يجعلها في وضع لا حيلة فيه ولكنَّ ذلك استدّرَّ عطف الرَّجل على ضعفها بهذه الكلمات)⁽³⁾ ويقول الإمام النَّووي رحمه الله: (في هذا الحديث ملاطفةُ النساء والإحسانُ إليهنَّ والصَّبْر على عوج أخلاقهنَّ، واحتمال ضعف عقولهنَّ، وكرهه طلاقهنَّ بلا سبب، وأنَّه لا يطمع باستقامتها)⁽⁴⁾ لقد جمع النبي ﷺ من خلال الحديث بين الوصيَّة بهنَّ وبيان حقيقتهنَّ ليكون ذلك أدعى إلى قبول وصيَّته، ولأنَّه إذا كان طبعها العوج فإنَّ من الواجب على الرَّجل أن يصبر عليها ويؤمل أن تكون مستقيمة الطَّبَّاع فإنَّها تصير إلى ما جبلت عليه، ولذلك كان طلب إستقامتهنَّ على النَّحو الأعدل مثار تعجُّب الشُّعراء حتَّى قال بعضهم:

هي الضلع العوجاء لست تقيمها ألا إنَّ تقويم الضلوع انكسارها
وقال آخر: ومكَّلف الأشياء غير طباعها متطلَّب في الماء جذوة نار⁽⁵⁾.

فالنساء لكونهنَّ خلُقنَّ من ضلعٍ ولكونهنَّ ناقصات العقل والدِّين، فلا تكاد تجد امرأة اجتمعت فيها خصال الخير، وقد تقدَّم حديث النبي ﷺ بالقول: «كَمَلٌ^(*) من الرِّجال كثيرٌ، ولم يكْمُل من

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النِّكاح، باب الوصاة بالنِّساء، رقم الحديث 5186، ص 1321.

(2) - نظمي لوقا، محمَّد الرُّسول والرِّسالة (القاهرة: دار الكتب الحديثية، ط2، 1959م)، ص115.

(3) - راغب الحنفي السرجاني، الرَّحمة في حياة النبي ﷺ (المملكة العربية السُّعودية: رابطة العالم الإسلامي، ط1، 1430هـ/ 2009م)، ص 91.

(4) - النَّووي، شرح النَّووي على مسلم، كتاب الرضاع، باب الوصيَّة بالنِّساء، رقم الحديث 1468، ج10، المرجع السَّابق، ص57.

(5) - إصدارات موقع نصرة رسول الله ﷺ نسخة pdf، الرُّسول زوجاً، د، ط، د، ت، ص-ص 61، 62.

(*) - كَمَلٌ: يقال: كمل بفتح الميم وضمها وكسرهما، ثلاث لغات مشهورات، الكسر ضعيف، ولفظة الكمال تطلق على تمام الشيء وتناهيه في باب، والمراد هنا، التَّناهي في جميع الفضائل وخصال البرِّ والتقوى (صحيح مسلم، كتاب فضائل الصَّحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، رقم الحديث 2431، ج4، ص 1886).

النساء غير مريم بنت عمران وآسيا امرأة فرعون»⁽¹⁾ كانت هذه وصايا النبي ﷺ للرجال بالرحمة بالنساء والرفق بهنّ، والتأظر لسيرة النبي ﷺ العطرة يجده قد حقّق في حياته الفعلية والقولية نجاحات يافعة، فكان مثلاً وقدوة لكلّ داعية وكل زوج، يستوجب عليه الاقتداء بمنهجه الذي ظلّ فيه يوصي بالرفق والإحسان بالزوجة ومعاملتها بالحسنى، والشاهد على ذلك في حجة الوداع مستعرضاً أهمّ الوصايا للرجال التي لها ارتباط وثيقاً بقضايا الإسلام، وصيّته بالنساء قال فيها: «... اتّقوا الله في النساء فإنّكم أخذتموهنّ بأمان الله، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله...»⁽²⁾ وما زال النبي ﷺ يكرّر هذه الوصية كلّما حانت الفرصة، ففي حجة الوداع أفرد لها جانباً كبيراً من خطبته العظيمة، لما يعلمه من حالهنّ الذي بيّنه الحديث السابق، وهو الحال الذي قد لا يقدر على تحمّله الرجال الذين لا يملكون أنفسهم عند الغضب، فيحمّله عوج المرأة إلى أن يفارقها فيتفرّق شمله وتشتّت أسرته، لذا أرشدهم النبي ﷺ إلى ما فيه صلاح حاله وأسرته فقال ﷺ: «لا يفرك (*) مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها آخر، أو قال غيره»⁽³⁾ يقول الإمام النووي رحمه الله في شرح معنى الحديث: (ينبغي أن لا يبغضها، لأنّه إن وجد فيها خلقاً يكرهه، وجد فيها خلقاً مرضياً، كأن تكون شرسة الخلق، لكنّها دينة أو جميلة، أو عفيفة، أو رفيقة، أو نحو ذلك)⁽⁴⁾ وإن كان الرفق مطلوباً في كلّ الميادين ومع جميع الأفراد، فالمرأة أو الزوجة أحقّ وأولى بهذا الرفق، ممّا يدلّ على أهمّيته، والنبي ﷺ أشار من خلال خطبته أن أقبلوا وصيّتي فيهنّ، واعلموا بها وأرفقوا بهنّ فهنا لبّ لبذل الجهد في التحلي بالرفق.

ومما نلاحظه أنّ النبي ﷺ ذكر أن المرأة خلقت من ضلع أعوج وتخصيصه بأنّها خلقت من أعوج أن أجزاء الضلع فيه دلالة على صعوبة الأمر وأنّ تغييرها لا يكون بسهولة بل يكون بالرفق والرحمة واللّين، يقول الإمام النووي رحمه الله معلّقاً: (في الحديث الحثّ على الرفق بالنساء واحتمالهن وملاطفة النساء والإحسان إليهنّ والصبر على عوج أخلاقهنّ واحتمالهن)⁽⁵⁾ ولتأكيد على الرفق

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، رقم الحديث 2431، ص 1886.

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم الحديث 1218، ص 886.

(*) - لا يفرك مؤمن مؤمنة: قال أهل اللغة: فركه يفركه، إذا أبغضه، والفرك البغض (صحيح مسلم، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، ج 2، ص 1091).

(3) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، رقم الحديث 1469، ج 2، ص 1091.

(4) - النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، رقم الحديث 1469، ج 10، ص 47.

(5) - المرجع نفسه، ص 57.

بالمرأة فقد ربط النبي ﷺ بين الإيمان والرفق بالأهل فقال ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَكْمَلِ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَأَلَطْفُهُمْ بِأَهْلِهِ»⁽¹⁾ فالإيمان يعظم ويكمل بكمال الأخلاق ومنه التلطّف والرفق والإحسان بالأهل -الزوجة- ،ويقول الإمام الحافظ ابن حجر رحمه الله: (وكان فيه رمزاً بأنّ التقويم يكون بالرفق بحيث لا يبالغ فيكسر ولا يتركه فيستمر على عوجه، وفي الحديث النّدب على المداراة لاستمالة النفوس وتألف القلوب وفيه سياسة النساء بأخذ العفو منهنّ والصّبر على عوجهنّ، وأنّ من رام تقويمهن بهذا الانتفاع بهنّ مع أنّه لا غنى للإنسان عن امرأة يسكن إليها ويستعين بها على معاشه، فكأنه قال: الإستمتاع بها لا يتمّ إلّا بالصّبر عليهن)⁽²⁾ وعليه فالنبي ﷺ بهذا المنهج الدّعوي والعاطفي أعطى طريقة لطيفة للرجال في التّعامل مع النساء وحثّهم على الصّبر على ما يبدر منهنّ والذي يؤدي إلى خلق روح التّفاهم والاستقرار في الأسرة، ولهذا قال ﷺ: «فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج» يقول الإمام العيني رحمه الله: (أي: تواصلوا أيّها الرجال في النساء بالخير، وخصّ النساء بالذكر لضعفهنّ واحتياجهنّ إلى من يقوم بأمرهنّ يعني إقبلوا وصيّي فيهنّ، واعملوا بها واصبروا عليهنّ، وأرفقوا بهنّ، وأحسنوا إليهنّ)⁽³⁾ ويقول الإمام النووي رحمه الله: (في الحديث ملاطفة النساء والإحسان إليهنّ، والصّبر على عوج أخلاقهنّ، واحتمال ضعف عقولهنّ، وكرهه خلافهنّ بلا سبب، وأنّه لا مع باستقامتها والله أعلم)⁽⁴⁾ فاشتمل الحديث على أسلوب التّعامل مع النساء من خلال مسارين: وصيّة النبي ﷺ بالنساء خيراً هو أمر منه ﷺ والأصل في هذا الوجوب والتّوازن في التّعامل بالمرأة بين الرفق والتشدد، والأصل ما برز في الحديث هو التّعامل بالرفق في الأحوال الطّبيعيّة، إلّا إذا صدر منها ما يخالف الشرع فذلك له شأن آخر ، ومن صور الرفق بالنساء، الرفق بالزوجة ومُداراتها قال ﷺ: (... فدارها تعش بها) والمداراة يقول عنها الحافظ ابن حجر رحمه الله: (هي بغير همز، بمعنى الجاملة

(1) - أخرجه الترمذي في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ما جاء في استكمال الإيمان وزيادته ونقصانه، رقم الحديث 2612، ج4، المصدر السابق، ص 359.

(2) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب النّكاح، باب الوصاة بالنساء (دار طيبة، طبعة جديدة ومصحّحة، ج11، د، ت)، ص 558.

(3) - العيني، عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، (بيروت: دار الكتب العلميّة، ط1، ج20، 1421هـ/2001م)، ص 235.

(4) - النووي، شرح النووي لصحيح مسلم، كتاب النّكاح، باب الوصاة بالنساء، (المطبعة المصرية بالأزهر، ط1، ج 10، 1347هـ/1929م)، ص 57.

والملاينة⁽¹⁾ والمدارة باعتبارها لوناً من ألوان الرفق المطلوبة، وهي في حقّ الأهل مطلوبة بالأوّل؛ لقوله ﷺ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِنِسَائِهِمْ»⁽²⁾ وعليه فقد جعل النبي ﷺ معيار خيرية الرجال ليس بمالٍ أو جاهٍ أو سلطان وإنما بأمر يغفل عنه الكثيرون وهو المعاملة اللطيفة وفي حسن العشرة بالزّوجات، وذلك لأنّ التصنّع والتظاهر بمكارم الأخلاق تضعف حين يشعر الإنسان بأنّ له سلطة ونفوذاً، ثم تشتدّ ضعفاً حين ما تطول معاشرته لمن له عليه السّلطة، فإذا ظلّ الإنسان محافظاً على كماله الخلقي في مجتمع له عليه سلطة، وله معه معاشرة دائمة ومعاملة مادية وأدبية فذلك من خيار الناس أخلاقاً⁽³⁾ فنجد معاشرته النبي ﷺ لأهله مثالية بكلّ ما تعنيه الخيرية في التّعامل الإنساني والأخلاقي من محبة وعدل ورحمة ووفاء وغير ذلك ممّا تقتضيه الحياة الزوجية في جميع أحوالها، وفي إطار الحديث عن صور الرفق بالنساء في حياة النبي ﷺ نجدّها في أعذب صورها تتجلّى رفقه بالزّوجة وخدمتها وتخفيف الأعباء عنها، فعن الأسود قال: «سألت عائشة: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله - تعني خدمة أهله - فإذا حضرت الصّلاة خرج إلى الصّلاة»⁽⁴⁾ والإغضاء عن هفواتها ومسامحتها، يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: (شِدَّةُ الوَطْأَةِ عَلَى النِّسَاءِ مَذْمُومٌ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخَذَ بِسِيرَةِ الْأَنْصَارِ فِي نِسَائِهِمْ، وَتَرَكَ سِيرَةَ قَوْمِهِ)⁽⁵⁾ فكان يدعو إلى حسن العشرة بالزوجة والتّرفق بها، وكان ﷺ من حسن العشرة مع زوجاته بحيث أن تطلب رضاهم بمنع ما أحله الله له، كرامة لهم وإرضاء لغيرتهم وتنازلاً عن حقه الشرعي، وهذا فيه حسن المعاشرة وأدب الأخلاق ما لم تعرف المرأة عشرة زوجية بالمعروف، كما تعنيه هذه العشرة من كمال لأحد من البشر كما عرفته لنبي الله ﷺ، ولا

(1) - يُنْظَرُ: ابْنُ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِي، فَتْحُ الْبَارِي بِشَرْحِ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، كِتَابُ النِّكَاحِ، بَابُ الْمَدَارَاةِ مَعَ النِّسَاءِ، طَبْعَةٌ جَدِيدَةٌ وَمُصَحَّحَةٌ، ج 11، الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 556. وَأَخْرَجَهُ ابْنُ حَبَّانَ وَالطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ ذَكَرَهُ ابْنُ حَجَرٍ فِي فَتْحِ الْبَارِي، ص 556.

(2) - أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي سَنَنِهِ، كِتَابُ الرِّضَاعِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي حَقِّ الْمَرْأَةِ عَلَى زَوْجِهَا، رَقْمُ الْحَدِيثِ 1162، الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 454. وَفِي كِتَابِ الْمَنَاقِبِ، بَابُ فَضْلِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، رَقْمُ الْحَدِيثِ 3895، ص 270. وَقَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ صَحِيحٌ مِنْ حَدِيثِ الثَّوْرِيِّ مَا أَقْلَ مِنْ رَوَاهُ عَنْ الثَّوْرِيِّ وَرَوَى هَذَا عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مَرْسَالًا.

(3) - عَبْدُ الرَّحْمَنِ حَبْنَكَةُ الْمِيدَانِيُّ، الْأَخْلَاقُ الْإِسْلَامِيَّةُ (دَمَشَقُ: دَارُ الْقَلَمِ، ط 5، ج 1، 1420هـ / 1999م)، ص-ص 44، 45.

(4) - أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، كِتَابُ الْأَدَبِ، بَابُ كَيْفَ يَكُونُ الرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ، رَقْمُ الْحَدِيثِ 2039، ص 1513.

(5) - ابْنُ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيُّ، فَتْحُ الْبَارِي بِشَرْحِ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، كِتَابُ النِّكَاحِ، بَابُ مَوْعِظَةِ الرَّجُلِ ابْنَتَهُ لِحَالِ زَوْجِهَا، رَقْمُ الْحَدِيثِ 5191، ج 9، الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 202.

غرو فلقد كان من أخلاقه مع أهله أنه جميل العشرة دائم البشر، يداعبهم ويتلطّف معهم ويوسعهم من نفقته ويضاحك نساءه، حتّى أنّه كان يسابق السيّدة عائشة رضي الله عنها في البرية في بعض سفراته يتودّد إليها بذلك فقالت: « سابقني رسول الله ﷺ فسبقته، وذلك قبل أن أحمل اللحم ثمّ سابقته بعدما حملت اللحم فسبقني فقال: هذه بتلك»⁽¹⁾ وكما شملت رحمته ﷺ بالنساء عمومًا حتّى على برّ الأمّ والعناية بها، ويتجلّى ذلك حينما جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله من أولى الناس بحسن صحبتي؟ قال: أمك، قال ثمّ من؟ قال: أمك، قال: ثمّ من؟ قال: أمك، قال: ثمّ من؟ قال: أبوك»⁽²⁾ ومن رحمته ﷺ نهيّه عن ضرب النساء فقال: «لا تضربوا إماء الله»⁽³⁾ فحثّ على الرفق بهنّ والإحسان في الكلام إليهن، ومعاملتهم معاملته طيبة، واحترام حقوقهنّ، والإهتمام بمشاعرهنّ وعدم إيذاهنّ بأيّ صورة فقال: «خيركم خيركم لأهله»⁽⁴⁾ فلم يجعلهنّ أسيرات منازلهن، بل أتاح لهن الخروج وقضاء حاجاتهنّ وزيارة أقاربهنّ وعيادة المرضى، كما سمح لهنّ بالهجرة إلى المسجد وحرم منعهنّ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كانت امرأة لعمر تشهد صلاة الصّبح والعشاء في الجماعة في المسجد، فقيل لها: لم تخرجين وقد تعلمين أنّ عمر يكره ذلك ويغار؟ قالت: وما يمنعه أن ينهاني؟ قال: يمنعه قول رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»⁽⁵⁾.

ب- ترغيب النبي ﷺ الرّجال في فعل الفضائل وترهيبهم من الرذائل والكبائر

عن أبي هريرة ؓ قال: قال النبي ﷺ: «إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على باب المسجد يكتبون الأول فالأول ومثل المهجر كمثل الذي يهدي بدنة ثم كالذي يهدي بقرة ثم كبشا ثم دجاجة

(1) - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في السبق على الرجل، برقم، 2578. وذكر حكم الألباني: حديث صحيح.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من أحقّ الناس بحسن الصّحبة، رقم الحديث 5971، ص 1500.

(3) - أخرجه أبو داود في صحيحه، كتاب النّكاح، باب في ضرب النساء، تحقيق: رائد بن صبري بن أبي علفة، رقم الحديث 2136 (الرّياض: دار الحضارة للنّشر والتّوزيع، ط2، 1436هـ/2015م)، ص 274. وقال: هذا حديث صحيح صحّحه

الحاكم، ورواه ابن ماجه في السّنن 649/1، كتاب النّكاح، باب في المرأة تؤذي زوجها، برقم 2014.

(4) - تمّ تخريجه سابقًا، يُنظر ص 345.

(5) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصّبيان وغيرهم، رقم الحديث 900، ص 218. و أخرجه مسلم في الصّلاة باب خروج النساء إلى المسجد إذا لم يترتّب عليه فتنة رقم 442، ص 327. و أخرجه أبو داود في صحيحه، كتاب الصّلاة، باب ما جاء في خروج النساء إلى المسجد، رقم الحديث 565، المصدر السّابق، ص 78. وقال: هذا حديث حسن صحيح، صحّحه النووي.

ثم بيضة فإذا خرج الإمام طووا صحفهم ويستمعون الذكر»⁽¹⁾ جاء في الحديث الحث على استباق الخيرات والمبادرة إلى الأعمال الصالحة انطلاقاً من قول المولى عز وجل: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 133] إلا أن من أعظم هذه الخيرات الحضور إلى المساجد لأداء الصلاة التي هي فرض على الرجال دون النساء، ولا سيما صلاة الجمعة، فاستخدم عليه الصلاة والسلام أسلوب الترغيب لصلاة الجمعة والتبكير في الإقبال عليها، وبطريقة لإثارة الانتباه وتحريك النفوس حتى يثير فيها الرغبة والإقبال، فعدها من أعظم ما يحصل عليه صاحبها من الخيرات العظام والأجر الكبير، مثيراً في حديثه فوائد وآثارها الجمّة في حياة العبد الدنيوية والأخروية، وذلك لغرض:

- تعظيم شأنها في القلب وتعلقه ببيوت الله وتقديمه طاعة الله على هواه فقال: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أُدْخِلَ الجنة، وفيه أُخرج منها»⁽²⁾.

- وتعظيم لصلاة الجمعة وأدائها في وقتها، فيها يتضاعف الأجر إلى سبعة وعشرين درجة لتكون دافعاً يثير في النفس حبّ التعلق بالمساجد والتبكير للصلاة فقال في شأنها ﷺ: «وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهَجِيرِ لَاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ»⁽³⁾ فلا يخفى في الحديث وما اشتمل عليه من منهج عاطفي قد أبرز في أسلوب ترغيب النبي ﷺ الرجال التبكير لصلاة الجمعة وفضلها وأهميتها في الحياة الدنيا والآخرة .

ومن صور دعوة النبي ﷺ للرجال تحذيرهم وترهيبهم من الوقوع في الزنا ولا سيما فقد قدم البديل منه التحصين بالزواج، فكانت من أشهر المواقف المخرجة التي واجهت النبي ﷺ موقفه مع الصحابي ماعز بن مالك الأسلمي حين إقراره بجريمة الزنا وإقامة الحدّ عليه، وهزال الذي دفع ماعزاً إلى الاعتراف بالجريمة، فلما أصرّ ماعز على الاعتراف بما رجمه رسول الله ﷺ؛ لأنّ ماعزاً كان محصناً، لكنّ رسول الله ﷺ لم يدع الأمر يمرّ دون أن ينصح لهزال والأمّصة من بعده قائلاً: « وَاللّٰهُ! يَا هَزَلُ لَوْ كُنْتَ سَتَرْتَهُ بِثَوْبِكَ كَانَ خَيْرًا مِّمَّا صَنَعْتَ بِهِ»⁽⁴⁾، فمن الأجدر أن تعرّج قصّته ليرى القارئ

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب الاستماع إلى الخطبة، رقم الحديث 929، ص 117.

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة، رقم الحديث 854، ص 585.

(3) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب فضل التهجير يوم الجمعة، رقم الحديث 850، ص 586. وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الآذان، باب الاستهام في الآذان، رقم الحديث 615، ص 156.

(4) - أخرجه أبو داود في سننه، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، كتاب الحدود، باب في السّتر في أهل الحدود، رقم الحديث

أسلوب رسول الله ﷺ في التعامل مع خطأ كبير كخطأ ماعز، وعن بُرَيْدَةَ قال: جاء مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: (يَا رَسُولَ اللَّهِ! طَهَّرْنِي فَقَالَ "وَيْحَكَ! اَرْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ، وَتُبْ إِلَيْهِ، قَالَ: فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! طَهَّرْنِي، - فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "وَيْحَكَ اَرْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ، وَتُبْ إِلَيْهِ. قَالَ: فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ طَهَّرْنِي فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ الرَّابِعَةُ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فِيمَ أَطَهَّرُكَ؟! فَقَالَ: مِنْ الزَّيِّ فَسَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -وَلَمْ يَكْتَفِ بِاعْتِرَافِهِ: أَبِي جُنُونٌ؟- فَأُخْبِرَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَجْنُونٍ، فَقَالَ: أَشْرَبَ خَمْرًا؟، فَقَامَ رَجُلٌ فَاسْتَنْكَهَ - أي يشم رائحة فمه - فَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ رِيحَ خَمْرٍ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَزْنَيْتَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، يَرِيدُ أَنْ تَخْرُجَ كَلِمَةٌ لَا، لَكِنَّهُ قَالَ: نَعَمْ - فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ، فَكَانَ النَّاسُ فِيهِ فِرْقَتَيْنِ؛ قَائِلٌ يَقُولُ: لَقَدْ هَلَكَ، لَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِئَتُهُ. وَقَائِلٌ يَقُولُ: (مَا تَوْبَةُ أَفْضَلَ مِنْ تَوْبَةِ مَاعِزٍ؛ أَنَّهُ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي يَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: اقْتُلْنِي بِالْحِجَارَةِ، قَالَ: فَلَبِثُوا بِذَلِكَ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، ثُمَّ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُمْ جُلُوسٌ، فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ: "اسْتَغْفِرُوا لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ". قَالَ: فَقَالُوا: غَفَرَ اللَّهُ لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً؛ لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوْسَعَتْهُمْ" ⁽¹⁾ بَيَّنَّ الْحَدِيثَ مَوْقِفًا مِنْ أَعْظَمَ مَوَاقِفِ الْعَقْلِ وَالْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ أَنَّهُ مَوْقِفَ رَجْمِ إِنْسَانٍ وَهُوَ أَمْرٌ شَدِيدٌ لَا مُحَالَةَ، مَاعِزُ جَاءَ مَقَرًّا بِذَنْبِهِ يَرِيدُ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ حِسَابِ الْآخِرَةِ، وَقَدْ شَعَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الرَّجُلَ ارْتَكَبَ ذَنْبًا عَظِيمًا كَانَ بَادِيًا عَلَى قِسْمَاتِ وَجْهِهِ وَنَبْرَاتِ صَوْتِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَسْأَلْهُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ ذَنْبِهِ، فَقَدْ أَرَادَ أَنْ يَتَكَبَّرَ عَلَيْهِ لئَلَّا يَقِيمَ عَلَيْهِ حَدًّا، وَهَذَا مِنْ شِمَائِلِ رَحْمَتِهِ ﷺ الَّتِي لَا يَمِثْلُهَا فِيهِ أَحَدٌ، لَكِنَّ مَاعِزَ كَانَ مُصَرًّا، وَقَدْ جَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ فِي مَوْقِفٍ آخَرَ أَنْ رَغِبَ فِي سِتْرِ عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَإِمْسَاكِ الْأَلْسِنَةِ عَنْ ذِكْرِ الْفَاحِشَةِ إِنْ وَقَعَتْ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٩﴾ [النُّور: 19] وَعَنْ عِبَادَةِ بْنِ الصَّامِتِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْبُكَرُ بِالْبُكَرِ جُلْدَ مِائَةِ وَنَفْسِي سَنَةَ وَالثِّيبُ بِالْثِيبِ جُلْدَ مِائَةِ وَالرَّجْمُ» ⁽²⁾ فِي الْحَدِيثِ أَسْلُوبُ التَّهْدِيدِ الشَّدِيدِ لِمَنْ يَبَادِرُونَ فِي الزُّنَا وَالَّتِي هِيَ مِنْ أَقْدَرِ الْجَرَائِمِ الَّتِي حَذَرُ مِنْهَا ﷺ الرِّجَالُ مِنَ الْوُقُوعِ فِيهَا، فَأَمَرَ بِرَجْمِ مَاعِزٍ عِنْدَمَا أَقَرَّ وَقُوعَهُ فِي الْفَاحِشَةِ، فَلَا يَعْنِي أَنَّ جُلْدَ الزَّانِي غَيْرَ الْمُحَصَّنِ وَرَجْمَ الزَّانِي الْمُحَصَّنَ يَنَافِي رَحْمَةَ النَّبِيِّ ﷺ وَإِنَّمَا شَرَعَ ذَلِكَ

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا، رقم الحديث 16951، ص 810.

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب حد الزاني، رقم الحديث 1690، ص 806.

للإحصان وللعدل والإنصاف والحكمة ليعم الأمان في المجتمع، وقد سعت رحمته ﷺ لمن وقع في الفاحشة فدعا إلى التعافي والتسامح والتّصالح وعدم رفع الأمر إلى الإمام وهذه من توجيهاته ﷺ، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «تعافوا في الحدود قبل أن تأتوني به فما أتاني من حد فقد وجب»⁽¹⁾، فكان التحقيق النبوي يبحث له عن أيّ شبهة حتّى لا يقيم عليه الحدّ ومن ذلك قوله: «ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه، أبه جنون، أشرب خمراً...» وتركه أن تراجع: «هلا تركتموه لعله يتوب فيتوب الله عليه» فالإسلام حضّ الرجال على التّحصن من الوقوع في الجريمة وقدم له البديل في إخراج هذه الشّهوة بالزّواج إستناداً لقول المولى عزّ وجلّ: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝٣٢﴾ وَلَيْسَتَعَفِيفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ ﴿[النور: 32-33] وعن عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: «يا معشر الشّباب من استطاع منكم الباءة فليتزوّج، فإنّه أغضّ للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصّوم فإنّ له وجاء»⁽²⁾ كما أتاح الإسلام الزّواج لأنّه أحص للنفس من عقوبة الحدّ التي حدّدها، فجاء في حديثه ﷺ مبيناً ذلك ورخص للرجل الزّواج باثنين أو ثلاثة أو أربع بدل إشاعة الفجور في المجتمع، كما رخص ﷺ عدم المغالاة في المهور تيسيراً وتسهيلاً لأمر الزّواج حتّى لا يشقّ على أمته فيشملها العفاف والسّتر والإحصان، ولا يخفى على ما يشتمل عليه الحديث من منهج عاطفي قدّ برز بمجموعة من السّمات أو الأساليب تجلّت في أسلوب النبي ﷺ الرّاقى واللّين في دعوة أحد الرّزاة، فلم يغضب أو يتساهل في إقامة الحدّ عليه، فكان التّرجيب والتّرهيب والوعد والوعيد متّسماً بأرقّ العواطف وألطفها.

ج- حثّ الرّجال للعدل بين النّساء مع مراعاة العاطفة

لقد أمر الإسلام بالعدل في كلّ أمور الحياة وفي جميع جوانبها، وذلك لما للعدل من أهميّة عظيمة وفائدة كبيرة في حياة المجتمعات، فبالعدل تستقيم الحياة، والعدل في أصله أن يعطى كلّ ذي

(1) - ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب كراهية الشّفاعاة في الحدود إذا رفع إلى السلطان، ج12، رقم الحديث 6788، المرجع السّابق، ص 87.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النّكاح، باب قول النبي ﷺ من استطاع منكم الباءة فليتزوّج، الحديث 5065، ص 1292.

حق حقه دون زيادة أو نقصان⁽¹⁾، أو هو المساواة بين الناس في التصرفات المحسوسة دون إنقاص الحقوق وهو ضد الجور⁽²⁾، وقد بين النبي ﷺ للرجال أهمية العدل في التعامل مع الناس من خلال عدله مع نسائه فكان إذا أراد سفراً أقرع^(*) بين نسائه فأَيَّتِهِنَّ كان يخرج سهمها يخرج بها معه⁽³⁾ وهذا الفعل مع زوجاته ﷺ يدل على أهمية إتباع الأزواج المعددين سنته، وتحقيق العدل في الحياة الزوجية الخاصة وفي تعاملهم مع الناس بحيث لم يقتصر ﷺ الأمر عن هذا التعامل بل إنه في آخر حياته حينما شعر بدنو أجله استأذن أزواجه -وهو في مرضه- بأن يُمرَّض في بيت عائشة رضي الله عنها⁽⁴⁾ وبما أنَّ الإنسان ذو غرائز وميول قد ينحرف به عن المسار الصحيح كأن يميل أكثر إلى هواه وتغلبه غريزته النفسية بأن يميل مع الواحدة دون الأخرى، يؤتى به يوم القيامة بشق مائل يعرضه إلى خطر السقوط عند مروره على الصراط، فحثَّ النبي ﷺ على العدل بين الزوجات وحذَّر مخبراً عن مصير ومآل من صدر منه حيف أو ظلم في حقهنَّ فقال: «من كانت له امرأتان يميل مع إحدهما على الأخرى جاء يوم القيامة وأحد شقيي ساقط»⁽⁵⁾ وإن كان الميل القلبي بيد الله لا يتحكم فيه الإنسان، إلا أنَّ هناك من الأعمال الكثيرة والأحوال المختلفة التي يستطيع كل زوج فيها أن يراعي الحقوق الشرعية ويستطيع أن يزن تصرفاته فيها بالعدل، وهو ما يحصل الآن من ممارسات سيئة من

(1) - عبد الرحمن حبنكة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، ج1، المرجع السابق، ص 622.

(2) - يُنظَر: ابنُ منظور، لسان العرب، مادة عدل، ج11، المصدر السابق، ص430. فيروز آبادي، القاموس المحيط، مادة العدل ج4، المصدر السابق، ص 13.

(*) - أقرع: قرع: فيه لكأ أتى على مُحسَّر قرع ناقته، أي: ضربها بسوطه، القرع: المختار، واقتَرعتُ الإبل إذا اختَرتها، ويُقَرَّع منكم أي: يُختار منكم (يُنظَر: ابنُ الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق محمود محمد الطاحي (المكتبة الإسلامية، د، ط، ج4، د، ت)، ص 44.

(3) - غير أن سودة بنت زمعة وهبت يومها وليتها لعائشة زوج النبي ﷺ تبتغي بذلك رضاء رسول الله ﷺ (أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة، باب هبة المرأة لغير زوجها، رقم الحديث 2593، ص 629)، (وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، في فضائل عائشة رضي الله عنها، رقم الحديث 2445، ج2، ص 1894).

(4) - أخرجه الدارمي في سننه، كتاب النكاح، باب الرجل يكون عنده النسوة، رقم الحديث 2214، ج2، ص 446، وكتاب الجهاد، باب في خروج النبي ﷺ مع بعض نسائه في الغزو، رقم الحديث 2428، ج2، ص 528.

(5) - أبو عبد الله بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، كتاب النكاح، باب القسمة بين النساء، حديث 1969، المصدر السابق، ص 633. وقال: هذا حديث صحيح، وذكر صحة هذا الحديث في: الضياء المقدسي أبو عبد الله محمد وآخرون، صحاح الأحاديث فيما اتفق عليه أهل الحديث، تحقيق: حمزة أحمد الزين، حرف الميم (بيروت: دار الكتب العلمية، ج8، 2009م)، ص 215.

قبل بعض البعض بأن الخطأ ليس في التشريع وإنما في التطبيق، ولأهمية هذا الضابط في الحياة الزوجية، أشار النبي ﷺ إلى عدم الاستهانة بمشاعر المرأة، وإقرار الظلم في حقها، والعدل المأمور به في حديث النبي ﷺ هو الثقة والكسوة وحسن العشرة، أما ميل القلب ليس داخلاً في القسم بين الزوجات، لما روي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه ثم يعدل ثم يقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»⁽¹⁾ دلالة الحديث هنا - عند أبي داود رحمه الله - عن القلب، وقال الإمام الترمذي: يعني به الحب والمودة⁽²⁾ فأشار النبي ﷺ إلى أن الرجل لن يقدر على العدل بين نسائه مهما حاول، لأن للقلب ميول يتأثر بها الرجل تلقائياً دون قصد، فهي في تصرف الله، استناداً لقول المولى عز وجل: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: 129] وذكر الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره مع الآية: (أي: لن تستطيعوا أيها الناس أن تساووا بين النساء من جميع الوجوه، فإنه وإن كان واقع القسم الصوري ليلة وليلة، فلا بد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع)⁽³⁾ وعليه فإن الرجال مطالبون بالعدل فيما يقدروا عليه كالمبيت والثقة والهدايا والكلمة الطيبة، ولا يخفى أثر المنهج العاطفي من خلال الاعتبار للعاطفة وملاستها لقلب الرجل وميوله الذي لا دخل له في المساواة، لأنها تحت قدرة الله، وأسلوب التخويف والتحذير لكي يراعي كل زوج حق المرأة العاطفي والمادي والاجتماعي حفاظاً على كيان الأسر.

ثانياً: دعوة النبي ﷺ للنساء بالمنهج العاطفي

إن الناظر لنصوص السنة والسيرة النبوية يرى صوراً مشرقة من خلقه الكريم ﷺ في معاملته للناس جميعاً، ولا سيما مع النساء، وبخاصة مع أزواجه، له دلالاته وميزته الخاصة المبنية على سلامة ذوقه، ورقة طباعه، وعمق عاطفته، وقدرته الفذة على مراعاة مشاعر النساء واحترام رغباتهن مادامت

(1) - سراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي، البدر المنير في تخريج الأحاديث، تحقيق: ابن صفيّة مجدي بن السيد بن أمين، كتاب النكاح، باب من خصائص الرسول ﷺ، رقم الحديث 34 (دار الهجرة للنشر والتوزيع، د، ط، ج7، د، ت)، ص 481.

(2) - المرجع نفسه، ص 482.

(3) - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط1، ج1، 1418هـ/1997م)، ص 750.

في حدود الشرع⁽¹⁾ فنلن من هديه الرحمة والرعاية ما لم تنله في أي شريعة أو نظام، سواء كانت أمّا، أو أختًا، أو زوجة أو غير ذلك، وقد شوهد له ﷺ مواقف كثيرة خاطب فيها النساء خطابًا مباشرًا، وخصّها بخطاب مستقلّ عن الرجال، وذلك إكرامًا لها ورفعًا شأنها وقيمة مكانتها في المجتمع، باعتبارها دعامة البيت وأساسه من خلال التربية الصحيحة للأبناء وتوجيههم الوجهة الصحيحة، فشمّل خطابه بمواعظ بالغة شملت قضايا متعدّدة، فاهتمّ بالقضايا السلوكيّة والأخلاقية وبالعبادات والمعاملات وغيرها من المجالات الأخرى، وهو أثناء دعوته لمن كان يحرص على اختيار الأساليب المناسبة ولا سيما العاطفية منها وبالوسائل الملائمة وفقًا لظروفهنّ وأحوالهن فكان يعظهنّ ويعلمهنّ، وقد ترك ﷺ في سيرته منهجًا ومنهلاً عذبًا يستقي منه الدعاة على مرّ الأزمنة ليسيروا على نهجه في دعوتهم للنساء، ومن ضمن ما خصّه النبي ﷺ في دعوته للنساء جملة من الأساليب العاطفية الرائعة نذكرها كالآتي:

أ- رحمة النبي ﷺ بزوجاته من النساء

كان النبي ﷺ يظهر رحمته بالنساء بأكثر من طريقة وأكثر من موقفٍ وما أعجبها وأروعها، ثمّ إنّ زوجاته كان لهنّ النصيب الأوفر من هذه الرحمة النبوية، فكان -ﷺ- يحنو عليهنّ ويعينهنّ، فيقمّ بيته بيده ويحلب الشاة، ويخز النعل، ويتلطّف إليهن، ويداري غضبهنّ، ويعدل بينهن، ويراعي ما جُبلن عليه من الغيرة ويحتمل هفواتهنّ، ويرفق بصغيرتهنّ، فلهنّ حياة خاصّة مع النبي ﷺ نجدها مليئة بالعبّر دافقة بالخير، فشهد عليه ﷺ مواقف عظيمة أثبتت رحمته بأزواجه وحسن تعامله معهنّ منها: ما قالته السيّدة عائشة رضي الله عنها: «ما غرث على أحدٍ من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة، ولقد هلكت قبل أن يتزوّجني بثلاث سنين، لما كنْتُ أسمعُهُ يذكُرُها^(*)، ولقد أمرهُ ربّه عزّ وجل أن يُشَرّها بيّتٍ من قصبٍ في الجنة وإن كان ليذبح الشاة ثم يهديها إلى خلائلها»⁽²⁾ وجاء في الصّحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: «استأذنت هالة بنت خويلد -أخت خديجة- على رسول الله

(1) - يُنظر: أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة (مكتبة العلوم والحكم، ط6، مج 2، 1415هـ/1994م)، ص643.

(*) - لما كنْتُ أسمعُهُ يذكُرُها: أي: يُثنّي عليها لمحبتّه لها (أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصّحابة، رقم الحديث 2435، ص1889).

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج خديجة وفضلها رضي الله عنها، رقم الحديث 3818، ص935. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصّحابة، رقم الحديث 2435، ص1889.

ﷺ، فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ(*) خَدِيجَةَ، فارتاع لذلك، فقال: اللَّهُمَّ هَالَةً، قالت عائشة: غرت(*)»⁽¹⁾ فلم يمنعه ﷺ حُبُّه لعائشة ﷺ أَنْ يَصْرَحَ بِفَضْلِ خَدِيجَةَ ومكانتها في قلبه، ولو في ذلك الموقف الذي ظهرت فيه غيرتها، بلْ لم يَكْتُم حُبُّه لها، وقد مضت على وفاتها أكثر من خمس سنين؟⁽²⁾ فقال لعائشة رضي الله عنها: «إِنِّي رَزَقْتُ حُبُّهَا(*)»⁽³⁾ فما أعظم وفاءه، وأرحب قلبه، وما أجمل ما قاله عن خديجة رضي الله عنها، فالتَّيَّيُّ ﷺ لا يَجْدُ غَضاضَةً فِي أَنْ يَحِبَّ امْرَأَتَهُ، وَأَنْ يَصَارِحَهَا بِذَلِكَ مَعْبَرًا عَنْ عَاطِفَةِ خَيْرَةٍ، بينما يَكْتُم كثيرون من الأزواج عواطفهم تجاه أزواجهم لئلاَّ يَخْشَى كِبَرِيائِهِمْ، أو يقل احترامهم فيما يحسبون وهم في هذا مَخْطِئُونَ⁽⁴⁾، عن عمرو بن العاص ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: عَائِشَةُ»⁽⁵⁾ وكان من رحمته ﷺ مراعاة صَغَرِ سِنِّ عَائِشَةَ ﷺ وَحُبِّهَا لِلْعَبِّ مَعَ صَدِيقَاتِهَا، تَزْوِي السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فتقول: «كُنْتُ أَلْعَبُ بِالْبَنَاتِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَكَانَ لِي صَوَاحِبٌ يَلْعَبْنَ مَعِيَ فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ يَتَقَمَّعْنَ(*) مِنْهُ فَيَسْرِهِنَّ(*) إِلَيَّ فَيَلْعَبْنَ

(*) - استئذان خديجة: أي: صفة استئذان خديجة لشبه صوتها بصوت أختها، فتذكر خديجة بذلك، (صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، رقم الحديث، 2437، ص 1889.

(*) - غُرْتُ: الغيرة هي الحمية والأنفة، يقال: رجلٌ غيور و امرأةٌ غيورة، بلا هاء، لأنَّ فعولاً يشترك فيه الذَّكَرُ والأنثى، وما الأولى نافية، والثَّانِيَةُ مصدرِيَّةٌ أو موصولة، أي: ما غرت مثل غيرتي أو مثل التي غرَّتْها على خديجة (المصدر نفسه، ص 1889).

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النَّبِيِّ ﷺ وخديجة وفضلها رضي الله عنها، رقم الحديث 3821، ص 934، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، رقم الحديث، 2437، ص 1889.

(2) - أكرم ضياء العمري، الرسالة والرسول (مؤسسة الرسالة، ط 1، 1410هـ/1990م)، ص 99.

(*) - رَزَقْتُ حُبُّهَا: فيه إشارة إلى أَنَّ حُبُّهَا فضيلة حصلت (مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، رقم الحديث، 2435)، ص 1888.

(3) - المصدر نفسه، ص 1888.

(4) - أكرم ضياء العمري، الرسالة والرسول، المرجع السابق، ص 99.

(5) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، رقم الحديث، 2440، ص 1891.

(*) - يَتَقَمَّعْنَ: أي: يتغيَّيْنَ حياءً منه وهيبه، وقيل يدخلن في بيت ونحوه، وهو قريب من الأول (أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، رقم الحديث، 2440، ص 1891).

(*) - يُسْرِهِنَّ: أي: يرسلهنَّ (المصدر نفسه، ص 1891).

معي»⁽¹⁾ وكان ﷺ كثير الترقق والتلطّف معهنّ بالكلام، فقال مرّة لعائشة رضي الله عنها: «إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت عليّ غضبي، قالت: ومن أين تعرف ذلك؟ قال: أمّا إذا كنت عني راضية، فإنك تقولين: لا وربّ محمد، وإذا كنت غضبي قلت: لا وربّ إبراهيم، قالت: قلت: أجل والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك»⁽²⁾ ومن لطيف معاملته ﷺ أنّه كان يشرب من موضع شرب زوجته، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كنت أشرب وأنا حائض، ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع فيّ فيشرب، وأتعرّق العرق وأنا حائض، ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع فيّ»⁽³⁾ فقد كان النبي ﷺ جميل العشرة بأهله، يتلطّف ويرقّق بهنّ، وكان ﷺ يواسي الحزينة من زوجاته ويعطف على المريضة منهنّ، فلا يترك واحدة وحدها تعاني ممّا نزل بها، بل يقف بجانبها، ويعرف مشكلتها حتّى يجد لها حلاً، فهذه عائشة رضي الله عنها عندما حاضت في الحجّ دخل عليها وهي تبكي، فقال: «ما لك أنفست؟»، قالت: نعم، قال:، إنّ هذا أمر كتبه الله على بنات آدم فاقضي ما يقضي الحاجّ غير أن لا تطوفي بالبيت»⁽⁴⁾ كانت هذه الكلمات التي واسى بها النبي ﷺ زوجته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من أعذب الكلمات وأرقّها مواساةً لخاطرها، وتطيب لنفسها، وتذكيرها بأنّها ليست وحدها يحصل لها هذا الأمر، بل هو شيء قد كتبه الله على بنات آدم، ثمّ بعد ذلك علّمها كيف تعمل حتّى تتمّ نسكها، وهذه أم المؤمنين صفية رضي الله عنها كانت معه ﷺ في سفر، وكان ذلك يومها فأبطأت في المسير، فاستقبلها رسول الله ﷺ وهي تبكي وتقول: «حملتني على بعير بطيء، فجعل رسول الله ﷺ يمسح بيديه عينيها ويُسكنها»⁽⁵⁾ وأحياناً فاقت رحمة النبي ﷺ رحمة الأب، فأبو عائشة رضي الله عنها -أبو بكر الصديق ﷺ- عندما أراد أن يعاقبها على خطئها،

(1) - المصدر نفسه، ص 1890.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النّكاح، باب غيرة النّساء ووجدهنّ، رقم الحديث 5228، ص 1332. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصّحابة، باب فضل عائشة رضي الله عنها، رقم الحديث 2439، ص 1890.

(3) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب جواز غسل الحائض رأس زوجها وترجيله وطهارة سؤرها والاتكاء في حجرها وقراءة القرآن فيه، رقم الحديث 300، ص 244.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحيض، باب الأمر بالنّفساء إذا نُفِسْنَ، رقم الحديث 294، ص 82.

(5) - أخرجه التّسائي في سننه الكبرى، كتاب عشرة النّساء، أبواب الملاعبة كم تُهَجَّر، تحقيق حسن عبد المنعم شلي، رقم الحديث 9117 (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 1، ج 8، 1421هـ/2001م)، ص 261. وحسن إسناده ضياء الدين المقدسي (يُنظَر: الأحاديث المختارة = المستخرج من الأحاديث المختارة ممّا لم يخرج البخاري ومسلم في صحيحهما، 106/5).

برحمته وحبه لها حجز عنها أباهما، لننظر إلى هذه الرّحمات وجمالية مشاعر النبي ﷺ وعواطفه الدافقة، فما ألطف عشرته مع نسائه وما أروعها، كانت في غاية من الرّفق وقمة في الحبّ والحنان، وما أحسن خلّقه وتعامله معهنّ خصوصاً أمام المواقف المخرجة، فكان رقيق القلب، سهل المعاملة، بشوش الوجه، حسن المعاشرة مع زوجاته، ولا سيما مع السيّدة عائشة رضي الله عنها، فكان إذا هويت شيئاً لا محذور فيه تابعها عليه، وكانت إذا شربت من الإناء أخذه فوضع فمه في موضع فمها وشرب، وكان إذا تعرّقت عرقاً -وهو العظم الذي عليه لحم- أخذه فوضع فمه موضع فمها، وكان يتكئ في حجرها ويقرأ القرآن ورأسه في حجرها، وربما كانت حائضاً، وكان يأمرها وهي حائض فتتزر ثم يُياشرها، وكان يقبلها وهو صائم، وكان من لطفه وحسن خلّقه مع أهله أنّه يمكنها من اللّعب، ويربها الحبشة وهم يلعبون في مسجده، وهي متكئة على منكبيه تنظر، وسابقتها في السّفر على الأقدام مرّتين وتدافعا في خروجهما من المنزل مرة⁽¹⁾ وكان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيهن خرج سهمها خرج بها معه، وكان يقسم لكل امرأةٍ منهنّ يوماً وليلتها، ولم يقض للبواقي شيئاً⁽²⁾ وإذا صلّى العصر دار على نسائه، فدنا منهنّ واستقرأ أحوالهن، فإذا جاء الليل، انقلب إلى بيت صاحبة التّوبة فخصّها بالليل، فقالت عنه عائشة رضي الله عنها: «كان لا يفضل بعضنا على بعض في مكثه عندنا، في القسم، وكان قلّ يومٍ إلّا كان يطوف علينا جميعاً، فيدنو من كلّ امرأةٍ من غير مسيسٍ، حتّى يبلغ إلى التي هو في يومها، فيبيت عندها»⁽³⁾ ومن رحمته ﷺ الحثّ إلى الإحسان والرّحمة بالأرامل من النّساء فكان أشدّ وأوفى، فنجده يرفع من قدر الذي يتكفل بشؤون الأرملة إلى مراتب المجاهدين والقائمين والصّائمين فقال ﷺ: «السّاعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم اللّيل الصّائم النهار»⁽⁴⁾ فأبي

(1) - يوسف القرضاوي، الورع والزهد (القاهرة: مكتبة وهبة، ط1، 1431هـ/2010م)، ص 181.

(2) - أخرجه الترمذي في سننه، كتاب النّكاح، باب في القسم بين النّساء، تحقيق: رائد بن صبري بن أبي علفة، رقم الحديث 2138 (الرياض: دار الحضارة للنشر والتوزيع، ط2، 1436هـ/2015م)، ص 272. وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(3) - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب النّكاح، باب في القسم بين النّساء، رقم الحديث 2135، المصدر السابق، ص 273. ومحمّد ناصر الدّين الألباني، صحيح سنن أبي داود، كتاب النّكاح، باب القسم بين النّساء رقم الحديث 1852. (الكويت: مؤسّسة غراس للنشر والتوزيع، ط1 مج6، 1423هـ/2002م)، ص 352. وقال: إسناده حسن صحيح، وقال الحاكم: صحيح، ووافقه الذهبي، إسناده حدثنا أحمد بن يونس: ثنا عبد الرّحمان بن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه، وهذا إسناد حسن، رجاله ثقات رجال الشّيخين، إلّا أنّ ابن أبي الزناد إنّما أخرج له البخاري تعليقاً، ومسلم في المقدمة.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النّفقات، باب فضل النّفقة على الأهل، رقم الحديث 5351، ص 1363.

رحمة هذه، وأيُّ قلب هذا يحمله النبي ﷺ، مشاعر لا يماثله فيها أحد، فقد كان أسبق النَّاس في رعاية النَّاس وخدمة الأيتام والمساكين، يروي الصحابي عبد الله بن أبي أوفى ؓ عن النبي ﷺ: «كان لا يأنفُ ولا يستنكفُ أن يمشي مع الأرملة والمساكين، فيقضي لهما حاجتهما»⁽¹⁾ ويقول الحافظ العراقي رحمه الله في معنى الحديث: (كان النبي ﷺ يمشي مع المسكين والأرملة ... في حاجة من غير ما أنفة)⁽²⁾ والأجل من دُرر رحمة النبي ﷺ، رحمته بالإماء، وهنَّ الرِّقِيق من النساء، عن أنس بن مالك ؓ قال: «إن كانتِ الأُمّةُ(*) من إماءِ أهلِ المدينة لتأخذ بيدِ رسولِ الله ﷺ فتنتلقُ به حيثُ شاءتُ من الأمكنة، ولو كانت حاجتها خارج المدينة»⁽³⁾ يعلّق الحافظ ابنُ حجر رحمه الله في شأن التعبير باليد فيقول: (وهذا إشارة إلى غاية التَّصَرُّف، حتّى لو كانت حاجتها خارج المدينة، والتمست مساعدته في تلك الحالة لمساعدتها على ذلك بالخروج معها، وهذا من مزيد تواضعه ﷺ وبراءته من جميع أنواع الكبر)⁽⁴⁾.

ب- النهي عن السُّخْرية والغيرة وسلامة الصّدر من الأحقاد

حرص النبي ﷺ على سلامة قلبِ المرأة بأنْ نُهاها عن السُّخْرية والغيبة والنَّميمة التي تجلب لها الضَّغينة والأحقاد وتدفع عنها الطُّمأنينة والرَّاحة، لكون سلامة الصّدر سلوك قلبي عميق ومشاعر إنسانية رقيقة قائمة على الحبِّ والصّدق والاطمئنان، وقد تجسّد هذا السلوك بوضوح في حديث السيّدّة عائشة رضي الله عنها أنْ قالت: «حكيت للنبي ﷺ رجلاً فقال: ما يسرني أيّ حكيت رجلاً وأنّ لي كذا وكذا، قالت: فقلت: يا رسول الله، إنّ صفية امرأة، وقالت بيدها: هكذا، كأنّها تعني

(1) - أخرجه الدَّارمي في سننه، المقدمة، باب تواضع رسول الله ﷺ، رقم الحديث 74 (دار الكتب العلمية، ط 1، ج 1،

1996م)، ص 29، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، وقال الألباني: حديث صحيح .

(2) - عبد الله بنُ سعيد بنُ محمد عبادي اللّحجي الحضرمي، منتهى السُّؤال على وسائل الوصول إلى شمائل الرّسول ﷺ (جدة: دار المنهاج، ط 3، ج 2، 1426هـ/2005م)، ص 576.

(*) - الأُمّة : المرأة المملوكة، دون الحرّة (ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، كتاب الأدب، باب الكبير، 6072، ج 10، المرجع السّابق، ص 490) وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (لم أقف على اسمها! وفي بعض الحواشي أنّها "أم زفر" ماشطة خديجة أم المؤمنين. ونوزع فيه، وتردّد البرهان الحلبي في المقتضى في أنّها هي أو غيرها، وجزم غيره بأنّها هي، لكن نوزع، جاءت إلى النبي ﷺ فقالت له: إنّ لي إليك حاجة أي: أريد أن أخفيها عن غيرك، قاله القاري. (ينظر: عبد الله بنُ سعيد بنُ محمّد عبادي اللّحجي الحضرمي، منتهى السُّؤال على وسائل الوصول إلى شمائل الرّسول ﷺ، المرجع السّابق، ص 577).

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الأدب، باب الكبير، رقم الحديث 6072، ص 1520.

(4) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الكبير، رقم الحديث 6072، ص 1520.

قصيرة، فقال ﷺ: «لقد مزجت بكلمة لو مزجت بها ماء البحر لمزج»⁽¹⁾ أظهر هذا الحديث موقفا إنسانيا وأخلاقيا بالدرجة الأولى كان نتيجه تصرّف السيّدة عائشة رضي الله عنها، أنكر فيه ﷺ كلامها في ضرّتها، ووضّح لها خطورة كلمتها، بأنّها في الغيبة وهي محرّمة، ومع محبّته ﷺ لعائشة لم يتعنّف معها ولم يغضب من تصرّفها، وإنّما استخدم معها أسلوب حكيم وهادئ في غاية من الرّفق والشفقة، بأنّ أبان لها كراهيته للحديث عن النّاس وخطورة السّخرية بهم، لهذا زجر النبي ﷺ وغضب حينما أشارت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بيدها قصر صفيّة، وبين أنّ فعلها هذا بالقول: «لو مزج به ماء البحر لمزج» والحديث في النّاس بما يكرهون أو يجرح مشاعرهم وهو نوع من الغيبة، هذا عند استعمال السيّدة عائشة بالإشارة فقط فما بال الإشارة بالقول، وقد نهى ﷺ الذّكر باللسان لما فيه من يفهم الغير نقصان أخيه وتعريفه بما يكرهه، وكذلك التّعريض والتّصريح سواء أكان بالقول أو الفعل كالإشارة أو الإيماء والغمز والهمز وغيرها كثير⁽²⁾ فقصد ﷺ بذلك نهيه للنّساء عامّة من آفة الغيبة والتّميمّة والتي تولّد أمراضا قلبية وعدائية وسلوكية خطيرة، قد تهوي بالعديد منهنّ إلى ما لا يحمّد عقباه، كما قصد نبأتهنّ من الجزاء الذي أعدّه الله لمرتكبي هذا الآفة في اللّسان، ومعالجة قلوبهنّ وصدورهنّ من الأحقاد فكان رحمة منه وخشية عليهنّ، وأحيانا يقع النّبي ﷺ في مواقف محرّجة من غيرّة زوجاته، فنجده ﷺ يقدّر موقفهنّ ويرحم ضعفهنّ ويعذر غيرتهنّ ولا يفعل بل يسامح ويعفو، وهو ما حدث من السيّدة عائشة رضي الله عنها حينما أرسلت إحدى زوجاته فأرسلت بقصعة فيها طعام، فضربت يد رسول الله ﷺ فسقطت القصعة، فانكسرت، فأخذ ﷺ الكسرتين فضمّ إحداها إلى الأخرى، فجعل يجمع فيها الطعام، ويقول: غارت أمكم، كلوا، فأكلوا فأمسك حتّى جاءت بقصعتها التي في بيتها، فدفع القصعة الصّحيحة إلى الرّسول وترك المكسورة في بيت التي كسرتها»⁽³⁾ وهو من العادة المتقرّرة في نفس الضرة من الغيرة، بحيث لا تقدر على دفعها،

(1) - أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في الشّجاعة، رقم الحديث 2502، ج4، المصدر السابق، ص 660. وقال: هذا حديث صحيح. وفي سنن الترمذي، تحقيق: رائد يُن صبري بُن أبي علفة، رقم الحديث 2502، (الرياض: دار الحضارة للنشر والتوزيع، ط2، 1436هـ/2015م)، ص 491.

(2) - يُنظر: محمّد جمال الدين القاسمي الدمشقي، موعظة المؤمنين في إحياء علوم الدّين، تحقيق: عاصم بهجه البيطار (بيروت: دار النَّفائس، ط1، 1401هـ/1981م)، ص-ص 298، 299.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب إذا كسر قصعة أو شيئا لغيره، رقم الحديث 2481، ص 601.

وهذا لما فيه دلالة على حسن خلقه ﷺ وإنصافه وحلمه⁽¹⁾، يعلّق الإمام ابن العربي رحمه الله عن أسلوب النبي ﷺ وحسن معالجته للموقف قائلاً: (وكأنّه إنّما لم يؤدّب الكاسرة، ولو بالكلام لما وقع منها من التعدي لما فهم أنّ التي أهدت أرادت بذلك أذى التي هو في بيتها، والمظاهرة عليها، فاقتصر على تغريمها للقصة، قال: (وإنّما يغرمها الطعام)، لأنّه كان مهدي فإتلافهم له قبول في حكم القبول)⁽²⁾ وفيه ﷺ الإشارة إلى عدم مؤاخذه الغيرة بما يصدر منها، لأنّها في تلك الحالة يكون عقلها محجوباً بشدّة الغضب الذي أثارت الغيرة⁽³⁾، كما حرص على تعليم وتوجيه الزوجة وإرشادها إلى الخير والصّواب بأسلوب لطيف وعاطفي رائع، جاء عن أنس رضي الله عنه قال: «بلّغ صفيّة أن حفصة قالت: بنت يهودي، فبكت، فدخل عليها النبي ﷺ فقال: ما شأنك؟ قالت: قالت لي حفصة إنّني بنت يهودي، فقال النبي ﷺ: إنّك لبنت نبي وإنّ عمك لنبي وإنّك لتحت نبي فبم تفخر عليك؟! ثم قال: اتقي الله يا حفصة..»⁽⁴⁾ وفي رواية كنانة قال لها النبي ﷺ: «يا بنت حيي ما يبكيك؟! قلت: بلغني أن حفصة وعائشة ينلان مني ويقولان: نحن خير منها؛ نحن بنات عمّ رسول الله ﷺ وأزواجه. قال: ألا قلت: كيف تكونان خيرا مني وأبي هارون وعمّي موسى وزوجي محمّد»⁽⁵⁾ واجه النبي ﷺ مواقف محرّجة في توجيه نسائه، فتعامل معهنّ بحكمة وروية وهدوء بعيداً عن العصبية والانفعالات والقرارات المتسرّعة، وبالذات موقف الغيرة بين زوجاته ما بين عائشة وحفصة وصفيّة، إذ لم يزد أن قال لحفصة: «اتقي الله يا حفصة» وهذا الهدوء في التوجيه والتنبية غاية في الجمال وغاية في الرّفق، أبانت جمالية أسلوب النبي ﷺ ورقة قلبه وسماحته، إذ لم يتعنّف ولم يتضجّر من موقفهنّ بل عالج الموقف بمنهج عاطفي رائع، وهذا المنهج وهذه الرؤية كفيّان بؤاد كثير من الفتن في مهدها والقضاء على الكثير من النزاعات في بدايتها خصوصاً النزاعات الزوجية، والنبي ﷺ ضرب المثل الأعلى لكلّ الأزواج في كفايات مواجهتهم لمثل هذه المواقف المحرّجة، وما أكثرها بين الزوجات، فالحكمة تعني وضع الشّيء

(1) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب إذا كسر قصعة أو شيئاً لغيره، رقم الحديث 3481، ج5، المرجع السابق، ص 135.

(2) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب إذا كسر قصعة أو شيئاً لغيره، رقم الحديث 3481، ج5، المرجع السابق، ص 137.

(3) - أميرة بنت علي الصاعدي، بحث: هدي النبي ﷺ في التّعامل مع أهل بيته، د، ت، ص 35.

(4) - أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب فضل أزواج النبي ﷺ، رقم الحديث 3894، ج6، المصدر السابق، ص 188. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، ص 187.

(5) - المصدر نفسه، ص 187.

في موضعه المناسب، بمعنى أن اللين له وقته والشدة لها وقتها، والحكيم هو من يحسن تقدير الموقف وتحديد ردة الفعل المناسبة، فإذا لم يراع ذلك فكانت القوة على طول الخط هي المسيطرة، وكان اللين المنهج الوحيد المتبع أو استخدمهما معاً في موقف آخر لتفاقت المشكلة وقد يستعصى حلها، وعليه فالداعية أمام هذا التعامل النبوي الراقي في حلّ المشكلات الزوجية الاستفادة مما يلي:

- يلتزم الهدوء والرّصانة والرّزانة في حلّ مشكلاته الزوجية.
- بجانب الإنفعال الذي يؤدي إلى تعقّد المشكلة وازدياد حجم التوتر بين العلاقات.
- يسعى جاهداً في تخلية المجتمعات من هذه الآفات السلوكية النّاسفة للودّ، فربّ كلمة لا يلقي لها صاحبها بالاً تحفر في النّفس خنادق البغضاء والشحناء.
- التزام أسلوب الحكمة فالنبي ﷺ بروحه العذبة والرّصينة استطاع بحكمته معالجة المشكل بهدوء ولين.
- أن يكون هدفه نزع فتيل الإحزن وسلامة الصّدور وإحسان الظن بالآخرين.

ج- ترغيب المرأة في الإهداء لجارتها و الإحسان إليها

عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: «يا نساء المسلمين لا تحقرنّ جارة لجارتها ولو فرسن^(*) شاة»⁽¹⁾ فقله "فرسن شاة" فيه إشارة إلى المبالغة في إهداء اليسير وقبوله لا إلى حقيقة الفرسن، لأنّه لم تجر العادة بإهدائه، أي لا تمنع جارة من الهدية لجارتها الموجود عندها لاستقلاله، بل ينبغي أن تجود لها بما تيسر وإن كان قليلاً فهو خير من العدم، يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: (أي: لا تحقرنّ أن تهدى إليها شيئاً ولو أنّها تهدى جارتها ما ينتفع به في الغالب وهو كناية عن التّحاب والتّوادد وخصّ النّهي بالنّساء لأنّهنّ موارد المودة والبغضاء ولأنّهنّ أسرع إنفعالاً في كلّ منهما)⁽²⁾ فقد دعا النبي ﷺ النّساء إلى التّهادي والتّحاب ولو باليسير، لأنّ الكثير قد لا يتيسّر كلّ وقت، فقد رفع المشقّة ومنح اليسر حتّى لا يمتنع الإهداء ويستمر التّهادي والتّحاب والألفة بين النّاس، وإذا تواصل اليسير صار

(*) - الفَرْسَن: عظم قليل اللحم، وهو خفّ البعير، الحافر للدّابة، وقد يستعار للشّاة فيقال: فرسن الشاة والذي للشّاة هو الظلّف (ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزّاوي، باب الفاء مع الرّاء (المكتبة الإسلامية، ج3، د،ت)، ص 429.

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب لا تحقرنّ جارة لجارتها، رقم الحديث 6018 (القاهرة: دار التّقوى للطباعة والنّشر والتّوزيع، ط1، 1434هـ/2012م)، ص 748.

(2) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب لا تحقرنّ الجارة لجارتها، ج4، المرجع السّابق، ص 444.

كثيراً ،ومن جهة أخرى رغبهنَّ إلى بذل الهبة والهدية عن طريق البذل والعطاء والإحسان بمن هم بجوارهن عن طريق الهدية ،والهدية بدورها لها فعل السحر في إلانة القلوب وترقيقها، تذيب ما يتراكم في القلوب من مواقف كانت سدّاً بين أصحابها، فكان ﷺ مواقف تدلي بقبوله للهدية وتعظيمها منها: كان إذا أُتي بطعام سأل عنه أهديّة أم صدقة؟ فإن قيل: صدقة قال لأصحابه: كلّوا، ولم يأكل، وإن قيل: هديّة، ضرب بيده ﷺ فأكل معهم⁽¹⁾، وقال ﷺ: «تهادوا فإنّ الهدية تذهب وحر»^(*) الصّدر⁽²⁾ وكما فعل ﷺ مع صفوان بن أمية ﷺ قبل أن يُسلم، حينما أعطاه واديّين من الإبل والغنم، فأسلم وحسن إسلامه⁽³⁾، بل وسخر كل ما يملك في خدمة الإسلام، وكان يقبل الهدية من الكفار، كهديّة كسرى، وقيصر، والمقوقس، كلّ ذلك للأثر الذي يحدثه أسلوب التّواد بالهدايا والعطايا، وبالعودة إلى حديث أبي هريرة ﷺ نجد أنّ النبي ﷺ ارتكز على مظهر مهمّ من مظاهر السُّخريّة واحتقار الآخرين والتّقليل من شأنهم، قد تفشى وانتشر بين العديد من النّساء، تتمثّل في احتقار الهدية والتّقليل من شأنها، وتخليص النفوس من هذه الآفة، فقد سهّل ﷺ على النّساء هذا الأمر، وأمرهنّ بعدم التّكلف في الهدية، كما نهى عن عدم احتقارها مهما قلّ شأنها أو رخصت قيمتها، وقد كان ﷺ يقبل الهدية، ويثيب عليها⁽⁴⁾، ويدعو إلى قبولها، ويرغب فيها، فقال في شأنها: «لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ^(*) لَأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ لَقَبِلْتُ»⁽⁵⁾ في الحديث أسلوب ترغيب النبي ﷺ في الهدية لأثرها الفاعل في النفوس والعواطف، وزرع بذور المحبة وإزالة الأحقاد بين النّاس ، وترغيبه للنّساء في النّفقة والهدية للأقارب، لما فيها من الأجر والفضل العظيم، فعن ميمونة

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب قبول الهدية، رقم الحديث 2576، ص 625.

(*) - وَحَرَ: وهو الغلُّ، والبُغض (سنن الترمذي، كتاب الولاء والهبة عن رسول الله ﷺ، باب في حثّ النبي ﷺ على التّهادي، رقم الحديث 2130، ج4، المصدر السّابق، ص 442).

(2) - المصدر نفسه، ص 442. وقال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه، وأبو معشر اسمه نجيح مولى بني هاشم وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه.

(3) - رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ما سُئل رسول الله ﷺ شيئاً قطّ فقال: «لا، وكثرة عطائه»، رقم الحديث 2311، ص 1805.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب المكافأة في الهبة، رقم الحديث 2585، ص 627.

(*) - الكُرَاع: مستدق السّاق من الغنم والبقر العاري من اللحم (يُنظَر: فتح الباري، كتاب النّكاح، باب من أجاب إلى كُرَاع، رقم الحديث 4883، ج3، ص 155).

(5) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النّكاح، باب من أجاب إلى كُرَاع، رقم الحديث 5178، ص 1319.

بنت الحارث ﷺ أنها اعتقت وليدة في زمان النبي، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «لو أعطيتها أحوالك كان أعظم لأجرك»⁽¹⁾ وتوجيهه لزينب امرأة بن مسعود ﷺ والذي جاء فيه: «زوجك وولدك أحق من تصدقت به عليهما»⁽²⁾ وبين ﷺ لمن وسائل حسن معاملة الجيران عن طريق البذل والعطاء والحرص على الإحسان إلى من حولهم لمن هم بجوارهم لتأليف قلوبهم على المحبة، كما أرشدهم إلى مراعاة الأقرب، عن عائشة ﷺ قالت: «قلت يا رسول الله إن لي جارتين فإلى أيهما أهدي قال: إلى أقربهما منك بابا»⁽³⁾ ولما للهدية والهبة من فضل كبير وأثر عظيم في النفوس فإنها تعمل على إزالة الضغائن والأحقاد والتقرب إلى الآخر بالموودة والرفق، لدرجة أن الإمام البخاري بوب في كتابه كتابا عنوانه: "كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها"، فبعد الإهداء من الحوافز النفسية التي رغب بها علماء النفس من أجل حفز المدعو على قبول ما يراد منه، وهو ما كان يدعو إليه النبي ﷺ ويستخدمه في دعوته، حيث كان يكثر العطاء والإهداء للمسلمين الجدد ولأصحابه كسبا لقلوبهم وتثبيتا لهم على الاستقامة، وإعانة لهم عند الحاجة: (فكم حوّل قلوب عدد من أعدائه من الكره إلى المحبة وبذل مواقفهم من العداوة إلى الصداقة وبذل سلوكهم من المعصية إلى الطاعة)⁽⁴⁾ لذا فهي تعتبر من الوسائل الهامة في الدعوة إلى الله لآثارها الواضحة في النفوس تذهب وحر الصدر وحقده وغيضه، يقول الإمام القرطبي رحمه الله: (الهدية مندوب إليها، وهي مما تورث المودة وتذهب العداوة... ومن فضل الهدية مع إتباع السنة أنها تزيل حزازات النفوس وتكسب المهدي والمهدي إليه رنة في اللقاء والجلوس)⁽⁵⁾ لذلك حث النبي ﷺ في أكثر من حديث على استخدامها باعتبارها وسيلة مؤدية إلى غرس مشاعر المودة والرحمة والحب بين الناس، ولا سيما بين الداعية والمدعو، فأراد أن يثبت في الأذهان فضائل الهدية وأثارها العظيمة في كسب القلوب واستمالتها والتي لا يمكن الاستهانة بها سواء على المستوى الشخصي أو الدعوي أو المجتمعي، وعليه يمكن القول بأن أحاديث النبي ﷺ ومواقفه السالفة أشارت إلى مجموعة من العبر التي يستفيد منها الداعية في حياته ودعوته وهي:

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، رقم الحديث 2592، ص 629.

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، رقم الحديث 1462، ص 356.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشفعة، باب أي الجوار أقرب؟، رقم الحديث 2259، ص 276.

(4) - الجوهرة بنت صالح بن حمود الطريفي، بحث: بعنوان الهدية وأثرها في الدعوة إلى الله، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المعهد العالي للدعوة والاحتساب، د، ت، ص 35.

(5) - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 13، المصدر السابق، ص 184.

- النهي عن الاحتقار الذي يسببه الكبر على الناس والتقليل من شأنهم، والداعية إلى الله عليه أن يوضح هذا الأمر ويطبّقه في واقعه، ويحذّر منه وينهى عنه، وقد نهى النبي ﷺ عن الكبر فقال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»⁽¹⁾ والكبر هو بطر الحق^(*) وغمط^(*) الناس⁽²⁾، كان ملمح حديث النبي ﷺ يشير بأنّ الداعية إلى الله لن يصل إلى قلوب الناس وأفئدتهم إلّا بخفض الجناح ولين الجانب، والتواضع الذي يزدّه رفعةً وعلوّاً وتمكيناً، يقول النبي ﷺ عنه: «وما تواضع أحدٌ لله إلّا رفعه الله»⁽³⁾ وقال: «ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف متضاعف لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل^(*) جواظ^(*) مستكبر»⁽⁴⁾.

- الدّعوة إلى التّهادي ولو باليسير فالهدية تجلب المودة والمحبة وتذهب الشّحناء والبغضاء وتعمل على إثارة الأحاسيس ودفع المشاعر، والنبي ﷺ لأهميتها في الدّعوة وفي العلاقات الاجتماعية عظم شأنها وأمر بها.

- أن يكون غرضه من الهدية لتأليف القلوب، وجلب المحبة وإدخال السرور على النفس خاصّة وقت الشّدائد، وتنفيس كربة أو في فرح الإنسان فهي مؤازرة.

د- ترهيب النساء من التبرج والسفور

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر، رقم الحديث 91، ص 93.

(*) - بطر الحق: هو دفعه وإنكاره ترفعاً وتجبراً (المصدر نفسه، ص 93).

(*) - غمط الناس: معناه احتقارهم (المصدر نفسه، ص 93).

(2) - المصدر نفسه، ص 93.

(3) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب استحباب العفو والتّواضع، رقم الحديث 2588، ص 2001.

(*) - عتل: وهو الشّديد الجاني، والفظ، الغليظ من الناس (ابن الأثير، النّهاية في غريب الأثر، حرف العين، ج 3، المرجع السّابق، ص 180).

(*) - جواظ: الجموع المنوّع: وقيل الكثير اللحم المختال في مشيته: وقيل القصير البطين (المرجع السّابق، ج 1، ص 316).

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الكبر، رقم الحديث 6071، ص 1520.

البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريجها، وإن ريجها ليوحد من مسيرة كذا وكذا»⁽¹⁾ في الحديث أسلوب تهيب النبي ﷺ للنساء من التبرج والسفور الذي يظهر محاسنهن وجميع مفاتهن فنجدته يُعَبَّرُ عن وضعهن بالقول: «ونساء كاسيات عاريات» فالتبي ﷺ حين ينهى النساء عن التبرج فإنه يغرس أهمية التستر والاحتشام الذي هو أحسن لهن تجلّى أمره للمرأة بالاحتشام في الصلاة عند بلوغها بقوله: «لا يقبل الله صلاة حائض إلا بخمار»⁽²⁾ فإذا كانت المرأة عند بلوغها مأمورة بالتستر والاحتشام في صلاتها وداخل بيتها فالتستر والاحتشام خارج البيت أولى من داخله، ومن ذلك لعدم التضرر والوقوع في الفاحشة التي تنجرف ورائها فتن جراء إظهار ما تيسر لهن من الزينة فيطمع من في قلبه مرض، يقول تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ⁽³⁾ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٥٩﴾ [الأحزاب: 59] فنهيه هنا دلالة على مشاعره الفذة تجاه نساء المسلمين بالخوف عليهن من الوقوع في الفواحش والمفاتن التي جرفت العديد منهن إلى مالا يُحمد عقباه، والحرص على عقتهن وطهارتهن ليعيش الأمان والعفاف، ولتجنب ذلك أبان عقوبة من كانت في صنف الكاسيات العاريات بغرض قذف الزهبة في قلوبهن فيتمسكن بالعفة والتستر، يقول الشيخ ابن باز رحمه الله: (أمر الله جميع نساء المؤمنين بإدناء جلايبهن على محاسنهن من الشعور والوجه وغير ذلك حتى يعرفن بالعفة فلا يفتتن ولا يفتن غيرهن فيؤذيهن)⁽³⁾ والدعاة مدعوون للاهتمام بفئة النساء والتوقف عند بعض الصفات التي تتصف بها المرأة مراعاة لجنسها وكيانها وضعفها البنيوي، وما تتصف به من العاطفة والرقّة والعطاء، فيستدعي منهم تكثيف نشاطهم الدعوي لهداية النساء لأن المرأة لا تزال في نظر عبّاد الشهوات والمال وسيلة لتدمير الأخلاق، وأن هداية المرأة للإسلام هو كسب لها ومنع لأية آثار سلبية تتركها في المجتمع.

المطلب الثاني: دعوة المسلمين باعتبار السن (فئة الضعفاء)

إن الحديث عن منهج النبي ﷺ في دعوته أمراً جدير بالاهتمام، لا يمكن الاستهانة به أو التقليل من شأنه، وبالرجوع إلى سيرته العطرة ﷺ نجد أنه ترك مساحة كبيرة في دعوته للكبار - الشيوخ

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات، رقم الحديث 2128، ص 1021.

(2) - أخرجه أبو داود في سننه، تحقيق: رائد بن صبري بن أبي علفة، كتاب الصلاة، باب المرأة تصلّي بغير خمار، رقم الحديث 641 (الرياض، دار الحضارة للنشر والتوزيع، ط2، 1436هـ/2015م)، ص 86.

(3) - عبد العزيز بن باز، حكم السفور والحجاب (الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية، 1410هـ/1989م)، ص 11.

والعجائز - والصغار والشباب، فكان أرحم الناس بهم، وكان يخصهم بما يتلاءم مع طبائعهم ومستوياتهم، وهو ما يوحى لنا بخيرية دعوة النبي ﷺ وشمولية خطابه الدعوي. ودعوة المسلمين في هذه الجزئية باعتبارين وهما:

- الأول: باعتبار كبار السن.

- الثاني: دعوة باعتبار الشباب وصغار السن.

أولاً: دعوة النبي ﷺ كبار السن بالمنهج العاطفي

لقد حث النبي ﷺ على العناية بكبار السن ورعايتهم، فجعلهم محل اهتمام وتكريم، وذلك لاتصافهم في هذه المرحلة من العمر بالضعف والعجز الجسدي والعقلي والأخلاقي والنفسي، فيحتاجون إلى من يخدمهم، ويقوم بشؤونهم، ويهتم بمشاعرهم وأحاسيسهم النفيسة التي لا يدركها صغار السن، ومع أن كبير السن قد إزداد خبرةً ودرايةً وحكمة، يعاني حالة من حالات الضعف في صحته وجسمه، وقد يكون في شكل آخر من أشكال الضعف الأخرى، يقول عنه المولى عز وجل في كتابه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾ [الرؤم: 54] ومع أنه ﷺ كان حسن الخلق مع جميع الناس، إلا أنه كان أشد عطفاً ورحمةً ورفقاً على كبار السن لسماهم الخاصة في هذه المرحلة التي كان النبي يتعوذ منها فقال: «اللهم إني أعوذ بك أن أردد إلى أرذل العمر⁽¹⁾» وأرذل العمر هو أخسُّه وأنقصه، لأن الإنسان تنقص فيه قواه الظاهرة والباطنة، حتى قواه العقلية تنقص، فينسى الإنسان ما كان يعلمه⁽²⁾ وقد أولى لهم ﷺ عناية خاصة ظهرت في أقواله وأفعاله على حد سواء، فعدهم - ﷺ - من خير الناس إذا حسنت أعمالهم، عن أبي بكرة ؓ أن رجلاً قال: يا رسول الله، أيُّ الناس خير؟ قال: «من طال عمره وحسن عمله»، قال: فأَيُّ الناس شر؟ قال: من طال عمره، وساء عمله⁽³⁾ ولهذا كان للنبي معاملة خاصة مع كبار السن فأولاهم الرعاية والاهتمام، ومنحهم العطف والحنان، ومع أنه ﷺ عرف بخصال رحيمة لم تشهدها البشرية على مر التاريخ، فإنه أرحم الناس بالناس وهو الذي خصّه الرحمن بالرحمة التي كانت منهجاً

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب ما يُتعوذ من الجبن، رقم الحديث 2822، ص 698.

(2) - محمد صالح المنجد، كيف عاملهم النبي ﷺ، المرجع السابق، ص 745.

(3) - أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الرُّهد، باب منه، رقم الحديث 2330، ص 463. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، صححه الترمذي والحاكم.

عاطفياً سلكه النبي ﷺ مع كبار السن، فشهد للنبي ﷺ مواقف عظيمة في التعامل مع كبار السن نذكر بعضها كالآتي:

أ- رحمة النبي ﷺ بكبار السن

إنَّ حسن التعامل مع كبار السن ضرورة شرعية وأخلاقية وإنسانية بالدرجة الأولى، نظراً لما يطرأ على المسن من تغيرات على المستوى العقلي والنفسي والجسدي والأخلاقي، ولقد بين القرآن طبيعتهم والسمات التي جبلوا عليها: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الرُّوم: 54] فكان -ﷺ- ينظر إليهم بعين الرحمة والرأفة والإحترام، وكان يرفض أن تطول الصلاة الجماعية في حضرة كبار السن -مع حبه لها وتعظيمه لقدرها- رحمة بهم بأن لا يشق عليهم، وروى أبو مسعود الأنصاري -ﷺ- أن رجلاً جاء للنبي ﷺ فقال: «والله يا رسول الله إني لا أتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان ممّا يطيل بنا، فما رأيت رسول الله ﷺ في موعظة أشد غضباً منه يومئذ ثم قال: إنَّ منكم مُنْفَرِّين؛ فأئكم ما صلي بالناس فليوجز، فإنَّ فيهم الكبير والضعيف وذو الحاجة»⁽¹⁾ وكان ممّا زخرت به سيرة النبي المصطفى ﷺ في تعامله مع كبار السن أحسن معاملة وأحسن استقبال، نجده على سبيل المثال عند استقباله للعجوز التي كانت صديقةً لخديجة رضي الله عنها، ولمّا دخلت عليه قال لها: «كيف أنتم؟، كيف حالكم؟، كيف كنتم بعدنا؟»، قالت عائشة -رضي الله عنها-: إنّها كانت تأتينا زمان خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان»⁽²⁾ ولمّا جاءه رجل شيخ كبير يدعم على عصا له، فقال: يا رسول الله إنَّ لي غدرات وفجرات^(*) فهل يغفر لي؟ قال: ألسنت تشهد أن لا إله إلا الله، قال: بلى بلى وأشهد أنك رسول الله، قال: قد غفر لك غدراتك وفجراتك⁽³⁾.

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، باب تخفيف الإمام في القيام وإتمام الركوع والسجود، رقم الحديث 270، ومسلم، كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام، رقم الحديث 466.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب حسن العهد من الإيمان، رقم الحديث 6004، ص 1507.

(*) - فجرات: جمع فجرة، وهي المرة من الفجور، وهو إسم جامع لكل شرٍّ (محمد صالح المنجد، كيف عاملهم النبي ﷺ، المرجع السابق، ص 751).

(3) - أخرجه أحمد في مسنده، باب حديث سفيان الثَّقَفِي -رضي الله عنه-، رقم الحديث 19325 (القاهرة: دار الحديث، ط 1، ج 14، 1416هـ/1995م)، ص 474. إسناده صحيح، وأشعث بن جابر الحداني موثق وحديثه عند الأربعة، وقال الهيثمي 32/1، رجاله موثقون. وقال الأرناؤوط: حديث صحيح بشواهده.

ب- توقير النبي ﷺ لكبار السن واحترامهم

التَّوقِيرُ كلمةٌ نَبيلةٌ وعظيمةٌ لِمَا تحمله من عواطف ومشاعر جلييلة، وتوقير الكبير بمعنى يكون له مكانة في النَّفس ومنزلة في القلب، والنَّبي ﷺ أفاض بالعديد من المواقف التي تدلي بتوقيره لكبار السنِّ، فكان من منطلق إنساني بحت بعيداً عن التَّمييز بين فئات المسنين على أساس الدِّين أو الجنس أو اللَّون، وهذا المنطلق مبني على أساس أنهم بشر وكلهم خلق الله وعباده، وقد تجلَّى هذا الإهتمام وهذا التَّعامل بوضوح في دعوة النَّبي ﷺ وحياته الشخصية منها عند تعامله مع كبار قريش ومناشدته في إكرام كبير السنِّ وتوقيره⁽¹⁾ جاء في قوله: «ما أكرم شاب شيخاً لسنِّه إلَّا قيص الله له من يكرمه عند سنِّه»⁽²⁾ فكان ﷺ ينظر إليهم بعين الرَّحمة والتَّقدير، حتَّى أنَّه يقدِّمه على حامل القرآن وعلى الحاكم العادل مع عظم قدرهما وسمو مكانتهما، فذات مرَّة جاءه شيخ يريد في أمرٍ، فأبطأ عليه القوم أن يوسَّعوا له، فرقَّ له رسول الله ﷺ ورحمه، وقال: «ليس منَّا من لم يرحم صغيرنا، ويوقِّر كبيرنا»⁽³⁾ فالكبير له توقير واحترام، وله منزلة وقدر، وله شأن يجب أن يُحفظ ويراعى فمن لم يوقِّر الكبير فليس من هديه ﷺ ولا على طريقته وسنِّته⁽⁴⁾ والقصة الرائعة التي رواها الإمام أحمد عن أسماء بنت أبي بكر ؓ عندما دخل النَّبي ﷺ مَكَّة أتاه أبو بكر ؓ بأبيه، وكان شيخاً كبيراً مسنّاً ليُسلم بين يديه ﷺ في البيت الحرام، فقال ﷺ: «هلاً تركت الشَّيخ في بيته حتَّى أكون أنا آتية فيه»⁽⁵⁾ فأبى وقع يكون لهذا الكلام في النَّفس، وأبى أثر يكون له في القلب ؟ إنَّها حتماً تفتح القلب على

(1) - هيفاء محمَّد الزبيدي، مقال: حول رعاية المسنين في التشريع الإسلامي، مجلَّة كُليَّة التَّربية جامعة بغداد، العدد 75، 2012م، ص 163.

(2) - أخرجه التَّرمذي في سننه، أبواب البرِّ والصَّلة، باب ما جاء في إحلال الكبير، رقم الحديث 2022، ص 547. وقال أبو عيسى: هذا حديثٌ غريبٌ لا نعرفه إلَّا من حديث الشَّيخ يزيد بن بيان، وأبو الرِّجال الأنصاري آخر، وفي بعض النسخ حسن.

(3) - محمَّد ناصر الدِّين الألباني، السَّلسلة الصَّحيحة، باب أدب الكبير مع الصَّغير، والصَّغير مع الكبير، رقم الحديث 156 (مكتبة القدوسية، د، ط، 2009م)، ص 120.

(4) - عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، حقوق كبار السنِّ في الإسلام (الرِّياض: مكتبة الملك فهد الوطنية للنشر، ط1، 1432هـ/2011م)، ص 13.

(5) - مقبل بن هادي الوداعي، الجامع الصَّحيح ما ليس في الصَّحيحين (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ج3، 1416هـ/1995م)، ص 293. وقال: هذا حديثٌ حسنٌ، الحديث أخرجه ابن هشام في السَّيرة، ج2، ص405. وابن كثير، جامع المسانيد والسُّنن، باب عباد بن عبد الله بن الزبير بن العوام عن جدته أسماء، مسند النِّساء إلى عنقودة، رقم الحديث 127465 (بيروت: دار الفكر، ط1، ج15، 1415هـ/1994م)، ص 203.

مصراعيه، وتجعله متقبلاً ومنشراحاً لما يُدعى إليه، ولذا سارع إلى الإسلام دون تردد⁽¹⁾ وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَانِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسَطِ »⁽²⁾ لقد جمع النبي ﷺ من خلال الحديث بين المسنّ وحامل القرآن والسُّلْطَانِ وقَدَّمَ المسنّ كأنَّه يقول: وقَرَّ المسنّ كما توقَّر السُّلْطَانُ والرَّئِيسُ والحاكِم، وعظَّم المسنّ كما تعظم القرآن الحاذق⁽³⁾.

ثانياً: دعوة النبي ﷺ للشباب

لأهمية هذه المرحلة العمرية في حياة النَّاسِ عموماً وحياة الدَّاعية على وجه التَّحديد، اهتمَّ النبي ﷺ بمرحلة الشَّباب أشدَّ الاهتمام، وبيَّن عظم أثرها في الدَّعوة إلى الله، وأنَّ المغنم الخمس التي ذكرها في حديثه - ﷺ - : «اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلِكَ وحياتك قبل موتك»⁽⁴⁾ فرصاً من ذهب، إذا ذهبت لن تعود فيجب استغلالها وتأمينها، لأنَّ حيوية الدَّعوة ونشاطها مرهون بهذه الفئة، لما تميَّز به من خصائص وصفات لا يمكن توفُّرها في المراحل الأخرى، يعلِّق عليها الإمام الحافظ ابنُ حجر رحمه الله بالقول: (والعاقل ينبغي له إذا أمسى لا ينتظر الصُّباح، وإذا أصبح لا ينتظر المساء، بل يظنُّ أنَّ أجله مدركه قبل ذلك، قال وقوله خذ من صحتك الخ أي أعمل ما تلقى نفعه بعد موتك وبادر أيام صحتك بالعمل الصالح فإنَّ المرض قد يطرأ فيمتنع من العمل فيخشى على من فرط في ذلك أن يصل إلى المعاد بغير زاد ولا يعارض ذلك الحديث الماضي في الصَّحيح، إذا مرض العبد أو سافر كتب الله له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً، لأنَّه ورد في حقِّ من يعمل والتَّحذير الذي في حديث ابنِ عمر رضي الله عنهما في حقِّ من لم يعمل شيئاً فإنَّه إذا مرض ندم على تركه العمل وعجز لمرضه عن العمل فلا يفيد الندم نوفي الحديث حرص النبي ﷺ على إيصال الخير لأُمَّته والحضُّ على ترك الدُّنيا والاقتصار على ما لا

(1) - عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، حقوق كبار السن في الإسلام، المرجع السابق، ص 17.

(2) - أخرجه أبو داود في سننه (4843) وقال الشيخ الألباني: هذا حديث حسن، يُنظر: حديث 2199 في صحيح الجامع.

(3) - محمد صالح المنجد، كيف عاملهم النبي ﷺ، المرجع السابق، ص 746.

(4) - محمد ناصر الدِّين الألباني، صحيح الجامع الصَّغير، رقم الحديث 1077 (المكتب الإسلامي، ط 3، ج 1، 1408هـ/ 1988م)، ص 243، ويُنظر: فتح الباري لابن حجر العسقلاني، كتاب الرِّقائِق، باب قول النبي ﷺ كن في الدُّنيا كأنَّك غريب أو عابري سبيل، ج 11، المرجع السابق، ص 235.

بد منه⁽¹⁾ والدّاعية إلى الله بدوره عليه أن يغتنم الفرص والفراغ والصّحة والشّباب والغنى قبل حصول ما يضاد هذه النعم، فإنّها إن اغتنمها كتبت له أعماله عند مفارقة هذه النعم، وأن يدعو الناس إلى أهمّيّتها بما فيها نعمة الشّباب واغتنامها في الطّاعة وعبادة الله تعالى حقّ عبادته وما يصاحبها من الأعمال الصّالحة، يقول النبي ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصّحة والفراغ»⁽²⁾ وهو السرّ الذي دفع شباب الصّحابة رضوان الله عليهم التّخلّي عن كلّ ما يربطهم بأمور الدّنيا وملذّاتها، والتّوجّه للفوز بالآخرة، فمصعب بن عمير سعى أن يترك نعيم الدّنيا ويبقى شظف العيش، ودفعت عمير بن الحمام فلم يتمالك نفسه حتّى يأكل ثمرات في يده والشّوق إلى الجنّة هو الذي دفع عبد الله بن رواحة في غزوة مؤتة ليقترح عن فرسه فيعقرها ثمّ يقابل القوم فيقتل⁽³⁾ فخلال فترة معاشته لهم أظهر شدّة اهتمامه للشّباب، وتربيتهم وإعدادهم لتحملّ المهام الكبرى في إدارة الدّعوة وتسييرها، فكانوا أنموذج صدق يشهد لهم التاريخ الإسلامي شهد لهم مواقف مليئة بالتّضحيات والبذل والعطاء من أجل نصرة دعوة النبي ﷺ وما نريد التّركيز عليه في هذه الجزئية هو كيف تعامل النبي ﷺ مع الشّباب؟ وكيف استخدم معهم منهجه العاطفي في دعوتهم للإيمان قبل البعثة وبعدها، والسّيرة النبويّة شهدت أروع الأمثلة في علاقات النبي مع الشّباب وطريقة معاملته لهم قبل البعثة وبعدها، ممّا حبّبهم إليه وألّفهم عليه، وفي نفس الوقت أثبتت مثاليّة أخلاق النبي ﷺ ومنهجه في دعوة الشّباب، وقد تأثّر به كلّ من خالطه وعاش معه.

أ- مراعاة النبي ﷺ مشاعر الشّباب وعواطفهم

من منهج النبي ﷺ العاطفي مراعاة أحوال النّاس ومشاعرهم وبخاصّة الشّباب، فكان لشدّة حبّه لعليّ عليه السلام يدعوّه بأحبّ الأسماء إليه، فعن سهل بن سعد عليه السلام قال: «ما كان إسماً أحبّ إليه من أبي تراب، وإن كان ليفرح إذا دعي به»⁽⁴⁾ وكان عليه الصّلاة والسّلام يغيّر الأسماء إلى أحسن منها،

(1) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الرّقائق، باب قول النبي ﷺ كن في الدّنيا كأنّك غريب أو عابري سبيل، رقم الحديث 6416، ج 11، المرجع السّابق، ص 235.

(2) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الرّقائق، باب ما جاء في الرّقائق وأنّ لا عيش إلّا عيش الآخرة، رقم الحديث 6412، المرجع السّابق، ص 229.

(3) - سليمان بن قاسم بن محمد العيد، المنهاج النبوي في دعوة الشّباب (دار العاصمة للنّشر والتّوزيع، 1433هـ/2012م) ص-ص 255، 257.

(4) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن، رقم الحديث 2140، ص 1686.

كما غيّر إسم سهل بن سعد من حزن إلى سهل، وعاصية إلى جميلة، وبرة إلى جويرية⁽¹⁾ وفي موقف آخر فقد راعى مشاعر أبي هريرة ؓ وسعى في طلبه وقضاء حاجته في أروع مشهد قد تقشعر له الأبدان يرويه أبي هريرة ؓ فيقول: « كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوها يوماً فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي، قلت: يا رسول الله: إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى عليّ، فدعوها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة، فقال رسول الله ﷺ: اللهم اهْدِ أم أبي هريرة، فخرجت مستبشرة بدعوة نبي الله ﷺ، فلما جئت فصرت إلى الباب، فإذا هو مجاف^(*)، فسمعت أمي خشف^(*) قدمي، فقالت: مكانك يا أبا هريرة وسمعت خضخضة^(*) الماء، قال: فاعتسلت، ولبست دِرْعَهَا، وعجلت عن خمارها، ففتحت الباب، ثم قالت: يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأتيته وأنا أبكي من الفرح، قال: قلت: يا رسول الله أبشر، قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبي هريرة، فحمد الله وأثنى عليه، وقال خيراً، قال: قلت يا رسول الله: ادع الله أن يحبني أنا وأمّي إلى عباده المؤمنين، ويحبهم إلينا قال: فقال رسول الله ﷺ: اللهم حبّ عبّيدك هذا وأمّه إلى عبادك المؤمنين، وحبّ إليهم المؤمنين، فما خلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني⁽²⁾ » ونجده ﷺ في إحدى غزواته قد راعى مشاعر شباب الصحابة وأحاسيسهم حيث أمرهم بالرجوع إلى أهليهم، لما رأى شوقهم إلى أهليهم، عن أبي سليمان مالك بن الحويرث قال: « أتينا النبي ﷺ ونحن شبة متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلةً، فظنّ أننا اشتهينا أهلينا، فسالنا عن من تركنا في أهلينا؟ فأخبرنا - وكان رفيقاً رحيماً - فقال: ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم ومروهم، وصلّوا كما رأيتموني أصلي، فإذا حضرت الصلاة، فليؤدّن لكم أحدكم، وليؤمّمكم أكبركم⁽³⁾ » وعن أبي الحميساء قال: تابعت النبي ﷺ

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب ؓ، رقم الحديث 2409، ص 1874.

(*) - مجاف: بمعنى مغلق (أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب ؓ، رقم الحديث 2409، ص 1939).

(*) - خشف: أي: صوتهما في الأرض (المصدر نفسه، ص 1939).

(*) - خضخضة: خضخضة الماء صوت تحريكه (المصدر نفسه، ص 1939).

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي هريرة ؓ، رقم الحديث 2491، ص 1938.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب تحريض النبي ﷺ وفد عبد القيس على أن يحفظوا الإيمان والعلم، ويخبروا من وراءهم، رقم الحديث 87، ص 34. وكتاب الأذان، باب الأذان للمسافرين إذا كانوا جماعة والإقامة، رقم الحديث 631، ص 159. وكتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم الحديث 6008، ص 1507. وكتاب: أخبار الأحاد، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة، رقم الحديث 7246، ص 1791.

قبل أن يبعث فواعده مكاناً فنسيته يومي والغد، فأتيته اليوم الثالث، فقال ﷺ: «يا فتى لقد شققت علي، أنا هاهنا منذ ثلاثة أيام»⁽¹⁾ وعن ابن عباسٍ ﷺ قَالَ: قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفَدَّ مِنْ الْعَرَبِ فِيهِمْ شَابٌّ فَقَالَ الشَّابُّ لِلْكُھُولِ: اذْهَبُوا فَبَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَحْفَظُ لَكُمْ رَحَالَكُمْ، فَذَهَبَ الْكُھُولُ فَبَايَعُوهُ ثُمَّ جَاءَ الشَّابُّ فَأَخَذَ بِحَقْوِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَسْتَجِيرُكَ مِنَ النَّارِ فَقَالَ الْقَوْمُ: دَعُهُ يَا غَلَامُ فَقَالَ: «وَالَّذِي بَعَثَهُ لَا أَتْرُكُهُ حَتَّى يُخْرِجَنِي مِنَ النَّارِ فَأَتَى جَبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَجِرْهُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَجَارَهُ»⁽²⁾ أضف إلى ذلك ما كان يقابلهم به رسول الله ﷺ من الشُّرور وطلاقة الوجه - وهو سيّد البشر - فيروي جرير بن عبد الله ﷺ فقال: «ما حببني النبي ﷺ منذ أسلمت ولا رأيي إلّا تبسّم في وجهي...»⁽³⁾ كان النبي ﷺ كثير الابتسامة مع شباب الصّحابة رضوان الله عليهم، ولفظة: (ما رأيي) دلالة الاستمرار، ومع أشغاله واهتماماته الواسعة عليه الصّلاة والسّلام إلّا أنّ أصحابه لم يفتقدوه حتّى في تهلّل أسارير وجهه⁽⁴⁾، فقال عنه عبد الله بن الحارث ﷺ: «ما رأيت أحداً أكثر تبسّماً من رسول الله ﷺ»⁽⁵⁾ وفي الإطار نفسه نجد النبي ﷺ يشفق على عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ عندما أخذه حماس الشّباب في قراءة القرآن كاملاً كلّ ليلة، فلما علم بذلك رسول الله ﷺ قال له مشفقاً عليه: «إني أخشى أن يطول عليك الزّمان وأن تمل فاقراه في شهر، فقلت دعني أستمع من قوتي وشبابي، قال: فاقراه في عشرة، قلت: دعني أستمع من قوتي وشبابي، قال: فاقراه في سبع، قلت: دعني أستمع من قوتي وشبابي فأبى»⁽⁶⁾ وامتلأت عاطفة النبي ﷺ تجاه شباب الصّحابة مقاسمتهم مشقّة السّفر والمشاركة الوجدانية فيما بينهم يرويها عبد الله بن مسعود ﷺ فقال: «أنّ رسول الله ﷺ كان زميله يوم بدرٍ عليّ وأبو لبابة فإذا حانت عقبة رسول الله ﷺ قالوا:

(1) - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في العدة، رقم الحديث 4996، المصدر السّابق، ص 620. وقال أبو داود: هذا الحديث ضعيف الإسناد.

(2) - شعب الإيمان للبيهقي، باب 11 من شعب الإيمان، في الخوف من الله، رقم الحديث 721 (الرّياض: مكتبة الرّشد للنّشر والتّوزيع، ط 1، ج 2، 1423هـ/2003م)، ص 198. وقال البيهقي: إسناده ضعيف.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب ذكر جرير بن عبد الله البجلي ﷺ، رقم الحديث 3822، ص 936.

(4) - سعيد بن محمّد آل ثابت، المنهج النبوي في التّعامل الرّبوبي، المرجع السّابق، ص 17.

(5) - أخرجه التّرمذي في سننه، كتاب المناقب، باب في بشاشة النبي ﷺ، رقم الحديث 3641، مج 6، المصدر السّابق، ص 30. وقال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

(6) - أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب إقامة الصّلاة، باب في كم يستحبُّ يختم القرآن، رقم الحديث 1346، ص 202. وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ.

اركب يا رسول الله حتى نمشي عنك، فيقول: ما أنتما بأقوى مني ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما»⁽¹⁾ وكان ﷺ يواسيهم ويهون من حزنهم فلمّا توفّي والد جابر بن عبد الله رضي الله عنهما وحزن عليه جابر وازداد همّه لما ترك والده من عيال ودين، لقيه النبي ﷺ على هذه الحال فقال: «يا جابر، ما لي أراك منكسراً؟ قال جابر ﷺ: قلت: يا رسول الله استشهد أبي وترك عيلاً وديناً، قال: أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: ما كلم الله أحداً قطّ إلا من وراء حجاب، وكلم أباك كفاحاً، فقال: يا عبدي، تمنّ عليّ أعطك، قال: يا ربّ تُحييني فأقتل فيك ثانية، فقال الربّ سبحانه، إنّهُ سيق مني أنّهم إليها لا يرجعون، قال: يا ربّ، فأبلغ من ورائي، قال: فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: 169]»⁽²⁾ ليتأمل الدّاعية هذا الموقف كيف أحسن النبي ﷺ بما يحتاجه جابر بن عبد الله ﷺ من دعم معنوي وماديّ بعد عودته متعباً من غزوة ذات الرّقاع، وجابر ﷺ أهل لهذه العناية في هذه الأيام بالذّات، فقد قُتل أبوه في معركة أُحُد، وهو سيّد من سادات الأنصار، وقد خلّف وراءه تبةً ثقيلة تحمّلها ابنه الأكبر هذا وحده، وترك الأبّ لولده مهمّة رعاية البنات اليتم، وقد بلغ عددهنّ سبعا، على فقر وشظف، وكان أجدر بغير جابر أن يتخلف عن مثل هذه الغزوة؛ متعللاً بهذه المسؤولية الأسرية الصعبة، ولو تخلف مثل جابر لكان له في ذلك ألف عذر، ولكنها أسرة مسلمة مجاهدة، ورُبّها مجاهد ابن مجاهد، ومن يشابه أباه فما ظلم⁽³⁾ فمن خلال النّماذج السّالفة الذّكر اتّضحت خاصيّة فذة ارتسمت في شخصيّة النبي ﷺ متمثلة في خلق الرّفق ورعاية مشاعر الشّباب وعواطفهم، وهم الذين أولى لهم كلّ الاهتمام والرّعاية وهذا سرٌّ من أسرار نجاح دعوته فقد ساهم في استقطاب أعداد هائلة مثلوا القواعد الصّلبة لبناء بيضة الإسلام، وهو ما يجب أن يعمل به الدّعاة والقادة والعلماء إذا ما أرادوا العزة لهذه الدعوة استقطاب فئة الشّباب، بالعمل على مداراتهم وتهيئتهم وكسبهم نحو التّدين الصّحيح ومنهجه القويم ﷺ.

ب- معاملة النبي ﷺ الشّباب باللين والألفة

وفي إطار الحديث حول معاملات النبي ﷺ للشّباب وعلاقاته الطّيبة معهم، كانت علاقة ألفة ومحبة في أعلى درجاتها، فنجدّه يقضي حوائجهم، ويتواضع معهم، ويجيب دعوتهم، ويزورهم، ويشهد جنازتهم، ويدعو لهم، ويشفق عليهم ويشعر بآلامهم، فجاءه ذات مرّة سلمان الفارسي ﷺ حين

(1) - أخرجه أحمد في مسنده، مسند عبد الله بن مسعود، مج 1، رقم الحديث 3807.

(2) - محمّد مسعد ياقوت، السّيرة النبوية صور تربوية وتطبيقات عمليّة (دار البشير للثقافة والعلوم، ط 1، 2010م)، ص 260.

(3) - المرجع نفسه، ص 260.

قدم المدينة بمائدة عليها رطب فوضعها بين يديه، فقال له رسول الله ﷺ: « ما هذا يا سلمان؟ قال: صدقة عليك وعلى أصحابك، قال: ارفعها فإننا لا نأكل الصدقة، فرفعها، فجاء من الغد بمثله، فوضعه بين يديه يحمله، فقال: ما هذا يا سلمان؟، فقال: هديّة لك، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: ابسطوا...»⁽¹⁾ ومن ثمّ قال أنس رضي الله عنه محدثاً عن أثر هذه المعاملة من النبي ﷺ: «إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلاّ الدنيا، فما يسلم حتّى يكون الإسلام أحبّ إليه من الدنيا وما عليها»⁽²⁾ ومن صور معاملته ﷺ مزاحه مع شباب الصحابة رضي الله عنهم، فعندما رأى صهيب رضي الله عنه وهو يأكل تمرّاً، وبعينه رمداً، فقال ﷺ: «أتأكل التمر وبك رمداً؟، فقال صهيب: إنّما أكل على شقيّ الصّحيح ليس به رمداً، فضحك رسول الله ﷺ»⁽³⁾ ومن عناية النبي ﷺ بالشباب ما كان يعاملهم به من التقدير لحقوقهم والإعتراف بمكانتهم، ودليل ذلك ما يرويه سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أنّ نبيّ الله ﷺ أتى بشرابٍ فشرب منه وعن يمينه غلام وعن يساره الأشياخ فقال للغلام: «أتأذن لي أن أعطي هؤلاء فقال الغلام: لا والله يا رسول الله، لا أؤثر بنصيبك منك أحداً، قال: فتلّه رسول الله ﷺ في يده»⁽⁴⁾ ليتأمل الداعية قوة هذا الموقف في إبراز ملمح الجمال الرّوحي والغدّ للنبي ﷺ والذي لم يشهد التاريخ مثله في أخلاقه وطواعية روحه العذبة تجاه من خالطه أو عاشه من الناس، فكان يعلي من شأن أيّ كان منهم، لا يحتقرهم مهما قلّ شأنهم أو ضعف، بحيث نجده ﷺ في هذا الموقف المثير والرّائع مع غلام صغير -والقصّة مشهورة- لم يحتقر هذا غلام لصغر سنّه، بل اعترف له بحقّه الذي شرعه له الإسلام، لأنّه عن يمين النبي ﷺ، فاستشاره في تقديم الشّراب إلى من هو أكبر منه سنّاً، ومن له مكانة عند المسلمين، إلى أفضل هذه الأمّة بعد نبيّها وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه. فأثر الغلام أن يشرب بعد رسول الله ﷺ فأعطاه الرسول ﷺ فشرب.

(1) - أخرجه أحمد في مسنده، ج16، رقم الحديث 22893، ص 493، وقال أحمد: إسناده صحيح، وكذا صحّحه الحاكم 16/2، ووافقه الذهبي، ورواه أحمد والبخاري ورجاله رجال صحيح، وهو عند الطبراني في الكبير 228/6، رقم الحديث 6070، والبيهقي 321/10.

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً إلاّ أعطاه، رقم الحديث 2312، ص 1805.

(3) - أخرجه ابنُ ماجه في سننه، كتاب الطبّ، باب الحميّة، تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي، رقم الحديث 3443، (دار إحياء الكتب العربية، ج2، د، ت)، ص 1139. إسناده صحيح رجاله ثقات، وقال الألباني: حديث صحيح. وقال الحاكم في المستدرک، ج3، ص 451، ج4، ص 456، هذا الحديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في التلخيص.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأشربة، باب هل يستأذن الرجل من عن يمينه في الشرب ليعطي الأكبر، رقم الحديث 5620، ص 1426.

ج- ترغيب الشباب بفضيلة الزواج

الزَّوْج سكن ومودَّة ورحمة وعقَّة وطهارة واستقرار، وهو الوسيلة والمنفذ الوحيد للحدِّ من الثَّوْرَة الجنسية التي وضعها الله تعالى في الرِّجال والنِّساء من أجل إستمرار الحياة وعمارة الأرض، وقد رَغِبَ النبي ﷺ الشَّباب في الزَّواج خوفاً عليهم من الوقوع في الفساد والرَّذيلة، فدعاهم إلى التَّعَفُّف بالزَّواج، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «يا معشر الشَّباب، من استطاع منكم الباءة فليتزَّوج فإنَّه أغضُّ للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصَّوم فإنَّه له وجاء»⁽¹⁾، لأنَّ الزَّواج ليس وسيلة لحفظ النَّوع الإنساني فحسب، بل هو وسيلة للاطمئنان النَّفسي والهدوء القلبي والسُّكون الوجداني فلذلك اعتبر من صرف شهوته بغير سبيل الزَّواج من المعتدين، يقول تعالى:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: 5] ثمَّ استثنى فقال: ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: 6] كان عليه الصَّلَاة والسَّلَام حريصاً في دعوته للشَّباب يوجِّههم إلى ما ينفعهم ويحذِّرهم من الولوج في المحارم والشَّهوات، ودعاهم إلى التَّحصن والبعد عن مكائد الشَّيْطان وهوى النَّفس، مبيِّناً إلى أنَّ الحلَّ الأمثل لإطفاء جذوة الغريزة هو الزواج، وهو الذي يتوافق تركيبة الإنسان وطبيعته رجلاً كان أم امرأة، وهذا الزَّواج يحتاج لمؤونة لا يقدِّر عليها الجميع، فأشار إلى أنَّ العلاج الأمثل في هذه الحالة هو الصَّوم، ففيه تقليلٌ لطاقة الجسم وتخفيف من حدَّة الشهوة الجنسية يقول الإمام العيني رحمه الله معلِّقاً: (ذلك أنَّ الله تعالى أحلَّ النِّكاح وندب نبيِّه ﷺ إليه ليكونوا - أي الشَّباب - على كمال من دينهم وصيانة لأنفسهم من غضِّ أبصارهم وحفظ فروجهم ثمَّ أعلم أنَّ النَّاس كلُّهم لا يجدون طويلاً إلى النَّساء وربَّما خافوا العنت بعقد النِّكاح فوجَّههم إلى ما يقطع شهواتهم وهو الصَّيام فإنَّه وجاء وهو مقنع للانتشار وحركة العروق التي تتحرَّك عند شهوة الجماع)⁽²⁾ فكان عليه الصَّلَاة والسَّلَام يعلم خطورة الشَّباب حينما يوقد بنار الشَّهوة والملذَّات فأراد أن يدعوهم إلى التَّعَفُّف من زنى البصر أو السَّمع أو القلب أو الفرج، الذي اعتبره ﷺ الانتصار عليه، يضمن للشَّباب دخول الجنَّة⁽³⁾ والدَّلِيل على ذلك ما جاء عن ابن عبَّاس وعن أبيه رضي الله

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النِّكاح، باب من لم يستطع الباءة فليصم، رقم الحديث 5066، ص 1293.

(2) - العيني، عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، المجلد 9، المرجع السَّابق، ص 31.

(3) - يُنظَر: طالب بن عمر بن حيدرة الكثيري، وصايا الرُّسول ﷺ للشَّباب، محاضرة أُلقيت بمسجد الفاروق بسيئون، 1427هـ،

عنهما قال رسول الله ﷺ: «يا معشر قريش احفظوا فروجكم ولا تزنوا إلا من حفظ فرجه فله الجنة»⁽¹⁾.

د- مواقف النبي ﷺ على أساس الزواج

كان للنبي ﷺ مواقف رائعة في التعامل على أساس الزواج، فجعله وسيلة من وسائل الدعوة إلى الله بغرض تأليف خصومه وتقريبهم للإسلام، يُبين ذلك من خلال زواجه من صفية بنت حيي ابنة أكبر أعداء الإسلام فزواجه ﷺ منها كانت له آفاق أبعد وأعمق إذ أنه ربط زواجه بأمة كاملة إذ قال: «استوصوا بالقبط خيراً فإن لي فيهم نسباً وصهرًا، وزواجه من ميمونة بنت الحارث الهلالية في تقرب قلوب قريش بعد عمرة القضاء»⁽²⁾ إذا قال لهم عندما جاءوا لإيذائه بالخروج من مكة «وما عليكم لو تركتموني فأعرست ... أرضنا»⁽³⁾ وفي موقف آخر منع علي بن أبي طالب من زواجه بثانية، لأسباب قد تأثر على دعوته وتثير الدعايات للمساس بمكانة ابنته فاطمة رضي الله عنها، فأنكر أن تجتمع ابنته فاطمة ببنت أبي جهل العدو اللدود للنبي ﷺ، وذلك مراعاة لمشاعرها وتجنب إثارة غضبها وحفاظاً على مكانتها ومنزلتها، وهذا من أروع مظاهر رحمة النبي ﷺ في مناسبات الزواج، فلمّا سمعت بذلك، أتت النبي ﷺ، فقالت له: إن قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علي ناكحاً ابنة أبي جهل، فقام النبي ﷺ حين تشهّد، ثم قال: «أمّا بعد، فإنّي أنكحت أبا العاص بن الربيع، فحدّثني فصّدّقني، ووعدني فوقّي لي، وإمّا فاطمة بضعة منّي يؤذيني ما آذاها، وإمّا والله لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدوّ الله عند رجل واحد أبداً»⁽⁴⁾ فترك علي الخطبة، وقد ذكر العلماء جملة من الأسباب التي من أجلها منع النبي ﷺ علي بن أبي طالب من هذا الزواج لأربعة أمور: أن في هذا الزواج إيذاءً لمشاعر فاطمة التي هي قطعة منه، وإيذاؤها اعتبره إيذاءً للنبي ﷺ، وقد بيّن ذلك قوله من ظاهر الحديث ، وخشية الفتنة على فاطمة في دينها كما جاء في رواية البخاري في

(1) - محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم الحديث 2696، ج6، المرجع السابق، ص 440. والبيهقي في شعب الإيمان، 119/2، عن طريق شدّاد بن سعيد، وقال الحاكم: "صحيح على شرط مسلم، وأمّا المنذري فنقل عنه في الترغيب، 197/3، أنّه قال: صحيح على شرطهما.

(2) - منير محمد الغضبان، المنهج الحركي للسيرة النبوية (الأردن: مكتبة المنار، القسم الثالث، د، ط، د، ت)، ص-ص 13، 14.

(3) - رجائي عطية، السيرة النبوية في رحاب التنزيل (دار المعارف، مج4، ط1، 2003م)، ص 309.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فرض الخمس، باب ما ذكر من درع النبي ﷺ وعصاه وسيفه وقذحه وخاتمه وما ستعمل الحفاء بعده من ذلك، رقم الحديث 3110، ص 766. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة بنت النبي ﷺ، رقم الحديث 2449، ص 1904.

الحديث 3110، «وأنا أتحوِّف أن تُفتَرَ في دينها»⁽¹⁾ فحشي النبي ﷺ أن تدفعها الغيرة لفعل ما لا يليق بحالها ومنزلتها، وهي سيِّدة نساء العالمين وتعظيمًا لحقِّ فاطمة وبيانًا لمكانتها ومنزلتها في قلبه. وعلى للشَّباب إتحاذ الرِّواج وسيلة من وسائل تقرب القلوب وتألّفها لما يدعو إليه.

ثالثًا: دعوة النبي ﷺ صغار السنّ بالمنهج العاطفي

صغار السنّ هم الذُّكور والإناث دون سنّ البلوغ وفوق سنّ التَّميِّز، وهم صنف في غاية الأهمِّية، لأنَّهم جيل الأُمَّة الصَّاعِد ومُستقبلها، والنَّبي ﷺ خصَّص لهم مساحات واسعة من دعوته في التَّربية والتَّوجيه والتَّعليم، فقدَّم منهمجًا أمثلَ يشمل كافة الطُّرق والأساليب التي خصَّها عند التَّعامل مع الصِّغار، فارتكز أساسًا على رعاية المشاعر ومراعاة الميول، والدَّاعية إلى الله مدعوًّا لتفهُم هذه النَّفسيات وهذه الطَّبائع بأسلوب عاطفي يضاهي الأسلوب النَّبوي، سيتمُّ عرض بعض قبساته بعد ذكر دواعي استحقاق هذه الفئة النَّاشئة للعناية النَّبوية وهي كالآتي:

- لكَونِ أَهْم حَسَّاسُونَ شَفَّافُونَ يَتَأَثَّرُونَ بِأَبْسَطِ الْأُمُور لِأَهْم مَحْبُونٌ لِلْحَوَارِ وَالْقَصَصِ.

- أَهْم بِحَاجَةٍ إِلَى مَنْ يَقْتَدُونَ بِهِ لِأَن طَبَائِعَهُمْ فِي التَّقْلِيدِ.

- أَنَّهُ لَا يَجُوزُ تَرْكُهُمْ وَإِهْمَالُهُمْ⁽²⁾.

وإذا تدبَّرنا دعوة النَّبي ﷺ لوجدنا أَنَّهُ كَانَ شَدِيدَ الْإِهْتِمَامِ بِصِغَارِ السَّنِّ، مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ دَعَا إِلَى تَهْدِيهِمْ وَغَرَسَ الْقِيَمَ الْفَاضِلَةَ فِي نَفُوسِهِمْ، وَحَثَّ عَلَى رَحْمَتِهِمُ وَالشَّفَقَةِ عَلَيْهِمْ، إِذْ يَرَاهُمْ أَحْوَجَ النَّاسِ إِلَى هَذِهِ الْعِنَايَةِ، فَيَحْيِي فِي نَفُوسِهِمُ الْحُبَّةَ لِمَنْ يَتَوَدَّدُ إِلَيْهِمْ وَيَدَاعِبُهُمْ وَيَحْسِنُ رِعَايَتَهُمْ، وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْوَةً عَزَّ مِثْلُهَا عَلَى الصَّعِيدِ الْعَاطِفِي مَعَ جَمِيعِ بَنِي الْبَشَرِ وَلَا سِيَّمَا مَعَ صِغَارِ السَّنِّ، فَكَانَ عَلَى الدَّوَامِ مَفْعَمًا بِالْعَاطِفَةِ وَالرَّحْمَةِ، فَنَجَدُهُ ﷺ يَرْأَفُ بِهِمْ، وَيَحْسِنُ مَدَاعِبَتَهُمْ وَمَلَاظَمَتَهُمْ، فَمُبَادِرَاتِهِ ﷺ وَمَوَاقِفُهُ مَعَ هَذِهِ الْفَتَى كَثِيرَةٌ وَمُمْتَعَةٌ تَحْتَاجُ إِلَى تَفْعِيلٍ وَتَطْبِيقٍ فِي وَاقِعِ الْأَسْرِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْيَوْمَ، لِذَا أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ خِلَالِ مَنْهَجِهِ الدَّعْوِي وَالْعَاطِفِي تَحْسِيدَ هَذِهِ الْمَشَاعِرِ وَهَذِهِ الْعَوَاطِفِ فِي وَاقِعِ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ، وَحَثَّهُمْ عَلَى جَعْلِهَا سَلُوكًا مُسْتَمَرًّا فِي تَعَامُلِهِمْ مَعَ الْأَبْنَاءِ، فَشَوَّهَدَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ مَعَهُمْ فِي سَاحَاتِ اللَّعْبِ، فَهَذَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: « مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَرْحَمُ بِالصِّغَارِ

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فرض الخمس، باب ما ذكر من درع النبي ﷺ وعصاه وسيفه وقُدْحِهِ وَخَاتَمِهِ وَمَا سَتَعْمَلُ الْخَفَاءُ بَعْدَهُ مِنْ ذَلِكَ، رَقْمُ الْحَدِيثِ 3110، ص 766.

(2) - بِسَّامُ الْعُمُوشُ، فَهْهُ الدَّعْوَةُ، الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 71.

من رسول الله ﷺ، وكان ابنه إبراهيم في حضانة مرضعة تقطن التلال المحيطة بالمدينة، فكان النبي ﷺ يذهب إليه وكناً نرافقه، وكان يدخل البيت ويرفع ابنه ويقبله ثم يعود⁽¹⁾ ولعل أبرز مواقف مع أحد أحفاده ومع أبناء الصحابة رضوان الله عليهم، ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قَبِلَ رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبّلت أحداً»⁽²⁾ وعليه فقد نوع النبي ﷺ في تعامله مع صغار السن بأساليب عاطفية عذبة نذكر منها كالاتي:

أ - تعليم الصغار ودعوتهم إلى القيم والأخلاق برفق وحكمة

إهتم النبي ﷺ بالصغار ولم يغفل هذه الفئة الناشئة فقد سخر لهم مساحة واسعة من رحمته ﷺ، فلم يقتصر على مداعبتهم وممازحتهم وملاطفتهم فحسب، بل تعدى ذلك أن إهتم بتعليمهم ودعوتهم إلى ما ينفعهم وبما يتناسب مع أحوالهم وطاقتهم، يروي ابن عباس رضي الله عنهما: «كنت خلف النبي ﷺ فقال: يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام، وجفت الصحف»⁽³⁾ لقد تجلّت دعوة النبي ﷺ من خلال هذا الحديث إلى غرس القيم والأخلاق الفاضلة في نفوس الصغار وتربيتهم على فهم أصول الإيمان والعمل بأحكام الدين وتعويدهم على المراقبة والمحاسبة منذ الصغر، مستخدماً أساليب رائعة ولطيفة في تعليمهم، من خلال تشويقهم وتهيتهم بلطف العبارة ولين الجانب، يقول الإمام ابن رجب رحمه الله معلّقاً: (وهذا الحديث يتضمن وصايا عظيمة وقواعد كلية من أهم أمور الدين حتى قال بعض العلماء تدبّرت هذا الحديث فأدهشني وكدت أطيش فوا أسفي من الجهل بهذا الحديث وقلة التفهم لمعناه)⁽⁴⁾ إلى جانب معاملة النبي ﷺ العاطفية للصبيان الصغار كان لا يمنع من تصويب أخطائهم وتعليمهم بالتي هي أحسن وبما يتناسب مع سنّهم، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الحسن بن علي رضي الله عنهما أخذ تمرّة من تمر الصدقة فجعلها في فيه، فقال النبي ﷺ -بالفارسية-: «كخ كخ أما تعرف أننا لا نأكل الصدقة»⁽⁵⁾ وعن زينب

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب رحمة النبي ﷺ للصبيان والعيال، رقم الحديث 2316، ص 1808.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله، رقم الحديث 5997، ص 1505.

(3) - ابن رجب، جامع العلوم والحكم، تحقيق: ماهر ياسين الفحل (بيروت: دار ابن كثير، ط 1، 1429هـ/2008م)، ص 432.

(4) - عبد الرحمن بن شهاب الدين زين الدين أبو الفرج ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخر (مؤسسة الرسالة، ط 4، ج 1، 1412هـ/1992م)، ص 462.

(5) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ما يذكر في الصدقة للنبي ﷺ، رقم الحديث 1491، ص 363.

بنت جحش ؓ أُمَّا دخلت على رسول الله ﷺ وهو يغتسل قالت: فأخذ حفنة من ماء فغسل بها وجهي وقال: «وراءك أيُّ لكاع»⁽¹⁾ أراد النبي ﷺ أن يشير إلى أنَّ صغر الصَّغِير لا يمنع من تصويبه وتعليمه، بل ذلك من إحسان تربيته والتي تعدُّ من أعظم الواجبات التي حثَّ عليها القرآن يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: 6] فاستوقف الحديث على دالتين :

الحديث الأول: تعليم الطفل على الورع فقد كان حريصاً على تربية ولده على ترك الحرام والأكل من الصدقات، فلم يقل بأنه غير مكلف بل أدبه ورباه لينشأ على العمل الصَّالح، وأنَّ تربية الأولاد تحتاج من الولي أن يكون رحيماً رفيقاً بهم، يربِّيهم على الخير برفقٍ مستصحباً معه حسن الخلق، فهكذا كان النبي ﷺ يربِّي ولده برفقٍ فلا يشتمه ولا يؤذيه بالصُّراخ ورفع الصَّوت، بل كان يلاطفه ويؤانسه حتَّى يتعلَّم بحبٍّ، فيثمر التَّعليم قناعة في قلبه وعقله، عن جابر بن سمرة رضي الله عنهما قال: «صَلَّيتُ مع رسول الله ﷺ صلاة الظهر، ثمَّ خرج إلى أهله وخرجت معه، فاستقبله ولَدَانُ فجعل يمسح خَدَّي أَحَدِهِم واحداً واحداً قال: وأمَّا أنا فمسح خَدَّي قال: فوجدت لِيَدِهِ بَرْدًا أو رِيحًا كَأَمَّا أَخْرَجَهَا من جُؤْنَةِ عَطَّارٍ^(*)»⁽²⁾ وأما الحديث الثاني: فيه تعليم الصَّغار الأدب في الاستئذان وعدم الإطَّلاع على العورات ،ومن المواقف الرَّائعة قصَّته ﷺ مع الغلام الصَّغِير عمر بنُ سلمة ؓ، فقد روى البخاري عنه قال: كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ وكانت يديّ تطيش في الصَّفحة فقال

(1) - سليمان بنُ أحمد بنُ أيوب بنُ مطير اللخمي الشَّامي، أبو القاسم الطَّبْراني، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بنُ عبد المجيد السلفي، باب الرَّاْي، باب زينب بنت أبي سلمة بنُ عبد الأسد المخزومي، رقم الحديث 712 (القاهرة: مكتبة ابنُ تيمية، ط2، ج24، د، ت)، ص 281. وقال: إسناده حسن.

(*) - جؤنة عطار: "بضم الجيم"، وسكون الهمزة- ويقال: بواو ساكنة، تليها نون، وهاء تأنيث- شبه صندوق صغير مغشَّى بجلد، وزند مستدير يضع العطار فيها عطره، وهو كل ما طابت رائحته، أي: كان ريحها ريح ما أخرج من جؤنة العطار مضمجاً بالعطر، والجملة صفة ريحاً أو مستأنفة، (أحمد شهاب الدِّين بنُ مُحَمَّد الزرقاني المالكي (دار الكتب العلمية، ط1، ج5، 1417هـ/ 1996م)، ص 452، وفي شرح آخر - كأنما أخرجت من جؤنة عطار- هي بضم الجيم وهمزة بعدها، ويجوز ترك الهمزة بقلبها واوا كما في نظائرها، وقد ذكرها كثيرون، أو الأكثرون في الواو. قال القاضي: هي مهموزة، وقد يترك همزها. وقال الجوهري: هي بالواو، وقد تهمز، وهي السقط الذي فيه متاع العطار، هكذا فسره الجمهور وقال صاحب العين هي سلية مستديرة مغشاة (أدما) (صحيح مسلم، كتاب الفضال، باب طيب رائحة النبي ﷺ ولين مسّه، ج4، رقم الحديث 2329، ص 1814).

(2) - المصدر نفسه، ص 1814.

لي: «يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك فما زالت تلك طعمتي بعد»⁽¹⁾ لقد كانت توجيهاته ﷺ للغلام على أخطاءٍ بسيطة وواضحة يسهل حفظها وفهمها، ولقد أثرت في نفس الغلام طيلة عمره فقال: «فما زالت تلك طعمتي بعد»⁽²⁾ وفي موقف آخر كان المسلمون في العهد النبوي يعلقون الثمر في المساجد ليأتي إليها الأطفال إلا بهدف الأكل وبهذا تتعود أقدامهم السير نحو المساجد والصلاة فيها، والدعاة مدعوون لتفهم نفسية وطباع الصغار، يحسنوا التعامل معهم في أي موقف أو حدثٍ مهما كان شأنه، يعلمهم الحكمة ويربيهم على الأخلاق والمبادئ السامية، وذلك للأهمية التي يوليها الإسلام باعتبارهم ناشئة الجيل القادم، وأن تعليمهم وتربيتهم في الصغر هام جداً حيث تنطبع المعلومات في ذاكرتهم.

ب- رحمة النبي ﷺ بالصغار

الأطفال أحوج الناس إلى الرحمة، فهم يهتمون بمن يوادهم منذ نعومة أظفارهم، وكان النبي ﷺ شديد الرحمة بهم والشفقة عليهم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه يصف رحمة النبي ﷺ للصغار فقال: «ما رأيت أحداً أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ»⁽³⁾ وكان ﷺ لا يصبر على بكاء الطفل ولا على ألمه، رحمة وشفقة عليه، يروي أبو قتادة أن رسول الله ﷺ كان يصلّي وهو حامل أمّامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها⁽⁴⁾ ومن ذلك مواقفه الرائعة مع أحفاده ومع أبناء الصحابة رضوان الله عليهم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قبل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً»⁽⁵⁾ فالأقرع إنتابته الدهشة والاستغراب من موقف النبي ﷺ العاطفي تجاه الحسن غير المألوف، فالأقرع كان يظن أنه من الرجولة أن يقسو القلب ويتحجر حتى لا يرحم صغيراً ولا يقبل طفلاً، لكن النبي الكريم ردّ عليه بإيجاز قائلاً:

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين، رقم الحديث 5376، ص 1370.

(2) - المصدر نفسه، ص 1370.

(3) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب رحمة النبي ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه، رقم الحديث 2316، ص 1808.

(4) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز حمل الصبيان في الصلاة، رقم الحديث 543، ص 385.

(5) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقيله ومعانقته، رقم الحديث 5997، ص 1506.

«من لا يرحم لا يُرحم»⁽¹⁾ وقدم أعرابيُّ على رسول الله ﷺ فتساءل عما يدفع نبي الله ﷺ إلى ممازحة الصِّغار وإبداء كلِّ هذا الإهتمام بهم فقال: تقبلون الصِّبيان؟ فما نُقبلهم، فقال النبي ﷺ: «أو أملك لك أن نزغ من قلبك الرحمة»⁽²⁾ من هذا المنهج النبوي يتبيّن للكبار من الرجال خصوصاً الآباء معاملة الصِّغار من منطلق الرحمة والرأفة، وعدم الإستهانة بهم، فلها الأثر الكبير على نفسية الأولاد وسلوكهم وإستقرارهم العاطفي، فصدق رسول الله ﷺ أن قال: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا»⁽³⁾ ومن دُرِّره أنّه كان ذو قلبٍ حنون وعطوف، شديد التأثير، تحلّى ذلك عندما رُفع إليه ابنُ ابنته وهو في الموت، فاضت عيناً رسول الله ﷺ فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنّما يرحم الله من عباده الرّحماء»⁽⁴⁾ وكان ﷺ يحزن كثيراً لوفاة أحدِ أبنائه أو بناته، وهذه ليست دموع جزعٍ من قضاء الله وقدره، وإنّما هي دموعُ رحمة وشفقة وحزن لفقدان فلذة كبده، مع العلم أنّ النبي ﷺ ابتلي بفقد جميع أولاده، ماعدا فاطمة رضي الله عنها والتي بقيت بعد وفاته، وكان ﷺ شديد الحبِّ لأحفاده حتّى أنّ ابنُ عمر رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنّ الحسن والحسين هما ريحائتي من الدنيا»⁽⁵⁾ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «خرجت مع رسول الله ﷺ في طائفةٍ من النّهار لا يكلمني ولا أكلمه، حتّى جاء سوق بني قينقاع، ثمّ انصرف، حتّى أتى خباء فاطمة، فقال: أثمّ لكع، أثمّ لكع، يعني حسناً. فظننا أنّه إنّما تحبسه أمّه لأنّ تغسله وتلبسه سخاباً، فلم يلبث أن جاء يسعى حتّى اعتنق كلُّ واحدٍ منهما صاحبه، فقال رسول الله ﷺ: اللّهمّ إنّّي أحبّه فأحبّه، وأحبّ من يُحبّه، قال أبو هريرة رضي الله عنه: فما كان أحدٌ أحبّ إليّ من الحسن بن عليّ بعدما قال رسول الله ﷺ ما قال»⁽⁶⁾ مشاعر النبي ﷺ تجاه حفيديهِ -من ظاهر

(1) - المصدر نفسه، ص 1506.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله، رقم الحديث 5998، ص 1506.

(3) - أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب ما جاء في رحمة الصِّبيان، رقم الحديث 1919، رقم الحديث 1920، ج4، المصدر السّابق، ص 479. وقال الترمذي: هذا حديثٌ غريبٌ.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله، رقم الحديث 5998، ص 1506.

(*) - من الدُّنيا: أي: نصبي من الرّيحان الدنيوي، (ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب السّخاب للصِّبيان، رقم الحديث 5884، ج10، ص 427).

(5) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما، رقم الحديث 3753، ص 921.

(6) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب السّخاب للصِّبيان، رقم الحديث 5884، ص 1485.

الحديث - دلالة على استحباب ملاطفة الصغار ومداعبتهم لطفًا ورحمةً وتواضعًا والعمل على إظهارها دون إخفاءها، ونحن نلاحظ في واقعنا اليوم سوء التعامل مع الصغار، فكثيرون شغلهم مصالحهم الدنيوية عن أولادهم، فافتقدوا لتلك الرعاية وتلك المداعبة والممازحة، تحكمهم ظروف اجتماعية ومهنية واقتصادية، بحيث نجد العديد من الأسر يتركون أبنائهم طيلة الوقت تحت رعاية دور الحضانة ورياض الأطفال، فيصبح ويمسي الطفل في أحضان امرأة غريبة عنه، وفي مشهد آخر مؤثر جدًا حزن فيه النبي ﷺ كثيرًا لموت ابنه إبراهيم وهو يجود بنفسه، فجعلت عيناه ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف ﷺ: وأنت يا رسول الله، فقال: «يا ابن عوف، إنها رحمة، ثم أتبعها بأخرى فقال: إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإننا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون»⁽¹⁾ فلم تكن مواقف إهتمامه ﷺ ورحمته للصغار بالمواقف العابرة التي تحدثت على فترات متباعدة، بل كانت متكررة جدًا، لدرجة أن الصغار كانوا دائمًا في استقباله إذا جاء من سفر ليلاعبهم ويداعبهم، وكأنه ليس أمامه من الهموم والمشاكل غيرهم، يقول عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ﷺ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ تُلِّقِي بِصَبِيَّانِ أَهْلِ بَيْتِهِ قَالَ: وَإِنَّهُ قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ فَسَبَقَ بِي إِلَيْهِ فَحَمَلَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمَّ جِئَ بِأَحَدِ ابْنَيْ فَاطِمَةَ فَأَرَدَفَهُ خَلْفَهُ قَالَ: فَأَدْخَلْنَا الْمَدِينَةَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ يَوْمًا»⁽²⁾ وأهم شيء كان ﷺ لا يسخر من مشاعر صغار السن، ولا يسفه حزنهم، بل يواسيهم ويشاركهم ويضاحكهم، ومن ذلك قصته ﷺ مع ابن أبي طلحة ﷺ يُكَنَّى "أبا عمير"، وكان يمازحه، فدخل عليه فرآه حزينًا، فقال: «ما لي أرى أبا عمير حزينًا؟!، فقالوا: مات ثغر الذي كان يلعب به، قال: فجعل يقول: أبا عُمَيْرُ، مَا فَعَلَ النُّعَيْرُ؟»⁽³⁾ فإذا بالطفل يفرح لحديث النبي ﷺ معه، فنسي العصفور لينتبه للتسمية الجديدة التي سمعها من النبي ﷺ وكأنه يقول له: بأنك كبير ولا يصلح منك البكاء، وهذا قمة علم النفس النبوي والتربوي، وقد تجلّى فيه قدر الرحمة والتواضع للذين كانوا في قلبه ﷺ ومدى إهتمامه بمشاعر الأولاد وحسن تفقدهم وتنشئتهم على معاني الرأفة التي يعتاد عليها من الآباء، كما تجلّت عناية النبي ﷺ للصغار إهتمامه بصغار الأنصار، فقد اعتاد زيارة الأنصار وتحيّة أطفالهم والتربيت على رؤوسهم، بل

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، باب قول النبي ﷺ: «إِنَّا بَكَّ لِحُزْنُون»، رقم الحديث 1303، ص 315.

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عبد الله بن جعفر ﷺ، رقم الحديث 2428، ص 1137.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الكنية للصبي، رقم الحديث 6203، ص 1547.

إنَّه دأب على الإقتراب من الصَّغار ومباركتهم ومضغ الثَّمرات لهم⁽¹⁾ وكان يرحم بصغير الزَّنا ويشفقُ عليه، فلمَّا جاءتْه الغامدية التي زنت رَدَّها حتَّى تلد، فلمَّا وضعت وجاءت قال النَّبي ﷺ: «إِذَا لَا نَرَجُمُهَا وَنَدْعُ وَلَدَهَا صَغِيرًا لَيْسَ لَهُ مِنْ يَرْضَعُهُ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: إِلَيَّ رِضَاعُهُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ»⁽²⁾ كما خصَّ النَّبي ﷺ توليته أُمِّيَّةَ خَاصَّةٍ لرعاية البنات -صغيرات السن- وذلك لعلمه أنَّ قلوب النَّاسِ تميل بشكْلِ أكبر للذكور، فقد عَظَّمَ أَجْرَ مَنْ يَتَوَلَّى تَرْبِيَتَهُنَّ وَرِعَايَتَهُنَّ وَالْإِحْسَانَ إِلَيْهِنَّ بِالثَّوَابِ الْعَظِيمِ وَالشَّرَفِ الْكَبِيرِ أَنْ يَنَالَ صَحْبَةُ النَّبِيِّ ﷺ وَشَفَاعَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَقَالَ ﷺ: «مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ وَضَمَّ أَصَابِعَهُ»⁽³⁾.

ج- رحمته بالصَّغار اليتامى

لقد كان بدوره ﷺ من الأوائل الذين لمسوا آلام اليتيم وأحزانه، فاهتمَّ به اهتمامًا بالغًا من حيث تربيته ورعايته ومعاملته، وضمان سبل العيش الكريمة له، حتَّى يَنشَأَ عَضْوًا نَافِعًا، وَلَا يَشْعُرَ بِالنَّقْصِ عَنْ غَيْرِهِ مِنْ أَفْرَادِ الْمَجْتَمَعِ، فَيَتَحَطَّمُ وَيَصْبَحَ عَضْوًا هَادِمًا فِي الْحَيَاةِ فَقَالَ: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا، وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ وَالْوَسْطَى وَفَرَجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا»⁽⁴⁾ فقد حثَّ عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى الْعِنَايَةِ بِالْيَتِيمِ وَحَسَنِ رِعَايَتِهِ، وَكَفَالَتِهِ بِالْقِيَامِ بِأُمُورِهِ، وَالسَّعْيِ فِي مَصَالِحِهِ، مِنْ طَعَامِهِ وَكَسَوْتِهِ، وَتَنْمِيَةِ مَالِهِ إِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ أَنْفَقَ عَلَيْهِ وَكَسَاهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى بَلْ ضَمَّنَ لِكَافِلِ الْيَتِيمِ غَفْرَانَ الذُّنُوبِ⁽⁵⁾، فَإِلَانَةَ الْقَلْبِ هُنَا مَجْبُولَةٌ بِرَحْمَتِهِ لِلْيَتِيمِ وَإِظْهَارُ مَعَانِي الْعُطْفِ وَالشَّفَقَةِ تَجَاهَهُ، لَمَّا أَتَى إِلَيْهِ رَجُلٌ يَشْكُو قَسْوَةَ قَلْبِهِ فَأَمَرَهُ بِالرَّحْمَةِ تَجَاهَ الْيَتِيمِ، وَفِي الْإِطَارِ نَفْسَهُ دَعَوْتَهُ ﷺ إِلَى مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْيَتَامَى أَوْ ضَمَّهُ إِلَيْهِ، تَشْجِيعُهُ إِلَى رِعَايَتِهِمْ وَالْعُطْفِ عَلَيْهِمْ وَتَحْذِيرُهُمْ مِنْ ظُلْمِهِمْ وَاسْتِغْلَالِ ضَعْفِهِمْ وَأَكْلِ أَمْوَالِهِمْ بِالْبَاطِلِ، فَقَالَ: «اجْتَنِبُوا الْمَوْبَقَاتِ السَّبْعَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ:

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته، ج3، رقم الحديث 2144، ص 1689.

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا، رقم الحديث 1695، ص 1323.

(3) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البرِّ والصَّلة والآداب، باب الإحسان إلى البنات، رقم الحديث 2631، ص 1216.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطَّلَاق، باب اللعان، رقم الحديث 5304، ص 1352.

(5) - محمد الكدي العمراني، فقه الأسرة المسلمة في المهاجر "هولندا نموذجًا"، رسالة دكتوراه (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، ج2، 2001م)، ص 156.

... أكل مال اليتيم»⁽¹⁾ وكان يحرص ﷺ كل الحرص على رعاية مشاعر الأيتام وإدخال السرور عليهم، ففي قصّة اختصام أبي لبابة ﷺ ویتیم في نخلة، قضى رسول الله ﷺ لأبي لبابة بالنخلة لأنّ الحق كان معه، لكنه ﷺ لمّا رأى الغلام اليتيم يبكي، قال لأبي لبابة: «أعطه نخلتك، فقال: لا، فقال أعطه إياها ولك عذق في الجنة، فقال: لا، فسمع بذلك ابنُ الدحداح، فقال لأبي لبابة: أتبيع عذقك ذلك بحدیقتي هذه؟، فقال نعم .. ثمّ جاء رسول الله ﷺ فقال: النخلة التي سألت للیتیم أن أعطته ألي بها عذق في الجنة؟! فقال رسول الله ﷺ: نعم، ثمّ قُتل ابنُ الدحداح شهيداً يوم أحد، فقال رسول الله ﷺ: «رُبَّ عذق مذلل لابنِ الدحداح في الجنة»⁽²⁾ وكان من منهجه ﷺ مواساة اليتامى ومراعاة أحوالهم ومعاناتهم، من ذلك لمّا مات جعفر بنُ أبي طالب ﷺ تعهّد النبي ﷺ أولاده وأخذهم معه إلى بيته، فلمّا ذكرت أمّهم من يتهمهم وحاجتهم، قال ﷺ: «العيلة -يعني الفقر والحاجة- تخافين عليهم وأنا وليّهم في الدنيا والآخرة»⁽³⁾ لقد بيّنت الأحاديث السّالفة اهتمام النبي ﷺ بصغار السنّ، ولاسيما بصغار أمته، فكم يُعجب القارئ لسيرته من بروز لطائف ومواقف رحمته بالصّبيان، ويزداد العجب عندما يُنظرُ إلى ثقل المسؤوليات الملقاة على عاتقه وهو يدير الدولة ويقود الجيش ويحكم بين الناس ويتفاوض مع الوفود ويشرف على كلّ صغيرة وكبيرة في حياة المسلمين

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلَيْتَمَى ظُلْمًا إِنَّمَّا يَكُونُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾، رقم الحديث 2766، ص 684.

(2) - أخرجه البيهقي في سننه، كتاب الصّالح، باب الإبراء والحطيطة وما جاء في الشفاعة، تحقيق: محمّد عبد القادر عطا، رقم الحديث 11348 (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، ج6، 1424هـ/2003م)، ص 106. وقال البيهقي: رواه البخاري في الصحيح عن عبدان دون قصة أبي لبابة، وكأنّ قصة أبي لبابة ذكرها الزهري مرسلًا، فقد رواها حبيب بن أبي حمزة عن الزهري عن ابن المسيب عن النبي ﷺ مرسلًا.

(3) - أخرجه أحمد في مسنده، مسند أهل البيت رضوان الله عليهم أجمعين، حديث عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما، ج1، رقم الحديث 1753، ص-ص 2، 4 رقم درجته. سنده صحيح، رواه من طريق أحمد كل من الطبراني في المعجم الكبير (105/2)، ورواه النسائي في السنن الكبرى (180/5)، أنبأ إسحاق بن منصور قال أنبأ وهب، هذا السند: صحيح وهب بن جرير بن حازم بن زيد أبو عبد الله الأزدي البصري ثقة من رجال الشيخين تقريب التهذيب (585) ووالده ثقة تقريب التهذيب (138)، ومحمّد بن عبد الله بن أبي يعقوب التميمي الضبي روى عن الحسن بن سعد مولى الحسن بن علي وروى عنه جرير بن حازم -تهذيب التهذيب (253/9)، وهو ثقة -تقريب التهذيب (490) وشيخه الحسن بن سعد بن معبد الهاشمي مولاهم الكوفي ثقة - تقريب التهذيب (161). وفي الصحيح من أحاديث السيرة النبوية، محمد بن حمد الصوياني (مدار الوطن للنشر، ط1، ج1، 1432هـ/2011م)، ص 427.

آنذاك، ورغم كل هذا إلا وهو يرفع من شأن الصغار يداعبهم ويعانقهم⁽¹⁾ ويقول عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ تُلِّقِي بِصُغَيْرِ أَهْلِ بَيْتِهِ، قَالَ: وَإِنَّهُ قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ فَسَبَقَ بِي إِلَيْهِ، فَحَمَلَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ جِيءَ بِأَحَدِ ابْنَيْ فَاطِمَةَ، فَأَرَدَفَهُ خَلْفَهُ، قَالَ: فَأَدْخَلْنَا الْمَدِينَةَ، ثَلَاثَةً عَلَى دَابَّةٍ»⁽²⁾ وَلَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ، اسْتَقْبَلَهُ أُعَيْلِمَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَحَمَلَتْ وَاحِدًا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالْآخَرَ خَلْفَهُ⁽³⁾ كَانَ ﷺ يراعى النَّاحِيَةَ الْعَاطِفِيَّةَ تَحَاهُمَ، فَأَوْجِبَ الرَّحْمَةَ بِهِمُ وَالْعُطْفَ عَلَيْهِمُ، وَأَلْزَمَ الْأُمَّةَ جَمِيعًا بِالتَّضَامَنِ وَالتَّكَافُلِ فِي رِعَايَةِ الصَّغَارِ وَالْعَنَايَةِ بِهِمُ، فَكَانَ مِنْ شِدَّةِ عَنَايَتِهِ بِهِمْ أَنَّهُ إِذَا مَرَّ بِهِمْ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ وَدَاعَبَهُمْ بِمَا يَدْخُلُ الشُّرُورَ عَلَيْهِمْ ، وَعَلَيْهِ بِنَاءٌ عَلَى مَا سَلَفَ يَتَعَيَّنُ عَلَى الدَّاعِيَةِ الْإِسْتِفَادَةُ مِنْ دَعْوَةِ النَّبِيِّ ﷺ لِلْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ كَالآتِي:

بعد معاينة شيء من مواقف النبي ﷺ ومعاملته لمختلف أصناف المدعوين واستنباط موضوع دعوته لهم، والأساليب التي تعامل معهم بها، أصبح لزاماً علينا بيان إمكانية تطبيق هذا المنهج في حياة الدُّعاة إلى الله:

- إِنَّ رَحْمَةَ النَّبِيِّ ﷺ لشموليتها لامست لجميع أصناف المدعوين الصَّغَارَ والكِبَارَ، الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ، فَكُلُ الْمَخْلُوقَاتِ شَمِلَتْهُمْ هَذِهِ الرَّحْمَةُ النَّبَوِيَّةُ، يَقُولُ الشَّيْخُ ابْنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ: (وَفِيهِ الْحُضْرُ عَلَى اسْتِعْمَالِ الرَّحْمَةِ لَجَمِيعِ الْخَلْقِ، فَيَدْخُلُ الْكَبِيرَ وَالصَّغِيرَ وَالْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ وَالْبَهَائِمَ وَالْمَمْلُوكَ وَغَيْرَ الْمَمْلُوكِ، وَيَدْخُلُ فِي الرَّحْمَةِ التَّعَاهُدُ بِالْإِطْعَامِ وَالسَّقْيِ وَالتَّخْفِيفِ فِي الْحَمْلِ وَتَرْكُ التَّعَدِّيِّ بِالضَّرْبِ)⁽⁴⁾ ويقول ابن أبي حمزة رحمه الله: (يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى مِنْ لَا يَرْحَمُ غَيْرَهُ بِأَيِّ نَوْعٍ مِنَ الْإِحْسَانِ لَا يَحْصُلُ عَلَى الثَّوَابِ)⁽⁵⁾ وَالدَّاعِيَةُ قُدُوتُهُ النَّبِيُّ ﷺ لَا تَكُنْ دَعْوَتُهُ مُوجَّهَةً إِلَى الْكِبَارِ فَقَطْ، وَيَغْفُلُ النَّاشِئَةُ الصَّغَارَ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَعْمَهُمْ جَمِيعًا بِالرَّحْمَةِ وَيَحِيطَهُمْ بِالْحَنَوِّ وَالشَّفَقَةِ وَالرَّعَايَةِ وَالتَّوْجِيهِ السَّلِيمِ وَالتَّرْبِيَةِ

(1) - راغب السرجاني، الرَّحْمَةُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، المرجع السابق، ص 87.

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عبد الله بن جعفر ﷺ، رقم الحديث 2428، ج4، ص 1885.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العمرة، باب استقبال الحاج القادمين، والثلاثة على الدابة، رقم الحديث 1798، ص 433.

(4) - المصدر نفسه، ص 440.

(5) - المصدر نفسه، ص 440.

الصَّحِيحة، ففيهم يجب بذر بذور الدِّين الصَّحِيح وتأكيد أساسه في نفوسهم بقدر ما يطيقون، ولا بدَّ من التَّدريب على شعائر الدين وإعطائه القدوة الحسنة.

- إنَّ ما ذكر من نماذج ومواقف تعامل النبي ﷺ مع المسلمين وغير المسلمين هو إعراف بسموِّ شخصه الكريم ﷺ وبجلالة قدره وعظم أخلاقه وجمال أسلوبه، وعلى الدَّاعية إلى الله أن يكون وفيًّا لهذا النبي العظيم، ومن وفاء الاقتداء بأخلاقه ومنهجه وفي جميع شؤونه ومعاملاته وفي سلوكه ليثبت بأنَّه بحق أمة الخير والمحبة والسلام.

- من أجمل ما اختصَّ به منهج النبي ﷺ العاطفي تحليُّه بأسلوب اللين والرَّحمة ومدارة المدعوين، والنبي أكمل الخلق جمع كل الجوانب العاطفية من مشاعر وأحاسيس ورقة فكان أرق القلوب وألينها، وداعية العصر عليه استحكام هذا الأسلوب عند تعامله مع المدعوين، لأنَّ القلوب تميل إلى من يرفق في معاملتها بالتَّؤدُّد والبشاشة والكلمة الطيبة والتَّعامل الحسن، وخاصَّة مع المسلمين أهل الكبرياء وغير المسلمين لتقدِّم صورة الإسلام على النحو الصَّحيح، وقد قيل قديمًا: (ليكن وجهك بسطًا، وكلمتك لينة تكن أحبَّ إلى النَّاس ممَّن يعطيهم عطاء)⁽¹⁾ والمواقف التي عرضتها والتي لم يسعنا الحظُّ في طرحها وهي كثيرة جدًّا لا تعدُّ ولا تحصى، توحى بخيرية دعوة النبي ﷺ وملاينته في جميع المواقف، والتي يمكن على الدَّاعية أن يتَّخذها معيارًا أساسيًا للسَّير بدعوته إلى قمة النَّجاح.

الخلاصة

في نهاية هذا الفصل الذي يبيِّن كفاءات وطرق تعامل النبي ﷺ مع جميع أصناف المدعوين بالمنهج العاطفي، نجد ﷺ جمع كامل محاسن الصِّفات والكمال، فكان جامعًا لكلِّ خير وأسوة حسنة في كلِّ شيء، ومثلاً راقياً في الأداء والتَّعامل مع جميع أصناف المدعوين عمومهم وخصوصهم، صغيرهم وكبيرهم، مسلمهم وكافرهم، فكان يلقيهم بوجه طليق باسم، ندي الطَّلعة، كريم العطاء، رحيم القلب، حسن الأداء، ومن جملة ما نستشقه في هذا الفصل من "نتائج" اختصرتها كالآتي:

- قدَّم هذا الفصل تعاملات النبي ﷺ مع أصناف المدعوين على تباين صفاتهم وأحوالهم وعقائدهم، فنراه محبًّا لهم، رفيقاً بهم، يتغاضى عن زلَّاتهم ويعفو عنهم ولا يهينهم.

- المنهج العاطفي وما يتفرَّع عنه من أساليب ووسائل، يمثِّل روح الإسلام وجوهره، وهو منهج قائم على المعاملة اللائقة مع غير المسلمين والمسلمين.

(1) - فضل دلهي، من صفات الداعية اللين والرفق، المرجع السابق، ص 3.

- من لطائف دعوة النبي ﷺ ورحمته أنه ألزم التعامل بالعاطفة والرحمة حتى مع غير المسلمين إذ لا يقبل إيدائهم والتمثيل بهم.
- نظرًا للخاصية العالمية التي تميّزت بها دعوة النبي ﷺ فقد جعلها موجّهة للمسلمين وغير المسلمين، سخّر لها أساليبًا متنوّعة لمخاطبتهم وإستمالتهم لشريعة الإسلام، فأقامها على المنهج العاطفي لتحريك الدوافع الفطرية الخيرة، وإعمال منهج الترغيب والترهيب والتدرج وجانب اللين ... ودغدغة العواطف ودعمها بالحجج والبراهين التي يستحسن ترصيعها وتضمينها في ثنايا الإثارات الوجدانية أثناء مخاطبتهم⁽¹⁾.
- إمتثلت دعوة النبي ﷺ للمسلمين في إصلاح الأخلاق وترسيخ القيم وبناء مجتمع إسلامي رحيم ومتكافل وقوي على أسس سليمة ودعائم ثابتة، وغير المسلمين إعطاء الصّورة الحقيقيّة للإسلام عن طريق المنهج العاطفي، بأنّ الإسلام ليس كما يزعمونه عنيفًا ومتعطّشًا للدماء، وليس من أهدافه أن يفرض نفسه على الناس فرضًا، فموقفه سلمي وهو عدم إكراه الناس في الدّخول في الإسلام.
- لقد سجّل النبي ﷺ أعظمَ مثالاً في طريقة دعوته لغير المسلمين والمسلمين، تجلّت فيها معاني الرحمة والعفو والحلم، ولا يعني أنّ التعامل مع غير المسلمين بمثل الأساليب العاطفية المذكورة سابقًا أمرًا لا غنى عنه، فأحيانًا تكون الغلظة والشدة هي الحلّ الأمثل في التعامل مع غير المسلمين المعادين للإسلام، ولأنّ تركها في الوقت الصّحيح والمناسب له عواقب غير محمودة. والداعية عليه أن يكون قويّ الأمل لا ييأس من تأثير دعوته وهداية من يدعوهم، ولا ييأس من نصر الله ومعاونته ولو إمتدّ الزّمن وطال عليه الأمدُ وله في الرّسل الكرام خير أسوة في ذلك.
- بيّن هذا الفصل أثار المنهج العاطفي في دعوة غير المسلمين بالنّجاح وقبول هذا الدّين، فقد دخل الكثير من أهل الكتاب والمشرّكين والمنافقين في الإسلام قبل وفاته وبعد وفاته في الإسلام، فظهرت رسالته ليس بقصد الإبادة والإرغام وإنما بالإقناع والتأثير العاطفي.

(1) - حسن عزوزي، التعريف بالإسلام باللّغات الأجنبية (الإدارة العامّة للثقافة والنّشر، سلسلة دعوة الحق كتاب شهري محكم، السّنة 23، العدد 229، 1429هـ/2008م)، ص 51.

تمهيد

موضوع الدَّعوة إلى الله من صِنو الإسلام يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85] والإسلام أشبه ما يكون بكتالوج يسير به الدَّاعية لتبليغه النَّاس وتعليمهم قولاً وسلوكاً جاء به النَّبي ﷺ لإخراجهم من عبادة ما سوى الله إلى عبادة الله وحده، إذ يقتضي من المدعوين الإسلام لسلطان الله وتحكيم منهجه وشرعه فيهم، فتصبح السُّلطة فيهم خالصة لمنهاج الله أمراً ونهيّاً، حتّى تحقّق لدعوة الإسلام السَّيادة والرَّيادة⁽¹⁾، والدَّاعية طرف فاعل ومصلح في مجتمعه، عليه أن يسير وفق الهدي النَّبوي، يبلغ ما استوجب عليه من تعاليم تتضمّن أمور الدِّين العقائديّة والشرعية والأخلاقيّة، والحديث في موضوعات الدَّعوة في السَّيرة العطرة ليس بغرض التّفصيل والإسهاب والإيجاز، وإنّما لغرض توضيح جوانب تتعلّق بموضوعات دعوة النَّبي ﷺ بالمنهج العاطفي، وقد استقرّ الرّأي بعد عملية البحث تحديد هذه الموضوعات فكانت في العقيدة والشرعية والأخلاق، بلّغها النَّبي ﷺ لجميع الفئات بما يتناسب مع حال البلاغ وحال المبلّغ، موظّفاً أساليب دعويّة تمسّ الجانب العاطفي في شخصيته ﷺ كان من جملة الحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، يقول الدُّكتور علي عبد الحليم محمود حول ترابط هذه الموضوعات وأثرها في الدَّعوة إلى الله: (وهذه الموضوعات يقوم عليها بناء الدِّين الإسلامي وحضارته كلّها، وإنّ بدت للنّاظر وكأنّها منفصل بعضها عن بعض، إلّا أنّها في الحقّ مترابطة متماسكة يفضي أولها إلى تاليها، وتاليها إلى ما بعده، فالعقيدة الصّحيحة أساس تقوم عليها الشّريعة، والشّريعة أساس يقوم عليها السُّلوك الفردي والسُّلوك الاجتماعي، وهذا السُّلوك على المستوى الفردي أو الجماعي إذا جاء وفق ما نادى به العقيدة وما حدّدت ملامحه العبادة فهو العمل الصّالح وليس وراء هذا التّربط والتّماسك ترابط أو تماسك)⁽²⁾ ولأهميّة هذه الموضوعات في جوانبها العقائدية والتّشريعية والأخلاقية، كان هذا الفصل تعبيراً عن وجوب العودة إلى رحاب الهدي النَّبوي في سدّ بؤرة الاختلافات والمجادلات الحاصلة، ولأجل ذلك جاء هذا الفصل ليؤكد أهميّة المنهج النَّبوي وأثره في إصلاح العقائد وترسيخ القيم الأخلاقية وغرسها في النفوس، فاقتضت الخطّة أن تكون في ثلاثة مباحث:

(1) - عبد الله بنُ محمّد الموسى، أسباب نجاح الدَّعوة الإسلامية في العهد النَّبوي، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلامية، المعهد العالي للدَّعوة الإسلامية، المملكة العربية السُّعودية، 1403هـ/1406هـ، ص 20.

(2) - علي عبد الحليم محمود، فقه الدَّعوة إلى الله، المرجع السّابق، ص 117.

المبحث الأول: في مجال العقائد، والمبحث الثاني: في مجال القيم والأخلاق الفاضلة، والمبحث الثالث: في مجال الشرائع، وبناءً على هذه الخطة سأمهد في توضيح المفاهيم الأساسية والمتعلقة بكل عنصرٍ من عناصر هذا الفصل، وبيان أهميته وتطبيقاته الدعوية، وتقصي بعض مواقف النبي ﷺ الرائدة والعاطفية والتي ساهمت في تضمين هذه الموضوعات قولاً وعملاً، علماً أن الأحاديث المقدمة قد أصلت هذا المنهج - المنهج العاطفي - وجعلت له جذوراً عميقة في الإسلام، كما جعلته من أسس مناهج الدعوة إلى الله.

المبحث الأول: في مجال العقائد

يعدُّ موضوع العقيدة من أبرز موضوعات الدعوة إلى الله عموماً ودعوة النبي ﷺ على وجه التحديد، وردت في أحاديث كثيرة ومواقف متعددة من حياة النبي ﷺ ودعوته العريضة، إذ لا يمكن حصرها لتشعبها، ولأهمية العقيدة في دعوة النبي ﷺ فقد غلّق عليها بناء جميع الموضوعات الأخرى، فإذا لم تقم هذه الموضوعات على العقيدة الصحيحة، فإنها ستكون هباءً منثوراً، يقول تعالى:

﴿وَقَدْ مَنَّا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ [الفرقان: 23] وقد استقرَّ الرأي بالتطرق إلى الأهم منها: التوحيد - وحقيقة البعث - وإثبات النبوة، وقبل الشروع في تطبيقات هذه الموضوعات وأثرها في دعوة النبي ﷺ رأيتُ أن أمهد بتعريف العقيدة من الناحية اللغوية والإصطلاحية، وبيان أهميتها في الدعوة إلى الله عموماً ودعوة النبي ﷺ على وجه التحديد.

المطلب الأول: مفهوم العقيدة وأهميتها في دعوة النبي ﷺ

أولاً: مفهوم العقيدة

أ- لغة

- يعرفها العلامة ابن منظور بالقول: (عَقَدَ تدل في اللغة على التصميم والعزم والصَّلابَة، يُقال: عَقَدْتُ الحبل والبيع والعهد فأنعقد، واعتقد الشيء أي: اشتدَّ وصلب، واعتقد كذا بقلبه والمعاقدة: المعاهدة، والعقد نقيضُ الحلِّ، ويُقال: عَقَدَهُ يَعْقِدُهُ عَقْداً، ومنه عَقْدَةُ اليمين والنكاح)⁽¹⁾.

(1) - يُنْظَر: ابنُ منظور، لسان العرب، مادة عقد، ج3، المصدر السابق، ص 296.

ب- اصطلاحاً

أبدى العديد من العلماء والدعاة إعرابهم لمفهوم العقيدة، فعُرضت مختلفة غرضهم وضع تعريفاً صائب للعقيدة.

- يعرفها الشيخ العثيمين رحمه الله بالقول: (العقيدة هي الحكم الذّهني الجازم، فإن طابق الواقع فصحيح وإلاّ ففاسد)⁽¹⁾ ويعرفها الإمام حسن البنا رحمه الله بالقول: (العقيدة هي الأمور التي يجب أن يصدّق بها قلبك، وتطمئنّ إليها نفسك، وتكون يقيناً عندك لا يمازجه ريب ولا يخالطه شك)⁽²⁾ ويعرفها الدكتور الفوزان بالقول: (هي ما يصدقه العبد ويدين به، فإن كانت هذه العقيدة موافقة لما بعث الله به رسله الكرام وأنزل به كتبه فهي عقيدة صحيحة، وإن كانت هذه العقيدة مخالفة لما أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه فهي عقيدة توجب لأصحابها العذاب والشقاء في الدنيا والآخرة)⁽³⁾ ويعرفها الدكتور علي محمود عبد الحليم بالقول: (هي ما يجب أن يعتقد المسلم ليقوم عليه عبادته وسلوكه وعمله كلّ، الفردي منه والاجتماعي، مرتكزها ما يلقي في القلوب والعقول من إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر)⁽⁴⁾.

إضافة إلى المفاهيم السالفة جاء تعريف العقيدة الإسلامية في الاصطلاح الشرعي كالآتي:

العقيدة الإسلامية هي أركان الإيمان الواردة في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه المشهور⁽⁵⁾، هذا الحديث الشريف بين جوامع الدين بأبسط أسلوب وأوضح عبارة، نجده في قوله ﷺ: «فإن جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»⁽⁶⁾ يصرّح هذا الحديث - حديث عمر رضي الله عنه - بحقائق الدين وهي الإسلام والإيمان، وهذه المراتب عظيمة جدّاً، والله تعالى علّق عليها السعادة والشقاء في الدنيا والآخرة، وأبدى ارتباطها الوثيق ببعضها البعض، فربط الإسلام بالأعمال الظاهرة، وفسّر الإيمان بالأعمال الباطنة، من

(1) - العثيمين، شرح لمعة الاعتقاد (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط2، 1404هـ/1984م)، ص 14.

(2) - عثمان بن جماعة ضميمية، مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية (جدة: مكتبة السوادى للتوزيع، ط1، 1414هـ/1993م)، ص 121.

(3) - صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والردّ على أهل الشرك والإلحاد (الرياض: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ط1، ج1، 1412هـ)، ص 6.

(4) - علي عبد الحليم محمود، فقه الدعوة إلى الله، المرجع السابق، ص 114.

(5) - رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام، رقم الحديث 8، ج1، ص 23.

(6) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، رقم الحديث 50، ص 17.

إعتقادات وأعمال القلوب، وكلاهما يكملان بعضهما فلا تقبل الأعمال إلا بالإيمان، ولا يكتمل الإيمان إلا بالأعمال الصالحة، وللعلم أن العقيدة هي الأساس والشرعية هي البناء، ولا بناء من غير أساس، ولا عمل من غير توحيد وإخلاص⁽¹⁾، يقول تعالى في مجمل الآية الكريمة: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: 23] هذه العقيدة التي بعث بها النبي ﷺ وبلغها أمته، كانت بمثابة ربط الأرواح بخالقها لترجو ثوابه وتخشى عقابه، عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار»⁽²⁾ وفي حديث عتب بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله»⁽³⁾.

ثانياً: أهمية العقيدة في دعوة النبي ﷺ

حرص النبي ﷺ واجتهد في تبيان العقيدة الصحيحة و ترسيخها من خلال أساليبه المختلفة، تميزت جميعها باللين والتبسيط والبيان وبحسب فئات المدعوين، فكان كلامه بيناً واضحاً كما قالت عنه السيدة عائشة رضي الله عنها: «كان كلام رسول الله ﷺ فصلاً يفهمه كل من سمعه»⁽⁴⁾ فكان ﷺ أفصح الخلق وأعدبهم كلاماً، وأسرعهم أداءً، وأحلامهم منطقاً، حتى كان كلامه يأخذ بالقلوب ويسبي الأرواح، وكان من هديه التأني والهدوء في الحديث مع توضيح كلامه للناس، حتى يفهموا ولا يفوتهم شيء من قوله، وهذا فيه بيان للداعية أن يكون: حسن المنطق يوضح كلامه ويبين ألفاظه وحروفه للناس، ليصل إلى مراده في دعوته ويفهم المدعو، وفضلاً عن ما كان يسلكه ﷺ العقيدة غرس في نفوس أصحابه، فقد كان يحرص كل الحرص على متابعتهم وتعهدهم بالإيمان في قلوبهم، فكانت ضمن الوصايا التي وردت في حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه حين قال: «كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حزاورة»^(*) تعلمنا

(1) - عمر بن عمر بن بادحدح، مقومات الداعية الناجح، المرجع السابق، ص 44.

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله دخل الجنة، رقم الحديث 92، ص 55.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، أبواب استقبال القبلة، باب المساجد في البيوت، رقم الحديث 42، ص 63.

(4) - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب الهدي في الكلام، رقم الحديث 4839، ج 7، المصدر السابق، ص 208.

وقال: هذا حديث حسن.

(*) - حزاورة: جمع حزور، والحزور: وهو الغلام إذا اشتد وقوي وخدم، وقارب البلوغ، قال العلامة الزّاجز: لن يغدم المطي مني مشفراً ... شيخاً بجالاً وغلاماً حزوراً (يُنظر: إثن منظر، لسان العرب، مادة حزا، بيروت: دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، ط 3، ج 3، 1419هـ/1999م)، ص 150.

الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازدنا به إيماناً»⁽¹⁾ فصغار الصحابة لتأثرهم بالنبي ﷺ جعلهم حريصين على تعلم الإيمان قبل العمل، وتعلم القرآن وحفظه، يقول الحسن بن علي رضي الله عنهما: «علمني رسول الله ﷺ كلمات أقوهن في قنوت الوتر: اللهم اهديني فيمن هديت وعافني فيمن عافيت وتولني فيمن توليت وبارك لي فيما أعطيت وقني شر ما قضيت فإنك تقضي ولا يقضى عليك إنه لا يذل من واليت تباركت ربنا وتعاليت»⁽²⁾، والعقيدة في حياة النبي ﷺ ودعوته هي الشحنة القويّة التي يذكّي بها عقول الناس الذين عقّلتهم الخرافة ووادت أفكارهم بالآماد الغابرة والزلات العابرة، فصنع ﷺ منها نماذج فولاذية قلّ نظيرها، فلم تكثر للأعراف القبلية أو القرابات الدّموية بل كان يعتبر سلمان ﷺ في قوله: «سلمان منّا آل البيت»⁽³⁾، في حين أنّ عمّه أبا لهب أنزل القرآن يلعنه، هذه العقيدة ترفع غرباء وتضع أقرباء، فحينما أقبل النبي ﷺ بالأسارى فرّقهم بين أصحابه وقال: «استوصوا بهم خيراً»⁽⁴⁾ وأبو عزيز بن عمير بن هاشم - أخو مصعب بن عمير* ﷺ لأبيه

(1) - أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب المقدمة، باب 9، باب في الإيمان، رقم الحديث 61، ج 1، المصدر السابق، ص 23. وقال الألباني في سنن ابن ماجه: هذا حديث صحيح.

(2) - أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الوتر، باب ما جاء في القنوت في الوتر، رقم الحديث 464، ج 1، المصدر السابق، ص 478. وقال الترمذي: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(3) - أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، كتاب معرفة الصحابة، باب ذكر سلمان الفارسي ﷺ، رقم الحديث 2137/6539 (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 2، ج 3، 1422هـ/2002م)، ص 691.

(4) - ابن كثير، البداية والنهاية، ج 3، المرجع السابق، ص 306. ورواه الطبراني في المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، باب من يكتفى أبا عزيز، رقم الحديث 977 (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، د، ط، ج 22، 1983م)، ص 393، ورواه الطبراني في الصغير، 146/1، وقال: إسناده حسن، ويُنظر: سيرة ابن هشام 288/2، وذكر الحافظ في الإصابة واسطة مجهولة بين نبيه بن وهب وأبي عزيز من طريق ابن إسحاق فالحديث ضعيف، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد، ج 6، ص 115: إسناده حسن.

(*) - أبو عزيز بن عمير بن هاشم: الصحابي كان من السابقين إلى الإسلام ممن شهد بدرًا وأُخذًا، وكان حامل اللواء فيها، وممن هاجر المجرتين الأولى إلى الحبشة، والثانية إلى المدينة، أسلم على يديه العشرات، وكان أول سفير في الإسلام، ويقال: إنه أول من صلى الجمعة في المدينة. أنت أمه من أغنى أهل مكة، تكسوه أحسن الثياب، وأجمل اللباس، وكان أعطر أهل مكة، فلمّا أسلم انخلع من ذلك كله، وأصابه من التعذيب والبلاء ما غير لونه، وأهلك جسمه، بعثه رسول ﷺ مع مصعب بن عمير ﷺ مع النفر الاثني عشر الذين بايعوه في العقبة الأولى، يُقَفُّ أهلها ويُقرئهم القرآن، فكان منزله على أسعد بن زرارة، وكان إنما يسمّى بالمدينة المقرئ، يُقال: إنه أول من جمع الجمعة بالمدينة، وأسلم على يده أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ، وهما سيّدا قومهما، وكفى بذلك فخراً وأثراً في الإسلام (يُنظر: محمد حسن بريغش، مصعب بن عمير الداعية المجاهد، جدّة: دار البشير، دمشق، دار القلم، ط 6، 1420هـ/1999م).

وأُمّه - في الأسارى، يقول: «مَرَّ بي أخي مُصعبُ بنُ عميرٍ ورجلٌ منَ الأنصارِ يأسرني فقال: ضِدَّ يديك به، فإنَّ أُمّه ذات متاعٍ لعلَّها تفديه منك، قال أبو عزيز: فكنْتُ في رَهْطٍ من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قَدَّموا غداءهم وعشاءهم خَضُّوني بالخبز وأكلوا التَّمْرَ لوصيَّةِ رسول الله ﷺ إيَّاهم بنا، ما تقع في يد رجلٍ منهم كسرة خبز إلاَّ نفحني بها، فأستحي فأردها فيردها عليَّ ما يمسه، ولما قال أخوه مصعب لأبي اليسر - وهو الذي أسره - ما قال، قال له أبو عزيز: يا أخي، هذه وصاتك بي؟ فقال له مصعب: إنَّه أخي دونك، فسألت أُمّه عن أغلى ما تُدَيِّ به قرشيَّ فقبل لها: أربعة آلاف درهم، فبعثت بأربعة آلاف، فَفَدَتْهُ بِهَا»⁽¹⁾ فالعقيدة سرٌّ من أسرار حياة الأمة ورفيها وأمنها، وما عداها من العقائد والشُّعارات التي ترفع اليوم في ساحات البلاد الإسلامية وفي بلاد أخرى هي خُداج - باطلة -، ينبغي على الدَّاعية تحمُّلُ مسؤولية الحفاظ عليها والدِّفاع عنها خصوصاً أمام الحملات المغرضة التي تحاك في دياجير ظلمة التشكيك قصد التشهير والتفكيك، والدَّعوة بدورها تسعى جاهدة في ترسيخها وتثبيتها وجمع الأمة على عقيدة واحدة كما كان يدعو إليها النبي ﷺ.

المطلب الثاني: دعوة النبي ﷺ في ترسيخ عقيدة التَّوْحِيد

قبل التَّفصيل في بيان تطبيقات دعوة النبي ﷺ في تثبيت عقيدة التَّوْحِيد أستهلُّ بتقديم مفهومه من الناحية اللُّغوية والإصطلاحية ليتَّضح معناه أكثر.

أولاً: مفهوم التَّوْحِيد

للتَّوْحِيد مفاهيم متعدّدة ومختلفة أشار إليها أهل اللُّغة وعلماء الدَّعوة، وبالأحرى العلماء المتخصّصين في العقيدة، وقد لوحظَ جميعها مختلفة من حيث الألفاظ والكلمات لكنّها تشترك في المعنى نعرضها كالآتي:

أ - لغةً

- يعرفه العلامة ابنُ منظور رحمه الله بالقول: (التَّوْحِيدُ الإيمان بالله وحده لا شريك له، والله الواحدُ الأحد ذو الوجدانية والتَّوْحِيد، ثمَّ قال: فالواحدُ مُنفردٌ بالذَّاتِ في عَدَمِ المِثْلِ والنَّظِيرِ)⁽²⁾.

ب - إصطلاحاً

- يعرفه العلامة الصَّنْعاني رحمه الله بالقول: (هو أفراد الله بالعبادة والإلهية، والبراءة من كل معبود دونه)⁽¹⁾ ويعرفه الدكتور عبد الكريم زيدان بالقول: (التَّوْحِيد هو الإقرار والاعتراف والاعتقاد بأنَّ

(1) - عبد الملك بن هشام، سيرة بن هشام، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، ج1، المرجع السَّابق، ص 645.

(2) - ابنُ منظور، لسان العرب، مادّة وحد، ج3، المصدر السَّابق، ص 450.

المعبود الحق الذي لا يستحقُّ العبادة غيره هو الله تعالى، ويظهر ذلك باللسان والأفعال والسلوك، والتَّوحيد هو لبّ الإسلام وأساسه، ومنه تنبثق سائر نظمه وأحكامه وأوامره ومناهجه وكل ما فيه من عبادات وأحكام يرسخه ويقويه ويثبتته في قلوب المؤمنين⁽²⁾ ويعرفه البيجوري بالقول: (التَّوحيد أفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته، والتَّصديق بها ذاتًا وصفاتًا وأفعالاً⁽³⁾)، ويعرفه الدكتور عثمان بُنُ جمعة بالقول: (التَّوحيد هو الاعتقاد أنَّ الله تعالى واحد في ربوبيته، فلا ربَّ سواه، وواحد في ألوهيته، فلا يستحقُّ العبادة سواه، وواحد في أسمائه وصفاته، متفرد بصفات الكمال التي لا تنبغي إلاَّ له، فلا شبيه له ولا نظير⁽⁴⁾).

ثانيًا: أهمّية البدء بالتَّوحيد

إنَّ أصل الأديان كلّها التَّوحيد، فما من نبيٍّ إلاَّ بُعث لقومه ليعبدوا الله مخلصين له الدِّين، فأوصوا به أبناءهم وآباءهم وأصحابهم، مثال ذلك ما جاء على لسان نبيِّ الله يعقوب عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ ءَابَاؤُكُمْ وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهُمَا وَحَدًّا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 133] ونبيُّ الله يوسف عليه السلام مع أصحابه في السِّجن يقول: ﴿يَصْصَحِي السِّجْنَ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: 39] سيدنا يوسف عليه السلام لم يُثَنِّ السِّجن في الدَّعوة إلى التَّوحيد، فقد سعى في تصحيح العقيدة مستخدمًا الحجّة العقلية المقنعة والعاطفية المؤثّرة، وكان النبيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ إمتدادًا للبناء الرّبّاني الذي أُنيط به المرسلون من الأنبياء، لأنَّهم جميعًا جاءوا برسالة واحدة ابتدأت بها دعواتهم فقال: «إِنَّ مِثْلِي وَمِثْلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمِثْلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَكْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبْنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلَا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبْنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبْنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ»⁽⁵⁾ يقول الإمام القرطبي رحمه الله لَمَّا ذكر الأنبياء هنا: (هؤلاء كلّهم مجتمعون على التَّوحيد، فالأُمَّة هنا بمعنى الدِّين

(1) - مُحَمَّدٌ بُنُ إِسْمَاعِيلَ الصَّنْعَانِي، تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد ويليهِ شرح الصُّدُور في تحريم رفع القبور، تحقيق: عبد المحسن بُنُ حمد العباد البدر (الرِّيَاض: مطبعة السِّفير، ط1، 1424هـ)، ص 18.

(2) - عبد الكريم زيدان، أصول الدَّعوة، المرجع السَّابق، ص- ص 22، 23.

(3) - على جوهر التَّوحيد حاشية الإمام البيجوري، تحقيق: علي جمعة مُحَمَّدٌ الشَّافِعِي (القاهرة: دار السَّلام للنَّشر والطَّباعة والتَّوزيع، ط1، 1422هـ/2007م)، ص 38.

(4) - عثمان بُنُ جمعة ضميمية، مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، المرجع السَّابق، ص 216.

(5) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين، رقم الحديث 3535، ج6، ص 558. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه خاتم النبيين، رقم الحديث 2286، ج4، ص 1790.

الذي هو الإسلام⁽¹⁾ ويقول الشيخ الطيّبي رحمه الله معلّقاً عن معنى الحديث: (... شبه الأنبياء عليهم السّلام وما بعثوا به الهدى والعلم وإرشادهم النّاس إلى مكارم الأخلاق بقصر شيد بنيانه وأحسن بناؤه، ولكن ترك منه ما يصلحه وما يسدّ خلله من اللبنة، فبعث نبينا محمّد ﷺ ليسدّ ذلك الخلل مع مشاركته إياهم في تأسيس القواعد ورفع البنيان ... ويضيف، إذاً حاصل الكلام تعجّبهم من الموضوع إلّا موضع تلك اللبنة، وليس ذلك المصلح إلّا ما اختص به من معنى المحبّة وحقّ الحقيقة الذي يعتنيه أهل العرفان⁽²⁾ فجميع الأنبياء عليهم السّلام اتّخذوا المنهج العاطفي مسلّكاً هاماً في دعوتهم إلى التّوحيد، لينساب به الحقّ إلى سويداء القلوب، وينشرح القلب ويسقى بماء الحقّ الزّلال فتطفو معاني وحدانية الله إمتثالاً وانقياداً وظاهراً على الجوارح، يقول الأستاذ سيّد قطب رحمه الله: (التّوحيد هو القاعدة والأساس، فإذا وضعت تلك القاعدة وأقيم الأساس جاءت التّكاليف الفردية والاجتماعية ولها في النّفس ركيزة من العقيدة في الله الواحد)⁽³⁾ وقد تبين أهميّة البدء⁽⁴⁾ بالدّعوة إلى التّوحيد من وجوه:

أ- بقاؤه ﷺ طيلة حياته يدعو إلى التّوحيد، ويركّز عليه دون غيره، يدلّ على ذلك ما رواه الإمام مسلم عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: «قال عمرو بن عبسة السلمي: قال: كنت وأنا في الجاهليّة أظنّ أنّ النّاس على ضلالةٍ، وأنّهم ليسوا على شيءٍ، وهم يعبدون الأوثان، فسمعتُ برجلٍ بمكة يُخبرُ أخباراً، فقعدتُ على راحلتي، فقدمتُ عليه، فإذا رسول الله ﷺ مُستخفياً جُزءاً عليه قومه، فتلطّفتُ حتّى دخلتُ عليه بمكة، فقلتُ له: ما أنت؟ قال: أنا نبيّ قلتُ: وما نبيّ؟ قال: أرسلني الله قلتُ: وبأيّ شيءٍ أرسلك؟ قال: أرسلني بصلّة الأرحام، وكسر الأوثان، وأنّ يوحد الله لا يُشرك به شيء...»⁽⁵⁾ ومما يؤكّد أهميّة البدء بالتّوحيد استمراره ﷺ طيلة فترة دعوته يبدأ بعرض التّوحيد أولاً، يدلّ على ذلك إرشاده لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن أن يبدأ بالدّعوة إلى التّوحيد، ونبه الإمام الحافظ

(1) - القرطبي، تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وآخر (القاهرة: دار الكتب المصرية، ط2، ج11، 1384هـ/1964م)، ص 338.

(2) - الطيّبي، شرح الطيّبي على مشكاة المصابيح المسمّى بالكشاف عن حقائق الشّئن، كتاب الفضائل والشّمائل، باب فضائل سيّد المرسلين عليه صلوات الله وسلامه، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، رقم الحديث 5745 (الرياض: مكتبة نزار مصطفى، ط1، مج 1، 1417هـ/1997م)، ص 3634.

(3) - سيّد قطب، في ظلال القرآن (القاهرة: دار الشّروق، ط32، مج1، 1423هـ/2003م)، ص 2123.

(4) - يُنظر: إبراهيم بن عبد الله المطلق، التّدريج في الدّعوة، المرجع السّابق، ص- ص 38، 39.

(5) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب إسلام عمرو بن عبسة، رقم الحديث 832، ص 569.

إِنَّ حَجَرَ رَحِمِهِ اللَّهُ إِلَى الْحِكْمَةِ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: (وَوَقَعَتِ الْبِدْءُ بِهِمَا - أَيُّ الشَّهَادَتَيْنِ - لِأَتَاهُمَا أَصْلَ الدِّينِ الَّذِي لَا يَصْحُ شَيْءٌ إِلَّا بِهِمَا)⁽¹⁾.

ب- ولأوه ﷺ وبرأؤه من أجله، فقد أحبَّ قومًا وهم من أبعدِ النَّاسِ عنه نسبًا من أجلِ التَّوْحِيدِ، وأبغض آخرين وهم من أقرب النَّاسِ إليه نسبًا من أجله، مقتديًا في ذلك بنبيِّ الله إبراهيم الخليل ﷺ، إذ يقول الله عنه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ وَمِمَّا

تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾ [الْأَقُولُ إِبْرَاهِيمَ لِأَيِّهِ لَا سَتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلِّمْنَا لَكَ تَوَكُّلَنَا وَإِلَيْكَ أَبْنَانَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ٤] [المتحنة: 4]

فمخالاة الله بعبادته والبراءة من كلِّ معبود سواه هو معنى لا إله إلا الله يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ٢٦﴾ [الزُّحْرَف: 26-28] وَمَا يَدُلُّ عَلَى هَذَا الْوَلَاءِ وَالْبِرَاءِ هَجْرَتَهُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى

الْمَدِينَةِ، فَقَدْ كَانَتْ الْهَجْرَةُ وَاجِبَةً عَلَيْهِ وَعَلَى أَصْحَابِهِ مِنْ أَجْلِ نَصْرَةِ الْإِسْلَامِ وَمُخَالَاتَةِ أَهْلِهِ، كَمَا كَانَ بَرَأؤُهُ وَلَوْلَاؤُهُ ﷺ مِنْ أَجْلِ التَّوْحِيدِ،⁽²⁾ مهتديًا بقول الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ٦٧﴾ [التَّوْبَةُ: 71].

ج - عدم تنازله ﷺ عَنْ شَيْءٍ فِي التَّوْحِيدِ، فحينما عرضت عليه قريش أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدون إلهه سنة⁽³⁾ نزلت المفاصلة في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمُ الْكُفْرُ ١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مِمَّا عَبَدْتُمْ ٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ٦﴾ [الكافرون: 1-6].

ثالثًا: أساليب النبي ﷺ في إصلاح عقيدة التَّوْحِيدِ

لَقَدْ كَانَتْ الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ أَحَبَّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَقَدْ كَانَ حَرِيصًا عَلَى هِدَايَةِ قَوْمِهِ جَمِيعًا، لِيَدْخُلُوا فِي دِينِ اللَّهِ وَيَنْعَمُوا بِمَا أَعَدَّهُ الْخَالِقُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ خَيْرٍ

(1) - إِنَّ حَجَرَ الْعَسْقَلَانِي، فَتَحَ الْبَارِي شَرْحَ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، كِتَابُ الرِّكَاءِ، بَابُ أَخَذِ الصَّدَقَةَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ وَتَرَدُّ فِي الْفُقَرَاءِ حَيْثُ كَانُوا، رَقْمُ الْحَدِيثِ 1425، ص 419.

(2) - يُنْظَرُ: إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمَطْلُوقِ، التَّدْرِجُ فِي الدَّعْوَةِ، الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 38.

(3) - الْمَرْجِعُ نَفْسُهُ، ص 38.

جزيل وأجر عظيم⁽¹⁾، وكان يبذل قصارى جهده يدعوهم إلى الإهتداء والإقتداء، ويحزن حزنًا شديدًا على عدم استجابتهم للدعوة حتى خاطبه الله تعالى بقوله: ﴿لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ﴾ [المائدة: 41] وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَخِيعُ نَفْسِكَ عَلَى أَثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: 6] وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَخِيعُ نَفْسِكَ أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 3] فلم يكن همُّ النبي ﷺ محصورًا في مجرد إقامة الحجّة عليهم، بل كان همُّه الأكبر هو سوقهم إلى الإيمان والتوحيد، وكان يسلك في ذلك كلّ طريق من شأنه أن يحقق مراده، فالسيّدة عائشة رضي الله عنها تخبرنا: «قلت للنبي ﷺ يوم اشتدّ عليه عصيان قومه وجحودهم: هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يوم أُخذ، قال: لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال^(*)، فلم يجني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلّا وأنا بقرن الثعالب^(*)، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلّنتني فنظرت فإذا جبريل عليه السلام، فناداني، فقال: يا محمد إنّ الله عزّ وجلّ، قد سمع قول قومك لك، وما ردّوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال، فسلم عليّ، ثم قال: يا محمد إنّ الله عزّ وجلّ قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني إليك لتأمرني أمرًا، وبما شئت، إنّ شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت، فقال له النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا⁽²⁾ لننظر إلى بوارق عظمة العاطفة في نفس النبي ﷺ وعمقها، ومع كلّ الألم والحزن والإضطهاد والقهر لا يزال يخاف على قومه، ويأخذ قراره دون إنفعال، ومع تعدّد صنوف الأذى والحن التي رآها لم يتغيّر ولم يتبدّل عليهم، فقد كان ودودًا بهم رقيقًا رحيماً ولينًا وسمحًا .. وبرغم جهالة قومه سعى جاهدًا في تخليصهم من أغلال الوثنية والشرك، ويدعوهم إلى برّ التوحيد والإيمان، فاستخدم في ذلك أساليب وطرق عاطفيّة متنوّعة كان من جملتها:

(1) - الشريف حمدان راجح المجاري، الأسلوب النبوي في الدعوة، المرجع السابق، ص 108.

(*) - ابن عبد ياليل: تمّ شرحه سابقا، يُنظر ص 229.

(*) - قرن الثعالب: تمّ شرحه سابقا، يُنظر ص 229.

(2) - تمّ تحريجه سابقا، يُنظر صفحة 229.

أ - أسلوب التدرُّج

يعتبر التدرُّج من أهم الأساليب التي تيسر قبول الدعوة إلى الله، ويعنى بالتَّقدُّم خطوة خطوة، والبَدْء بالأهم فالأهم، كما يعنى التَّقدُّم بالمدعو شيئاً فشيئاً للبلوغ به إلى غاية ما طلب منه وفق طرق مشروعة مخصوصة⁽¹⁾ وحسب سنَّة التدرُّج، فقد بدأ النَّبي ﷺ دعوته إلى توحيد الله تعالى، فوجَّه هذه الدَّعوة إلى أهله وأقربائه أولاً، ثمَّ دعا قومه وعشيرته، ثمَّ أرسل الرُّسل والبعوث إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، ويأمرهم بعبادة الله وحده وإلى مكارم الأخلاق، وكان النَّبي ﷺ يراعي ما يقتضيه الحال، وبالأهم فالأهم، إذ لا يُمكن بيان ما جاء به دفعةً واحدة، لاسيَّما لحديث عهدٍ بالإسلام⁽²⁾ وهذا ما يجب أن ينهجه كلُّ داعية إلى الله، والشَّواهد على ذلك كثيرة نذكر منها على سبيل المثال:

- كان التَّوحيد أوَّل شيءٍ أمر به النَّبي ﷺ معاذاً ﷺ بالدَّعوة إليه حينما أرسله إلى اليمن واليَّا قائلاً له: «إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ أَنْ يُوحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ فَإِذَا صَلَّوْا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتَرُدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ»⁽³⁾ وفي حديث آخر: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ»⁽⁴⁾ فأمره أن يدعو إلى التَّوحيد قبل غيرها من التَّكاليف الأخرى، وقال له بعد ذلك: «فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ، بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَاءِهِمْ فَتَرُدُّ عَلَى فَقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ

(1) - يُنظَر: التدرُّج في دعوة النَّبي ﷺ، إبراهيم المطلق، المرجع السَّابق، ص 16.

(2) - التدرُّج في دعوة النَّبي ﷺ، إبراهيم المطلق، المرجع السَّابق، ص 16.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التَّوحيد، باب ما جاء في دعاء النَّبي ﷺ أُمِّته إلى توحيد الله، رقم الحديث 7372، ص 1820.

(4) - النَّووي، المنهاج في شرح صحيح مسلم، شرح النَّووي على مسلم، كتاب الإيمان، باب الدُّعاء إلى الشَّهادتين وشرائع الإسلام، رقم الحديث 19، المصدر السَّابق، ص 98.

أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب»⁽¹⁾ يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله عن رواية روح بن القاسم: (فأول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله)⁽²⁾ فأخبره ﷺ إن هم أطاعوك لذلك وشهدوا أن لا إله إلا الله واعترفوا بعقيدة التوحيد حينئذٍ أمرهم بالصلاة والزكاة، أما بدون أن يقرّوا بالتوحيد فلا تأمرهم بالصلاة، لأنه لا فائدة للصلاة والزكاة ولجميع الأعمال بدون التوحيد، يقول تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ٦٦ ﴿﴾ [سورة الزمر: 65-66] وهذا الأمر ليس خاصاً بمعاذ فقط، فهذا عام لكل من يدعو إلى الله عز وجل أن يبدأ بهذا الأصل، ويذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله الحكمة من تقديم النبي ﷺ وترتيب الصلاة عن الزكاة فقال: (إن الذي يقرّ بالتوحيد ويحدد الصلاة، يكفر بذلك، فيصير ماله فيئاً، فلا تنفعه الزكاة، وأما الخطابي كحدّ قوله: (إن ذكر الصدقة أخر عن ذكر الصلاة، لأنها إنما تجب على قوم دون قوم، وأنها لا تكرر تكرار الصلاة فهو حسن وقامه أن يقال بدأ الأهم بالمهم وذلك من التلطف في الخطاب لأنه لو طالبهم بالجمع في أول مرة لم يأمن النفرة)⁽³⁾ ويقول الدكتور أحمد عمر هاشم: (لم تأخذ الدعوة في منهجها في توجيه الناس دفعة واحدة بكل ما هو منهى عنه وبكل ما يتصل بالعقيدة والعبادات والأخلاق والعادات وغيرها، ولكنها تدرّجت في الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة في كثير من المجالات، وغالب المواقف، فكان لابد من حسم العقيدة أولاً، ولا سيما في المجتمع الوثني الغارق في جهالة لا تعرف النور والهدى)⁽⁴⁾ لقد شمل خطاب النبي ﷺ لمعاذ التدريج في دعوة الناس إلى وحدانية الله، والذي يأخذ بالناس تدريجياً إلى تقبل الحق وإتباعه، فبرزت عاطفته ﷺ بالناس بأن لا يلقي عليهم الأوامر جملة واحدة حتى لا ينقرهم من الإسلام، ولا يلقي عليهم أمور الدين كرهاً أو إرغاماً حتى ينساب الحق إلى سويداء قلوبهم ويكتمل الإيمان في صدورهم، لأنهم بهذا لو عرفوا الله

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا، رقم الحديث 1496، ص 189.

(2) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا، رقم الحديث 1496، المرجع السابق، ص 358.

(3) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء، المرجع السابق، ص 359.

(4) - أحمد عمر هاشم، الدعوة الإسلامية منهجها ومعالمها (القاهرة: مكتبة غريب، د، ط، د، ت)، ص 17.

وآمنوا به لم يشقّ عليه الأمر بالعبادات الأخرى وهذا الأسلوب استطاع عليه الصّلاة والسّلام من خلاله تأليف قلوب العديد منهم للإسلام ،وما جاء عن أبي هريرة ؓ أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: «ذُلّني على عملٍ إذا عملته، دخلتُ الجنّة؟ قال: تعبّد الله ولا تُشرك به شيئاً، وتقيم الصّلاة المكتوبة، وتؤدّي الزكاة المفروضة، وتَصُوم رمضان، قال: والذي نفسي بيده، لا أزيد على هذا، فلمّا ولى قال النبي ﷺ: مَنْ سرّه أن ينظر إلى رجلٍ من أهل الجنّة، فليَنظُر إلى هذا»⁽¹⁾ هذا الحديث ونحوه خُوطب به أعرابٌ حديثو عهدٍ بالإسلام، فاكْتَفَى منهم بفعل الواجب في ذلك الحال؛ لئلاّ يثقل ذلك عليهم فيملّوا، حتّى إذا انشُرحت صدورهم للفهم عنه، والحرص على تحصيل ثواب المندوبات، سهّلت عليهم⁽²⁾، والدّاعية إلى الله بدوره إذا صادفت دعوته كافرٍ، عليه أن يتّخذَ حديث معاذ ؓ منهجاً أصيلاً في التدرّج بالمدعو بأن يقوم ما يقام على الآنية بتخلّيتها ثمّ بتخلّيتها، يفرغها من ظلمات الجهل والوهم ويملأها بنور اليقين والفهم، وإذا وجد نفسه في مجتمع جاهلي يجد فيه الناس على جهالة وبُعد عن دين الله أن يبدأهم بما بدأ به النبي ﷺ، وليس بمعنى أن ينطق بالشهادتين، وإنّما العمل بمقتضاها، كما على الدّاعية أن يسير بدعوته على الأسس التي ارتكز عليها حديث النبي ﷺ لمعاذ ؓ وخاصة حينما يكون المدعو منحرف العقيدة، أمّا من كان في قلبه جهالة وبعداً عن جادة الحقّ فإنّه يتذكّر أسلوب النبي ﷺ مع أصحابه فقد كان يفرغهم من عادات الجاهلية وحبّ الدُّنيا ويملئهم بحبّ الله والإيمان الصادق.

ب- البراءة من أنواع الشّركيات بالحكمة

إنّ البراءة من الشّرك وكسر الأصنام والأضرحة التي يأوي إليها العديد من الناس بالنّذر والحاجات والأدعية من قضايا العقيدة الخطيرة والبارزة قديماً وحديثاً، اعتنى بها النبي ﷺ وكرّس الكثير من الجهود في سبيل التحرّر من عبوديتها⁽³⁾، فأرسل في شأنها علي بن أبي طالب ؓ وأمره أن يسوّى بالأرض كل قبر ويهدم كل صنمٍ، محدّراً من متابعة هذه العقيدة الفاسدة فقال له: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ، وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسْجِداً أَلَّا يَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ إِيَّيْ أَنْهَاجُكُمْ عَنْ هَذَا»⁽⁴⁾ وعلى رغم

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرّكّة، باب وُجُوبِ الرّكّة، رقم الحديث 1397، ص 239.

(2) - عبد الله اللّحيدان، التدرّج في دعوة المسلم الجديد، المرجع السّابق، ص 19.

(3) - سارة بنت عبد الله جمعة البلوشي، فقه الدعوة من أمثال النبي ﷺ، المرجع السّابق، ص 270.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما يكره من اتّخاذ المساجد على القبور، رقم الحديث 1330، ص

تشدد النبي ﷺ في أمر العقيدة إلا أنه بعاطفته يعدل عن جوانب معينة ليست أساساً في العقيدة كامتناعه عن هدم الكعبة وإعادة بنائها على قواعد إبراهيم عليه السلام، فقال لعائشة رضي الله عنها: «يا عائشة، لولا أن قومك حديثو عهدٍ بشرِك، لهدمتُ الكعبة، فالزقتها بالأرض، وجعلتُ لها بابين: باباً شرقياً، وباباً غريباً، وزدتُ فيها ستّة أذرعٍ من الحجر، فإنّ قُرَيْشاً اقتصرتُها حيث بنت الكعبة»⁽¹⁾ فقد استمرّ النبي ﷺ في غرس أصول التوحيد في نفوس أصحابه، ولم يسمح لأحدٍ منهم أن يخذلها، والمثير في هذا الأمر لما رأى بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورقة من التوراة، وكان عمر رضي الله عنه قد أعجبه ما فيها، فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً، وقال لعمر رضي الله عنه: «أمتهؤكون فيها يا ابن الخطّاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيءٍ فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به والذي نفسي بيده لو أن موسى عليه السلام كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني»⁽²⁾ وكما حذر النبي ﷺ من نوع آخر للشرك وهو التوسّل والرجاء لغير الله فقال عنه رضي الله عنه: «الشرك أخفى في أمتي من ديب النمل على الصفا في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحبّ على شيءٍ من الجور أو تُبغضَ على شيءٍ من العدل، وهل الدين إلا الحبُّ في الله والبغضُ في الله؟ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31]»⁽³⁾ وورد عن الحارث الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عزّ وجلّ، أمر يحيى بن زكريا عليهما السلام بخمس كلمات يعمل بهنّ ... ثمّ قال: إن الله عزّ وجلّ أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهنّ وأمركم أن تعملوا بهنّ أو لهنّ: أن لا تشركوا بالله شيئاً، فإن من أشرك بالله شيئاً مثله كمثل رجل اشتري عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق، فقال: هذه داري وعملي فأد عملي، فجعل يعمل ويؤدي عمله إلى غير سيده، فأؤيكم يجب أن يكون له عبد كذلك يؤدي عمله إلى غير سيده؟»⁽⁴⁾ بين النبي ﷺ جانباً مهماً في العقيدة وهو توحيد الله تعالى، وكان

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل مكة وثبائها، رقم الحديث 1586، ص 385.

(2) - الألباني، إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، كتاب الوقف، رقم الحديث 1589 (بيروت: المكتب الإسلامي، ط2، ج6، 1405هـ/1985م)، ص 34.

(3) - أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحّاحين، كتاب التفسير، تفسير سورة آل عمران، أخبار القتل عوض الحسين رضي الله عنه سبعين ألفاً وسبعين ألفاً، رقم الحديث 3207 (القاهرة: دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، ج2، 1417هـ/1997م)، ص 384.

(4) - أخرجه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث الحارث الأشعري عن النبي ﷺ، رقم الحديث 17104، (القاهرة: دار الحديث، ط1، ج13، 1416هـ/1995م)، ص 289. وهو حديث صحيح، صحّحه ابن حبان والحاكم وغيرهما، وقال الألباني: هذا حديث صحيح.

عليه الصَّلَاة والسَّلَام وجميع الأنبياء - عليهم السَّلَام - أصل دعوتهم إلى ذلك، والدَّاعِيَةُ إِذَا أَرَادَ تكميل معاني العقيدة والأخلاق التي تربطها حتى تؤتي ثمارها يجب الحيلة والحذر لجناب التَّوْحِيد والاستئناس بسنة المصطفى ﷺ، ومن صور الحيلة أن رجلاً جاء إلى النَّبِيِّ ﷺ فقال: ما شاء الله وشئت، فقال له ﷺ: «أجعلني لله نداً قل ما شاء الله وحده»⁽¹⁾ ويوم جاء أعرابيٌّ إلى النَّبِيِّ ﷺ فقال: «يا رسول الله، جهدت النَّفْس وضاعت العيال، ونهكت الأموال، وهلكت الأموال، فاستسق الله لنا، فإنَّا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك، قال رسول الله ﷺ: ويحك أتدري ما تقول؟ وسبَّح رسول الله ﷺ، فما زال يسبِّح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: ويحك؟ إنَّه لا يُستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك...»⁽²⁾ فالدَّاعِيَةُ عليه أن يكون له النَّصِيب الأوفر في تصحيح عقائد النَّاس، وأن يمحو من أذهانهم آثار الجاهلية وأن ينتشل براعم الشُّرك من أصوله، كما عليه أن يركِّز على تهديم معالم الشُّرك على مستوى الفكر والاعتقاد قبل اللُّجوء إلى الهدم المباشر، وإنَّ له في رسول الله ﷺ القدوة، فكان صحابته الكرام هم من يعبدوها وبعد الفتح هم من هدموها، كما لا يعني إثارة الدَّاعِيَةُ بالدَّعوة إلى هدم الأضرحة بالقوَّة، وإنَّما يساق إليهم في بيان حقائق الإسلام وجور ما يعتقدونه سوفاً رفيقاً ليناً هادئاً وحكيماً، حتى لا ينصرف عنه النَّاس، و الإهتمام بصغائر الأمور وكبائرها في أقواله وأفعاله، وينتبه إلى أيِّ عمل يقبل عليه خصوصاً من له علاقة بالعقيدة، يسعى جاهداً تصحيحها وتصفيتها عملاً وسلوكاً، كما عليه تنفيذ مهمَّة الدَّعوة بأقصى جهد متاح بالانتصار للتَّوحيد وأهله، والقضاء على بوارد الشُّرك وأهله.

ج- التَّرهيب والتَّرهيب

لَمَّا دَعَا النَّبِيُّ ﷺ إِلَى التَّوْحِيد جمع ما بين أسلوبَي التَّرهيب والتَّرهيب، فرغب أهله بالشُّوَاب العظيم ورهب أهل الشُّرك بالعقاب الشَّدِيد فقال: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ

(1) - أخرجه أحمد في مسنده، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، رقم الحديث 1839، ج3، المصدر السابق، ص 339.

(2) - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في الجهمية، ج4، رقم الحديث 4726، ص 232. وقال: بإسناد أحمد بن سعيد هو الصَّحِيح، وافقه عليه جماعة منهم: يحيى بن معين وعلي بن المديني، ورواه جماعة عن ابن إسحاق، كما قال أحمد أيضاً: وكان سماع عبد الأعلى وابنُ المثنى وابنُ بشار من نسخة واحدة فيما بلغني، وذكر حكم الألباني: ضعيف. وأخرجه الطَّبْراني في المعجم الكبير، باب الجيم، من إسمه جبير بن مُطْعَم بن عَدِي، رقم الحديث 1547، ج2، ص 129.

الله، حرّم ماله ودمه، وحسّابه على الله عزّ وجلّ»⁽¹⁾ مبيناً في ذلك جزاء من خالط عقيدته ضلالة الشّرك بسوء عاقبته يوم القيامة بالقول: «من لقي الله، لا يشرك به شيئاً، دخل الجنة، ومن لقيه، يشرك به، دخل النار»⁽²⁾ وأشار النّبي ﷺ أنّ التّوحيد إذا كُمل في القلب يمنع صاحبه من دخول النّار كلياً فقال: «فإنّ الله حرّم على النّار من قال: لا إله إلّا الله يبتغي بذلك وجهه الله»⁽³⁾ فبين ﷺ حقيقة التّوحيد الخالص الذي إذا كُمل في القلب حبّب الله لصاحبه الإيمان وزيّنه في قلبه، وكرّه إليه الكفر والفسوق والعصيان، وإذا تحقّق تحقيقاً كاملاً في القلب بإخلاص، فإنّه يصير القليل من العمل كثيراً وتضاعف أعماله وأقواله الطيّبة بغير حدّ ولا عدّ، يقول الإمام ابنُ تيمية رحمه الله: (ليس للقلوب سرور ولذة تامّة إلّا في محبة الله والتقرّب إليه بما يحبّه، ولا تتمّ محبة الله إلّا بالإعراض عن كلّ محبوب سواه وهذا حقيقة لا إله إلّا الله)⁽⁴⁾ تجلّى منهج النّبي ﷺ من خلال مخاطبته للعواطف حرصاً على العقيدة وعنايته الواضحة لها، وتعظيم خطر من أشرك وتهاون في أداء الفرائض والعبادات والأعمال الصّالحة، حيث اقترن الدّعوة إلى التّوحيد بالدّعوة إلى أركان الإسلام، يقول الحافظ ابنُ حجر رحمه الله عن رواية الفضل بن العلاء معلّقاً عن الحديث: (إلى أن يوحدوا الله فإذا عرفوا ذلك ويجمع بينهما بأن المراد بعبادة الله توحيدَه وتوحيد الشّهادة له بذلك وبنبيّه، ووقعت البداءة بهما لأنّهما أصل الدّين الذي لا يصحّ شيء غيرهما إلّا بهما، فمن كان منكم غير موحد فالمطالبة متوجهة إليه بكلّ واحدة من الشّهادتين على التّعيين ومن كان موحدًا فالمطالبة له بالجمع بين الإقرار بالوحدانية والإقرار بالرّسالة)⁽⁵⁾.

د- تعهّد التّوحيد في القلوب ومقابلة الإساءة بالصّفح والصّبر الجميل

إنّ العقيدة التي حتّ عليها النّبي ﷺ قومه هي الدّعوة إلى وحدانية الله تعالى، وقد تجلّت في مواقف كثيرة وبصور مؤثّرة وبأساليب عاطفيّة، منها على سبيل المثال: أن قابل إساءات قومه

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال النّاس حتى يقولوا لا إله إلّا الله، باب 8، رقم الحديث 23، مج 1، ص 32.

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه،، كتاب الإيمان، باب 40، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات مشركاً دخل النار، رقم الحديث 93، مج 1، ص 55.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصّلاة، أبواب استقبال القبلة، باب المساجد في البيوت، رقم الحديث 42، ص 63.

(4) - سعيد بن علي بن وهف القحطاني، عقيدة المسلم في ضوء الكتاب والسنة (فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النّشر، ط 1، 1429هـ/2008م)، ص 537.

(5) - ابنُ حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الزّكاة، باب أخذ الصّدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا، رقم الحديث 1496، المرجع السّابق، ص 358.

وجحودهم المتأجج في كيانهم بالصّفح الجميل والصّبر الجميل، فاجتمعت فيه كامل صفات الحكمة والموعظة والتي هي أحسن، وعلى إثرها نصر الله دعوته بالصّحابة الكرام الذين تعاهدوا على توحيد كلمته، ونصرة دعوته، كأمثال أبي بكرٍ وعمرٍ وعثمان وعلي وسعد وعمار وبلال وصهيب وغيرهم من الصّحابة الكثير، هؤلاء عملوا على إرساء قواعد دعوته بأمانةٍ وصدقٍ ووفاءٍ، يفدون به بكل ما يملكون ويدافعون عن دينه بكل ما يستطيعون، ومن ضمن هذه المواقف الجليلة يوم أن اجتمع قومه لعمّه أبي طالب فقالوا له: (إن أراد ابن أخيك مالاً جمعنا له ما يعينه، وإن أراد جاهاً أو مُلكاً ملكناه علينا)⁽¹⁾ فلم تُغره إغراءات قومه ولم تُثنه تهديداتهم فقد زادت ثباتاً وعزماً وحزمًا ليقول كلمته الخالدة عن عقيدة وإيمان برسالته: «والله يا عمُّ لو وضعوا الشّمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتّى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته»⁽²⁾ ويزداد الموقف حفاوة وتأثيراً لمّا قالت قريش هذه المقالة، قال له عمّه أبو طالب: (يا ابن أخى إنّ قومك قد جاءوني فقالوا لي: كذا وكذا، للذي كانوا قالوا له، فأبق عليّ وعلى نفسك، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق، قال: فظنّ رسول الله ﷺ أنّه قد بدا لعمّه فيه بداء -يريد ظهر له رأي- أنّه خاذله ومسلمه، وأنّه قد ضعف عن نصرته والقيام معه، فقال رسول الله ﷺ قولته «والله يا عمّ...» قال: ثمّ استعبر رسول الله ﷺ فبكى ثمّ قام، فلمّا ولّى ناداه أبو طالب، فقال: أقبل يا ابن أخى فقل ما أحببت، فو الله لا أسلمك لشئٍ أبداً)⁽³⁾ فالنبي ﷺ لم يبك خوفاً من قومه، فهو موقن بأنّ الله ناصره ومؤيّد، لكنّه بكى رحمةً وإشفافاً بالإنسانية المعذّبة في الأرض، وتتعدّد محاولة القوم في إقصاء عمّه عن حمايته والدّفاع عنه وخذلانه⁽⁴⁾، وفي موقف آخر لمّا مرض عمّه أبو طالب، دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل فقالوا: (أنّ ابن أخيك يشتم أهلكنا ويفعل ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهيت، فبعث إليه فجاء النبيّ ﷺ فدخل البيت وبينهم أبي طالب قدر مجلس رجل، قال: فخشى أبو جهل إنّ جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرق له عليه، فوثب فجلس في ذلك المجلس ولم يجد رسول الله ﷺ مجلساً قرب عمّه، فجلس عند الباب فقال له أبو طالب: أيّ ابن أخى، ما لقومك يشكونك؟ يزعمون أنّك تشتم أهلكهم

(1) - عبد الملك بن هشام أبو محمّد، السيرة النبوية - سيرة ابن هشام - (مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط2، ج1، 1375هـ/1955م)، ص 293.

(2) - عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ج1، المرجع السابق، ص 299.

(3) - سيرة ابن هشام، ج1، المرجع السابق، ص- ص 284، 285.

(4) - الشريف حمدان راجح الهجاري، الأسلوب النبوي في الدّعوة، المرجع السابق، ص 147.

وتقول وتقول، قال: وأكثروا عليه من القول، وتكلم رسول الله ﷺ فقال: يا عمُّ إني أريدكم على كلمة واحدة يقولونها، فقال القوم: كلمة واحدة، نعم وأبيك عشرًا وما هي؟ وقال أبو طالب: وأي كلمة واحدة هي يا ابن أخي؟ قال: ﷺ لا إله إلا الله، فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون: أجعل الآلهة إلهًا واحدًا إنَّ هذا لشيءٌ عجاب، قال: ونزلت من هذا الموضع إلى قومه بل لها يذوقوا عذاب»⁽¹⁾ فكان صاحب العقيدة الحقَّة لا يقبل بها بدلاً ولا يبيعها بمال، ولَمَّا حضرت الوفاة عمُّه أبو طالب، حين دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل فقال: «أي عمِّ، قل لا إله إلا الله كلمة أحاجُّ لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية: أترغب عن ملَّة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيدانه بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلَّمهم: على ملَّة عبد المطلب، وأبي أن يقول: لا إله إلا الله، قال: قال رسول الله ﷺ: سأستغفر لك ما لم أنّه عنك، فنزلت: ﴿مَا

كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ

أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ [التوبة: 113] وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ [القصص: 56]»⁽²⁾ يقول أحدُ شيوخ الأزهر علي جاد الحق: (فالنبي ﷺ أمضى رسالته يؤصل العقيدة وينبتها وينميتها في قلوب المؤمنين، ويجادل عنها ويكشف نورها وحقيقتها أمام المنكرين مجادلًا بالتي هي أحسن مخاطبًا الأفئدة والقلوب مثيرًا للفكر والعواطف إلى ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان من عبودية لله)⁽³⁾ وأضاف قائلاً: (إنَّ العقيدة إذا أرسيت إلحمت بالقلوب، وطاوعتها الجوارح، فكان السَّير إلى الخير دون رياء أو تظاهر ينطق اللسان بالقول الطيب في غير تصنُّع ونفاق، والعقيدة الرَّاسخة تصنع الخير وتدفع إليه وتبعد عن

(1) - أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن الكريم، باب من سورة طه، رقم الحديث 3232، المصدر السابق، ص 72. وقال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، وروى يحيى بن سعيد عن سفيان عن الأعمش نحو هذا الحديث، وقال: يحيى بن عمارة حدثنا بندار حدثنا يحيى بن سعيد عن سفيان نحوه عن الأعمش، وأخرجه أحمد في مسنده، مسند بن هاشم، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، رقم الحديث 2009، ج 1، المصدر السابق، ص 228. وفي المستدرک علی الصحیحین، کتاب التفسیر، تفسير سورة ص، رقم الحديث 3669، وقال: حديث صحيح الإسناد.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾، رقم الحديث 4772، ص 1197.

(3) - جاد الحق علي جاد الحق، الدَّعوة إلى الله (القاهرة: دار الفاروق للنشر والتوزيع، ط 1، 2005م)، ص 115.

الشرّ والتَّهلكة⁽¹⁾ وكان عليه الصَّلَاة والسَّلَام يتركز أساسًا في إرساء عقيدة التَّوحيد بأخلاقه العالية ومشاعره الصَّادقة التي أصاب بها قلوب قومه، فالتحمت وانصاعت جوارحهم متأثرين بأسلوبه الرّصين وبمنهجه العاطفي القويم الذي أثار العواطف وألفت الانتباه فقال لقومه: «ويحكم يا قريش، إعبدوا ربَّ هذا البيت، الذي أطعمكم من جوع وآمنكم من خوف»⁽²⁾.

ولَمَّا خاطَبَ مَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ﷺ مَبِينًا لَهُ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعَذِّبُ مَنْ أَقَرَّ بَوحدانيته: «يا معاذُ هل تدري ماحقُّ الله على عباده؟ قال: قلت الله ورسوله أعلم قال: حقُّ الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً وَقَالَ: يا معاذُ هل تدري ماحقُّ العباد على الله إذا فعلوه؟، قلت: الله ورسوله أعلم قال: حقُّ العباد على الله أن لا يعذب مَنْ لا يشرك به شيئًا»⁽³⁾ إِنَّ هذا الحديث العظيم بيِّن فيه النَّبي ﷺ حقَّ الله على عباده، بأنَّ لا يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ أُنْدَادًا ولا ينسبوا لغيره شيئًا مِنْ خصائص الرُّبُوبِيَّةِ والأُلُوْهيَّةِ، كأنَّ يضاهئون أشخاصًا أو رؤساء وهم يَجْرُونَ إِلَيْهِمْ دُونَ عِلْمٍ، وَمَبِينًا أَنَّ حقَّ العباد على الله المؤمنين لَمَّا حَرَّمَ الظُّلْمَ على نفسه، وهو تعالى بحكم رحمته وعدله كتب على نفسه الرِّحْمَةَ وحَرَّمَ على نفسه الظُّلْمَ، يقول الحافظ الإمام ابن حجر رحمه الله: (اقتصر على نفي الإشراك لأنَّه يستدعي التَّوحيد بالإقتضاء، ويستدعي إثبات الرِّسالة باللُّزوم، إذ من كذب رسول الله ﷺ فقد كذب الله، ومن كذب الله فهو مشرك)⁽⁴⁾ ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (إنَّ حقيقة التَّوحيد إِنْجَذَابُ الرُّوحِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى جَمْلَةً، فَمَنْ شَهِدَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، لِأَنَّ الْإِخْلَاصَ هُوَ إِنْجَذَابُ الْقَلْبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِأَنْ يَتَوَبَّ مِنَ الذُّنُوبِ تَوْبَةً نَصُوحًا)⁽⁵⁾ وقال ابنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي حُسَيْنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَيْبَعَةَ بْنَ عَبَّادٍ يَحْدِثُهُ أَبِي قَالَ: «إِنِّي لَعَلَّامٌ شَابٌّ مَعَ أَبِي، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقِفُ عَلَى مَنَازِلِ الْقَبَائِلِ مِنَ الْعَرَبِ، فَيَقُولُ: يَا بَنِي فَلَانِ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، يَا مَرْكَمُ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَخْلَعُوا مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ

(1) - المرجع نفسه، ص 115.

(2) - أخرجه أحمد في مسنده، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، من مسند القبائل، من حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها، رقم الحديث 27607 (بيروت: مؤسَّسة الرِّسالة، ط 1، ج 45، 1461هـ/2001م)، ص 581.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التَّوحيد، باب ما جاء في دعاء النَّبي ﷺ أَقَمْتَهُ إِلَى التَّوْحِيدِ، رقم الحديث 7373، ص 900.

(4) - عبد الرَّحْمَانُ حَسَنُ آلِ الشَّيْخِ، المصنَّف فَتْحُ المَجِيد شرح كتاب التَّوحيد، د، ت، بحث قام بتهذيبه وتقريبه وتكميله وإدخال بعض النقول المستحسنة تكميلاً للفائدة وسمي فَتْحُ المَجِيد بشرح كتاب التَّوحيد، د، ت، ص 20.

(5) - عبد الرَّحْمَانُ حَسَنُ آلِ الشَّيْخِ، المصنَّف فَتْحُ المَجِيد شرح كتاب التَّوحيد، المرجع السَّابِق، ص 30.

من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي، وتمنعوني، وتصدّقوا بي حتى أبين عن الله ما بعثني به، قال: وخلفه رجلٌ أحوّلٌ وضيءٌ، له غديرتان، عليه حُلّةٌ حديثة، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا إليه، قال ذلك الرجل: يا بني فلان، إنّ هذا إنّما يدعوكم أن تسلخوا اللّات والعزّى من أعناقكم، وحلفاءكم من الجنّ من بني مالك بن قيس.. إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه، ولا تسمعوا منه، قال: فقلت لأبي: من هذا الذي يتبعه ويرد عليه ما يقول؟ قال: هذا عمّه أبو لهب⁽¹⁾ وكان ﷺ لإهتمامه بعقيدة التّوحيد يربّي صحابته على التّربية العقائدية بمواعظ بليغة ومؤثّرة ممتحنهم في حال ظهور الفتن والمنكرات، يرويها عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: حينما قال: قال لي رسول الله ﷺ: «كيف أنت إذا بقيت في خُثالة^(*) من النّاس؟ قال: قلت يا رسول الله: كيف ذلك؟ قال: إذا مرّجت عُهودهم^(*) وأماناتهم، وكانوا هكذا - وشبك بين أصابعه يصف ذاك - قال: قلت ما أصنع عند ذاك يا رسول الله؟ قال: اتّق الله عزّ وجلّ، وخُذْ ما تعرف، ودَعْ ما تُنكر، وعليك بخاصّتك وإيّاك وعوامّهم⁽²⁾» وهذا كلّهُ يُحمّل على أنّ من عَجَزَ عن القيام بواجب الدّعوة أو خاف الضّررَ عموماً، سقطَ عنه الأمرُ بالمعروف والنّهي عن المنكر باليدِ واللّسانِ ويُمكنه أن يُنكره بقلبه، وفي قصّة أخرى لمّا جاءت قريش إلى الحصين وكانت تعظّمه فقالوا له: «كلّم لنا هذا الرجل، فإنه يذكر آلهتنا، ويسبّها، فجاءوا معه حتى جلسوا قريباً من باب النّبي ﷺ فقال: أوسعوا للشّيخ، وعمران وأصحابه متوافرون فقال حصين: ما هذا الذي بلغنا عنك، أنّك تشتم آلهتنا، وتذكرهم، وقد كان أبوك حصينة وخيراً؟ فقال: يا حصين، إنّ أبي وأباك في النّار، يا حصين، كم تعبد من إله؟ قال: سبعاً في الأرض، وواحداً في السّماء، فقال: فإذا أصابك الضّرر من تدعو؟ قال: الذي في السّماء،

(1) - السّيرة النبوية لابن هشام، ج2، المرجع السّابق، ص 24.

(*) - خُثَالَةٌ مِنَ النَّاسِ: بِضَمِّ الحَاءِ الْمُهْمَلَةِ وَتَخْفِيفِ الثَّاءِ الْمُثَلَّثَةِ وَهِيَ رَدِيءٌ كُلُّ شَيْءٍ وَمَا لَا خَيْرَ فِيهِ (كتاب الفتن، باب إذا بقي في خُثَالَةٍ مِنَ النَّاسِ، ج24، ص 196).

(*) - مَرَجَتْ عُهْدُهُمْ: مَرَجَ مَرَجاً الْأَمْرَ، التَّبَسَّ وَاحْتَلَطَ فَهُوَ مَرِيجٌ، وَالَّذِينَ: إِضْطَرَبَ، الْأَمَانَةُ فَسَدَتْ، وَالْأَمْرُ: فَسَدَ وَاضْطَرَبَ وَالتَّبَسَّ الْمَخْرَجُ مِنْهُ، وَالْعُقُودُ احْتَلَطَتْ وَفَسَدَتْ وَقَلَّ الْوَفَاءُ بِهَا، وَالْأَصْلُ فِي مَعْنَاهِ الْقَلْقُ وَالْإِضْطِرَابُ أَوْ الْخِلْطُ (المرجع نفسه، ص 96).

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصّلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، رقم الحديث 479، ص 128. وأخرجه التّرمذي في كتاب الملاحم، باب الأمر والنّهي، برقم 4342، وأخرجه ابن ماجه، في كتاب الفتن، باب الثّبت في الفتنة، برقم 3957، من حديث عبد الله بن عمرو، وفي السّلسلة الصّحيحة، للألباني، ج1، رقم الحديث 206، المرجع السّابق، ص 416. وقال: إسناده صحيح.

قال: فإذا هلك المال من تدعو؟، قال: الذي في السماء، قال: فيستجيب لك وحده وتشركهم معه، أرضيته في الشكر أم تخاف أن يغلب عليك؟، قال: ولا واحدة من هاتين، قال: وعلمت أنني لم أكلم مثله، قال: يا حصين، أسلم تسلم، قال: إن لي قومًا وعشيرة، فماذا أقول؟ قال: قل: اللَّهُمَّ استهديك لأرشد أمري وزدني علمًا ينفعني، فقالها حصين، فلم يقم حتى أسلم، فقام إليه عمران، فقبل رأسه ويديه ورجليه، فلمَّا رأى ذلك النَّبي ﷺ بكى، وقال: بكيت من صنيع عمران دخل حصين وهو كافر فلم يقم إليه عمران، ولم يلتفت ناحيته، فلمَّا أسلم قضى حقَّه فدخلني من ذلك الرِّقَّة، فلمَّا أراد حصين أن يخرج قال لأصحابه: قوموا فشيّعوه إلى منزله، فلمَّا خرج من سدة الباب رآته قريش، فقالوا: صبا وتفرَّقوا عنه»⁽¹⁾ فالذي جعل حصين^(*) يدخل الإسلام بقلبه وقالبه قوَّة حجة النَّبي ﷺ وأسلوبه العاطفي المتميِّز واللِّين، فأسره باستقباله الطَّيب أن الآن له القول وحاوره بلطف دون فضاضة أو كُره، مع العلم أن حصين من أكابر سادات قريش وما كان يحمله من كره شديد وانتقاما للنَّبي ﷺ، وقد يعتري الدَّاعية مطبَّات الذُّنوب فإن لم يتجاوز حرمة العقيدة فلن تؤثر سلبيًا على خطِّ الرِّجعة إلى الخالق سبحانه وتعالى، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة»⁽²⁾ وهذا الذي جعل النَّبي ﷺ يجتهد في غرس مثل هذه المعاني في قلوب أصحابه وكان يدعو في تهجده: «اللَّهُمَّ لك أسلمتُ، وبك

(1) - علي محمد الصُّلَّابِي، السِّيرة النَّبوية عرض وقائع وأحداث، المرجع السَّابق، ص 139.

(*) - حُصَيْن: إِنَّهُ الصَّحَابِي الجليل أبو نُجَيْد عمران بن حصين صاحب راية خزاعة يوم الفتح. أسلم عام خيبر هو وأباه وأبو هريرة في وقت واحد سنة سبع، وبايع النَّبي ﷺ على الإسلام والجهاد، وكان صادقًا مع الله ومع نفسه، ورعًا زاهدًا مجاب الدعوة، يتفانى في حب الله وطاعته، كثير البكاء والخوف من الله، لا يكف عن البكاء ويقول: يا ليتني كنت رماذًا تذروه الرياح، ولي قضا البصرة وكان قد بعثه عمر ليفقههم في الدِّين، أصيب بمرض 30 عامًا وما تضحَّر من قضا الله فكان أحبَّ شيء عنده أحبُّها إلى الله، توفيَّ عام 52هـ (يُنظَر: شمس الدِّين محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرِّسالة، ط 1، ج 2، 1401هـ/1981م)، ص 508.

(2) - أخرجه التِّرْمِذِي في سننه في الجامع الكبير، أبواب الدَّعوات، باب 107، رقم الحديث 3540، ج 5، المصدر السَّابق، ص 509.

أَمَنْتُ^(*)، وعليك تَوَكَّلْتُ^(*)، وإليك أُنَبِّتُ^(*)، وبك خَاصَمْتُ^(*)، أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لا يَمُوتُ، والجَنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ⁽¹⁾ وعليه ممَّا هو واقع في أحوال الأمة اليوم حينما نشأت بينها فروقات أيَّهم أولى بالناية ما بين العقيدة والأخلاق، وما دروا أَنَّ الأخلاق هي ترجمان حقيقي للعقيدة، فكَمَا أَنَّ السَّيَّارَةَ لا يتحرَّك محرَّكها إِلَّا أَنَّ توصل بوصلات الكهرباء، كذلك العقيدة هي مَنْ تَمُدُّ الجوارح بشحنات لتقوم⁽²⁾، أمَّا ما يظهر من ممارسات الشُّرك بأنواعه فاستُخِفَّ به عند كثير من الدُّعاة، فقد تبدَّل الحسَّ العقدي لديهم، حتَّى ظهر ما حدَّر منه النَّبي ﷺ - بأسلوب عاطفي رائع - يرويه البرقائي في صحيحه: (وإنَّما أخاف على أُمَّتي الأئمة المضلِّين، وإذا وقع عليهم السَّيف لم يرفع إلى يوم القيامة، ولا تقوم السَّاعة حتَّى يلحق حيٍّ من أُمَّتي بالمشرِّكين، وحتَّى تعبد فئة من أُمَّتي الأوثان، وإنَّه سيكون في أُمَّتي كذَّابون ثلاثون، كلُّهم يزعم أَنَّهُ نبيٌّ، وأنا خاتم النبيِّين، لا نبيَّ بعدي، ولا تزال طائفة من أُمَّتي على الحقِّ منصورون لا يضرُّهم من خذلهم حتَّى يأتي أمر الله تبارك وتعالى)⁽³⁾ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: 24].

و- تصحيح العقيدة وتقويمها بالحكمة والعطف والودِّ

إنَّ ممَّا يزيد قضايا عقيدة التَّوحيد تأثيراً هو عرضها بأساليب عاطفيَّة مؤثِّرة وجَدَّابة، عن أنس رضي الله عنه قال أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه لعمر رضي الله عنهما - بعد وفاة رسول الله ﷺ -: «انطلق بنا إلى أمِّ

(*) - أَمَنْتُ: انقذت وبك صدقت، وفيه إشارة إلى الفرق بين الإسلام والإيمان، (صحيح مسلم، كتاب الذِّكر والدُّعاء والتَّوبة والاستغفار، باب التَّعوُّذ من شرِّ ما عمل ومن شرِّ ما لم يعمل، رقم الحديث 2717، ص 2086).

(*) - تَوَكَّلْتُ: أي فَوَّضْتُ أمري إليك، (المصدر نفسه، ص 2086).

(*) - أُنَبِّتُ: أي أقبَلت بِهَمَّتِي وطاعتي وأعرضت عما سواك، (صحيح مسلم، كتاب الذِّكر والدُّعاء والتَّوبة والاستغفار، باب التَّعوُّذ من شرِّ ما عمل ومن شرِّ ما لم يعمل، رقم الحديث 2717، ص 2086).

(*) - خَاصَمْتُ: أي بك أحتجُّ وأقاتل وأدافع، (المصدر نفسه، ص 2086).

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذِّكر والدُّعاء والتَّوبة والاستغفار، باب التَّعوُّذ من شرِّ ما عمل ومن شرِّ ما لم يعمل، رقم الحديث 2717، ص 2086.

(2) - علي محمد الصَّلابي، السَّيِّرة النَّبَوِيَّة عرض وقائع وأحداث، المرجع السَّابق، ص 139.

(3) - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الفتن، باب ذكر الفتن ودلائلها، رقم الحديث 4252، ج6، المصدر السَّابق، ص 305. وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ، وقال: حكم الألباني: صحيح، وفي صحيح مسلم، كتاب الأمانة، باب لا تزال طائفة من أُمَّتي على الحقِّ منصورون لا يضرُّهم من خذلهم، رقم الحديث 1920، ص 1523.

أيمن رضي الله عنها نزورها، كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما انتهينا إليها بكت، فقال لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله ﷺ فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء فجعلتا يبكيان معها⁽¹⁾ وكان الوحي المعصوم هو المصدر الذي تلقى منه الصحابة بواسطة النبي ﷺ أصول الدين وشرائعه، فأرشداهم إلى منهج المحافظة عليها ونهاهم عن مخالفتها، وما نشأت الفرق وما إنشق الصف الإسلامي الأول، إلا بمخالفة نواهي رسول الله ﷺ وهذه النواهي أجملها ابن الزبير اليماني في النصوص التالية: (النواهي عن البدع، والنواهي عن المرء مطلقاً، وبخلاف المجادلة بالتي هي أحسن، والنواهي عن المرء في القرآن، والنواهي عن المرء في القدر خاصة، والنواهي عن التفكير في ذات الله تعالى)⁽²⁾ وقد كان ﷺ لا يغفل عن سلامة عقيدة أصحابه وقوة إيمانهم، فعندما يدرك الخطأ يبادر بسرعة في توقيمه بأسلوب حكيم ومؤثر، وهو ما حدث لأسامة بن زيد يحكي قصته مع النبي ﷺ فقال: «بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرق، فصبنا القوم فهزمناهم، ولحقنا أنا ورجل من الأنصار، رجلاً منهم، فلما غشيناه، قال: لا إله إلا الله، فكف الأنصاري، فطعنته برمحي حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ النبي ﷺ فقال: يا أسامة أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟، قلت: كان متعوذاً، فما زال يكررها حتى تمتيت أي لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم)⁽³⁾ فلم تمنع مكانة أسامة بن زيد ﷺ عند رسول الله ﷺ وحبه له من أن يقف موقف المؤلظ عليه، المبين له خطر ما وقع فيه، فأخذ رسول الله ﷺ يكرر الإنكار، حتى أدرك أسامة ﷺ فداحة غلطته، وخطر زلته وخشي عاقبة ذلك، فيأتي ليعبر عن شدة تأثره بهذا فيقول: «فلا والله لا أقاتل أحداً قال: لا إله إلا الله بعدما سمعت رسول الله ﷺ»⁽⁴⁾.

هـ- استغلال المواقف والأحداث في الدعوة وبأسلوب عاطفي

كان النبي ﷺ يغتنم الفرص السائحة في غرس عقيدة التوحيد وبأسلوب عاطفي رقيق، منها ما حصل لمعاد بن جبل ﷺ إذ يقول: «بينما أنا رديف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل فقال:

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أم أيمن ﷺ، رقم الحديث 2454، ص 1907.

(2) - مصطفى حلمي، قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي (لبنان: دار الكتب العلمية، ط 1، 1426هـ/2005م)، ص 32.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ [المائدة: 32]، رقم الحديث 6872، ص 1700.

(4) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله، رقم الحديث 160، ص 97.

يا مُعَاذُ، قلتُ: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعةً، ثم قال: يا معاذ، قلت لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال يا معاذُ بْنُ جَبَلٍ: قلت لبيك رسول الله وسعديك، قال: هل تدري ما حقُّ الله على عباده ؟ قلت الله ورسوله أعلم، قال: حقُّ الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ثم سار ساعة، ثم قال يا معاذُ بْنُ جَبَلٍ: قلت لبيك رسول الله وسعديك، قال: هل تدري ما حقُّ الله العباد على الله إذا فعلوه، قلت الله ورسوله أعلم، قال: حقُّ العباد على الله أن لا يعذَّبُهُمْ⁽¹⁾ لقد تلقى معاذُ بْنُ جَبَلٍ ﷺ درساً بليغاً في العقيدة، وقد تأثر به تأثراً شديداً، ممَّا جعله لا يكتفي برواية ما سمعه من رسول الله ﷺ، بل يروي تفاصيل حاله مع النبي ﷺ، وكان ﷺ لا يدع فرصة تمرُّ عليه وهو مع أصحابه وبين فئات المجتمع المدني إلا ويغتنمها ويجعل منها موعظة بليغة في التَّوْحِيد، وكثيراً منها ما تدمع العيون وتوجل منها القلوب، ومن هذه الفرص فيما رواه علي بْنُ أَبِي طالبٍ ﷺ قال: «كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْعَرْقَدِ، فَأَتَانَا النَّبِيُّ ﷺ فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ، وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ^(*)، فَنَكَسَ فَجَعَلَ يَنْكُثُ بِمِخْصَرَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، وَمَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ، إِلَّا كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ إِلَّا قَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةٌ أَوْ سَعِيدَةٌ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدْعُ الْعَمَلَ؟ فَمَنْ كَانَ مِنْنَا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْنَا مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، قَالَ: أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾﴾ [الليل: 5-6]⁽²⁾ وعليه يتعيَّن على الدَّاعِيَةِ الاستفادة من الأسلوب النَّبَوِيِّ كَالآتِي:

- الدُّعَاةُ إِلَى اللَّهِ وَرِثَةِ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ -، عَلَيْهِمْ أَنْ يَأْخُذُوا هَذَا الْإِرْثَ النَّبَوِيَّ مِنْهُجًا وَسُلُوكًا وَتَكَامُلًا مَنْسَقًا يَدًا وَاحِدَةً بَعِيدًا عَنِ التَّفَرُّقَةِ، فَتَتَوَحَّدُ جُهُودُهُمْ لِيَكُونُوا لَبْنَةً بِنَاءَ قُوَّةٍ لَا مَعُولَ هَدْمٍ وَإِضْعَافٍ لِلدَّعْوَةِ.

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرِّقَاقِ، باب من جاهد نفسه في طاعة الله، رقم الحديث 6500، ص 1616.

(*) - مِخْصَرَةٌ: ما يتوكأ عليه كالعصا ونحوه، كتاب الجنائز، باب الجريد على القبر (شهاب الدِّين أبي العباس أحمد بْنُ مُحَمَّدٍ القسطلاني، إرشاد السَّارِي لشرح صحيح البخاري، بيروت: دار الكُتُب العلمية، ط1، ج3، 2016م)، ص 459.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب موعظة المحدث عند القبر وقعود أصحابه عنده، رقم الحديث 1362، ص 329.

- كما على الدعاة التدرُّج في الدَّعوة إلى التَّوحيد، يسلكوا سبيل المصطفى عليه السَّلام في طريقته ومنهجه، بادئين بالأهمَّ من التَّوحيد ثمَّ المهمَّ من الشَّرائع والفرائض والأعمال الصَّالحة، لأنَّ المطلوب منهم إصلاح المجتمع وبذل الوُسع في تطهيره من الشُّرك.

- كما على الدَّاعية إلى الله حين يتناول موضوع الوحدانية لله عليه أن يقرَّرها ببيان معجزات الأنبياء عليهم السَّلام، التي تثبت قدرة الله واستحقاقه العبودية، كما عليه أن يقوم بواجب الدَّعوة بأقصى جهده والانتصار للتَّوحيد والقضاء على الشُّرك وأهله، وإنطلاقاً من المواقف السَّالفة الذِّكر وما ترمي إليه من معاني جليَّة وعِبر سنِّية نرى أنَّه ﷺ أعدَّ أنموذجاً لكلِّ داعية عبر الأزمنة والأمكنة وفي مختلف مجالات حياة الفرد والمجتمع أو الدَّولة فالدَّاعية المربوط بجبل الرِّبانيَّة يبقى متميِّز لكونه يضع مصالحه الخاصَّة وراءه ظهرياً وهو يشقُّ مسيرة الدَّعوة مُبجَّلاً مصالح مدعويه أفراداً وجماعات، وينأى بنفسه عمَّا يبحث عنه أصحاب الدَّعاية السِّياسية من تمكين ولو على حساب أغراضٍ وجثثٍ المخالفين.

المطلب الثالث: دعوة النَّبي ﷺ في ترسيخ قضية البعث

قبل الحديث في هذا الموضوع وتطبيقاته في دعوة النَّبي ﷺ، رأيت ضرورة تقديم سطورٍ إضاءةٍ للتعريف بالبعث من النَّاحيتين اللَّغوية والاصطلاحية ليتَّضح معناها أكثر.

أولاً: مفهوم البعث

أ - لغة

- يعرفه العلامة الزَّهري بالقول: (بمعنى الإرسال كقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 103] أيضاً الإحياء من الله للموتى، ومنه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 56] أي: أحييناكم،⁽¹⁾ ويعرفها العلامة الفيروز آبادي بالقول: (بمعنى بعثه كمنعه: أرسله كما بعثته فإنَّبعث، والناقة أثارها، وفلاناً من منامه: أهبه... وتبعث مَيَّ الشَّعر إنَّبعث كأنَّه سال.⁽²⁾)

(1) - أبو منصور محمَّد بنُ أحمد الزَّهري، تهذيب اللُّغة، تحقيق: محمَّد علي النَّجار، مادَّة بعث (الدَّار المصرية للتَّأليف والترجمة، ج2، د، ط د، ت)، ص 335.

(2) - الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق: محمَّد نعيم العرقسوسي، مادَّة بعث (بيروت: مؤسَّسة الرِّسالة، ط8، 1426هـ/ 2005م)، ص 165.

ب- اصطلاحاً

إنّ المتأمل لهذا الكون العظيم بما إشتمل عليه من دلائل الربوبية والألوهية، يعلم علماً يقينا بأنّ هذا لم يُخلق عبثاً ولا سدى، يقول تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: 115] والإيمان بالبعث من الإيمان باليوم الآخر، وهو الذي مدح فيه الله تعالى المؤمنين فقال: ﴿الْمَرَّةَ (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣)﴾ [البقرة: 1-3] وقد أوجب الإسلام الإيمان به فيقول تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ (٤)﴾ [الأنعام: 31] والمراد بالبعث هو: (إعادة الإنسان روحاً وجسداً كما كان في الدنيا)^(١)، يقول المولى عز وجل: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: 68].

ثانياً: مواقف وأساليب النبي ﷺ في ترسيخه للبعث

سلك النبي ﷺ في ترسيخه لقضية البعث مسلك القرآن الكريم مستخدماً أساليباً وطرقاً مختلفة، وقد تجلّى ذلك في أسلوبه الفطري السهل والواضح وفي تناول الإدراك، فعني بقضية البعث كعنايته بالعقيدة، والأحاديث الدالة على ذلك كثيرة أثبتت حقيقة البعث والإيمان باليوم الآخر، دعا إليها النبي ﷺ ونوع في أسلوبه لتكون شهادة حق وتصديق، فكان من جملتها:

أ- ترسيخ البعث بالموعظة الحسنة والمؤثرة

لقد كانت بعض مواعظ النبي ﷺ تحدث إرتباكاً أو خوفاً في قلوب سامعيه في الوهلة الأولى، ثمّ ييسّط لهم الأمر لينتشلهم من وحل الفزع، ويبدّل ألاماهم آمالاً، وقد بدا هذا الأسلوب جلياً مع الرّجل الذي سأله عن السّاعة؟ قائلاً: «متى السّاعة يا رسول الله؟ قال: ما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة، ولا صوم، ولا صدقة، ولكي أحبّ الله ورسوله، قال: أنت مع من أحببت»^(٢) كان جواب النبي ﷺ سديداً على سؤال الرّجل، مفصّحاً له أهميّة العمل الصّالح وأنها أهم من علم السّاعة عنده، فالآن له القول في ذلك أن اقترن الفوز والسّعادة في الآخرة بمحبّة الله ورسوله.

- وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: «قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: يا أيّها النّاس، إنّكم محشورون إلى الله تعالى خُفَاءً غُرَاءً غُرْلًا: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا

(١) - سيّد سابق، العقائد الإسلامية (بيروت: دار الكتاب العربي، د، ط، د، ت)، ص 269.

(٢) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما جاء في قول الرّجل ويليّك، رقم الحديث 6166، ص 763.

فَعَلِيلٌ ﴿١٠٤﴾ [الأنبياء: 104] فَالْنَّبِيُّ ﷺ بِحِكْمَتِهِ ذَهَبَ لِيَقْنَعَ الْعُقُولَ بِالْحُجَّةِ وَالْبِرْهَانِ وَيَهْزِلَ الْمَشَاعِرَ وَيَسْتَهْوِي الْعَوَاطِفَ بِسِحْرِ الْبَيَانِ وَأَسَالِيبِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ بِالْحَقِّ⁽¹⁾، وَهَذَا تَنْبِيْهُ لِلْغَافِلِ لِكَيْ يَقْوِيَ زَادَهُ الرُّوحِي وَالتَّعْبُدِي وَيَعِدَّ عِدَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يَدْرِكَهُ الْمَوْتُ، وَلَمَّا أَنْكَرَ مُشْرِكُو قُرَيْشِ الْبَعْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ وَإِعَادَةَ الْأَبْدَانِ بِشَبْهَةِ أَنَّ الْعِظَامَ وَالرُّفَاتَ كَيْفَ تَعُودُ إِلَى خَلْقَتِهَا الْأَوَّلَى؟، فَأَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهَ مُحَمَّدٌ ﷺ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا، وَهِيَ أَعْظَمُ مِنَ الْعِظَامِ وَالرُّفَاتِ الَّتِي يَنْكُرُونَ إِعَادَتَهَا، فَضْرَبَ لَهُمْ مِثْلًا بِمَا هُوَ أَشَدُّ مِمَّا يَنْكُرُونَهُ، فَقَالَ عَنْهُمْ: ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنَاءً نَالِ لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿٤٩﴾ ﷻ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿٥١﴾ [الإسراء: 49-51] يَقُولُ الْإِمَامُ ابْنُ جَرِيرِ الطَّبْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ: (يَقُولُ تَعَالَى ذَكَرَهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْمُكَذِّبِينَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَمَاتِ مِنْ قَوْمِكَ، كُونُوا إِنْ عَجَبْتُمْ مِنْ إِنْشَاءِ اللَّهِ إِيَّاكُمْ، وَإِعَادَتِهِ أَجْسَامَكُمْ، خَلْقًا جَدِيدًا، أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ إِنْ قَدَرْتُمْ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنِّي أَحْيِيكُمْ وَأُبْعَثُكُمْ خَلْقًا جَدِيدًا بَعْدَ مُصِيرِكُمْ كَذَلِكَ كَمَا بَدَأْتُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)⁽²⁾.

ب- ترسيخ البعث بالقصة الوجدانية

لَقَدْ تَجَلَّى هَذَا الْأَمْرُ - الْبَعْثُ - مِنْ خِلَالِ الْقِصَّةِ الْوَجْدَانِيَّةِ الَّتِي أَسْمَعُهَا النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ بَيَّنَّ فِيهَا قُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْإِحْيَاءِ بَعْدَ الْمَمَاتِ، أَخْرَجَهَا الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «ذَكَرَ رَجُلًا فِيمَنْ كَانَ سَلَفَ أَوْ قَبْلَكُمْ، آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَوَلَدًا - يَعْنِي أَعْطَاهُ - قَالَ: فَلَمَّا حُضِرَ، قَالَ لِنَبِيِّهِ: أَيُّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ، قَالُوا: خَيْرُ أَبٍ، قَالَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَبْتَسِرْ^(*) عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا - فَسَرَّهَا قِتَادَةً: لَمْ يَدَّخِرْ - وَإِنْ يُقَدَّمُ عَلَى اللَّهِ يُعَذِّبُهُ، فَاَنْظُرُوا فَإِذَا مُتُّ، فَأَحْرِقُونِي حَتَّى إِذَا صُرْتُ

(1) - مُحَمَّدٌ مُوسَى الشَّرِيفُ، الْعَاطِفَةُ الْإِيمَانِيَّةُ وَأَهْمِيَّتُهَا فِي الْأَعْمَالِ الْإِسْلَامِيَّةِ (جَدَّة: دَارُ الْأَنْدَلُسِ الْخَضْرَاءُ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ، ط 1، 1422هـ/2001م)، ص 104.

(2) - ابْنُ جَرِيرِ الطَّبْرِيِّ، تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ جَامِعُ الْبَيَانِ عَنْ تَأْوِيلِ آيِ الْقُرْآنِ، مَج 5، الْمَصْدَرُ السَّابِقُ، ص 37.

(*) - لَمْ يَبْتَسِرْ: مِنَ الْإِبْتِثَارِ إِفْتِعَالٌ مِنَ الْبَارِ بِالْبَاءِ الْمَوْحَدَةِ وَالرَّاءِ، وَمَعْنَاهُ لَمْ يَدَّخِرْ وَلَمْ يَخْبَأْ، هَكَذَا فَسَّرَهُ قِتَادَةُ، وَأَصْلُهُ مِنَ الْبُيُوتَةِ بِمَعْنَى الذَّخِيرَةِ وَالْخَيْبَةِ، قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: بَارَتِ الشَّيْءَ، وَابْتَارَتْهُ عِبَارَةٌ وَابْتَسَرَتْهُ إِذَا خَبَّأَتْهُ، وَوَقَعَ فِي رَاوِيَةِ ابْنِ السَّكَنِ: لَمْ يَأْبَتَرْ، بِتَقْدِيمِ الْهَمْزَةِ عَلَى الْبَاءِ الْمَوْحَدَةِ، حَكَاهُ عِيَاضُ وَمَعْنَاهُ: لَمْ يَقْدَمْ خَيْرًا يُقَالُ: بَارَتْهُ وَابْتَارَتْهُ كَمَا ذَكَرْنَاهُ، وَوَقَعَ فِي التَّوْحِيدِ فِي رَاوِيَةِ أَبِي زَيْدٍ الْمُرُوزِيِّ: لَمْ يَبْتَسِرْ - أَوْ لَمْ يَبْتَسِرْ - بِالشَّكِّ فِي الرَّأْيِ أَوْ الرَّأْيِ، وَفِي رَاوِيَةِ الْجَرَجَانِيِّ بَنُونَ بَدَلَ الْبَاءِ الْمَوْحَدَةِ، وَالرَّأْيِ، قِيلَ كِلَاهُمَا غَيْرُ صَحِيحٍ، وَيُرْوَى فِي غَيْرِ الْبُخَارِيِّ: يَبْتَسِرُ، بِالْهَاءِ بَدَلَ الْهَمْزَةِ وَبِالرَّاءِ وَيَبْتَسِرُ بِالْمِيمِ بَدَلَ الْبَاءِ الْمَوْحَدَةِ وَبِالرَّاءِ (يُنْظَرُ: عَمْدَةُ الْقَارِي، كِتَابُ الرِّقَاقِ، بَابُ الْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ، رَقْمُ الْحَدِيثِ 6480، الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 113).

فَحَمًّا، فَاسْحَقُونِي أَوْ قَالَ: فَاسْهَكُونِي^(*)، ثُمَّ إِذَا كَانَ رِيحٌ عَاصِفٌ فَأَذْرُونِي فِيهَا، فَأَخَذَ مَوَاتِيْقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَرَبِّي، فَفَعَلُوا، فَقَالَ اللَّهُ: كُنْ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ عَبْدِي، مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ، قَالَ: مَخَافَتُكَ أَوْ فَرَقٌ مِنْكَ فَمَا تَلَفَاهُ أَنْ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَحَدَّثْتُ أَبَا عُثْمَانَ، فَقَالَ: سَمِعْتُ سَلْمَانَ غَيْرَ أَنَّهُ زَادَ: فَأَذْرُونِي فِي الْبَحْرِ أَوْ كَمَا حَدَّثَ، وَقَالَ مُعَاذٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ، سَمِعْتُ عُقْبَةَ، سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ⁽¹⁾.

ج- استخدامہ ﷺ لأسلوب المدح

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ، فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفْئًا أَحَدٌ»⁽²⁾ وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: «أَرَاهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَشْتَمُنِي ابْنُ آدَمَ، وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْتَمَنِي، وَيُكْذِّبُنِي وَمَا يَنْبَغِي لَهُ، أَمَّا شَتْمُهُ فَقَوْلُهُ: إِنَّ لِي وَلَدًا، وَأَمَّا تَكْذِيبُهُ فَقَوْلُهُ: لَيْسَ يُعِيدُنِي كَمَا بَدَأَنِي»⁽³⁾ وَمَعَ كُلِّ هَذَا فَقَدْ خَصَّ ﷺ نَفْسَهُ بِالرَّفْعَةِ وَالْمَقَامِ الَّذِي يَسْتَوْجِبُ التَّوْقِيرَ، لَكُونِهِ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَبوصفه لنفسه ﷺ سَيِّدَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»⁽⁴⁾ إِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ -حَسَبَ شَرْحِ النَّوَوِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ- مِنْ قَبِيلِ النَّصِيحَةِ بِتَعْرِيفِ ﷺ لَهُ ﷺ وَإِعْظَامِ حَقِّهِ وَتَوْقِيرِهِ وَإِحْيَاءِ طَرِيقَتِهِ وَسُنَّتِهِ، وَبَثُّ دَعْوَتِهِ وَنَشْرُ شَرِيعَتِهِ، وَنَفْيُ التُّهْمَةِ عَنْهَا وَاسْتِثَارَةُ عُلُومِهَا وَالتَّفَقُّهُ فِي مَعَانِيهَا⁽⁵⁾، وَالدَّاعِيَةُ إِلَى اللَّهِ بِدَوْرِهِ يَقْتَضِي أَثَرُ النَّبِيِّ ﷺ بِاتِّبَاعِ مَنْهَجِهِ فِي هَذَا الْإِثْبَاتِ، لِيَتِمَّكَنَ مِنْ تَرْسِيخِ مَا أَخْبَرَ بِهِ فِي شَأْنِ قَرْبِ نَهَايَةِ الدُّنْيَا وَاقْتِرَابِ السَّاعَةِ، وَمُسْتَشْهَدًا عَلَى صَدَقِ مَا يَقُولُهُ بِشَهَادَاتِ الْعَدُولِ وَالثَّقَاتِ، لِيَقِفَ عَلَيْهَا النَّاسُ مُسْتَقْنِينَ حَقِيقَةَ وَقُوعِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَأَحْدَاثِهِ الْعَظِيمَةِ، فَاتَّبِعْ بِالْقَوْلِ: «أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمَ،

(*) - أسْهَكُونِي: مِنَ السَّهَكِ، وَقِيلَ السَّحَقُ وَهُوَ دَقُّ الشَّيْءِ نَاعِمًا، وَالسَّهَكُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَقِيلَ: السَّهَكُ دُونَ السَّحَقِ، وَهُوَ أَنْ يَفْتِ الشَّيْءُ أَوْ يَدُقُّ قِطْعًا صَغِيرًا (المرجع نفسه، ص 113).

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرِّقَاقِ، باب الخوف من الله، رقم الحديث 6480، ص 1612.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، رقم الحديث 4974، ص 1271.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب سورة ثأ ب ب ب، رقم الحديث 4974، ص 1271.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: 3]، ص 589.

(5) - النَّوَوِيُّ، شَرْحُ النَّوَوِيِّ لِصَحِيحِ مُسْلِمٍ، كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ بَيَانِ أَنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، ج 3، المَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 38.

أَلَا وَإِنَّهُ يُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي، فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتُ الشَّامَلِ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بِعَدِّكَ، فَأَقُولُ: كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: 117] فيقال: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مِنْذُ فَارَقْتَهُمْ»⁽¹⁾.

د- أسلوب الترهيب والترغيب

استخدم النبي ﷺ عند محاولات ترسيخ حقيقة البعث أسلوبَي التَّرهيب والتَّرجيب، فبين أحوال النَّاس يوم القيامة وهم يحشرون، مبرِّراً خشيته على أُمَّته وأصحابه من هذا الموقف وعِظم هولِهِ فيقول ﷺ: «يُعْثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ»⁽²⁾ أي: من مات على خير يبعث على حال سارة، ومن مات على شرٍّ يبعث على حال شنيع، وعن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون يوماً؟ قال: أبيتُ، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيتُ، قالوا: أربعون سنة؟ ثم يُنزلُ الله من السَّمَاء ماءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ، قال: ليس من الإنسان شيءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْماً وَاحِداً، وهو عَجْبُ الذَّنْبِ، ومنه يُرْكَبُ الْخَلْقُ يوم القيامة»⁽³⁾ وجاء أُنْبُ بْنُ خَلْفٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي يَدِهِ عَظْمٌ رَمِيمٌ، وَهُوَ يَفْتَتَهُ وَيَذَرُوهُ فِي الْهَوَاءِ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ أَتَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ هَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، يَمِيتُكَ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ يَبْعَثُكَ، ثُمَّ يَحْشُرُكَ فِي النَّارِ»⁽⁴⁾ ومن جهة بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ حَالِ الْفَائِزِينَ بَعْدَ الْبَعْثِ بِجَنَّاتِ الْخُلْدِ ذَاكِرًا أَوْصَافَهُمْ، كَحَافِزٍ لِلْإِقْبَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَتَرْكِ مَا يَشْغَلُهُمْ مِنْ مَوَارِدِ الدُّنْيَا، بِأَسْلُوبٍ تَحْفِيزِيٍّ يَقْرَبُ إِلَى الْأَذْهَانِ، وَفِي صُورٍ عَاطْفِيَّةٍ مُؤَثِّرَةٍ فَقَالَ: «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالًا، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّمَا أَتَتْهُمْ

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾، رقم الحديث 4625، ص 1138.

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، رقم الحديث 2878، ص 2206.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن العظيم، باب: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَأَتُونَ أَفْوَاجًا﴾، رقم الحديث 4935، ص 1253.

(4) - علي محمد الصُّلَّابِي، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، المرجع السابق، ص 124.

الشَّيَاطِينُ فَاجْتَنَلْتَهُمْ^(*) عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَخْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُزَلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَّتَهُمْ^(*) عَزَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيكَ وَأَبْتَلِي بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرُؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانِ، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا، فَقُلْتُ: رَبِّ إِذَا يَنْلَعُوا^(*) رَأْسِي فَيَدْعُوهُ خَبْرَةً، قَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرِجُوكَ، وَاغْزُهُمْ تُغْزِيكَ، وَأَنْفَقْ فَسَنْتَفِقَ عَلَيْكَ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثُ خَمْسَةً مِثْلَهُ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مِنْ عَصَاكَ، قَالَ: وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ ذُو سُلْطَانٍ مُقْسَطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقٌ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ، قَالَ: وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ: الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبَرَ لَهُ، الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لَا يَنْتَعُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا، وَالْخَائِتُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ، وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ، وَرَجُلٌ لَا يَصْبِيحُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ وَذَكَرَ الْبُخْلُ أَوْ الْكَذِبَ وَالشَّنْظِيرُ الْفَحَّاشُ...⁽¹⁾ وَفِي لِقَاءِ بَيْنِ أَبِي رَزِينِ الْعَقِيلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالنَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُهُ، كَيْفَ يَحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى؟ فَقَالَ: «أما مررت بالوادي محلاً، ثم تمر به خضرًا كذلك يحيي الله الموتى»⁽²⁾ كان السؤال صريحًا ومباشرًا من أبي رزین العقيلي عندما سأله كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ والنبي ﷺ أثار ذهن الصحابي وأحاسيسه وتفكيره من خلال تصويره لبعث الناس وإعادة خلقهم من جديد، وقد سبقه في ذلك سؤال خليل الله إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِكَ ثُبُورٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيُطَمِّينَ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 260] فالأحاديث

(*) - فاجتَنَلْتَهُمْ: استخفُّوهم فذهبوا بهم، وأزالوا عما كانوا عليه، وجالوا معهم في الباطل، اجْتَئَلَ الرَّجُلُ الشَّيْءَ ذهب به، واجتال أموالهم ساقها وذهب بها. (صحيح مسلم، كتاب الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم الحديث 2865، ص 2197).

(*) - فَمَقَّتَهُمْ: المقت أشدُّ البغض، والمراد بهذا المقت والنظر ما قبل بعثة رسول الله ﷺ (صحيح مسلم، كتاب الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم الحديث 2865، ص 2197).

(*) - يَنْلَعُوا: يشدخوه ويشجّوه كما يشدخ الخبز، أي يكسر (صحيح مسلم، كتاب الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم الحديث 2865، ص 2197).

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم الحديث 2865، ص 2197.

(2) - أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، باب لقيط بن عامر أبو رزین العقيلي، رقم الحديث 470 (القاهرة: مكتبة إبن تيمية د، ط، ج 19، د، ت)، ص 308.

السَّالفة توضَّح أصلاً من أصول الإيمان باليوم الآخر، وقضيَّة هامة من قضايا العقيدة الصَّحيحة ألاَّ هي قضية البعث والنُّشور، عرضها النَّبي ﷺ بطريقة حوارية مؤثرة ويؤكِّدها بحجَّة مقنعة واضحة، وعليه ظهرت عناية النَّبي ﷺ بهذا الأمر غاية الاهتمام، وقد استخدم أساليباً عاطفية مثيرة لترسيخ عقيدة البعث في الأذهان وتطويع القلوب نحو الإيمان، كلَّها من شأنها أن تغرس في النفوس وتمكِّنها في القلوب، وثبَّت فيهم الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا نَطَعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ۝٩﴾ [الإنسان: 9].

و عليه يستدعي من الدَّاعية إلى الله:

- أن يولي الحديث عن الآخرة أهميَّة بالغة خصوصاً باستخدام المنهج العاطفي، لأنَّه يُهيِّج العواطف فيرى الخشية على المحيَّا جليَّة ومن ثمَّ تزيد السَّامع عزِّماً على عزِّم ويُبعث فيه الحزمُ والجزمُ على فعل الخير وغشيان أبوابه، والإبتعاد عن المنكر وسدِّ أبوابه، لذا كانت الأدلَّة الواردة السَّالفة الذكر أشبه ما تكون بمجسِّ يُعيد للقلب خفقانه، وللدِّم الفؤار دَوْرانه، كيف لا وهو القرآن منهج النَّبي ﷺ الأعظم ﷺ حيث جعله القدوة في تبليغ الرِّسالة وبما يتلقَّون صحابته الكرام من عطفٍ إلى درجة أن يعتصر مكانهم أنفسهم، فإذا ودَّق إعجابهم وسنا أرواحهم يشي بهم بما تفرق على العيون من دموع وما رجفت من رواجفة قلوبهم.

- أن يسلك منهج النَّبي ﷺ في إثباته للبعث بمثل هذه الأساليب المثيرة والطَّيبة على النفوس.

- ينبغي على الدَّاعية أن يعتني بدعوة المشركين بالله وأهل الكفر، ويسلك معهم مسالك عدَّة منها: إثبات ألوهية الله تعالى وترسيخها في القلوب، والبعث، وصدق النبوة بالأدلَّة العقلية والنقلية، ولاسيما بأساليب عاطفيَّة راشدة، بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، وتذكيرهم بنعم الله عليهم، وكما كان يدعو النَّبي ﷺ قومه.

- عند بيانه للبعث عليه أن يبيِّن عظمة الله وقدرته على البعث ولقاء الله عزَّ وجلَّ بالأدلَّة العقلية، ومن خلال طرق وأساليب تسمح بإثارة العواطف وإلهابها، ويسعى إلى إزالة ما حولها من تساؤلات وتشكيكات من قبل المدعوين.

و- أسلوب التذكير بنعم الله

أثبت النَّبي ﷺ البعث من خلال وقائع تحدث للإنسان عند البعث بعد الموت، والتي منها تذكيره بنعم الله في الدنيا والآخرة ونعمة الرُّسل والرِّسالات، فعن عدي بن حاتم ﷺ قال: «كنتُ عند رسول الله ﷺ فجاءه رجلان أحدهما يشكو العيلة، والآخر يشكو قطع السَّبيل، فقال رسول الله ﷺ:

أَمَّا قَطْعُ السَّبِيلِ: فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَيْكَ إِلَّا قَلِيلٌ، حَتَّى تَخْرُجَ الْعِيرَ إِلَى مَكَّةَ بِغَيْرِ خَفِيرٍ، وَأَمَّا الْعِيْلَةُ: فَإِنَّ السَّاعَةَ لَا تَقُومُ، حَتَّى يَطُوفَ أَحَدُكُمْ بِصَدَقَتِهِ، لَا يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهَا مِنْهُ، ثُمَّ لَيَقْفَنَّ أَحَدُكُمْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ وَلَا تَرْجَمَانٌ يُتَرَجَّمُ لَهُ، ثُمَّ لَيَقُولَنَّ لَهُ: أَلَمْ أُوتِكَ مَالًا؟ فَيَقُولَنَّ: بلى، ثُمَّ لَيَقُولَنَّ أَلَمْ أُرْسِلْ إِلَيْكَ رَسُولًا؟ فَيَقُولَنَّ: بلى، فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ، ثُمَّ يَنْظُرُ عَنْ شِمَالِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ، فَلَيَتَقَيَّنَّ أَحَدُكُمْ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ⁽¹⁾ وَقَالَ ﷺ: «يُؤْتَى بِالْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعًا وَبَصَرًا وَمَالًا وَوَلَدًا، وَسَخَّرْتُ لَكَ الْأَنْعَامَ وَالْحَرْثَ، وَتَرَكْتُكَ تَرَأْسُ وَتَرْبُعُ فَكُنْتَ تَظُنُّ أَنَّكَ مُلَاقِي يَوْمِكَ هَذَا؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ لَهُ: الْيَوْمَ أَنْسَاكَ^(*)» كَمَا نَسِيتَنِي⁽³⁾ صَوَّرَ النَّبِيُّ ﷺ الْبَعثَ فِي مَشْهَدٍ حَوَارِيٍّ رَائِعٍ يَجْعَلُ الْقَارِئَ يَعِيشُهُ وَكَأَنَّهُ جِزَاءُ مِنْ هَذَا الْمَشْهَدِ، وَالَّذِي يَكْسِبُهُ حَالَةَ شُعُورٍ رَهِيْبَةٍ تَدْعُوهُ إِلَى التَّدَبُّرِ وَالتَّأَمُّلِ فِي مَدَى النِّعَمِ الَّتِي أَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ أَنْ يَذْكُرَهَا وَبِمَا أَنْصَبَ عَلَى الْقَلْبِ مَآسِنَ الْغَفْلَةِ وَصَدِيدَ النِّسْيَانِ وَالتُّكْرَانِ، وَفِي إِعْطَاءِهِ حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ فِي الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ، لِيَبْدَأَ الْعَرْضَ بِالْحَاسِبَةِ وَيَذْكُرَهُ بِالنِّعَمِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي مَنْحَهَا اللَّهُ لَهُ مِنْ مَالٍ وَجَاهٍ، وَيَأْتِي كَلَامَهُ أَنَّهُ لَا تَقُومُ الْقِيَامَةُ حَتَّى يَعِمَّ الْغِنَى وَالثَّرَاءُ فَيَطُوفُ أَحَدُهُمْ بِصَدَقَتِهِ لَا يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهَا، وَذَلِكَ لِتَوَاجُدِ الْمَالِ فِي أَيْدِي النَّاسِ، ثُمَّ لَيَقْفَنَّ أَحَدُهُمْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ، فَيَحَاسِبُ الشَّحِيحَ عَلَى بَخْلِهِ، وَيَثَابُ الْمُتَصَدِّقُ عَلَى صَدَقَتِهِ فِدْعًا إِلَى إِتْقَانِ النَّارِ وَلَوْ بِأَقْلٍ مَا عِنْدَهُ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ أَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ⁽⁴⁾، وَلِهَرَاةِ أَسْلُوبِ النَّبِيِّ ﷺ نَظَرَ إِلَى جَمَالِ عِظَمَةِ اللَّطِيفَةِ ﷻ، أَنْ جَعَلَ مِنَ الْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ وَمِقْدَارِ شِقِّ تَمْرَةٍ مَنَاجَاةً مِنَ النَّارِ، تَطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يَطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، فَلَمْ يَكْلَفْهُمْ الْكَثِيرَ، وَلَمْ يَعْظُمْ لَهُمْ هَوْلُ الْحِسَابِ، حَتَّى أَنَّهُ ﷺ بَثَّ فِي قَلْبِ الرَّجُلَيْنِ حُبَّ الصَّدَقَةِ، وَفَعَلَ الْخَيْرَ، وَالْأَمَلَ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ.

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الصدقة قبل الرد، رقم الحديث 1413، ص 343.

(*) - الْيَوْمَ أَنْسَاكَ: عند بعض المفسرين بمعنى: الْيَوْمَ أَتْرَكْتُكَ فِي الْعَذَابِ، وَفَسَّرَ آخَرُونَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَهُمْ﴾ [الأعراف: 51] قَالُوا: إِنَّمَا مَعْنَاهُ الْيَوْمَ نَتْرَكُهُمْ فِي الْعَذَابِ، (أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في العرض، رقم الحديث 2428، ج 4، المصدر السابق، ص 619).

(3) - أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في العرض، رقم الحديث 2428، ج 4، المصدر السابق، ص 619. وقال: هذا حديث صحيح.

(4) - حمزة محمد قاسم، مختصر شرح صحيح البخاري، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، كتاب الزكاة، باب الصدقة قبل الرد، رقم الحديث 542 (دمشق: مكتبة دار البيان، ط 1، ج 3، 1410هـ/1990م)، ص 15.

المطلب الرابع: دعوة النبي ﷺ في تأكيد النبوة

سأتناول في هذه الجزئية منهج النبي ﷺ العاطفي في تأكيد النبوة وصدق الرسالة، وذلك بذكر جملة الأساليب العاطفية المدعاة إلى التصديق والتأثير، والتي شملت آيات الله الواضحة والبراهين الصادقة بأنه أوتي له من المعجزات وجمع له من الآيات ما لم يجمع لأحد من الأنبياء قبله، ولم يعط أحد مثله فكان عليه الصلاة والسلام أوضحهم دلالة وأعمهم رسالة، والنبوة معاني متعددة قد تتفق في المقصد ولكنها تختلف في الكلمات، وهو ما أشار إليها كثير من أهل اللغة وعلماء الدعوة، فاقصرت على بعضها لأستهل بها للتوضيح، وقبل الحديث في هذا الموضوع أستهل بتقديم مفهوم النبوة من الناحيتين اللغوية والإصطلاحية.

أولاً: مفهوم النبوة

أ- لغة

- يعرفها العلامة ابن منظور بالقول: (النبي هو المكان المرتفع، وقيل النبي ما نبا من الحجارة إذا نجلتها الحوافر، والنبي العلم من أعلام الأرض التي يهتدى بها، قال بعضهم: ومنه اشتقاق النبي لأنه أرفع خلق الله ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: 57] وذلك لأنه يهتدى به⁽¹⁾).

ب- اصطلاحاً

- يعرفها العلامة الأصفهاني بالقول: (النبوة هي الرفعة والشرف، ومنها النبي، وسمي بذلك لرفعة محله عن سائر الناس⁽²⁾) يقول تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: 57]، ويعرفها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بالقول: (النبوة بأنها إنباء الله لعبده، ونبي الله من كان الله يوحى إليه وينبئه⁽³⁾)، ويعرفها الشيخ البوطي رحمه الله بالقول: (النبي إنسان أوحى الله إليه بواسطة جبريل عليه السلام أن يبلغ عامة الناس أو فئة منهم أمراً من قبل الله تعالى)⁽⁴⁾.

(1) - ابن منظور، لسان العرب، ج15، باب النون، المصدر السابق، ص 301.

(2) - الرّأغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، باب النون وما يتصل بها (مكتبة نزار مصطفى الباز، ج2، د، ط، د، ت)، ص 623

(3) - ابن تيمية الحراني، النبوات، تحقيق: عبد العزيز صالح الطويان (الرياض: مكتبة أضواء السلف، ط1، 1420هـ/2000م)، ص 873.

(4) - محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينيّات الكونية (دمشق: دار الفكر المعاصر، ط1، 1417هـ/1997م)، ص 184.

ثانيًا: مقام النبوة والرَّسول والفرق بينهما

فرَّق القرآن بين النَّبي والرَّسول، فكلاهما موحى إليه، والوحي المنزَّل على الرَّسول هو رسالة تشريعية، أمَّا الوحي المنزل على النَّبيِّ فليس فيه تشريع جديد، إمَّا يتبع النَّبي تشريع الرَّسول الذي سبقه، وبذلك فإنَّ وظيفة الرَّسول هي التَّلاوة والتَّبليغ بما أنزل الله عليه من أوامر تشريعية فيكون بذلك صاحب رسالة ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: 151] أمَّا وظيفة النَّبي فهي الدَّعوة والتَّعليم والقيادة للنَّاس، كون النبوة مقامًا علميًا وبذلك يكون النَّبي رسولاً تابعاً، تجلَّى في نبوة موسى وهارون عليهما السَّلام⁽¹⁾ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: 53] وللعلماء دور في تحديد الفرق بين النَّبي والرَّسول، وتحديد مسمَّى كلٍّ منهما، والكلام فيها كثير لا يُسلم من نقد، لكنَّ الأمر الرَّاجح عند كثير من أهل العلم أنَّ هناك فرقاً بين مسمَّى النَّبي ومسمَّى الرَّسول وإن اختلفوا في تحديد المراد بكلٍّ منهما، فإنَّ النبوة أعمُّ من الرِّسالة، وكلُّ رسولٍ نبيٌّ وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً، بمعنى آخر النبوة جزء من الرِّسالة إذ الرِّسالة تتناول النبوة وغيرها بخلاف الرُّسل فإنَّهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم، والذي يظهر أنَّ النَّبيَّ ﷺ هو من نبأه الله بشرع سابق ينذر به أهل ذلك الشَّرع، وقد يؤمر بتبليغ بعض الأوامر في قضية معيَّنة، أو الوصايا والمواعظ، وذلك كأنباء بني إسرائيل إذ كانوا على شريعة التَّوراة ولم يأت أحد منهم بشرع جديد ناسخ للتَّوراة، فتكون منزلته حينئذ بمنزلة المجدِّد لتعاليم الرُّسل السَّابقين، أمَّا الرَّسول فهو من بعثه الله بشرع وأمره بتبليغه إلى من خالفوا أوامر، وسواء كان هذا الشَّرع جديداً في نفسه أو بالنِّسبة لمن بعث إليهم، وربَّما أتى بنسخ بعض أحكام شريعة من قبله⁽²⁾ وبناء على هذا التَّفريق يمكن أن نخلِّص إلى قول الدُّكتور جابر طه العلواني: (نبوة محمَّد ﷺ للعرب ورسالته للنَّاس جميعاً كما أخبر ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158]، فعملية البعث والإرسال أي النبوة والرِّسالة معاً كانت لقوم النَّبي ﷺ والعرب ومن عاصره، أمَّا بعد موته ﷺ توقَّفت فاعلية مقام النبوة واستمر مقام الرِّسالة الذي يمثِّل في الرِّسالة ذاتها)⁽³⁾.

(1) - طه جابر العلواني، إشكالية التَّعامل مع السَّنة النَّبوية (فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1435هـ/2014م)، ص 29.

(2) - عبد الرؤوف محمَّد عثمان، محبَّة الرَّسول بين الإتيان والابتداع (الرِّياض: رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدَّعوة والإرشاد، إدارة الطَّبع والنَّشر، ط1، ج1، 1414هـ)، ص 16.

(3) - طه جابر العلواني، إشكالية التَّعامل مع السَّنة النَّبوية، المرجع السَّابق، ص 29.

ثالثًا: الأساليب العاطفية لتأكيد نبوته ﷺ

أ- تأكيد النبوة من خلال مشاركاته ﷺ الوجدانية

من الأساليب التي استخدمها النبي ﷺ في تأكيد نبوته أسلوب المشاركة الوجدانية، الدالة على إعانة المريض وإغاثة الملهوف وإشفاء العليل وهذا الأسلوب كما هو متعارف عليه -وقد أشرنا إليه سابقًا- تميّز بقوة التأثير وسرعة الاستجابة والتصديق، والشواهد الدالة عليه كثيرة وعديدة لاعدّها لها ولا حصر، إلا أنني إقتصرت على بعض منها أحدها ما جاء عن طفيل العامري جاء إلى النبي ﷺ فشكا إليه الجذام، فدعا بركوة ثم تفل فيها وأمره أن يغتسل بها فغتسل فقام صحيحًا، ومساعدته ﷺ لأصحابه وذلك ما حدث لأبي قتادة بن ربعي جاء يوم أحد وقد إقتلعت إحدى عينيه وتعلّقت على وجهه فقال: «يا رسول الله إن لي امرأة وأخشى أن ينقصني هذا عندها، فردّها رسول الله ﷺ إلى موضعها فكانت أحسن عينيه»⁽¹⁾، وأمّ جندب رضي الله عنها قالت: «رأيت النبي ﷺ إتبعت امرأة من خثعم ومعها صبي لها به بلاء فقالت: يا رسول الله إن صبيي هذا وبقية أهلي به بلاء لا يتكلم، فقال رسول الله ﷺ: إئتوني بشيء من الماء، فأتي بماء فغسل يديه ثمض مضمض فاه ثم أعادها فقال: أسقيه منه، وصبي عليه منه، واستشفى الله له قالت: فلقيت المرأة فقلت لو وهبت لي منه فقالت إنما هو لهذا المبتلى قالت: فلقيت المرأة من الحول فسألتها عن الغلام قالت برأ وعقل عقلاً ليس كعقول الناس»⁽²⁾ وعن ابن فديك أن أباه خرج به إلى رسول الله ﷺ وعيناه مبيضتان لا يبصر بهما شيئاً، فسأله ما أصابه؟ قال إني كنت أمرن جملًا لي فوقعت رجلي على بيض حية، فأصيب بصري فنفت رسول الله ﷺ في عينيه فأبصر قال: فرأيتَه يدخل الخيط في الإبرة وأنه لابن ثمانين وإن عينيه لمبيضتان⁽³⁾ أمام هذه الدلائل الخارقة تصنع للداعية نبراسًا بالدرجة الأولى يقوّي همّته ويرفع هامته ؟ أمّا قراء سيرة المصطفى ﷺ حتما سيدركون مقام النبي ﷺ الرفيع الذي أيّده ربّه بخوارق تجلّت لبعض أصحابه عين اليقين إستثمرها ﷺ في مشاركته لظروف الناس الصحيّة والاجتماعية يعايش آلامهم وآمالهم، ممّا يصبّ إهتمام النبي ﷺ في نفوس الناس أنسًا وجبًا، والداعية جدير به أن يستثمر مثل

(1) - محمد بن عمر الواقدي، المغازي، ج1، المرجع السابق، ص 242.

(2) - أبو نعيم الأصبهاني، دلائل النبوة، تحقيق: محمد رؤاس قلعي وآخر، باب دعاؤه شفاء المريض، رقم الحديث 393 (بيروت: دار التفائس، ط2، ج2، 1406هـ/1986م)، ص 464.

(3) - البيهقي، دلائل النبوة، تحقيق: عبد المعطى قلعي، باب دعاؤه برد بصر الأعمى، رقم الحديث 393 (بيروت: دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، ط1، ج2، 1408هـ/1988م)، ص 397.

هذا في دعوته، تكون وسيلة في إثبات حقيقة الإسلام مزدان بجبائل المودة ويغطيه بشعار القرآن ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: 77].

ب- تأليف القلوب بمساعدة الناس وقضاء حاجاتهم

كان النبي ﷺ كما وصفته زوجته خديجة رضي الله عنها يحمل الكلّ ويكسب المعدوم، ويعين على نوائب الحقّ من يعرف ومن لا يعرف، فشهدت نبوّته مواقف جليّة وأساليب عاطفيّة أثبتت أحقيّة دعوته منها: لمّا قدم رجل من إراش بإبل له إلى مكة فابتاعها منه أبو جهل بن هشام، فمطله بأثامها، فأقبل الإراشي حتّى وقف على نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس في ناحية المسجد، فقال: «يا معشر قريش من رجل يعديني على أبي الحكم ابن هشام، فإنّي غريب وابن سبيل، وقد غلبني على حقّي؟ فقال أهل المجلس: ترى ذلك - يهزون به إلى رسول الله ﷺ لما يعلمون ما بينه وبين أبي جهل من العداوة، إذهب إليه فهو يعديك عليه، فأقبل الإراشي حتّى وقف على رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فقام معه، فلما رآوه قام معه قالوا لرجل منّ معهم إتبعه فانظر ما يصنع؟ فخرج رسول الله ﷺ حتّى جاءه فضرب عليه بابه. فقال: من هذا؟ قال محمّد فأخرج! فخرج إليه وما في وجهه قطرة دم، وقد انتقع لونه، فقال: أعط هذا الرجل حقّه، قال: لا تبرح حتّى أعطيه الذي له، قال فدخل فخرج إليه بحقه فدفعه إليه، ثمّ انصرف رسول الله ﷺ وقال للإراشي: إلحق لشأنك، فأقبل الإراشي حتّى وقف على ذلك المجلس فقال جزاه الله خير، فقد أخذت، الذي لي، وجاء الرجل الذي بعثوا معه فقالوا: ويحك ماذا رأيت؟ قال: عجباً من العجب، والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج وما معه روحه فقال: أعط هذا الرجل حقّه، فقال: نعم! لا تبرح حتّى أخرج إليه حقّه، فدخل فأخرج إليه حقّه فأعطاه ثم لم يلبث أن جاء أبو جهل فقالوا له: ويلك مالك فو الله ما رأينا مثل ما صنعت؟ فقال: ويحكم والله ما هو إلا أن ضرب عليّ بأبي وسمعت صوته فملتت رعباً، ثم خرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلاً من الإبل ما رأيت مثل هامته، ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط، فو الله لو أبيت لأكلني»⁽¹⁾ وعن عبد الله بن سلام ﷺ قال: «إنّ الله تبارك وتعالى لمّا أراد هدى زيد بن سَعْنَةَ قال زيد بن سَعْنَةَ: إنّهُ لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمّد ﷺ حين نظرتُ إليه إلا اثنين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله ولا يزيده شدّة الجهل عليه إلا حِلماً فكُنْتُ أتلطّف له لأنّ أخايطه فأعرف حلمه وجهله قال: فخرج رسول الله ﷺ من الحُجرات ومعه عليّ بن أبي

(1) - ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، فصل أشد ما صنعه المشركون بالنبي ﷺ (دار إحياء التراث العربي، ط 1، ج 3، 1408هـ/1988م)، ص 59.

طالب فأتاه رجلٌ على راحلته كالبديوي فقال: يا رسول الله قريه بني فلانٍ قد أسلموا ودخلوا في الإسلام كُنتُ أخبرته أنهم إن أسلموا أتاهم الرزقُ رغداً وقد أصابهم شدةٌ وقحطٌ من الغيث وأنا أخشى يا رسول الله أن يخرجوا من الإسلام طمعاً كما دخلوا فيه طمعاً فإن رأيت أن تُرسل إليهم من يُغيثهم به فعلت قال: فنظر رسول الله ﷺ إلى رجلٍ إلى جانبه أراه عمرَ فقال: ما بقي منه شيءٌ يا رسول الله قال زيدُ بنُ سَعْنَةَ: فدَنَوْتُ إليه فقلتُ له: يا مُحَمَّدُ هل لك أن تبيعني تمرًا معلومًا من حائط بني فلانٍ إلى أجلٍ كذا وكذا؟ فقال: لا يا يهودي ولكن أبيعك تمرًا معلومًا إلى أجلٍ كذا وكذا ولا أُسمي حائطَ بن فلانٍ، قلتُ: نعم فبايعني ﷺ فأطْلَقْتُ هِمَاني فأعطيتُهُ ثمانينَ مثقالًا من ذهبٍ في تمرٍ معلومٍ إلى أجلٍ كذا وكذا قال: فأعطاهما الرَّجُلَ وقال: (اعجلْ عليهم وأغِثهم بها) قال زيدُ بنُ سَعْنَةَ: فلَمَّا كان قَبْلَ محلِّ الأجلِ بيومينِ أو ثلاثة خَرَجَ رسولُ الله ﷺ في جنازةِ رجلٍ من الأنصارِ ومعه أبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ ونفَرٌ من أصحابه فلَمَّا صَلَّى على الجِنَازَةِ دنا من جدارٍ فجلس إليه فأخذتُ بمجامع قميصه ونظرتُ إليه بوجهٍ غليظٍ ثم قلتُ: ألا تقضيني يا مُحَمَّدُ حقِّي؟ فو الله ما علمتُكم بني عبدِ المطلبِ - بمُطلٍ ولقد كان لي بمُخالطتكم عِلْمٌ قال: ونظرتُ إلى عمرَ بنِ الخطابِ وعيناه تدوران في وجهه كالفلَكِ المستديرِ ثم رماني ببصره وقال: أيُّ عدوِّ الله أتقولُ لرسولِ الله ﷺ ما أسمعُ وتفعلُ به ما أرى؟ فو الذي بعثه بالحقِّ لولا ما أحاذِرُ قُوَّتَه لضربتُ بسيفي هذا عنقك ورسولُ الله ﷺ ينظرُ إلى عمرَ في سكونٍ وثُودَةٍ ثم قال: إِنَّا كُنَّا أحوَجَ إلى غيرِ هذا منك يا عمرُ أن تأمرني بحسنِ الأداءِ وتأمره بحسنِ التَّباعَةِ اذْهَبْ به يا عمرُ فاقضِهِ حَقَّه وزِدْه عشرينَ صاعًا من غيرِ مكانٍ ما رُعِيتَه، قال زيدُ: فذهَبَ بي عمرُ فقضاني حقِّي وزادني عشرينَ صاعًا من تمرٍ فقلتُ: ما هذه الزَّيادةُ؟ قال: أمرني رسولُ الله ﷺ أن أزيدَكَ مكانَ ما رُعِيتُكَ فقلتُ: أتعرفني يا عمرُ؟⁽¹⁾ قال: لا، فَمَنْ أنت؟ قلتُ: أنا زيدُ بنُ سَعْنَةَ قال: الحبرُ؟ قلتُ: نعم، الحبرُ، قال: فما دعاكَ أن تقولَ لرسولِ الله ﷺ ما قلتُ وتفعلَ به ما فعلتَ فقلتُ: يا عمرُ كلُّ علاماتِ النُّبُوَّةِ قد عَرَفْتُها في وجهِ رسولِ الله ﷺ حينَ نظرتُ إليه إلَّا اثنتينِ لم أخْتَبِرْهُما منه: يسبقُ حِلْمُه جهلَه ولا يزيده شدةُ الجهلِ عليه إلَّا حِلْمًا فقد اخْتَبَرْتُهُما فأشهدُكَ يا عمرُ أيُّ قد رَضِيتُ باللهِ ربًّا وبالإسلامِ دينًا وبمُحمَّدٍ ﷺ نبيًّا وأشهدُكَ أنَّ شَطْرَ مالي - فإِنِّي أَكثَرُها مالًا - صدقةٌ على أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فقال عمرُ أو على بعضهم فإنَّكَ لا تسعُهم كلَّهم قلتُ: أو على بعضهم فرجع عمرُ وزيدُ إلى رسولِ الله ﷺ، فقال زيدُ: أشهدُ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ

(1) - البيهقي، دلائل النُّبُوَّة، تحقيق: عبد المعطى قلعجي، باب إستبراء زيد بن سَعْنَةَ أحوال النَّبي ﷺ حتَّى إذا وقف عليها وأبصر علاماتِ النُّبُوَّة فيها أسلم وانقاد، المصدر السَّابِق، ص 278.

محمداً عبده ورسوله ﷺ، فأمن به وصدقه وشهد مع رسول الله ﷺ مشاهد كثيرة ثم توفي في غزوة تبوك مقبلاً غير مدبر، رحم الله زيداً قال: فسمعت الوليد يقول: حدثني بهذا كله محمد بن حمزة عن أبيه عن جدّه عن عبد الله بن سلام⁽¹⁾.

ج- حسن تأليفه والتسام كلمته

ذكر من علامات النبوة عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «دخل النبي ﷺ مكة وجد بها ثلاثمائة وستين صنماً فأشار إلى كل صنم بعضاً وقال: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾» [الإسراء: 81] فالنبي ﷺ من خلال هذا المشهد يهين الأصنام إثباتاً لوحداية الله، فكان لا يشير إلى صنم إلا سقط من غير أن يمسه بعضاً⁽²⁾ فسقوط الأصنام بهذه معجزة وآية من آيات نبوة النبي ﷺ، يقول عنها الإمام الحافظ ابن حجر رحمه الله: (فلم يبق وثن استقبله إلا سقط على قفاه، مع أنها كانت ثابتة على الأرض، وقد شدّ لهم إبليس أقدامها بالرصاص، وفعل النبي ﷺ ذلك إذلالاً للأصنام وعابديها، وإظهار أنها لا تنفع ولا تضر ولا تدافع عن نفسها شيئاً)⁽³⁾ وذكر ابن سعد في معرض حديثه عن علامات النبوة بعد نزول الوحي على رسول الله ﷺ فقال: أخبرنا علي بن محمد عن يزيد بن عياض عن نافع عن سالم عن علي قال: «أمر رسول الله ﷺ خديجة وهو بمكة فاتخذت له طعاماً، ثم قال لعليّ رضي الله عنه: ادع لي بني عبد المطلب فدعاً أزيعين، فقال لعليّ: هلمّ طعامك، قال عليّ رضي الله عنه: فأتيتهم بشريدة، إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها، فأكلوا منها جميعاً حتى أمسكوا، ثم قال ﷺ: إسقمهم فسقيتهم بإناء هو رأي أحدهم، فشربوا منه جميعاً حتى صدروا، فقال أبو لهب: لقد سحرهم محمد، فتفرقوا ولم يدعهم، فلبثوا أياماً، ثم صنع لهم مثله، ثم أمرني فجمعتهم فطعموا، ثم قال لهم: من يؤازرني على ما أنا عليه، ويؤييني على أن يكون أخي وله الجنة؟ فقلت: أنا يا رسول الله وإني لأخذتهم سنأ وأحمشهم ساقاً، وسكت القوم، ثم قالوا: يا أبا طالب ألا ترى ابنك؟ قال: دعوه فلن

(1) - البيهقي، دلائل النبوة، تحقيق: عبد المعطي قلنجي، باب استبراء زيد بن سعة أحوال النبي ﷺ حتى إذا وقف عليها وأبصر علامات النبوة فيها أسلم وإنقاد، المصدر السابق، ص 278.

(2) - شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تاريخ الإسلام المغازي، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري (بيروت: دار الكتاب العربي، ط2، 1410هـ/1990م)، ص 550.

(3) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الرؤية يوم الفتح؟ رقم الحديث 4287، ج8، المرجع السابق، ص-ص 18، 19.

يألو ابن عمه خيراً»⁽¹⁾ إنَّ ما ذكر يؤكد أسلوب النبي ﷺ في استدراج ذوي قرابته وعشيرته للإيمان والتَّوحيد، ليحرِّك فيهم دافع الحميَّة - حميَّة القربى - سواء قربى النَّسب أو غير ذلك، كقربى المصاهرة بخفض الجناح والتلطُّف، ونحن نرى قول الله تعالى يأمره بأنَّ يتلطَّف بهم حال قبولهم أو في حال عصيانهم، فيقول تعالى عنه: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشُّعراء: 216] في الآية لطيفة بيانيه من لطائف الأسلوب القرآني، وقد علَّقت البراءة في الآية بعمل من عصى، ولم تعلق بشخصه وذاته، ولم تقل الآية فقل: إِنِّي بَرِيءٌ منكم لأنَّ ارتباط البراءة بالعمل دون ذوات العصاة وأشخاصهم لا يقطع أواصر القربى والبرِّ بها في الدُّنيا والعودة إليها بالإحسان إليها في الدُّنيا والدِّين إذا عادت إلى الإيمان والطَّاعة للرَّسول، وفي هذا تعزيز لمبدأ اجتماعي عظيم تقوم عليه دعائم الحياة الاجتماعية في الإسلام، لأنَّ ربط الموالاتة والنُّصرة بالعمل دون الأشخاص والدُّنويات بفتح الأمل أمام الشَّاردين من دعوة الإيمان والطَّاعة لله ورسوله⁽²⁾، وما حدث مع الوليد بن المغيرة لمَّا جاء إلى النَّبي ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنَّه رَقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل فاتاه فقال: «يا عم! إنَّ قَوْمَكَ يَرَوْنَ أَنَّ يَجْمَعُوا لَكَ مَالاً، قال: لم؟ قال: لِيُعْطُوكَ فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لِتَعْرِضَ لِمَا قَبْلَهُ، قال: قَدْ عَلِمْتُ قُرَيْشٌ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالاً، قال: فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكَرٌ لَهُ أَوْ أَنَّكَ كَارَةٌ لَهُ قال: وماذا أَقُولُ فو الله ما فيكم رجلٌ أَعْلَمَ بِالشُّعَارِ مِنِّي، ولا أَعْلَمَ بِرَحْزِهِ وَلَا بِقَصِيدَتِهِ مِنِّي، ولا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ، والله ما يُشَبِّهُ الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إنَّ لَقَوْلِهِ الذي يقول حَلَاوَةً، وإنَّ عليه لَطَلَاوَةً وإنَّه لَمُثَمِّرٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وإنَّه لِيَعْلُو وما يُغْلَا، وأنَّه لِيَحْطِطُ ما تَحْتُهُ، قال: لا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمَكَ حَتَّى تقول فيه! قال: فدعني حتَّى أفكِّر، فلمَّا فكَّر قال: هذا سِحْرٌ يُوَثِّرُ يَأْثَرُهُ عَنْ غَيْرِهِ، فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾⁽³⁾ وزاد البيهقي عن عكرمة رضي الله عنه قال: «جاء الوليد بن المغيرة إلى رسول الله ﷺ

(1) - ابنُ سعد بنُ منيع الهاشمي، الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عباس، ذكر علامات النبوة بعد نزول الوحي على رسول الله ﷺ، رقم الحديث 433 (بيروت: دار صادر، ط1، ج1، 1398هـ)، ص187.

(2) - الشَّريف حمدان راجح المجاري، الأسلوب النبوي في الدَّعوة، المرجع السابق، ص143.

(3) - أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصَّحیحین، کتاب التَّفسیر، تفسیر سورة المدثر (بيروت: دار التَّأصيل مركز البحوث وتقنية المعلومات، ط1، ج4، 1435هـ / 2014م)، ص493. وقال: هذا حديثٌ صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرِّجْاه ووافقه الذهبي. والبيهقي في شعب الإيمان، 1/287 ودلائل النبوة، 2/198، كما في السَّيرة لابن كثير، 1/498، وأورده الألباني في صحيح السَّيرة النبوية، ص159، وشمس الدِّين محمَّد بنُ أحمد بنُ عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء،

فقال له: اقرأ عليّ، فقرأ عليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90] قال: أعد، فأعاد النبي ﷺ فقال: والله، إنَّ له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق وما يقول هذا بشر»⁽¹⁾.

د- حسن تعامله ﷺ مع المواقف الصعبة والخارقة

كان أثر أسلوب النبي ﷺ في القلوب بليغاً، لا يمكن لأحد إنكاره، ومن تأمل في أساليب غيره لم يجد فيها أسلوباً سنخ أسلوبه، فقد حارت فيه عقولهم وتبدلت أحلامهم، فأثر فيهم تأثيراً مجرد أن يسمعوها منه الآيات والشواهد والدلالات يؤمنوا، وقد تجلّت بوضوح في بعض مواقفه الخارقة وكيفيات التعامل معها منها: ما ظهر في قصة المرأة اليهودية بخير عندما أهدت شاة مشوية فأكل منها رسول الله ﷺ وأكل القوم فقال: «ارفعوا فإن هذه الشاة أخبرتني أنها مسمومة، ثم قال لليهودية: ما حملك على ما صنعت؟ قالت: إن كنت نبيّاً صادقاً لم يضرّك الذي صنعت، وإن كنت ملكاً أرحت منك، فقال: ما كان الله ليسلطك على ذلك فقالوا: نقتلها؟ قال: لا، فعفا عنها ولم يعاقبها، وجاء الحديث ما روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وزاد فيه، فبسط رسول الله ﷺ يديه وقال: كلوا بسم الله، فأكلنا وذكرنا اسم الله فلم تضر أحد منّا إلّا ما ذكر من موت بشر بن البراء»⁽²⁾، فكان هذا الموقف له أثر كبير في نفس المرأة اليهودية، تمثّلت دلالة نبوّته ﷺ في نطق الميت وذلك أنّ الشاة المسمومة كلّمته بعد أن شويت، وأنهم أكلوا السمّ ولم يضرهم وبذلك اعترفت اليهودية وقالت: أردت قتلك، فأراد الله أن يميت أحدهم ليعلم أن الذي أكلوه سمّ، وأن يحيي جميعهم آية لرسول الله ﷺ، ومن آياته في هذه القصة تأخّر موته بالسمّ دون علّة لازمتة نحو عشرين سنة، وهذه كلّها أمور خارقة للعادات⁽³⁾، وما جاء في شهادة الرضيع والأبكم لبنينا محمد ﷺ فروي عن شمر بن عطية عن بعض

تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، باب السيرة النبوية، فصل دعوة النبي ﷺ عشيرته إلى الله (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، ج1، 2010م)، ص 83.

(1) - البيهقي، دلائل النبوة، ج2، المصدر السابق، ص 199.

(2) - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الدّيات، باب فيمن سقى رجلاً سماً أو أطعمه فمات أيقاد منه، رقم الحديث 4512، ص 180. وقال: هذا حديث صحيح، وأخرجه البيهقي في الشّئن الكبرى، كتاب الجراح، باب من سقى رجلاً سماً، رقم الحديث 16008، ج8، المصدر السابق، ص 83.

(3) - ابنُ المزيّن، إثبات نبوّة محمد ﷺ، تحقيق: أحمد آيت بلعيد (بيروت: دار الكتب العلمية، د، ط، د، ت)، ص 155.

أشياخه أن النبي ﷺ أتى بصبيٍّ قد شبَّ ولم يتكلَّم قطَّ قال: «من أنا ؟ قال: أنت رسول الله»⁽¹⁾، ومن ذلك حديث بُنِّ معقيب عن جدِّه قال: «حججت حجة الوداع فدخلت دار بمكة فرأيت فيها رسول الله ﷺ ووجهه كدارة القمر فسمعت منه عجباً، أتاه رجلٌ من أهل اليمامة بغلام يوم ولد، وقد لقَّه في خرقة، فقال له رسول الله ﷺ: يا غلام من أنا ؟ فقال: أنت رسول الله، فقال له رسول الله: بارك الله فيك، ثمَّ إنَّ الغلام لم يتكلَّم بعدها»⁽²⁾ لقد كانت هذه الدلالات مثيرة تسعى بدون شكٍّ إلى إثارة العاطفة وإلهابها، خصوصاً عندما يقرأ أو يسمع بمثل هذه الخوارق، فكانت بليغة ومؤثرة، والصَّحابة شهدوا بأسماعهم وأبصارهم أمراً معجزاً وحدثاً خارقاً للعادة، والولد الرضيع والأبكم والميِّت جميعهم يشهدون نبوة رسول الله ﷺ، والدَّاعية جدير به أن تزيد فيه إيماناً بالله وحباً لرسوله ﷺ.

و- تأكيد نبوته ﷺ بشيعة أخلاقه

ومن دلائل نبوته ﷺ كرم أخلاقه وجميل صفاته، فاشتهر بحسن الخلق وصدق الحديث وعظم الأمانة وهجر ما كان متفشياً في قومه من عبادة الأصنام وشرب الخمر وشيوع الزنا وغيرها من الموبقات، فمثل هذه الكمالات إنما هي بعض منحة الله له، وهي دليل يقنع العقلاء على نبوته ﷺ، كان لها الأثر الكبير في لفت الأنظار إلى نبوته، وإنَّ له شأن كبير، ممَّا كان من أسباب نجاح دعوته وقبولها لدى النَّاس، وبهذا النوع من الكمالات آمن من سمع عنه وكلَّ من خالطه من المسلمين قبل أن تظهر على يديه معجزات باهرة، فكان أوَّل أهل الأرض إيماناً به خديجة رضي الله عنها، استدلت لنبوة زوجها بما عرفته من كمال أخلاقه وعظيم خلاله⁽³⁾، فقالت له وقد رجع إليها من غار حراء خائفاً: «كلاً والله ما يخزيك الله أبداً، إنَّك لتصل الرَّحِم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»⁽⁴⁾ فجعلت رضي الله عنها من كريم خلاله دليلاً على صدق نبوته وملوك الرُّوم وقد رأوا في أخلاقه ﷺ دليلاً كافياً على نبوته، من هؤلاء هرقل الذي بلغه أمرُ النَّبي ﷺ، فسأل أبا سفيان - وهو يومئذ على الكفر - عن صفاته وأخلاقه، فلمَّا استبانت له نبوته قال: «إِنَّ كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدميَّ هاتين، وقد كنت أعلم أنَّه خارج، لم أكن أظنَّ

(1) - البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، باب ما جاء في شهادة الرضيع والأبكم لنبينا محمد ﷺ، ج6، المصدر السابق، ص 60.

(2) - المرجع نفسه، ص 61.

(3) - عبد الله بن محمد الموصلي، أسباب نجاح الدعوة الإسلامية في العهد النبوي، المرجع السابق، ص 112.

(4) - رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، باب 73، رقم الحديث 160، مج 1، ص 83.

أنه منكم، فلو أي أعلم أيّ أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه»⁽¹⁾ فكانت أخلاقه درسًا وعبرة لكل داعية إلى الله، يستقي منه أجمل الخلال وأعظم الشّمائل، فكانت أخلاقه من الموضوعات التي كان لها الأثر الكبير في نجاح دعوته ﷺ، وشخصه الكريم ﷺ عنوان للأخلاق وموضوعها الأصلي، ومن أشهر دلائله إشتهاره بالنبوة والمكانة التي تولّاها بين قومه، عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»⁽²⁾ فالنبي ﷺ أثبت بقوله أنه النبي حقًا فلا أزول ولا أفرّ، وأنه ابن عبد المطلب فانتسب إلى جدّه دون أبيه وافتخر بذلك، فكانت شهرته بجدّه أكثر لأنّ أباه عبد الله توفي شابًا في حياة أبيه عبد المطلب، وكان عبد المطلب مشهور شهرة ظاهرة شائعة وكان سيّد من أسياد أهل مكّة، وجاء في حديث همام بن ثعلبة في قوله: «أيكم ابن عبد المطلب» كان مشهورًا عندهم أنّ عبد المطلب بشرّ بالنبي ﷺ، وأنه سيظهر وسيكون له شأنًا عظيمًا، وكان قد أخبره بذلك سيف بن ذي يزن، وقيل أنّ عبد المطلب رأى رؤيا تدل على ظهور النبي، فأراد النبي ﷺ تذكيرهم وتنبيههم بأنّه لا بدّ من ظهوره على الأعداء، وأنّ له التقوى لنفوسهم، وأعلمهم بأنّه ثابت ملازم للحرب لم يولى مع من ولى، فصرّح بمكانته بين قومه ليس برجل عاديًا بل إنّ نبيّ حقًا لا يمكن الإعراض عنه أو التّصدي له ومحاربتة لأنّ ما جاء به الحق من ربّه⁽³⁾، ومن دلائل نبوّته تواضعه ﷺ بأنّه بشر يعترّيه ما يعترّي البشر، فعن سلمان رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ خطب فقال: «أيما رجل من أمّتي سبّته سبّة أو لعنته لعنة في غضبي، فإنّما أنا من ولد آدم أغضب كما يغضبون، وإنّما بعثني رحمة للعالمين فاجعلها عليهم صلاة يوم القيامة»⁽⁴⁾، وقال عبد الله ﷺ صلى بنا النبي ﷺ يومًا، فقال إبراهيم لا أدري زاد أو نقص فلمّا سلّم قيل له: «يا رسول الله أحدث في الصّلاة شيء؟ قال: وما ذاك؟ قالوا صلّيت كذا وكذا، فثنى رجله واستقبل القبلة وسجد سجدتين ثم سلّم فلما أقبل علينا بوجهه قال: إنه لو حدث في الصّلاة شيء لنبأتكم به ولكن إنّما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكّروني، وإذا شكّ أحدكم في صلاته فليتحرّى الصّواب

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم الحديث 6، ص 10.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كُذِّبَتْكُمْ﴾، رقم الحديث 4315، ص 1054.

(3) - النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين، رقم الحديث 1776، ج 12، المرجع السابق، ص-ص 120، 122.

(4) - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنّة، باب في التّهي عن سبّ أصحاب النبي ﷺ، رقم الحديث 4659، المصدر السابق، ص 53. وصحّحه الألباني في الصّحيح.

فليتَّم عليه ثم ليسلم ثم يسجد سجدتين»⁽¹⁾ أظهر الحديثان تواضع النبي ﷺ، فلم يعط لبشريته أكثر مما تستحق، ولم يرفعها فوق كل اعتبار كما يفعل الأمراء والملوك، فأوماً بأنه بشر قد يعتريه النسيان والغضب، وعند مجادلة المشركين في أمر نبوته لم يكونوا على استعداد في تصديقه أنه نبي من عند الله، ليس لأنهم يكذبونه وإنما هو عنادٌ فعرضوا عليه مطالب غريبة تدل على شدة تعنتهم وعلى أنهم لا يريدون أن يؤمنوا إلا إذا شاهدوا المستحيلات ورأوا الخوارق والعادات، فكان موقفه التعبير عن حزنه وشفقته تجاههم قائلاً لهم وبعبارات عاطفية لطيفة: «ما لهذا بعثت إليكم إنما جئتكم من الله بما يعثني به وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم فإن قبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم»⁽²⁾ ومن خلال هذه الشواهد الشاهدة تصدع بصوت الحق بؤاها المنهج النبوي العاطفي مقاماً علياً في مدارج دعوته ﷺ، أكسبته عظمة في شخصيته - ﷺ - وزادته عند مواجهة قومه ومعارضتهم وتعنتهم صلابة في الحق على صفحة قلبه، أمّا قلبه فاضت منه أخلاقه الجليلة ومشاعره الرحيمة، فترجمها قولاً ليّناً، كلمة طيبة، وحواراً هادئاً، وما شهد عليه أهل الكتاب وأهل الكفر من أخلاق عالية وراقية لا يماثله فيها بشر ولا أحد من العالمين تثبت حقيقة نبوته وقدرته على تثبيت القناعات، وهذه السمائل من خصائص المنهج العاطفي التي عرف عنها بقوة التأثير واستجاشة العواطف والعقول.

هـ - عظمة النبي ﷺ وقوته في التأثير بالقرآن

يقول تعالى في محكم تنزيله: ﴿أَوْ مِنْ كَانَ مِيثَاقَ حَيْثُنُهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 122] ويقول تعالى في بعض آياته: ﴿هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ يَبْتَغِي لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: 9] وانطلاقاً من هذه الآيات القرآنية أظهر الله تعالى على نبيه محمد ﷺ العديد من الآيات والدلائل الباهرة والمعجزات الخارقة للعادة عند التحدّي أكثر من سائر الأنبياء، وأعظمها معجزة القرآن ليخرج به الناس من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان والتوحيد، فقال: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إليّ

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة، رقم الحديث 401، ج 1، ص 110.

(2) - محمد علي الصابوني، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، المرجع السابق، ص 178.

فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»⁽¹⁾ فكان القرآن معجزة مناسبة لحال قوم النبي ﷺ لَمَّا كانت العرب أرباب البلاغة والفصاحة والخطابة فجعل الله معجزة النبي ﷺ في القرآن: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصّلت: 42] وقريش في بادئ الأمر أنكرت رسالة النبي ﷺ وبالكتاب الذي جاء به، فأوضح لهم حقيقة ما جاء به بالحجّة القاطعة، فكان من جملتها ما حصل بينه وبين قريش وسائر المخالفين والمنكرين أن تحدّاهم بالقرآن: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88] ثم تحدّاهم في موقف آخر قائلاً لهم: [هود: 13] فسكت المخالفون وعجزوا عن تحدّيهم لنبيّ الله ﷺ وكسره، فالقرآن الكريم من معجزاته الباهرة جاء بهدايات كاملة تامّة صالحة لشؤون البشر في كلّ زمان ومكان، فجميع مشكلات العالم وعوائصه كفيّلة بأن يكون القرآن محبّوها ومُخَبِّرَهَا فهو الأجدر أن يرعى مصالح النَّاس وهدايتهم إلى ما يصلح حالهم، كيف لا وهو كلام رب العالمين ! وهو القائل عن كلامه ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصّلت: 42] ويقول: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38] فبهذا كان تأثير القرآن القويّ العامل الحاسم في إيمان من آمنوا في أوائل الدّعوة، يوم لم يكن للنبي ﷺ ودعوته حول ولا طول، كما هو العامل الحاسم في إنجاح الدّعوة يوم لم يكن للإسلام قوة ولا منعة⁽²⁾ ويكتفى ذكر نموذجين من قصص الكثير تكشفان تأثير القرآن منذ اللّحظة الأولى كقصّة إسلام عمر بن الخطاب ﷺ لَمَّا قرأ الصّحيفة التي أعطته إياه أخته حفصة رضي الله عنها فيها سورة طه فقال: «ما أحسن هذا الكلام وأكرمه فلمّا سمع ذلك خباب خرج إليه فقال له: يا عمر والله إنّي لأرجو أن يكون الله قد خصّك بدعوة نبيّه، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: اللّهمّ أيد الإسلام بأبي الحكم ابن هاشم أو بعمر بن الخطاب»⁽³⁾، وحادثة تولّي الوليد بن المغيرة^(*) عندما سمع شيئاً من القرآن فرق قلبه له فقالت قريش:

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأوّل ما نزل ؟ رقم الحديث 4981، باب 66، ص 1273.

(2) - عبد الله بن محمّد الموسى، أسباب نجاح دعوة الإسلام في العهد النبوي، المرجع السّابق، ص 223.

(3) - عبد الملك بن هشام، السّيرة النبوية، ج 1، المرجع السّابق، ص 365. والسّيرة النبوية للصّلاّئي، المرجع السّابق، ص 154.

(*) - الوليد بن المغيرة: ابن عبد الله بن عمرو ابن مخزوم، أبو عبد شمس: من قضاة العرب في الجاهلية، ومن زعماء قريش، ومن زنادقتها. يقال له العدل لأنّه كان عدل قريش كلّها: كانت قريش تكسو البيت جميعها، والوليد يكسوه وحده. وكان ممّن حرم

«يا أبا عبد شمس أقم لنا رأيا نقل به، قال: بل أنتم قولوا اسمع، قالوا: نقول كاهن أو مجنون أو شاعر... قالوا فما: نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لَعَذْقٌ^(*)، وإن فرعه لِحِنَاءٌ^(*) وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول لأن تقولوا: ساحر، يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته»⁽¹⁾ دلّ الحديث على عظمة النبي ﷺ وقدرته في التأثير بالقرآن، فالوليد بن المغيرة من أكبر سادات قريش وأشرفها مع ما يحصل عادة من الكبراء من التكبر والتعاضم، فإنه تأثر بالقرآن ورق له واعترف بعظمته ووصفه بوصف البليغ يذكره الدكتور الصلابي حفظه الله بالقول: (لقد كان رسول الله ﷺ عظيم النجاح في دعوته، بليغا في التأثير، فيمن خاطبه حيث يؤثر فيمن جالسه بهيئته ووقاره قبل أن يتكلم أو يستمع إليه، ثم إذا تحدث أسر سامعيه بمنطقه البليغ المتمثل في العقل السليم والعاطفة الجياشة بالحب والصفاء)⁽²⁾ ففوة تأثير وإعجاز القرآن سحرت قلب الوليد وأسرت، فخرج من عمق روحه الحق إلا أنها تدخلت سحائب الباطل فهددته بنزع بساط الزعامة من تحته وحرمان الخطوة التي يتشهاها كل زعيم، لكن كل من بدد ظلمات جهله وكسر عظام كبريائه فحتما ستهداً به نفسه وتفيض بسببه دموعه، فاعترف ابن المغيرة بحجة القرآن وقوة تأثيره وإعجازه الذي لامس القلوب وحرك المشاعر ورقق بالقلوب، وأيقظ الضمير فهدأت به النفوس وفاضت بسببه الدموع يقول تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي نَقْشَعَرْمُهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ ۚ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۖ﴾ [الرؤم: 23] ويقول الدكتور أبو الأعلى المودودي رحمه الله: (القرآن الكريم ليس كتاب جزئيات، بل هو كتاب المبادئ والقواعد الكلية مهمته الحقيقية

الخمر في الجاهلية، وضرب ابنه هشام على شربها، وأدرك الإسلام وهو شيخ هرم، فعاداه وقاوم دعوته، وهو كبير قريش ومن أكبر ساداتهم، ومات بعد الهجرة بثلاثة أشهر، ودفن بالحجون. وهو والد سيف الله خالد بن الوليد (خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط 15، ج 8، 2002م)، ص 122.

(*) - لَعَذْقٌ: العذق بمعنى النخلة (السيرة النبوية للصلابي، المرجع السابق، ص 154).

(*) - لِحِنَاءٌ: الجنة ما يجني من الثمر (المرجع نفسه، ص 154).

(1) - سيرة ابن هشام، ج 1، المرجع السابق، ص - ص 270، 271.

(2) - علي محمد الصلابي، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، المرجع السابق، ص 134.

أن يعرض الأسس الفكرية والخلقية للنظام الإسلامي بوضوح ثم يثبتها تثبيثاً قوياً بكلا الطريقتين: التّدليل العقلي والتّحريض العاطفي⁽¹⁾.

المبحث الثاني: في مجال القيم والأخلاق

كان موضوع الأخلاق ركيزة أساسية من ركائز دعوة النبي ﷺ، إعتنى بها عناية فائقة، واهتمّ بها اهتماماً بليغاً، حيث أنّه لم يكتف بالحثّ عليها فقط، بل دعا إلى التمسك بالقواعد الثابتة والمبادئ السامية لها، والدعوة إلى الله هي دعوة إلى الأخلاق، ولا يمكن أن تكون كذلك إلا أن تكون أخلاقية تتحلّى بفضائلها وتبتعد عن رذائلها، مثل الغاية تبرّر الوسيلة والذي أصبح شعار وسلوكاً لدى الكثيرين، فكان موضوع الأخلاق من وصاياہ الجليّة ﷺ والمتكرّرة لأصحابه، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «آخر ما أوصاني به رسول الله ﷺ حين وضعت رجلي في العرّز أن قال: أحسن خلقتك للناس يا معاذ بن جبل»⁽²⁾ ولذا نجد اهتمام النبي ﷺ بموضوع الأخلاق بالغ الأهمية بعد إهتمامه بالعقيدة، فجاء ليقوم عوجها ويحدّر من سيئها، ويثبت الخلق الحميد ويحثّ عليه فقال - ﷺ -: «لكلّ دين خلقاً وخلق الإسلام الحياء»⁽³⁾ وقال - ﷺ -: «ولا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا... إخواناً»⁽⁴⁾ هذا الإهتمام النبوي يجعل من الدّاعية إلى الله لا يُقبل على عمل إلا ويقومه أهو حميداً أم ذميماً؟ فإن كان حميداً أقبل عليه، وإن كان ذميماً تركه، مصداقاً لقول النبي ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»⁽⁵⁾ قصر النبي ﷺ أهداف رسالته على الأخلاق، وأنّه جاء ليتّم البناء الأخلاقي

(1) - أبو الأعلى المودودي، المبادئ الأساسية لفهم القرآن (التراث العربي للطباعة، د، ط، د، ت)، ص 63.

(2) - مالك بن أنس، الموطأ، تحقيق: كلال حسن علي، كتاب حسن الخلق، باب ما جاء في حسن الخلق، رقم الحديث 1733 (بيروت: مؤسّسة الرّسالة ناشرون، ط 1، 1434هـ/2013م)، ص 692.

(3) - المصدر نفسه، كتاب حسن الخلق، باب ما جاء في الحياء، رقم الحديث 1734، ص 693.

(4) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب 9، باب تحريم الظّن والتّحسس والتّنافس والتّناجش ونحوها، رقم الحديث 2563، ص 1193.

(5) - أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الشّهادات، باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، رقم الحديث 20782 (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 3، ج 10، 1424هـ/2002م)، ص 323 وأخرجه الحاكم، المستدرک في الصّحیحین، کتاب تواریخ المتقدّمین من الأنبياء والمرسلین علیهم السّلام، من کتاب آیات رسول الله ﷺ التي هي دلائل النبوة، رقم الحديث 4221/231، ج 2، ص 670، ورواه البخاري في الأدب المفرد، برقم 273، وإثنى سعد في الطّبقات وقال: هذا إسناد حسن، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال إثنى عبد البر: هو حديث صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره.

الذي بدأت الرسائل السابقة به، يقول ابنُ الملك في المشكاة: (أي أُرسلني إلى العالم لِيَتِمَّ بوجودي مكارم أخلاق عبادته، ولِيُكْمَلَ محاسن أفعالهم)⁽¹⁾ وقال في حديث آخر: «مثلي ومثل الأنبياء كممثل رجل بنى داراً فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون: لولا موضع اللبنة، فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء»⁽²⁾ وعليه فالباحث في موضوع الأخلاق يجد كمًّا هائلاً من الأدلة الواردة من الكتاب والسنة النبوية التي تدعو إلى إثراء القيم الأخلاقية، وبيان آثارها في المجتمع وهذا ما دلَّ عليه عناية النبي ﷺ الفائقة في بناء الأخلاق وتزكيتها.

والحديث في موضوع الأخلاق عبر مسيرة دعوة النبي ﷺ شاسع وعريض لا يمكن حصره، لكن يمكن الاكتفاء بنماذج اشتهر بها النبي ﷺ والتي تتمحور في صنفين : الأول: منها ما إمتثل بها النبي ﷺ ودعا إليها أصحابه، وهي الأخلاق الحميدة كخلق الحياء والعفة والصبر والرحمة والتعاطف والتوُّد، والثاني: منها ما نبذها النبي ﷺ مُحَذِّراً منها مشدداً الإمتثال بها، وهي الأخلاق الذميمة كالتكبر والإساءة والغرور والظلم.... إلخ، إلا أنَّ قبل الحديث في تطبيقات هذه الأخلاق وأثرها في دعوة النبي ﷺ يستدعي مني بدايةً التعريف بالأخلاق من الناحية اللغوية والإصطلاحية، ثمَّ يكون الحديث في مظاهر استخدامه ﷺ للمنهج العاطفي في غرس هذه القيم الأخلاقية.

المطلب الأول: مفهوم الأخلاق وأهميتها في الدعوة إلى الله

أولاً: مفهوم الأخلاق

أ - لغة

- يعرفها العلامة الفيروز آبادي بالقول: (الأخلاق جمع خُلُق، والخُلُق -بضم اللام وسكونها- هو الدِّين والطَّبع والسَّجَّة والمروءة، وحقيقته أن صورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها، بمنزلة الخُلُق لصورته الظَّاهرة وأوصافها ومعانيها)⁽³⁾ ويعرفها العلامة الرَّاغِب الأصفهاني بالقول: (والخُلُق والخُلُق في الأصل واحد.. لكن خصَّ الخُلُق بالهيئات والأشكال والصُّور المدركة بالبصر، وخصَّ الخُلُق بالقوى والسَّجَايا المدركة بالبصيرة)⁽⁴⁾ ويعرفها العلامة ابنُ منظور بالقول: (الخُلُق

(1) - محمَّد القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، كتاب الفضائل (بيروت: دار الفكر، ط 1، ج 9، 1422هـ/ 2002م)، ص 3692.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ، رقم الحديث 3234، ص 873.

(3) - الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مادة خلق، المصدر السابق، ص 881.

(4) - الرَّاغِب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، مادة خلق (دمشق: دار القلم، ط 1، ج 1، 1412هـ)، ص 297.

بمعنى السَّجِيَّة .. فهو بضمّ الخاء وسكونها، الدِّين والطَّبَع والسَّجِيَّة⁽¹⁾ وإنطلاقاً من المفاهيم اللُّغوية تبين أن الأخلاق جاءت بمعنى: السَّجِيَّة، والمروءة، وهي جانبين جانب باطني، وجانب ظاهري سلوكي.

ب- اصطلاحاً

لقد كان لمفهوم الأخلاق تعاريف كثيرة ومختلفة، أشارت إليها العديد من المذاهب والاتجاهات الفلسفية ولاسيما في المنظور الإسلامي، ولا أستطيع جمع الكثير من المفاهيم عن الأخلاق لكثرتها وتشعبها ولكن سأقتصر على بعض ما جمعته بصورة موجزة.

- مفهوم الأخلاق عند الفلاسفة

تبلور مفهوم الأخلاق عند الفلاسفة حينما أطلقوا عليها بمجموعة من الأفكار والأحكام والعواطف والعادات التي تتصل بحقوق الناس وواجبات بعضهم تجاه بعض، والتي يعترف بها وقبلها الأفراد بصفة عامة في عصر معين أو في حضارة معينة، وقد أشار إليها آدم سميث الذي أثبت في الإنسان غريزة التعاطف الإنساني وجعلها منبع الأخلاق الإنسانية⁽²⁾ ونظر إليها الاتجاه العقلي لدى سقراط وأفلاطون وأرسطو بأنّها: (نظام للسلوك الإنساني يقوم على أساس من العقل، ويكون له غاية معقولة بدلاً من ذلك النظام الذي يقوم على أساس العادة والعرف)⁽³⁾ وعند المتصوّفة تبلور مفهوم الأخلاق على شكل نقاط تحدّد معنى الأخلاق بإيجاز هي كالآتي: الإهتمام الرائد بإصلاح الباطن، والتفاني في الإخلاص لله تعالى في جميع الأعمال، وتنمية علاقة المودّة والمحبة والإخاء بين الناس.

- والتفاني في الفداء والإيثار والثبات في الشخصية في جميع الظروف والأحوال تصديقاً لقول المولى عزّ وجلّ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62] والإهتمام بالجانب التطبيقي للأخلاق⁽⁴⁾.

وعرفها علماء الدّعوة بمعاني اصطلاحية متعدّدة نذكر منها كالآتي:

يعرفها الدكتور عبد الرّحمان حسن حبنكة الميداني بالقول: (هي الصّفة المستقرّة في النّفس إذا كانت حميدة كانت آثارها حميدة، وإذا كانت ذميمة كانت آثارها ذميمة، وعلى قيمة الخلق في النّفس

(1) - إبنُ منظور، لسان العرب، مادة خلق، ج 2، المصدر السابق، ص 244.

(2) - مقداد يالجن محمّد علي، علم الأخلاق الإسلامية (الرياض: دار عالم الكتب للطباعة والنشر، ط 1، ج 1، 1413هـ/ 1992م)، ص 46.

(3) - المرجع نفسه، ص 36.

(4) - محمّد كمال إبراهيم جعفر، في الفلسفة والأخلاق (دار الكتب الجامعية، د، ط، 1968م)، ص 273.

تكون أثارها في السلوك⁽¹⁾ ويعرفها الدكتور عبد الكريم زيدان بالقول: (إنّ الخلق مجموعة من المعاني والصفات المستقرّة في النفس، وفي ضوئها وميزانها يحسن الفعل في نظر الإنسان أو يقبح ومن ثمّ يقوم عليه أو يحجم عنه)⁽²⁾ ويعرفها الدكتور علي عبد الحليم محمود بالقول: (مجموعة القيم الخلقية والفضائل الإنسانية التي يجب أن تحكم سلوك الإنسان في المجتمع، وهو السلوك في المجتمع وما يجب أن يشتمل عليه من صلاح ذاتي ومن الأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وعدل وإحسان وجهاد في سبيل الله، وتحقيق المصالح ودرء المفساد، وهي التي جاء بها الوحي من عند الله والتي ترتبط دائماً بما يحقق النفع للإنسان في معاشه ومعاده)⁽³⁾.

أمّا الأخلاق في الإسلام لها تعريف آخر وهو:

- يعرف الدكتور مقدار يالجن جانباً منها في الإسلام فيقول: (الأخلاق تنظّم الحياة من الناحية العملية من أجل الحياة الخيرة مع الغير، أيّاً كان هذا الغير إنساناً كان أمّ حيواناً أو غير حيواناً، من حيث ما ينبغي أن يكون عليه هذا السلوك كسلوك إنساني تجاه الغير، وذلك بناء على مكانته في الكون ومسئولياته التي يجب أن ينهض بها، وبناء على ما وضع له خالقه من أهداف في هذه الحياة، والنظام الأخلاقي ليس جزءاً من نظام الإسلام العام، وإنما هي جوهر الإسلام وروحه السّارية في جميع جوانبه).⁽⁴⁾ مصداق ذلك قول النبي ﷺ: «إنّ الله كريمٌ يُحبُّ الكرمَ ومعالي الأخلاق ويبغض سفاسفها»⁽⁵⁾ قصر النبي ﷺ أهداف رسالته في هذا الحديث على الأخلاق، وأنّه جاء ليتمّ البناء

(1) - عبد الرّحمان حسن حبنّكة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، المرجع السّابق، ص 10.

(2) - عبد الكريم زيدان، أصول الدّعوة، المرجع السّابق، ص 75.

(3) - بتصرّف: علي عبد الحليم محمود، فقه الدّعوة الى الله، المرجع السّابق، ص - ص 117، 477.

(4) - مقدار يالجن محمّد علي، علم الأخلاق الإسلامية، المرجع السّابق، ص 47.

(5) - أخرجه البيهقي في السّنن الكبرى، كتاب الشّهادات، باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها، رقم الحديث 20781، ج 10، المصدر السّابق، ص 323، وأخرجه الحاكم، المستدرک في الصّحّحين، كتاب تواريخ المتقدّمين من الأنبياء والمرسلين عليهم السّلام، من كتاب آيات رسول الله ﷺ التي هي دلائل النّبوة، رقم الحديث 4221، ج 2، ص 670. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال ابنُ عبد البرّ: هو حديثٌ صحيحٌ متّصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره، وقال الألباني في السّلسلة الصّحيحة، 75/1، رواه البخاري في الأدب المفرد، برقم 273، وابنُ سعد في الطبقات وقال: هذا إسنادٌ حسنٌ.

الأخلاقي الذي بدأت الرسائل السابقة به، يقول ابنُ الملك في المشكاة: (أي أُرسلني إلى العالم لِيُتِمَّ بوجُودي مكارِمَ أخلاقِ عباده، وليُكَمَّلَ محاسِنُ أفعالهم⁽¹⁾).

وفيما يتعلّق بالحديث عن الأخلاق من خلال المفهوم القرآني يميّز بالشُّمول، يذكره الأستاذ محمّد قطب رحمه الله بالقول: (الأخلاق شيء شامل لكلِّ تصرُّفات الإنسان، وكلِّ مشاعره، وكلِّ تفكيره .. ولا يوجد في الإسلام عمل واحد يمكن أن يخرج عن دائرة الأخلاق)⁽²⁾.

وعليه بناء على التعريفات السابقة اعتبر البعض الأخلاق بأنّها: السَّجِيَّة والطَّبْع، وبعضها ركّزت على الأخلاق كسلوك ظاهر وآخر باطني، وبعضها حصرت في المثل والفضائل النّبيلة، وبعضها اعتبرت الأخلاق مجموعة عواطف وأحكام تتّصل بحقوق التعامل مع النَّاس، وبعضها جعلها عامة لكلِّ جوانب الخير والشرِّ، المذموم والمحمود، ولكن له قواعد ومعايير، وبعضها وصفها بالشُّمول لكلِّ تصرُّفات الإنسان من مشاعر وأفكار وعواطف .. هذه الأخلاق دعا إليها النَّبي ﷺ وحثَّ عليها أصحابه، وكانت ترجمة عمليّة في حياته ودعوته سمّيت عند غالبية العلماء والدعاة المعاصرين بالأخلاق الحميدة، والتي سأعرض إليها لاحقاً بالوصف والتحليل.

ثانياً: أهميّة الأخلاق في الدّعوة إلى الله

ارتكز النَّبي ﷺ على الأخلاق لأهمّيّتها الكبرى في الدّعوة عموماً وفي دعوته ﷺ على وجه الخصوص، فأثبت مكانتها المرموقة من خلال أقواله وأفعاله وتصرفاته ومعاملاته، وعليه يتعيّن أهمّيّتها من خلال كونها:

أ- من أهمّ مقاصد بعثته ﷺ : أعلم النَّبي ﷺ الغرض من بعثته هو إتمام الأخلاق فقال: «إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»⁽³⁾، فسعى جاهداً على تقويمها وإشاعة مكارمها، وهو شأن كلِّ الرّسالات، كان هدفها أخلاقي والدين نفسه هو حسن الخلق، كما اهتمّ الصّحابة رضوان الله عليهم

(1) - محمّد القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، كتاب الفضائل (بيروت: دار الفكر، ط1، ج9، 1422هـ/ 2002م)، ص 3692.

(2) - يُنظر: محمّد قطب، دراسات قرآنية، (القاهرة: دار الشُّروق، ط3، 1402هـ/ 1982م)، ص-ص 133، 135.

(3) - أخرجه البيهقي في سنن الكبرى، كتاب الشّهادات، باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها، رقم الحديث 19096، وأخرجه الحاكم، المستدرک في الصّحیحین، کتاب تواریخ المتقدّمین من الأنبياء والمرسلین علیهم السّلام، من کتاب آیات رسول الله ﷺ التي هي دلائل النّبوة، رقم الحديث 4221، ج2، ص 670. وقال الألباني في السلسلة الصّحيحة 75/1، رواه البخاري في الأدب المفرد رقم 273، وابن سعد في الطبقات وهذا إسناد حسن، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال ابن عبد البر: هو حديث صحيح متّصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره.

بالأخلاق إهتماماً كبيراً، وتخلّقوا بأخلاق النَّبِيِّ ﷺ فكانوا المثل والقُدوة الحسنة بعد النَّبِيِّ ﷺ فيقول لهم عليه الصَّلَاة والسَّلَام: «عليكم بسُنِّي وسُنَّة الخلفاء الرَّاشدين المهديين، عضّوا عليها بالنّواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور»⁽¹⁾ وقد أمتدح الله تعالى نبيّه ﷺ بحسن الخلق فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [القلم: 4] وقال أيضاً: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [الجمعة: 2] يكون ذلك عن طريق الموعظة والنّصح والإرشاد والتّوجيه، فأمر بمحاسن الأخلاق التي تسمو بالنّفس وتركّيها فيستقيم عوجها فيصلح بذلك المجتمع وينقله من جاهلية الأخلاق إلى أمة خيرة تفوق الأمم بأخلاقها وآدابها، يقول الشّيخ الزّرقاني رحمه الله في شرح الموطأ: (كانت العرب أحسن النّاس أخلاقاً بما بقى عندهم من شريعة إبراهيم الخليلؑ، وكانوا ضلّوا بالكفر عن كثير منها فبعث ﷺ ليعلم محاسن الأخلاق ببيان ما ضلّوا عنه وبما خصّ به في شرعه)⁽²⁾ ويذكر الدّكتور الدّاعية بسّام العموش أثر الأخلاق في الدّعوة بالقول: (إنّ أخلاقية الدّعوة هي التي دفعت بالمسلمين لإعادة الجزية لأهل حمص يوم طلب إليهم الالتحاق بالعراق، وبالتالي فإنّهم لا يستطيعون تقديم الحماية لأهل الكتاب كما أنّها هي التي دعت المسلمين للإمتناع عن قتل الأطفال والنّساء والشيوخ والأسرى والرّهبان، وعدم قطع الأشجار وعدم إتلاف مخطوطات الحضارة اليونانية كما فعل التتار مع حضارة الإسلام وثقافتها)⁽³⁾.

ب- الأخلاق جزء وثيق من الإيمان و العقيدة : للأخلاق أهميّة نجدها في جانب العقيدة حيث أوثق الله تعالى ونبيّه الكريم بين الإيمان وحسن الخلق فقال ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»⁽⁴⁾، ولَمَّا سئل ﷺ: أيُّ المؤمنين أفضل إيماناً؟ قال: «أحسنهم أخلاقاً»⁽⁵⁾ والنّاظر في فضيلة الأخلاق يدرك أنّها ثمرة لما يحمله الإنسان من معتقد، وأيُّ انحراف في السّلوك ناتج عن خلل في

(1) - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنّة، باب لزوم السنّة، رقم الحديث 4607، ج7، المصدر السّابق، ص 16.

(2) - محمد بن عبد الباقي الزّرقاني، شرح الزّرقاني على موطأ الإمام مالك، تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي (القاهرة: دار الحديث، ج4، 1427 هـ/2006 م)، ص 339.

(3) - بسّام العموش، فقه الدّعوة (عمان: دار النّفائس، ط1، 1425 هـ/2005 م)، ص 34.

(4) - ابن أبي شيبة، كتاب الإيمان، باب ما ذكر في الإيمان، رقم الحديث 20 (بيروت: المكتب الإسلامي، ط2، 1403 هـ/1983 م)، ص 21.

(5) - أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حقّ المرأة على زوجها، رقم الحديث 1162، ج2، المصدر السّابق، ص 454.

المعتقد، فأحدهما مكملاً للآخر، وأكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، يقول الأستاذ سيّد قطب رحمه الله: (والنّاظر في هذه العقيدة يجد العنصر الأخلاقي بارزاً أصيلاً فيها يقوم عليه أصولها التشريعية والتهذيبية على السّواء، والدّعوة الكبرى في هذه العقيدة إلى الطّهارة والنّظافة والأمانة والعدل والرّحمة إلى آخر التّشريعات في هذه العقيدة التي جاءت لحماية وصيانة العنصر الأخلاقي في الشّعور والسلوك، وفي أعماق الضّمير، وفي واقع المجتمع وفي العلاقات الفردية والجماعية والدّولية على السّواء)⁽¹⁾، وقد سمّي الإيمان برّاً استناداً لقول المولى عزّ وجلّ: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: 177] والبرُّ كلمة جامعة لخصال الخير في الإنسان، ولا يكون المسلم عموماً والدّاعية على وجه التحديد برّاً إلاّ بمجموع خصال الخير التي أمر الله بها، وهي أعمال وتصرفات قوليّة وفعليّة صادرة عنه، وقد بيّن ﷺ أنّ البرّ ما إطمأنت إليه النّفس وسكن إليه القلب، فقال للرّجل الذي يسأله عن البرّ: «استفت قلبك، البرّ ما إطمأنت إليه النّفس، وإطمأنت إليه القلب، والإثم ما حاك في النّفس وتردّد في الصّدر، وإن أتاك النّاس وأفتوك»⁽²⁾ وجماع حسن الخلق الصّلة، والصّدق، واللّطف، والمبرّة، والتحفي، وحسن الصّحبة، والعشرة، والطّاعة لله⁽³⁾، وقال البعض البرّ: (البرّ شيءٌ هين، وجه طليق، وكلام لين)⁽⁴⁾ وهو معلم من معالم حسن الخلق يجمع بين الأسلوب والعاطفة وحسن التّواصل، عن النّوّاس بن سميان ﷺ قال: «سألت النّبي ﷺ عن البرّ والإثم ؟ فقال: البرّ حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفّسك، وكرهت أن يطلّع عليه النّاس»⁽⁵⁾.

(1) - سيّد قطب، في ظلال القرآن، ج6، المرجع السّابق، ص 3657.

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تفسير البرّ والإثم، رقم الحديث 2553، ص 1190

(3) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تفسير البرّ والإثم، ص 1980، والقاضي عياض، إكمال المعلوم بفوائد مسلم، تحقيق: محمّد حسن محمّد حسن إسماعيل وآخر، كتاب البرّ والصّلة، باب تفسير البرّ والإثم (بيروت: دار الكتب العلميّة، ج8، 2006م)، ص 17.

(4) - سعيد عبد العظيم، خلق المسلم (الإسكندرية: دار الإيمان للطّبّع والنّشر والتّوزيع، د، ط، د، ت)، ص8.

(5) - المرجع نفسه، ص 1980.

ج- صاحب حسن الخلق أقرب الناس منزلة من رسول الله يوم القيام : عظم الإسلام حسن الخلق فلم يعدّه سلوكاً مجرداً بل عدّه عبادة، جعله النبي ﷺ أساس الخيرية والتفاضل بين الناس يوم القيامة يقول ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسَنُكُمْ أَخْلَاقًا»⁽¹⁾.

د- حسن الخلق أثقل الأعمال في ميزان العبد : جعل الله تعالى أجر حسن الخلق ثقيلاً في الميزان بل لا شيء أثقل منه يقول عنه ﷺ: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن وأن الله ليبغض الفاحش البذيء»⁽²⁾ وقد دعا النبي ﷺ أصحابه إلى التخلُّق بالأخلاق الحسنة ووعدهم بالأجر الكبير والثواب الجزيل وحذّره من الأخلاق السيئة، فجعل أجر حسن الخلق كأجر العبادات الأساسية المفروضة كالصلاة والصيام يقول ﷺ: «ما من شيء يوضع في ميزان أثقل من حسن الخلق وإنَّ صاحب حسن الخلق ليلبغ به درجة صاحب الصوم والصلاة»⁽³⁾ وقال: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُبْلَغُ بِحَسَنِ خُلُقِهِ عَظِيمَ دَرَجَاتِ الْآخِرَةِ، وَشَرَفِ الْمَنَازِلِ وَإِنَّهُ لَضَعِيفُ الْعِبَادَةِ، وَإِنَّهُ لَيُبْلَغُ بِسُوءِ خُلُقِهِ أَسْفَلَ دَرَكٍ مِنْ جَهَنَّمَ وَهُوَ عَابِدٌ»⁽⁴⁾ ويقول الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله: (فالخلق الحسن صفة سيّد المرسلين، وأفضل أعمال الصديقين، وهو على التحقيق شطر الدين، وثمره مجاهدة المتقين ورياضة المتعبدين)⁽⁵⁾ والنبي ﷺ لسعة دينه وتشعب نواحي الأعمال والعبادات فإنّه يخبر بأنّ أرحح ما في موازينهم يوم القيامة الخلق الحسن، وهذا دلالة على منزلة الأخلاق في الإسلام، فجعل لها أثراً طيباً ينعكس على المعاملات والعادات بالإيجاب عند الله تعالى عن يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ قَالَ: «بَلَغَنِي أَنَّ الْمَرْءَ لَيُذْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الْقَائِمِ بِاللَّيْلِ الظَّامِي بِالْهَوَاجِرِ»⁽⁶⁾، فكانت أكثر أسباب دخول الجنة: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 133] كما نوه النبي ﷺ بالخلق الحسن، ودعا إلى غرسه وتنميته في النفوس، حيث جعله الله تعالى سبب تحصيل الجنة الموعود بها ونيلها، ولقد أُبْلِغَ الشَّارِعَ الْحَكِيمُ لِحَسَنِ الْخُلُقِ أَنْ جَعَلَهُ وَسِيلَةً مِنْ

(1) - أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البرّ والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق، رقم الحديث 2018، ج3، المصدر السابق، ص 545.

(2) - أخرجه الترمذي في سننه، الجامع الكبير، كتاب البرّ والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، رقم الحديث 2002، ج3، المصدر نفسه، ص 535.

(3) - أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البرّ والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، رقم الحديث 2003، المصدر نفسه، ص 536.

(4) - إِبْنُ أَبِي الدُّنْيَا، كتاب التَّوَضُّعِ وَالْخُمُولِ، باب حسن الخلق، رقم الحديث 168، ج1، المرجع السابق، ص 213.

(5) - أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، المرجع السابق، ص 49.

(6) - مالك بن أنس، موطأ الإمام مالك، كتاب الجامع، باب ما جاء في حسن الخلق، رقم الحديث 6 (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط1، ج2، 1406هـ/1986م)، ص 904.

وسائل دخول الجنة، سئل النبي ﷺ أكثر من يدخل الجنة ؟ فقال: «تقوى الله وحسن الخلق»⁽¹⁾ ومن جانب آخر تكمن أهمية الأخلاق في كونها:

- تمثل زينة الدّاعية وحليته الجميلة، وبقدر ما يتحلّى بها يضيفي على نفسه جمالاً وبهاءً، وقيمة إنسانيته.

- إنّ هدف الأخلاق تحقيق السّعادة في الحياة الفردية والجماعية، ذلك أنّ الحياة الأخلاقية هي الحياة الخيرة البعيدة عن الشُّرور بجميع أنواعها وصورها، فإذا انتشرت الأخلاق إنتشر الخير والأمن والأمان الفردي والجماعي، تنتشر الثّقة المتبادلة والألفة والمحبة بين النّاس، وإذا غابت إنتشرت الشُّرور وزادت العداوة والبغضاء، وتناصر النّاس من أجل المناصب، والمادة، والشّهوات، فلا بدّ من القيم الأخلاقية الضّابطة لهذه النّوازع، وإلّا كثرت الشُّرور التي هي سبب التّعاسة والشّقاء في حياة الأفراد والجماعات، ولهذا قال أحد الأخلاقيين الفرنسيين: إن الحياة من غير قيم - وإن كانت حلوة على الشّفاه - فإنّها مرّة على القلوب والنّفوس⁽²⁾.

- أنّها وسيلة للنّهوض بالأمة، وذلك أنّ التاريخ يخبرنا أنّ سقوط كثير من الأمم والحضارات كان بسبب إختيار الأخلاق، كما قرر ذلك ابنُ خلدون وغيره، وقد سئل أحد وزراء اليابان ما سرُّ تقدم اليابان هذا التّقدّم ؟ فقال الوزير: السرُّ يرجع إلى تربيّتنا الأخلاقية⁽³⁾.

وعليه من جملة الأخلاق الحميدة التي دعا إليها النبي ﷺ وحثّ عليها، والتي كان أثرها بارزاً في دعوته هي الحياء والصّبر والتّعاطف والتّودد والتّراحم

المطلب الثاني: استخدام النبي ﷺ المنهج العاطفي في ترسيخ القيم والأخلاق الحميدة

سبقت الإشارة إلى أنّ النبي ﷺ كان سيّد الأخلاق ومَلِكها، وكانت تلك طريقته في دعوة كافّة أصناف المدعوين، فقد كان حليماً بهم، رحيماً، رفيقاً، ليناً، متواضعاً، وبدون شكّ إهتمّ بها وجاء ليتمّم مكارمها مستخدماً منهجه العاطفي، لتزكية النّفوس وتربيّتها على معالي الأخلاق

(1) - أخرجه التّرمذي في سننه، الجامع الكبير، كتاب البرّ والصّلة، باب ما جاء في حسن الخلق، رقم الحديث 2004، ج3، المصدر السّابق، ص 536.

(2) - مقداد يالجن محمد علي، علم الأخلاق الإسلامية، المرجع السّابق، ص 8.

(3) - المرجع نفسه، ص 9.

الفاضلة وتنقيتها من رديئها، يقول تعالى في محكم تنزيله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: 2] فأصل هذه الأخلاق الحميدة الخشوع وعلو الهمة، وهي التي أقرها الشرع ولا يتعارض مضمونها مع العقيدة الإسلامية كالحياء، والصبر، والتواضع، والتوُّدُّ، والمحبة، والمروءة، والحلم، والعفو، والتسامح، والصدق ... وغيرها الكثير⁽¹⁾، وقبل الحديث في تطبيقات بعض هذه الأخلاق في دعوة النبي ﷺ حريٌّ أن أعرج في تقديم مفهوم للأخلاق الحميدة أولاً.

أولاً: مفهوم الأخلاق الحميدة

أمَّا الأخلاق الحميدة فقد اجتهد العديد من الدعاة وعلماء الدعوة في وضع مفهوم شامل لها من بينهم: يعرفها الدكتور عبد الرحمن حبنكة الميداني بالقول: (الخلق المحمود: صفة ثابتة في النفس فطرية أو مكتسبة، تدفع إلى سلوك إرادي محمود عند العقلاء، كالأخذ بالحق أو الخير أو الجمال وإن خالف الهوى وترك الباطل والشر والقبح وإن وافق الهوى أو الشهوة)⁽²⁾ ويعرفها العلامة القاضي عياض رحمه الله بالقول: (وأمَّا الأخلاق الحميدة هي الاعتدال في قوى النفس وأوصافها والتوسط فيها دون الميل إلى منحرف أطرافها، فجميعها كانت خلق النبي ﷺ على الانتهاء في كمالها والاعتدال إلى غايتها حتى أثنى الله عليه بذلك فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]⁽³⁾، ويعرفها العلامة الجاحظ رحمه الله بالقول: (الأخلاق الحميدة وإن كانت في بعض غريزة، فليست في جميعهم، وإن الباقين قد يمكن أن يصيروا إليها بالتدرب والرياضة ويترقوا إليها بالإعتياد والإلف ومع هذه الحال فقد يكون في الناس من لا يقبل طبعه العادات الحسنة، ولا الخلق الجميل وذلك يكون لرداءة جوهره، وخبث عنصره، وهذه الطائفة من جملة الأشرار الذين لا يرجى صلاحهم، وكثير من الناس من يقبل كثيراً من الأخلاق الحمودة وينبو طبعه عن بعضها، وليس يعد هذا شريراً ولكن رتبته في الخير بحسب

(1) - محمد إبراهيم مصطفى الخطيب، القيم الأخلاقية الحمودة والقيم الأخلاقية المذمومة في سورة يوسف ﷺ، عمان، مجلة البحوث النفسية والتربوية، جامعة الإسراء الخاصة، كلية العلوم التربوية، العدد 3، 2009م، ص 56.

(2) - عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها (دمشق: دار القلم، ط5، 1420هـ/1999م)، ص16.

(3) - القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج1، 1409هـ/1988م)، ص106.

محاسنه⁽¹⁾ وفي تعريف آخر لها: (هي الترجمة العملية للعقيدة والإيمان الصحيح، لأن الإيمان الصحيح ليس مشاعر مكنونة، وإنما هو عمل ظاهر وأخلاق عالية⁽²⁾)، من إنصاف في المعاملة، والرفق في المجادلة، والعدل في الأحكام، والبذل والإحسان في اليسر، والإيثار في العسر، وغيرها من الصفات الحمودة⁽³⁾ وقد بين النبي ﷺ أن إصلاح العبد فيما بينه وبين الله لا تتم ولا تكتمل حتى يعطي كل ذي حق حقه ويخالق الناس بحسن الخلق وهذه طريقته في التعامل فقال: «أتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»⁽⁴⁾ فوضع ضابطاً لهذا التعامل باستحضار تقوى الله عند معاملته للناس، يقول شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله: (أن تعاملهم الله فترجو الله فيهم ولا ترجوهم في الله، وتخافه فيهم ولا تخافهم في الله، وتحسن إليهم رجاء ثواب الله لا لمكافأهم وتكف عن ظلمهم خوفاً من الله لا منهم)⁽⁵⁾ وذكرت في علامة ذي الخلق الحميد أشار إليها الدكتور سعيد عبد العظيم بالقول: (أن يكون كثير الحياء قليل الأذى، كثير الصلاح، صدوق اللسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الزلل، قليل الفضول، براً وصولاً، وقوراً، صبوراً، راضياً حليماً، ولا مغتاباً، ولا عجولاً، ولا حقوداً، ولا بخيلاً، ولا حسوداً بشاشاً هتاشاً، يحب في الله ويبغض في الله، ويرضى في الله ويسخط في الله)⁽⁶⁾ ويمكن تمييز الأخلاق الحميدة عن غيرها: (بأنها كل سلوك فردي أو اجتماعي تلتقى النفوس البشرية على استحسانه، مهما اختلفت أديانها ومذاهبها وعاداتها وتقاليدها ومفاهيمها، ويلحق به ما كان أثراً من آثاره أو فرعاً من فروعها)⁽⁷⁾ وقد كان النبي ﷺ زعيم الأخلاق ورائدها، حيث أنه لم يكتف بالحث عليها بلسان المقال، بل دعا إليها بلسان الحال، فبلغ درجة بلوغ أعلى مراتب الخلق وإن دل على شيء فإنما يدل عليه شهادة خصومه ﷺ حين سموه الصادق الأمين، وذلك قبل بعثته،

(1) - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تهذيب الأخلاق (طنطا: دار الصحابة للتراث للنشر والتوزيع، ط1، 1410هـ/1989م)، ص-ص 14، 15.

(2) - علي محمد الصلابي، السيرة النبوية وقائع وتحليل أحداث، المرجع السابق، ص 114.

(3) - يُنظر: هيثم جمعة هلال، من وصايا الرسول ﷺ للتجار (بيروت: دار المعرفة، ط3، 2017م)، ص 21.

(4) - أخرجه الترمذي في سننه، الجامع الكبير، كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في معاشرته الناس، رقم الحديث 1987، مج 3، المصدر السابق، ص 527. وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(5) - مجموع فتاوى ابن تيمية، كتاب توحيد الألوهية، فصل في السعادة في معاملة الخلق، (مجمع الملك فهد، ط1، ج1، 1416هـ/1995م)، ص 51.

(6) - سعيد عبد العظيم، خلق المسلم، المرجع السابق، ص 8.

(7) - عبد الرحمن حسن حنكة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، المرجع السابق، ص16.

فلا يمكن لأيّ داعية أن ينجح في دعوته ما لم يتخذ من أخلاقه النّاطق الرّسمي والمترجم الأساسي له في السرّ والعلن، فإذا تأملنا في قولة قريش لمحمد ﷺ في صدر دعوته: «ما جربنا عليك كذبا!» ندرك تماما أنّه لا زاد للداعية بعد تقوى الله إلّا بالأخلاق، لذا ما تميّز به النّبي ﷺ ترسيخه إلى جملة من الأخلاق التي اشتهر بها كفضيلة الحياء، والصّبر، والتواضع.

ثانياً: الدّعوة إلى ترسيخ خلق الحياء

من جملة الأخلاق التي اشتهر بها النّبي ﷺ فضيلة الحياء، وذلك لما يؤدّي إليه هذا الخلق الرّفيع من سلامة الطّبع من كثير من الأمراض الخلقية، ومن أنواع الفساد والانحراف الخلقي، والحياء فضيلة جبل الله عليها نبيّه محمّداً ﷺ، حتّى يحرز من الأمراض الخلقية، ويُنشأ على عينه، كيف لا وقد قالت عنه أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «كان النّبي ﷺ أشدّ حياءً من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئاً عرّفناه في وجهه»⁽¹⁾.

وقبل التّفصيل في تطبيقات هذا الخلق وبيان أثره في دعوة النّبي ﷺ أسّهلّ بتعريفه من النّاحية اللّغوية والإصطلاحية.

أ- مفهوم الحياء

- لغة

- يعرفها العلامة الفيّومي بالقول: (أصله من (ح ي و)، وقيل: من حيا، وقيل من (ح ي و)). وهو مصدر قولهم: حيي، وحيي منه حياء، بالفتح والمد فهو حيي على وزن فعيل، يقال: استحيا الرّجل يستحي واستحى يستحي معاً، والأوّل أعلى وأكثر، وقد حيي منه حياء واستحياً واستحى؛ وقد حذفت الياء الأخيرة كراهية التقاء الياءين، واستحياً منه وهو الإقْباضُ والإنزواء، قال الأخفش: يتعدّى بنفسه وبالحرّف فيقال: استحييتُ منه واستحييتُهُ، وفيه لغتان إحداهما لغة الحجاز وبها جاء القرآن بياءين، والثانية لتمييز بياءٍ واحدةٍ، والحياء على الأصحّ مشتق من الحياة⁽²⁾.

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الحياء، باب 77، رقم الحديث 6119، ص 1529.

(2) - الفيّومي، المصباح المنير في غريب الشّرح الكبير (بيروت: المكتبة العلمية، د، ط، ج 1، د، ت)، ص 160.

- اصطلاحًا

• يعرفه ذو النون بالقول: (الحياء وجود الهيبة في القلب مع وحشة ما سبق منك إلى ربك، والحب ينطق والخوف يقلق)⁽¹⁾ ويعرفه العلامة الجاحظ رحمه الله بالقول: (هو غَضُّ الطَّرْفِ والانتباض عن الكلام حشمة للمستحيا منه، وهذه العادة محمودة ما لم تكن عن عِيٍّ ولا عجز)⁽²⁾ ويعرفه الإمام الحافظ ابن حجر رحمه الله بالقول: (هو خلق يبعث على ترك القبيح)⁽³⁾، وقد صنّف الحياء عند التّفقّه في الدّين وعند القيام بمهمّة الدّعوة إلى الله شرعي وغير شرعي، فقال: الشّرعي الذي يقع على وجه الإجلال والإحترام للأكابر وهو محمود، وأمّا ما يقع سبباً لترك أمر غير شرعي فهو مذموم وليس هو بحياء شرعي وإمّا هو ضعف ومهانة)⁽⁴⁾ وفي تعريف آخر له: (هو مادّة الحياة للقلب، وهو أصل كل خير، وذهابُه ذهابُ الخير أجمعه)⁽⁵⁾ والحياء يحجب الدّاعية عن كلّ مخالفة شرعية ويبيعه عن كل إنحراف في معالجته للنّاس يقول الشّاعر سلّم بن عمرو : لا تسأل المرء عن خلّائقه في وجهه شاهد من الخبر⁽⁶⁾، وقد وصف النّبي ﷺ الحياء بأنّه زينة المرء وسلوكه فقال: «ما كان الفحش في شيءٍ إلّا شأنه، وما كان الحياء في شيءٍ إلّا زانه»⁽⁷⁾، وقال أيضاً ﷺ: «إنّ ممّا أدرك النّاس من كلام النّبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت»⁽⁸⁾ فمن تجرّد من الحياء فلا يُتخيّل أن يكون ذنباً أعظم من فقد الحياء، ثمّ إنّ من ترك الحياء يعمل ما يشاء فلا يردعه عنه رادع، يذكر الإمام ابن حجر رحمه الله في معنى الحديث فيقول: (ليس بمعنى الأمر أن يصنع ما شاء، ولكنّه على معنى الذمّ والنّهي عنه وأهل هذه المقالة لهم طريقتان أحدهما أنّه أمر بمعنى التّهديد والوعيد وله نظائر في القرآن يقول تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٩)

(1) - عبد الله بن جابر الله بن إبراهيم الجار الله، بحث في الحياء وأثره في حياة المسلم، 1410هـ، ص 19.

(2) - الجاحظ، تهذيب الأخلاق، المرجع السابق، ص 23.

(3) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الحياء، رقم الحديث 6117، ج 10، المرجع السابق، ص 522.

(4) - المرجع نفسه، رقم الحديث 130، ج 1، المرجع السابق، ص 229.

(5) - ابن القيم، الداء والدواء، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي (مكّة المكرمة: دار عالم الفوائد، ط 1، 1429هـ)، ص 168.

(6) - الماوردي، أدب الدنيا والدين (دار العقيدة، ط 1، 1427هـ/2006م)، ص 236.

(7) - أخرجه الترمذي في سننه في الجامع الكبير، كتاب البرّ والصّلة، باب ما جاء في الفحش والتفحّش، رقم الحديث 1974، ج 3، المصدر السابق، ص 518. وقال: هذا حديث حسن غريب .

(8) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب إذا لم تستحي فاصنع ما شئت، رقم الحديث 6120، ص 1529.

[فصّلت: 40] بمعنى إذا لم يكن عندك حياء فاعمل ما شئت والله مجازيك عن فعلتك⁽¹⁾ ويقول الإمام الخطابي رحمه الله: (إنَّ الحياء لم يزل أمره ثابتاً واستعماله واجباً منذ زمان النبوة الأولى، وأتته ما من شيء إلا وقد ندب إلى الحياء وحث عليه، وإنه لم ينسخ فيما نسخ من شرائعهم ولم يبدل فيما بدل منها وذلك أن أمره قد عُلم صوابه وبأن فضله، وإتفقت العقول على حسنه وما كان هذا صفته لم يجز عليه النسخ والتبديل)⁽²⁾ ويذكر صاحب الكتاب "هذه أخلاقنا" معلقاً عن الحديث بالقول: (ومن الوجوه التي يفهم بها هذا الحديث أنه: حيث تشعر بالخرج، وتحشى التأثم، فتوقف، وحيث يطمئن القلب، ولا تشعر بالخرج فاصنع ما شئت)⁽³⁾ والحياء مِيزَةُ النَّبِيِّ ﷺ عن سائر الأخلاق في إتباعه لهذا الدين الحنيف، فقال: «إِنَّ لكلَّ دين خلق، وخلق الإسلام الحياء»⁽⁴⁾ وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مرَّ على رجلٍ من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء فقال له رسول الله ﷺ: «دعه فَإِنَّ الحياء من الإيمان»⁽⁵⁾ يقول العلامة أبو عُبيدٍ الهُرَوِيُّ معلقاً على معنى الحديث: (معناه أنَّ المستحي ينقطع بجيائه عن المعاصي وإن لم يكن له تقية فصار كالإيمان القاطع بينه وبين المعاصي)⁽⁶⁾ وقال ﷺ: «الحياء والعِيَّةُ^(*) شعبتان من الإيمان والبذاءة^(*) والبيان^(*) شعبتان من النفاق»⁽⁷⁾ بَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ حياء المرء مقترن بإيمانه، فإن كان حييًّا فيدفعه ذلك إلى التَّحَلِّي بِكلِّ ما هو جميل ومحبوب، والتَّخَلِّي عن كلِّ ما هو قبيح ومذموم، وقد

(1) - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الحياء، رقم الحديث 4799 (بيروت: دار إئب حزم، ط1، ج5، 1418هـ/1997م)، ص 97.

(2) - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الحياء، رقم الحديث 4799، المصدر نفسه، ص 97.

(3) - محمود محمد الخزندار، هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقاً (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط1، 1416هـ/1996م)، ص 325.

(4) - أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن إئب ماجه، تحقيق: محمود محمد محمود حسن نصار، كتاب الزهد، باب الحياء، رقم الحديث 4181 (بيروت: دار الكتب العلمية، ط4، ج4، 1439هـ / 2018م)، ص 502. وقال: هذا حديث حسن، ورواه مالك في الموطأ، إئب أبي حاتم في علل برقم الحديث 2368، والطبراني في المعجم الكبير 12/1.

(5) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحياء من الإيمان، رقم الحديث 24، ص 16.

(6) - إئب حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الحياء، ج10، المرجع السَّابِق، ص 522.

(*) - العِيَّةُ: قلة الكلام (أخرجه الترمذي في سننه في الجامع الكبير، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في العِيَّةِ، رقم الحديث 2027، ج3، المصدر السَّابِق، ص 551).

(*) - البذاءة: هو الفحش في الكلام، والبيان: هو كثرة الكلام، مثل هؤلاء الخطباء الذين يخطبون فيوسعون في الكلام ويتفصصون فيه من مدح النَّاس فيما لا يرضى الله. (المصدر نفسه، ص 551).

(7) - المصدر نفسه، ص 551. وقال: هذا حديث حسن غريب إنما نعرفه من حديث أبي غسان محمد بن مطرف.

كان ﷺ مثالاً حياً ونموذجاً نفيساً يستوجب إستحقاقه شهادة المولى عز وجل أن مدحه فقال: ﴿وَأَنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:4] وكان المثل الأعلى في الحياء، وأشد من العذراء في خدرها، نظراً للمكانة الجليلة والقيادة العظيمة التي تولّاها عليه الصلّاة والسّلام.

ب - مظاهر الحياء في دعوة النبي ﷺ

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَشَدَّ النَّاسِ حَيَاءً، وَمِنْ حَيَائِهِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فَاحِشاً وَلَا مُتَفَحِّشاً وَلَا سَخَاباً^(*) فِي الْأَسْوَاقِ لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ تَنَافَى الْكَمَالِ، وَهُوَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ذُو هِمَّةٍ عَالِيَةٍ تَطَّلِعُ إِلَى كُلِّ كَمَالٍ⁽¹⁾، فَكَانَ إِذَا سَمِعَ شَيْئاً يَكْرَهُهُ وَيَخْشَى حَيَاءَهُ، تَغَيَّرَ لَوْنُ وَجْهِهِ، فَعَرَفَ أَصْحَابُهُ أَنَّهُ يَكْرَهُ هَذَا الشَّيْءَ⁽²⁾ فَشَهِدَ لَهُ بِكَمَالِ خُلُقِهِ ﷺ حِينَمَا أُعْطِيَ كُلُّ ذَلِكَ الْحَيَاءِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خَدْرِهَا، فَإِذَا رَأَى شَيْئاً يَكْرَهُهُ عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ»⁽³⁾ وَمِنْ شِدَّةِ حَيَائِهِ ﷺ ضُرِبَ الْمَثَلُ فِي ذَلِكَ، فَيُخْبِرُنَا ﷺ لَيْسَ خَاصاً بِهِ لَوْحَدِهِ، بَلْ إِنَّهُ مِنْ سَنَنِ الْمُرْسَلِينَ الَّتِي جَاءَ بِهَا رَسُلُ اللَّهِ جَمِيعاً، عَنْ إِبْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَغْتَسِلُ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرَاتِ وَمَا رَأَى أَحَدَ عَوْرَتِهِ قَطُّ»⁽⁴⁾ وَبَنَاءً عَلَى ذَلِكَ إِمْتَثَلَ حَيَاءُ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَظَاهِرِ عِدَّةٍ أَهْمُهَا:

- حياؤه ﷺ من الله

تَحَسَّدَ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الْحَيَاءِ فِي دَعْوَتِهِ ﷺ وَذَلِكَ لَمَّا طَلَبَ مِنْهُ نَبِيُّ اللَّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ أَنْ يَرَاكَ اللَّهُ تَعَالَى فِي تَخْفِيفِ فَرَضِ الصَّلَاةِ، فَقَالَ لَهُ ﷺ: «اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي»⁽⁵⁾ وَلَمَّا خَاطَبَ ﷺ أَصْحَابَهُ أَمِراً لَهُمْ بِأَنْ يَسْتَحُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ قَائِلاً لَهُمْ: «اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ، قَالُوا: إِنَّا نَسْتَحِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: لَيْسَ ذَاكُمْ، وَلَكِنْ مِنْ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ فَلْيَحْفَظِ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَلْيَحْفَظِ الْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْيَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالْبَلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا،

(*) - سَخَاباً: صَيَّاحاً (عبد الرَّحْمَنِ حَبْنَكَةُ الْمِيدَانِي، الْأَخْلَاقُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَأَسْسُهَا، الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 513).

(1) - الْمَرْجِعُ نَفْسُهُ، ص 513.

(2) - أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْفَتْاحِ زَوَاوِي، شَمَائِلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (الْإِسْكَندَرِيَّةُ: دَارُ الْقَمَّةِ، ج 1، د، ط، د ت)، ص 366.

(3) - تَمَّ تَخْرِيجُهُ سَابِقاً، يُنْظَرُ: ص 317.

(4) - إِبْنُ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِي، فَتْحُ الْبَارِي شَرْحُ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، كِتَابُ الْمَنَاقِبِ، بَابُ 23، ج 7، الْمَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 215.

وإِسْنَادُهُ حَسَنٌ.

(5) - أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ كَيْفِ فَرَضَتِ الصَّلَاةُ فِي الْإِسْرَاءِ، رَقْمُ الْحَدِيثِ 349، ص 98.

فمن فعل ذلك فقد إستحيا من الله حقَّ الحياء»⁽¹⁾ فالتجُرَّد من الحياء مدرجةٌ إلى المهالك، والسُّقوْطُ في مهاوي الرَّدَى، يقول الإمام أبو الحسن الماوردي عن نفسه: (رأيت رسول الله ﷺ في المنام ذات ليلة، فقلت يا رسول الله، أوصني، فقال: إستحي من الله عزَّ وجلَّ حقَّ الحياء.. ثمَّ قال: تغيّر النَّاسُ، قلت: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: كنت أنظر إلى الصَّبي فأرى من وجهه البشْر والحياء، وأنا أنظر إليه اليوم فلا أرى ذلك في وجهه، ثمَّ تكلم بعد ذلك بوصايا وعظات تصوَّرتها وأذهلني الشُّرور عن حفظها ووَدِدْتُ أنِّي لو حفظتها، فلم يبدأ بشيءٍ ﷺ قبل الوصيَّة بالحياء من الله عزَّ وجلَّ، وجعل ما سلبه الصَّبي من البشْر والحياء سبباً لتغيّر النَّاس، وخصَّ الصَّبي، لأنَّ ما يأتيه بالطَّبع من غير تكلف⁽²⁾).

- حياؤه ﷺ مع نساء الصَّحابة

كان حياؤه ﷺ لم يمنعهُ من أداء رسالته وبيانها أبلغ بيان، وكان لا يمنعه شدَّة حيائه أن يجيب على أسئلة نساء الصَّحابة، فعن أمِّ سلمة رضي الله عنها قالت: «جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إنَّ الله لا يستحي من الحقِّ، فهل على المرأة من غسلٍ إذا احتلمت؟، قال النَّبي ﷺ: إذا رأت الماء، فغطَّت أم سلمة -تعني وجهها- وقالت: يا رسول الله أو تحتلم المرأة؟ قال: نعم تَرَبَّتْ يمينك، فبِمِ يُشْبِهُهَا وَلَدُهَا؟!»⁽³⁾ وتنقل السيِّدة عائشة رضي الله عنها مشهداً مثيراً من حيائه ﷺ فتقول: «أنَّ امرأة من الأنصار قالت للنَّبي ﷺ: كيف أغتسل من الحيض؟، فأمرها كيف تغتسل، ثمَّ قال: خذي فِرْصَةً مُمَسَّكَةً فتوضَّئي ثلاثاً، ثمَّ إنَّ النَّبي ﷺ إستحي فأعرضَ بوجهه أو قال: توضَّئي بها، فأخذتها فجَذَبْتُهَا فأخبرتها بما يُريد النَّبي ﷺ»⁽⁴⁾، وكان الصَّحابة رضوان الله عليهم يأنفون أن يصدرَ منهم ما يكون سبباً في حيائه ﷺ، فقد حدث أنَّ أبا بكرٍ ﷺ كان عند رسول الله ﷺ وجاء خالد بن سعيد بن العاصٍ ﷺ يستأذن بالدُّخول، فوقف بباب الحجرة ريثما يؤدُّن له،

(1) - أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، رقم الحديث 2458، وقال أبو عيسى: هذا حديثٌ غريبٌ إنما نعرفه من هذا الوجه من حديث أبان بن إسحاق عن الصباح بن محمد، وفي المستدرک على الصَّحاحين، كتاب الرِّقاق، من إستحي من الله حقَّ الحياء فليحفظ الرأس وما حوى، رقم الحديث 7985، ص 461. وفي مسند أحمد، مسند المكثرين من الصَّحابة، 387/1، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي برقم 2458.

(2) - الماوردي، أدب الدنيا والدين (دار مكتبة الحياة، د، ط، 1986م)، ص 249.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب الحياء في العلم، رقم الحديث 130، ص 45. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها، رقم الحديث 310، ص 250.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحيض، باب ذلك المرأة نفسها إذا تطهَّرت من الحيض وكيف تغتسل، رقم الحديث

وكانت امرأة قد سبقته، تعرض أمرها على رسول الله ﷺ فقالت: كنت عند رفاعة القرظي فطلّقني فبت^(*) طلاقاً، فتزوّجت عبد الرحمن بن الزبير، وإنّ ما معه مثل هدبة^(*) الثوب، فتبسّم رسول الله ﷺ فقال: أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا، حتى تدوقي عُسَيْلَتَهُ ويدوق عُسَيْلَتِكَ، وأبو بكر رضي الله عنه، وخالد بالباب ينتظر أن يؤذن له، فنادى: يا أبا بكر! ألا تسمع هذه ما تجهّر به عند رسول الله ﷺ، وكأنّه طالباً زجر المرأة عن ذلك⁽¹⁾، لذلك قالت عائشة رضي الله عنها: «نعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهنّ الحياء أن يتفقهن في الدين»⁽²⁾.

- حياء النبي ﷺ مع الصحابة

عند زواجه ﷺ بالسيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها، صنع طعاماً كثيراً، ثمّ دعا الناس لياكلوا، ذهبوا إلى وليمة النبي ﷺ فأكلوا، ثمّ خرجوا وبقي ثلاثة لم يخرجوا، وزينب جالسة في جانب من البيت تنتظر رسول الله ﷺ، فلما جاء النبي ﷺ ووجد هؤلاء جالسين يتحدثون إستحي منهم وخرج، وبعد مدّة دخل فوجدهم كذلك، فاستحي وخرج، وتكرّر ذلك الأمر مرّات، فذهب إلى حجرة السيدة عائشة فجلس فيها، فلما علم بخروجهم دخل على زينب رضي الله عنها⁽³⁾ وعندما أتت امرأة النبي ﷺ ببردة منسوجة فيها حاشيئها أتدرون ما البردة؟ قالوا: الشملة قال: نعم قالت: نسجتها بيدي فجئت لأكسوكها فأخذها النبي ﷺ محتاجاً إليها فخرج إلينا وإثما إزاره فحسّنها فلان فقال: إكسنيها ما أحسنها قال القوم: ما أحسنت لبسها النبي ﷺ محتاجاً إليها ثمّ سألتها وعلمت أنّه لا يرُدّ قال: إني والله ما سألته لألبسه إنّما سألته لتكون كفي قال سهل: فكانت كفنه⁽⁴⁾ ومن حيائه ﷺ أنّه يستحي من يتصفون بالحياء، فقد كان صاحبه عثمان رضي الله عنه شديد الحياء؛ لذا كان ﷺ يعامله

(*) - فبت طلاقاً: أي طلقني ثلاثاً، والبت القطع (في صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب لا تحل المطلقة ثلاثاً لمطلقها حتى تنكح زوجاً غيره، رقم الحديث 1433، ص 1055).

(*) - هدبة الثوب: هي طرفه الذي لم يُنسج، شبهوها بهذب العين وهو شعر جفنها، تعني أن متاعه رخوا كهديّة الثوب (صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب لا تحل المطلقة ثلاثاً لمطلقها حتى تنكح زوجاً غيره، رقم الحديث 1433، ص 1055).

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا تحل المطلقة ثلاثاً لمطلقها حتى تنكح زوجاً غيره، رقم الحديث 1433، ص 1055.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب الحياء في العلم، رقم الحديث 130، ص 45.

(3) - رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿تَرْجِي مِنْ نَشَاءِ مَنَّهُنَّ وَتَوَيَّ إِلَيْكَ مَنْ نَشَاءُ وَمِنْ أَتَعَبَتِ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: 51] ص 1204، ومنصور علي عرابي، قصص في الأنبياء - عليهم الصلوة والسلام -، منبر التوحيد والجهاد، د، ط، د، ت، ص 7.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب من استعد الكفن في زمن النبي ﷺ، رقم الحديث 1277، ص 309.

بما يتناسب مع حاله، فعندما كان مُضْطَجِعًا في بَيْتِهِ، كَاشِفًا عَنْ فَخْذَيْهِ - أَوْ سَاقِيهِ - فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ، فَأْذَنَ لَهُ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ، فَأْذَنَ لَهُ وَهُوَ كَذَلِكَ، فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسَوَّى ثِيَابَهُ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهْتَشَّ^(*) لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسَتْ وَسَوَّيْتُ ثِيَابَكَ فَقَالَ: أَلَا أَسْتَحْيِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحْيِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ؟⁽¹⁾ وفيه دليل على توقير عثمان ﷺ عند رسول الله ﷺ ولكن لا يدلُّ على حَطِّ مَنْصَبِ أَبِي بَكْرٍ وعمر عنده ﷺ وقلة الالتفات إليهما لأنَّ قاعدة المحبة إذا كملت واشتدت ارتفع التكلف، كما قيل إذا حصلت الألفة بطلت الكلفة⁽²⁾، يقول الإمام النووي رحمه: (وفيه فضيلة ظاهرة لعُثمان وجلالته عند الملائكة، وأنَّ الحياءَ صفةٌ جميلةٌ من صفات الملائكة)⁽³⁾ وكان ﷺ يستحي أن يواجه أصحابه بما يكرهون عن أنس ﷺ أن النَّبِيَّ ﷺ: «كَانَ لَا يَكَادُ يُوَاجِهُ أَحَدًا بِشَيْءٍ يَكْرَهُهُ»⁽⁴⁾. لكي لا يجرح مشاعرهم أمام الآخرين، بل كان مِنْ خُلُقِهِ وَهَدْيِهِ يُوَاجِهُ كَلَامَهُ إِلَى عَامَّةٍ مِنْ حَوْلِهِ، مَنْ غَيْرِ أَنْ يَقْصِدَ أَحَدًا بَعِينَهُ، فَكَانَ يَقُولُ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ: كَذَا وَكَذَا»⁽⁵⁾.

(*) - فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ: يقول الإمام مسلم: هكذا في جميع النسخ، وفي بعض النسخ الطَّارئة تهشُّ هو خبط الورق من الشَّجر، فيقال: منه هَش، يَهْشُ بِضَمِّهَا يقول تعالى: ﴿وَاهْشُ بِهَا عَلَى عَنَبِي﴾ [طه: 18] وقال أهل اللغة: الهشاشة والبشاشة بمعنى طلاقة الوجه وحسن اللقاء (صحيح مسلم، كتاب فضائل الصَّحابة، فضائل عثمان بن عفان ﷺ، رقم الحديث 2401، ص 1866). والهِشُّ بِتَشْدِيدِ الشَّيْنِ أَيُّ: لَمْ تَتَحَرَّكَ لِأَجْلِهِ، وبمعنى: الهشاشة وطلاقة الوجه وحسن الالتقاء (مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، رقم الحديث 6069، ج 9، المرجع السابق، ص 3917).

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصَّحابة، فضائل عثمان بن عفان ﷺ، رقم الحديث 2401، ص 1866.

(2) - مُحَمَّدُ الْقَارِي، مَرْقَاةُ الْمَفَاتِيحِ شرح مشكاة المصابيح، رقم الحديث 6069، تحقيق: جمال عيتاني، كتاب الفضائل والشمائل، باب في أخلاقه وشمائله ﷺ، رقم الحديث 5832 (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، ج 9، 1422هـ/2001م)، ص 3918.

(3) - المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، كتاب فضائل الصَّحابة، فضائل عثمان بن عفان ﷺ، رقم الحديث 2402 (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط 2، ج 15، 1392هـ)، ص 168.

(4) - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في حسن العشرة، رقم الحديث 4219، المصدر السابق، ص 79553، وفي مسند أحمد، ج 3، ص 133، وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ.

(5) - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في حسن العشرة، رقم الحديث 4788، ص 186. وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ، وفي سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب حسن العشرة، رقم الحديث 4787 (الرياض: بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، د، ط، د، ت)، ص 522.

- حياؤه مع اليهود والأعراب

من ذلك يروي عليّ رضي الله عنه: «أَنَّ يَهُودِيًّا كَانَ لَهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ دَنَانِيرٌ، فَتَقاضَى النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ لَهُ: يَا يَهُودِيٌّ مَا عِنْدِي مَا أُعْطِيكَ، قَالَ: فَإِنِّي لَا أَفَارِقُكَ يَا مُحَمَّدٌ حَتَّى تَعْطِيَنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِذَا أَجْلَسْتُ مَعَكَ، فَجَلَسَ مَعَهُ، فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ وَالْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ الْآخِرَةَ وَالْعَدَاةَ، وَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَهَدَّدُونَهُ وَيَتَوَعَّدُونَهُ، فَفُطِنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا الَّذِي يَصْنَعُونَ بِهِ، فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: يَهُودِيٌّ يَجْبُسُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْعَنِي رَبِّي أَنْ أَظْلَمَ مَعَاهِدًا وَغَيْرَهُ، فَلَمَّا تَرَجَّلَ النَّهَارُ قَالَ الْيَهُودِيُّ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، وَشَطْرُ مَالِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَمَّا وَاللَّهِ مَا فَعَلْتُ بِكَ الَّذِي فَعَلْتُ بِكَ إِلَّا لَأَنْظُرَ إِلَى نَعْتِكَ فِي التَّوْرَةِ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مَوْلَدُهُ بِمَكَّةَ وَمَهَاجِرُهُ بِطَبِيعَةٍ وَمُلْكُهُ بِالشَّامِ، لَيْسَ بَغْضًا وَلَا غِلِيظًا، وَلَا سَخَابًا فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا مُتَزَيِّيًا بِالْفُحْشِ وَلَا قَوْلِ الْخَنَاءِ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، وَهَذَا مَالِي فَاحْكُمْ فِيهِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ، وَكَانَ الْيَهُودِيُّ كَثِيرَ الْمَالِ»⁽¹⁾.

وبناء على ما سبق نستشف أنه:

- على الدَّاعِيَةِ التَّعَلُّمُ مِنْ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ وَالتَّحَلُّقُ بِأَخْلَاقِهِ الْكَرِيمَةِ مِنْهَا الْحَيَاءُ، يَقُولُ الْإِمَامُ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَالْخُلُقُ الْحَسَنُ صِفَةُ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَأَفْضَلُ أَعْمَالِ الصَّدِيقِينَ، وَهُوَ عَلَى التَّحْقِيقِ شَطْرُ الدِّينِ، وَثَمَرَةُ مَجَاهِدَةِ الْمُتَّقِينَ وَرِيَاضَةِ الْمُتَعَبِّدِينَ)⁽²⁾ ويقول الدكتور سعيد عبد العظيم: (أَنْ يَكُونَ كَثِيرَ الْحَيَاءِ قَلِيلَ الْأَذَى، كَثِيرَ الصَّلَاحِ صَدُوقَ اللِّسَانِ، قَلِيلَ الْكَلَامِ كَثِيرَ الْعَمَلِ، قَلِيلَ الزَّلَلِ قَلِيلَ الْفُضُولِ، بَرًّا وَصَوْلًا وَقَوْرًا صَبُورًا رَضِيًّا حَلِيمًا وَلَا مَغْتَابًا وَلَا عَجُولًا وَلَا حَقُودًا وَلَا بَخِيلًا وَلَا حَسُودًا بِشَاشًا هَشَاشًا يَحُبُّ فِي اللَّهِ وَيَبْغِضُ فِي اللَّهِ، وَيَرْضَى فِي اللَّهِ، وَيَسْخَطُ فِي اللَّهِ)⁽³⁾.

- كما على الدَّاعِيَةِ وَكُلِّ مَنْ تَوَلَّى حَكْمَ الرِّعْيَةِ أَنْ يَكُونَ حَيًّا مَعَ أَفْرَادِهِ حَتَّى يُمَثِّلَ الْقُدُوةَ الْحَسَنَةَ أَمَامَ رَعِيَّتِهِ فَيَتَّبِعُونَ أَثَرَهُ رَغْبَةً دُونَ رَهْبَةٍ وَيَلْقَى التَّقْدِيرَ وَالْإِحْتِرَامَ.

- الْحَيَاءُ خُلُقٌ نَبِيلٌ دَعَا إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَأَثْنَى عَلَيْهِ فَعَدَّهُ مِنْ دَعَائِمِ الْأَمْرِ وَرَقِيهَا، حَيْثُ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي أَمَّةٍ ذَهَبَ حَيَاؤُهَا، وَالدَّاعِيَةُ بِدَوْرِهِ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ حَيًّا فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ دُونَ أَنْ يَمْنَعَهُ ذَلِكَ مِنْ الْجَرَاةِ فِي

(1) - أبو بكر البيهقي، دلائل النبوة، باب إستبراء زيد بن سَعْنَةَ أَحْوَالِ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى إِذَا وَقَفَ عَلَيْهَا وَأَبْصَرَ عِلَامَاتِ النُّبُوَّةِ فِيهَا

أَسْلَمَ وَإِنْقَادَ (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، مج6، 1405هـ)، ص 278، ومحمد القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، كتاب الفضائل والشَّمَائِل، باب في أخلاقه وشَمَائِلِهِ ﷺ، رقم الحديث 5832، ج10، المرجع السابق، ص 496.

(2) - أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، المرجع السابق، ص 49.

(3) - سعيد عبد العظيم، خلق المسلم، المرجع السابق، ص 8.

الحق، ومن حيائه عدم التدخّل في شؤون الآخرين، غَضَّ البصر، خفض الجناح، عدم رفع الصوت، القناعة وما شابهها من خصال⁽¹⁾.

- الحياء زينة الدّاعية وحليته الجميلة، وبقدر ما يتحلّى به يضيفي على نفسه جمالاً وبهاءً، وقيمة إنسانيته.

ثالثاً: الدّعوة إلى ترسيخ خلق الصّبر

أ- مفهوم الصّبر

- لغة

● يُعرّفه العلامة الفيومي بالقول: (هو الحبس والمنع، وهو ضدّ الجزع، ويقال: صبر صبراً: تجلّد ولم يجزع، وصبر: إنتظر، وصبر نفسه: حبسها وضبطها، وصبر فلاناً: حبسه، وصبرت صبراً: حبست النفس عن الجزع، والصّبر الدّواءُ المُرُّ بكسر الباء في الأشهر، والصّبر وزانٌ قُلٌّ وحملٌ في لغة النّاحية المُستعلية من الإناء وغيره والجمعُ أصبارٌ مثل: أقفال والأصبارُ بالهاء جمع الجمع وأخذت الحنطة ونحوها بأصبارها أي مجتمعةً بجميع نواحيها)⁽²⁾.

- اصطلاحاً

● يعرفه الدكتور القحطاني بالقول: (هو خلق فاضل من أخلاق النّفس يمنع صاحبه من فعل ما لا يحسن ولا يحمل، وهو قوّة من قوى النّفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها)⁽³⁾، وهذه القوّة يمكن للإنسان من ضبط نفسه لتحمل المتاعب والمشاق والآلام⁽⁴⁾، ويعرّفه خالد بنُ جمعة بنُ عثمان بالقول: (والصّبر هو حبس النّفس على ما يقتضيه العقل والشرع أو عمّا يقتضيان حبسها عنه، كحبس النّفس عن الجزع و التّسخّط والشّكوى، وعن تشويش الجوارح، وهو أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر على معصية الله، وصبر على قضاء الله وقدره على البلاء)⁽⁵⁾، يقول تعالى في محكم تنزيله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200]، وفي تعريف آخر له: (هو القدرة على تحمّل المصائب

(1) - فتحي يكنّ، ماذا يعني إنتمائي للإسلام (بيروت: مؤسّسة الرّسالة، ط15، 1408هـ/1988م)، ص 41.

(2) - الفيومي، المصباح المنير في غريب الشّرح الكبير، كتاب الصّاد، ج1، المصدر السّابق، ص 331.

(3) - سعيد بنُ علي بنُ وهف القحطاني، أنواع الصّبر ومجالاته في ضوء الكتاب والسنة (د، دار نشر، د، ط، 1422هـ)، ص 4.

(4) - عبد الرّحمان حبنكة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، المرجع السّابق، ص 305.

(5) - خالد بنُ جمعة بنُ عثمان الحزّاز، موسوعة الأخلاق (الكويت: مكتبة أهل الأثر، ط1، 1430هـ/2009م)، ص 75.

والشدائد، والقبول بها بنفس راضية من دون خوفٍ أو جزعٍ أو وجل، وهو قوة خلقية وجهاد نفسيّ يمكن الإنسان من ضبط نفسه لمواجهة المتاعب والمشقات والآلام التي تنزلُ به⁽¹⁾ يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «أنَّ أناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثمَّ سألوه فأعطاهم، حتى نفدَ ما عنده، فقال: ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستغفف يُغفِرْهُ الله، ومن يستغن يُغنهِ الله، ومن يتصبر يُصبرْهُ الله، وما أعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصبر»⁽²⁾ فالصبر صفة لازمة لكل داعية، فهو علامة قوة شخصيته ودليل إترانه، يقول الإمام ابنُ الجوزي رحمه الله: (حسن الخلق يقوم على أربعة أركان لا يتصور قيام ساقه إلا عليها، الصبر والعفة والشجاعة والعدل)⁽³⁾ إذا اقتضت سنة الله أن يكون لأهل الدعوة خصوصاً يترتبون بهم، يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: 31] فعليهم بالصبر في دعوة الناس كما صبر الأنبياء -عليهم السلام- في دعوة أقوامهم، لأن الهداية بيد الله لا بيدهم، يقول تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: 48] فكان الصبر من الموضوعات التي عالجها النبي ﷺ وربى عليها أصحابه، وكان من أسباب نصر دعوته، وثبات عزيمته أصحابه رضوان الله عليهم، فأظهر ﷺ عنايته بموضوع الصبر عناية فائقة مشيراً إلى أنه من أعظم الأسباب المثبتة لهداية الناس، له آثار جليلة يحظى بها الصابرون من محو الخطايا وتكفير الذنوب، سأل رجلُ النبي ﷺ قائلاً: «يا رسولَ الله، أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، تُكْفَرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فقال له رسولُ الله ﷺ: نعم، إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبَلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ»⁽⁴⁾ وفي الحديث القدسي بين جزاء الصابرين عند الصدمة الأولى: «يا ابنَ آدَمَ إِنْ صَبَرْتَ وَاحْتَسَبْتَ عِنْدَ الصَّدْمَةِ

(1) - عبد الإله ميقاتي، مدخل إلى فقه النعمة (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2006م)، ص 224

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الاستغفار عن المسالة، رقم الحديث 1374، ص 620.

(3) - ابنُ القيم، مدارج السالكين، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادى (دار الكتاب العربي، ج2، 1423هـ/2003م)، ص- ص 302، 304.

(4) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياهُ إلا الدين، رقم الحديث 1885، مج1، ص 911.

الأولى، لَمْ أَرْضَ لَكَ ثَوَابًا دُونَ الْجَنَّةِ»⁽¹⁾ فالصَّبْر الذي أشار إليه النَّبِيُّ ﷺ في هذا الحديث هو الصَّبْر المتجَمِّل بِخَلَّةِ اليقين بقضاء الله في ساعة العسرة، فيصبر ويحتسب ولا يفقد صوابه، ولا يهذي بلسانه، ولا يجهل بقلبه، يقول الإمام الخطابي رحمه الله: (المعنى أَنَّ الصَّبْر الذي يحمده عليه صاحبه ما كان عند مفاجأة المصيبة بخلاف ما بعد ذلك فإنه على الأيام يسلو)⁽²⁾.

ب- الصَّبْر جَنَّةُ الْمُؤْمِنِ الدَّاعِيَةِ

الصَّبْر في الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَهَمِّ الصِّفَاتِ الْخَلْقِيَّةِ الَّتِي يَسْتَوْجِبُ عَلَى الدَّاعِيَةِ أَنْ يَتَلَبَّسَ بِهَا فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، فَهُوَ عُمُودُ الْأَعْمَالِ وَالْوَاجِبَاتِ، وَهُوَ الدَّعَامَةُ الَّتِي لَا يَفْلُ عَزْمُهَا وَلَا يَفْلُ نَجْمُهَا، يَنْبَغِي عَلَى الدَّاعِيَةِ مَرَّةً أُخْرَى أَنْ يُشْرِبَهَا فَتَكُونَ خَلَاقَةً، وَلَوْلَا الصَّبْر لَمَّا وَقَّتِ الرِّسَالَاتُ وَعَمَّ الْإِسْلَامُ جَمِيعُ الْأَقْطَارِ وَالْأَمْصَارِ، وَلِهَذَا فَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَهُ ﷺ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدًا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ عَظِيمٌ فَتْحًا﴾ [ص: 17] يَشِيرُ الْأُسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِهِ لِمَعْنَى الْآيَةِ فِيَقُولُ: (إِنَّ كَلِمَةَ أَصْبِرْ إِشَارَةٌ إِلَى الطَّرِيقِ الْمَطْرُوقِ فِي حَيَاةِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ جَمِيعًا، الطَّرِيقُ الَّذِي يَضُمُّهُمْ أَجْمَعِينَ، فَكُلُّهُمْ سَارٍ فِي هَذَا الطَّرِيقِ، وَكُلُّهُمْ عَالِيٌّ، وَكُلُّهُمْ أَبْتَلِيٌّ، وَكُلُّهُمْ صَبِيرٌ، وَكَانَ الصَّبْرُ هُوَ زَادَهُمْ جَمِيعًا وَطَابَعَهُمْ جَمِيعًا)⁽³⁾ وَالصَّبْرُ هُوَ أَحَدُ الْأَرْكَانِ الْأَسَاسِيَةِ الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا حَسَنُ الْخَلْقِ بَلْ أَنَّهُ إِذَا كَانَ حَسَنَ الْخَلْقِ دَثَارًا لِلدَّاعِيَةِ فَإِنَّ الصَّبْرَ شِعَارُهُ، يَرَى الْمَرْءُ عَلَى الْإِحْتِمَالِ وَكُظْمِ الْغَيْطِ، وَكَفَّ الْأَذَى، وَالْحَلَمَ، وَالْأَنَاءَ، وَالرَّفْقَ وَتَرَكَ الطَّيْشَ وَالْعَجَلَةَ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: الصَّبْرُ وَالسَّمَاخَةُ، وَقِيلَ أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْمَلُ إِيمَانًا؟ قَالَ: أَحْسَنُهُمْ خَلْقًا»⁽⁴⁾ وَوَقَفَ رَجُلٌ عَلَى الشُّبْلِيِّ فَقَالَ: (أَيُّ: الصَّبْرِ أَشَدُّ عَلَى الصَّابِرِينَ؟ فَقَالَ: الصَّبْرُ فِي اللَّهِ، قَالَ السَّائِلُ: لَا، فَقَالَ: الصَّبْرُ لِلَّهِ، فَقَالَ: لَا، قَالَ: الصَّبْرُ مَعَ اللَّهِ، فَقَالَ: لَا، قَالَ الشُّبْلِيُّ: فَإِنْ شِئْتَ هُوَ؟ قَالَ: الصَّبْرُ

(1) - أخرجه ابنُ ماجه في سننه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في الصَّبْر عند المصيبة الأولى، رقم الحديث 1597 (دار إحياء الكتب العربية، ج2، د، ط، د، ت)، ص 509. وقال: هذا حديثٌ حسنٌ .

(2) - ابنُ حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور، رقم الحديث 1283، ج3، المرجع السَّابِق، ص 150.

(3) - سيّد قطب، في ظلال القرآن ج 5، المرجع السَّابِق، ص-ص 16، 30

(4) - ابنُ أبي شيبة، كتاب الإيمان، باب ما ذكر في الإيمان، رقم الحديث 43 (بيروت: المكتب الإسلامي، ط2، 1403هـ/ 1983م)، ص 25.

عن الله، فصرخ الشبلي صرخة كادت تتلف روحه⁽¹⁾ لقد حصَّ النبي ﷺ منزلة خلق الصبر بالتفضيل واكتمال الإيمان، ودعا أصحابه إلى التحلي به ليكتمل الإيمان في قلوبهم، فجعله سلاح يتجاوزون به جميع المراحل العصبية التي تواجههم إبان العهد المكّي والمدني، فشفيت به صدورهم عن الشرك انتصاراً، وعن النفاق إظهاراً، يقول عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه: «خيرُ عيشٍ أدركناه بالصبر، ولو أن الصبر كان من الرجال كان كريماً»⁽²⁾.

ج- تطبيقات خلق الصبر في دعوة النبي ﷺ

أمر النبي ﷺ بهذا الخلق في أكثر من موضع في القرآن الكريم منها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: 7] وذلك لعظم الرسالة التي كُلف بها، فظهر أثره جلياً في تحمّله وحلمه وأناته، فزاد ونما في نفس النبي ﷺ بالتجارب الكثيرة التي مارسها في حياته، فكان قدوة حسنة للناس في فضيلة الصبر⁽³⁾ و من ضمن التجارب التي تعامل بها النبي ﷺ بالصبر وحث عليها أصحابه رضوان الله عليهم، نذكر منها كالاتي:

- صبر النبي ﷺ على أذيّات القوم بالصّفح والعفو

لقد ضرب النبي ﷺ أروع الأمثلة في الصبر واحتماله ألواناً من الشدائد وصنوفاً من الأذى يصعبُ على الجبال الرواسي حملها، فما كان ذلك لتنوء من عزيمته وهمتّه، بل زاده ثباتاً وإصراراً، فقابل تلك الشدائد والإحن وتلك العداوة بالصبر والصّفح والدعاء، الذي قال عنهم الإمام ابن القيم رحمه الله: (وفي الصّفح والعفو والحلم من الحلاوة والطُمأنينة والسكينة، وشرف النفس وعزّها ورفعته عن تشقيها بالانتقام: ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام)⁽⁴⁾، ومن جملة مواقفه كانت مع أبي جهل والذي تنوّعت وسائل أذاه للنبي ﷺ وتواترت ووصل به الأمر إلى محاولة إلقاء الحجر عليه وهو ساجد، ولكن الله سلّم⁽⁵⁾، واجتماع الملاء من عليّة قريش وضربهم النبي ﷺ، يوم أن اجتمعوا في

(1) - ابن القيم، مدارج السالكين، المرجع السابق، ص 158.

(2) - ابن أبي الدنيا، الصبر والثواب عليه، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف (بيروت: دار بن حزم، ط1، ج1، 1418هـ/ 1997م)، ص 24، وابن القيم، عدّة الصّابرين وذخيرة الشّاكرين (بيروت: دار ابن كثير، ط2، ج1، 1409هـ/ 1989م)، ص95.

(3) - عبد الرّحمان حنّكة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، ج2، المرجع السابق، ص 480.

(4) - ابن القيم، مدارج السالكين، المرجع السابق، ص 303.

(5) - عبد الله بن محمد موسى، أسباب نجاح الدّعوة الإسلامية في العهد النبوي، المرجع السابق، ص 286.

الحِجْر فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا: «ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط، سقّه أحلامنا، وسبّ آهتنا، لقد صبرنا منه على أمرٍ عظيم، فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله ﷺ فوثبوا وثبة رجل واحد، وأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا، لما كان يقول من عيب آهتهم ودينهم، فيقول: نعم، أنا الذي أقول ذلك، ثم أخذ رجل منهم بمجمع رداءه، فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه، وهو يبكي، ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول: ربّي الله»⁽¹⁾، كانت امرأة أبو لهب - أم جميل - من أشدّ الناس عداوة للنبي ﷺ، تسعى بالإفساد بينه وبين الناس بالنميمة، وتضع الشوك في طريقه والقدر على بابه، إلى أن أنزل الله تعالى سورة المسد، فحين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وفي يدها فهر من حجر، فلما وقفت عليهما قالت: يا أبا بكر، أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدت له لضربت بهذا الفهر فاه، ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأتك؟ فقال ﷺ: لقد أخذ الله ببصرها عني، وكانت تنشد: مذمّم أبنينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا، وكان رسول الله ﷺ يفرح لأنّ المشركين يسبّون مذمّمًا^(*) يقول: ألا تعجبون كيف يُصرفُ الله عني^(*) شتم قريش ولعنهم؟، يشتمون مذمّمًا، ويلعنون مذمّمًا وأنا محمد⁽²⁾، وعن عروّة بن الزبير قال: «سألت ابن العاص فقلت: أخبرني بأشدّ شيء صنعهُ المُشْرِكُونَ بالنبي ﷺ قال: بينما النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة، إذا أقبل

(1) - إنّه كثير، جامع المسانيد والسُنن، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، ج 26، 2012م)، ص 7262، البداية والنهاية لابن كثير، ص 50، والروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، ج 2، 2009م)، ص 41.

(*) - مذمّمًا: أي: ذمهم، والإستفهام للتقرير ثم بين وجه الصرف مستأنفا بقوله: (يشتمون): بكسر التاء أي: يسبّون مذمّمًا، ويلعنون مذمّمًا، وأنا محمد، أي: لا مذمّم، والمعنى أنّ ما ذكره أوصاف المذمّم، وأنا بحمد الله محمد، وقيل: كانوا يسمّونه بمذمّم، والمعنى أنّ ما ذكره أوصاف المذمّم، وأنا بحمد الله محمد، قال التوريشي: يريد بذلك تعريضهم إياه بمذمّم مكان محمد، وكانت العوراء بنت حرب زوجة أبي لهب تقول: مذمّمًا قلينا ودينه أبينا وأمره عصينا (يُنظر: محمد القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، كتاب الفضائل، باب أسماء النبي ﷺ وصفاته، رقم الحديث 5778، المرجع السابق، ص 3698).

(*) - يُصْرِفُ الله عني: أي لعنهم وشتّمهم فلا يصيبني لأهم يلعنون ويشتمون غيري الذي يسمّى مذمّمًا بينما إسمي محمد ﷺ وكان كفار قريش لشدة كراحتهم له ﷺ لا يسمّونه باسمه الدال على المدح فيعدلون إلى ضده، فيقولون مذمّم وهو ليس إسمه ولا معروفًا به، فكان الذي يقع منهم مصروفًا إلى غيره بالبداهة فيحصل ضدّ قصدهم ويردّ الله تعالى كيدهم في نحرهم ليموتوا في غيظهم (فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ، رقم الحديث 3533، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 1427هـ/2007م)، ص 194.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ، رقم الحديث 3533، ص 873.

عُقْبَةُ بن أَبِي مُعَيْطٍ، فَوَضَعَ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ حَتَّى أَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: أَتَفْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ»⁽¹⁾ ترك هذا الصَّبْرُ أثراً كبيراً في دعوته ﷺ، حيث رَقَّقَ قُلُوبَهُمَ لِلْإِسْلَامِ وَرَغَّبَهُمْ فِيهِ وَطَمَأَنَّنَهُمْ إِلَى سَهُولَةِ أَحْكَامِهِ وَلَيُونَةِ تَرْبِيَتِهِ، وَكَانَ إِذَا مَرَّ عَلَى مَجَالِسِهِمْ بِمَكَّةَ اسْتَهْزَؤُوا بِهِ، وَقَالُوا سَاخِرِينَ: (هَذَا ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ*) يُكَلِّمُ مِنَ السَّمَاءِ، وَكَانَ أَحَدُهُمْ يَمُرُّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فيقول له سَاخِرًا: أَمَا كُلَّمَتَ الْيَوْمَ مِنَ السَّمَاءِ⁽²⁾، وَلَمْ يَقْتَصِرِ الْأَمْرُ عَلَى مَجَرَّدِ السُّخْرِيَةِ وَالْإِسْتِهْزَاءِ وَالْإِيذَاءِ النَّفْسِيِّ بَلْ تَعَدَّاهُ إِلَى الْإِيذَاءِ الْبَدَنِيِّ، بَلْ وَقَدْ وَصَلَ بِهِمُ الْأَمْرُ أَنْ يَبْصُقَ أُمِّيَّةُ بْنُ خَلْفٍ فِي وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ⁽³⁾، يَقُولُ الْإِمَامُ الْقَاضِي عِيَاضُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي صَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى قَوْمِهِ: (مِنْ صَبْرِهِ عَلَى مَقَاسَاةِ قَرِيشَ وَأَذَى الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَصَابِرَتِهِ الشَّدَائِدِ الصَّعْبَةِ مَعَهُمْ إِلَى أَنْ أَظْفَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ صَاغِرُونَ تَحْتَ حُكْمِهِ لَا يَشْكُونَ فِي اسْتِئْصَالِ شَأْفَتِهِمْ، وَإِبَادَةِ خَضِرَائِهِمْ، فَمَا زَادَ عَلَى أَنْ عَفَا وَأَصْفَحَ فَقَالَ لَهُمْ: مَا تَقُولُونَ أَيُّ فَاعِلٍ بِكُمْ ؟ قَالُوا: خَيْرًا، أَخُ كَرِيمٌ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ، فَقَالَ: أَقُولُ كَمَا قَالَ أَخِي يُوسُفُ: لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ أَذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلُقَاءُ)⁽⁴⁾ وَقَدْ خَتَمَ الْمُشْرِكُونَ أَذَاهُمْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَحَاوَلَةِ قَتْلِهِ فِي أَوَاخِرِ الْمَرْحَلَةِ الْمَكِّيَّةِ⁽⁵⁾، فَلَمْ يَقْتَصِرِ أَذَى قَرِيشٍ عَلَى الْإِتْهَامِ الْبَاطِلِ، وَالتَّكْذِيبِ السَّافِرِ وَالسُّخْرِيَةِ وَالْأَذَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَلْ تَصَاعَدَ إِلَى ذُرُوءِ الْعَنْفِ، وَخَاصَّةً فِي مَعَامَلَةِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَصَحَابَتِهِ الْكَرَامِ، فَتَنَكَّلَتْ بِهِمْ لَتَفْتِنَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَلِتَجْعَلَهُمْ عِبْرَةً لِسَوَاهِمِمْ وَلِتَنْفَسَ عَنْ غَضَبِهَا بِمَا تَصُبُّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَذَابِ، فَنبِيُّ اللَّهِ ﷺ مَنَعَهُ اللَّهُ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ ﷺ فَمَنَعَهُ اللَّهُ بِقَوْمِهِ، وَأَمَّا سَائِرُهُمْ فَأَخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ فَصَهَرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ وَالْبَسُوهُمْ أَدْرَعَ الْحَدِيدِ⁽⁶⁾، وَحَتَّى بَعْدَ هِجْرَتِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ لَمْ تَتَوَقَّفْ حُدَّةُ الْإِبْتِلَاءِ

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة، رقم الحديث 3852، ص 478.

(*) - كَبْشَةُ: والد النبي ﷺ من الرِّضَاعَةِ (السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ لِلصُّلَّابِيِّ، المرجع السَّابِقُ، ص 146)، و(جَوَادٌ عَلِي، المِفْصَلُ فِي تَارِيخِ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، دار السَّاقِي، ط 4، ج 11، 1422هـ/2001م)، ص 58.

(2) - المرجع نفسه، ص 58، والسِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ لِلصُّلَّابِيِّ، المرجع السَّابِقُ، ص 146.

(3) - علي مُحَمَّد الصُّلَّابِيُّ، السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ، المرجع السَّابِقُ، ص 146.

(4) - يُنْظَرُ: الْقَاضِي عِيَاضُ، الشِّفَا بِتَعْرِيفِ حَقُوقِ الْمُصْطَفَى ﷺ، ج 1، المرجع السَّابِقُ، ص-ص، 100، 101.

(5) - يُنْظَرُ: أَكْرَمُ ضِيَاءُ الْعَمْرِي، السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ الصَّحِيحَةُ (الْمَدِينَةُ الْمُنَوَّرَةُ، مَكْتَبَةُ الْعُلُومِ وَالْحُكْمِ، ط 6، ج 1، 1415هـ/1994م) ص 153.

(6) - المرجع نفسه، ص 154.

والأذى بظهور أعداء جُددٍ من المنافقين المجاورين بالمدينة، ومن اليهود والفرس والرُّوم وأحلافهم، وبعد أن كان الأذى بمكة شتماً وسخريةً وحصاراً وضرباً صار مواجهةً عسكرية مسلّحة، فواجهها بصبرٍ وتحّدٍ منقطع التّظير، وكان ذلك على قدر الرّسالة التي حمّلها، إشفاقاً على قومه أن يصيبهم مثل ما أصاب الأمم الماضية من العذاب والتّكال، وليكون قدوةً للدّعاة والمصلحين من بعده⁽¹⁾، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «أنّ ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ثمّ سألوه فأعطاهم ثمّ سألوه فأعطاهم حتّى نفذ ما عنده فقال: ما يكون عندي من خيرٍ فلن أدّخره عنكم ومن يستغفِر يعفّهُ الله، ومن يستغفِر يغفِرِ الله، ومن يشتصّر يُصبرهُ الله، وما أُعطيَ أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصّبر»⁽²⁾ فالصّبر تندرج تحت قوّته أفضل السّمات وأحلى الصّفات فالسّماحة والحلم والعطاء والبذل والتفائل والصّفح والرّضى والشّكر، وكلّ قولٍ جميلٍ وعملٍ طيّبٍ ينحصر في دائرة الصّبر⁽³⁾ وهكذا كان النّبي ﷺ يرسّخ قاعدة مهمّة في الأخلاق وأصل من أصولها، والتي إذا تحقّق ذلك في الداعية تهون أمامه كلّ العقبات والتّحدّيات بسعة صدر ورجاحة عقل، فهو قوّة لا ضعف فيها، لأخذ الحقّ والدّفاع عنه وهو صمود وعطاء، فما أعطيَ العبد عطاءً خيراً وأوسع من الصّبر، فحريّ على القائمين على الدّعوة أن يتحلّوا بالصّبر، لأنّ من شأنه تقوية عود الدّعوة وعضدها والوصول بها إلى عالم فسيح يسوده الأمن والتّحاح، ومكسب رهان إستمراريتها والوصول بها إلى مقام القرار وذروة الانتصار.

– صبر النّبي ﷺ على مللّات الحياة

جرت سنّة الله في خلقه أن أوقع الإبتلاء والاختبار والتّمحيص في البشر، ولاسيما في حياة النّبي ﷺ أن بلغ به الأذى ذروته، وهو يُحاصر ﷺ في شعب أبي طالب، ثمّ تتوالى عليه الأحزان بموت زوجته السيّدة خديجة رضي الله عنها، ثمّ بموت عمّه أبي طالب الذي كان يحوطه ويدافع عنه - بالرّغم من موته على الكفر-، ثمّ يخرج مهاجراً من بلده الذي يحبّه ووصفه بأنّه أحبّ البلاد إلى قلبه، لبدأ عهداً جديداً من الصّبر والتّضحية، وحياة فيها الكثير من الجهد والجهد، حتّى جاع وافتقر، لدرجة أنّه ﷺ ربط على بطنه الحجر في ذلك فيقول: «لقد أُوذيتُ في الله وما يُؤدّي أحدٌ، وأُخِفْتُ في الله وما يخافُ أحدٌ، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين يومٍ وليلةٍ، وما لي ولبلالٍ طعامٌ يأكله ذو كبدٍ

(1) - علي محمّد الصّلابي، السّيرة النّبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، المرجع السّابق، ص 146.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرّكاة، باب الإستغفار عن المسألة، رقم الحديث 1469، ص 358.

(3) - هيا بنت ناصر بن عبد الله الرّاشد، الصّبر جنة المؤمن (الرّياض: دار الرّسالة البيان للنّشر والتّوزيع، ط 1، 1435هـ/

إِلَّا شَيْءٌ يُؤَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ»⁽¹⁾ وَمَنْ صَبْرُهُ أَيْضًا صَبْرُهُ عَلَى فِرَاقِ قَرَّةِ الْعَيْنِ وَكَبْدِ الْفُؤَادِ مَوْتَ أُنْبَاءِهِ، وَهَذَا مِنْ أَشَدِّ الْإِبْتِلَاءَاتِ الَّتِي تَجْعَلُ الْقَلْبَ يَتَفَطَّرُ حَزْنًا وَكَمَدًا... وَالِدَّعَوَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَتَحْدِيدًا الْحَامِلِينَ لَوَاءِهَا جَدِيرَ بِهِمْ أَنْ يَقَعَ فِيهِمُ الْإِبْتِلَاءُ وَالْإِخْتِبَارُ، كَمَا وَقَعَ لِلْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِنْ قَبْلِهِمْ، خُصُوصًا عِنْدَمَا يُوَاجِهُونَ قَوَى طَائِفِيَّةٍ وَعَرَقِيَّةٍ وَعِلْمَانِيَّةٍ فِي مُحَاوَلَاتِ لَوْادِ الدَّعْوَةِ أَوْ تَشْوِيهِهَا وَالْقَضَاءِ عَلَيْهَا، فَتُكْشَفُ صِلَابَةُ دِينِهِمْ وَقُوَّةُ إِيْمَانِهِمْ، وَيَتَبَيَّنُ صِدْقُهُمْ وَإِخْلَاصُهُمْ تَمَامًا، كَمَا يُجْتَبَرُ الْمَعْدُنُ النَّفِيسَ بِالنَّارِ، فَكَلَّمَا زَادَ صَهْرُهُ انْكَشَفَتْ جُودَتُهُ مِنْ خُسَاسَتِهِ⁽²⁾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: 3] وَيَقُولُ أَيْضًا: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [مُحَمَّد: 31] وَقَوْلُهُ: ﴿أَمَّ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: 142] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُؤْقِنُونَ﴾ [الرُّوم: 60] فَاللَّهُ تَعَالَى يُوَقِّعُ الْبَلَاءَ وَالْإِبْتِلَاءَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ كَيْفَ يَشَاءُ، وَمَتَى يَشَاءُ، لِيُمَحِّصَ إِيْمَانَهُمْ وَهَذَا الْإِبْتِلَاءُ أَغْلَبُ مَا يَكُونُ فِي التَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ، أَوْ فِي الْمَصَائِبِ وَالْآلَامِ⁽³⁾، يَقُولُ الْإِمَامُ الطَّيْبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَبَشِّرْ يَا مُحَمَّدُ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ أَنَّ جَمِيعَ مَا بِهِمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمَنِّي فَيَقْرُونَ بِعِبُودِيَّتِي يُوَحِّدُونِي بِالرُّبُوبِيَّةِ وَيَصْدُقُونَ بِالْمَعَادِ وَالرُّجُوعِ إِلَيَّ فَيَسْتَسْلِمُونَ لِقَضَائِي وَيَرْجُونَ ثَوَابِي وَيَخَافُونَ عِقَابِي، وَيَقُولُونَ عِنْدَ امْتِحَانِي إِيَّاهُمْ بَعْضُ مُحْنِي وَإِبْتِلَائِي إِيَّاهُمْ بِمَا وَعَدْتُهُمْ إِنْ ابْتَلَيْتَهُمْ بِهِ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصِ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَصَائِبِ الَّتِي أَنَا مُمْتَحِنُهُمْ بِهَا: إِنَّا مَمَالِكُ رَبَّنَا وَمَعْبُودُنَا وَنَحْنُ عِبِيدُهُ وَإِنَّا إِلَيْهِ بَعْدَ مَمَاتِنَا صَائِرُونَ تَسْلِيمًا لِقَضَائِي وَرِضًا بِأَحْكَامِي)⁽⁴⁾ وَالِدَّعَاةُ يَكِيدُ لَهُمْ أَهْلُ الْبَاطِلِ وَيَفْتَرُونَ عَلَيْهِمْ إِفْكَأً وَجُهْتَانًا وَيُؤْذِنُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْأَذَى إِنْتِصَارًا لِبَاطِلِهِمْ وَخَنْقًا عَلَى الْحَقِّ وَأَهْلِهِ، وَلَقَدْ أُوذِيَ صَحَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي مَكَّةَ أَشَدَّ الْأَذَى، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْمُرُهُمْ بِالصَّبْرِ فَيَقُولُ لَالْ يَاسِرُ:

(1) - أخرجه الترمذي في سننه صحيح الجامع، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب منه، رقم الحديث

2472، ج4، المصدر نفسه، ص 645. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب .

(2) - منير محمد الغضبان، فقه السيرة (المملكة العربية السعودية: جامعة أم القرى، ط2، 1413هـ/1992م)، ص 127.

(3) - عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، المرجع السابق، ص 339.

(4) - ابن جرير الطبري، تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج2، المصدر السابق، ص706.

«صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»⁽¹⁾ وقد أوصى ﷺ أحد أصحابه رضوان الله عليهم فقال: «إن استطعت أن تعمل لله بالرضا في اليقين فافعل، وإن لم تستطع فاصبر، فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وإعلم أن النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، واليسر مع العسر»⁽²⁾ ويقول بعض الحكماء: (بمفتاح عزيمة الصبر تعالج مغاليق الأمور، وقال بعض البلغاء: عند انسداد الفرج تبدو مطالع الفرج)⁽³⁾ وعلمهم قيمة الصبر وبين أن الصبر على البلاء يزيد المؤمن قوة وانتصاراً ويقيناً، والمشاهد المفزعة التي ابتليت بها الأمة جزاء مساوئ الجاهلية المعاصرة في بلاد المسلمين يستحضر فيها الداعية تسلط كافة أنواع التعذيب والأذى في محاربة دينها وهويتها وملاحقة دعايتها وقتل علمائها، فهذه الأوضاع يحسم أمرها حتماً إذا ما تمسكت الأمة ورجالها ودعايتها بدينها وواجهوا العدو بالصبر إقتداءً بنبيهم ﷺ، فتكون العاقبة النصر لهم، وقد نزل القرآن مخاطباً النبي ﷺ وأصحابه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِبَةَ لِلْمُنْقِذِينَ﴾ [هود: 49] فالخطاب القرآني يبين أن الصبر أساس الأخلاق وعمودها، فلا تقم للأعمال قائمة بدون الصبر، فلولا الصبر لما نجحت رسالات الأنبياء عليهم السلام، وما قام للإسلام قائمة إلى اليوم، فهو بمثابة الرأس في الجسد فلا دعوة بدون صبر ولا جسد بدون رأس، وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله: «أيُّ الناس أشدَّ بلاءً؟ قال: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإذا كان دينه صلباً اشتدَّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة»⁽⁴⁾ أشار النبي ﷺ أن المؤمن الذي يصبر أمام الابتلاء وما يحلّ عليه من المكائد والمخاوف فإنه يستدفع مكائد الأعداء، وإن قلَّ صبره ويشتدَّ جزعه وخوفه فيصير صريع همومه وفريسة عدوه، يقول تعالى في وصية لقمان لابنه: ﴿يَبْنِيْ أَقْرَمَ الصَّكُوَّةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: 17] كما دعا النبي ﷺ الأنصار إلى التصبر والتحمل

(1) - صفّي الرحمان المباركفوري، الرّحيق المختوم، المرجع السابق، ص 81.

(2) - محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، تحقیق: مصطفى عبد القادر عطا، کتاب معرفة الصحابة، باب ذکر عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، رقم الحديث 6303 (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، ج 3، 1411هـ/1990م)، ص 623.

(3) - التّنوخي، الفرج بعد الشدة للتوخي، تحقيق: عبود الشالحي (بيروت: دار صادر، ج 1، 1398هـ/1978م)، ص 158.

(4) - أخرجه الترمذي في صحيحه، الجامع الصحيح، كتاب الزهد، باب 56، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم الحديث 2398، ج 4، المصدر السابق، ص 601. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وجهاد النفس بكظم الغيظ والتعفف عن الحرام والقناعة بما آتاه الله إياه، وتجلّد على ما ابتلاه الله به حتى يكتسب هذا الخلق العظيم، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «إِنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى نَفَذَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»⁽¹⁾ هذا الحديث يُنبّه إلى قاعدة مهمّة في سنّة الله في تغيير أخلاق النَّاس وسلوكهم، ومردّد ذلك بداية الدّاعية ذاته، ثمّ مباشرته بفطم النَّفس عن الهوى وعن التّمادي وعن تماديها في الشّهوات وكبح جماح أوامرها بالسّوء وترويضها على الطّريق السّوي، يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: (يَصْبِرُ اللَّهُ: أَيُ فَإِنَّهُ يَقْوِيهِ وَيَمَكِّنُهُ مِنْ نَفْسِهِ حَتَّى تَنْقَادَ وَيَذَعْنَ لِتَحْمُلِ الشَّدَّةَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَكُونُ اللَّهُ مَعَهُ فَيُظْفِرُهُ بِمَطْلُوبِهِ)⁽²⁾ وَمِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ عَلَى الدَّاعِيَةِ الْمَخْلُصِ:

- التَّمَسُّكُ بِخُلُقِ الصَّبْرِ، يَتَحَمَّلُ الْمَشَاقَّ وَالْمَتَاعِبَ لِأَجْلِ نَصْرَةِ دَعْوَتِهِ وَتَبْلِيغِهَا، فَالصَّبْرُ مِنَ الْأَخْلَاقِ الَّتِي بَشَّرَ اللَّهُ بِهَا أَصْحَابَهَا بِالْفَرْجِ الْقَرِيبِ.

- كما على الدّاعية أَنْ يَسْتَحْضِرَ النِّيَّةَ الصَّادِقَةَ لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ فَيُغْرِسَ جَلَالَتَهَا فِي وَجْدَانِهِ، فَيَصْبِرَ عَلَى الْمَكَارِهِ وَالْمَخَافِ وَكُلِّ مَا يَبْطُلُ عَمَلُهُ، وَفَقْدَانِ الدَّاعِيَةِ لِلصَّبْرِ كَمَنْ فَقَدَ دِرْعَهُ يَوْمَ الْكَرْبَةِ فَيَقَعُ فِي حَرِّ شَدِيدٍ خُصُوصًا عِنْدَمَا يُوَاجِهُ الْعُقُولَ الْبَلْهَى وَالْوُجُوهَ الْكَلْحَى، وَلِيَعْلَمَ أَنَّهُ يُوَاجِهُ عَقْلِيَّاتٍ مُتَفَاوِتَةً فِي الْإِدْرَاقِ وَالتَّصَوُّرِ وَالِاسْتِجَابَةِ، وَيَتَعَامَلُ مَعَ أَفْرَادٍ يَخْتَلِفُونَ فِي الطَّبَاعِ وَالْعَقِيدَةِ فَمِنْهُمْ الْمُسْلِمُ وَمِنْهُمْ الْكَافِرُ، وَمِنْهُمْ الْمَغْفَلُ وَمِنْهُمْ الْعِلْمَانِي وَمِنْهُمْ الْمُتَطَرِّفُ، وَهَذَا لَيْسَ بِالسَّهْلِ فَهُوَ يَحْتَاجُ إِلَى طَوْلِ نَفْسٍ وَحَسَنِ مِمَارَسَةٍ وَكِيَاَسَةٍ حَتَّى يَأْلِفَهُ وَيَعْتَادَ عَلَيْهِ، فَإِذَا مَا تَعَرَّضَ إِلَى كَلِمَاتٍ نَابِيَةٍ وَجَارِحَةٍ فِي أَرْضِ مِيدَانِ الدَّعْوَةِ، فَتَحْمُلُهُ لَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى السَّيْطَرَةِ وَقُوَّةِ شَكِيمَةِ صَبْرِهِ حَيْثُ عَنَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَدِيثِهِ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصَّرْعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»⁽³⁾.

- الْيَقِينُ الْقَلْبِيُّ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَقُوَّتُهُ عِنْدَ الصَّبْرِ عَلَى الْبَلَاءِ

وما يبعث إلى السّلوى ويخفف البلوى حين يشرّ النّبي ﷺ أصحاب البلاء والمحن الصّابرين بالأجر العظيم الذي ينالهم، كالمرض مثلاً، فإنّ العبد إذا مرض كتب الله له ما كان يعمل أيام

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزّكاة، باب الإستغفار عن المسألة، رقم الحديث 1469، ص 358.

(2) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب الرّقائق، باب الصّبر عن محارم الله، رقم الحديث 6470، ج 11، المرجع السّابق، ص 304.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، باب 76، رقم الحديث 6114، ص 1529.

صحته، يكتبه الله ويباركه، ومن ذلك عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يقول الله تعالى: «إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنًا، فَحَمَدَنِي وَصَبَرَ عَلَى مَا ابْتَلَيْتُهُ بِهِ، فَإِنَّهُ يَقُومُ مِنْ مَضْجِعِهِ ذَلِكَ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الْخَطَايَا، وَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْحَفْظَةِ: إِنِّي أَنَا قَيَّدْتُ عَبْدِي هَذَا وَابْتَلَيْتُهُ، فَأَجْرُوا لَهُ مِثْلَ مَا كُنْتُمْ تُجْرُونَ لَهُ قَبْلَ ذَلِكَ مِنَ الْأَجْرِ، وَهُوَ صَحِيحٌ»⁽¹⁾ وقال رضي الله عنه في حديث آخر: «إِذَا مَرَضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كَتَبَ لَهُ مِثْلَ مَا كَانَ يَعْمَلُ مَقِيمًا صَحِيحًا»⁽²⁾ في الحديثين إثارة للعاطفة وحثها على الصبر في كل الأحوال طلبا لحسن الثواب، الذي تجزى به النفس من الأجر العظيم فوجَّهها إلى الانقياد للصبر واختيار الطريق الأصوب والأنفع لها الصبر أم السخط، فكان الصبر من الموضوعات الهامة التي عالجها النبي ﷺ في دعوته، وحث عليها أصحابه مبينًا فضائله وآثاره في حياة الصَّابرين: **فالحديث الأول:** مثل النبي ﷺ أن من يُسلم لقدر الله وقضائه ويحمده على ابتلائه بالمولود الذي لم يدنس بجرم وإثم فكذلك من سلم للقدر فصبر فإن الله يحو خطايا السَّابِقة وينقيها منها فيعود طاهرًا لا ذنب له، **والحديث الثاني:** مثل المبتلى المؤمن الذي كان يعمل صالحًا حال قوته وحال صحته ثم حبسه على ذلك المرض ونحوه، فإن عمله الذي كان يعمل به يكتب له كما في صحته وهذا فضل الله على المؤمنين الصَّابرين⁽³⁾ وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ وَعَگًا شَدِيدًا، فَمَسِسْتُهُ بِيَدِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعَگًا شَدِيدًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَجَلٌ، إِنِّي أُوْعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ، فَقُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَجَلٌ، ثُمَّ قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَصِيبُهُ أَدَى مَرَضٍ فَمَا سِوَاهُ، إِلَّا حَطَّ اللَّهُ لَهُ سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهُ»⁽⁴⁾ هكذا النبي ﷺ يصبر على البلاء ويحتسب، ويغتنم الظرف الذي يعيشه ترغيبًا منه لأصحابه على الصبر والإمثال به، لما فيه من محو الذنوب والخطايا، فظهر:

(1) - الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، رقم الحديث 2009، ج5، المرجع السابق، ص 20.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة، رقم الحديث 2996، ص 738.

(3) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب يكتب للمسافر ما كان يعمل، رقم الحديث 2996، ج6، المرجع السابق، ص136. وسارة بنت عبد الله جمعة البلوشي، فقه الدعوة من أمثال النبي ﷺ، المرجع السابق، ص 366.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، رقم الحديث 5648، ص 1432.

- بأسلوب التمثيل والتشبيه، حيث شبه إزالة الدُّنوب ومحوها بتساقط الورق من الشجرة فتظهر بصورة حسنة ونظيفة، هذا الأسلوب يعمل على إثارة الانتباه وتحريك العاطفة إمثالاً وترغيباً في الصبر والقدرة على التحمل، وهو ما يجب أن يدركه الدَّاعية ويتحمَّله أنه عرضة للبلاء، لأنَّ طريقه طريق الأنبياء تعرَّضوا لابتلاءات مختلفة فوجوب التحلِّي بالصبر في جميع الظروف الصحيَّة كانت أو الاجتماعيَّة والإحتساب الأجر عند الله تعالى، ومن ذلك نبيُّ الله أيوب عليه السلام: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾

﴿٨٣﴾ فَأَسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنْ

الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ [الأنبياء: 83-85] يقول الحافظ ابنُ حجر رحمه الله: (والحاصل أنه أثبت أنَّ المرض إذا اشتد ضاعف الأجر ثمَّ زاد عليه بعد ذلك أن المضاعفة تنتهي إلى أن تحطَّ السيئات كلها وقال: شدَّة المرض ترفع الدرجات وتحطُّ الخطيئات حتَّى لا يبقى منها شيء^(١)) ويقول العلامة الماوردي رحمه الله: (وليس لمن قلَّ صبره على طاعة الله تعالى حظٌّ من برٍّ ولا نصيب من صلاح، ومن لم ير لنفسه صبراً يكسبها ثواباً ويدفع عنها عقاباً كان مع سوء الاختيار بعيداً من الرِّشاد حقيقة بالضلال)^(٢) وعلى ضوء هذه الصُّور النَّاظقة والأمثلة الحيَّة من الصَّبر والتَّحمل يستدعي من الدَّاعية:

- أن يدرك بأنَّ طريق الدَّعوة عرضة للمحن والبلاء، فيحتميه ويمدُّه بالقوَّة والصَّبر فهو ليس أفضل من الأنبياء - عليهم السَّلام - فقد كانوا أشدَّ بلاء وأكثر أذى، كما عليه أن يظهر للمدعو الصُّورة المشرقة للدَّعوة عندما يجدونه المثل والقُدوة، لا يعرف للسَّخط طريقاً ولا للضَّجر منفذاً فيرضون ويقبلون ما نزل به بنفس مطمئنَّة، قيل للشَّعبي في نائبة: (كيف أصبحت؟ قال: بين نعمتين خير منشور وشرٍّ مستور)^(٣).

- أن يجعل من موضوع الصَّبر حظاً من دعوته في ترسيخه لأهمِّ قاعدة للأخلاق وأصلاً من أصول الإسلام الرَّائدة، كما كان النبي ﷺ يرسمها سلوكاً في سيرته مع أصحابه فينسُخها في أفئدتهم لتنطق بها

(١) - ابنُ حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب أشدُّ النَّاس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، المرجع السَّابق، ص 112.

(٢) - خالد بنُ جمعة بنُ عثمان الخزاز، موسوعة الأخلاق، المرجع السَّابق، ص 76.

(٣) - الماوردي، أدب الدُّنيا والدِّين، المرجع السَّابق، ص 283

جوارحهم العاملة قبل أن تُعرب عنها ألسنتهم الكامنة، كيف لا وهو سيّد الأخلاق وأميرها، فإذا تحقّقت في حياة المدعّوين فما سواه أيسره، وقد أفصح عليه الصّلاة والسّلام بالخير العميم الذي يناله الصّابرون فيقول: «وما أعطي أحدٌ من عطاءٍ خيراً وأوسعَ من الصبر»⁽¹⁾ وقال ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إنَّ أمره كلّهُ خير، وليس ذلك لأحدٍ إلّا للمؤمن، إنَّ أصابته سرّاءُ شكر فكان خيراً له، وإنَّ إصابته ضرّاءُ صبر فكان خيراً له»⁽²⁾.

- تلبّسُهُ بخلقِ الصّبر الذي يجلبُ للدّعوة الظّفر وإستمرارية التّمكن، والإعذار عند الله بما كلّفه ربُّهُ، ليس على حساب مصلحته الشخصية والذّاتية، وإنّما لتحقيق مرضات الله في دينه وعبيده.

- كما على الدّاعية إظهار الصّورة المشرّفة واللائقة للدّعوة وحملها للمدعّوين عندما يرون أن أهل الدّعوة يرضون ويقبلون ما حلَّ بهم من البلاء بأنفسٍ راضية وقوّة إيمان عالية، لا يعرفون للسّخط ولا الضّجر مكاناً في قلوبهم، سيتعاطفون معهم ويُقبلون عليهم، ولأنّ الواقع يحتم عليهم ذلك، فنجد حقائق ومشاهد أثبتت جدارة بعض حملة الدّعوة من قوّة تحمّل وصبر لاثنين وهم يتعرّضون للنّهب والظّلم والإعتداء وسلب الحقوق وغيرها.

رابعاً: الدّعوة إلى التّحلي بخلق التّوّدّد و التّراحم و التّعاطف

أ- مفهوم التّوّدّد والتّراحم و التّعاطف

هذا الخلق الفضيل يعبر عن معاني الوُدّ والتّوّدّد والمحبة والتّعاطف، فالوُدّ كما عرّفه العلامة الجاحظ رحمه الله: (هو المحبة المعتدلة من غير إتباع الشهوة، والودّ مستحسن من الإنسان إذا كان ودّه لأهل الفضل والنّبل، وذوي الوقار والأبهة، والمتميّزين من النّاس، وأحسن الودّ ما نسجته بين منوالين متناسبة الفضائل وهو أوثق الودّ وأثبتّه، فأما ما كان ابتداءه إجتماعاً على هزل أو لطلب لذّة فليس محموداً وليس بباق ولا ثابت)⁽³⁾ ويوضّح الإمام ابنُ أبي حمزة رحمه الله هذه القيم مفرّقا بينها، وإنّ كانت متقاربة في المعنى لكنّ بينها فرق طفيف - التّراحم - والتّوّدّد - والتّعاطف:

- فالترّاحم بمعنى: أن يرحم بعضهم بعضاً بأخوّة الإيمان لا بسبب آخر.

- وأمّا التّوّدّد: المراد به التّواصل الجالب للمحبة كالتّزاور والتّهادي.

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرّكاة، باب فضل التعفّف والصّبر، باب 42، رقم الحديث 1053، ص 465.

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرّهد والرّقائقي، باب المؤمن أمره كلّهُ خير، رقم الحديث 2999، ص 1364.

(3) - الجاحظ، تهذيب الأخلاق، المرجع السّابق، ص 25.

- أمّا التّعاطف: إعانة بعضهم بعضاً كما يعطف الثوب عليه⁽¹⁾.

ب- تطبيقات خلق التّودّد والتّراحم والتّعاطف في دعوة النبي ﷺ

جمع النبي ﷺ قيماً وأساليب في أجمل صورها وأرقّ معانيها، تجسّد فيها البعد الإنساني بشكل قوي، يدعو إلى تعظيم حقوق المسلمين، والحضّ على تعاونهم، وملاطفة بعضهم بعضاً⁽²⁾، ومن جملة ما:

- بيانه قيمة التّودّد والتّعاطف بين النّاس

بيّن النبي ﷺ في أحاديث كثيرة قيمة التّودّد والتّراحم والتّعاطف بين النّاس، فمثّلهم في تبادل الرّحمة والمودّة والعطف بالجسد في روابطه العضوية، إذا مرض عضو مرضت باقي الأعضاء فقال ﷺ: «تري المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحُمّى»⁽³⁾ تلکم هي القيم تمثّل مدى رقّة الأفئدة التي بها يصدق الوجدان قبل معانقة الأمتان -الأجساد- هي وحده الأجساد بألطف عبارة وعاطفة بأشدّ إثارة شبّههم فيها النبي ﷺ بالجسد الواحد المترابطة أجزاؤه المتوافقة أعضاؤه والتي لا تنفك عنه بحالٍ من الأحوال فيقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: 27] وقال أيضاً: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا أَنُمُودَةً فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: 23] ويقول الإمام النّووي رحمه الله معلقاً على معاني الحديث: (هذا الحديث صريح في تعظيم حقوق المسلمين ببعضهم البعض، وحثّهم على التّراحم والملاطفة والتّعاطف في غير إثم أو مكروه وفيه جواز التشبيه، وضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى الأفهام قوله ﷺ: تداعى لها سائر الجسد، أي: دعا بعضه بعضاً إلى المشاركة في ذلك ومنه قوله تداعت الحيطان أي تساقطت أو قربت من التساقط).⁽⁴⁾

(1) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمته بالنّاس والبهايم، المرجع السّابق، ص 439. وعُلوي بن عبد القادر السّقّاف موسوعة الأخلاق، القسم العلمي بمؤسّسة الدّور السّنية، د، ط، د، ت، ص 5.

(2) - فيصل بن عبد العزيز بن فيصل بن حمد المبارك الخرملي، تطرير رياض الصّالحين، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزبير آل حمد، باب تعظيم حرّات المسلمين وبيان حقوقهم، رقم الحديث 224 (الرياض: دار العاصمة للنّشر والتّوزيع، ط 1، ج 1، 1423هـ/2002م)، ص 174.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمته بالنّاس والبهايم، رقم الحديث 6011، ص 1508.

(4) - النّووي، شرح النّووي على مسلم، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم الحديث 2586، ج 16، المرجع السّابق، ص 139.

ومن جملة الأساليب المستوحاة من الحديث:

- أسلوب الأمثال والذي بدوره منهج عاطفي تجسّد في مواضع كثيرة في دعوة النبي ﷺ، يشير العاطفة بتقريب المعنى وغرس الفهم، - وقد تطرّقنا إليه سابقاً.
- وأسلوب المشاركة الوجدانية والإحساس بالآلام المدعوّين لينشأ عن ذلك تقوية روابط التّواصل معهم من رافعة ومودّة وإحساسهم بعدم الإستغناء عنهم، يقول العلامة القاضي عياض رحمه الله: (فتشبيه المؤمنين بالجسد الواحد تمثيل صحيح، وفيه تقريب للفهم وإظهار للمعاني في الصّور المرئية، وفيه تعظيم حقوق المسلمين والحضّ على تعاونهم وملاطفة بعضهم بعضاً، وشبّه الإيمان بالجسد وأهله بالأعضاء لأنّ الإيمان أصل وفروعه التّكاليف، فإذا أخلّ المرء بشيءٍ من التّكاليف شأن ذلك الإخلال الأصل وكذلك الجسد أصل كالشّجرة وأعضائه كالأغصان فإذا اشتكى عضو من الأعضاء اشتكت الأعضاء كلّها، كالشّجرة إذا ضرب غصن من أغصانها اهتزّت الأغصان كلّها بالتّحرك والاضطراب)⁽¹⁾ وقد أكّد النبي ﷺ هذا المعنى في حديث آخر: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَشَبَّكَ أَصَابِعُهُ»⁽²⁾ فأوضح قيمة التّوّدّد والتّعاطف بين النّاس من خلال أسلوب الأمثال، حيث مثّل المؤمنون في التّعاون على البرّ يشدّ بعضهم بعضاً، كشدّ البنيان لتقوية أواصر التّكافل الاجتماعي والتّضامن، ويزيد من قيمة الشّعور بالآخر، فربط التّحابب والرّحمة والتّوّدّد إلى النّاس بالإيمان فقال: «لا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تَوْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَوَّلًا، أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ، أَفْشَوْا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»⁽³⁾ ويقول الشّيخ محمّد الخزندار: (والسّلام الحقيقي هو الإرتياح القلبي المتبادل وما التّحيّة إلا مظهرًا من مظاهره)⁽⁴⁾ وكان عليه الصّلاة والسّلام يدعو إلى التّآخي

(1) - إِبْنُ حَجَرٍ الْعَسْكَلَانِي، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة النّاس والبهائم، رقم الحديث 6011، ج10، المرجع السّابق، ص-ص 439، 440.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصّلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، رقم الحديث 471، ص 128، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البرّ والصّلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، رقم الحديث 2585، ج4، ص 1999.

(3) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أنّه لا يدخل الجنّة إلّا المؤمنون وأنّ محبّة المؤمن من الإيمان وأنّ إفشاء السّلام سبب حصولها، رقم الحديث 54، ص 73.

(4) - محمود محمّد الخزندار، هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقًا المرجع السّابق، ص 206.

والمودّة فيقول: «.. وكونوا عباد الله إخواناً»⁽¹⁾ يُبيّن الإمام القرطبي رحمه الله معنى الأخوة المقصود منها في الحديث بالقول: (اكتسبوا ما تصيرون به كإخوان النسب في الشفقة والرحمة، والمواساة والمعاونة والنصيحة وبينهاهم عن سيئ الأخلاق)⁽²⁾ يدلّ على ذلك ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النّبيّ ﷺ قال: «إياكم والظنّ، فإنّ الظنّ أكذب الحديث، ولا تحسّسوا ولا تحسّسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخواناً»⁽³⁾ فالمراد ترك الظنّ الذي يضرّ بالآخر - المظنون به - وما يقع في القلب من غير دليل ومن خواطر تستولي على القلب فتستقرّ في أعماقه فيقلب الخواطر حقائق، يؤيّد هذا حديث النّبي ﷺ: «تجاوز الله للأمة عمّا حدّثت به أنفسها»⁽⁴⁾ يقول الإمام النّووي رحمه الله في معنى الحديث: (أيّ تعاملوا وتعاشروا معاملة الإخوة ومعاشرتهم في المودّة والرّفق والشفقة والملاطفة والتّعاون في الخير مع صفاء القلوب والنّصيحة في كلّ حال)⁽⁵⁾ ويقول بعض العلماء: (وفي النّهي عن التّباغض إشارة إلى النّهي عن الأهواء المضلّة الموجبة للتّباغض)⁽⁶⁾ ويقول الحافظ ابن حجر العسقلاني المقصود بهذه الإخوة بقوله: (المعنى كونوا كإخوان النسب في الشّفقة والرحمة، والمحبة، والمواساة، والمعاونة والنّصيحة)⁽⁷⁾.

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله وإحتقاره ودمه وعرضه وماله، رقم الحديث 2564، مج 1، ص 1986، وفي الموطأ للإمام مالك بن أنس، كتاب حسن الخلق، باب ما جاء في المهاجرة، المرجع السّابق، رقم الحديث 1740، المرجع السّابق، ص 694.

(2) - مالك بن أنس، موطأ الإمام مالك، كتاب حسن الخلق، باب ما جاء في المهاجرة، رقم الحديث 15، المصدر السّابق، ص 908. وابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التّحاسد والتّدابير رقم الحديث 6064، ج 10، المرجع السّابق، ص 483.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب النّهي عن التّحاسد والتّدابير، رقم الحديث 6064، ص 1519. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تحريم الظنّ والتّجسس والتّنافس والتّناجش ونحوها، رقم الحديث 2653، مج 1، ص 1192.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان والتّذوّر، باب إذا حدث ناسياً في الإيمان، رقم الحديث 6664، ص 1651. (5) - النّووي، صحيح مسلم بشرح النّووي، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب صلة الرّحم وتحريم قطيعتها، رقم الحديث 2558، ج 16، المرجع السّابق، ص 173.

(6) - المرجع نفسه، ص 176.

(7) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 12، المرجع السّابق، ص 105.

فكانت من جملة المواقف التي شهدت بتوؤد النبي ﷺ :

عن حنظلة ؓ - أحد كتّاب رسول الله ﷺ - قال: «لَقِيتُ أَبُو بَكْرٍ ؓ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قُلْتُ: نَافَقٌ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ؟، قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَافَسُنَا^(*) الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ^(*) نَسِينَا كَثِيرًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ ؓ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا فَاِنْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ نَافَقٌ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَمَا ذَاكَ؟ " قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ كَأَنَّا رَأَيْ الْعَيْنِ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسُنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ أَنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحْتُكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ⁽¹⁾ وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ؓ قَالَ: « كُنْتُ أُوضِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَنَظَرَ إِلَيَّ، فَقَالَ: يَا أَنَسُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ مِنْ مُوجِبَاتِ الْمَغْفِرَةِ إِدْخَالَكَ الشُّرُورَ عَلَى أَخِيكَ الْمُسْلِمِ، تُنْقِصُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تُفَرِّجُ عَنْهُ غَمًّا، أَوْ تُزْجِي لَهُ صَنْعَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَخْلُقُهُ فِي أَهْلِهِ⁽²⁾ » وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي قَرَابَةَ أَصْلَهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ وَيَسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلَمَ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ^(*)، فَقَالَ: لَئِنْ كُنْتُ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تَسْفُهُمُ الْمَلَّ^(*) وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ⁽¹⁾ » فَأَيَّدَهُ النَّبِيُّ ﷺ

(*) - عَافَسْنَا: معناه حاولنا ذلك ومارسناه واشتغلنا به، أي عالجنا معاشنا وحفظونا (صحيح مسلم، كتاب التَّوْبَةِ، باب فضل دوام الذِّكْرِ والفكر في أمور الآخرة والمرقبة، رقم الحديث 2750، ص 2106).

(*) - الضَّيْعَاتِ: جمع ضيعة وهي معاش الرَّجُل من مال أو حرفة أو صناعة (المصدر نفسه، ص 2106).

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التَّوْبَةِ، باب فضل دوام الذِّكْرِ والفكر في أمور الآخرة والمرقبة، رقم الحديث 2750، ص 2106.

(2) - أخرجه إِبْنُ أَبِي الدُّنْيَا في قضاء الحوائج، تحقيق: مجدي السَّيِّد إبراهيم، رقم الحديث 34 (القاهرة: مكتبة القرآن، د، ط، ج 1، د، ت)، ص 45.

(*) - وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ: أي: يسيئون، والجهل هنا القبيح من القول وهو تشبيه لما يلحقهم من الألم، بما يلحق آكل الرَّمَاد الحَرَّ من الألم (أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البرِّ والصَّلة والآداب، باب صلة الرَّحِمِ وتحريم قطيعتها، رقم الحديث 2558، ص 1982).

(*) - تَسْفُهُمُ الْمَلَّ: أي: تطعمهم الرَّمَاد الحار (أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البرِّ والصَّلة والآداب، باب صلة الرَّحِمِ وتحريم قطيعتها، رقم الحديث 2558، ص 1982). (شرح النَّوَوِي على مسلم، 115/16).

على تودُّده إليهم، وإن لم يجد منهم مقابلاً لما يقوم به، إلاَّ الإساءة⁽²⁾، وهذه من صفات المروءة التي قال عنها ميمون بن مهران: (المروءة: طلاقة الوجه، والتودُّد إلى النَّاس وقضاء الحوائج)⁽³⁾ وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أنَّ رجلاً من الأعراب لقيه بطريق مكَّة، فسَلَّم عليه عبد الله، وحمله على حمار كان يركبه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه، فقيل له: أصلحك الله إنهم الأعراب، وإنهم يرضون باليسير، فقال عبد الله ﷺ: إنَّ أبا هذا كان وُدّاً*» لعمر بن الخطَّاب، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنَّ أئبر البرِّ: صلة الولدِ وُدَّ أبيه»⁽⁴⁾ وتجلَّى أسلوب النبي ﷺ مع اليهود ملاينة وتودُّدا لهم وقد قال تعالى في ذلك: ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتٰبِ تَعٰلَوْاْ اِلٰى كَلِمَةٍ سَوٰى بَيْنِنَا وَبَيْنَكُمْ اَلَّا نَعْبُدَ اِلَّا اللّٰهَ وَلَا نَشْرِكَ بِهٖ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا اَرْبَابًا مِّنْ دُوْنِ اللّٰهِ فَاِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُوْلُوْا اَشْهَدُوْا اِنَّا مُسْلِمُوْنَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: 64] فأمن لهم الحرية الدِّينية وآمنهم على أموالهم ومدَّ لهم يده الكريمة ليدافعوا معاً عن المدينة إذا أغاروا عليها، لكن نيران الحسد التي اشتعلت في قلوبهم أعمَّتْهم عن الحقيقة، فأخذوا في حقدهم وحسدهم أمدّاً بعيداً، حيث كانوا يخطِّطون للقضاء على الإسلام وأهله، وبرغم تودُّده ﷺ ودعوته لهم برفقٍ ولينٍ أصروا على موقفهم العدائي له، إلاَّ أنَّ هناك من شهد منهم بصدق رسالته ﷺ وهو عبد الله بن سلام - كان حبراً عالماً - قال: «لَمَّا سمعت رسول الله ﷺ عرفت صفته واسمته وزمانه وهيئته، والذي كنَّا نتوكَّف - نتوقع - له، فكنت مُسرّاً لذلك صامتاً عليه حتَّى قدِم رسولُ الله ﷺ المدينة، فلمَّا قدِم نزل بقاء في بني عمرو بن عوفٍ، فأقبل رجلٌ حتَّى أخبر بقدمه، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمَّتي خالدة بنتُ الحارثٍ تحي جالسةً، فلمَّا سمعتُ الخبر بقدم رسول الله ﷺ كبرتُ، فقالت لي عمَّتي حين سمعت تكبيري: لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادماً ما زدت؟! قُلْتُ لها: أيَّ عمَّة،

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البرِّ والصَّلة والآداب، باب صلة الرَّحم وتحريم قطيعتها، رقم الحديث 2558، ص 1982 .

(2) - علوي بن عبد القادر السقاف، موسوعة الأخلاق، المرجع السَّابق، ص 9.

(3) - المرجع نفسه، ص 11.

(*) - وُدّاً: صديقاً من أهل موَدَّته، وهي محبَّته (في صحيح مسلم، كتاب البرِّ والصَّلة والآداب، باب فضل صلة أصدقاء الأب والأم، رقم الحديث 2552، ص 1979)، والودُّ هنا مضموم الواو وفي هذا فضل صلة أصدقاء الأب، والإحسان إليهم وإكرامهم، وهو متضمَّن لبرِّ الأب وإكرامه، لونه بسببه، وتلتحق به أصدقاء الأم والأجداد والمشايخ والزَّوج والزَّوجة (موسوعة الأخلاق، ص 10) و(شرح النَّووي على مسلم، كتاب البرِّ والصَّلة والآداب، باب فضل صلة أصدقاء الأب والأم، ج 16، ص-ص 109، 110).

(4) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البرِّ والصَّلة والآداب، باب فضل صلة أصدقاء الأب والأم، رقم الحديث 2552، ص 1979.

هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه، بُعثَ بما بُعثَ به، فقالت لي: أي ابن أخ، أهو النبي الذي كُنَّا نُحِبُّ به أنه بُعثَ مع نفسِ السَّاعةِ، فقلت: نعم، قالت: فذاك إذاً، قال: ثمَّ خرجتُ إلى رسول الله ﷺ فأسلمتُ، ثمَّ رجعتُ إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا⁽¹⁾ وقصَّةُ صفية بنتِ حُيَيِّ بنِ أخطب رضي الله عنها مع عمِّها وأبيها وقول عمِّها لأبيها أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيتُ⁽²⁾، وعليه فإنَّ التَّودُّدَ مِنَ الأخلاق التي تعكس الجمال الرُّوحي والوجداني والجانب الأخلاقي الذي تجسَّد في دعوة النبي ﷺ عمومًا وفي شخصيته على وجه التَّحديد، لتكميله وتعزيزه في المجتمع الإسلامي وعلى مستوى الدُّعاة إلى الله، فاعتُبر من أحسن الأخلاق تأثيرًا لكونه وسيلة ناجعة لكسب القلوب وطريقًا موصلاً للحبِّ والألفة، يقوِّي الرِّوابط ويزيد اللُّحمة بينهم، يقول أبو حاتم: (الواجب على العاقل أن يتحبَّب إلى النَّاس بلزوم حسن الخلق وترك سوء الخلق، لأنَّ الخلق الحسن يذيب الخطايا كما تذيب الشَّمس الجليد، وإنَّ الخلق السيِّئ يفسد العمل كما يفسد الخلُّ العسل، وقد تكون في الرَّجل أخلاق كثيرة صالحة كُلُّها، وخلق سيِّئ، فيفسد الخلق السيِّئ الأخلاق الصَّالحة كُلُّها)⁽³⁾.

ب- بيان قوله ﷺ إرحموا ترحموا

لقد كانت الرَّحمة جانبًا عظيمًا في شخصية النبي ﷺ وصورة لنفسه الكريمة، فالبرَّ أمامه والرَّحمة محيطه به من كلِّ جانب، سواء كان ذلك في حال يسره أو عسره أو كان مع موافقيه أو مخالفه⁽⁴⁾ ولم لا وهو الذي يقول: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ»⁽⁵⁾ ويقول أسامةُ بن زيد رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ يأخذني فيُقعدني على فخذه ويُقعد الحسن على فخذه الأخرى ثمَّ يضمُّهما ثمَّ يقول: اللَّهُمَّ اِرْحَمْهُمَا فإني أرحمهما»⁽⁶⁾ وكان يوصي ﷺ بها أصحابه ويحثُّ أمته على التَّراحم فيما بينهم، حتَّى أنه جاء محفَّرًا ومرغَّبًا للتخلُّق بهذه القيمة النبيلة ثبتت في أحاديث كثيرة جاء فيها مادحًا أهلها وذمَّ من لم

(1) - سيرة ابن هشام، ج2، المرجع السَّابق، ص- ص 163، 164.

(2) - المرجع نفسه، ص 166.

(3) - علوي بن عبد القادر السَّقاف، موسوعة الأخلاق، المرجع السَّابق، ص 11.

(4) - محمَّد بن إبراهيم الحمد، الرَّحمة والعظمة في السَّيرة النَّبوية، المرجع السَّابق، ص 49.

(5) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقيله ومعانقته، رقم الحديث 5997، ص 1506.

(6) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب وضع الصَّبي على فخذه، رقم الحديث 6003، ص 1507.

يتصف بها، فقال: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَانُ، اِرْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»⁽¹⁾، وعن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: «لا تنزع الرَّحْمَةَ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ»⁽²⁾ و في حديث عمرو بن حبيب ؓ عن النبي ﷺ قال: «خَابَ عَبْدٌ وَخَسِرَ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَلْبِهِ رَحْمَةً لِلْبَشَرِ»⁽³⁾ وقال: «حَرَّمَ عَنِ النَّارِ كُلِّ هَيْئٍ لَيْسَ سَهْلٌ قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ»⁽⁴⁾ لذلك فقد علّم النبي ﷺ أصحابه على هذا الخلق العظيم، وجعله من دلائل الكمال ليتراحموا فيما بينهم، ولتذوّق قلوبهم نداوة الرَّحْمَةِ فقال تعالى عنهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 54] ومَنْ ينال رحمة الله الذين امتلأت قلوبهم بالرَّحْمَةِ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «ارْحَمُوا تَرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يُغْفَرَ لَكُمْ»⁽⁵⁾ وفي سنن أبي داود والترمذي قال ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، اِرْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»⁽⁶⁾ فالنبيُّ ﷺ لحرصه كان يَحْتُ على الرَّحْمَةِ ويدعو إليها لما فيها من الآثار الطيبة التي تنعكس على المعاملات فتحسّن العلاقات بين النَّاسِ وتنحذب القلوب إليها، فأمر الدُّعَاة بهذا الخلق لأنَّ دعوتهم رحمة، ورحمة الدَّاعية بالمدعويين وشفقته لهم من أهم عوامل الجذب والقبول، فلا بدَّ أن تكون نابعة قلبه كخوفه عليهم وشفقته وحرصه، هذه الرَّحْمَةُ تورث العفو والصَّفْحَ وتورث اللين في القلب، عن أسامة بن زيد ؓ قال: «لَمَّا أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَابَ ابْنَتِهِ الْمَتَوِّفِي، رَفَعَ الصَّيِّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تَقَعَّقَ فَفَاضَتْ عَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ فَقَالَ سَعْدُ: مَا هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ

(1) - أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البرِّ والصَّلة والآداب، باب ما جاء في رحمة المسلمين، رقم الحديث 1924، ج3، المصدر

السَّابِق، ص 483. وقال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(2) - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الرَّحْمَةِ، رقم الحديث 4942، ج4، المصدر السَّابِق، ص 285. وقال:

أخرجه الترمذي وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

(3) - الألباني، سلسلة الأحاديث الصَّحيحة وشيء من فقها وفوائدها، رقم الحديث 456، ج1، المرجع السَّابِق، ص 818.

(4) - أخرجه أحمد في مسنده، مسند عبد الله بن مسعود ؓ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، رقم الحديث 3938 (مؤسَّسة

الرَّسالة، ط1، ج7، 1421هـ/2001م)، ص 52. وقال: هذا حديثٌ حسنٌ.

(5) - أخرجه أحمد في سننه، مسند عبد بن عمرو بن العاص ؓ، رقم الحديث 6541، ج11، المصدر نفسه، ص 99.

وإسناده صحيح.

(6) - أخرجه الترمذي في سننه في الجامع الكبير، كتاب البرِّ والصَّلة، باب ما جاء في البرِّ والصَّلة، رقم الحديث 1924، المصدر

السَّابِق، ص 483. وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

الله من عباده الرُحماء»⁽¹⁾ وعن أبي سليمان مالك بن الحويرث قال: «أتينا النبي ﷺ ونحن شعبة متقاربون، فأقمنا عنده عشرون ليلة، فظنُّ أنا اشتقنا أهلنا، وسألنا عمَّن تركنا في أهلنا فأخبرناه، وكان رقيقاً رحيماً، فقال: ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم، ومروهم، وصلُّوا كما رأيتموني أصلي، وإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم، ثم ليؤمكم أكبركم»⁽²⁾ إنَّ النبي ﷺ جُبِلَ على الأخلاق فأخذت من صفاته القسط الأوفر، وقد بلغت به شفقتة ذروتها على قومه لامتناعهم فوشى حزنه عليهم، إلى العتاب الرِّبَّاني الرِّقيق كأنَّ الله قال له بما يشبه العتاب في الظاهر: (لَمْ كُلَّ هَذَا؟ لَيْسَ فِي إِمْتِنَاعِهِمْ أَثَرٌ، وَلَا فِي الدِّينِ مِنْ ذَلِكَ فِي ضَرَرٍ، فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ فَإِنْ آمَنُوا فِيهَا، وَإِلَّا فَكُلَّهُمْ سَيَرُونَ يَوْمَ الدِّينِ مَا يَسْتَحِقُّونَ)⁽³⁾ فيقول عنه الإمام ابن القيم رحمه الله: (كانت نفسه - ﷺ - ملئت رحمة عليهم حتَّى كادَ يهلك نفسه وهو يدعوهم)⁽⁴⁾ فيبيان قوله ﷺ ارحموا ترحموا لم تكتفِ بصنوف النَّاسِ فقط بل شملت البهائم والدَّواب عن أبي هريرة ؓ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي بطريق اشتدَّ عليه العطش، فوجدَ بئراً فنزل فيها فشرب، ثمَّ خرج فإذا كلبٌ يلهثُ يأكلُ الثرى من العطش، فقال الرَّجلُ: لقد بلغَ هذا الكلبُ العطشُ مثلُ الذي كان بلغ بي، فنزل البئرَ فملاً خُفَّهُ ثمَّ أمسكه بفيه فسقى الكلب، فشكر الله له فغفرَ له، قالوا: يا رسول الله وإنَّ لنا في البهائم أجراً؟ فقال: في كلِّ ذات كبدٍ رطبةٍ أجرٌ»⁽⁵⁾ وأمام هذه الصُّور النَّاظقة نجد :

- أنَّ الدَّاعية إلى الله يحتاج إلى كمٍّ من الأخلاق في سبيل إنجاح دعوته، فهو يحتاج إلى العلم والبصيرة والحلم والرِّفق، واللِّين والصَّبْر، والرَّحمة والعفو، والتَّواضع، والحياء والتَّفأول، والقصد والاعتدال وغير ذلك، والدَّاعية الخلق قدوة بذاته، فأخلاقه تكشف المعدن الأصيل من الرِّائف، والنَّاس طبعياً يميلون للموطئين أكنافاً ممَّن تُؤنس اليهم النفوس، فهذه الأخلاق تجذب النَّاس كما تجذب الأزهار النحلة.

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «يَعْدَبُ الْمَيِّتُ بَعْضُ أَهْلِهِ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ النَّوْخُ مِنْ سَنَّتِهِ»، رقم الحديث 1284، ص 310.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة النَّاس والبهائم، رقم الحديث 2008، ص 1508.

(3) - عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، لطائف الإشارات، تفسير القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، ج3، د، ت)، ص 6.

(4) - علي بن عمر بن أحمد بادحدح، مقوِّمات الدَّاعية النَّاجح، المرجع السَّابق، ص 34.

(5) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة النَّاس والبهائم، رقم الحديث 2008، ص 1508.

- على الدّاعية أن ينظر إلى مدعويه نظرة رحمة وشفقة ومودّة فيتلطّف في دعوتهم، فإن رأى منهم عزوفاً اتخذ كلّ السُّبل والطُّرق لتوصيل ما ينفعهم ولا يتركهم وشأنهم، يقول الدُّكتور عبد الكريم زيدان: (فالدّاعي الرّحيم لا يكفّ عن دعوته، ولا يسأم من الرّدّ والإعراض، لأنّه يعلم خطورة عاقبة المعرضين العصاة، وأن إعراضهم بسبب جهلهم فهو لا ينفكّ عن إقناعهم وإرشادهم)⁽¹⁾.
- كما يستوجب عليه أن يقوم بدعوة كل فرد في الأمّة المسلمة، وكل جماعة، وكل أسرة، وكل مجموعة، إلى التّمسك بمثل هذه الأخلاق وتأكيد الإلتزام بها من أوسع المستويات، لما فيها من تعزيز للإلتزام الدّيني وسبيل في حلّ العديد من المشكلات الشّخصية والإنسانية والاجتماعية، فالحاكم مثلاً: عليه أن يتحاكم إلى منهج الله في كلّ ما يتّصل بحياة النّاس من حقوق وواجبات، وقضاء للحاجات، وحلّ للمشكلات الاجتماعية، وتحقيق للعدالة بينهم، فهو مسؤول وراع وهو المنوط به للحفاظ على الأخلاق الإسلامية في الدولة.

المطلب الثالث: استخدام النّبي ﷺ للمنهج العاطفي في التحذير من الأخلاق الذّميّة

سبق الحديث عن الأخلاق الحميدة التي حثّ النّبي ﷺ أمته على التّمسك بها والعمل بمقتضاها، فربّ أصحابه على التخلّق بكمالياتها، وحذّره من سيّئها التي تفضي بهم إلى التشبّه بأهل النفاق والتخلّق بأخلاقهم، فيستفاد من هذا أنّه ﷺ كان حريصاً على إشاعة هذه الأخلاق ومحدّراً من ذميمها، والدّعوة في أصلها هي دعوة إلى ترسيخ قاعدة في الأخلاق لما فيها خير للأمّة الإسلامية وصلاحها، وبالتأمّل إلى ما يُجلبه سوء الأخلاق من الحسرة والتّدامة من إتيان البغض والكراهية، جدير بالدّاعية أن يقصّر من مساوئ الأخلاق ويتجنّبها، فيلجأ إلى محاسنها التي تولد التّفاهم والإنسجام، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (ومن عقوباتها أي: سوء الخلق سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه، فإنّ أكرم الخلق عند الله أتقاهم، وأقربهم منه منزلة أطوعهم له، وعلى قدر طاعة العبد له تكون منزلته عنده، فإذا عصاه وخالف أمره سقط من عينيه فأسقطه من قلوب عباده، وإذا لم يبق له جاه عند الخلق وهان عليهم عاملوه على حسب ذلك، فعاش بينهم أسوء عيش حامل الذكر ساقط القدر زري الحال، لا حرمة له فلا فرح له ولا سرور فإنّ خمول الذكر وسقوط القدر والجاه يجلب كل غمّ وهمّ وحزن ولا سرور معه ولا فرح وأين هذا الألم من لذّة

(1) - عبد الكريم زيدان، أصول الدّعوة، المرجع السّابق، ص 344.

المعصية)⁽¹⁾ وقبل التفصيل في أثر الأخلاق الذميمة في دعوة النبي ﷺ وطريقته المثلى في محاربتها وتعديلها، يستدعي منا التعرف على معانيها من الناحية الإصطلاحية.

أولاً - مفهوم الأخلاق الذميمة

- يعرفها العلامة الجاحظ مبيّنًا أصناف النَّاس ذوي الأخلاق الذميمة بالقول: (الأخلاق الذميمة هي الأخلاق المكروهة في طباع النَّاس، إلّا أنّ فيهم من يتظاهر بها وينقاد لها، وهم شرار النَّاس، وفيهم من ينه بجودة الفكر، وقوّة التّمييز على قبحها، فيأنف منها ويتصنّع لاجتنابها، وذلك يكون عن طبع كريم ونفس شريفة، وفيهم من لا ينتبه لذلك، إلّا أنّه إذا نُبه عليه أحسّ بقبحه، فرمّا حمد نفسه على تركه، وفيهم من إذا تنبّه لما فيه من النّقص أو نُبه عليها، ورام العدول عنها، تعذر عليه ذلك، ولم يطاوعه طبعه، وإن كان مؤثّرًا للعدول عنها مجتهدًا في ذلك، وهذه الطّائفة تحتاج إلى أن تُرشّد إلى طريق التّدرب والتّعامل على العادات المحمودة حتّى تصير إليها على التّدرّج، ومن النَّاس من ينتبه على الأخلاق الرّديئة أو ينّبّه عليها، فلا يحنّ إلى تجنبها ولا تسمح له نفسه لمفارقتها، بل يؤثّر الإصرار عليها مع علمه برداءتها وقبحها، فهذه الطّائفة ليس إلى تهذيبها إلّا بالقهر والتّخويف والعقوبة إنّ لم يردعها التّرهيب)⁽²⁾ وفي تعريف آخر لها: (الخلق المذموم هو صفة ثابتة في النّفس فطرية أو مكتسبة، تدفع إلى سلوك إرادي مذموم عند العقلاء، كالأخذ بالباطل أو الشرّ أو القبح، وترك الحقّ أو الخير أو الجمال، إتباعًا للهوى أو الشّهوة)⁽³⁾ ويمكن تمييز الأخلاق الذميمة عن غيرها بأنّها: (كلّ سلوك فردي واجتماعي تلتقى النّفوس البشرية على استقباحه واستنكاره، مهما اختلفت أديانها ومذاهبها وعاداتها وتقاليدها ومفاهيمها، ويلحق به ما كان أثرًا من آثاره، أو فرعًا من فروعها)⁽⁴⁾ فعاقبة المرأة التي تصوم النّهار وتقوم اللّيل ولكنها تسوء معاملة جيرانها دليل ذلك، قيل للنّبي ﷺ: «يا رسول الله إنّ فلانة تقوم اللّيل وتصوم النّهار، وتفعل وتصدّق وتؤذي جيرانها بلسانها؟ فقال رسول الله ﷺ: لا خير فيها هي من أهل النّار، قالوا: وفلانة تصلّي المكتوبة، وتصدّق بأثوار، ولا تؤذي أحدًا، فقال رسول

(1) - خالد بن جمعة بن عثمان الخزّاز، موسوعة الأخلاق، المرجع السّابق، ص 70.

(2) - الجاحظ، تهذيب الأخلاق، المرجع السّابق، ص 14.

(3) - عبد الرّحمن حسن حبنكة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، المرجع السّابق، ص 16.

(4) - المرجع نفسه، ص 16.

الله ﷻ: «هي من أهل الجنة»⁽¹⁾ ومن أمثلة هذه الأخلاق الغدر والخيانة والظلم والغيبة والكبر والكذب والقسوة وغيرها كثير، مما يستوجب على الداعية التحلي عنها، إذ التحلية هنا أهم من التحلية، فتأتي دعوة النبي ﷺ سامقة: «إذا نهيتم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»⁽²⁾ وعليه سأعرض في هذا المطلب تطبيقات بعض الأخلاق التي نقر منها النبي ﷺ ولم يتعامل بها، وحاربها بحكمة وعقلانية وبعاطفة لا مثيل لها كان من جملتها :

ثانياً: التحذير من خلق الكبر

أ- مفهوم الكبر

- لغة

- يعرفه العلامة ابن منظور بالقول: (الكبر: العظمة والتجبر، كالكبرياء، وقد تكبر واستكبر وتكابر، والتكبر والاستكبار: التعظم، والكبر بالكسر: اسم من التكبر)⁽³⁾ ويعرفه العلامة الرازي بالقول: (ومن الباب الكبر، وهو الهرم، والكبر: العظمة، وكذلك الكبرياء، ويقال: ورثوا المجد كابرًا عن كابر، أي كبيرًا عن كبير في الشرف والعز، وعلت فلانًا كبرَةً، إذا كبر. ويقال: أكبرت الشيء: استعظمته)⁽⁴⁾.

- اصطلاحاً

- عرفه النبي ﷺ في سياق الحديث: «الْكِبْرُ بَطْرٌ (*) الْحَقُّ، وَغَمْطٌ (*) النَّاسِ»⁽¹⁾ ناهياً عن التكبر المعروف بالارتفاع على الناس واحتقارهم، فحقيقة الكبر استعظام المتكبر نفسه وإستصغار قدر

(1) - الألباني، صحيح الأدب المفرد، باب لا يؤدي جاره، باب 57، رقم الحديث 119 (المملكة العربية السعودية: مكتبة الدليل، ط 4، 1418هـ/1997م)، ص 69.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن النبي ﷺ، رقم الحديث 7288، ص 1800، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب توقيف النبي ﷺ وترك سألته عملاً لا ضرورة اليه، رقم الحديث 1337، ص 1106.

(3) - ابن منظور، لسان العرب، مادة كبر، ج 5، المصدر السابق، ص 125.

(4) - الرازي، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون (دار الفكر، د، ط، ج 5، 1399هـ/1979م)، ص 154.

(*) - بَطْرُ الْحَقِّ: بمعنى هو دفعه وإنكاره ترفعاً وتجبراً (صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيان، رقم الحديث 9، ص 93) وجاء بمعنى: جحود الحق مع الإستهانة به والإستعلاء عن قبوله (محمد صالح المنجد، الكبر، ج 2: مجموعة زاد للنشر، ط 1، 1430هـ/2009م)، ص 8.

(*) - غَمْطُ النَّاسِ: معناه إحتقارهم، يقال في الفعل منه غَمْطُهُ يَغْمِطُهُ وَغَمْطُهُ يَغْمِطُهُ (رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيان، ص 93) والغَمْطُ جاء بمعنى: هو الإحتقار والإزدراء والإستصغار، والترفع عن الثناء عليهم بفضائلهم، وعدم الاعتراف بحقوقهم وصفاتهم الفاضلة (يُنْظَرُ: محمد صالح المنجد، الكبر، المرجع السابق، ص 9).

غيره، فيدفعه ذلك إلى رذائل ومهلكات⁽²⁾، ويعرّفه العلامة الجاحظ رحمه الله بالقول: (هو) استعظام الإنسان نفسه، واستحسان ما فيه من الفضائل، والاستهانة بالناس، واستصغارهم، والترفع على من يجب التواضع له)⁽³⁾ ويعرّفه الحافظ ابن حجر رحمه الله بالقول: (الكبر الحالة التي يختص بها الإنسان من إعجاب بنفسه وذلك أن يرى نفسه أكبر من غيره، وأعظم ذلك أن يتكبر على الله تعالى، بأن يتمتع من قبول الحق والإذعان له بالتوحيد والطاعة)⁽⁴⁾ وفي تعريف آخر له: (هو خلقٌ ذميم يكسوه صاحبه عن جهل وحماسة، ودلالته على جهله برّبّه وبنفسه فلو عرف الله تعالى حق المعرفة لعلم أنّ الكبرياء لله تعالى وحده، وقد بين النبي ﷺ في هذا قائلاً: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَارَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَدْفَتُهُ فِي النَّارِ»⁽⁵⁾ ويقول محمد بن الحسين بن علي: (ما دخل قلب امرئ شيء من التكبر قطّ إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قلّ أو كثر)⁽⁶⁾ وفي تعريف آخر له: (هو الإعراض عن الحق وتحقير الناس، والتواضع هو الإذعان للحق وتوقير الناس، وهو المعنى بقوله: التّعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله فمن تكبر على الله وعلى الخلق ابتلاه الله تعالى في الدنيا بالذل والهوان، وفي الآخرة بقذفه في أقصى دركات النيران، ومن تواضع لله مع الخلق رفع الله درجته في الدنيا والآخرة)⁽⁷⁾.

ب- طريقة النبي ﷺ في معالجته لمرض الكبر

عندما يكون مجال الحديث في أخلاق النبي ﷺ فإننا نجدها جامع الأخلاق التي دعا إليها الإسلام، وعندما نتحدث في الدّميم من الأخلاق، يقصد بها الأخلاق التي نهى عليها الإسلام،

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانها، رقم الحديث 91، ج 1، ص 93.

(2) - عبد الكريم زيدان، أصول الدّعوة، المرجع السابق، ص 347.

(3) - الجاحظ، تهذيب الأخلاق، المرجع السابق، ص 32.

(4) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الكبر، رقم الحديث 6072، ج 10، المرجع السابق، ص 489.

(5) - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر، رقم الحديث 4090، ج 4، المصدر السابق، ص 59. وقال: هذا الحديث حسنٌ صحيحٌ، وذكر حكم الألباني في صحيح أبو داود: حديثٌ صحيحٌ، وفي صحيح الجامع المصنّف لشُعَب الإيمان للبيهقي، فصل في التّواضع وترك الرّهب والصلف والخيلاء والفخر والمدح، باب في حسن الخلق (بيروت: دار الكتب العلمية، ج 3، 2013م)، ص 196، وابن أبي الدنيا، التّواضع والخمول، تحقيق: محمّد عبد القادر أحمد عطا، باب في الكبر، رقم الحديث 195 (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، ج 1، 1409هـ/1989م)، ص 244.

(6) - المرجع نفسه رقم الحديث 226، ص 272، وعبد الكريم زيدان، أصول الدّعوة، المرجع السابق، ص 346.

(7) - محمّد القاري، مرّاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، كتاب الآداب، باب الغضب والكبر، رقم الحديث 5111، المرجع السابق، ص 298.

وطبعا كلُّ خلقٍ حميد يقابله خلقٌ ذميم، مثلاً: عندما نذكر التَّواضع الذي وُصف به النَّبي ﷺ وتخلَّق به مع الكبير والصَّغير، المسلم والكافر، والفقير والغني، الضَّعيف والقوي، فهو يغضب وينهى عن عكسه الذي هو الكبر، والسَّيرة العطرة مليئة بأخبار تواضعه ﷺ، فما حفظ عنه أنَّه تكبَّر على أحد، أو تفاخر على أحد، برغم المكانة التي خصَّها الله تعالى له بها من الرِّفعة والشَّان والمقام، فكانت من جملة الأساليب والطُّرق التي استَخدمها النَّبي ﷺ في محاربته لهذا المرض الخلقي هو كالاتي:

- استخدام أسلوب التَّرهيب للتَّحذير من الكبر

جعل النَّبي ﷺ عقوبة المتكبر أشدها إيلاماً، لأنَّ تكبَّره يمنعه من الإنصياح للحقِّ، فيطبع الله على قلبه المرض ويصرفه عن الحقِّ فتكون نتيجة الحية والفسل، ونيل سخط الله وعقوبته، بأن يحرمهم من الجنَّة التي وعدت للمتواضعين، فيقول في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لا يدخلُ الجنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ»⁽¹⁾ ويقول الشَّيخ الخطابي رحمه الله في الكبر: (الكبر في الحديث فيه وجهان أحدهما أنَّ المراد التكبر عن الإيمان فصاحبه لا يدخل الجنَّة أصلاً إذا مات عليه، والثاني أنَّه لا يكون في قلبه كبر حال دخوله الجنَّة يقول تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُنْقَلَبِينَ﴾ [الحجر: 47]⁽²⁾ وفي رواية أخرى يقول ﷺ: «ألا أخبركم بأهل النَّار كل عتلٍ جَوَّازٍ^(*) مستكبر»⁽³⁾ وفي حديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «احتجَّت الجنَّة والنَّار، فقالت النَّار: أُوْثِرْتُ بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنَّة: فمالي لا يدخلني إلَّا ضعفاء النَّاس وسَقَطُهم وعجزهم، فقال الله للجنَّة: أنتِ رحمتي أرحم بك من أشياء من عبادي وقال للنَّار: أنتِ عذابي أعذب بك من أشياء من عبادي، ولكلُّ واحدة منكم ملؤها، فأما النَّار فلا تمتلئ فيضع قدمه عليها، فتقول: قُطِّ قُطِّ فهناك تمتلئ ويُرَوَّى بعضها بعض»⁽⁴⁾ تجلَّى منهج النَّبي ﷺ في ظاهر الأحاديث تحذيره ونهيهِ

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانهِ، رقم الحديث 91، ج 1، ص 93.

(2) - التَّووي، شرح التَّووي على مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانهِ، رقم الحديث 91، المرجع السَّابق، ص 91

(*) - جَوَّازٌ مستكبر: هو السَّمِيُّ من التَّعَمُّ وقيل الفاجرُ بالجيم، ومستكبر أي متكبر عن الحق أو على أهله (يُنظر: محمَّد القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، كتاب الآداب، باب الغضب والكبر، رقم الحديث 5106، المرجع السَّابق، ص 294).

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب، والقلم، رقم الحديث 4918، ص 627.

(4) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنَّة وصفة نعيمها وأهلها، باب النَّار يدخلها الجبارون والجنَّة يدخلها الضعفاء، باب 13، رقم الحديث 2846، ص 1305.

الصَّارِم من الكبر باستخدام أسلوب التَّرهيب، عند بيانه عقوبة المتكبر الذي لا يعطيه الكبر من الدُّنيا إلاَّ الخسارة وسوء العاقبة في الآخرة هذا من جانب، ومن جانب آخر دعا إلى البديل عنه، والذي يضيف للقلب الطُّمأنينة والرَّاحة والتَّحلية بروح التَّواضع ولين الجانب، فقال فيه رسول الله ﷺ: «ألا أُخْبِرُكُمْ بأهل الجنَّة؟ كلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَاعِفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ»⁽¹⁾ فكان تواضعه ﷺ منأى وملجأ المشتاقين إلى الحنان من النِّساء والولدان والضُّعفاء، ويقول عنه أنس بن مالك ﷺ: «إن كانت الأُمَّة من إماءِ أهلِ المدينةِ لتَأْخُذَ بيدِ رسولِ الله ﷺ فتنتطق به حيثُ شاءت»⁽²⁾ فكانت هيئته ﷺ تنخلع لها قلوب الجاحدين وتتطامنُّ لها قلوب المؤمنين، فذات مرَّة غلبت رجلاً هذه الهيبة التي خلعتها ربُّ العزَّة والكبرياء على عبده حَلَّة ربَّانية⁽³⁾ فتلعثم الرَّجل فقال ﷺ: «هَوِّنْ عَلَيْكَ نَفْسَكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ»⁽⁴⁾ وقال عبد الله بنُ العَبَّاس: سمعت عمر بن الخطَّابِ ﷺ يقول على المنبر: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لَا تَطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»⁽⁵⁾ وكان ﷺ ينهى أصحابه عن إطرأ بعضهم بعضاً في وجهه ويقول: «وَيَحْكُكُ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ»⁽⁶⁾ لَأَنَّ الإطرأ إذا ألفتَه النَّفْسُ ومالت إليه تعاضم عندها شأن ذاتها ولهذا كان أصحاب رسول الله ﷺ يحثون التُّراب في وجوه المدَّاحين والمتملِّقين⁽⁷⁾ ويشمل تحذيره ﷺ لأُمَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ وَلَا سِيَمَا الدُّعَاةَ إِلَى اللَّهِ مِنْ بَعْضِ الصِّفَاتِ الْمَهْلَكَةِ وَالتِّي تَجْعَلُهُمْ يَعِيشُونَ الْوَهْمَ بِكُلِّ مَعَانِيهِ، فقال ﷺ: «ثَلَاثٌ مَهْلَكَاتٌ شَحُّ مَطَاعٍ، وَهَوَى مُتَبِعٍ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ»⁽⁸⁾، وقال ﷺ:

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب، والقلم، رقم الحديث 4918، ص 627. و في فتح الباري لابن حجر، كتاب الأدب، باب الكبر، رقم الحديث 6071، ج 10، المرجع السابق، ص 489.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الكبر، رقم الحديث 6072، ص 1520.

(3) - عبد السلام ياسين، الإحسان (الدَّار البيضاء، مطبوعات الأفق، ط 1، 1998م)، ص 488.

(4) - أخرجه ابنُ ماجه في سننه، تحقيق: رائد بن صبري بن أبي علفة، كتاب الأطعمة، باب القديد، رقم الحديث 3312، (الرياض: دار الحضارة للنشر والتوزيع، ط 2، 1436هـ/2015م)، ص 511، وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ، وقال البوصري: هذا إسنادٌ صحيحٌ ورجاله ثقات.

(5) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾، رقم الحديث 3445، ص 854.

(6) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما يكره من التماذح، رقم الحديث 6061، ص 1518.

(7) - عبد السلام ياسين، الإحسان، المرجع السابق، ص 488.

(8) - الألباني، صحيح التَّرهيب والتَّرهيب، كتاب الصَّلَاة، باب التَّرهيب في انتظار الصَّلَاة بعد الصَّلَاة، رقم الحديث 453، مج 1، المرجع السابق، ص 218. وقال الألباني: هذا حديثٌ صحيحٌ.

«ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكّيهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر»^(*) (1) يعلّق عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فيقول: (هؤلاء الثلاثة: اشتركوا في هذا الوعيد، واشتركوا في فعل هذه الذنوب مع ضعف دواعيهم؛ فإن داعية الزنا في الشيخ ضعيفة، وكذلك داعية الكذب في الملك ضعيفة؛ لاستغنائه عنه وكذلك داعية الكبر في الفقير، فإذا أتوا بهذه الذنوب - مع ضعف الداعي - دلّ على أنّ في نفوسهم من الشر الذي يستحقّون به من الوعيد ما لا يستحقّه غيرهم)⁽²⁾، ويروي أبو هريرة رضي الله عنه عن الرجل الذي أتى النبي ﷺ وكان رجلاً جميلاً، فقال: «يا رسول الله، إني رجل حُبب إليّ الجمال، وأُعطيْتُ منه ما ترى، حتّى ما أحبُّ أن يُفوّقي أحدٌ، إمّا قال: بِشراكِ نَعلي، وإمّا قال: بِشَسعِ نَعلي، أفمن الكبر ذلك؟ قال: لا، ولكن الكبر من بطر الحقّ، وعَمَطَ النَّاسِ»⁽³⁾ (2) بين رضي الله عنه فضاعة أمر المتكبر بأن نفى محبّته بأنّه أبغض النَّاسِ مجلساً يوم القيامة، ومتوعّده بسوء العاقبة في الدُّنيا فقال: «وإنّ أبغضكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون»^(*) والمتشدّدون^(*) والمتفیهقون^(*).... المتكبرون»⁽⁴⁾ فطبيعة المتكبر لا يعترف بخطئه ولا

(*) - عائل مستكبر: فقير معدم ومع ذلك يتكبر على النَّاسِ، كما قيل: (حشفاً وسوء كيّل) ليس عنده ما يدعوه إلى التكبر أو يجذبه إلى الزّهو والغرور والعجب ثمّ هو ينفخ صدره، ويمشي في الأرض مرحاً، فهذا ممقوت، منبوذ، ليس له قيمة عند الله عزّ وجل (عائض القرني، المسك والعنبر في خطب المنبر، الرّياض: مكتبة العبيكان ط7، 1432هـ/2013م)، ص 393.

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب 46، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمنّ بالعطيّة وتنفيق السلعة بالحلف وبيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم، رقم الحديث 107، مج1، ص 60.

(2) - ابن تيمية، مجموع فتاوى، مج18، المرجع السابق، ص 14.

(*) - لَكِنَّ الْكِبَرَ مِنْ بَطْرِ الْحَقِّ وَغَمَطِ النَّاسِ: لكن الكبر، كبر من بطر الحقّ فأضمر كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ﴾ [البقرة: 177] أي: لكِنَّ البرُّ برٌّ من آمن بالله، وقوله: غمط معناه: أزرى بالنّاس واستخفهم (سنن أبو داود، بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، ج4، 1418هـ/1997م)، ص 228.

(3) - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر، رقم الحديث 4092، ج4، المصدر السابق، ص 59.

حكم أبو داود: سكت عنه، وقد قال في رسالته لأهل مكة: كلّ ما سكت عنه فهو صالح.

(*) - الثرثار: هو الكثير الكلام بغير فائدة دينية . (ابن القيم، مدارج السالكين، ج2، المرجع السابق، ص293).

(*) - المتشدّد: المتطاول على النَّاسِ بكلامه الذي يتكلّم بملء فيه تفاصحاً وتفخماً وتعظيماً لكلامه (المرجع نفسه، ص 293).

(*) - المتفیهق: أصله من الفهق وهو الإمتلاء، وهو الذي يملأ فمه بالكلام، ويتوسّع فيه تكثراً وارتفاعاً وإظهاراً لفضله على غيره (المرجع نفسه، ص 293).

(4) - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب البرّ والصّلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق، رقم الحديث 2018، ج3، المصدر السابق، ص 545. وقال الألباني: صحيح في الصّحيحة 791. وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب البرّ والصّلة والآداب، رقم

بتقصيره ولا سوء عمله لأنه معجب بنفسه، وعن سلمة بن الأكوع قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم»⁽¹⁾ حذر النبي ﷺ من إعجاب الداعية بنفسه فلا يزال يترفع ويتعاضم حتى يكتب من الجبارين، فيصيبه ما أصابهم، والعاقلة من الدعاة عليه أن يخش عاقبة الكبر مهما كان في صغائر الأمور، فقد يتطور هذا المرض وتتدهور حالته فيتناول على الناس، كما عليه أن يظهر التواضع الذي يدل على خفض الجناح واللين، فلا يتكبر على أحد، ويستسلم للحق ويتواضع للناس ويتصف بالانكسار لله تعالى كما اتصف به الأنبياء عليهم السلام، ضرب بهم المثل في التواضع وقدموا أجمل الصور والمواقف كسيدنا سليمان عليه السلام، ويوسف عليه السلام، وموسى عليه السلام، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: 37] وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من آدمي إلا في رأسه حكمة بيد ملك، فإذا تواضع قيل للملك: ارفع حكمته وإذا تكبر قيل للملك: ضع حكمته»⁽²⁾.

- تحلية النبي ﷺ بالتواضع بدل الكبر

التواضع فضيلة عظيمة، يكفي فيها قول المولى عز وجل: ﴿وَخُفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: 88] وقول النبي ﷺ: «ما زاد الله عبداً إلا عزاً»^(*) وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله^(*)»⁽³⁾

الحديث 2018، ج 3، ص 545. وقال: هذا حديث حسن غريب، وروى بعضهم هذا الحديث عن المبارك بن فضالة عن محمد بن المكندر، عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ ولم يذكر فيه: عن عبد ربه بن سعيد، وهذا أصح.

(1) - أخرجه أبو داود في سننه، المصدر نفسه، رقم الحديث 2000، ص 534، وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة والآداب، باب ما جاء في الكبر، رقم الحديث 2000، ج 3، المصدر السابق، ص 534، وقال: هذا حديث حسن غريب، وفي مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، كتاب الآداب، باب الغضب والكبر، رقم الحديث 5111، ص 298.

(2) - الألباني، صحيح الجامع الصغير، رقم الحديث 5675 (المكتب الإسلامي، ج 2، 1408هـ/1988م)، ص 990.

(*) - وما زاد الله عبداً إلا عزاً: فيه وجهان: أحدهما على ظاهره، ومن عُرف بالعفو والصَّفح ساد وعظم في القلوب، وزاد عزه وإكرامه، والثاني أن المراد أجره في الآخرة وعزه هناك. (صحيح مسلم، البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، رقم الحديث 2588، ص 2001).

(*) - وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله: أحدهما يرفعه في الدنيا ويثبت له بتواضعه في القلوب منزلة، ويرفعه الله عند الناس ويجل مكانه، والثاني: أن المراد ثوابه في الآخرة ورفع فيه بتواضعه في الدنيا (صحيح مسلم، البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، رقم الحديث 2588، المصدر السابق، ص 2001).

(3) - المصدر نفسه، ص 2001.

وهي صفة نبيلة من صفات الأنبياء عليهم السلام والدعاة المخلصين، فنبى الله سليمان عليه السلام عندما رأى نعمة الله عليه في تعليمه كلام الحيوان قال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَشْكُرَ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: 40] فلم يتكبر على الناس بعلمه وغناه، وعكسه قارون الذي افتخر بغناه على خلق الله فقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: 78] ويرى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: «يا موسى، أتدري لماذا اصطفتك على الناس، واخترتك على بني إسرائيل؟ قال: لا يا ربّي، قال: نظرت في قلوب بني إسرائيل، فوجدت قلبك يُجني أكثر من كل قلب، ورأيتك ما جلست مع أحد، إلا شعرت في نفسك أنك أوضع منه وأقل منه»⁽¹⁾ فالتواضع هو ترك التُّرُّس وكرهية التَّعْظِيم والزيادة في الإكرام، بأن يتجنَّب الدَّاعية المباحاة بما فيه من الفضائل والمفاخرة بالجاه والمال، وأن يتحرَّز من الإعجاب والكبر، ولا يكون التَّواضع إلا في أكابر الناس ورؤسائهم وأهل الفضل والعلم، وأمَّا ما سوى هؤلاء فليس يكونون متواضعين لأنَّ الضَّعة هي محلهم ومرتبهم فهم غير متصنعين لها⁽²⁾، وعندما نقرأ في سيرة النَّبي ﷺ وعُرف أخلاقه وشمائله، نجده قد أعطاه الله الكمال ما لم يعطه لأحد، وبرغم المكانة التي تولَّاهَا، كان أشدَّ النَّاس تواضعًا وأبعدهم عن الكبر، وحسبك أن الله خيرَ بين أن يكون نبيًّا ملكًا، وبين أن يكون نبيًّا عبدًا، فاختار أن يكون نبيًّا عبدًا⁽³⁾، فكان يركب الحمار، ويردف خلفه ويجيب دعوة العبد، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم حيثما انتهى به المجلس جلس⁽⁴⁾، وكان مشغولاً بأمور النَّاس وكلِّ ما يهتمُّهم، وهو مع ذلك متبَّئ إلى الله منقطع عن الدُّنيا، فهو في الدُّنيا وليس فيها، لأنَّ قلبه لا يتعلَّق إلا بالله وبما يُرضي الله، فنراه رسولاً حصيماً ونبيًّا معصوماً في السَّاعة التي تتصوَّره فيها فاتحاً للبلاد ظافراً بالأمم، وإنَّه ليضطجع على حصير له من خوص، ويتكىء على وسادة حشوها من ليفٍ، حينما يخطر على بالنا أن ندعوه بسلطان العرب وننادي به ملكاً على بلاد العرب ويكون أهل بيته في فاقة وشدة عقب إستقباله الأموال العظيمة آتية إليه من أنحاء الجزيرة

(1) - عائض القرني، المسك والعنبر في خطب المنبر، المرجع السَّابق، ص 394.

(2) - الجاحظ، تهذيب الأخلاق، المرجع السَّابق، ص 27.

(3) - ابنُ المزيّن، إثبات النبوة، تحقيق: أحمد آيت بلعيد - أصل الكتاب رسالة دكتوراه - (بيروت: دار الكتب العلمية، د، ط، د، ت)، ص 79.

(4) - رواه البخاري في صحيحه، كتاب الألبسة، باب الإرتداف على الدَّابة، رقم الحديث 5964، ص 1498، وفي صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في دعاء النَّبي ﷺ وصبره على المنافقين، رقم الحديث 1798، ص 1422.

العربية، فتكون في فناء مسجده أكواماً، وتأتيه إبنته وفلذة كبده فاطمة تشكو إليه ما تكابده من حمل القرية، والطَّحْن بالرَّحَى حَتَّى مَجَتْ يداها، وأثرت القرية في جسمها والرسول ﷺ يومئذ يقسم بين المسلمين ما أفاء الله عليهم من عبيد الحرب وإمائها، فلا تنال إبنته من ذلك إلاَّ دُعاه لها بكلمات يُعلمها كيف تدعو بها ربها،⁽¹⁾ حَتَّى جاءه الخليفة عمر رضي الله عنه فأجال بصره في الحجرة فلم يجد إلاَّ حصيراً منْ خوص قد اضطجع النَّبي ﷺ عليه وأثّر في جنبه، وكلُّ ما في البيت صاعٍ منْ شعيرٍ في وعاءٍ وعلى مقربة منه شئٌ معلق على وتدٍ، لم يتمالك نفسه من دموع تذرّفها عيناه فسأله نبي الله ﷺ: «ما يبكيك يا عمر؟ فقال: ومالي لا أبكي إن قيصر وكسرى يتمتعان بالدُّنيا وينعمان بنعيمها، وإن رسول الله ﷺ لا يملك إلاَّ ما أرى، فقال له النَّبي ﷺ: أما ترضى يا عمر أن يكون ذلك نصيب كسرى وقيصر من نعيم الدُّنيا وتكون لنا الآخرة خالصة من دون النَّاس؟!»⁽²⁾ وما يثبت تواضع النَّبي ﷺ لَمَّا دخل مكة استشرّفه النَّاس، فوضع رأسه على رحله تخشُّعاً⁽³⁾، ولَمَّا انتهى إلى ذي طوى وقف على راحلته معتجراً^(*) بشقّة برد حبرة حمراء، وإن رسول الله ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حَتَّى عن عُثُونِه^(*) ليكاد يمس واسطة الرَّحْل⁽⁴⁾، ولعظمة شأنه كان لا يرضى أن يقابل النَّاس على كبر، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ متوكِّئاً على عصا فقمنا

(1) - عبد الرَّحمان بنُ عبد الكريم الشَّيخة، محمَّد رسول الله ﷺ (الرياض: المكتب التَّعاوني للدَّعوة وتوعية الجاليات بالربوة، د، ط، 1427هـ)، ص - ص 4، 5.

(2) - راجح عبد الحميد كردي، شعاع من السَّيرة النَّبوية في العهد المكي (د، دار ن، ط 2، 1430هـ/2009م)، ص 48.

(3) - ابنُ عسَّاکر، تاريخ مدينة دمشق، السَّيرة النَّبوية، تحقيق: محبِّ الدِّين أبي سعيد العمري، باب ذكر تواضعه لرَبِّه ورحمته لأُمَّته ورأفته بصحبته (بيروت: دار الفكر للطباعة والنَّشر والتَّوزيع، د، ط، ج 4، 1415هـ/1995م)، ص 80. وأبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دلائل النَّبوة (بيروت: دار الكتب العلمية، القاهرة، دار الريان، ط 1، ج 5، 1408هـ/1988م)، ص - ص 68، 69.

(*) - الإعتجار بالعمامة: أن يلفها على رأسه ويرد طرفها على وجهه، ولا يعمل شيئاً منها تحت ذقنه (يُنظر: محمَّد يوسف الكاندهلوي، حياة الصَّحابة، تحقيق: بشَّار عواد معروف، بيروت: مؤسَّسة الرِّسالة للطباعة والنَّشر والتَّوزيع، ط 1، مج 3، 1420هـ/1999م)، ص 337.

(*) - عُثُونُه: العثون بمعنى اللَّحْية (المرجع نفسه، ص 337).

(4) - يُنظر: ابنُ كثير، البداية والنَّهاية (بيروت: دار المعارف، د، ط، ج 4، 1412هـ/1991م)، ص - ص 193، 194.

إليه فقال: لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضها بعضاً»⁽¹⁾ ويروي أبو هريرة ؓ: «دخلت السوق مع النبي ﷺ فاشترى سراويل وقال للوازن: زنّ وارجح وذكر قصته، قال: فوثب إلى يد النبي ﷺ يقبلها فحذب يده، وقال: هذا ما تفعله الأعاجم بملوكها، ولست بملك، إنما أنا رجلٌ منكم، ثم أخذ السراويل فذهبت لأحمله فقال: صاحب الشيء أحق بشيئته أن يحملة»⁽²⁾، وعندما أحدق النبي ﷺ بجيوشه ليفتح مكة كان أبو سفيان إلى جانب العباس -عمّ النبي ﷺ- ينظران إلى المجاهدين من المسلمين تتقدمهم الأعلام الكثيرة، وكان أبو سفيان(*) لا يزال على ما كان عليه من المخالفة للإسلام فراعته ما رأى من كثرة جموع المسلمين ومن انضوى إليهم من القبائل المسلمة، وإنهم يزحفون على بطحاء مكة كالسيل الجارف لا يصده صاد ولا يمنعه شيء، فقال لصاحبه: يا عباس إن ابن أخيك أصبح ملكاً عظيماً، فأجابه العباس ؓ وهو - يرى غير الذي يراه أبو سفيان: «ليس هذا من الملك في شيء يا أبا سفيان، هذه نبوة ورسالة»⁽³⁾ وكان من شدة تواضعه ﷺ أن الدّاخل للمسجد لا يعرفه من بين أصحابه -رضوان الله عليهم-، يقول أنس بن مالك ؓ: «بينما نحن

(1) - أخرجه أبو داود في سننه، أبواب التّوم، باب في قيام الرّجل للرّجل، رقم الحديث 5230، ج4، المصدر السّابق، ص358. وقال: حكم الألباني: ضعيف، وأخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الدّعاء، باب دعاء رسول الله ﷺ، رقم الحديث 3836، ج2، المصدر السّابق، ص 1261. وقال حكم الألباني: ضعيف .

(2) - أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البيوع عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الرّجحان في الوزن، رقم الحديث 1305، ص443. وقال أبو عيسى: هذا حديث سويد حديث حسن صحيح، وأهل العلم يستحبون الرّجحان في الوزن، وروى شعبة هذا الحديث عن سماك فقال عن أبي صفوان وذكر الحديث.

(*) - أبا سفيان: هو ابن عمّ النّبي ﷺ المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي، أخو نوفل وربيعة، تلقى النّبي ﷺ في الطّريق قبل أن يدخل مكة مسلماً، فانزعج النّبي ﷺ وأعرض عنه، لأنّه بدت منه أمور في أذية النّبي ﷺ، فتدلّل للنّبي ﷺ حتّى رقى له، ثم حسن إسلامه، ولزم، هو والعباس عمّ رسول الله ﷺ يوم حنين إذ فرّ النّاس، وأخذ بلجام البغلة، وثبت معه، وقد روى عنه ولده عبد الملك أن النّبي ﷺ قال: «يا بني هاشم، إياكم والصّدقة» وكان أخا النّبي ﷺ من الرّضاعة، أرضعتها حليمة، سمّاه هشام بن الكلبي، والزبير: مغيرة، وقال طائفة: إسمه كنيته، وإنما المغيرة أخوهم، وقيل: كان الذين يشبهون بالنّبي ﷺ جعفر، والحسن بن علي، وقثم بن العباس، وكان أبو سفيان من الشّعراء، وفيه يقول حسان: ألا أبلغ أبا سفيان عني مغلغلة فقد برح الخفاء هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء (يُنظر: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون (مؤسسة الرّسالة، ط1، ج1، 1422هـ/2001م)، ص 203.

(3) - أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب السّير، باب فتح مكة (حيدر آباد: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط1، 1356هـ)، ص- ص 119، 120، وراجع عبد الحميد كردي، شعاع من السّيرة النبوية في العهد المكي، المرجع السّابق، ص 48.

جلوس مع النَّبِيِّ ﷺ في المسجد، دخل رجلٌ على جملٍ فأناخه في المسجد ثم عقله، ثم قال لهم: أيُّكم محمَّد ؟ والنَّبِيُّ ﷺ متكى بين ظهرائهم، فقلنا: هذا الرَّجل الأبيض المتكى..»⁽¹⁾ وذلك لعدم تميّزه ﷺ عن أصحابه وجلسائه، وقال له ﷺ ذات مرّة رجل: «يا محمَّد، أيا سيّدنا وابن سيّدنا، وخيرنا وابن خيرنا، فقال رسول الله ﷺ: يا أيُّها النَّاس، عليكم بتقواكم، ولا يستهويَنَّكم الشَّيْطان، أنا محمَّد بن عبد الله، أنا عبد الله ورسوله، ما أحبُّ أن ترفعوني فوق منزلي التي أنزلنيها الله»⁽²⁾، فكان ﷺ لين الخلق، كريم الطبع، جميل المعاشرة، طلق الوجه بسامًا، متواضعًا من غير ذلّة، رقيق القلب، رحيمًا بكل مسلم، خافض الجناح للمؤمنين، لين الجانب لهم⁽³⁾، وفي موقف آخر للنَّبِيِّ ﷺ لَمَّا جاءته قريش فقالت له: «إنَّا لا نرضى أن نكون إتباعا لهؤلاء من ضعفاء المسلمين مثل صهيب وعمّار وبلال وخباب فاطردهم عنك ولا تبقيهم في مجلسك إذا دخلنا عليك، فإذا فرغنا وخرجنا فأدخلهم إن شئت، فنزلت الآية عليه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٢٨) [الكهف: 28] وقال: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣١٥) [الشُّعراء: 215] لهذا كانت حاجة الدّاعية إلى التّواضع في غاية الأهميّة بدل الكبر الذي يصيب القلب الجحود عن الحقّ والإصابة بالغرور بما لديه، فعمله الدّعوي يقتضي القرب من النَّاس لا الإبتعاد عنهم، لأنَّ النفوس لا تستريح لمتكبرٍ أو مغترٍّ.

ولرفعة قدره ﷺ وعلو منزلته كان يمرّ على الصّبيان فيسلّم عليهم، ويكون في بيته في خدمة أهله، وكان يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويحلب شاته، ويعلف البعير، ويأكل مع الخادم، ويجالس المساكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما، ويبدأ من لقيه بالسّلام، ويحيب الدّعوة، وقال: لو دعيت إلى ذراع -أو كراع- لأجبت، ولو أهدي إليّ ذراعٌ -أو كراع- لقبلت، وكان يعود المريض، ويشهد الجنائز، ويركب الحمار⁽⁴⁾، ويحيب دعوة العبد، وينام على الحصير، وكان يخفض جناحه للنّاس ويجلس بينهم كواحد منهم، وكان يجلس بين ظهري أصحابه فيجيء الغريب فلا يدري أيُّهم هو حتى

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب ما جاء في العلم، رقم الحديث 63، ص 27.

(2) - عبد الرَّحْمَن بن عبد الكريم الشيعة، محمَّد رسول الله ﷺ، المرجع السّابق، ص 5.

(3) - ابنُ القيم، مدارج السّالّكين، المرجع السّابق، ص 2242.

(4) - ابنُ القيم، تهذيب مدارج السّالّكين، هذّبه: عبد المنعم صالح العلي العزى (طنطا: دار الشير للثقافة والعلوم، ط 1،

1417هـ/1997م)، ص-ص 428، 429.

يسأل...⁽¹⁾، فحلّة التّواضع يفتح به الدّاعية قلوب مدعويه، يوقظ به عواطفهم نحوه احترامًا وتقديرًا، لأنّ الفطرة الإنسانية بطبيعتها تميل إلى من يرفق بها ويتواضع لها، ولأنّ الله عزّ وجلّ أنشأ عليه ﷺ في حديثه قائلاً: «العزّ إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعه ذلك عذبه»⁽²⁾ يقول الإمام القاضي عياض رحمه الله وقد سُئل عن التّواضع: (التّواضع أن تخضع للحقّ وتنقاد له، ولو سمعته من أجهل النّاس)⁽³⁾.

- تربية أصحابه على التّواضع بدل الكبر

لتواضعه الجَمِّ ﷺ فقد علّم النبي ﷺ أصحابه التّواضع بدل الكبر الذي يحتقر التّعامل ومجالسة الصّالحين والضّعفاء والفقراء، حتّى تبعه أبي بكر الصّدّيق ﷺ وقال قولته: «لا تحتقرنّ أحدًا من المسلمين فإنّ صغير المسلمين عند الله كبير»⁽⁴⁾، والخليفة عمر بن الخطّاب ﷺ الذي قدّم أروع صورة في كسر الكبر يرويها عروة بن الرّبير رضي الله عنهما: «رأيت عمر بن الخطّاب ﷺ على عاتقه قربة ماء، قلت يا أمير المؤمنين، لا ينبغي لك هذا، فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين، دخلت نفسي نخوة فأحببت أن أكسرهما»⁽⁵⁾ وعن جبير بن مطعم ﷺ قال: «تقولون فيّ التّيه»^(*) وقد ركبت الحمار ولبست الشّملة^(*) وقد حلبت الشّاة، وقد قال رسول الله ﷺ: «من فعل هذا فليس فيه من الكبر شيء»⁽⁶⁾، وكان سعد بن أبي وقّاصٍ ﷺ في إبله، فجاءه ابنه عمر ﷺ، فلما رآه سعد قال: «أعود بالله من شرّ هذا الرّاكب، فنزل فقال له: أنزلت في إبلك وغنمك، وتركت النّاس يتنازعون المملك بيّنهم؟ فضرب سعد في صدره، فقال: اسكّث، سمعتُ رسول الله ﷺ، يقول: إنّ الله يحبّ العبد

(1) - أخرجه أبو داود في سننه، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة، كتاب السنّة، باب في القدر، رقم الحديث 4698، ص 588. وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ رواه مسلم، والنّسائي 4991، وصحّحه الألباني في صحيح أبو داود 4698، ويُنظر: ابنُ القيم، مدارج السّالكين، المرجع السّابق، ص 2242.

(2) - النّووي، صحيح مسلم بشرح النّووي، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تحريم الكبر، ج 16، المرجع السّابق، ص 1.

(3) - عبد الكريم زيدان، أصول الدّعوة، المرجع السّابق، ص 362.

(4) - أبو عبد الله محمد بنُ محمّد الحداد، تخرّيج أحاديث إحياء علوم الدّين، رقم الحديث 3182 (الرّياض: دار العاصمة للنّشر، ط 1، ج 5، 1408هـ/1987م)، ص 2017.

(5) - ابنُ كثير، البداية والنّهاية، ج 7، المرجع السّابق، ص 135، وفي مدارج السّالكين لابن القيم، المرجع السّابق، ص 2246.

(*) - في التّيه: بمعنى الكبر، أي في نفسي الكبر (محمّد صالح المجد، الكبر، المرجع السّابق، ص 60). و(محمّد صالح المنجد، مفسدات القلوب، الرّياض: مجموعة زاد للنّشر، ط 1، 1438هـ/2017م)، ص 379.

(*) - لبست الشّملة: هو كساء يتغطّى به ويتلف فيه (المرجع نفسه، ص 379).

(6) - أخرجه التّرمذي في سننه الجامع الكبير، أبواب البرّ والصّلة، باب ما جاء في الكبر، رقم الحديث 2001، ص 535. وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

التَّقِيَّ، الْغَنِيِّ، الْخَفِيِّ^(*)»⁽¹⁾ ويروي سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قائلاً: «مرَّ رجل من فقراء المسلمين على النَّبِيِّ ﷺ يوماً، فقال النَّبِيُّ ﷺ لأصحابه: ما تقولون في هذا؟، فقالوا: رجل من فقراء المسلمين، هذا والله حريٌّ إنَّ خطب أن لا يزوج، وإن شفع أن لا يشفع، ثمَّ مرَّ رجلٌ آخر من الأشراف، فقال: ما تقولون في هذا؟، قالوا: رجل من أشراف القوم هذا والله حريٌّ إنَّ خطب أن يُنكح، وإن شفع أن يُشفع، فأشار النَّبِيُّ ﷺ على الرَّجُلِ الْفَقِيرِ الْأَوَّلِ فقال: والله هذا خيرٌ من ملء الأرض مثل هذا»⁽²⁾ أعلن النَّبِيُّ ﷺ في ظاهر كلامه رفضه المطلق للتفاضل بين النَّاس، فتراهم يقدمون الغنيَّ صاحب الجاه ولو كان عاصياً فاسقاً، ويؤخِّرون النَّقيَّ التَّقِيَّ لفقره وعدم وجاهته، فيكون سبباً في تقديم من لا يستحقُّ التَّقديم فيقع في إحتقار الآخرين والتَّرفع عنهم⁽³⁾.

ثالثاً: التَّحذير من خلق الإساءة

أ- مفهوم الإساءة

– لغة

- يُعرِّفها العلامة الزَّبيدي بالقول: (الإساءة مصدر أساء الرَّجُلُ إساءة: خلاف أحسن، وأساء الشَّيء، أفسدته ولم يُحسِّن عمله، ويُقال: أساءَ به، وأساءَ إليه، وأساءَ عليه، وأساءَ له ضدَّ أحسن، وقوله سيئٌ: يسوء)⁽⁴⁾، ويقول العلامة ابنُ منظور: (يقال: أساءَ إليه إذا ظلمه)⁽⁵⁾.

– اصطلاحاً

- يعرفها الشَّيخ المناوي رحمه الله بالقول: (الإساءة تأتي بمعنى الكفر، وهو غاية الإساءة)⁽¹⁾ وفي تعريفٍ آخر لها: (هي خلق ذميم، وسلوك مشين وطريق موصل إلى غضب الله وسخطه، وهي

(*) – إنَّ الله يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِيَّ: المراد بالغنى غنى النَّفس، هذا هو الغنى المحبوب، وأما الخفيُّ: فبالحاء المعجمة، وهو الموجود في النَّسخ، والمعروف في الرِّوَايات، معناه الخامل المنقطع إلى العبادة والإشتغال بأمور نفسه، وقال الإمام مسلم: وفي هذا الحديث حجة لمن يقول: الاعتزال أفضل من الاختلاط، (صحيح مسلم، كتاب الزُّهد والرقائق، رقم الحديث 2965، ص 2277).

(1) – المصدر نفسه، ص 2277.

(2) – أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النِّكاح، باب الأكفاء في الدِّين، رقم الحديث 5091، ص 1298.

(3) – محمَّد صالح المنجد، الكبير، المرجع السَّابق، ص 15.

(4) – الزُّبيدي، تاج العروس، مادة سوء، ج 1، ص 274، ويُنظر: الرَّاغِبُ الْأَصْفَهَانِي، مفردات القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، مادة سوء (بيروت: دار القلم، ط 1، 1412هـ)، ص 441.

(5) – ابنُ منظور، لسان العرب، مادة أساء، ج 1، المصدر السَّابق، ص 95.

فعل أمر قبيح جار مجرى الشرّ، يترتب عليه غمّ لإنسان في أمور دينه ودنياه، سواء أكان ذلك في بدنه أو نفسه أو فيما يحيط به من مال أو ولد أو قنية⁽²⁾، وأعظم الإساءة: الإستهزاء بآيات الله خوفاً ولعباً، وسبّ الله العظيم، وسبّ آياته وشريعته، وهذا هو أعظم الجرم، وهو الكفر البواح⁽³⁾.

ب- طريقة النبي ﷺ وأسلوبه في محاربة خلق الإساءة

- مقابلة الإساءة بالإحسان

الإحسان له مراتب إيمانية أعلاها الشعور بمراقبة الله، لكن الإحسان ما بين العباد فأولى الناس به همّ الدعاة إلى الله، وقد أمر الله تعالى مقابلة الإساءة بالإحسان في آي ذكره فقال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ [المؤمنون: 96] وقال النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة إلاّ أري مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً، ولا يدخل النار أحد إلاّ أري مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة»⁽⁴⁾ ومشهد الإحسان هو أن يقابل إساءة المسيء إليه بالإحسان، فيحسن إليه كلّما أساء هو إليه، ويهون هذا عليه علمه بأنّه قد ربح عليه، وأنّه قد أهدى إليه حسناته، ومحاسنها من صحيفته، وأثبتها في صحيفة من أساء إليه⁽⁵⁾، ولقد ضرب الله أروع الأمثلة في عفو وصفح رسله وأنبيائه عليهم السّلام فهذا نبيّ كمقابلة نبيّ الله يوسف عليه السلام مع ما فعله إخوته من الإضرار به وإلقائه في البئر، أن أحسن إليهم وجّههم بجهازهم ولم يبخسهم شيئاً منه، وموسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجدّ عليه أمة من الناس يسقون، ووجد من دونهم إمراةين مستضعفتين أحسن إليهما ورفع الحجر عن البئر وسقى لهما حتى رويت أغنامهما، فالإحسان إلى الناس من صفات الأنبياء عليهم السّلام، وقد حثّ النبي ﷺ على مقابلة الإساءة بالإحسان، عن معاذ بن جبل عليه السلام: «أنّ النبي ﷺ بعثه إلى قوم، فقال: يا رسول

(1) - المناوي، التيسير بشرح الجامع الصغير، ج2، المرجع السابق، ص 754.

(2) - صالح بن عبد الله بن حميد وأخرون، نظرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (جدة: دار الوسيلة للنشر والتوزيع، ط4، ج9، د، ت)، ص 838.

(3) - خالد بن جمعة بن عثمان الخزاز، موسوعة الأخلاق، المرجع السابق، ص 121.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرّقائق، باب صفة الجنة والنار، رقم الحديث 6569، ص 1630.

(5) - ابن القيم، مدارج السالكين، المرجع السابق، ص 304.

الله، أوصني قال: إفش السَّلام وإبذل الطَّعام... وإذا أَسأت فَأَحْسِن^(*)، ولتحسَّن خلقك ما استطعت⁽¹⁾ وقال العلامة الملا علي القاري: (وإذا أَسأت فَأَحْسِن، وهو يحتمل معنيين، أحدهما: أنَّه إذا فعل معصية، يحدثها توبة، أو طاعة، وإذا أَسأ إلى شخص، أَحْسَن إليه)⁽²⁾ ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ [فصَّلَتْ: 34] ولوقوع إساءة الأرحام يقول النَّبي ﷺ: «صل من قطعك، وأحسن إلى من أساء إليك^(*)، وقل الحقَّ ولو على نفسك»⁽³⁾ وفي رواية أنَّ رجلاً أتى النَّبي ﷺ فقال: «يا رسول الله: إنَّ لي قرابة أصلهم ويقطعونني وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ، فقال ﷺ: لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم الملَّ، ولا يزال معك الله ظهير عليهم ما دمتَ على ذلك»⁽⁴⁾، ويقول النَّبي ﷺ: «من سرَّه أن يُبسط عليه رزقه أو ينسأ في أثره^(*) فليصل

(*) - وإذا أَسأت فَأَحْسِن: وهو يحتمل معنيين، أحدهما أنَّه إذا فعل معصية، يحدثها توبة أو طاعة، وإذا أساء إلى شخص، أحسن إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ [فصَّلَتْ: 34] (أبو الحسن نور الدِّين الملا الهروي القاري، مرقاة المصابيح شرح مشكاة المصابيح، كتاب الإمارة والقضاء، رقم الحديث 3713 (بيروت: دار الفكر، ط1، ج6، 1422هـ/2002م)، ص 2416.

(1) - الألباني، سلسلة الأحاديث الصَّحيحة، رقم الحديث 359، ج7، المرجع السَّابق، ص 1518.

(2) - أبو الحسن نور الدِّين الملا الهروي القاري، مرقاة المصابيح شرح مشكاة المصابيح، كتاب الإمارة والقضاء، المرجع السَّابق، ص 2416.

(*) - صل من قطعك: دفعًا بالتي هي أحسن كما أمر الله تعالى في كتابه، وأحسن إلى من أساء إليك، وهذه من أشرف الخصال ﴿وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصَّلَتْ: 35] وقل الحقَّ ولو على نفسك كما قال تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النِّسَاء: 135]. (يُنظر: محمَّد بن إسماعيل بن صلاح بن محمَّد الحسني، الكحلاني ثم الصنعاني، التَّنوير شرح الجامع الصَّغير، تحقيق: محمَّد إسحاق محمَّد إبراهيم، برقم 4987 (الرياض: مكتبة دار السَّلام، ط1، ج6، 1432هـ/2011م)، ص 586.

(3) - يُنظر: جلال الدِّين بن أبي بكر السيوطي، الجامع الصَّغير، رقم الحديث 5004 (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 9، ج1، ج2، 2017م)، ص 309. وصَّححه الألباني في صحيح الجامع الصَّغير برقم الحديث 3769، 704/2. وفي فيض القدير للنَّووي، حرف الصَّاد، رقم الحديث 5004 (بيروت: دار الكتب العلمية، ج4، 1422هـ/2001م)، ص 252.

(4) - النَّووي، شرح النَّووي على مسلم، كتاب البرِّ والصَّلة والآداب، باب تحريم التَّحاسد والتَّباغض والتَّدابير، رقم الحديث 2558، المرجع السَّابق، ص 1535.

(*) - ينسأ: أي: يؤخَّر، وأثره الأثر هو الأجل، لأنَّه تابع للحياة في أثرها (في شرح النَّووي على صحيح مسلم، كتاب البرِّ والصَّلة والآداب، باب صلة الرَّحم وتحريم قطيعتها، رقم الحديث 2557، ج16، ص 114) وفي (صحيح مسلم، كتاب البرِّ والصَّلة والآداب، باب صلة الرَّحم وتحريم قطيعتها، رقم الحديث 2557، ص 1982).

رحمه (*)»⁽¹⁾ فالصلة نوع من التوحيد لأن الألفة اجتماع والإجماع إتحاد، والقطيعة إفتراق والإفتراق كثرة والكثرة ضد التوحيد فلذلك قطع الله قاطع الرحم لأن الله واحداً لا يصل إلا واحداً متصفاً بالتوحيد⁽²⁾، ومن هذا قول الغزالي في فيض القدير: (رأيت في الإنجيل قال عيسى بن مريم لقد قيل لكم من قبل إن السن بالسن، والأنف بالأنف والآن أقول لكم لا تقاوموا الشرّ بالشرّ، بل من ضرب خدك اليمين فحول إليه اليسار، ومن أخذ رداءك فأعطه إزارك، ومن سخرك معه ميلاً فسر معه ميلين، وكل ذلك أمر على الصبر على الأذى)⁽³⁾ لقد كان النبي ﷺ ينهى عن القطيعة ترهيباً وتخويفاً، ودعاً إلى مقابلتها بالحلم والتوؤد والإحسان، وبكافة الطرق والأساليب، واحتساب أجرها على الله تعالى، فقال: «صل من قطعك، واعف عمن ظلمك، وأحسن إلى من أساء إليك»⁽⁴⁾. ويقول الشيخ السلمي في وصيته: (وقابل القطيعة بالصلة، والإساءة بالإحسان، والظلم بالصبر والغفران)⁽⁵⁾، وما يثبت فضلها وآثارها يقول فيها الإمام النووي رحمه الله: (هو تشبيه لما يلحقهم من الألم بما يلحق آكل الرماد من الألم، ولا شيء على هذا المحسن، بل ينالهم الإثم العظيم في قطيعته وإدخالهم الأذى عليه)⁽⁶⁾ كما نبه النبي ﷺ من الإساءة في حق الآخرين كأن يأخذ أموالهم بغير حق أو يطالهم بالضرب والسخرية وغيرها من المظالم الأخرى، فجاء ﷺ ليخلص الناس من هذه المظالم باسترضاء أصحابها وطلب صفحهم ومسامحتهم أو بتمكين المظلوم من أخذ مظلمته حتى لا يأتي يوم القيامة من المفلسين الذين قال فيهم النبي ﷺ: «إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطي هذا

(*) - الرحم: الرحم التي توصل وتقطع وتؤثر إنما هي معنى من المعاني ليسن بجسم، وإنا هي قرابة ونسب تجمعهم رحم والدته ويتصل بعضه ببعض، فسمي ذلك الاتصال رحماً، ولتعظيم شأنها وفضيلة واصلها وعظيم إثم قاطعها بعقوقهم، ولذلك سمي العقوق قطعاً، والعق الشق، كأنه قطع ذلك السبب المتصل (صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم الحديث 2557، ص 1982).

(1) - المصدر نفسه، ص 1982.

(2) - محمد عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، المرجع السابق، ص 252.

(3) - المرجع نفسه، ص 252.

(4) - تم تحريجه سابقاً، يُنظر: ص 364.

(5) - أبو عبد الرحمن السلمي، وصية الشيخ السلمي، تحقيق: مجدي فتحي السيد (طنطا: مكتبة الصحابة، ج 1، 1408هـ)، ص 49.

(6) - النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، ج 16، المرجع السابق ص 115.

من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فُيئت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أخذ من خطاياهم، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»⁽¹⁾ بَيَّنَ ﷺ حقيقة المفلس، الذي أخذت حسناته يوم القيامة من قبل كلٍّ غريم من غرماء الدُّنيا الذين لم يأخذوا حَقَّهُم في الدُّنيا، فاعتبرها من الأخلاق الذميمة التي تلحق بالآخرين الظُّلم والإساءة، وقد فسَّر الإمام النووي رحمه الله ذلك قائلاً: (هو الهالك الهلاك التَّام والمعدوم الإعدام المقطع، فتؤخذ حسناته لغرماته فإذا فرغت حسناته أخذ من سيئاتهم فوضع عليه، ثم أُلقي في النَّار فتَمَّت خسارته وهلاكه وإفلاسه)⁽²⁾، وقال العلامة المازري رحمه الله في بيانه لأسباب العقوبة: (يعاقب المفلس بفعله ووزره وظلمه فتوجهت عليه حقوق لغرمائه فدفعت إليهم من حسناته، فلمَّا فرغت وبقيت بقية قبولت على حسب ما اقتضته حكمة الله في خلقه وعدله في عباده فأخذ قدرها من سيئات خصومه فوضع عليه فعوقب به في النَّار، فحقيقة العقوبة إنّما هي بسبب ظلمه ولم يعاقب بغير جناية وظلم منه)⁽³⁾ لقد كان النَّبِيُّ ﷺ مضرب المثل في هذا الخلق، فكان يقابل إساءة قومه بالإحسان مراعاة مشاعرهم وأحاسيسهم، وكان دومًا ﷺ يَزُنُّ نفوس قومه بميزان المعدن الثمين، فيبعد عنهم كُلَّ ما يחדش كرامة أو يلحق إهانة، ويتأكَّد الأمر عند أصحاب النفوس المتوترة وحديثي عهد بالإسلام، فقد ترك النَّبِيُّ ﷺ هدم الكعبة وبناءها على قواعد إبراهيم ﷺ إجتنبًا للفتنة، فكانوا قوما حديثي عهد بجاهلية، فقال لأُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عائشة رضي الله عنها: «لولا حَدَاثَةُ عَهْدِ قَوْمِكَ بِالْكَفْرِ، لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ وَجَعَلْتُهَا عَلَى أُسَاسِ إِبْرَاهِيمَ، فَإِنَّ قَرِشًا حِينَ بَنَتِ الْبَيْتَ اسْتَقْصَرَتْ^(*) وَجَعَلْتُ لَهُ خَلْفًا»⁽⁴⁾ وقال: «ولولا أَنَّ قَوْمَكَ حَدِيثُو عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ، فَأَخَافُ أَنْ تُنْكَرَ قُلُوبُهُمْ ذَلِكَ، لَنَظَرْتُ أَنْ أُدْخِلَ الْحِجَرَ فِي الْبَيْتِ، وَأَنْ أُلْزِقَ بَابُهُ بِالْأَرْضِ»⁽⁵⁾ وزيادة عند الإمام

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البرِّ والصَّلة والآداب، باب تحريم الظُّلم، رقم الحديث 2581، ج 4، ص 1997.

(2) - النووي، شرح النووي على مسلم، كتاب البرِّ والصَّلة والآداب، باب تحريم التَّحاسد والتَّبَاغُض والتَّدايِر، رقم الحديث 2558، المرجع السَّابق، ص 1544.

(3) - النووي، شرح النووي على مسلم، كتاب البرِّ والصَّلة والآداب، باب تحريم التَّحاسد والتَّبَاغُض والتَّدايِر، رقم الحديث 2558، المرجع السَّابق، ص 1544.

(*) - اسْتَقْصَرَتْ: أي قصرت عن تمام بنائها واقتصرت على هذا القدر، لقصور النفقة بهم عن تمامها (أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها، رقم الحديث 1333، ص 968).

(4) - المصدر نفسه، ص 968، وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل مَكَّة وبنائها، رقم الحديث 1585، ص 385.

(5) - وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل مَكَّة وبنائها، رقم الحديث 1585، ص 385.

مسلم: «ولجعلت لها بابين موضوعين في الأرض، شرقياً وغربياً، وهل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها؟ قالت: لا، قال: تعززا أن لا يدخلها إلا من أرادوا، فكان الرجل إذا هو أراد أن يدخلها، يدعونه يرتقي، حتى إذا كان أن يدخل دفعوه فسقط»⁽¹⁾ كان موقف النبي ﷺ العاطفي في قِمة التسامح، فلم يرد إساءة مشاعرهم والمساس بعاداتهم فمراعاته ﷺ هذا الجانب المهم في نفوس قوم، كان حقيق أن يؤدي إلى مصلحة عظيمة لا تقارن بالمفسدة المرتقبة حال قيامه بتعديل بناء الكعب، وقصته ﷺ مع عمير بن وهب^(*) لَمَّا اجتمع هو وصفوان بن أمية في الحجر فقال لصفوان بن أمية: «لولا عيالي ودين علي لأحببت أن أكون أنا الذي أقتل محمداً بنفسي فقال صفوان: فكيف تصنع فقال: أنا رجل جواد لا ألق آتية فأعتره ثم أضربه بالسيف ثم ألق بالجل ولا يلحقني أحد فقال له صفوان: فعيالك ودينك علي فخرج فشحذ سيفه وسمه ثم خرج إلى المدينة لا يريد إلا قتل محمد ﷺ فلما قدم المدينة رآه عمر بن الخطاب فهاله ذلك وشق عليه وقال لأصحاب رسول الله ﷺ إني رأيت وهباً قدم فرايت قدومه وهو رجل غادر فأطيفوا بنبيكم ﷺ فأطاف المسلمون بالنبي ﷺ فجاء وهب فوقف على النبي ﷺ فقال: أنعم صباحاً يا محمد، فقال: قد أبدلنا الله خيراً منها، فقال: عهدي بك تحدث بها وأنت مُعجب فقال له النبي ﷺ ما أقدمك قال: جئت أفدي أساراكم، قال: ما بال السيف، قال: أما إننا قد حملناها يوم بدر فلم نُفلح ولم ننجح، قال: فما شيء قلت لصفوان وأنتما في الحجر لولا عيالي وديني لكنت أنا الذي أقتل محمداً بنفسي، فأخبره النبي ﷺ الخبر فقال وهب: هاه كيف، قلت: فأعاد عليه، قال: وهب قد كنت تخبرنا خبر أهل الأرض فنكذبك فأراك تُخبر خبر أهل السماء أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله، فقال: يا رسول الله أعطني عمامتك فأعطاه النبي ﷺ عمامته ثم رجع راجعاً إلى مكة، فقال عمر ﷺ: لقد قدم وإنه لأبغض إلي من الخنزير ثم رجع وهو أحب إلي من ولدي»⁽²⁾.

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها، رقم الحديث 1333، ص-ص 969، 970.

(*) - عمير بن وهب: الجمحي القرشي الكناني الصحابي الجليل، كان من أشد أعداء الإسلام في الجاهلية، أسلم في العام الثاني للهجرة بعد غزوة بدر، وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر (يُنظر: السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، المرجع السابق، ص 660).

(2) - ابن هشام، السيرة النبوية، (جدة: مؤسسة علوم القرآن، د، ط، ج 1، د، ت)، ص 661.

ج- مقابلة الإساءة بالحلم والعفو والصّفح

من خلق النبي ﷺ أنّه رهيف الحسّ رقيق الوجدان محبّاً للفضيلة والنّبيل، مراعيّاً للقيم الروحية والإنسانية، وكانت لا تستفزّه سخافة الأجلّاف من الأعراب المخطئين ولا تؤزّزه حقارة اليهود وخبثهم.. بل كان يقابلُ إساءاتهم حلمًا ما لم تكن جسارة رعناء يُنتهك فيها الدّينُ القيمُ، ومن سخافاتهم إدّعاؤهم: أنّ الله عزّ وجلّ هجر وبغض نبيّه محمّداً، عن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: «لَمَّا نَزَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ الْقُرْآنُ، أَبْطَأَ عَنْهُ جَبْرِيلُ أَيَّامًا فَعَبَّرَ بِذَلِكَ، فَقَالَ الْمَشْرُكُونَ: وَدَّعَهُ رَبُّهُ وَقَلَّاهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿مَآوَدَعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: 3]⁽¹⁾ وسأل رجلُ النبي ﷺ يوماً فقال: «يا رسول الله كم أعفو عن الخادم؟ فصمت رسول الله ﷺ، فأعاد الرّجل السؤال كم أعفو عن الخادم؟ فقال ﷺ: كلّ يوم سبعين مرّة»⁽²⁾ والدّاعية إلى الله لا يواجه أخطاء غيره بالإساءة والصّراخ والتضجّر والتأفّف، بل يجب أن يكون حليماً رصيناً مصفحاً معهم، إلزاماً لقول النبي ﷺ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ مَا شَاءَ»⁽³⁾ وهذا الجزاء لكظم الغيظ، لأنّه قهر لشهوة النّفس التّوّاقة للغلبة والأمارة بالسّوء، ويذكر الإمام الطّبري رحمه الله في تاريخه، قصّة عن صفح النبي ﷺ لإساءة قريش فقال: (لم يزل النبي ﷺ مقيماً مع قريش بمكّة يدعوهم إلى الله سرّاً وجهراً، صابراً على أذاهم وتكذيبهم إياه واستهزائهم به حتّى كان بعضهم يطرح عليه رحم الشّاة وهو يصلي، ويطرحها في برمته إذا نصبت له حتّى إنّخذ

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة الضّحى، رقم الحديث 4950، ص 1261.

(2) - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب التّوهم، باب في حقّ المملوك، رقم الحديث 5164، ج7، المصدر السّابق، ص 470. وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ، وذكر حكم الألباني: حديث صحيح، وأخرجه التّرمذي كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب ما جاء عن العفو عن الخادم، رقم الحديث 1949، ج3، ص500، كذلك وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ، قال وروى بعضهم هذا الحديث عن عبد الله بن وهب بهذا الإسناد، وقال عن عبد الله من عمرو وذكر بعضهم أن أبا داود أخرجه من حديث عبد الله بن عمر.

(3) - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنّة، باب من كظم غيظاً، رقم الحديث 4777، ج7، المصدر السّابق، ص 157 وقال أبو داود: قال التّرمذي: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ، هذا آخر كلامه، وسهل بن معاذ بن أنس الجهني: ضعيف، والذي روى عنه هذا الحديث أبو مرحوم عبد الرحيم بن ميمون الليثي مولاهم المصري ولا يحتج بحديثه، وفي رياض الصّالحين للنّووي، كتاب المقدمات، باب الصّبر، رقم الحديث 47، وعند ابن أبي الدنيا في كتاب ذمّ الغضب من حديث أبي هريرة مرفوعاً: (من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً)، ص 108.

رسول الله ﷺ منهم فيما بلغني حجرًا يستتر به منهم إذا صلى⁽¹⁾ وعن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يخرج بذلك إذا رمى به في داره على العود فيقف على بابه، ثم يقول: يا بني عبد مناف أيُّ جوار هذا، ثمَّ يلقيه في الطريق»⁽²⁾ ونظرًا للعاطفة الجياشة التي تميّز بها النبي ﷺ فقد كان حسنَ المعاملة مع خصومه ولاسيما مع منافقي المدينة، وكان يدفع إساءتهم بالتي هي أحسن وبحلم وصبر وشفقة، يروي أسامة بن زيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أنه ركب على حمارٍ على قطيفة»^(*) فدكّيته^(*)، حتّى مرَّ بمجلسٍ فيه عبدالله بن أبيّ بن سلول، وذلك قبل أن يُسلم عبدالله بن أبيّ، فإذا في المجلس أخلاطٌ من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلمّا غشيت المجلس عَجَاجَةُ الدابة خمر عبدالله بن أبيّ أنفه بردائه، ثمَّ قال: لا تُعبّروا علينا، فسلم رسول الله ﷺ عليهم ثمَّ وقف، فنزل فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبيّ بن سلول: أيُّها المرء، إنني لا أحسن ممّا تقول إن كان حقًا، فلا تؤذنا به في مجلسنا، ارجع إلى رحلك، فمَن جاءك فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله، فاعشنا به في مجالسنا، فإنّا نحبّ ذلك، فاستبّ المسلمون والمشركون واليهود، حتّى كادوا يتشاورون، فلم يزل النبي ﷺ يحفّضهم حتّى سكنوا، ثمَّ ركب النبي ﷺ دابته، فسار حتّى دخل على سعد بن عبادة رضي الله عنه فقال له النبي ﷺ: يا سعد، ألم تسمع ما قال أبو حباب - يريد عبد الله بن أبي - قال كذا وكذا، قال سعد بن عبادة رضي الله عنه: يا رسول الله، اغفُ عنه واصفح، فو الذي أنزل عليك الكتاب، لقد جاء الله بالحقّ الذي أنزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البُحيرة على أن يتوجّوه فيُعصّبوه بالعصابة، فلمّا أبى الله ذلك بالحقّ الذي أعطاك الله، شَرِقَ بذلك، فذلك فعَل به ما رأيت، فعفا عنه رسولُ الله ﷺ»⁽³⁾ ومحاولات

(1) - ابن جرير الطبري، تهذيب تاريخ الطبري، تهذيب: رجب محمود إبراهيم بخيت (القاهرة: مكتبة جزيرة الورد، ط1، 2017م)، ص 56.

(2) - المرجع نفسه، ص 56.

(*) - قطيفة: دثار مجمول، جمعها قطائف وقطف (المنهاج في شرح صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين، رقم الحديث 1798، ص-ص 1162، 1163). وفي (صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين، رقم الحديث 1798، ص 1422).

(*) - فدكّية: منسوبة إلى فذك، بلدة معروفة على مرحلتين أو ثلاث من المدينة (المصدر نفسه، ص 1422).

(3) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين، رقم الحديث 1798، ص 1422. وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب التّسليم في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين، رقم الحديث 6254، ص 1561.

الطَّعَنُ فِي عَرَضِ النَّبِيِّ ﷺ بِالْإِفْتِرَاءِ وَالْكَذِبِ عَنِ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي حَادِثَةِ الْإِفْكِ⁽¹⁾، والذي كان القصد منه التَّيْلُ مِنْهُ ﷺ وَمِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ الْأَطْهَارِ، وإحداث الفتنة في المجتمع الإسلامي آنذاك، عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «كُنَّا فِي غَزَاةٍ - قَالَ سُفْيَانُ: مَرَّةً فِي جَيْشٍ - فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لِلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لِلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ، قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُتَنَبِّةٌ، فَسَمِعَ بِذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ، فَقَالَ: فَعَلُوهَا، أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، فَبَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: دَعْنِي أَضْرِبَ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: دَعْنِي، لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ، وَكَانَتِ الْأَنْصَارُ أَكْثَرَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ، ثُمَّ إِنَّ الْمُهَاجِرِينَ كَثُرُوا بَعْدَ، قَالَ سُفْيَانُ: فَحَفِظْتُهُ مِنْ عَمْرٍو، قَالَ عُمَرُ: سَمِعْتُ جَابِرًا: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ⁽²⁾ وَمَحَارَبَتِهِمُ لِلنَّبِيِّ ﷺ بِتَأْسِيسِ مَسْجِدٍ ضَرَارَ بَقَرٍ مَسْجِدَ قَبَاءَ، وَالَّذِي كَانَ مِنْ وَرَائِهِ النَّيْلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَتَحْقِيقُ أَهْدَافِهِمُ الْمَاكِرَةَ، فَقَدْ حَاولُوا أَنْ يُؤَسِّسُوا مَسْجِدًا وَيَصَلِّيَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فِيهِ حَتَّى يَرُوجَ لَهُمْ مَا يَرِيدُونَهُ مِنَ الْفَسَادِ وَالْفِكَرِ وَالْعِنَادِ، فَطَلَبُوا مِنْهُ ﷺ الصَّلَاةَ فِيهِ لِيَكُونَ مَسْجِدًا قَدْ بَارَكَهُ النَّبِيُّ ﷺ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَطْلَعَهُ عَلَى حَقِيقَةِ هَذَا الْبِنَاءِ وَعَلَى أَسْرَارِهِمْ وَمَا أَرَادُوهُ مِنْ تَأْسِيسِ هَذَا الْمَسْجِدِ، وَلَوْلَا إِعْلَامُ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ بِهَذَا الْمَخْطُوطِ الْمَاكِرِ لِأَقْبَلِ النَّاسِ يَصَلُّونَ فِيهِ وَاخْتَلَطَ الْمُنَافِقُونَ بِضِعَافِ الْمُسْلِمِينَ، لَيَنْفَرَدُوا بِهِمْ وَقَدْ يُؤَثِّرُونَ عَلَيْهِمُ بِالشَّائِعَاتِ، لِذَلِكَ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِهَدْمِ هَذَا الْمَسْجِدِ، وَإِسْقَاطِ أَيِّ عَمَلٍ يَرَادُ مِنْهُ الْإِضْرَارُ بِالْمُسْلِمِينَ⁽³⁾، وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «قَاتَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُحَارِبَ بْنَ خَصْفَةَ، قَالَ: فَرَأَوْا مِنَ الْمُسْلِمِينَ غَرَّةَ فَجَاءَ رَجُلٌ حَتَّى قَامَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالسَّيْفِ فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: اللَّهُ، فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ السَّيْفَ فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: كُنْ خَيْرَ آخِذٍ قَدَرٍ، قَالَ: أَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي لَا أَقَاتِلُكَ، وَلَا أَكُونُ مَعَ قَوْمٍ يَقَاتِلُونَكَ، فَخَلَّى سَبِيلَهُ. فَجَاءَ أَصْحَابُهُ فَقَالَ: جِئْتَكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرٍ

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، رقم الحديث 4141، ص 1016.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾

إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦١﴾ [المنافقون: 6]، رقم الحديث 4905، ص 1241.

(3) - يُنْظَرُ: إِنَّ كَثِيرَ، الْبَدَايَةُ وَالنَّهَايَةُ، فَصَلْ قِصَّةَ مَسْجِدِ ضَرَارٍ (بيروت: مكتبة المعارف، ط 6، ج 5، 1409 هـ/1988 م)، ص

النَّاسُ»⁽¹⁾ وقصَّته ﷺ مع اليهودي الذي سحره فقابل إساءته بالصَّفح والعفو دون مقابل عن زيد بن أرقم ؓ قال: «سَحَرَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا مِنْ الْيَهُودِ، فَاشْتَكَى لَذَلِكَ أَيَّامًا، فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ ؑ فَقَالَ: إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ سَحَرَكَ، عَقَدَ لَكَ عُقْدًا فِي بَيْتِ كَذَا وَكَذَا، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَخْرَجُوهَا، فَجِئَءَ بِهَا، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَأَنَّمَا تُشْطَطُ مِنْ عِقَالٍ^(*)، فَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ لَذَلِكَ الْيَهُودِيِّ، وَلَا رَأَى فِي وَجْهِهِ^(*) قَطَّ حَتَّى مَاتَ»⁽²⁾ لقد مَلَكَ النَّبِيُّ ﷺ لِمَنْ أَسَاءُوا إِلَيْهِ شَغَافَ قُلُوبِهِمْ، بعفوه وصفحه، وبُحْسَن خَلْقِهِ، ولطف معاملته، حتى دعاهم هذا الخُلُقُ العظيم إلى قبول الحقِّ والدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، وكَفَّ الشَّرَّ عَنْ الْمُسْلِمِينَ، **لقد أظهر منهج النبي ﷺ العاطفي:**

- لا ينتصر لنفسه أبدًا في ما يلقيه من إساءة النَّفْسِ أو المال أو العِرْضِ، بل يقابلهم بالإحسان والمعاملة بالتي هي أحسن.
- كما أظهر عنايته ﷺ بحفْظِ النَّفْسِ وحمايتها، مبيِّنًا بنوعٍ مِنَ الرَّهْبَةِ تغليظ عقوبة المعتدي في النَّارِ، فالإعتداء على النَّفْسِ والإساءة إليها ليس بالأمر الهين، ولا ينبغي أَنْ يسكتَ عليه الدَّاعية حفاظًا على المجتمع وعلى كرامة الإنسان، يقول تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 32].
- جدير بالدَّاعية إلى الله أَنْ يولي عنايته بالنَّفْسِ ليدرك النَّاسَ حقيقة الإسلام بشأنها، خصوصًا وما يشهده الواقع المعاش من تنوُّع أشكال الإعتداء في أفطع صوره.

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرِّقَاع، رقم الحديث 4136، ص 1015، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الخوف رقم الحديث 843، ص 576، وفي جامع المسانيد، لابن كثير، مسند جابر بن عبد الله ﷺ، رقم الحديث 121 (بيروت: دار الكتب العلمية، ج 24، 2012م)، ص 6636.

(*) - عِقَالٌ: أي حل من رباط، وقال ابن الأثير في النهاية: فكأنما أنشط من عقال، وكثيراً ما يجيء في الرواية، فكأنما نشط من عقال، وليس بصحيح (يُنظر: محمَّد يوسف الكاندهلوي، حياة الصَّحابة، المرجع السَّابق، ص 318).

(*) - وَلَا رَأَى فِي وَجْهِهِ قَطَّ: أي ما رأى اليهودي أثر غضب النَّبِيِّ ﷺ في وجهه ﷺ (المرجع نفسه، ص 318).

(2) - أخرجه النَّسائي في سننه، تحقيق: رائد بن صبري إِبْنِ أَبِي علفة، تحريم الدَّم، باب سحرة أهل الكتاب، رقم الحديث 4080 (الرِّيَاض: دار الحضارة للنَّشر والتَّوزيع، ط 2، 1436هـ/2015م)، ص 557. وقال النَّسائي: هذا حديثٌ صحيحٌ، وقال الألباني: هذا حديثٌ صحيحٌ، صحيح الإسناد.

وعليه يتعيّن على الدّاعية الاستفادة من دعوة النّبي ﷺ إلى الأخلاق كالآتي:

- إنّ هدف الأخلاق تحقيق السّعادة في الحياة الفردية والجماعية، ذلك أنّ الحياة الأخلاقية هي الحياة الخيرة البعيدة عن الشُّرور بجميع أنواعها وصورها، فإذا انتشرت الأخلاق انتشر الخير والأمن والأمان الفردي والجماعي، تنتشر الثّقة المتبادلة والألفة والمحبة بين النّاس، وإذا غابت انتشرت الشُّرور وزادت العداوة والبغضاء، وتناصر النّاس من أجل المناصب، والمادة، والشّهوات، فلا بدّ من القيم الأخلاقية الضّابطة لهذه النّوازع، وإلا كثرت الشُّرور التي هي سبب التّعاسة والشّقاء في حياة الأفراد والجماعات، ولهذا قال أحد الأخلاقيين الفرنسيين: إن الحياة من غير قيم - وإن كانت حلوة على الشفاه - فإنّها مرّة على القلوب والنّفوس⁽¹⁾.

- الأخلاق التي أراد النّبي ﷺ ترسيخها وبيانها تلك الأخلاق لا تقتصر على السُّلوك الظّاهري فحسب من أعمال وأقوال وتصرفات، بل تؤخذ بعين الاعتبار النّيّات والمقاصد، بخلاف الدّيانات الأخرى التي يراعي فيها السُّلوك الظّاهري قد يعاقب عليه أوّلاً يعاقب من سرقة أو شرب خمر أو الإضرار بالآخرين لسبب ما...، بينما الأخلاق التي تجسدت في دعوة النّبي ﷺ ودعا إليها، تلك النّابعة من القلب والنّيّة والإخلاص، كالجود ومساعدة الآخرين والصّبر عليهم والتحمّل والشّفقة والرّحمة والتّواضع... فجميعها ليس لغرض منفعة أو مصلحة شخصيّة، بل لمصلحة إنسانيّة وشرعيّة ودينيّة.

- بيّنت الأدلّة الواردة بأنّ الأخلاق من الصّفات التي تثير انتباه النّاس وتؤثّر فيهم، ويدركون بها صلاح الدّاعية أو فساده، فعن كعب الأخبار أنّه قال: «إِذَا أَحْبَبْتُمْ أَنْ تَعْلَمُوا مَا لِلْعَبْدِ عِنْدَ رَبِّهِ، فَانْظُرُوا مَاذَا يَتَّبَعُهُ مِنْ حُسْنِ الثَّنَاءِ»⁽²⁾ والنّاس لا يرون عقيدة الشّخص كما لا يرون عباداته، ولكنّهم باستطاعتهم أن يروا أخلاقه التي تتيح لهم تقييم دينه وإيمانه بناء على تعامله، كما أنّ أيّ مجتمع من المجتمعات لا يسوده السّلام والأمان دون أن تربط بين أفرادها روابط خلقية متينة، ومتى فقدت الأخلاق في مجتمع ما، تفكّك المجتمع وعمّت الشُّحناء والتّصارع.

(1) - مقداد يالجن محمّد علي، علم الأخلاق الإسلامية، المرجع السّابق، ص 8.

(2) - مالك بن أنس، موطأ الإمام مالك، كتاب الجامع، باب ما جاء في حسن الخلق، رقم الحديث 5 (بيروت: دار إحياء الثّراث العربي، ط 1، ج 2، 1406هـ/1985م)، ص 904.

- يقول الدكتور إبراهيم الحاربي: (ينبغي للرجل إذا سمع شيئاً من آداب النبي ﷺ أن يتمسك به)⁽¹⁾ وكانت دعوة النبي ﷺ إلى التمسك بالأخلاق صريحة وواضحة، يجب توفرها عند كل داعية وأي مسؤول في الدعوة إلى الله، خصوصاً ممن ولي الحكم أو المشورة والقيادة، وهو يواجه أصناف الناس، ومن البديهي أن الذي يتصدى للقيادة لو افتقد هذه الخصلة الهامة، وافتقر إلى روح السّماحة وصفة اللين وعامل من حوله بالخشونة والعنف والفظاظة، سيواجه الهزيمة وسرعان ما تصاب مشاريعه وبرامجه بنكساتٍ ماحقة تبّد جهوده وتذري مساعيه أدراج الرياح.

- كما على الدّاعية أن يتخذ الحذر لمراقبة المدعويين له، فإن لاحظوا فيه ما لا يتناسب مع أخلاق الإسلام تصدّوا عنه وابتعدوا ورفضوا دعوته، بل ربّما يعيونه ويناثونه، ومن أجل ذلك يجدر به الاقتداء بالنبي ﷺ المهتدى القدوة العظمى حتّى يلقي الاستجابة والالتفاف الفردي أو الفتوي، ولم لا الجماهيري الذي يثبت فيه الكفاءة والجدارة في جذب الجماهير فيكون أداة لنجاح دعوة الإسلام، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ﴾ [الأحزاب: 21] ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۚ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۚ﴾ [الصف: 2-3].

- الأخلاق وسيلة للنّهوض بالأمة، وذلك أنّ التأريخ يخبرنا أنّ سقوط كثير من الأمم والحضارات كان بسبب إهمال الأخلاق، كما قرر ذلك ابن خلدون وغيره، وقد سئل أحد وزراء اليابان ما سرّ تقدم اليابان هذا التّقدّم؟ فقال الوزير: السرّ يرجع إلى تربيتنا الأخلاقية⁽²⁾.

- أبان النبي ﷺ للدّاعية قضية هامة من قضايا الدّعوة تتعلّق بحقوق المسلمين فيما بينهم، مبرزاً مكانته العميقة وأثرها في القلوب، مشيراً إلى أنّ قوّة الدّاعية في دعوته من خلال التزامه وتشبّثه بالأخلاق النّبيلة وعلى رأسها الحياء، والرّحمة، والمودّة، والعطف، والودّ، وتفعيل أسلوب المشاركة الوجدانية من خلال الإحساس بآلام الناس وهمومهم، ممّا يساهم في بناء جسور المودّة فينشأ عنها دافعية الشّعور الإيجابي نحو الخير والتّضامن، كما يشعّرون بالتّبعية والانتماء إليهم يخشى عليهم كما يخشى على نفسه، ويشعّرون بعدم الاستغناء عنهم كالجسد الذي لا يستغني عن الرأس، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أيّ الناس أحبّ إلى الله؟ وأيّ

(1) - خالد بن جمعة بن عثمان الخزاز، موسوعة الأخلاق، المرجع السابق، ص 30.

(2) - مقداد يالجن محمّد علي، علم الأخلاق الإسلامية، المرجع السابق، ص 9.

الأعمال أحبُّ إلى الله ؟ قال ﷺ: أحبُّ النَّاسِ إلى الله تعالى أنفعهم للنَّاسِ، وأحبُّ الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم أو تكشف كربه أو تقضي عنه ديناً أو تطرد عنه جوعاً، ولأنَّ أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في المسجد شهراً، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظاً، ولو شاء أن يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه رضى يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له، أثبت الله تعالى قدمه يوم تزل الأقدام»⁽¹⁾ فكلما كثر نفع الدَّاعية لمدعوِّيه، كلما ازدادت محبة الله تبارك وتعالى له ومحبة المدعوين له، وكلما نقصت منفعة الدَّاعية لغيره كلما نقصت محبة الله عزَّ وجلَّ له ومحبة المدعوين له، وبهذا نلتمس من الهدي النبوي إلى ما يحوط المجتمع من الكثير من مظاهر الشَّقاق وسوء الظُّنون أحدثت الفرقة واللامبالاة، وضعفت العواطف وقست القلوب وتحجَّرت، والذي لو تعرَّضت له القلوب الخيرة من الأُمَّة لأفقدوها أهمَّ قوى الجذب والإستقطاب في مجتمع إسلامي يطالب أن تشيع في أوساطه قيم التَّكافل والتَّراحم والمودَّة ... فيحفظ ألفتهم ومودَّتهم ويحقق معاني الأخوة بينهم يقول تعالى: ﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْتَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 63].

المبحث الثالث: في مجال الشرائع

عند النَّظر في دعوة النَّبي ﷺ نجدُها شاملة وكافية، فما من موضوع يعالج الحياة الإسلامية إلَّا ولها نصيباً من أحكام الإسلام وشرائعه، فبعد قبول التَّوحيد عرض النَّبي ﷺ شريعة الإسلام بما فيها أركانها الخمس التي لا يصلح حال الأُمَّة إلَّا بتمسُّكها بهذه الأركان، ونظراً لتشعُّب موضوعات الشَّريعة إكتفيتُ بعرض جانباً مهماً فيها وهي العبادات، على غرارِ الموضوعات الأخرى من معاملات وسياسة وقانون وفي أمور الحكم وغيرها كثير نظراً لتشعُّبها، وقبل التَّفصيل في هذا الموضوع أستهلُّ بتقديم مفهوم الشَّريعة وبيان أهميَّتها في الدَّعوة إلى الله.

(1) - أبو القاسم الطَّبراني، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد الله المجيد، عمرو بن دينار، عن ابن عمر، رقم الحديث 13646 (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ط2، ج12، د، ت)، ص 453. وأخرجه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج، تحقيق: مجدي السيّد إبراهيم، رقم الحديث 36 (القاهرة: مكتبة القرآن، د، ط، ج1، د، ت)، ص 45.

المطلب الأول: مفهوم الشريعة وأهميتها في الدعوة إلى الله

أولاً: مفهوم الشريعة

أ - لغة

- يعرفها العلامة الرّازي بالقول: (الشريعة بمعنى الماء، وهي مورد الشاربة، وبمعنى الطريقة يقول تعالى:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجنّة: 18] ⁽¹⁾.

ب - اصطلاحاً

إنّ مفاهيم الشريعة كثيرة ومتعددة عرّفها علماء الفقه والدعوة وفصلوا فيها، فصنّفها البعض إلى معنيين يشملان الشريعة من مفهومها الواسع وهي كالآتي:

- يعرفها الإمام القرطبي رحمه الله بالقول: (هي الأحكام التي شرعها الله لعباده سواء أكان تشريع هذه الأحكام بالقرآن أو بسنة النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير) ⁽²⁾ ويعرفها الدكتور عبد الله ناصح علوان بالقول: (الشريعة الإسلامية هي كل ما جاء به النبي محمد ﷺ عن الله عز وجل، سواء ما يتعلّق بإصلاح العقيدة لتحرير العقل البشري من رقّ الوثنية والخرافات ... أو ما يتعلّق بإصلاح الأخلاق لتحرير الإنسان من زيف الأهواء وفتنة الشهوات وما يتعلّق بإصلاح المجتمع لتحرير الأمة من الظلم والفساد) ⁽³⁾ وفي تعريف آخر لها: (هي توحيد الله بالعبادة وعدم الشرك به، والإيمان به وبرسله وكتبه واليوم الآخر، كما جاء في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ

يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13] فالذي شرع هذا الدين الذي له مقاليد السموات والأرض أودع آثار صفاته العلا في شرعه، فشرع لهم ما شرع لأقوام الأنبياء والرسل عليهم السلام مبيناً قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾ [الشورى: 13] وهو توحيد الله وطاعته والإيمان برسله وكتبه وبيوم الجزاء، وبسائر ما يكون الرّجل بإقامته مسلماً ولم يُرد الشرائع التي هي مصالح الأمم على حسب أحوالها ⁽⁴⁾، يقول العلامة السّعدي رحمه الله: (أمركم أن تقيموا جميع شرائع

(1) - الرّازي، مختار الصحاح، مادّة شرع (بيروت: مكتبة لبنان، د، ط، 1986م)، ص 140.

(2) - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج8، المصدر السّابق، ص 38.

(3) - عبد الله ناصح علوان، محاضرة في الشريعة الإسلامية وفقهها ومصادرها (دار السّلام، ط3، 2007م)، ص 6.

(4) - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج18، المصدر السّابق، ص 451.

الدين أصوله وفروعه، تقيمونه بأنفسكم، وتجاهدون في إقامته على غيركم، وتعاونون على البرِّ والتقوى، ولا تعاونون على الإثم والعدوان، ﴿وَلَا تَنَفَّرُوا﴾ أي: ليحصل منكم الاتفاق على أصول الدين وفروعه، واحرصوا على أن لا تفرقكم المسائل وتحزبكم أحزابا وتكونون شيعة، يعادي بعضكم بعضا، مع اتفاقكم على أصل دينكم⁽¹⁾ وفي تعريف آخر لها: (هي مجموعة من الأوامر والنواهي المكلف بها والمطالب بالتزامها في الأقوال والأفعال والإعتقاد)⁽²⁾ يقول تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الحاثية: 18] وقال: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾ [المائدة: 48] فالله تعالى شرع لكل رسول شرعة على حدى، ففي التوراة شريعة، وفي الإنجيل شريعة، إلى أن بعث النبي محمد ﷺ وهو خاتمهم بشريعة القرآن، فالشرائع مختلفة في الأوامر والنواهي، ماعدا التوحيد الذي لا يقبل الله غيره فلا اختلاف فيه يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَاءِ آتَانَكُمْ﴾ [المائدة: 48] ليختبر عباده فيما شرع لهم أو يثبتهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله⁽³⁾ وفي تعريف آخر لها: (هي اسم للأحكام التي تنظم أمور العباد، وهي بذلك تختلف بناء على ذلك من ملّة إلى ملّة والطريق الذي يؤدي إلى الهداية الإنسانية التي تحيي النفوس وتوقظ القلوب)⁽⁴⁾ وعليه إنطلاقاً من هذه المعاني تبين: أن الشريعة هي ما شرعه الله على عباده من عبادات ومعاملات وأحكام وشرائع وأخلاق.

ثانياً: أهمية الشريعة في الدعوة إلى الله

يحتاج الداعية إلى معرفة موضوعات الشريعة وتطبيقاتها في الدعوة، لأنّه أحوج ما يكون إلى معرفة الشرع وأحكامه وفرائضه ومعاملاته وشعائره التعبّدية وكلّ ما يشتمل عليه من الأعمال الظاهرة التي يتمايز الناس في أدائها، وهي التي جاء بها النبي ﷺ فدعا الناس إلى الالتزام بها لأثرها في تربية النفس وتزكية الروح، في حين لن تصلح الأمة بعدها عن شريعتها الوضّاءة، ولا سبيل للسعادة إلاّ بالتمسك بهذه الشريعة السمحة، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية فوق

(1) - السّعدى، تيسير الكريم الرّحمان في تفسير كلام المتّان، ج1، المرجع السّابق، ص 754.

(2) - الشحات إبراهيم محمّد منصور، مقرر المدخل في الشريعة الإسلامية، مركز التعليم المفتوح بجامعة بنها، برنامج الدّراسات القانونية، 2007م، ص 9.

(3) - بتصرّف: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج3، المصدر السّابق، ص - ص 129، 130.

(4) - الشحات إبراهيم محمّد منصور، مقرر المدخل في الشريعة الإسلامية، المرجع السّابق، ص - ص 11، 12.

حاجتهم إلى كل شيء، ولا نسبة لحاجتهم إلى علم الطب إليها، ألا ترى أن أكثر العالم يعيشون بغير طبيب... وأما الشريعة فمبناها على تعريف مواقع رضا الله وسخطه في حركات العباد الاختيارية، فمبناها على الوحي المحض... فإن ما يقدر عند عدم الشريعة فساد الروح والقلب جملة وهلاك الأبد فليس الناس قطّ إلى من أحوج منهم إلى معرفة ما جاء به النبي ﷺ والقيام به والدعوة الله والصبر عليه⁽¹⁾ فالشريعة مترجمة للعقيدة وثمره من ثمراتها من قبول العبادات والأعمال وتنظيم حياة الناس وشؤونهم يقول الدكتور عمر سليمان الأشقر: (الغاية التي تريد الشريعة الإسلامية تحقيقها هي إقامة العباد على منهج العبودية الصادقة لله، وهذه العبودية الصادقة تؤسس نظام الحياة الإنسانية على المعروفات، وتطهر من المنكرات، والمعروف هو الخير الذي يناسب الفطرة التي فطر الله عباده عليها، والمنكر هو الباطل الذي يصادم فطرة الله التي فطر الناس عليها، والإسلام يريد من العباد أن يجاهدوا دائماً بقصد إقامة هذه الشريعة لإيجاد المجتمع الطاهر الذي تسوده القيم الفاضلة، ويعم فيه المعروف ويبحث منه المنكرات)⁽²⁾.

ثالثاً: تدرُّج النبي ﷺ في الدَّعوة إلى الشَّريعة

يعدُّ التدرُّج⁽³⁾ قاعدة مهمّة في الدَّعوة إلى الله، ومنهجاً من مناهج دعوة النبي ﷺ، بحيث يسهل قبول الدَّعوة بتهيئتها عند تقديمها وعرضها بدءاً بالأهمّ ثمّ المهمّ، مرحلة بمرحلة، بيسر دون تعسير، وعند التَّمعُّن في دعوة النبي ﷺ يجد قاعدة التدرُّج ملازمة لمنهجه الدَّعوي وبالأحرى في موضوعات الشَّريعة، يراعى خلالها حال المدعوين وحاجتهم رحمة وشفقة بهم، لأنّه يصعب إخلاصهم من فكرة أو عادة أو اعتقاد بسهولة، فكان التدرُّج النبوي يسيراً تقبله النفوس دون مشقّة وتدعن إليه، يوضّح ذلك عندما بعثَ معاذاً ﷺ قاضياً وأميراً إلى اليمن، يأمره أن يدعوهم إلى التَّوحيد أولاً قبل الصَّلَاة وقبل غيرها من الأعمال الأخرى، وهذا فيه دلالة على أنّ الدعوة إلى أصل الدِّين في مقدّمة الأوامر، فبعد قبول التَّوحيد من قبل المدعو يعرض الدَّاعية أركان الإسلام مراعيّاً في ذلك أحوال المدعو وما جُبِّلَ عليه من اعتقادات وعادات وأفكار يصعب مفارقتها، تقول السيّدّة عائشة رضي الله عنها فيما أخرجه البخاري: «إنّما نزل أول ما نزل سورة من المفصّل، فيها ذكر الجنّة والنَّار، حتى إذا ثاب الناس

(1) - عمر سليمان الأشقر، الرُّسل والرِّسالات (الكويت: مكتبة النَّفائس، مكتبة الفلاح، ط2، 1403هـ/1983م)، ص 34.

(2) - عمر سليمان الأشقر، خصائص الشَّريعة الإسلامية (الكويت: مكتبة، ط1، 1982م)، ص 26.

(3) - تمّ شرحه سابقاً، يُنظر: ص 271.

إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول ما نزل: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً»⁽¹⁾ وعن أبي هريرة ؓ أَنَّ أَعْرَابِيًّا، جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ، إِذَا عَمَلْتُهُ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، قَالَ: تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا شَيْئًا أَبَدًا، وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُ، فَلَمَّا وَلَّى، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا»⁽²⁾ كان بيان النبي ﷺ للأعرابي عند الإجابة على سؤاله هو تدرجه في الأخذ بالتوحيد أولاً، ثم بالعبادات المفروضة الأولى بالأولى، لأنَّ ترك أولها يطل ما بعدها، وهذا منهج عاطفي سلكه النبي ﷺ في تشريعه للأحكام المفروضة رحمة بالناس وترغيباً لهم في القبول والإقبال عليها طاعة وإنصياعاً، ومن ذلك تدرجه في تحريم الخمر، فاقتضت حكمة النبي ﷺ في دعوة الناس إلى الشريعة أن يتدرج معهم على وجه حتى لا يشق عليهم، بادئاً بالأهم إلى المهم⁽³⁾ وهذا التدرج مطلوب في أي زمان ومكان تقبله النفوس وتنقاد إليه، يذكر العلامة الفقيه محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله حول أسلوب النبي ﷺ في دعوته إلى شريعة الإسلام فيقول: (أرسل محمد - ﷺ - مفضوفاً على الرحمة فكان لينه رحمة من الله بالأمة في تنفيذ شريعته بدون تساهل وبرفق وإعانة على تحصيلها فلذلك يعدّ لينه مصاحباً برحمة من الله أودعها الله فيه، إذ هو قد بعث للناس كافة ولكن اختار الله أن تكون دعوته بين العرب أول شيء لحكمة أرادها الله في أن يكون للعرب هم مبلغ الشريعة للعالم)⁽⁴⁾ ولا بدّ من الإشارة إلى الطريقة التي سلكها النبي ﷺ في الدّعوة إلى أحكام الشريعة بها يركي النفس ويغذي الروح ويقوم الإرادة، فبدأ بفريضة الصلّاة في أول العهد المكّي ثم زادها خمس قبل الهجرة بسنوات، وثنى بالزكاة والصوم في السنة الثانية للهجرة، وختم بالحجّ بعدما ألفت النفوس جميع الشرائع فاطمأنت إلى سلامة أحكامه فأقبلت عليه وانقادت لدعوته طائعة⁽⁵⁾ روى الإمام البخاري في سننه عن طلحة بن عبيد الله ؓ قال: «جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ من أهل نجدٍ ثائر الرأس يُسمع

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، رقم الحديث 4993، ص 639.

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان الذي به يدخل الجنة، رقم الحديث 14، مج 1، ص 27.

(3) - إبراهيم بن عبد الله المطلق، التدرج في دعوة النبي ﷺ، المرجع السابق، ص 61.

(4) - محمد بن إبراهيم الحمد، بحث في الرحمة والعظمة في السيرة النبوية، جامعة القصيم، كلية الشريعة وأصول الدين، قسم العقيدة، 1428هـ، ص 41.

(5) - عبد الله بن محمد الموسى، أسباب نجاح الدعوة الإسلامية في العهد النبوي، المرجع السابق، ص 265.

دويُّ صَوْتِهِ وَلَا نَفَقَهُ مَا يَقُولُ، فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُنَّ؟ قَالَ: لَا، إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَصِيَامُ شَهْرِ رَمَضَانَ، قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟ قَالَ: لَا، إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ، قَالَ: وَذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الزَّكَاةَ، فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: لَا، إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ، قَالَ: فَأَذْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَفَلَحَ إِنْ صَدَقَ»⁽¹⁾ وقد نبّه الإمام القرطبي رحمه الله إلى أسلوب التدرُّج وأثره في دعوة النبي ﷺ بناءً على ما قاله ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: «بعث النبي ﷺ بشهادة أن لا إله إلا الله، فلمَّا صدَّقوه فيها زادهم الصَّلَاةَ، فلمَّا صدَّقوه زادهم الزَّكَاةَ، فلمَّا صدَّقوه زادهم الصَّيَامَ، فلمَّا صدَّقوه زادهم الحجَّ، ثُمَّ أَكْمَلَ لَهُمْ دِينَهُمْ»⁽²⁾ وبناءً على ما تمَّ ذكره بخصوص التدرُّج في دعوة النبي ﷺ نجد ارتكاز ﷺ بعد موضوع العقيدة على موضوع العبادات وطريقته في الحفاظ عليها، وهي جزء من موضوعات دعوته ﷺ، فتعيَّن لي التركيز على موضوع العبادات بغض النظر على الموضوعات الأخرى لكثرتها وتشعبها وهو ما سيكلِّفني صفحات طائلة.

المطلب الثاني: دعوة النبي ﷺ إلى الحفاظ على الصَّلَاة بالمنهج العاطفي

أولاً: مفهوم الصَّلَاة

أ- لغة

- يعرفها العلامة الأصفهاني بالقول: (الدُّعَاء والتَّبرُّك والتَّمجيد)⁽³⁾ ويعرفها العلامة الفيروز آبادي بالقول: (الرَّحْمَةُ وَالِاسْتِغْفَارُ وَحَسَنُ الثَّنَاءِ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَلَى رَسُولِهِ)⁽⁴⁾.

ب- اصطلاحاً

من أكثر العبادات تكرراً فيما فرض الله تعالى هي الصَّلَاة⁽⁵⁾، وهي ركن من أركان الإسلام افتترضت أوّل شيء بعد التَّوْحِيد، وذلك لعظم أهميتها وأثرها الكبير في النَّفْس، ولها شروط وأركان وفرائض وسنن، يقول النبي ﷺ في حديث الإسراء: «فرض الله على أُمَّتِي خمسين صلاة، فرجعت بذلك، حتَّى مررت على موسى، فقال: ما فرض الله على أُمَّتِكَ؟ قلت: فرض خمسين صلاة، قال:

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الزَّكَاةِ مِنَ الْإِسْلَامِ، رقم الحديث 46، المرجع السابق، ص 16.

(2) - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 16، المصدر السابق، ص 264.

(3) - الرَّائِغُ الْأَصْفَهَانِي، مفردات في غريب القرآن، مادّة صلا، المصدر السابق، ص 285.

(4) - الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مادّة صلى، المصدر السابق، ص 1681.

(5) - علي عبد الحليم محمود، فقه الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، المرجع السابق، ص 121.

ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعتة فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى، قلت: وضع شطرها، فقال: راجع ربك، فإن أمتك لا تطيق، فراجعتة فوضع شطرها، فرجعت إليه، فقال: ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعتة، فقال: هي خمس، وهي خمسون، لا يبدل القول لدي...»⁽¹⁾ وكان يقدمها على غيرها في أعماله، يقول الحافظ بن حجر رحمه الله: (كان النبي ﷺ أول ما يشترط بعد التوحيد إقامة الصلاة، لأنها رأس العبادات البدنية، ثم أداء الزكاة لأنها رأس العبادات المالية، ثم يعلم كل قوم ما حاجتهم إليه أمس)⁽²⁾ ويضيف قائلاً: (لم يكلف الناس إلا بالتوحيد فقط ثم استمر ذلك مدة مديدة ثم فرض عليهم من الصلاة ما ذكر في سورة المزمل ثم نسخ ذلك كله بالصَّلوات الخمس لم تكثر الفرائض وتتابع إلا بالمدينة، ولما ظهر الإسلام وتمكّن في القلوب كان كلما زاد ظهوراً وتمكّن ازدادت الفرائض وتتابع)⁽³⁾ فأمر بالحفاظ على الصلاة وصلاة الجماعة، فهي مظهر من مظاهر تعلق العبد بخالقه ومناجاة لله بطلب ما يحتاج إليه العبد مع الشكر والثناء.

ثانياً: أساليب النبي ﷺ وطريقته في الدعوة إلى الصلاة

أ- حب النبي ﷺ للصلاة

الصلاة هي علامة الإسلام ودليله وراحة النفس والقلب، وقرّة العين، ومفزع الدّاعية عندما يحزبه أمر، وهي عماد الدّين وعموده، تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر يقول تعالى: ﴿أَتْلُمَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [٤٥] ﴿[العنكبوت: 45] وقد كان النبي ﷺ مملوء الخشية بالله تعالى موصول الهمّة بعبادته، فكان يقوم بالدعوة ويضيف إلى هذا العمل العظيم التقرب إلى الله تعالى بالصلاة وتلاوة القرآن، وكان يتهجّد بالله على وفق قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [٧٨] ﴿[الإسراء: 79] فقد كان يحب الصلاة حباً لا يمكن وصفه، وكان إذا حزبه أمرٌ صلى وقد جعلت قرّة عينه في الصلاة، وقد علّم أصحابه كيف تصبح الصلاة سلاحاً

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء؟، رقم الحديث 349، ص 55.

(2) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، باب البيعة في الصلاة، ج 2، المرجع السابق، ص 6.

(3) - جواد علي، تاريخ الصلاة في الإسلام (بغداد: مطبعة ضياء، د، ط، د، ت)، ص 22.

لمشكلاتهم وهمومهم وراحة وطمأنينة⁽¹⁾، ولأنها مبنية أساساً على التذلل والخشوع والخضوع والذكر والدعاء، كان يقول لبلال: «يا بلال! أقم الصلوة أرحنا بها»⁽²⁾ وكان يقول ﷺ: «وجعلت قرة عيني في الصلوة»⁽³⁾ وعن علي ﷺ قال: «كان آخر كلام النبي ﷺ الصلوة، إتقوا الله فيما ملكت أيما نكم»⁽⁴⁾ وعن عائشة ﷺ قالت: «إن النبي ﷺ كان إذا لم يصل بالليل منعه من ذلك النوم، أو غلبته عيناه، صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة»⁽⁵⁾ وعن المغيرة بن شعبه ﷺ قال: «صلى رسول الله ﷺ حتى انتفخت قدماه، فقليل له: أتكلّف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً»⁽⁶⁾ لقد كانت الصلوة أولى إهتمامات النبي ﷺ، ولعظم قدرها ورفع شأنها اعتبر تركها كفر وخروج عن ملة الإسلام فقال: «بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلوة»⁽⁷⁾ وعن عبد الله بن شقيق العقيلي ﷺ قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلوة»⁽⁸⁾ وعن ابن شهاب أبا سفيان أخبره: «أن هرقل أرسل إليه، فقال: فما يأمركم يعني النبي ﷺ فقال: يأمرنا بالصلوة والصدقة، والعفاف والصلة»⁽⁹⁾ وعن عتبان ﷺ قال: «أصابني في بصري بعض الشيء، فبعثت إلى رسول الله ﷺ إني أحب أن تأتيني فتصلي في منزلي فأأخذ مصلي،

(1) - علي محمد الصلابي، السيرة النبوية وقائع وتحليل الأحداث، المرجع السابق، ص 113.

(2) - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة، رقم الحديث 4985، ج7، المصدر السابق، ص 338.

(3) - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، كتاب النوم، باب في حق المملوك، رقم الحديث 5156، ج7، المصدر السابق، ص 464.

(4) - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب النوم، باب في حق المملوك، ج5، رقم الحديث 5156، المصدر السابق، ص 359.

(5) - أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الصلوة، باب إذا نام عن صلاته بالليل صلى بالنهار، باب منه 211، رقم الحديث 445، ج1، المصدر السابق، ص 463. وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه مسلم في ضمن حديث طويل.

(6) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب قيام النبي ﷺ الليل حتى ترم قدماه، رقم الحديث 1130، ص 274. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، رقم الحديث 2819، ص 2171. وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب الصلوة، باب ما جاء في الإجهاد في الصلوة، رقم الحديث 412، ج1، المصدر السابق، ص 437. وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(7) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على ترك الصلوة، ج1، رقم الحديث 82، ص 85.

(8) - الحاكم في المستدرک، كتاب الإيمان، ج1، رقم الحديث 11، ص 48، وصحيح الترمذي والتزييب للألباني، كتاب الصلوة، باب التزييب من ترك الصلوة تعمداً، ج1، رقم الحديث 564، ص 227.

(9) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب صلة المرأة أمها ولها زوج، رقم الحديث 5635، ص 2230.

قال: فَأَتَى النَّبِيُّ ﷺ وَمِنْ شَاءَ اللَّهِ مِنْ أَصْحَابِ⁽¹⁾ لَقَدْ فَطَنَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ لِفَائِدَةِ عَظِيمَةٍ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الْكَرِيمِ يَقُولُ: (وَفِيهِ الْبَدَاءُ بِالْأَهَمِّ فَالْأَهَمُّ، فَإِنَّهُ ﷺ فِي حَدِيثِ عَتَبَانَ هَذَا بَدَأَ أَوَّلَ قَدُومِهِ بِالصَّلَاةِ ثُمَّ أَكَلَ)⁽²⁾ فَلَا يَكُلُ وَلَا يَفْتَرُ عَنْهَا.

ب- رَحْمَتُهُ ﷺ فِي الصَّلَاةِ وَبَيَانُ صِفَتِهَا بِأَسْلُوبِ هَيِّنٍ لِيِّنٍ

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَعْلَمُ أَصْحَابَهُ وَأُمَّتَهُ مِنْ بَعْدِهِ طَرِيقَةَ الصَّلَاةِ وَحَسَنَ أَدَائِهَا بِرُؤْيَا وَحِكْمَةٍ وَبِرَحْمَةٍ، لِيَتَذَوَّقُوا حَلَاوَتَهَا مِنْ خِلَالِ التَّائِيِّ وَالْخُشُوعِ وَالْخُضُوعِ، عَنْ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ يَوْمًا وَنَحْنُ مَعَهُ، إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ كَالْبُدَوِيِّ، فَصَلَّى فَأَخَفَتْ صَلَاتُهُ، ثُمَّ أَنْصَرَفَ فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: وَعَلَيْكَ، فَارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تَصَلِّ، فَارْجِعْ فَصَلِّ، ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: وَعَلَيْكَ، فَارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تَصَلِّ، فَفَعَلَ ذَلِكَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، كُلَّ ذَلِكَ يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ فَيَسَلِّمُ فَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: وَعَلَيْكَ، فَارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تَصَلِّ، فَعَاَفَ النَّاسُ^(*) وَكَبَّرَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَخَفِّ صَلَاتِهِ لَمْ يَصَلِّ، فَقَالَ الرَّجُلُ فِي آخِرِ ذَلِكَ: فَأَرِنِي وَعَلِّمْنِي فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَصِيبُ وَأَخْطِئُ، فَقَالَ ﷺ: أَجَلْ، قَالَ: إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تيسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ اِرْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ اجْلِسْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا»⁽³⁾ فَلَمْ يَقْتَصِرْ تَعْلِيمُهُ ﷺ عَلَى فِئَةِ الصَّحَابَةِ بَلْ تَعَدَّتْ دَعْوَتُهُ لِلْجَاهِلِ الَّذِي أَخْطَأَ فِي صَلَاتِهِ، فَبَيَّنَ لَهُ ﷺ صِفَةَ الصَّلَاةِ بِأَسْلُوبِ هَيِّنٍ وَحَكِيمٍ، دُونَ تَضَجُّرٍ أَوْ تَعْنُفٍ، وَأَمَرَهُ بِإِعَادَةِ صَلَاتِهِ عَلَى طَرِيقَتِهِ لِيُشِيرَ فِيهِ عَظَمَ خَطَاؤِهِ، وَأَمَرَهُ بِالطَّمَأْنِينَةِ وَالْخُشُوعِ دُونَ تَسَرُّعٍ، يَقُولُ الْعَلَامَةُ الْفَقِيهَ الْقَاضِي عِيَاضُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَفِيهِ أَنْ أَفْعَالَ الْجَاهِلِ فِي الْعِبَادَةِ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ لَا تَجْزِي، وَهَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالنَّفْيِ نَفْيَ الْإِجْزَاءِ وَهُوَ الظَّاهِرُ وَمِنْ حَمَلِهِ عَلَى نَفْيِ الْكَمَالِ

(1) - النَّوَوِيُّ، صَحِيحُ مُسْلِمٍ بِشَرْحِ النَّوَوِيِّ، كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى التَّوْحِيدِ دَخَلَ الْجَنَّةَ قِطْعًا، ج 1، المَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 217.

(2) - النَّوَوِيُّ، صَحِيحُ مُسْلِمٍ بِشَرْحِ النَّوَوِيِّ، كِتَابُ الْأَمْرِ بِالْإِيمَانِ، قِصَّةُ عَتَبَانَ، ج 1، المَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 245.

(*) - فَعَاَفَ النَّاسُ: كَرِهُوا وَعَظَّمُوا عَلَيْهِمْ ذَلِكَ (يُنْظَرُ: الْمُبَارَكْفُورِيُّ، تَحْفَةُ الْأَحْوَذِيِّ بِشَرْحِ جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ، ج 2، ص 206).

(3) - أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ، كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي وَصْفِ الصَّلَاةِ، ج 2، الْمَصْدَرُ السَّابِقُ، ص 100. وَقَالَ أَبُو عِيْسَى: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ، وَفِي سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ وَهُوَ الْجَامِعُ الصَّحِيحُ، أَبْوَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الصَّلَاةِ، رَقْمُ الْحَدِيثِ 302 (بَيْرُوت: دَارُ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ، ط 1، 2003م)، ص 94، وَقَالَ أَبُو عِيْسَى: هَذَا حَدِيثُ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ التِّرْمِذِيِّ 1/ 95. وَإِنْ جَرَّ الْعَسْقَلَانِيُّ، فَتَحَ الْبَارِي، كِتَابُ مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ، بَابُ أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي لَا يَتِمُّ رُكُوعُهُ بِالْإِعَادَةِ، رَقْمُ الْحَدِيثِ 793، ج 2، المَرْجِعُ السَّابِقُ، ص 277.

تمسك بأنه ﷺ لم يأمره بالإعادة بعد التعليم، فدل على إجزائها وإلا لزام تأخير البيان، كذا قال بعض المالكية، وتعقب بأنه قد أمره في المرة الأخيرة بالإعادة فسأله التعليم فعلمه فكأنه قال له أعد صلاتك على غير هذه الكيفية⁽¹⁾ ولتأمل رحمة النبي ﷺ حتى في عبادة الصلاة والتي هي قرّة عينه، ولذّة فؤاده، فكان لا يشغله عنها شاغل، وعلى الرغم من ذلك يُخفف في أدائها رحمةً بالأُمّ إذا بكى صبيها؛ عن أبي قتادة ﷺ أنه قال: قال النبي ﷺ: «إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها، فأسمع بكاء الصبي فأتجوّز في صلاتي كراهية أن أشقّ على أمّه»⁽²⁾ وفيه دلالة على كمال شفقة النبي ﷺ على أصحابه، ومراعاة أحوال الكبير منهم والصغير، وكان ﷺ من فرط رحمته، يرحم بالمصلّين ولا يريد أن يشقّ عليهم بكثير الصلاة أو قيام، وكان يأمر أصحابه بذلك، يحكي جابر بن عبد الله ﷺ موقفاً للنبي ﷺ فيقول: «أقبل رجل بناضحين وقد جنح الليل فوافق معاذاً يُصلي فترك ناضحه وأقبل إلى معاذٍ، فقرأ بسورة البقرة أو النساء، فانطلق الرجل وبلّغه أن معاذاً نال منه، فأتى النبي ﷺ فشكا إليه معاذاً، فقال النبي ﷺ: يا معاذ أفْتَنَ أنت -أو فاتن ثلاث مرار- فلولا صليت بـ: سُبْح اسم ربّك، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى، فإنّه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة»⁽³⁾ وعن أبي مسعود الأنصاري ﷺ قال: «قال رجل: يا رسول الله لا أكاد أدرك الصلاة ممّا يطوّل بنا فلان، قال: فما رأيت النبي ﷺ غضب في موعظة أشدّ غضباً من يومئذٍ، فقال: أيّها الناس، إنكم منقرون، فمن صلى بالناس، فليخفف، فإنّ فيهم المريض والضعيف وذو الحاجة»⁽⁴⁾، وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «يا أهل القرآن أوتروا، فإنّ الله يحبّ الوتر، فقال أعرابي ما تقول؟ فقال: ليس لك ولا لأصحابك»⁽⁵⁾ صرح النبي ﷺ للأعرابي أنّ الوتر الذي حثّ عليه أهل القرآن

(1) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، كتاب مواقيت الصلاة، باب أمر النبي ﷺ الذي لا يتم ركوعه بالإعادة، المرجع السابق، ص 278.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الآذان، باب من أخفّ الصلاة عند بكاء الصبي، رقم الحديث 707، ص 177.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجماعة والإمامة، باب من شكا من إمامه، رقم الحديث 704، ص 93.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب: الغضب في الموعظة والتعليم، إذا رأى ما يكره، رقم الحديث 90، ص 35.

(5) - أخرجه أبو داود في سننه، تحقيق: رائد بن صبري بن أبي علفة، كتاب الصلاة، باب استحباب الوتر، رقم الحديث 1416، 158. وقال: هذا حديث صحيح، وحسنه الترمذي، وابن ماجه، في كتاب الصلاة، باب ما جاء في الوتر، 370/1. وصحّحه الألباني في صحيح ابن ماجه 193/1.

ليس له ولا لقومه، لأنَّ هذا الأمر يتطلب الإطالة في الصَّلَاة والقراءة ولا يستطيعه إلاَّ الخاصَّة من أصحابه، فجنده ﷺ يعلمهم السُّنن حسب أهمَّيتها وبقدرِ استطاعتهم التي تؤهِّلهم لأدائها.

وقد شملت هذه الرَّحمة أيضًا عند قيامه ﷺ لرمضان، وقد صَلَّى ذات ليلة في المسجد، فصلَّى بصلاته ناس، ثمَّ صَلَّى من القابلة فكثر النَّاس ثمَّ اجتمعوا من اللَّيلة الثَّالثة أو الرَّابعة فلم يخرج إليهم رسول الله ﷺ، فلما أصبح قال: «قد رأيت الذي صنعتُم ولم يمنعني من الخروج إليكم إلاَّ أنَّي خشيت أن تفرض عليكم»⁽¹⁾ وهذا منهج رائع سلكه النَّبي ﷺ حتَّى في العبادات المفروضة، بهدف رفع المشقَّة عليهم، لأنَّه يعلم أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد جعل الأسباب ولا يريد أن يكون هو سبباً لمشقَّة تحدث للمسلمين، ولذلك آثر أن يصلِّي قيام رمضان منفرداً لكي يرحم المسلمين بتقليل الفروض عليهم⁽²⁾.

وفي بيانه وتعليمهم لأوقات الصَّلَاة عن سليمان بن بريدة عن أبيه ﷺ قال: «جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فسأله عن وقت الصَّلَاة، فقال له: صلِّ معنا هذين -يعني اليومين-، فلما زالت الشَّمس أمر بلاً فأذن ثمَّ أمره فأقام الظَّهر ثمَّ أمره فأقام العصر والشَّمس مرتفعة بيضاء نقية ثمَّ أمره فأقام المغرب حين غابت الشَّمس، ثمَّ أمره فأقام العشاء حين غاب الشَّفق، ثمَّ أمره فأقام الفجر حين طلع الفجر فلما أن كان اليوم الثَّاني أمره فأبرد بالظهر فأبرد بها فأنعم أن يبرد بها وصلَّى العصر والشَّمس مرتفعة آخرها فوق الذي كان وصلَّى المغرب قبل أن يغيب الشَّفق، وصلَّى العشاء بعدما ذهب ثلث اللَّيل، وصلَّى الفجر فأسفر بها ثمَّ قال: أين السَّائل عن وقت الصَّلَاة، فقال الرَّجل: أنا يا رسول الله، قال: وقت صلاتكم بين ما رأيتم»⁽³⁾ ومن فرط شفقتة ورحمته بيَّن ﷺ أنَّ الصَّلَاة عبادة يُتوسَّلُ بها إلى الله تعالى لقضاء الحوائج وتفريج الكرب فقال: «من كانت له حاجةٌ إلى الله أو إلى أحدٍ من بني آدمَ فليَتَوَضَّأْ وليُحَسِّنْ وضوءه، ثُمَّ ليُصَلِّ رُكْعَتَيْنِ، ثُمَّ يُثْنِي على الله عزَّ وجلَّ، ويُصَلِّي على النَّبيِّ ﷺ، وليَقُلْ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ، سُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَسْأَلُكَ مَوْجِبَاتِ رَحْمَتِكَ، وَعَزَائِمِ مَغْفِرَتِكَ، وَالْعَصْمَةَ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ، وَالسَّلَامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ»⁽⁴⁾ فكان

(1) - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصَّلَاة، باب تفریع أبواب شهر رمضان، رقم الحديث 1373، ج2، المصدر السَّابق، ص 524. وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ، متَّفَق عليه .

(2) - راغب الحنفي السَّرجاني، الرَّحمة في حياة الرَّسول ﷺ، المرجع السَّابق، ص155.

(3) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصَّلَاة، باب أوقات الصَّلَاة، ج2، ص106.

(4) - أخرجه التَّرمذی في سننه، الجامع الكبير، كتاب الصَّلَاة، أبواب الوتر، باب ما جاء في صلاة الحاجة، رقم الحديث 479، ج1، المصدر السَّابق، ص 489. وقال: هذا حديثٌ غريبٌ، وفي إسناده مقالٌ فأئدُّ بِنُ عبد الرَّحمان يُضَعِّف في الحديث، وفائدٌ هو أبو الزرقاء، وأخرجه ابنُ ماجه، كتاب الصَّلَاة والسُّنَّة فيها، باب ما جاء في صلاة الحاجة، رقم الحديث 1387.

ﷺ إذا أهتم أمر استعان بالله في سجوده، أو في آخر صلاته، ونجده ﷺ قد أحسن تعليم من يجهل الوضوء عندما جاءه أعرابي فسأله عن الوضوء، فأراه ثلاثاً ثلاثاً، ثم قال: هذا الوضوء، فمن زاد على هذا فقد أساء، أو تعدى أو ظلم⁽¹⁾ نرى كيف تعامل النبي ﷺ مع الأعرابي بالتي هي أحسن، مراعاةً لجهله وطبيعته، كونه ليس من صحابته الذين تزودوا من علمه، فأفاده بطريقة عملية، ومحدّره من الاعتداء في الوضوء فجعل له حدّاً لا يتعداه .

ج- ترغيبهم في الصلّاة لسمو منزلتها

دعا النبي ﷺ إلى ضرورة الحفاظ على الصلّاة لفضائلها العظيمة في حياة الدّاعية، والأجر الكبير عند الله تعالى، فهي قوام الروح، ومادة الطمأنينة، تسمو بالدّاعية وترفعه من سفاسف الأمور، إلى معاليها وأشرافها، فقال: «من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً، ولا برهاناً، ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون، وفرعون، وهامان، وأبي بن خلف الجُمحيي»⁽²⁾ يقول العلماء في توجيه الحديث: (من شغله عن الصلّاة ماله، فهو مع قارون، ومن شغله عنها ملكه فهو مع فرعون، ومن شغله عنها رياسته ووزارته فهو مع هامان، ومن شغله عنها تجارتها فهو مع أبي بن خلف)⁽³⁾ وهكذا سعى النبي ﷺ جاهداً في إيقاظ عاطفة أصحابه بأسلوب ترغيبي ليعلمهم مكانة هذه العبادة عند الله تعالى، والإحسان في أدائها، بأن عهد لمن أتى الصلّاة وحافظ عليها بالجنة، ومن تركها فهو في مشيئة الله، ولأن تركها أو الحفاظ عليها يقرّر المصير والثواب، فيقول لهم: «خمس صلوات فرضهنّ الله على العباد من أتى بهنّ لم يضيع شيئاً منهنّ كان له عهدٌ عند الله أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهنّ، فليس له عند الله عهدٌ إن شاء عذبه، وإن شاء رحمه»⁽⁴⁾ يقول الدكتور محمد موسى الشّريف مبيناً أثر العاطفة على الأعمال والعبادات بالقول: (إنّ

(1) - أخرجه ابنُ ماجه في سننه، كتاب الطّهارة، باب ما جاء في القصد في الوضوء، رقم الحديث 422، ج1، ص 146، وأخرجه النسائي، كتاب الطّهارة، باب الاعتداء في الوضوء، 88/1. وصحّحه الألباني في صحيح ابن ماجه، 71/1.

(2) - أبو بكر البيهقي، شعب الإيمان، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، كتاب الصلّاة، فصل في الصلّوات وما في أدائها من الكفّارات، رقم الحديث 2565 (الرياض: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالتعاون مع الدّار السلفية ببومباي، ج4، د، ت)، ص312.

(3) - يوسف القرضاوي، العبادة في الإسلام (القاهرة: مكتبة وهبية، مطبعة المدني، ط24، 1416هـ/1995م)، ص 223.

(4) - أبو بكر البيهقي، شعب الإيمان، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، كتاب الصلّاة، فصل في الصلّوات وما في أدائها من الكفّارات، رقم الحديث 2565 (الرياض: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالتعاون مع الدّار السلفية ببومباي، ج4، د، ت)، ص310 وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ.

إحسان أداء العبادات طريقه إلى أعلى الجنان، وممر إلى رضوان الله ودلالة على حسن الصلة بالله، أما إذا خمدت العاطفة فإنه تكون للعبادة صورة باهتة وعجز وفطور⁽¹⁾ وفيما رواه البيهقي في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ حَافِظَيْنِ يَرْفَعَانِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِصَلَاةِ رَجُلٍ مَعَ صَلَاةٍ إِلَّا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَشْهَدُكُمَا أَنِّي غَفَرْتُ لِعَبْدِي مَا بَيْنَهُمَا»⁽²⁾ تلك هي منزلة الصلاة عند النبي ﷺ، فكانت العبادة الوحيدة التي فرضت ليلة الإسراء والمعراج بخطاب مباشر من الله تعالى إلى نبيه خاتم المرسلين، وفي الوقت الذي كان فيه عليه الصلاة والسلام سفير الله إلى خلقه ليخاطبه بفرض الصلوات الخمس، دليلاً وبرهاناً على سمو منزلتها عند الله تعالى، والتي اعتبر النبي ﷺ تركها كمن أصيب في ماله وأهله فقال: «مَنْ فَاتَتْهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ فَكَأَنَّمَا وَتَرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ»⁽³⁾ وهذا ظاهر العموم في الصلوات المكتوبة عند الحافظ ابن حجر رحمه الله، فدعا إلى المحافظة على صلاة العصر مبيناً مكانتها ومنزلتها من خلال التحذير بأن ما يفوته من الثواب يلحقه عليه من الأسف والحزن مثل ما يلحق من أخذ أهله⁽⁴⁾ وفي هذا أيضاً إيقاظ للعاطفة حيث المرء لا يحب أن يفقد أحداً من أهله ولا ماله، فيستدعي ذلك المحافظة على الصلاة وعدم تفويتها يقول الإمام ابن عبد البر رحمه الله: (إن من لم يحافظ على أوقات الصلاة لم يحافظ على الصلوات كما أن من لم يحافظ على كمال وضوئها وتمام ركوعها وسجودها فليس بمحافظ عليها ومن لم يحافظ عليها فقد ضيعها ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع كما أن من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ولادين له لمن لا صلاة له)⁽⁵⁾ كما رغّبهم ببيان فضائلها والأجر العظيم الذي يُحصّل عليه فقال عليه الصلاة والسلام: «صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ تَفْضُلُ عَلَى صَلَاةٍ أَحَدَكُمُ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً»⁽⁶⁾ وعن أبي بن كعب، قال: صَلَّى بِنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الصُّبْحِ، فَقَالَ: «أَشَاهِدُ فُلَانٌ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «أَشَاهِدُ فُلَانٌ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «إِنَّ هَاتَيْنِ الصَّلَاتَيْنِ ثُمَّ أَنْقُلُ الصَّلَوَاتِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ، وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَيْتُمُوهُمَا وَلَوْ حَبْوًا عَلَى الرُّكْبِ،

(1) - محمد موسى الشريف، العاطفة الإيمانية، المرجع السابق، ص 28.

(2) - أبو بكر البيهقي، شعب الإيمان، كتاب الصلاة، فصل في الصلوات وما في أدائها من الكفارات، رقم الحديث 2563، المرجع نفسه، ص 310.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب إثم من فاتته العصر، رقم الحديث 552، ص 143.

(4) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب إثم من فاتته العصر، رقم الحديث 552، ج 2، المرجع السابق، ص 30.

(5) - سارة بنت عبد الله جمعة البلوشي، فقه الدعوة من أمثال النبي ﷺ، المرجع السابق، ص 159.

(6) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الآذان، باب فضل صلاة الجماعة، رقم الحديث 645، ص 162.

وإنَّ الصَّفَّ الأوَّلَ على مثل صفِّ الملائكة، ولو علمتُم ما فضيلته لا بتدركوه، وإنَّ صلاة الرَّجُلِ مع الرَّجُلِ أَرْكَى من صلاتِهِ وحده، وصلاته مع الرَّجُلَيْنِ أَرْكَى من صلاتِهِ مع الرَّجُلِ، وما كَثُرَ فَوْ أَحَبُّ إلى اللَّهِ تعالى»⁽¹⁾ ولحرص النَّبِيِّ ﷺ على صلاة الجماعة كان يتفقَّد أصحابه، فمن غاب عن الصَّلَاة سأل عنه أين فلان ؟ فلعلَّ فلاناً هذا يكون مريضاً فيعوده أو يدعو له، أو لعلَّ له عذراً فيسأله عن عذره، أو لعلَّه لا يكون له عذر فيعاتبه على ذلك، فأكد على أهميَّة المحافظة على صلاة الفجر والعشاء في جماعة، التي لو يعلم النَّاس الذين تركوها لأتوهما حبواً، مشيراً إلى خطورة من تركها في صنف المنافقين فيقول: «إنَّ أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا»⁽²⁾ أي: يزحفون إذا منعهم مانع المشي كما يزحف الصَّغير⁽³⁾، مشيراً إلى الصَّفة الملازمة للمنافقين وهي التَّثاقل على صلاة الجماعة، وخصوصاً صلاة العشاء والفجر، فحثَّهم حثّاً بليغاً بصورة ملفتة للإنتباه ومثيرة للشَّعور بالألم لمن لم يقدر هذه الصَّلَاة ولم يعطيها حقَّها، فهؤلاء في نعمة لا يحسدون عليها فصلاة الجماعة من نعم الله على عباده، كما دعا إلى الحفاظ عليها بأسلوبٍ مثير وفي صورة رائعة تبعث في نفس المدعو دافع قوي للحفاظ على هذه الصَّلَاة، فكان كلامه واضحاً ومؤثراً يقول الإمام الكرمانى رحمه الله: (لو يعلمون ما فيهما من الفضل والخير ثم لم يستطيعوا الإتيان بها إلَّا حبوا إليهما ولم يفوتوا جماعتهما)⁽⁴⁾.

و حقيقة شعور الدَّاعية بدوره عليه أن يقوم بعرض موضوع الصَّلَاة بأسلوبٍ تحفيزي، ترغَّب النفوس لأدائها رغبةً وحُباً وإقبالاً، يستعين مثلاً بالقصص والأحداث... ويتفقَّد الحاضرين من المصلِّين عند غيابهم والإطمئنان عليهم من باب التَّنصيح والتَّعاون على أمور الطَّاعات والبرِّ والتقوى.

(1) - أخرجه أبو داود في سننه، تحقيق: رائد صبري بُنِّي أي علفة، كتاب الصَّلَاة، باب 48، باب فضل صلاة الجماعة، رقم الحديث 554، ص 77، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ، وقد صحَّحه عليُّ ابنُ المديني وإبنُ الأزد.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب فضل صلاة العشاء في الجماعة، رقم الحديث 657، ص 208، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، ومواضع الصَّلَاة، باب فضل صلاة الجماعة وبيان التَّشديد وفي التخلف عنها، ج 1، رقم الحديث 651، ص 378.

(3) - إبنُ حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب فضل صلاة العشاء في الجماعة، رقم الحديث 657، ج 2، المرجع السَّابق، ص 141.

(4) - إبنُ حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب فضل صلاة العشاء في الجماعة، رقم الحديث 657، ج 2، المرجع السَّابق، ص 141.

وإلى جانب هذا الحرص وهذا الاهتمام بيّن ﷺ فضائها الجليلة فقال في مطلع حديثه ﷺ: «أرأيتم لو أنّ نحرًا بباب أحدكم يغتسل منه كلّ يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس.. يمحو الله بهن الخطايا»⁽¹⁾ أظهر النبي ﷺ الحكمة العظيمة من هذه الصلّة تجلّت عند عنايته بها، فمثل الذي يعد نفسه للصلّة فيصليها، بحال الذي يمرّ ببابه نهر، فهو يغتسل فيه خمس مرات كل يوم، فتكرار الصلوات يمحو الخطايا، كما أنّ تكرار الإغتسال لا يبقى من الدّرن شيئًا، والصلّة فرصة يتوب فيها المخطئ ويصوّب أعماله⁽²⁾ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفّرات ما بينهنّ إذا اجتنب الكبائر»⁽³⁾ في الحديث إثارة العواطف كي تستزيد من أداء هذه العبادة للفضل الكبير الذي أعدّه في جنّات الخلد وتحفيزها لتصل إلى أعلى الدّرجات في الجنّة، وبالمقابل جدير بالدّاعية أن يقتفي أثر النبي ﷺ في إهتمامه بموضوع الصلّة وبقية العبادات بشكل يقبله المدعو، ويؤثر فيه مبيّنًا أثر الصلّة في حياته بأنّها سرّ قوّته ونشاطه ونجاحه، وأنّه محيط بتوفيق الله مكفّرة للذنوب وماحية للآثام.

د- تلّهُف النبي ﷺ للصلّة وبيان أثرها على القلوب

بيّن النبي ﷺ أثر الصلّة في تركية النّفس وإصلاحها، وترقية المشاعر وأحاسيسها، فهي تمدّها بحيويّة هائلة وقوّة نفسية فيّاضة بيّنها في قوله ﷺ: «يعقد الشّيطان على قافية رأس أحدكم، إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب كل عقدة عليك ليل طويل، فأرقد فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضّأ انحلت عقدة، فإن صلّى انحلت عقدة، فأصبح نسيطًا طيّب النّفس وإلاّ أصبح خبيث النّفس كسلان»⁽⁴⁾ يذكر الإمام البيهقي رحمه الله أثرها على الخاشعين فيقول: (كان العلماء إذا قام أحدُهم في الصلّة يهاب الرّحمن أن يُشدّ بصره أو يلتفت أو يعبث بشيء أو يقلّب الحصى أو يُحدّث نفسه

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلّة، باب الصلوات الخمس كفارة، رقم الحديث 528، ص 74.

(2) - يُنظر: شرح النووي على مسلم، كتاب الطّهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفّرات لما بينهن، رقم الحديث 233، ج 5، المرجع السّابق، ص 170.

(3) - النووي، المنهاج في شرح صحيح مسلم شرح النووي على مسلم، كتاب الطّهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفّرات لما بينهن، رقم الحديث 233، المرجع السّابق، ص 257.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب عقد الشيطان على قافية الرّأس إذا لم يصلي، رقم الحديث 1142، ص

مَنْ شَأْنِ الدُّنْيَا إِلَّا نَسِيًّا⁽¹⁾ و يروي ربيعة بن كعب الأسلمي ؓ عن موقف له مع النبي ﷺ فقال: «كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: سل، فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة، قال: أو غير ذلك؟ قلت: هو ذاك، قال: فأعني على نفسك بكثرة السجود»⁽²⁾ يشير إلى أنَّ الصَّلَاةَ والسُّجُودَ تهذب النَّفْسَ وتعين على إصلاحها، فهي أعظم ما يعطي الإيمان، وقد سماها الله تعالى لأجل ذلك إيمانًا بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: 143] أي: صلاتكم، ولمكانتها في قلبه ﷺ كان يسارع إلى أدائها، وكانت أفضل الأوقات عنده يقضيها في الصَّلَاة، لكونها الوقت الذي تهدأ فيه الرُّوح ويستريح بها الجسد وتطمئنُّ بها القلوب وتستجيب الجوارح لخالقها تضرُّعًا وخشوعًا، وكان ﷺ يحنُّ إليها ويتلهَّف عليها وكان يستأنس بها، ومن فرط تلهُّفه كان يقول لبلال ؓ: «يا بلال أقم الصَّلَاةَ أرحنا بها»⁽³⁾ فالراحة من خلال الحديث هي راحة النَّفْسِ والمشاعر والبدن والأركان، وإتيانها يشعِّر المصلِّي وكأنَّ روحه رُذِّت إليه من جديد، وهَمَّتْه وعزيمته شحذت مرَّةً أخرى للعمل والإقبال على الحياة، والصَّلَاةُ كالنَّهر الذي يكون بباب أحد يغتسل منه خمس مراتٍ في اليوم والليَّلة، فلا يبقى من درنه شيء، فهذه طهارة في البدن، وطهارة في الرُّوح، تنهاه عن المنكر فيظلَّ محافظًا على درجة الإيمان في قلبه فيثبتته على ملازمة الخير والطَّاعات يقول الإمام الطَّيِّبِي رحمه الله في المشكاة: (أي: أرحنا بأدائها من شغل القلب وقيل: كان إشتغاله بالصَّلَاة راحة له، فإنَّه كان يعدُّ غيرها من الأعمال الدُّنيوية تعبًا، وكان يستريح بالصَّلَاة لما فيها من المناجاة، ولذا قال: «وقرَّة عيني في الصلاة»⁽⁴⁾ ويحكي سعد بن أبي وقاصٍ ؓ فقال: «سمعتُ سعدًا وناسًا من أصحابِ رسولِ الله ﷺ يقولون: كان رجلانِ أخوانِ في عهدِ رسولِ الله ﷺ وكان أحدهما أفضلَ من الآخر فتُؤيَّي الذي هو أفضلُهم ثُمَّ عَمَرَ الآخرُ بعده أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ تُؤيَّي فذكروا لرسولِ الله ﷺ فَضِيلَةَ الأوَّلِ على الآخرِ

(1) - البيهقي، شعب الإيمان، كتاب الصَّلَاة، فصل تحسين الصلاة والإكثار منها ليلا ونهارا، رقم الحديث 2883، ج4، المصدر السابق، ص 506.

(2) - النووي، المنهاج في شرح صحيح مسلم، كتاب الصَّلَاة، باب فضل السُّجُود والحثُّ عليه، رقم الحديث 489، المرجع السابق، ص 488.

(3) - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة، رقم الحديث 4985، ج7، المصدر السابق، ص 338. وفي سنن أبي داود، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة، كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة، ص 619. وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ.

(4) - محمد القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، كتاب الصَّلَاة، باب القصد في العمل، رقم الحديث 1253، ص 939.

فقال: أَلَمْ يَكُنْ الْآخِرُ يُصَلِّي؟ قالوا: بلى يا رسول الله، وكان لا بأس به، فقال رسول الله ﷺ: «فما يُدْرِيكُمْ ما بلغت به صلاتُهُ، إِنَّمَا مِثْلُ الصَّلَاةِ كَمِثْلِ نَهْرٍ جَارٍ بِبَابِ رَجُلٍ غَمْرٍ عَذْبٍ يَفْتَحُهُمْ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ فما تَرَوْنَ يَبْقَى مِنْ دَرْنِهِ لَا تَدْرُونَ ما بُلِغَتْ بِهِ صَلَاتُهُ»⁽¹⁾ وقد عبّر عنها الشيخ الغزالي رحمه الله بالقول: (بأنّها عبادة واجبة لتعويد المرء أن يحيا في أخلاق صحيحة، وأن يظلّ مستمسكاً بها مهما تغيّرت الظروف فأبان الحكمة من إقامتها)⁽²⁾ يقول تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ

إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

[العنكبوت: 45] فتطهير النفس من سوء القول وسوء العمل هو حقيقة الصلّاة التي يدعو إليها القرآن ويحثّ عليها النبي ﷺ بالحفاظ عليها، وفي حديث قدسي أوضح فيه ﷺ أن الله تعالى يقبل صلاة من تواضع بصلاته لله عزّ وجلّ، ولم يستطع على الناس ويحتقرهم، ويرفع عليهم، ولم يأتي المعاصي ما بدر منها وما بطن، بل إذا فعل معصية فليبادر إلى الله بتوبة نصوح قبل أن يمضي عليه الوقت فيقول عنه: «إِنَّمَا أَتَقَبَّلُ الصَّلَاةَ مِمَّنْ تَوَاضَعَ بِهَا لِعَظْمَتِي، وَلَمْ يَسْتَطِعْ عَلَى خَلْقِي، وَلَمْ يَتَّصِرْ عَلَى مَعْصِيَتِي، وَقَطَعَ نَهَارَهُ فِي ذِكْرِي، وَرَحِمَ الْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالْأَرْمَلَةَ، وَرَحِمَ الْمَصَابِ»⁽³⁾.

وبناء على ما سبق يتعيّن على الدّاعية:

- العناية بموضوع الصلّاة لأهمّها العبادة التي تميّزهم عن غيرهم، ولكونها تعمل على تقوية الصلّة بينه وبين الله تعالى، لذلك عليه أن يحيطها بالخشوع والخضوع والطّمانينة حتّى يلقي بركة في العمر وبركة في دعوته ويلقى التأييد والنصرة من الله تعالى ومنّ الناس.
- على الدّاعية أن يعرض موضوع الصلّاة بأسلوب مؤثّر وتحفيزي، بالاستعانة بالقصص والأحداث والأمثال، وتكثيف جهوده عن طريق المواعظ والخطب والمقالات ونحوها من الوسائل الدعوية.

(1) - البيهقي، شعب الإيمان، كتاب الصلّاة، باب فصل الصلّوات وما في أدائهن، ج4، رقم الحديث 2557، المصدر السابق، ص 304. وقال: هذا حديث مرفوع، وأخرجه أحمد في مسنده، مسند باقي المبشرين بالجنة، مسند أبي إسحاق سعد ابن أبي وقاص، رقم 1452، ج1، ص 71. وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه كما في الترغيب 207/1.

(2) - محمّد الغزالي، حلق المسلم (القاهرة: دار الريان للتراث، ط1، 1408هـ/1987م)، ص8.

(3) - ابن أبي الدنيا، كتاب الخمول والتواضع، باب في التواضع، رقم الحديث 86، ج1، المرجع السابق، ص 116. وعلي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، الإتحافات السنيّة بالاحاديث القدسية، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط وآخر، شرح حديث « إِنَّمَا أَتَقَبَّلُ الصَّلَاةَ مِمَّنْ تَوَاضَعَ »، رقم الحديث 44 (بيروت: دار بن كثير، ج1، د، ط، د، ت)، ص 46.

- معالجته لأخطاء المصلين تكون بحكمة وعقلانية، يوجد العديد من الناس ممن يقعون في أخطاءٍ سواء على أفراد أو مع الجماعة كتسوية الصُّفوف، والإلتفات في الصلاة ...

المطلب الثالث: دعوة النبي ﷺ إلى الصَّيام وبيان فضائله

أولاً: مفهوم الصَّيام

الصَّيام عبادة تجمع اختبار الجسد والروح، وقد فرضها الله على عباده تمحيصاً لحشيتهم وتقواهم، يقول تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183] وهو ركنٌ عظيمٌ من أركانِ الدِّينِ الحنيف، فلا يستقيم بناء الإسلام إلَّا به، ولا يثبت إيمان امرئ إلَّا به⁽¹⁾، فقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «قال رسول الله ﷺ: شهادة أن لا إله إلَّا الله وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ الله، وإقامُ الصَّلَاةِ، وإيتاءُ الزَّكَاةِ، والحُجِّ، وصومُ رمضانَ»⁽²⁾ فبالصَّوم يعضد الإيمان، وترفع الدَّرجات، وتتقوى الأرواح، وتشهد العزائم، تجرِّدًا لله والصَّوم درجات:

- صوم العامَّة: الإمساك عن شهوتي البطن والفرج.
- صوم الخاصَّة: الإمساك عن كل ما يغضب الله.
- صوم خاصَّة الخاصَّة: الإمساك عما سوى الله⁽³⁾.

اعتنى النبي ﷺ بالصَّيام لما فيه من نقاء للروح وتصفية للنفس وشدة قربها من الله عزَّ وجلَّ فقال: «وَأَمَرَكُمُ بالصَّيَامِ فَإِنَّ مِثْلَ ذَلِكَ كَمِثْلِ رَجُلٍ فِي عَصَابَةٍ مَعَهُ صِرَّةٌ فِيهَا مِسْكٌ فَكُلُّهُمْ يَعْجَبُ أَوْ يَعْجِبُهُ رِيحُهَا، وَإِنَّ رِيحَ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ»⁽⁴⁾ علَّم النبي ﷺ أصحابه وأُمَّته الصَّيام وبين فضائله العظيمة بما يتناسب مع حالهم من قولٍ أو عملٍ عند تعليمهم الصَّيام، فعده من أشرف العبادات فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا

(1) - خالد بن عبد الرحمن الجريسي، الصَّوم جنة، سلسلة زاد المؤمن 6، pdf، د، دار نشر، د، ط، 1425هـ، ص 33.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب دُعائكم بإيمانكم، رقم الحديث 8، ص 12. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام، رقم الحديث 16، ص 45.

(3) - علي عبد الحليم محمود، فقه الدَّعوة إلى الله، المرجع السابق، ص 123.

(4) - أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الأمثال، باب ما جاء في مثل الصَّلَاة والصَّيام والصَّدقة، رقم حديث 2863، ج4، المصدر السابق، ص 226. وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ، وذكر حكم الألباني: صحيح.

الصَّيَّامَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَالصَّيَّامُ جُنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمٍ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْثُ وَلَا يَصْنَعُ، فَإِنْ سَابَهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيُقْلِلْ إِنِّي أَمْرُؤُ صَائِمٌ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ»⁽¹⁾.

ثانيًا: مواقف النبي ﷺ وأساليبه في دعوته لعبادة الصَّيَّام

أ- رحمة النبي ﷺ بالناس في أمور الصَّيَّام

كان النبي ﷺ يهتمُ لأُمُور الصَّيَّام، وكان يتعامل معها بمقتضى الرَّحمة، كان لِينًا رَحِيمًا بِأَمَّتِهِ وَأَصْحَابِهِ لدرجة أَنَّهُ لَا يَرِيدُ لَهُمْ أَنْ تَطُولَ مَدَّةُ الصَّيَّامِ عَنِ الْحَدِّ الشَّرْعِيِّ الْمَسْمُوحِ، لِيَحْتَثِمَ عَلَى تَعْجِيلِ الْفِطْرِ حَتَّى لَا يَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَيَقُولُ: «لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ»⁽²⁾ كَمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يَكْتَفِي بِشَرْحِ مَدَّةِ الصَّيَّامِ الْمَطْلُوبَةِ فَقَهِيًّا، وَإِنَّمَا يَمْدَحُ مِنْ عَجَلِ الْفِطْرِ مَعَ أَنَّهُ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يُؤَخِّرَهُ سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ، وَجَعَلَ الْأَجْرَ وَالثَّوَابَ الْأَعْظَمَ لِمَنْ عَجَّلَ الْفِطْرَ لِأَنَّ هَذَا أَدْعَى لِلرَّحْمَةِ، وَمَوْقِفُهُ ﷺ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ ﷺ يَقُولُ: «أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنِّي أَقُولُ: وَاللَّهِ لَا أَصُومَنَّ النَّهَارَ وَلَا قُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عَشْتُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ ذَلِكَ؟ فَقُلْتُ لَهُ: قَدْ قُلْتُهُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَتَمَّ وَقُمْ، وَصُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَإِنَّ الْحَسَنَةَ بَعَشْرَ أَمْثَالِهَا، وَذَلِكَ مِثْلُ صِيَامِ الدَّهْرِ قُلْتُ: فَإِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمَيْنِ، قُلْتُ: فَإِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا، فَذَلِكَ صِيَامُ دَاوُدَ وَهُوَ أَعْدَلُ الصَّيَّامِ، وَفِي رَوَايَةٍ: هُوَ أَفْضَلُ الصَّيَّامِ، فَقُلْتُ فَإِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو ﷺ: وَلَأَنْ أَكُونَ قَبْلُ الثَّلَاثَةِ أَيَّامِ الَّتِي قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي»⁽³⁾ نَلَاخِظُ هُنَا رُوعَةَ الْجِدَالِ بَيْنَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ كَانَ فِي قِمَّةِ الْجَمَالِ، وَالَّذِي تَرَسَّمُ فِيهِ عَاطِفَةُ النَّبِيِّ ﷺ الْفَرِيدَةُ مِنْ نَوْعِهَا، وَهُوَ يَخْشَى عَلَى عَمْرٍو ﷺ عِنْدَمَا طَلَبَ أَنْ يَصُومَ أَكْثَرَ مِنْ صِيَامِ دَاوُدَ قَائِلًا: «إِنِّي أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ» فَكَانَ رَدُّ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي يَغْدُقُ بِالرَّحْمَةِ: «وَلَا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ» فَكَانَ جِدَالًا لِأَجْلِ رَاحَةِ عَمْرٍو ﷺ، لَمَّا فِي زِيَادَةِ الصَّوْمِ وَالْإِفْرَاطِ فِيهِ يَشْكَلُ ضَرَرًا عَلَيْهِ وَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْفَتْحِ -فَتْحُ مَكَّةَ- جَاءَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصَّوْمِ، باب فضل الصَّوْمِ، رقم الحديث 1894، ص 457.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصَّوْمِ، باب تعجيل الإفطار، رقم الحديث 1957، ص 471.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصَّوْمِ، باب صوم الدهر، رقم الحديث 1976، ص 475.

عنها فجلست على يسار رسول الله ﷺ، وأُمُّ هاني رضي الله عنها عن يمينه، فجاءت الوليدةُ بإناء فيه شراب فناولته، فشرب منه، ثم ناوله أُمُّ هاني فشربت منه، فقالت: «يا رسول الله لقد أفطرتُ وكنت صائمة، فقال لها: أكنت تقضين شيئاً؟ قالت: لا، قال: لا يضرك إن كان تطوعاً»⁽¹⁾ ومن صور رحمة النبي ﷺ بأُمَّته أنه رخص لهم الفطر في السفر شفقة ورفقاً بهم، عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: «رأى رسول الله ﷺ رجلاً قد اجتمع الناس عليه، وقد ظلل عليه، فقالوا: هذا رجل صائم، فقال رسول الله ﷺ: ليس البرُّ أن تصوموا في السفر»⁽²⁾ لنظر إلى العاطفة القويّة التي ترسّمت في قلب النبي ﷺ حتّى في العبادة ولا سيما بالصّائمين، كان يراعي فيها الأعمار الصّغار والكبار والمستنّين وجميع الظروف، فلا يرضى لهم العنت والمشقة، فكان سمحاً كريماً رحيماً بهم، هذه المواقف النّاطقة أكّد فيها النبي ﷺ على معنى في غاية الأهميّة، قد يخفى على كثير من الدّعاة، وهو أنّ للدّاعية أخلاق أساليب وواجبات يراعي فيها أحوال النّاس، وبما يتناسب مع حالهم وظروفهم، فلا يشدّد عليهم في تطبيق أحكام الشريعة بما فيها الصّيام.

ب- ترغيب النبي ﷺ في الصّيام

الصّيام مدرسة خلقية فيها يتدرّب الدّاعية على خصال كثيرة كجهاد النّفس والصّبر والنّظام والانضباط، ينمي فيه عاطفة الرّحمة والشّعور بالتّضامن والتّعاون والتّكافل، وقد نسب النبي ﷺ الصّوم إلى الصّبر فقال: «ألا أخبركم بما يُذهب وحرّ الصدر؟ صوم ثلاثة أيامٍ من كلّ شهرٍ»⁽³⁾ وفي رواية أخرى: «لكلّ شيء زكاة، وزكاة الجسد الصّوم، والصّوم نصف الصّبر»⁽⁴⁾ وعدّه من أبواب الخير، حينما قال لمعاذ ﷺ بعد ما أخبره بأركان الإسلام: «ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصّوم جنة

(1) - أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الصّوم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في إفطار الصّائم المتطوع، رقم الحديث 731، ص 356، وأخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصّوم، باب في التّرخصة في ذلك، رقم الحديث 2455، ص 572. وقال: هذا إسنادٌ صحيحٌ.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصّوم، باب قول النبي ﷺ: لمن ظلل عليه واستدّ الحرُّ «ليس من البرِّ الصوم في السفر»، رقم الحديث 1946، ص 468.

(3) - أخرجه النسائي في السنن الصّغرى، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، كتاب الصّيام، باب صوم ثلثي الدّهر وذكر اختلاف النّاقلين للخبر في ذلك، رقم الحديث 2385 (حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، ط2، ج4، 1406هـ/1986م)، ص 208.

(4) - أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، كتاب الصّيام، باب في الصّوم زكاة الجسد، رقم الحديث 1745، ج1، المصدر السّابق، ص 555.

والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل ثم تلا: ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [النَّاسُ: ١٦]»^(١) وعظم شأنه لكونه جنة للمؤمن من جميع الزلاّت والأخطاء، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الصَّيَّامُ جَنَّةٌ وَحِصْنٌ حَصِينٌ مِنَ النَّارِ»^(٢) كل ذلك لأن الصوم لا يأسن بملوثات الرِّياء وشوائبه حينها يُمتنَّ صُورُ الوقاية من النار، بقدر ما يحتمله ويحتسبه من سفاهة الغير ورعونتهم لما تقذف ألسنتهم من حمم الكفر وبراكين السَّبَاب والقذف فيقول عنه النبي ﷺ: «فإن سابه أحدٌ أو شاتمهُ فليقلل إليّ صائم»^(٣) وهذا يسوق إلى تطبيع المجتمع بطابع التسامح والتآخي وصولاً إلى التودُّد والتَّراحم فالتَّعاون فالتَّكافل، وعلى غرار الحديث فإنَّه في وسع الصَّائم أن يقطع دابر الخصام والسَّبَاب برفع قدسيَّة الصَّيام، فلا يليق بمن وصل إلى الحضرة الملائكيَّة أن ينزل بنفسه وروحه إلى سفاسف السَّافلين، عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال ربُّنا: الصَّيَّامُ جَنَّةٌ، يَسْتَجِئُ بِهَا الْعَبْدُ مِنَ النَّارِ وَهُوَ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»^(٤) من كان صيامه لله تكون مكافأته من الله أجزل وأعظم، فالصَّيام يوقظ الضَّمير، ويحيي النُّفوس، ويعطيها فرصة للتَّدريب، كما يمنحها الرَّاحة المثالية للجهاز الهضمي للإنسان خلال شهر رمضان، وتحيي في النُّفوس الشُّعور بمعاناة من يجدون نقصاً في ضرورات الحياة، فيجعله يدرك حقيقة معاناة غيره من الفقراء والمحتاجين، فتولد في نفسه مشاركة الناس وجدانيّاً وعمليّاً، وفي السَّياق نفسه أشار النبي ﷺ بأنَّ الصَّيام حصن حصين، يمنع صاحبه من الوقوع في الشَّتائم فيقول: «الصَّيَّامُ جَنَّةٌ ؛ فَإِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ صَائِمًا، فَلَا يَزِفُّ وَلَا يَجْهَلُ، فَإِنْ أَمْرُؤُ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيُثَلِّ: إِيَّي صَائِمٌ، إِيَّي صَائِمٌ»^(٥) وقال في حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: كل عمل ابن آدم له إلا الصَّيام فإنَّه لي وأنا أجزي به، والصَّيام جَنَّةٌ، وإذا كان يوم صوم

(١) - أخرجه الترمذي في سننه الجامع الكبير، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصَّلاة، رقم الحديث 2616، ج 4، المصدر السابق، ص 362. وقال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، وذكر حكم الألباني: حديثٌ صحيحٌ، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب الصَّلاة، رقم الحديث 2549، ج 4، المرجع السابق، ص 299.

(٢) - الألباني، صحيح التَّرجيب والتَّرهيب، باب التَّرجيب في الصَّوم مطلقاً وما جاء في فضله، رقم الحديث 980، ج 1، المرجع السابق، ص 578.

(٣) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصَّوم، باب هل يقول إِيَّي صائم إذا شتم، رقم الحديث 1904، ص 236.

(٤) - الألباني، صحيح التَّرجيب والتَّرهيب، باب التَّرجيب في الصَّوم مطلقاً وما جاء في فضله، رقم الحديث 981، ج 1، المرجع السابق، ص 578.

(٥) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصَّوم، باب فضل الصَّوم، رقم الحديث 1808، ص 457.

أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن سابه أحدٌ أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم، والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، للصائم فرحتان يفرحهما إذا أفطر فرح وإذا لقي ربه فرح بصومه»⁽¹⁾ ففي الحديث إشارة جليّة لإلتزام الصائم بالأخلاق الكريمة، لأنّه يعيش في ظلّ عبادة عظيمة، فلا يليق به أن يقابل السيئة بالسيئة، فإن سابه أحد أو شاتمه فليعرض عنه قائلاً: «إني صائم مرتين»، وفيها تحذيره من اللغو والرفث وهو الكلام القبيح، وتحذيره من الغيبة ونحوها من كل محرّم شرعاً، فإنّ من ارتكب شيئاً مما ذكر فقد أحبط ثواب صيامه واستحق المقت من الله⁽²⁾ وكما رغب في قيام ليلة القدر مبيّناً فضلها عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدّم من ذنبه، ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدّم من ذنبه»⁽³⁾ وقال عليه الصلّاة والسّلام داعياً إلى فضل صيام يوم في سبيل الله فقال: «من صام يوماً في سبيل الله باعد الله وجهه عن النّار سبعين خريفاً»⁽⁴⁾ ويذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله فضيلة هذه العبادة فقال: (أنّ الحديث أعمّ من هذا كلّّه، فيشمل الجهاد وغيره، وهذا هو المعتمد، والخبر عام، فنحمل الحديث على من صام في الجهاد، ومن صام في أيّ يوم يقصد وجه الله والدار الآخرة باعد الله وجهه عن النّار سبعين عامّاً)⁽⁵⁾ فعده ﷺ من الخصال التي تُدخل الجنّة فقال: «من أصبح منكم اليوم صائماً؟، قال أبو بكر: أنا، قال: فمن تبع منكم اليوم جنازة؟، قال أبو بكر: أنا، قال: فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً؟، قال أبو بكر: أنا، قال: فمن عاد منكم اليوم مريضاً؟، قال أبو بكر: أنا، فقال ﷺ: ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنّة»⁽⁶⁾ وعن سهل رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنّ في

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصّوم، باب هل يقول إني صائم إذا شتم؟، رقم الحديث 1904، ص 459.

(2) - محمود محمد خطاب السبكي، تحقيق: السيّد أمين محمود خطاب (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، ج8، 2007م)، ص 294.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصّوم، باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً وثية، رقم الحديث 1901، ص 458.

(*) - خريفاً: بمعنى الخريف زمان معلوم من السنة والمراد به هنا العام، وتخصيص الخريف عن بقية الفصول لأنّه أركى الفصول اعتدالاً وثماراً، وقال الإمام القرطبي: وذكر السبعين لإرادة التأكيد كثيراً، (ينظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، كتاب الجهاد، باب فضل الصّوم في سبيل الله، رقم الحديث 2840، ج6، المرجع السابق، ص 48).

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الصّوم في سبيل الله، رقم الحديث 2840، ص 703.

(5) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الصّوم في سبيل الله، رقم الحديث 2840، المرجع السابق، ص 48.

(6) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزّكاة، باب من جمع الصدقة وأعمال البرّ، رقم الحديث 1028، ص 456.

الجنة بابا يقال له الرِّيان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل منه أحد غيرهم، يقال أين الصَّائمون؟ فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد»⁽¹⁾ بيَّنت الأحاديث الناطقة عن النَّبيِّ ﷺ فضائل الصَّوم العظيمة وأثرها في حياة الدَّاعية إلى الله فرغبه في الصَّيام من خلال نعم الله في الصَّوم، يكفّر الله بها ما يقع فيه من الخطأ والزَّلل مع من كانت تربطه علاقة به، وحتى تستقرض في قلوبهم المكانة المبوّاة للصَّائمين من لدنه سبحانه، بتكفير الذُّنوب ورفع الدَّرجات، بأسلوب وبطريقة لإلهاب العواطف واستثارها وتحفيزها، كي تستزيد من فضل الله ورحمته.

وعليه يتعيّن على الدَّاعية:

- أن يعنى بموضوع الصَّيام عناية فائقة في دعوته وفي حياته، ويبيّن للمدعوين أسرار العظيمة في تهذيب النَّفس وتربيتها، وتركية الأخلاق وتقويمها، فالنَّبي ﷺ غالباً ما يربط الصَّيام بالأخلاق وبالنَّفس.

- أن يرغّب المدعوين بالصَّيام لما فيه من ربط الصَّائم برَبِّه، فهي عبادة روحية وأخلاقية تنتهي بهم إلى الإيمان والتَّقوى والمبادرة في الأعمال الصَّالحة.

- أن يرغّب المدعوين في الصَّيام بشئ الأساليب والوسائل الدَّعوية، كما كان يرغب النَّبي ﷺ أصحابه، فاستخدم أسلوب الأمثال، والقصة والأحداث، والوعظ ...

المطلب الرابع: دعوة النَّبي ﷺ إلى الحفاظ على الزَّكاة

أولاً: مفهوم الزَّكاة

أ- لغة

- يعرفها العلامة الجرجاني بالقول: (هي النِّماء، والزَّيادة، يقال: زكا الزَّرْع إذا نما وزاد)⁽²⁾ ويعرفها العلامة ابنُ منظور بالقول: (الزَّكاة بمعنى الصَّلاح، قال الله تعالى: ﴿فَارْدُّنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ [الكهف: 81] قيل: صلاحاً، وقيل: خيراً منه عملاً صالحاً، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النُّور: 21] أي: ما صلح منكم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصَّوم، باب الرِّيان للصَّائمين، رقم الحديث 1896، ص 457.

(2) - يُنظَر: الجرجاني، التَّعريفات، باب الرِّاي، المصدر السَّابِق، ص 152.

يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴿[النور: 21] أَي: يصلح من يشاء، وقيل لما يُخرج من المال للمساكين ونحوهم فهو زكاة؛ لأنه تطهير للمال وتثمين له وإصلاح، فالزكاة طهرة للأموال، وزكاة الفطر طهرة للأبدان⁽¹⁾.

ب- اصطلاحاً

- يعرفها الحافظ ابن حجر رحمه الله بالقول: (الزكاة هي النماء في المال، وهي الركن الثالث من الأركان التي بني الإسلام عليها)⁽²⁾ ويعرفها العلامة ابن العربي رحمه الله بالقول: (تطلق الزكاة على الصدقة الواجبة والمندوبة، والتفقة والحق والعفو)⁽³⁾ ويعرفها البيجوري: (الزكاة اسم لمال مخصوص يؤخذ من مال مخصوص على وجه مخصوص، يصرف لطائفة مخصوصة فرضت في السنة الثانية من الهجرة بعد زكاة الفطر، وقيل في غيرها ف قيل الزابعة وقيل قبل الهجرة)⁽⁴⁾ وهي قرينة الصلاة يقول تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: 43] ويقول: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: 83] وفي تعريف آخر لها: (هي طهرة للأموال والأنفس من رذيلة البخل، وتطهير من الذنوب وبركة في الأموال والأنفس)⁽⁵⁾: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: 103] وقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 60] والزكاة كما وصفها الله تعالى زكاة للنفوس وطهارة لها، وتزكية لها من كثير من أمراضها، كما أنها للمال طهارة من كثير من أدوائه وأوجاعه، وأن أخطر أدواء المال وأصعب أوجاعه أن يحبس عن مستحقه⁽⁶⁾ وتسمى أحياناً بالصدقة

(1) - ابن منظور، لسان العرب، باب الواو والياء من المعتل، فصل الزأي، ج14، المصدر السابق، ص 358.

(2) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم الحديث 1397، ج3، المرجع السابق، ص 262.

(3) - المرجع نفسه، ص 262.

(4) - البيجوري، على جوهرة التوحيد حاشية الإمام البيجوري، المرجع السابق، ص 99.

(5) - سعيد بن علي بن وهف القحطاني، الزكاة في الإسلام في ضوء القرآن والسنة (القصص: مركز الدعوة والإرشاد، مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر، ط1، 1407هـ/2008م)، ص 7.

(6) - علي عبد الحليم محمود، فقه الدعوة إلى الله، المرجع السابق، ص 122.

في القرآن الكريم والسنة المطهرة يقول تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَاهُمْ بِسَخَطٍ ﴾ [التوبة: 58].

ثانياً: مواقف النبي ﷺ وأساليبه في دعوته إلى الزكاة

أ- الترهيب لمانعي الزكاة

إنَّ منع الزكاة تعطيل ركن من أركان الإسلام، وقد أمر الله تعالى بها وأمر نبيه بالدعوة إليها، لأنها حقٌّ من حقوق الإنسان بما فيهم الفقراء والمساكين والمحتاجين، يقول تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾ [الزكاة: 24-25] كما لا يخفى أن النبي ﷺ أشار في أحاديث كثيرة عقوبة مانعي الزكاة فقال: «ما من صاحب إبل ولا بقرة ولا غنم لا يؤدِّي حقَّها، إلا أُفْعِدَ لها يوم القيامة بِقَاعٍ قَرْقَرٍ*»، تَطَوُّهُ ذاتُ الظِّلْفِ بِظِلْفِهَا*، وتَنْطَحُهُ ذاتُ القَرْنِ بِقَرْنِهَا، ليس فيها يومئذٍ جماء ولا مكسورة القرن، قلنا: يا رسول الله وما حقُّها؟، قال: إطراقُ فحلِّها، وإعارةُ دلوِّها ومنيحَتُها، وحلبُها على الماء، وحملُ عليها في سبيل الله، ولا من صاحب مالٍ لا يؤدِّي زكَّاته، إلاَّ تحوَّلَ يوم القيامة شجاعاً أقرعاً يتبعُ صاحبه حيثُما ذهب، وهو يفرُّ منه، ويقال: هذا مالُك الذي كنت تبخلُ به، فإذا رأى أنَّه لا بُدَّ منه، أدخل يده في فيه فجعل يفضُّها كما يفضُّ الفحلُ»⁽¹⁾ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يؤدِّ زكَّاته، مثَّلَ له ماله يوم القيامة شجاعاً* أقرعاً* له زبيتان* يطوقه* يوم القيامة ثمَّ يأخذ بلهزمتيه*» - يعني بشدقيه ثمَّ

(*) - بِقَاعٍ: المستوى الواسع من الأرض يملأه ماء السماء فيمسكه وقال الهروي: وجمعه قيعا وقيعان مثل: جار وجيرة وجيران،

قَرْقَرٍ: المستوى أيضا من الأرض الواسعة، (صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب إثم مانعي الزكاة، رقم الحديث 987، ص 680.

(*) - تَطَوُّهُ ذاتُ الظِّلْفِ بِظِلْفِهَا: وهي البقرة والغنم بمنزلة الحافر للفرس (المصدر نفسه، ص 681).

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب إثم مانعي الزكاة، رقم الحديث 988، ص 684.

(*) - شجاعاً: والشُّجاع بالضم والكسر الحية الذكر، وقيل: الحية مطلقا سنن سعيد بن منصور، تحقيق: عبد الله بن عبد العزيز آل حميد (الرياض: دار الصميعي للنشر والتوزيع، ط 1، 1414هـ/1993م)، ص 1130. و(ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، كتاب الزكاة، باب إثم مانعي الزكاة، رقم الحديث 1403، المرجع السابق، ص 270).

(*) - الأقرعُ: هو الحية الذي لا شعر على رأسه قد تمعَّط جلدُ رأسه، لكثرة سمِّه وطول عمره وقال القرطبي: من الحيات الذي ابيضَّ رأسه من السمِّ. (المرجع نفسه، ص 270).

يقول أنا مَالِكُ أنا كنزك ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَاءِ أَنْهَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

﴿١٨٠﴾ [آل عمران: 180]»⁽¹⁾ ظهر حديث النبي ﷺ في صورة تقشعر لها الأبدان من خلال ترهيبه لماعني الزكاة بالعقوبة التي تنتظرهم، فأكد ذلك بتمثيل مؤثّر ومرعب وبصورة تثير المشاعر وتقذف الرّهبة في العاطفة فتحركها نحو التخلص من رذيلة البخل والقضاء على حبّ المال، والشّغف له، فمثله بشجاعٍ أقرعٍ خيفٍ يلتف حول عنق صاحبه يحاجّه ويقاضيه، يقول أبو بكر الصديق ﷺ في هذا: «والله لأقاتلن من فرّق بين الصلّاة والزكاة، فإنّ الزكاة حقّ المال»⁽²⁾ يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (هديه ﷺ في الزكاة أكمل هدي، في وقتها وقدرها ونصابها ومن تجب عليه ومصرفها، وقد راعى فيها مصلحة أرباب الأموال ومصلحة المساكين، وجعلها الله تعالى طهرة للمال ولصاحبه، وقيد النعمة بها على الأغنياء فمازالت النعمة بالمال على من أدّى زكاته بل يحفظه عليه وينميّه له ويدفع عنه بها الآفاق ويجعلها سوراً عليه وحصناً له وحارساً له)⁽³⁾ وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قالت: «قال لي رسول الله ﷺ: إنفحي^(*) أو إنضحي^(*) أو أنفقي ولا تحصي^(*) فيحصى الله عليك ولا

(*) - زَيْبَتَان: تشبة زبيبة بفتح الزاي وموحدتين وهما الزيدتان اللتان في الشّدقين، يقال: تكلم حتى زيد شذقه، أي خرج الزيد منهما، وقيل: هما النكتتان السوداءوان فوق عينيه، وقيل لحمتان على رأسه، مثل القرنين وقيل نابان يخرجان من فيه (المرجع نفسه، ص 270).

(*) - يُطَوَّقُه: بضم أوله، وفتح الواو المشددة، أي يجعل في عنقه كالتطوق..، يصير له الثعبان طوقاً، (المرجع نفسه، ص 270).

(*) - بِالْهَيْزَمَتَيْنِ: بكسر اللام وسكون الهاء بعدها زاي مكسورة، فسر في الحديث بالشّدقين، وهما العظمان الناتئان في اللّحيين تحت الأذنين، وقيل هما لحم الخدين الذي يتحرك إذا أكل الإنسان (المرجع نفسه، ص 207).

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، رقم الحديث 1403، ص 177.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم الحديث 1400، ص 176.

(3) - ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، فصل في هديه ﷺ في الصدقة والزكاة، ج 2، المرجع السابق، ص 5.

(*) - إنفحي: ويُقال لَا يَزَالُ لِفُلَانٍ نَفْحَاتٍ بِالْمَعْرُوفِ يَجْلِسُ إِلَيْهَا أَي عَطَايَا وَفِي الْحَدِيثِ، فَإِنَّ اللَّهَ نَفْحَاتٍ مَنْ فَضْلُهُ يُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَنَفْحُ الرِّيحِ هُبُوبُهَا (أبو نصر الحميدي، تفسير غريب ما في الصّحّاحين، تحقيق: زبيدة محمد سعيد عبد العزيز، القاهرة: منشورات مكتبة السنّة، ط 1، 1415هـ / 1995م)، ص 569.

(*) - إنضحي: أي أعطي، والنّفح والتّضح: العطاء، كِنَايَةٌ عَنِ السَّمَاةِ وَالْإِعْطَاءِ وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ بِرَقْم 1434 (وارضحي ما استطعت) والرّضخ: العطاء أيضاً. (أبو نصر الحميدي، تفسير غريب ما في الصّحّاحين، المرجع السابق، ص 569).

(*) - لَا تَحْصِي: الإفراط في التّقصّي والاستثثار (المرجع نفسه، ص 569).

توعِي (*) فيوعِي الله عليك»⁽¹⁾ وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: «انتهيت إلى النبي ﷺ وهو جالس في ظلِّ الكعبة، فلمَّا رآني قال: هم الأخسرون وربَّ الكعبة، قال: فجئت حتَّى جلست فلم أتكلم» (*) أن قمت، فقلت: يا رسول الله فداك أبي وأُمِّي من هم؟ قال: هم الأكثرون أموالاً، إلّا من قال: هكذا، وهكذا، وهكذا - من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله - وقليل ما هم، ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي زكاتها إلّا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها، كلّما نفدت أخراها عادت عليه أولها حتَّى يُقضى بين الناس»⁽²⁾ أراد النبي ﷺ من خلال الحديث أن يشعر بأهميّة الزكاة وخطر منعها، والتي تعود بالضرر والهلاك الأخروي.

ب- ترغيب النبي ﷺ في الزكاة وعنايته بالصدقة

موضوع الزكاة والصدقة من العبادات التي غني بها النبي ﷺ ورغب أصحابه وأُمَّته من بعده على الالتزام بها، ولا عجب فالزكاة:

- فيها تربية النفس على البذل والعطاء، وإلانة القلب على المحبة والعطف، والقضاء على البخل والشح.

- وفيها إيقاظ للعاطفة والشعور والإحساس بالآخرين، يعبر عنها الشيخ الغزالي رحمه الله بالقول: (بأنّها ليست ضريبة تؤخذ من الجيوب، بل هي أوّلا غرس لمشاعر الحنان والرّأفة، وتوطيد لعلاقات التعارف والألفة بين شتّى الطبقات)⁽³⁾ فمن جملة آثارها تقضي حاجة من اشتدّت بهم ظروف الاحتياج فتقوى بها الروابط الاجتماعية من التكافل والتعاون وقضاء الحوائج، وتحفظ للمجتمع كيانه وروابطه الطيبة، وتوقظ في الناس ما يجب أن يتيقظ فيهم من التعاطف والتّراحم والتكافل، والتي من خلالها تجعل الأمة كلّها جسداً واحداً، وتضع على الموسرين أوزار الإفراط في حبّ المال، فتزكّي

(*) - وَلَا تُوعِي فيوعِي الله عَلَيْكَ، من الإمساك وَالشَّحُّ أَيُّضاً (المرجع نفسه، ص 569).

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الحث على الإنفاق وكراهية الإحصاء، برقم 1029، ص 713. وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة، برقم 1433، ص 348.

(*) - لم أتكلم: أي لم يمكنني القرار والثبات. (صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب تغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة، برقم 990، ص 686).

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب زكاة البقر، رقم الحديث 1460، ص 355. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب تغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة، برقم 990، ص 686.

(3) - محمد الغزالي، خلق المسلم، المرجع السابق، ص 7.

أنفسهم من الآثام ومن أدران النقص والتسامي بالاجتماع إلى مستوى أنبل يقول تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: 103] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «أن أعرابياً سأل رسول الله ﷺ عن الهجرة فقال ﷺ: ويحك! إنَّ شأن الهجرة شديد، فهل لك من إبل؟ قال: نعم، قال: فهل تؤدي صدقتها؟ قال: نعم، قال: فاعمل من وراء البحار فإن الله لن يترك من عملك شيئاً»⁽¹⁾ بيّن النبي ﷺ للأعرابي أنَّ الهجرة أمرها عظيم وشديد لا يقدر عليها كل الناس، إلّا القليل منهم، ثم أرشد إلى عمل دون ذلك يمكن أن يطيقه من الأعمال الصالحة، وهو أقلُّ من الهجرة في تكاليفها، وأهمّ منها شأنًا وهو الزكاة، فإتيان هذه الفريضة شرط على ثبوت الإسلام وقبول الأعمال الصالحة، وفي هذا الأسلوب إيقاظ للعاطفة لكي يوجّه المدعوين إلى الإقبال على الزكاة وإعطائها لمستحقّيها في وقتها دون تأخير، وأنَّ منزلتها كبيرة لا تقلُّ عن منزلة الصلّاة والصيام، وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه: «كنت مع رسول الله ﷺ في سفر فأصبحت يومًا قريبًا منه ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله! أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار؟، قال: لقد سألت عن عظيم، وإنّهُ ليسير على من يسره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلّاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحجّ البيت»⁽²⁾ ولَمَّا بعث معاذًا رضي الله عنه إلى اليمن فقال له ﷺ: «فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وتردُّ على فقرائهم»⁽³⁾ والصدقة هي العطية التي يبتغى بها الثواب عند الله يقول عنها العلامة الرّاجب الأصفهاني: (الصدقة ما يخرجها الإنسان من ماله على وجه القرية كالزكاة، لكن الصدقة في الأصل تقال للمتطوِّع به كالزكاة للواجب، وقد تسمّى الواجب صدقة إذا تحرّى صاحبها الصّدق في فعله)⁽⁴⁾ كما بيّن أهمّيّتها للمسلمين من الأعمال التي تدخلهم الجنة عن أبي أيوب رضي الله عنهم أنَّ رجلاً قال للنبي ﷺ: «أخبرني بعمل يدخلني الجنة، قال: ماله ماله، وقال النبي ﷺ: أربُّ ماله تعبُدُ الله ولا تُشركُ به شيئاً وتُقيم الصلّاة

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب زكاة الإبل، رقم الحديث 1452، ص 183. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب المبايع بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير، ص 1488.

(2) - أخرجه الترمذي في سننه الجامع الكبير، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلّاة، رقم الحديث 2611، ج 4، المصدر السابق، ص 362. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وذكر حُكم الألباني: صحيح.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم الحديث 1395، ص 338.

(4) - الرّاجب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، المصدر السابق، ص 480.

وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ وَتَصِلُ الرَّحِمَ»⁽¹⁾، وعن أبي هريرة ؓ أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله: دلّني على عمل إذا عملته دخلت الجنة؟ قال: تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدّي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان، قال: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا شيئاً أبداً ولا أنقص منه، فلما ولّى قال النبي ﷺ: من سرّه أن ينظر إلى رجلٍ من أهل الجنة فلينظر إلى هذا»⁽²⁾ في الحديثين دلالة على أهميّة العبادات المفروضة، وأنها من موجبات لدخول الجنة، والتي نرى حرص الأعرابي والرجل من خلال سؤالهما: أخبرني بعمل يدخلني الجنة؟، والنبي ﷺ إقتصر على الصلاة والزكاة باعتبارهما يمثلان القمّة والأهمّ بالنسبة لشرائع الدّين، فالصلاة رأس العبادات البدنية، والزكاة رأس العبادات المالية يخرجها المسلم في أيّ مكان.

وإضافة لِمَا سبق جعل لها - الزكاة - ضوابط في حدود الرّحمة والرّأفة واليسر، وللاّقرين أولى بالمعروف، وهو ما وقع مع الرجل الفقير الذي أراد أن يتصدّق فقال: «يا رسول الله، عندي دينار؟ فقال: أنفقْهُ على نفسك، فقال: عندي دينار آخر؟ قال: أنفقْهُ على زوجتك، قال: عندي دينار آخر؟ قال: أنفقْهُ على ولدك، قال: عندي دينار آخر؟ قال: أنفقْهُ على خادمك، قال: عندي دينار آخر؟ قال: أنت أبصر»⁽³⁾ إنّ النبي ﷺ في هذا الموقف يرحم الرجل الفقير الذي لا يملك إلاّ دنائير معدودة، فأمره أن ينفق على نفسه وزوجته وولده وخادمه قبل أن يفكر في الصدقة.

و عليه نستوحي من الحديث إشارتين مهمّتين:

أولاً: حينما قال له: «تصدّق به على نفسك» وتابع استخدام الكلمة تصدّق على الزّوجة والولد والخادم لكي لا يشعر الرجل لغضاضة أو ألم، لأنّه لا يتصدّق بالمعنى الذي يفهمه النّاس وهو التّصدّق على الغريب فأكد له أنّ ما يفعله هذا هو صدقة.

ثانياً: حينما قال له: «أنت أبصر» هنا لا يلزمه بإنفاق الدّينار المتبقّي، فقد يجد له مصرفاً مهمّاً في بيته⁽⁴⁾، والنبي ﷺ لرحمته وحكمته كان يراعي أحوال النّاس حتّى في الصدقة أو النفقة، فدعا للمتصدّق أن يبدأ بنفسه وعياله وأهله إن استوجب عليه ذلك، فإذا فاض عندّه شيءٌ فله أن يتصدّق

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزّكاة، باب وجوب الزّكاة، رقم الحديث 1396، ص 338.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزّكاة، باب وجوب الزّكاة، رقم الحديث 1397، ص 339.

(3) - أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الزّكاة، باب في صلة الرّحم، رقم الحديث 1691، ج 3، المصدر السّابق، 117. وقال: هذا حديثٌ حسنٌ.

(4) - راغب الحنفي السّرجاني، الرّحمة في حياة النبي ﷺ، المرجع السّابق، ص 164.

بعد أن يُعَفَّ نفسه ومَن تَلَزَّمه نَفَقَتُهُمْ، وهذا كله من العواطف الإيمانية والتَّربية النَّبوية التي صدرت من هدي النَّبي ﷺ، وفي موقف آخر للنَّبي ﷺ حدث مع كعب بن مالك ؓ عندما تخَلَّف عن جيش المسلمين الخارج إلى تبوك، فأراد أن يكفِّر عن ذنبه بأن يتصدَّق بكلِّ ماله فقال لرسول الله ﷺ: «يا رسول الله إنَّ من توبتي أن إخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله ﷺ قال: أمسك عليك بعضَ مالك فهو خير لك...»⁽¹⁾ كان خطابُ النَّبي ﷺ لكعبٍ في منتهى الرَّقة والرَّحمة، فهو لا يرضى أن تُتلف أمواله وهو ذو عيال فخشى عليه الفقر والإتلاف، فأشار إلى أمرٍ هامٍ وهو أنَّ مَنْ تصدَّق وهو محتاج أو أهله محتاج أو عليه دين، فالدين أحقُّ أن يُقضى من الصدقة والعق والهبة، وهو ردُّ عليه ليس له أن يتلف أموال الناس فقال ﷺ محذراً له: «من أخذَ أموال الناس يريدُ إتلافها أَتْلَفُه الله إلاَّ أن يكون معروفاً بالصبر فيؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة» كما فعل أبي بكر ؓ حين تصدَّق بماله، وكذلك أثر الأنصار المهاجرين⁽²⁾ فالتَّيَّ ﷺ بهذا الموقف أرحم بكعب من نفسه وعياله، لذلك طلب منه أن يتَّخذ هذا القرار قد يكون له أثراً سلبياً قد يقوده إلى الندم، فأخذ بزمام حال كعب برحمة ورأفة لا مثيل لها، لأنَّه يدرك أبعادها فيما بعد ذلك لذلك منعه، وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «قال رجل: لأتصدقنَّ بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يدٍ سارق، فأصبحوا يتحدثون: تُصدِّق على سارق، فقال: اللَّهُمَّ لك الحمد!، لأتصدقنَّ بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يدي زانية، فأصبحوا يتحدثون: تُصدِّق اللَّيلة على زانية، فقال: اللَّهُمَّ لك الحمد على زانية!، لأتصدقنَّ بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يدي غني، فأصبحوا يتحدثون: تُصدِّق على غني، فقال: اللَّهُمَّ لك الحمد على سارق وعلى زانية وعلى غني!، فأُتي ف قيل له: أمَّا صدقتك على سارق، فلعله أن يستعف عن سرقته، وأمَّا الزَّانية فلعلها أن تستعف عن زناها، وأمَّا الغني، فلعله يعتبر فينفق ممَّا أعطاه الله»⁽³⁾ تضمَّن الحديث قصَّة يرويه النَّبي ﷺ لرجل حرص على بذل العطاء وأخرج صدقته بعيداً عن أعين الناس، فوقع الاطلاع فيها على قبول الصدقة للعلاقة المتينة بين النِّية والصدقة، والصدقة عند هؤلاء مختصة بأهل الحاجة، ولهذا تعجَّبوا من الصدقة للأصناف الثلاثة -السَّارق والزَّاني والغني- فأرجع الحافظ ابنُ حجر رحمه الله إلى قبول هذه الصدقة بنية الاستغفار فقال: (فالجواب أنَّ

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزَّكاة، باب لا صدقة إلاَّ عن ظهر غني، رقم الحديث 1425، ص 347.

(2) - المصدر نفسه، ص 347.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزَّكاة، باب إذا تصدَّق على غني وهو لا يعلم، رقم الحديث 1410، ص 338.

التنصيص في هذا الخبر على رجاء الإستغفار هو الدال على تعدية الحكم فيقتضي ارتباط القبول بهذه الأسباب⁽¹⁾ والحديث يحوي دلالات ومعاني يجدر الإشارة إليها:

- **أولاً:** قبول الأعمال عند الله يكون على قدر النية والإخلاص لقوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»⁽²⁾.

- **ثانياً:** لا يعني أن تقتضي الصدقة أصحاب الحاجة، وإنما قد تكون لفئات أخرى لقصد الإستغفار بنية الإصلاح والتغيير والتحرري بما يخدم الدعوة والمدعوين، وفضل التسليم بالقضاء والصبر على المساوي وعدم التضجر من القضاء، يقول الحافظ بن حجر رحمه الله: (وفيه بركة التسليم والرضا وذم التضجر بالقضاء كما قال بعض السلف: لا تقطع الخدمة ولو ظهر لك عدم القبول)⁽³⁾.

وفي موقف آخر للنبي ﷺ لما بعث معاذاً ﷺ إلى اليمن، دعاه إلى الحث على الزكاة والترغيب فيها قائلاً له: «فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم»⁽⁴⁾ وفي حديث جابر ﷺ: «ليس فيما دون خمس أواق من الورق صدقة»⁽⁵⁾ فتكرّر عناية النبي ﷺ للصدقة لأهميتها الكبرى في الإسلام وفي حماية المجتمع وتقوية أواصر المحبة والتكافل بين أفرادها، فقال -ﷺ-: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب -ولا يقبل الله إلا الطيب- فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يربها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل»⁽⁶⁾ فأشار أن يكون مصدر الشيء الذي سينفق طيباً ومن كسب حلال، وهذا لاشك من معاني الإحسان والرحمة والتعاطف، والنبي ﷺ حريصاً على أمته أن يكون المكسب طيباً ومصدر العطاء طيباً يقصد به وبنية صادقة وجه الله تعالى، فإذا احتل ذلك هذه المعاني يخشى على المنفق أن لا تقبل نفقته، وروى الإمام مسلم أن النبي ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو

(1) - إئني حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب إذا تصدق على غني وهو لا يعلم، رقم الحديث 1421، المرجع السابق، ص 291.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم الحديث 1، ص 9.

(3) - إئني حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب إذا تصدق على غني وهو لا يعلم، رقم الحديث 1421، المرجع السابق، ص 291.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم الحديث 1395، ص 338. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين، رقم الحديث 19، ص 49.

(5) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة، رقم الحديث 1459، ص 362.

(6) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب لا يقبل الله صدقة من غلول ولا يقبل من كسب طيب، رقم الحديث 1410، ص 178.

عَلِمَ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»⁽¹⁾ إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ وَالِدَاعِيَةَ عَلَى السَّوَاءِ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ، صَدَقَةٌ أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صَحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ تَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتٍ، وَإِلَى جَانِبِ مَا ذُكِرَ لَمْ يَغْفُلِ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ حَرَّضَ النِّسَاءَ عَلَى الصَّدَقَةِ وَرَغَّبَهُنَّ حَتَّى أَشْرَعْنَ فِي إِخْرَاجِ مَا لَدَيْهِنَّ مِنْ حَلِيِّ وَمَالٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ عِيدِ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَمْ يَصِلْ قَبْلُ وَلَا بَعْدُ ثُمَّ مَالَ عَلَى النِّسَاءِ وَمَعَهُ بِلَالٌ مَعَهُنَّ فَوَعِظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ بِالصَّدَقَةِ، فَجَعَلَتِ الْمَرْأَةُ تُلْقَى الْقُلُوبَ وَالْخُرُصَ»⁽²⁾ يَلْمَحُ الْحَدِيثُ إِلَى الْخَيْرِ وَالْثَوَابِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَحْصُلُ عَلَيْهِ صَاحِبُ الْعَطَاءِ أَوْ الصَّدَقَةِ، وَمَنْعَهَا تَحَاسِبَ عَلَيْهِ وَيُؤَدِّي إِلَى زَوَالِ الْبَرَكَةِ وَنَفَاذِهَا فَسَمَحَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تَتَصَدَّقَ مِنْ مَالِ زَوْجِهَا، وَالنَّظَرُ إِلَى بَيْتِهَا مُسْتَوْفِيَةِ النِّيَّةِ الطَّيِّبَةِ وَالصَّادَقَةِ حَتَّى لَا تَفْقِدَ أَجْرَ الصَّدَقَةِ فَيَقُولُ - ﷺ -: «إِذَا تَصَدَّقَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ طَعَامِ زَوْجِهَا غَيْرِ مَفْسُودَةٍ، كَانَ لَهَا أَجْرُهَا وَلِزَوْجِهَا بِمَا كَسَبَ، وَلِلْخَازَنِ مِثْلُ ذَلِكَ»⁽³⁾.

ج- رَحْمَةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي إِيْتَانِ الصَّدَقَةِ

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ رَحِيمًا بِالنَّاسِ وَمِنْ فِرْطِ رَحْمَتِهِ يَهْتَمُّ لِأَمْرِ الضُّعْفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، فَأَمَرَ بِهِمْ بِالزَّكَاةِ وَالصَّدَقَةِ، وَقَدْ مَجَّدَهَا ﷺ عِنْدَمَا تَكُونُ عَلَى الرَّحْمِ وَذَوِي الْقَرَابَةِ، مِنْ ذَلِكَ عِنْدَمَا جَاءَتْهُ امْرَأَةٌ بِنُ مَسْعُودٍ ﷺ فَقَالَتْ لَهُ: «يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّكَ أَمَرْتَ الْيَوْمَ بِالصَّدَقَةِ، وَكَانَ عِنْدِي حَلِيٌّ لِي فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِهِ، فَزَعَمَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّهُ وَلَدَهُ أَحَقُّ مَنْ تَصَدَّقَتْ بِهِ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ صَدَقَ ابْنُ مَسْعُودٍ زَوْجُكَ وَوَلَدُكَ أَحَقُّ مَنْ تَصَدَّقَتْ بِهِ عَلَيْهِمْ»⁽⁴⁾ فَعَبَدَ اللَّهُ بِنُ مَسْعُودٍ ﷺ رَجُلٌ فَقِيرٌ وَزَوْجَتُهُ غَنِيَّةٌ، وَفِي عَرَفِ النَّاسِ أَنَّهَا مِنْ الْمُمْكِنِ أَنْ تَسَاعِدَ زَوْجَهَا بِالْمَالِ لَا عَلَى سَبِيلِ الصَّدَقَةِ، وَلَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَرَادَ أَنْ يُلْفِتَ النَّظَرَ إِلَى أَنَّ هَذَا الْعَطَاءَ صَدَقَةٌ عَلَيْهِ، وَلِذَلِكَ أَخَذَ الْفُقَهَاءُ مِنْ هَذَا الْمَوْقِفِ أَنَّ الْمَرْأَةَ يَجُوزُ لَهَا أَنْ تَخْرُجَ مِنْ زَكَاةِ مَالِهَا إِلَى زَوْجِهَا إِنْ كَانَ فَقِيرًا يَسْتَحِقُّ الصَّدَقَةَ⁽⁵⁾، وَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم الحديث 1631، ص 770.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها، رقم الحديث 1431، ص 348.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب أجر الخادم إذا تصدق بأمر صاحبه غير مفسد، رقم الحديث 1437، ص 349.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، رقم الحديث 1462، ص 356.

(5) - راغب الحنفي السرجاني، الترجمة في حياة النبي ﷺ، المرجع السابق، ص 165.

الأنصار بالمدينة مالا من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيْرَحَاء^(*)، وكانت مستقبله المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس رضي الله عنه: فلما نزلت هذه الآية: ﴿لَنَنَالُوا اللَّيْرَ حَتَّىٰ نُنْفِقُوا مِمَّا نَحِبُّ﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَنَنَالُوا اللَّيْرَ حَتَّىٰ نُنْفِقُوا مِمَّا نَحِبُّ﴾ وإن أحب أموالي إليَّ بيْرَحَاء، وإنها صدقة لله أرجو برّها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، قال: فقال رسول الله ﷺ بخ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين، فقال أبو طلحة: افعل يا رسول الله، فقسّمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمّه⁽¹⁾ كما تجلّت رحمته ﷺ بالصدقة على اليتامى والمساكين، فبينما ﷺ جالس ذات يوم على المنبر، والصّحابة حوله قال: «إنما أخاف عليكم من بعدي ما يفتخ لكم من زهرة وذكر الدنيا وزينتها فقال رجل أو يأتي الخير بالشر فسكت عنه رسول الله فقيل له ما شأئك ثكلم رسول الله ولا يكلمك قال ورأينا أن ينزل عليه فأفاق يمسح الرّحضاء، وقال أشاهد السائل: أنه لا يأتي الخير بالشر، وإن مما يثبت الربيع يقتل أو يُلِم إلا أكله الحضر فإنها أكلت حتى إذا امتدت خاصرتها استقبلت عين الشمس فثلّطت ثم بالت ثم رعت، وإن هذا المال خضره حلوه، ونعم صاحب المسلم هو إن أعطى منه اليتيم والمساكين وابن السبيل، وإن الذي يأخذه غير حقّه كالذي يأكل ولا يشبع ويكون عليه شهيدا يوم القيامة»⁽²⁾ فقد كان ﷺ أعظم الناس صدقة بما ملك يده، وكان لا يستكثر شيئا أعطاه لله تعالى، ولا يستقله، وكان لا يسأله أحد شيئا عنده إلا أعطاه، قليلا كان أو كثيرا، وكان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر، وكان العطاء والصدقة أحب شيء إليه، وكان سروره وفرحه بما يعطيه أعظم من سرور الآخذ بما يأخذه، وكان أجود الناس بالخير، يمينه كالريح المرسلة، وكان يقضي الدين عمن مات وعليه دين، ويتكفل بمن مات عائلهم فيتولّى جميع شئوهم من رعاية ونفقات، فقال: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن

(*) - بيْرَحَاء: حائط سمّي به وليس اسم بئر، وقال الصنعاني: بيرحا فيعلى من البراح اسم أرض كانت لأبي طلحة بالمدينة، وأهل الحديث يصحفون ويقولون بئرحا ويحسبون أنّها بئر من آبار المدينة، وهي مستقبله المسجد النبوي أي: مقابلته قرية منه، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها (يُنظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، رقم الحديث 1403، ج3، المرجع السابق، ص 326).

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، رقم الحديث 1461، ص-ص 356، 357.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ليس على المسلم في عبده صدقة، رقم الحديث 1465، ص 384.

تُوْفِّي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَتَرَكَ دِينًا فَعَلِيَّ قَضَائُهُ، وَمَنْ تَرَكَ مَالًا فَهُوَ لَوْرَثَتِهِ»⁽¹⁾ ومع كثرة ما أعطاه الله كانت مسؤولياته ﷺ تجاه أُمَّتِهِ ومصالحها العامة والخاصة أعظم، وبذُله ونفقائه في ذلك أكثر من دخله، فكان يُعْطِي عَطَاءً مَنْ لَا يَخْشَى الْفَقْرَ ، كما وصفه أعرابي بذلك لقومه ، يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «مَا سَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ، وَلَقَدْ جَاءَهُ رَجُلٌ، فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا قَوْمُ أَسْلِمُوا؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً مَنْ لَا يَخْشَى الْفَقْرَ»⁽²⁾ وعليه يتعين على الداعية:

- أن يسعى إلى بلوغ الغايات النبيلة والأهداف اللطيفة لهذه الفريضة من خلال تفعيل المشاركات الوجدانية في صور التكافل والتعاون بين الأغنياء والفقراء ومن هم أحقُّ بالزكاة، وهذه خصيصة نبيلة من خصائص الإسلام وميزاته العظيمة، يَطْرُقُ العواطف ويُثِيرُ الأحاسيس تجاه ذوي الحاجات والمعوزين.

- كما عليه العناية بموضوع الزكاة بشكلٍ جدِّيٍّ، خصوصًا في عصرٍ تكالبِ النَّاسِ على المالِ فأصبح همُّهم الوحيد وشُغْلُهُمُ الشَّاعِلُ التَّكَاثُرُ في المال والعمران.

المطلب الخامس: دعوة النبي ﷺ إلى بيان أحكام الحج

أولاً: مفهوم الحج

أ- لغة

- يعرفه العلامة الجرجاني بالقول: (هو القصد إلى الشيء المعظم)⁽³⁾.

ب- اصطلاحاً

- يعرفه الدكتور علي عبد الحليم محمود بالقول: (الحجُّ قصدٌ لله بكلِّ عملٍ من أعمال الحجِّ، بدءاً بالنية وانتهاءً بآخر المناسك فيه، وذلك لمن استطاع إليه سبيلاً)⁽⁴⁾، وفي تعريف آخر له: (هو الركن الخامس من الأركان التي بني عليها الإسلام، والحجُّ هو معلوم فرض بإجماع المسلمين مرّة واحدة في

(1) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفرائض، باب من ترك مالا فلورثته، رقم الحديث 1619، ص 1237.

(2) - تمَّ تحرجه سابقاً، يُنظر صفحة 141.

(3) - الجرجاني، معجم التعريفات، باب الحاء، (القاهرة: دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، د، ط، د، ت)، ص 73.

(4) - علي عبد الحليم محمود، فقه الدعوة إلى الله، المرجع السابق، ص 124.

العمر على المستطيع، وفرض كفاية على المسلمين كل عام، وما زاد على حج الفريضة فهو تطوع⁽¹⁾ يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: 97] عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «أَهْلَلْنَا أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْحَجِّ خَالِصًا، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ، قَالَ فِيهِ فَقَالَ سُراقَةُ بْنُ مَالِكٍ: مُتَعَتْنَا هَذِهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَعَمَنَّا هَذَا أَمْ لِلْأَبَدِ؟ قَالَ: لَا بَلْ لِلْأَبَدِ»⁽²⁾ وَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِلًا: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَكُلَ عَامٍ؟ فَسَكَتَ عَنْهُ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَكُلَ عَامٍ؟ فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجِبَتْ، وَلَوْ وَجِبَتْ لَكُفِرْتُمْ، وَلَمَّا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَاتَّبِعُوهُ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَانْتَهُوا عَنْهُ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ اخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَكَثْرَةُ سَوَالِهِمْ، أَلَا وَإِنَّمَا هِيَ حَجَّةٌ وَعُمْرَةٌ، فَمَنْ قَضَاهُمَا فَقَدْ قَضَى الْفَرِيضَةَ فَمَا أَصَابَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ تَطَوُّعٌ»⁽³⁾ بَيَّنَّ النَّبِيُّ أَنَّ الْحَجَّ مِنْ أَحَبِّ الْأَعْمَالِ عِنْدَهُ وَأَفْضَلُهَا، وَذَلِكَ لِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ الْعَمِيمِ لِلأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَةٍ عَلَى مَارَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَاكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعُمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: 28].

ثانيًا: أساليب النبي ﷺ ومواقفه عند دعوته إلى عبادة الحج

أ- رحمة النبي ﷺ في الحج

ومن رحمته تعالى فرضه مرة واحدة في العمر كله، وهذا تيسير عظيم وتقدير لظروف الناس وقدرتهم على أدائها، ومع هذه الرحمة الإلهية كان النبي ﷺ يتعامل مع هذا الأمر برحمته المعهودة لَمَّا وَقَفَ يَوْمًا يَخْطُبُ فِي النَّاسِ فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا ... شَيْءٌ

(1) - مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْأَمِيرِ الصَّنْعَانِي، هَدْيُ الْمُصْطَفَى ﷺ فِي حَجَّةِ الْوُدَّاعِ (دمشق: دار المأمون للتراث، ط1، 1430هـ)، ص19.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب بيان وجوب الإحرام، رقم الحديث 1216، ص 883. وأخرجه في البيهقي السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، كتاب الحج، باب وجوب الحج مرة واحدة، رقم الحديث 8616 (بيروت: دار الكتب العلمية، ط3، ج 4، 1424هـ/2003م)، ص 534.

(3) - رواه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، باب 73، رقم الحديث 1337، ص 608. وأخرجه أبو بكر البيهقي، السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، كتاب الحج، باب وجوب الحج مرة واحدة، رقم الحديث 5615 (بيروت: دار الكتب العلمية، ط3، ج 4، 1424هـ/2003م)، ص 533.

فدعوه»⁽¹⁾ ومن دلائل رحمته ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ وقف على راحلته فطفق ناس يسألونه فيقول القائل: منهم يا رسول الله ﷺ إني لم أكن أشعر أن الرمي قبل النحر فنحرت قبل الرمي، فقال رسول الله ﷺ: فازم ولا حرج، قال: وطفق آخر يقول: إني لم أشعر أن النحر قبل الحلق فحلقت قبل أن أنحر، فيقول: إنحر ولا حرج، قال: فما سمعته يسأل يومئذ عن أمر مما ينسى المرء ويجهل من تقديم بعض الأمور قبل بعض وأشباهها إلا قال رسول الله ﷺ: إفعلوا ذلك ولا حرج»⁽²⁾ وعمت رحمة النبي ﷺ أيضًا بالحجاج، يوم نام في المزدلفة من بعد وصوله، وصلاته للمغرب والعشاء جمعًا، وذلك إلى صلاة الفجر، ولم يرد عنه أنه صلى هذه الليلة قيامًا ولا صلى وترًا، وهذا من رحمته ﷺ بأمتيه، فهو يعلم مدى المشقة التي كانت في يوم عرفة، والدفع من عرفة إلى المزدلفة، فأراد أن تكون سنته التي يقلده فيها من في المزدلفة هي النوم الهادئ المريح غير المقطوع باستيقاظ أو صلاة⁽³⁾ ويوم أنه ﷺ أذن للضعفاء أن يتركوا المزدلفة ليلاً قبل الفجر، لكي يدركوا الجمرات قبل الإزدحام، تقول عائشة رضي الله عنها: «نزلنا المزدلفة فاستأذنت النبي ﷺ سودة أن تدفع قبل حطمة الناس، وكانت امرأة بطيئة فأذن لها، فدفعت قبل حطمة الناس، وأقمنا حتى أصبحنا نحن ثم دفعنا بدفعه فلأن أكون استأذنت رسول الله ﷺ كما استأذنت سودة أحب إلي من مفروح به»⁽⁴⁾ يذكر الدكتور راغب الحنفي السرجاني دواعي رحمة النبي ﷺ فيقول: (ثم إن رسول الله ﷺ فعل أمرًا عظيمًا في غاية الشفقة والرحمة، وهو أنه حج مرة واحدة في حياته، برغم الفرس التي أتحت له، إلا أنه أراد أن يكون قدوة لأمتيه في الحج مرة واحدة في العمر، وأن يرفع الحرج عن عموم المسلمين، وذلك شفقة ورحمة بهم، فلو حج مرتين مثلاً، لأراد المسلمون أن يقتدوا به في عدة مرات حجّه، وبالتالي يصبح هذا مشقة عليهم وهو ما يرفضه عليه الصلاة والسلام، ومن ثم اختار أن يحج مرة واحدة مع شوقه إليه)⁽⁵⁾.

(1) - النووي، شرح النووي على مسلم، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، رقم الحديث 1337 (بيت الأفكار الدولية، د، ط، د، ج، د، ت)، ص 837.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب الفتيا وهو واقف على الدابة وغيرها، رقم الحديث 83، ص 33، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب من حلق قبل النحر أو نحر قبل الرمي، رقم الحديث 1306، ص 948.

(3) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم الحديث 1218، ص 891.

(4) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب من قدم ضعة أهله بليل فيقفون بالمزدلفة ويدعون ويقدم إذا غاب القمر، رقم الحديث 1681، ص 406، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب استحباب تقديم دفع الضعة من النساء وغيرهن من مزدلفة إلى مي، رقم الحديث 1290، ص 939.

(5) - راغب الحنفي السرجاني، الرحمة في حياة النبي ﷺ، المرجع السابق، ص 168.

ثانيًا: تعليم النبي ﷺ أصول مناسك الحج برفق و إحسان

كانت دعوة النبي ﷺ إلى أداء مناسك الحج، بإتباع سنته في أداء هذه الفريضة، فكانت بأسلوبٍ وعظيٍّ لِيِّنٍ: «لتأخذوا مناسككم فإِنِّي لَا أدري لعلِّي لَا أحجُّ بعد حجَّتِي هذه»⁽¹⁾ وبطريقة مؤثرة نلتهمس مسحة عاطفية من لَدُن النَّبِيِّ ﷺ بعبارة هيَّجت الأعين فذرقت دموعًا من المآقي فرطًا في حُبِّهِ ﷺ، ممَّا زاد الصَّحَابَةَ - رضوان الله عليهم - حرصًا منهم أَنْ يأخذوا مناسك الحج بالحزم والعزم، وكان النَّبِيُّ ﷺ يردُّ كلمة مؤثِّرةً وبكثرةٍ «خذوا عَنِّي مناسككم» فعن جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يرمي على راحلته يوم النَّحْرِ ويقول: لتأخذوا مناسككم فإِنِّي لَا أدري لعلِّي لَا أحجُّ بعد حجَّتِي هذه»⁽²⁾ والتَّلبِيَةُ هي الأخرى يرفع بها الحاجُّ في الحج وهي تدلُّ على صفاء العقيدة ونقاها، جعلها النَّبِيُّ ﷺ من المفردات التي علَّمها أمته: كقوله: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ إِنَّ الْحَمْدَ وَالنَّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكُ لَا شَرِيكَ لَكَ»⁽³⁾ هذه الكلمات تحمل بين جوانبها إقرارًا تامًا بالعبودية لله تعالى وتوحيده سبحانه وتعالى، وتنزيهه عن كلِّ ما لا يليق بجلاله عزَّ وجلَّ، وهذا من أعظم الإحسان مع الله عزَّ وجلَّ، بخلاف ما كان المشركون يفعلونه من الشُّرك بالله تعالى حتَّى في كلمات التَّلبِيَةِ كما روى ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، قال: فيقول رسولُ الله ﷺ: وَيَلْكُمُ قَدْ قَدْ، فيقولون: إِلَّا شَرِيكًا هو لك تَمْلِكُهُ وما ملك، يقولون هذا وهم يطوفون بِالْبَيْتِ»⁽⁴⁾ يقول الإمام النَّوَوِي معلقًا على قول النَّبِيِّ ﷺ: «قَدْ قَدْ، قَالَ الْقَاضِي: كفاكم هذا الكلام فافتصروا عليه ولا تزيدوا، وهنا إنتهى كلام النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ عاد الراوي إلى حكاية كلام المشركين فقال: إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لك... إلى آخره، معناه: أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ هذه الجُمْلَةَ، وكان النَّبِيُّ ﷺ يقول: افْتَصِرُوا على قَوْلِكُمْ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ»⁽⁵⁾ والدَّاعِيَةُ تبع لهدي النَّبِيِّ ﷺ لتحقيق

(1) - رواه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب 51، باب إستحباب رمي جمرة العقبة يوم النَّحْرِ رَاكِبًا وبيان قوله ﷺ « لتأخذوا مناسككم »، رقم الحديث 1297، ص 598.

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب إستحباب رمي جمرة العقبة يوم النَّحْرِ رَاكِبًا، رقم الحديث 1297، ص 943.

(3) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب التَّلبِيَةِ، رقم الحديث 1949، ص 377.

(4) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب التَّلبِيَةِ وصفتها ووقتها، رقم الحديث 1184، ص 841.

(5) - النَّوَوِي، شرح النَّوَوِي صحيح مسلم، كتاب الحج، باب التَّلبِيَةِ وصفتها ووقتها، رقم الحديث 1185، مج 3، المرجع السابق، ص 266.

الغاية التي رسمها الله ونبيه ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»⁽¹⁾ فيسعى إلى بيان أحكامها ومناسكها والحث عليها لأهل الإستطاعة والقدرة، فالحجُّ مَنْ أَحَبَّ الأَعْمَالِ قُرْبَةً لِلَّهِ تَعَالَى، ولأنَّ الْحَجَّ لَيْسَ مَعْرُوفًا عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ كَالصَّلَاةِ وَالصَّيَامِ، فَقَدْ كَانَ ﷺ يَعْلَمُ أَصْحَابَهُ الْمَنَاسِكَ بِرَفْقٍ وَبِرَحْمَةٍ، وَكَانَ يُقْبَلُ بِتَغْيِيرَاتٍ فِي تَرْتِيبِ مَنَاسِكَ الْحَجِّ وَلَا يَلُومُ فَاعِلِيهَا، مَنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنُ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَفَ عَلَى رَاحِلَتِهِ فطَفِقَ نَاسٌ يَسْأَلُونَهُ فَيَقُولُ الْقَائِلُ مِنْهُمْ: «كَنتَ أَحْسَبُ أَنَّ كَذَا قَبْلَ كَذَا، حَلَقْتَ قَبْلَ أَنْ تُحْرِمَ، نَحَرْتَ قَبْلَ أَنْ أُرْمِيَ... وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِفْعَلْ وَلَا حَرَجَ، لَمْ يَكُنْ كُلُّهُمْ فَمَا سَأَلَ يَوْمئِذٍ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا قَالَ: إِفْعَلْ وَلَا حَرَجَ»⁽²⁾، وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَعْمَرَ الدَّيْلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «شَهِدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ وَقَفَ بِعُرْفَةٍ وَأَتَاهُ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ الْحَجُّ؟ قَالَ: الْحَجُّ عُرْفَةٌ، فَمَنْ جَاءَ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ لَيْلَةَ جَمْعٍ فَقَدْ تَمَّ حَجُّهُ أَيَّامَ مَنَى ثَلَاثَةً، فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ، وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَرْدَفَ رَجُلًا خَلْفَهُ فَجَعَلَ يَنَادِي بِهَيَّ»⁽³⁾ وَعَنْ عُرْوَةَ بْنِ مُضَرَّسٍ الطَّائِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِالْمَوْقِفِ يَعْنِي بِجَمْعٍ، قُلْتُ: جِئْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ جَبَلِ طَيْءٍ أَكَلْتُ مَطْيِي وَأَتَعَبْتُ نَفْسِي وَاللَّهِ مَا تَرَكْتُ مِنْ جَبَلٍ إِلَّا وَقَفْتُ عَلَيْهِ فَهَلْ لِي مِنْ حَجٍّ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ أَدْرَكَ مَعْنَا هَذِهِ الصَّلَاةِ وَأَتَى عُرْفَاتٍ قَبْلَ ذَلِكَ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَقَدْ تَمَّ حَجُّهُ وَقَضَى تَقْتَةً»⁽⁴⁾ وَكَانَ ﷺ أَرْحَمَ الْخَلْقِ وَأَسْهَلَهُمْ وَالْيَنَهِمُ عَرِيكَةً، فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حِينَ حَاضَتْ وَهِيَ مُحْرِمَةٌ، قَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: «إِصْنَعِي مَا يَصْنَعُ الْحَاجُّ، غَيْرَ أَنْ لَا تَطُوفِي وَلَا تَصَلِّي»⁽⁵⁾ وَلَمَّا قَالَتْ لَهُ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، أِيرْجِعُ النَّاسَ بِأَجْرَيْنِ

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصُّلح، باب 5، باب إذا اصطَلَحُوا عَلَى صَلَاحٍ جَوْرٍ فَالْصُّلَحُ مَرْدُودٌ، رقم الحديث 2697، ص 336.

(2) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب الفتيا وهو واقف على الدَّابَّةِ، رقم الحديث 83، ص 22.

(3) - أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه كتاب المناسك، باب 57، باب من أتى عُرْفَةَ قَبْلَ الْفَجْرِ لَيْلَةَ جَمْعٍ، رقم الحديث 3015، ج2، المصدر السَّابِق، ص 1003، وأخرجه أحمد في مسنده، حديث عبد الرحمان بن يعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم الحديث 18677، ص 264. وقال: إسناده صحيح، والحديث رواه الترمذي 214/5، برقم 2975، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه النَّسَائِي، في المناسك، باب فرض الوقوف بعرفة، برقم 3016، 259/5.

(4) - أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب المناسك، باب 57، باب من أتى عُرْفَةَ قَبْلَ الْفَجْرِ لَيْلَةَ جَمْعٍ، رقم الحديث 3016، المصدر السَّابِق، ص 1004. وأخرجه أبوداود في سننه، تحقيق: رائد بن صبري بن أبي علفة، كتاب المناسك، باب من لم يُدْرِكْ عُرْفَةَ، رقم الحديث 1949، ص 251. وقال: حديث صحيح.

(5) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب تقضي الحائض المناسك، رقم الحديث 1650، ص 399. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام، رقم الحديث 1211، ص 873.

بُنُسَكَيْنِ^(*) وأرجع بأجر؟ فأرسلها مع أخيها عبد الرحمن، فأهلت بعمره من التَّعِيمِ⁽¹⁾ قال جابر بن عبد الله ﷺ: «كَانَ ﷺ رجلاً سهلاً؛ إِذَا هَوَيْتِ الشَّيْءَ، تَابِعَهَا عَلَيْهِ»⁽²⁾.

ب- ترغيب النبي ﷺ في الحج

رَغِبَ النَّبِيُّ ﷺ في عبادة الحج ودعا إلى أدائها مبيِّناً فضلها العظيم وخيرها العميم الذي أعدّه الله للحاج، فكانت هذه العبادة من أحبِّ الأعمال وأفضلها عنده ﷺ، وما يبلغ عظمها المسافة ما بين المشرق والمغرب وهو فضل لا يعدُّ ولا يحُدُّ، عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْحُجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ، قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا بَرُّ الْحَجِّ الْمَبْرُورِ؟ قَالَ: إِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَإِفْشَاءُ السَّلَامِ»⁽³⁾ وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ جَمَعَ إِلَيْهِ بَنِيهِ وَأَهْلُهُ فَقَالَ لَهُمْ: «يَا بَنِيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ حَجَّ مِنْ مَكَّةَ مَاشِيًا حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهَا كُتِبَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ سَبْعُمِائَةِ حَسَنَةٍ مِنْ حَسَنَاتِ الْحَرَمِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَمَا حَسَنَاتُ الْحَرَمِ؟ قَالَ: كُلُّ حَسَنَةٍ بِمِائَةِ أَلْفِ حَسَنَةٍ»⁽⁴⁾ وَعَنْ مَاعِزٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ سُئِلَ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَحْدَهُ، ثُمَّ الْجِهَادُ، ثُمَّ حَجَّةُ بَرَّةٍ تَفْضُلُ سَائِرَ الْعَمَلِ كَمَا بَيَّنَّ مُطْلِعُ الشَّمْسِ إِلَى مَغْرِبِهَا»⁽⁵⁾ والدَّاعِيَةُ لا يغفل عن هذه العبادة بأن يعطيها حظاً وافراً في دعوته، كما عليه الإعتناء بها كعنايته لسائر العبادات داعياً النَّاسَ إِلَيْهَا مبيِّناً الفضل العظيم الذي يحظى به الحاج والمُعْتَمِر في الحياة الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وهو يبذل المشاق ويتحمَّلُ عناء السَّفَرِ ووعثائه قاصداً هذه العبادة، ومن شِدَّةِ تَرْغِيبِ النَّبِيِّ ﷺ بِالْحَجِّ، فَقَدْ تَوَعَّدَ مَنْ كَانَ مُخْلِصًا فِي هَذِهِ الْعِبَادَةِ الْعَظِيمَةِ وَمُتَجَنِّبًا لِلَّهِوِ وَالرَّفَثِ وَالْفُسُوقِ وَالْجِدَالِ بِالْجَنَّةِ، فَعَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»⁽⁶⁾ وفي حديث آخر رسول الله ﷺ قال:

(*) - يَصْدُرُ النَّاسُ بُنُسَكَيْنِ: أي: يرجعون إلى بلادهم بُنُسَكَيْنِ، وهما عمرة وحجَّة وأرجع بنسك واحد وهو الحجُّ (المصدر نفسه، ص 877).

(1) - المصدر نفسه، ص 877.

(2) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام، رقم الحديث 1213، ص 882.

(3) - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب 79، باب فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، رقم الحديث 1349، ص 614.

(4) - أخرجه البيهقي في الشُّنن الكبرى، كتاب الحج، باب الرَّجُلُ يَجِدُ زَادًا وَرَاحِلَةً فَيُحِجُّ مَاشِيًا يَحْتَسِبُ فِيهِ زِيَادَةً لِأَجْرِ، حديث 8646، ج 4، المصدر السَّابِق، ص 541.

(5) - المسند الجامع، تحقيق: بشار عواد معروف وآخرون، باب 573 ماعز غير منسوب، حرف الميم، رقم الحديث 11298 (بيروت: دار الجليل، الكويت: الشركة المتحدة، ط 1، مج 15، 1413هـ/1993م)، ص 23.

(6) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، رقم الحديث 1521، ص 271.

«العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»⁽¹⁾ يقول الإمام النووي رحمه الله في شرحه: «وأما قوله ﷺ: والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، الأصح الأشهر: أن المبرور هو الذي لا يُخالطه إثم، مأخوذ من البر وهو الطاعة، وقيل: هو المقبول، ومن علامة القبول أن يرجع خيراً مما كان، ولا يعاود المعاصي، وقيل: هو الذي لا رياء فيه، وقيل: الذي لا يُعقبه معصية، وهما داخلان فيما قبلهما، ومعنى ليس له جزاء إلا الجنة: أنه لا يقتصر لصاحبه من الجزاء على تكفير بعض ذنوبه، بل لا بُدَّ أن يدخل الجنة»⁽²⁾.

و عليه يتعين على الداعية الاستفادة من دعوة النبي ﷺ إلى ترسيخ وبناء موضوعات

دعوته كالاتي

- إن دعوة النبي ﷺ اتخذت منهجاً عريقاً ولطيفاً في ترسيخ العقيدة وبناء الأخلاق وتحكيم الشريعة في قلوب المدعويين قولاً وعملاً، والداعية بدوره كرسول الدعوة فهو بمثابة الطبيب الذي يباشر معالجة أمراض القلوب، يقوم بتنقيتها من العقائد الزائفة، والأخلاق الرديئة، والأعمال القبيحة المكدر للقلب، ومن ثم تنقيتها من المهلكات فيعالجها بما يقويها من الطاعات حتى يُمكن الدّين في هذه القلوب، فلا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح آخرها.
- إن موضوع العقيدة الإسلامية أمانة في عنق كل داعية إلى الله تعالى، من أعطاهم القيادة والريادة في العمل الدعوي، هؤلاء مطالبون بالدفاع عنها وتنقيتها من مظاهر الشرك والوثنية الحديثة، يعلموه أبناء الأمة المسلمة، ويأصلوه في نفوسهم ويجعلوه علماً يدرسون من الصغر، لأجل أن يتكوّن لهذه الأمة جيلاً يحمل لواء العقيدة السليمة والصّافية، ويستطيعوا على ضوئها الانتصار على أعداء الإسلام من دعاة العلمانية والنصرانية والوثنية والجوسية وغيرهم كثير، والعمل بمقتضى العقيدة الصحيحة يحتاج من الداعية الصبر وقوة التحمل، فدعاة التوحيد بخلاف مع دعاة العقائد البالية في مصيرهم ذكره الله تعالى في قوله: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ^ط وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ^ط وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [النساء: 104].
- حينما يتأمل في هذا التتابع في العبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج يستوجب على الداعية من باب الإحاطة أن يقف على الأثر الهائل الذي يُحدثه الإسلام بهذا المنهج القويم في قلوب

(1) - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب وجوب العمرة وفضلها، رقم الحديث 1773، ص 427.

(2) - النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الحج، باب وجوب العمرة وفضلها، رقم الحديث 1773، مج 3، المرجع السابق، ص-ص 118، 119.

المدعويين، يصف أحدَ باحثي الشريعة وصفي عاشور أبو زيد هذا الأثر فيقول: (يزداد قرباً لله، وضياء وجه، وصفاء نفس وترشيد سلوك، وسموّ ذوق، وبياض قلب، ونور وجدان، وكذلك يقف على مدى الاستيعاب الروحي والإيماني والعبادي الذي يحوط المسلم من قوّة السّياج يحميه من الانحراف ويمنعه من الوقوف في براثن المعاصي)⁽¹⁾.

- إنّ الأخلاق التي دعا إليها النبي ﷺ وامتثل بها في كلّ لحظةٍ من لحظات حياته ودعوته، تعبيراً عن معلماً من معالم الإسلام العظيمة، وصورة من صوره الكريمة، فالصبر والحلم والحياء والرّحمة والتّعاطف والتّوّدّد جميعها من أخلاق النبي ﷺ، تجلّت في شخصيته ﷺ فزادته عفةً وحسناً وجمالاً، حتّى توفّرت فيه سائر نعوت الجلال والكمال، يقول عنه الإمام ابن تيمية رحمه الله: (ففي شريعته ﷺ من اللّين والعفو والصّفح ومكارم الأخلاق أعظم ممّا في الإنجيل، وفيها من الشدّة والجهد وإقامة الحدود على الكفّار والمنافقين أعظم ممّا في التّوراة، وهذا هو غاية الكمال؛ ولهذا قال بعضهم: بُعث موسى بالجلال، وبُعث عيسى بالجمال، وبُعث محمّد ﷺ بالكمال)⁽²⁾.

- وبمقارنة بأخلاق النّاس في الوقت المعاصر نلاحظها ليست كأخلاق النّاس الذين عاشوا النبي ﷺ وأخذوا منه الأصول على حقّها بل بعيدة كلّ البعد، والدّاعية حريّ به أن يستثمر هذا المنهج النبوي عند معالجته للقلوب عقيدةً وشريعةً وأخلاقاً، فيختار الطّريقة المثلى التي يجال بها الشّوائب التي لحقت من بعض الأخلاق، أو يوجّه الغايات والمقاصد المنحرفة في بعض الأخلاق، أو يجتهد في القضاء على الأخلاق الدّميمة بحكمة وعقلانية وبأسلوبٍ مؤثّر، والدّين كلّهُ مواقف خلقية في الأساس فدخل النّاس في الدّين ليس لأنهم اقتنعوا بعقولهم، وإنّما هناك الكثير ممّن تأثّروا بأخلاق الدّعاة، و لعودة الأمة إلى دينها وشريعته هو إلزامها بما صحّ عن النبي ﷺ من قولٍ أو عملٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ، تأخذ بشريعته الغراء وبأخلاقه الوضّاءة، فعاملُ ضياعها بضياع عقيدتها وأخلاقها وشريعته، والدّعاة ورثة عن النبي ﷺ، عليهم أن يقيموا هذا الدّين في أنفسهم قبل أن يقيموه في غيرهم، ويصلحوا ما يجب إصلاحه وما قصر عنه الرّأي، ويسعوا في الدّفاع عن دعوة الإسلام بكلّ الوسائل السّمعية والبصرية وبشئ وسائل الإتّصال والإعلام الحديثة، وبقصارى جهده من كلّ محاولات التّشويه والتّشكيك الحاقدة والمغرضة.

(1) - وصفي عاشور أبو زيد، رؤى مقاصدية في أحداث عصرية (دار المقاصد، د، ط، ج1، د، ت)، ص 254.

(2) - ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح (الرّياض: دار العاصمة للنّشر والتّوزيع، ط2، مج5، 1419هـ/ 1999م)، ص 86.

الخلاصة

- لقد كان هذا الفصل صفحةً من صفحات دعوة النبي ﷺ وبعض تطبيقاته في عرض موضوعات الإسلام بالمنهج العاطفي، وبرغم كل المحاولات لم أتمكن من إستقصاء جميع جوانب التطبيق النبوي في دعوته إلى العقيدة والشريعة والأخلاق، فاكتفيت ببعضها نظرًا لتشعب هذا الموضوع.
- وقد حاولت أن أقف على بعض العبر المستفادة والمستوحاة من هذا الفصل حتى يقف عليها الباحث أو الداعية إلى الله ليتدارك بعض الجوانب المهمة من دعوة النبي ﷺ، وهذا يتأتى طبعاً بالرجوع الإستزادة من أخبار السيرة النبوية والسنة المطهرة، لأن من خلالها تزداد الملكة العلمية والمعرفية عند دراسة حياة النبي ﷺ ودعوته، وما كان عليه من عبادات وأخلاق عالية، وما تيسر من جوانب مسارها أسلوباً ومنهجاً في حربه وسلمه وشدته وفرجه وسفره وإقامته وجميع أحواله، فهو القدوة والمثل المقوم لشخصية الداعية في تنمية مهاراته وقدراته الدعوية والأسلوبية تحديداً.
- كما سعى النبي ﷺ في بيان موضوعاته بمعاني وأساليب قريبة إلى الأذهان دون أن يجهدهم بالتكاليف والأعمال، فبدأ بالأهم في الدعوة ثم إنتقل إلى المهم منها، وعالج العقائد البالية بطريقة ليّنة وبأسلوب حسن وبموعظة بليغة تتقرب إليها الأفهام، ثم واصل في بيان الشريعة وترسيخ الأخلاق الحميدة.
- إن موضوعات دعوة النبي ﷺ جميعها متداخلة وملازمة لبعضها البعض تكاد لا تنفك عن بعضها البعض في بعض المواقف، فالشريعة لا تنفك عن العقيدة، لأن كليهما وجهان لعملة واحدة ولغاية واحد، والأخلاق هي التقوم العملي والسلوكي لكليهما، والنبي ﷺ ارتكز في البداية على التوحيد لأنه الأصل الذي تقوم عليه الشرائع.
- لقد كانت دعوة النبي ﷺ في بيان موضوعات الدعوة بمنهج عاطفي ثري ولين، والأمر بها كان بارزاً وبأدلة قريبة إلى أذهان المدعوين، دون أن يكلفهم أو يشق عليهم أو ينقرهم من الدين، فرغبهم بها مراعيًا حالهم وظروفهم.
- تجلّت سنة التدرج بإحكام في دعوة النبي ﷺ وفي كل مرحلة من مراحل دعوته، فكان البدء بالتوحيد، وبدعوة الأقربين، ثم فرض التكاليف الشرعية، وكانت طبيعة تدرجه في مراعاة بيئة الدعوة، ومراعاة أحوال المدعوين وظروفهم.

- تمثلت دعوة النبي ﷺ أساساً عنايته بالأخلاق والقيم الفاضلة، فشملت كل الأحوال وجميع المجالات، وفي كل صغيرة أو كبيرة، وفي كل موقف أو حدث معين، مشيراً إلى أن قوة الدّاعية تظهر من خلال التزامه بالأخلاق العالية، وعلى رأسها الحكمة والرّحمة والشفقة والتّواضع والصّبر والمعاونة والمواساة.

في خاتمة الدراسة أسأل الله العظيم أن يجعلها خالصةً لوجهه الكريم، وأن ينفع بها عباده الصالحين من الدعاة وغيرهم.

وبعد هذه السيّاحة الواسعة في دعوة النبي ﷺ، والوقوف على أساليبه العاطفية المستخدمة في هذه المسيرة الدعوية وموضوعاته وأصناف مدعوّيه، أخلص إلى عدد من النتائج أهمّها:

أولاً: ما يتعلّق بالمنهج العاطفي

- إنّ دراستي تميّط اللثام عن نقاطٍ مهمّة في التّعامل البشري والاتّصال الإنساني، غفل عنه كثير الدّعاة، وهو الدّعوة إلى الله بالمنهج العاطفي، القائم على خصائص ودعائم نبويّة .

- امتاز المنهج النبوي العاطفي في الدّعوة إلى الله بالأثر البالغ الذي أحدثه في استمالة قلوب المدعوين .

- إن المنهج العاطفي في الدّعوة إلى الله منهج ربّاني، فكان أكثر المناهج حضوراً في دعوات الأنبياء عليهم السّلام، وقد وقفت الدراسة على مواقف كثيرة ومشاهد رائعة استخدم فيها النبي ﷺ هذا المنهج .

- كشفت الدراسة عن جاذبيّة الأسلوب النبوي من عقّة لسان، وطيب قلب، ولين جانب، وقوّة إرادة في كسب قلوب المدعوين على اختلاف عقائدهم ومشاربهم، ممّا جعلهم أسارى هذا الدين قناعة وحبا وهياما .

- الاطّلاع على منهج النبي ﷺ العاطفي في عفوه وصفحه، ورفقه وحلمه وأناته وشجاعته وجودهش وكرمه، من أعظم ما يزخر به تاريخ الدّعوة إلى الله، ومن أهمّ ما يفيد الدّعاة اليوم في حياتهم الشّخصية والدّعوية .

- الاستفادة النّاجعة والمرجوة من دعوة النبي ﷺ واستخدامه للمنهج العاطفي أمرٌ يتطلّب التّوفر على أبواب واضحة الصّيّغة غنية المضمون، لاستخراج الوسائل والأساليب العاطفية، ولا أحسب أنّ ذلك يتأتّى إلّا بالاعتماد على تحليل النّصوص وضبطها .

- وجوب التّركيز على أمور مهمّة لنجاح الدّعوة المعاصرة :

• الاهتمام بالجانب العاطفي والذي ينحى منحاه الأسلوب النبوي بالتّوازي مع تكوين وإعداد دعاة متّزنين قادرين على تمثيل الدّعوة الإسلامية المعاصرة .

• الاهتمام بالجانب الأخلاقي باعتباره العنصر التّطبيقي والصورة العملية التي تمثل المنهج العاطفي .

- الاهتمام بالجانب الأسلوبي في مخاطبة المدعويين بما يتلاءم مع ظروفهم وأحوالهم وحاجاتهم ، واختيار أنجع الأساليب ولاسيما الأساليب العاطفية وتحديدًا تلك التي نهجها النبي ﷺ كأسلوب المداراة واللين والرّفق والتّحبيب .
 - الاهتمام بالجانب الإيماني لكونه يمثل الرّكن الأقوى في بناء الدّاعية إلى الله، وقد ظهر أثره وجماله في دعوات الأنبياء عليهم السّلام عمومًا والنبي ﷺ تحديدًا ، فاعتنى به ﷺ في إعداد صحابته من خلال الدّراسة .
 - الاهتمام بالجانب الفكري والثّقافي ، والعمل على رفع مستواه، مع مراعاة تطوّر الزمان، والابتعاد عما يسبب الجمود في التفكير، حتّى يكون حجّة قويّة في الدّعوة إلى الله .
 - أهميّة انتقاء الأسلوب الأمثل والمضمون الأنجع الذي يتناسب مع أصناف المدعويين .
 - عدم الاعتماد على طريقة واحدة في الدّعوة إلى الله، بلّ يجب تنوّع الأساليب ممّا سيكون لها الأثر الكبير في سرعة إستجابة المدعويين .
 - كثرة الأساليب الدّعوية التي تستعمل ضمن نطاق الدّعوة إلى الله بالمنهج العاطفي .
 - أهميّة استخدام المنهج العاطفي في الدّعوة إلى الله حسب الصّنف المخاطب مسلمين و كفار ، ثمّ بالتّفريق بين المسلم الملتزم والمفرط، ثمّ بين أهل الكتاب وغيرهم .
 - هذا المنهج العاطفي كان شاملاً لكافة مجالات الدّعوة عقيدة وشرعية وسلوكا .
 - أهمية استخدام المنهج العاطفي في معالجة القضايا التشريعية والعقائدية والأخلاقية ممّا كان له الأثر البالغ في الإقناع بها، أو تصحيح ممارستها، أو تعديل النّظرة إليها .
- ثانيًا: ما يتعلّق بالدّاعية**
- إنّ زاد الدّاعية هو أمر أساسي لتوليد الحكمة وتركيتها، وخام هذا الزّاد لا يكون إلّا من دعوة النّبي ﷺ لأنّها من صنوّ القرآن لا تنفك عنه، وأنّها المبيّنة والموضّحة لآيات القرآن الكريم.
 - منوط بالدّاعية التّحلّي بأخلاق النّبي ﷺ من صبرٍ وحلمٍ ورحمةٍ، مع إحتماله ما يصيبه في دعوته وعدم الزّجر والتّضجّر، لأنّ الأخلاق أبلغ في التأثير والتّغيير للقلوب.
 - واجب الدّاعية تطوير أساليبه بما يتماشى مع واقعه كما تماشى النّبي ﷺ مع واقع مكّة والمدينة يعرض محاسن الإسلام بصورة ليّنة وميسّرة.

- يتوجَّب على الدُّعاة في أيِّ زمانٍ ومكانٍ اقتفاء أثر النَّبي ﷺ في منهجه ودعوته وأقواله وأفعاله وأساليبه التي لا يسبقه أحد في إتقانها وعرضها بأروع الصُّور والمواقف.
- إنَّ دعوة النَّبي ﷺ كانت شاملة كافية ووافية فلا نجدُ موضوعًا أو جانبًا من جوانب حياة المسلم عمومًا والدَّاعية على وجه الخصوص إلَّا وكانت له وقفة ودعوة من عقيدةٍ وشريعةٍ وأخلاقٍ صالحة لكلِّ زمانٍ ومكانٍ.
- على الدَّاعية مراعاة أحوال المدعوِّين واختيار أساليب مناسبة ولاسيما أساليب المنهج العاطفي التي باستطاعتها أن تؤثر فيهم.
- عناية الدُّعاة بالمنهج العاطفي تأصيلًا وعلمًا وعملاً أمر مهمٌّ في الدَّعوة إلى الله، لأنَّ الدَّعوة في ضوء هذا المنهج فيه إثارة للعواطف وإلهابها بما فيها عاطفة الحبِّ وعاطفة الرَّغبة وعاطفة الرَّهبة وعاطفة الرحمة وعاطفة البغض، فهو بواسطته يغرس في النفوس حبَّ الله تعالى وحبَّ نبيِّه والتَّصديق برسالته ويغض كل ما يخالفهما ويحيطها بسياج قويٍّ من التَّربُّع والترهيب فيربط القلوب ويوثق صلتها بالله .
- على الدَّاعية أن يعتني في دعوتِه بكلِّ شيءٍ مشروع يوجِّه العاطفة نحو الخير ويوصل صاحبها إلى رضوان الله والفوز بالثَّواب الذي أعدَّه الله للسَّابِّقين إلى الخير.
- عند تقصِّي الدَّاعية لأساليب المنهج العاطفي يجدُ أنَّ اللَّين والرَّفق والموعظة الحسنة من أنجع وأعمَّ أساليب الدَّعوة على الإطلاق .

التَّوصيات

- الدَّعوة إلى إجراء دراسات تتعلَّق بدعوات الأنبياء عليهم السَّلام لما في ذلك من الفائدة العظيمة للدَّعوة كمنهج والدَّعاة كأخلاق.
- إدراج مادَّة علم النَّفس السُّلوكي والاتِّصال البشري بما يتلاءم مع كلِّ طور في المؤسَّسات التَّربوية والدَّعوية ومراكز التَّسمية البشرية بالنَّهل من هذا المنهج النَّبوي.
- أن يعي الدُّعاة قراءة المشاعر وتحليلها فلغة العواطف قلَّما من يفقهها ويحسن التَّعامل معها ، فأوصي بضرورة تسلح الدعاة بالزاد الذي يؤهلهم إلى هذه الغاية .

- أوصي الدعاة الإهتمام بجمال الأسلوب في عرض الدعوة عرضاً راقياً متفهماً يخاطب العواطف ويصيبها، فيغلب عليه حرصه على المدعو أهم من أي شيء يراعي أحواله ويتعرف على الظروف المحيطة به لتنويع الأسلوب وجماله ولطفه من أسس الدعوة وعوامل نجاحها.
- أوصي من يتولى القيادة والريادة في الدعوة سواء على مستوى الحركات الإسلامية والجمعيات الخيرية والمعاهد التربوية أن ينهل معالم القيادة من خير الأنام وكيف يتعامل مع أفراد بذكاء وعاطفة قوية.
- تطوير الأساليب من خلال معرفة الواقع والمجتمع الذي يعيش فيه، والاستفادة من كل الإمكانيات المتاحة والتي تساعد على نشر الدعوة ويكون ذلك بعرض مبادئ الإسلام وبيان محاسنه بصورة راقية مصدر قوتها من السيرة العطرة والسنة المطهرة.
- القيام بدورات تدريبية للدعاة والمرشدين والقادة في الاتصال الإنساني الناجح وفنيات الحوار وتقنيات التأثير انطلاقاً من هذا المنهج.
- دعوة الباحثين إلى مزيد تعمق في دراسة المناهج الدعوية في الرسائل الجامعية.

والله الموفق

